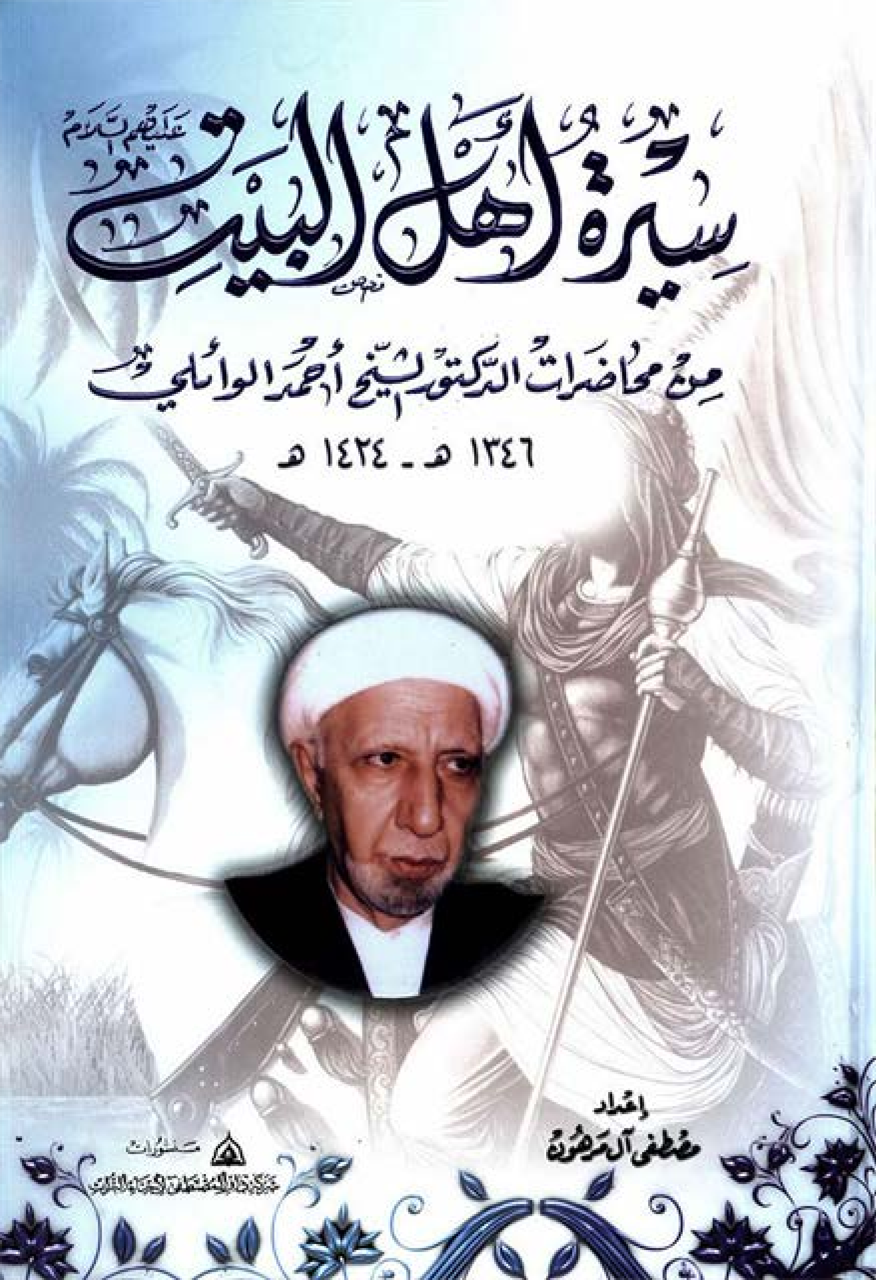

سيرة أهل البيت عليهم السلام
من محاضرات الدكتور الشيخ أحمد الوائلي
١٣٤٦ هـ - ١٤٢٤ هـ
إعداد
مصطفى آل مرهون
منشورات


سيدة أهل البيت
من محاضرات الدكتور الشيخ أحمد الوائلي


بسم الله الرحمن الرحيم



من محاضرات الدكتور الشيخ أحمد الوائلي رحمه الله

١٣٤٦هـ - ١٤٢٤هـ

إعداد

مصطفى آل مرهون

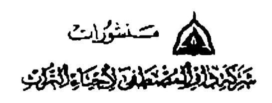
الجزء الثالث

منشورات

شركة دار المصطفى لإحياء التراث

الطبعة الأولى
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

يطلب من:
لبنان - بيروت - جادة السيد هادي - مفرق الرويس - بناية اللؤلؤة ط١ -
هاتف: ٠٠٩٦١١٥٤٠٦٧٢ - ٠٠٩٦١٧٠٠٦٦٦٩١
سوريا - ص.ب: ٧٣٣ - السيدة زينب محمول: ٠٠٩٦٣٩٤٤٣٥٦٥٨٤ و٠٩٩٤٠٧٣٥٥٤
مؤسسة المصطفى: إيران - قم - خ سمية - ١٦ متري عباس آباد بلاك ٢٤
هاتف: ٧٧٣٨٨٥٥ - ٠٠٩٨٢٥١
البريد الإلكتروني: E-mail: mnmnmn3@hotmail.com



الفصل السابع

أهل البيت ﷺ



﴿٤٩﴾

اصطفاء أهل البيت عليهم السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[١].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: في معنى الاصطفاء

الاصطفاء: هو الانتقاء والتفضيل، أي أن الإنسان أو المصطفي عامّة يختار من يريد لهدفه الذي يضعه. وهو فعل يتعدّىٰ علىٰ نحوين؛ فتارة يتعدّىٰ بـ(من) وتارة يتعدّىٰ بـ(علىٰ)، فتعديه بـ(من) مثاله قولنا: اصطفاه من الناس ـ أي اختاره منهم ـ ومثال تعديه بـ(علىٰ) قولنا: اصطفاه عليهم، أي فضّلهُ عليهم. والآية مقام البحث من المعنى الثاني، فقالت: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي فضّلهم على العالمين.

وهنا أمر ينبغي التأكيد عليه هو أن في الآية قراءة أُخرىٰ ينقلها أبو حيّان التوحيدي في تفسيره (البحر المحيط) فيقول حينما يصل إلىٰ هذه

---

(١) آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤.

الآية: (إن في الآية قراءتين: إحداهما عن أهل البيت النبوي، والأُخرىٰ عن ابن عباس.: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بإضافة (آل محمد).

والواقع أن هذه الزيادة حتىٰ ولو لم تكن موجودة إلّا إن آيات أُخرىٰ تتناول هذه المنزلة العظيمة لهم وتعطيهم إيّاها، وسنشير إلىٰ بعضها إن شاء الله. غير أن الذي أودّ قوله هو أننا لا نصرّ علىٰ هذه الزيادة أو هذه القراءة؛ لأننا لا نريد أن يكون في القرآن شيء زيادة عمّا هو مرسوم في المصحف المتداول بين الناس؛ وهو المعبّر عنه بـ(ما بين الدفّتين)، فليس هناك رأي عندنا يُعتمد عليه يقول بالزيادة أو النقيصة في القرآن (معاذ الله)، بل حتى الشيخ الكليني رحمه الله الذي يُنقل عنه أن عنده روايات في (الكافي)[1] توهم التحريف، فإن ذلك النقل لا يعدو أن يكون حملات كبيرة ضدّه، وإلّا فإن الشيخ رحمه الله في (الكافي) يضع شرطاً في مقدّمته يقول فيها: «فاعلم يا أخي أرشدك الله، أنه لا يسع أحداً تمييز شيء مما اختلف الرواية فيه عن العلماء برأيه إلّا على ما أطلقه العالم عليه السلام بقوله: «اعرضوها على كتاب الله؛ فما وافق كتاب الله عزّ وجلّ فخذوه، وما خالف كتاب الله فردّوه»...»[2]. فروايته لهذه الأحاديث من باب التاريخ للرواية وإلّا فإنه رحمه الله لا يذهب إلى التحريف، وحاشاه من ذلك وكذلك ليس عندنا من يذهب إلى التحريف.

هل يقول أهل السنة بالتحريف؟

وأُحبّ أن أُشير هنا إلىٰ أمر هو أن أحدهم قبل فترة تحدّاني في إحدىٰ

---

(١) انظر مثلاً الكافي ١: ٢٢٨ ـ ٢٢٩ / باب أنه لم يجمع القرآن كله إلّا الأئمة عليهم السلام.

(٢) الكافي ١: ٨.

المجلات حيث قال: (أتحدّىٰ أن يجد الوائلي قولاً لأهل السنة بالتحريف)، وأنا أقول: إني علىٰ استعداد لأن أعطيه مئة قول في ذلك وليس قولاً واحداً مع إرشاده إلىٰ مصادر ذلك إن أحبّ. ولعلّ أبسط المصادر وأقربها هو كتاب (الإتقان) للسيوطي في باب عدد سور القرآن وآياته وحروفه حيث ينقل عن الخليفة الثاني رأياً مفاده أن عدد حروف القرآن يبلغ مليوناً وسبعة وعشرين ألف حرف[١]، ومعنىٰ هذا أن القرآن الذي يذهب إليه الخليفة الثاني قد ضاع ثلثاه لأن ما هو موجود في القرآن الحالي يقرب من ثلث هذا العدد. وكذلك قرآن أُبي فإن عدد السور فيه مئة وستّ عشرة سورة؛ في حين أن إجماع علماء المسلمين علىٰ أن عدد سور القرآن مئة وأربع عشرة سورة. وهاتان السورتان يرىٰ أنهما لم تكتبا، وأنهما قد سقطتا ويسميهما سورة (الخلع) وسورة و(الحفد)، وكان يقنت بهما أُبي والخليفة الثاني نفسه[٢]، وهذا الأمر موجود ومنصوص عليه.

وكمثال آخر سورة (براءة) فقد روىٰ الهيثمي في (مجمع الزوائد)[٣] والحاكم في (المستدرك)[٤] أن حذيفة قال: تسمون سورة التوبة هي سورة العذاب وما يقرؤون منها مما كنّا نقرأ إلّا ربعها.

وغيرها كثير، وأنا مستعدّ لأن أرشد هذا المتحدّي إلىٰ عشرات المصادر، التي تنقل وقوع التحريف، مع أنني حينما أُرشد إلىٰ هذه

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ١: ١٩ / ٩٧١.
(٢) الإتقان في علوم القرآن ١: ١٧٦ / ٨٣٢، ١٧٨ / ٨٤٣.
(٣) مجمع الزوائد ٧: ٢٨.
(٤) المستدرك على الصحيحين ٢: ٣٣١، قريب منه.

المصادر لا أقصد من هذا أني أؤكّد أن المذاهب الإسلاميّة الأُخرىٰ تتبنّىٰ وقوع الزيادة في القرآن، حاشا فنحن لا نهرّج في هذا وأمثاله؛ إذ ليس ذلك من أسلوبنا، بل إني أحاول أن أشير إلىٰ نقطة هي أن بعض أتباع هذه المذاهب حتىٰ ولو أخبره الله علىٰ لسان أنبيائه بأن هؤلاء (الشيعة) ليس لهم غير هذا القرآن الذي هو عند عامّة المسلمين يتداولونه قراءة وتفسيراً لاعترض عليه وعليهم ناسباً إياهم إلى الاشتباه. ومثل هؤلاء المغرضين قد جعلوا هذا التشنيع والتشهير وسيلة يعتاشون بها، لكن علىٰ رَغم أنوف هؤلاء ستبقىٰ وحدة الصفّ الإسلامي قائمة متماسكة، وهؤلاء الذين يريدون أن يعيشوا علىٰ أنقاض الوحدة الإسلاميّة فإن ربّك لهم بالمرصاد.

أعود إلىٰ موضوع البحث فأقول: إن مثل هذه الزيادة لا تثبت في القرآن ولم تثبت عندنا مع أنها موجودة في الرواية، فضلاً عن أننا لم نكن الراوين لها بل غيرنا هو الذي يرويها ويثبتها. ونحن نقول إن أهل البيت عليهم السلام ليسوا بحاجة إلىٰ إثبات أن هذه القراءة لهم أو غيرها كي نثبت تفضيلهم على الناس واصطفاءهم من الله جلّ وعلا، بل نقول: إن آية التطهير: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[1] تكفيهم في المقام. وأما الادّعاءات الأُخرىٰ فإنها تطرح ولا حاجة بنا إليها؛ فإن أهل البيت عليهم السلام لهم مكانتهم المؤطّرة في قلوب محبيهم وهي مكانة مستمدّة من القرآن والسنّة والواقع.

المبحث الثاني: لماذا اصطفى الله من ورد ذكرهم في الآية؟

ولنبيّنْ لماذا اصطفى الله هؤلاء المذكورين على الناس وفضّلهم

(١) الأحزاب: ٣٣.

عليهم، فلابد من سبب يوجب ذلك الاصطفاء ومن وجود مزيّة فيه غير موجودة في غيره، وإلّا فإن الترجيح بلا مرجّح باطل ضرورة. ولو نظرنا إلىٰ بعض الجوانب التي تكتنف حالة وحياة هؤلاء المذكورين لعرفنا أن المرجّح لذلك موجود:

أما آدم عليه السلام فإنما اصطفاه الله تعالىٰ لأنه النبوّة الأولىٰ في الأرض، فهو يمثّل الحلقة الأولىٰ من حلقات الارتباط بين السماء والأرض وصلتها بها، وهي النبوّة فضلاً عن كونه أبا البشر، وغير ذلك من الأسباب الكثيرة الموجبة لترجيح اصطفائه عليه السلام.

المبحث الثالث: هل إن الله هو من أوجد مرجّحات الاصطفاء؟

وقد يعترض معترض فيقول: إن هذه المرجّحات التي تدّعون وجودها عند الأنبياء، من الذي أوجدها فيهم؟ أليس هو الله؟ فإن كان كذلك فإن الترجيح حينئذٍ يبطل لأن الله قد أودع فيهم هذه المرجّحات ثم اختارهم علىٰ ضوئها، فالاختيار هنا وقع بعد إيداع المرجّح في المصطفىٰ، فالاختيار لم يأتِ في رتبة متأخّرة عن وجود المزايا أي أنه لم تكن هذه المرجّحات موجودة فيهم بإرادتهم.

فنقول: إن وضع هذه المزايا والمرجّحات فيهم هو الاختيار، ولتقريب المعنىٰ أكثر نضرب لذلك مثلاً هو المعادن الكثيرة الموجودة في الأرض وهي تتراوح وتتفاضل بين الخسّة والجودة حيث تنتهي عند الذهب الذي ميّزه الله تعالىٰ عن غيره من المعادن. وبهذه المناسبة أود أن أذكر بيتاً من قصيدة الازري رحمه الله يخاطب فيه الإمام عليه السلام حيث يقول:

أنت من جوهر وهم حصباء[1] ... معدن الناس كلّها الأرض لكن

---

(1) الأنوار العلويّة (الشيخ جعفر النقدي): ٣٤٨، والبيت للشيخ صالح التميمي الحلي من

فالمعدن الذي خلقه الله مميّزاً هو هذا الاصطفاء.

وأما اصطفاء نوح (ع)، فلأنه الأب الثاني للبشر، فكأنه تأسيس ثانٍ للأرض في عهده بعد الطوفان.

وأمّا اصطفاء آل إبراهيم (ع) فلخصائص ومرجّحات سوف نستعرضها أثناء البحث القادم. والبحث هنا طويل أحاول أن أوجزه، فنقول: هل إن اصطفاء آل إبراهيم هو اصطفاء لكلّ الآل أم لجماعة مخصوصة منهم؟ والجواب أن الاصطفاء لبعضهم قطعاً وليس لهم كلّهم، بدليل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾[1].

وتلاحظ دقّة التعبير في قوله: ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ فـ﴿مِن﴾ تبعيضيّة، أي بعض ذرّيّتي وليسوا كلهم. فمَن هؤلاء البعض من الذريّة؟ طبيعي أن يكونوا هم الصفوة التي خصّها الله بقوله: ﴿لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[2] بعد أن خاطبه إبراهيم (ع) بقوله: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾[3].

فهؤلاء هم طبقة خاصة مؤهّلة لتسنّم مركز الإمامة والزعامة في المجتمع، وهم المصطفون على الناس.

المبحث الرابع: قانون الوراثة ودوره في عمليّة الاصطفاء

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾[4] وهنا أحبّ أن أشير إلى نقطة هي أن الآية هنا تثبت إيماءة حول قانون الوراثة في عمليّة الاصطفاء هذه، وهي قوله: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾، فـ﴿ذُرِّيَّةً﴾ هنا بدل ﴿آل﴾ المضافة في الآية في المرحلتين المارّتين، فالاصطفاء مشى في الذريّة بالتسلسل؛ لأن هذه الذريّة بعضها من بعض، أي أن هذه الخصائص تنتقل من الأب إلى الابن، ومن الابن إلى ولده، وهكذا وفق هذا القانون المسمّى بقانون الوراثة،

قصيدة طويلة له.

(١) و (٣) البقرة: ١٢٤.

(١) إبراهيم: ٣٧.

(٤) آل عمران: ٣٤.

ووفق هذه الإيماءة التي أشارت إليها الآية الكريمة.

ولنوضح بإيجاز معنىٰ قانون الوراثة فنقول: إن علماء الاجتماع وعلماء النفس حينما يعرّجون علىٰ موضوع الشخصيّة يعرفونها بقولهم: «هي المجموع الصفاتي المميّز للفرد عن غيره»، وهذا المجموع يأتي من قوانين الوراثة وقوانين المحيط أو البيئة الطبيعيّة، ويعنون بها معناها الأوسع، كالتربية والثقافة والمعرفة... إلىٰ آخره، وبتفاعل هذين القانونين يتشكّل موحّد نسميه الصفات الوراثيّة التي تميز الشخصيّة وتقوّمها.

إذا عرفنا هذا فلنشر إلىٰ أن قانون الوراثة هل هو أمر مستحدث في العلم، أي أن العلم تنبّه إليه في عصوره المتأخّرة، أم أن هناك إشارات إليه في العلوم السابقة؟ نعم هناك إشارات سابقة إليه في تاريخ العلم، ولنتناولها مرحلة مرحلة:

أوّلاً: قانون الوراثة في التراث العربي قبل الإسلام

الإشارة إلىٰ قانون الوراثة في التراث العربي قبل الإسلام. فالعرب تنبّهوا إلىٰ ذلك منذ القدم، فهذا شاعرهم يقول:

بأبه اقتدىٰ عدي في الكرمْ ومن يشابهْ أبَه فما ظلمْ[1]

وبالمناسبة أنقل لك واقعة هي أن سعيد بن صعصعة بن صوحان العبدي الليثي كان له ولد اسمه ميمون، فكان يخرجه معه ويرقّصه قائلاً:

أحبّ ميموناً أشدّ حبّ أعرف فيه شَبهي ولبّي

ولبّه أعرف منه ربّي

والعرب يقولون: فلان ينظر بعين أبيه، ويتكلّم بلسان أبيه، أي أنه عنده

---

(١) كشف الخفاء (العجلوني) ٢: ٣٣٨ / ٢٩١١، شرح ابن عقيل ١: ٥٠ / ٥.

خواصّه الوراثيّة. وكذلك يقول شاعرهم:

من يزرع الشوك لا يحصد به عنباً[(١)]

وهو ما يعبّر عنه بـ(تماثل النسل مع الأصل) بخواصّه، فهو يأخذ من تربيته ومن أخلاقه ومن خواصّه الوراثيّة.

والمسعودي ـ وهو مؤرّخ له تقديره عند المؤرّخين الغربيّين، حيث إنهم إذا مرّوا عليه قالوا: هذا هيرودوت العرب، أي أنه أبو المؤرّخين العرب؛ لأنه مؤرّخ شامل وتواريخه منظّمة إلىٰ حدّ ما ـ عقد فصلاً في كتابه (مروج الذهب) يصف فيه الولد الذي يجيء من أُم عربيّة ومن أُم روميّة ومن أُم فارسيّة، ويحدّد صفاته الوراثيّة.

ومعرفة العرب بهذا القانون في ذلك الوقت ليست معرفة علميّة، بل هي معرفة يمكن تقريبها بمثال هو أننا نعرف مثلاً أن في الجزيرة العربيّة نفطاً، أما طريقة استخراجه وكيفيّة فصل مكوّناته الأساسيّة للاستفادة منها فهذا ما لا نعرفه. وهذا ما ينطبق علىٰ معرفة العرب بقانون الوراثة فهم لا يدركون منه أكثر من تماثل النسل مع الأصل، بل إن هذه الكيفيّة من المعرفة بهذا القانون كانت موجودة حتىٰ عند الغربيين حتىٰ جاء مندل وغيره ممّن وضعوا أُسس وضوابط هذا القانون.

ثانياً: قانون الوراثة عند المسلمين

الإشارة إلىٰ قانون الوراثة عند المسلمين. ولنبدأ هنا بهذه الرواية التي تقول: إن الرسول صلى الله عليه وآله كان جالساً بين أصحابه وإذا بأعرابي يدخل عليه

---

(١) عجز بيت لصالح بن عبد القدّوس، وصدره:

إذا وترت امرأً فاحذر عداوته

انظر تاريخ مدينة دمشق ٢٣: ٢٥٥.

وهو يجرّ وراءه امرأة فقال: يارسول الله، إن زوجتي هذه خانتني. فقال له: «كيف عرفت ذلك؟». فقال: جاءت لي بولد أبيض أشقر الشعر، وأنا داكن وهي كذلك. فقال له النبي صلى الله عليه وآله: «على رسلك، هل عندك إبل؟». قال: نعم. قال: «هل ضربت الفحول بالإناث؟». قال بلى. قال: «هل ولد عندك فصيل لا يشبه أمّه ولا أباه؟» قال: بلى. قال صلى الله عليه وآله: «نزع به عرق». فقال: بلى يارسول، الله السمع والطاعة. فأخذ ابنه وذهب.

وهذا قانون وراثة صريح، وفي القرآن أصرح من ذلك، كقوله تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾[1] وعند الرجوع إليه في كتب التفسير[2] نجد إشارات واضحة إلى قانون الوراثة، وهو ما يوحي بالإعجاب؛ لأن الإسلام يشير إلى ما اكتشف مؤخراً إشارات قبل ألف سنة.

المبحث الخامس: قانون الوراثة ودوره في نشأة الحسين عليه السلام

إذا عرفنا هذا فلنرجع إلى الصفات التي أخذها الحسين عليه السلام تبعاً لهذا القانون، وقبل هذا نودّ أن نؤكّد على حقيقة أن الشخصيّة إنما تصنعها التربية والحضارة وما يتحدّر من الوراثة. والحسين عليه السلام قبل كلّ شيء هو ابن رسول الله صلى الله عليه وآله القائل: «كلّ بني أمّ ينتمون إلى عصبتهم إلّا بني فاطمة فإنني أنا أبوهم»[3]، أي أن كلّ أبناء رجل لا ينتمون إلى أهل زوجته بل إلى أهله

---

(١) الانفطار: ٨.

(٢) التبيان ١٠: ٢٩٢، جامع البيان: المجلّد ١٥، ج ٣٠: ١٠٩، الجامع لأحكام القرآن ١٩: ٢٤٧.

(٣) مجمع الزوائد ٤: ٩٩، المعجم الكبير ٣: ٤٤ / ٢٦٣٢، تهذيب الكمال ١٩: ٤٨٣، ٤٨٤، وغيرها كثير.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن الله لم يبعث نبياً إلّا جعل ذريته من صلبه غيري؛ فإن الله جعل ذريتي من صلب علي». انظر كشف القناع (البهوتي) ٥: ٣٢، الفقيه ٤: ٣٦٥، وقال: «لكلّ بني أب عصبة ينتمون إليه إلّا ولد فاطمة أنا عصبتهم». نيل الأوطار ٦: ١٣٩، كنز العمّال ١٢:

هو؛ لأن هذا هو نتيجة قانوني الوراثة والتربية. فلماذا هذا الإصرار إذن من الرسول الأكرم ﷺ حول أبناء فاطمة عليها السلام؟ وما الذي يريد ﷺ قوله؟ الحقيقة أنه ﷺ كان يعلم بما سيجري بعده على الحسين وأبناء الحسين عليهم السلام، ولذا نجد أن العروش التي عاصرت أهل البيت عليهم السلام ـ وهي عروش الأمويّين وعروش العباسيّين ـ كان الجالسون عليها يحاولون بشتّى الوسائل أن يبعدوا الحسنين عليهما السلام عن رسول الله ﷺ، ونفي نسبتهما له وإثبات نسبتهما لعلي عليه السلام. والغرض الوحيد الكامن وراء هذه المحاولة هو نفي الخلافة عنهما وعن أبناء الحسين عليه السلام؛ لأنهم إذا اثبتوا أنهم أبناء الرسول ﷺ، فهذا يعني أنهم أصحاب الخلافة الشرعيّة ووارثوها الحقيقيّون، وليس غير ذلك، ولم يهمّهم من الأمر أكثر من هذا.

ولذا نجد أن النبي ﷺ يؤكّد على هذا المعنى كثيراً لأنه كان ينظر من وراء الحجب، ومن عالم الغيب، فكان يكثر من قول: «ابناي»[١]. ولولا ذلك لكان معنى قول الرسول ﷺ: «حسين منّي وأنا من حسين»[٢] تحصيل حاصل؛ لأن كلّ إنسان يعرف أن الولد ابن أبيه فلا داعي لذكره من قبل الرسول ﷺ؛ لأنه جزء منه، لكن الإصرار منه ﷺ؛ لأنه يريد أن يؤكّد

---

٩٨ / ٣٤١٦٨، تاريخ مدينة دمشق ٣٦: ٣١٣.

(١) تحفة الأحوذي ١٠: ١٨٧، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥١٢ / ٢٢، خصائص أمير المؤمنين (النسائي): ١٢٣، صحيح ابن حبان ١٥: ٤٢٣، المعجم الصغير ١: ٢٠٠، كنز العمّال ١٣: ٦٧١ / ٣٧٧١١، تاريخ مدينة دمشق ١٣: ٢٥، ٢٦، ١٩٩، ١٤: ١٥١، ١٥٥ تهذيب الكمال ٦: ٥٥، وغيرها كثير.

(٢) تحفة الأحوذي ١٠: ١٩٠، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥١٥، صحيح ابن حبان ١٥: ٤٢٨، المعجم الكبير ٣: ٣٣، ٢٢: ٢٧٤، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ١٤٩، تهذيب الكمال ٦: ٤٠٢، ١٠: ٤٢٧، تهذيب التهذيب ٢: ٢٩٩، البداية والنهاية ٨: ٢٢٤.

سنخيّة الحسين عليه السلام له؛ لأن «من» هنا سنخيّة لبيان النوع والجنس. وبتعبير آخر: هو ممّن يحمل صفاتي وأخلاقي وآدابي وعلمي. وهذا الأمر قد تنبّه له عمر بن سعد يوم الطفّ حيث قال مخاطباً جيشه: إنه لو وقف فيكم هكذا يوماً كاملاً لما حصر؛ فإن بين جنبيه نفس أبيه[١].

الوراثة الانفعاليّة

فالحسين عليه السلام أخذ من هذين القانونين كليهما: من قانون التربية، ومن قانون الوراثة أو ما نسميه الوراثة الانفعاليّة، أي وراثة الانفعالات التي تحصل للأمّ أثناء حملها بابنها، فمن المعلوم أن الحامل تنفعل بالأجواء التي تعيشها وينعكس هذا الانفعال على جنينها، فالتي يقع حملها في فترة حرب تنعكس انفعالات الحرب وآثارها ومؤثّراتها على جنينها، وكذلك التي يقع حملها في فترة سلم أو ما شاكل ذلك. وهذا وقع للحسين عليه السلام حيث إن الزهراء عليها السلام كانت حاملاً به في موقعة أُحد حينما قتل حمزة وغيره من شهداء الإسلام وخيرة الصحابة، وكان يسود المدينة وأبياتها حزن وجوّ من الكآبة والهمّ، وكانت الزهراء عليها السلام جزءاً من هذا الجوّ فكانت تعيش الألم والحزن والمعاناة، وقد انعكس هذا واضحاً على الحسين عليه السلام، فقد أخذ الجدّ والحزم والشجاعة.

التربية وأثرها في الدفاع عن العقيدة

وأما من ناحية التربية، فواضح أن الحسين عليه السلام قد أخذ من جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله صفاته، ويكفي أن نذكر هذه القصّة التي حدثت مع أبي طالب عليه السلام فقد اجتمع شيوخ قريش لمّا رأوا إجماعه على مفارقتهم وعداوتهم

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٦. حياة الإمام الحسين عليه السلام (القرشي) ١: ٤٢٤.

وعدم تسليم الرسول ﷺ إليهم، ومشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي ـ وكان أجمل فتى في قريش ـ فقالوا له: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد أبهى فتى في قريش وأجملهم، فخذه إليك فاتّخذه ولداً فهو لك، وأسلم لنا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك؛ لنقتله، فإنما هو رجل برجل. فقال أبو طالب: والله ما أنصفتموني؛ تعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله ما لا يكون أبداً. فقال له المطعم بن عدي بن نوفل ـ وكان له صديقاً مصافياً ـ: والله يا أبا طالب ما أراك تريد أن تقبل من قومك شيئاً، لعمري قد جهدوا في التخلّص ممّا تكره وأراك لا تنصفهم. فقال أبو طالب: والله ما أنصفوني ولا أنصفتني، ولكنك قد أجمعت على خذلاني ومظاهرة القوم عليّ، فاصنع ما بدا لك[١].

وفي مرّة أخرى قالوا له: إذن ما يريد منّا؟ فإن أراد حكماً ملّكناه، وإن أراد مالاً أعطيناه من صفوة أموالنا، وإن أراد الزواج زوّجناه من يريد. فالتفت أبو طالب إلى الرسول ﷺ وقال له: أتسمع ما يقول قومك؟ قال ﷺ: **«والله ياعمّ، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما فعلت»**.

فلمّا سمعوه نفضوا ثيابهم وقاموا وهم يقولون: لا سبيل إلى هذا[٢].

وهذا ما ربّى رسول الله ﷺ عليه ولده الإمام الحسين عليه السلام، وإلّا فإن الحسين عليه السلام لو أراد أن يسالم الأمويّين فكم من الإغراءات التي كان يمكن

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٤: ٥٥، الطبقات الكبرى ١: ٢٠٢، تاريخ مدينة دمشق ٦٦: ٣١٤، ٣١٦، ٣١٨، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥، مجمع البيان ٤: ٣١، الميزان ٧: ٥٨.

(٢) بحار الأنوار ١٨: ١٨٢، وقريب منه ما في تاريخ الطبري ٢: ٦٧، البداية والنهاية ٣: ٦٣.

أن يقدّموها له؟ وأليس هو الذي يقول ابن أبي الحديد عنه أنه عليه السلام كأن هذه الأبيات قد قيلت فيه:

وقد كان فوت الموت سهلاً فردّهُ	إليه الحفاظ المرّ والخلق والوعرُ
ونفس تعاف الضيم حتى كأنه	هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفرُ
فأثبت في مستنقع الموت رجله	وقال لها من تحت أخمصك الحشرُ
تردّى ثياب الموت حمراً فما أتى	لها الليل إلّا وهي من سندس خضرُ[(١)]

الله حكّم قانون الاختيار في كلّ ما يخصّ الحسين عليه السلام

فهو عليه السلام وضع الإغراء والإرهاب الموجّه إليه جانباً وتمّم الرسالة التي اختارها الله له، ومن ضمن هذه الرسالة اختيار مقتله، فمقتله عليه السلام لم يكن اعتباطياً وإنما كان ضمن دائرة الاختيار الإلهي. وكذا تربة مقتله، فالله جلّ وعلا حكّم قانون الاختيار في كلّ ما يخصّ الحسين عليه السلام، وهو اختيار قائم وفق قانون السماء كما نصّت عليه الآية مقام البحث، وذلك في جملة من الأمور التي أشرنا إليها، كزمان النهضة، فإن الأمر وصل حدّاً أنه لو تأخّر زمان النهضة عن الموعد الذي حدّده تعالىٰ لها، لكان من الممكن أن يتّسع الخرق على الراقع[(٢)].

ويمكن تشبيه الأمر بشخص أُصيب بداء، فتأخير إعطائه الدواء يعني استفحال الداء وتعاظمه الذي يمكن أن يؤدّي إلىٰ قتل المصاب به. وهكذا نظر الحسين عليه السلام إلىٰ جسد الأمّة الإسلاميّة المصاب بداء الأمويّين

---

(١) شرح نهج البلاغة ٣: ٢٤٩.

(٢) في المثل: اتّسع الخرق على الراقع، وهو عجز بيت لأبي عامر جدّ ابن مرداس، وصدره:
لا نسب اليوم ولا خلّة
انظر الجامع لأحكام القرآن ٣: ٢٦٧، مغني اللبيب ١: ٢٢٦.

والذي تمزّق شرّ ممزّق فإنه قد انتشر كلّ ما هو فوضوي وجاهلي في تلك الفترة المتمثّلة بحكم يزيد. وقد وصل الأمر إلىٰ درجة الاستهتار بمقدّرات المسلمين بحيث إن الحسين عليه السلام أصبح يرى الخطر في السكوت، ولذلك تحرّك وقام بثورته المعطاءة.

فالحسين عليه السلام كما ورث الصلابة والشجاعة من جدّه صلى الله عليه وآله ورثها أيضاً من أبيه أمير المؤمنين عليه السلام، وهو ما يسمّىٰ بالوراثة القريبة، مع أنه قد ورث ذلك أيضاً بالوراثة البعيدة. فهذا الموقف الذي ورثه من جدّه صلى الله عليه وآله ورث من أبيه عليه السلام موقفاً لا يقلّ عنه شأناً، وذلك حينما عقد أهل الشورىٰ مجلسهم بعد وفاة الخليفة الثاني حيث قدّم له عبد الرحمن بن عوف عرضاً كلّه إغراء، إذ جلس بجانبه وقال له: نحن لا نجد من هو أفضل منك، لكن نبايعك علىٰ شرط. قال عليه السلام: «ما هو؟». قال: نبايعك علىٰ كتاب الله وسنّة نبيّه وسيرة الشيخين أبي بكر وعمر. فقال عليه السلام: «أحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وأجتهد برأيي».[1] أي أنه عليه السلام يريد أن يقول لهم حول سيرة الشيخين: إن لي منهجيَ الخاصّ في فهم النصّ واستنباط الحكم، فلا تقيّدني بشيء لا أستطيع العمل به، بل وربّما كان حتّى الظرف لا يساعد عليه كما هو الحال في التفرقة في العطاء؛ ففي زمن الخليفة الأوّل كان المسلمون يأخذون عطاءهم سواسية، وحينما جاء الخليفة الثاني قرر أن له في هذه المسألة نظراً تقتضيه المصلحة فكان أن ميّز في العطاء.

الخليفة الثاني يرى عدم إعطاء المؤلّفة قلوبهم من الزكاة

وهذا يجرّنا إلىٰ أن نذكر حقيقة هامّة هي أن كلّ كتّاب السير ومؤرّخي

---

(١) المسترشد في الإمامة (الطبري الشيعي): ٣٦٥، بحار الأنوار ٣١: ٣٩٩، شرح نهج البلاغة ١: ١٨٨، وانظر المحصول في علم الأصول ٦: ٨٦.

التشريع الإسلامي قد أثبتوا أن في زمن الخليفة الثاني كان هناك مدرستان: الأولى مدرسة السنّة ويمثلها الإمام علي عليه السلام، والثانية مدرسة الرأي وكان يمثّلها ويقودها الخليفة الثاني نفسه، ولنأخذ لذلك مثلاً قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ... وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾[١] ففرض الرسول صلى الله عليه وآله لهؤلاء المؤلّفة قلوبهم بأمر الله سهماً، ولما جاء الخليفة الثاني قال: إنما فرض الإسلام سهماً لهؤلاء لأنه كان ضعيفاً، أما وقد قوي الآن فلا حاجة له بهم. فمنع هذا السهم عنهم. فقيل له في ذلك: إنك إنما تخالف النص. فأجابهم بأنه يسترشد بروح النصّ.

وهذا أشبه شيء بما ينقله الدكتور أحمد أمين باستخدامنا المعاصر حينما نقول: إن فلاناً يتصرّف بروح القانون لا بنصّ القانون. فكأنه يريد أن يقول لهم: إن هذه هي العلّة التي يدور عليها التشريع وجوداً وعدماً، فلمّا انعدمت العلة لم يكن ضرورة لإعطاء هذا السهم[٢]. والحال أنه ليس كذلك، وقد خالفه الصحابة فيه.

الخليفة الثاني يرى أن في الخيل زكاة

ومن آرائه أيضاً أنه ليس في الخيل زكاة، ثم بعد ذلك فرض عليها الزكاة، ولما قيل له في ذلك قال: منعنا الزكاة عنها حينما كنّا بحاجة إليها في حروبنا، أما وقد قوي الإسلام وأصبحت الخيل وسيلة للتباهي والجمال فلا بدّ من أن نفرض عليها الزكاة[٣]. وهذا ما يسمى بتحكيم الرأي في النصّ أو استلهام المصلحة من وراء النصّ.

---

(١) التوبة: ٦٠.

(٢) بحار الأنوار ١٨: ١٨٢، وقريب منه ما في تاريخ الطبري ٢: ٦٧، البداية والنهاية ٣: ٦٣.

(٣) قريب منه ما في تاريخ الخلفاء (السيوطي): ٩٣.

أما الإمام عليه السلام فكان على خلاف ذلك، جاء إليه جماعة من المسلمين وطلبوا إليه ألا يساوي في العطاء بين شريف القوم وغيره، فرفض محتجّاً بأن المال للمسلمين كافّة، واللام لام الملك، وهي تقتضي التسوية، مع ما في هذا من مخالفة للقرآن في سبيل إرضاء نزواتهم. وهو موقف صلب من أمير المؤمنين، وقد عبّر عنه بقوله: «لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلّة أهله»[1]، فالحقّ هو الذي ينبغي أن يتّبع.

وهذا الموقف الصلب ورثه الحسين عليه السلام أيضاً من أبيه عليه السلام. وكذلك ورث عليه السلام من آبائه بالوراثة البعيدة الأريحيّة، فقد كان عبد المطلب عليه السلام يحتفر الآبار وينبذ فيها الزبيب كي يخفّف من ملوحتها، ثم يسقي قريشاً منها، وكان يطعم الطعام حتى للطير في رؤوس الجبال[2].

فكلّ هذه الصفات والخواصّ ميّزت الحسين عليه السلام وكوّنت شخصيّته العظيمة، فكلّ ما يخصّ الحسين عليه السلام قد اختاره الله له كما أشرنا له سلفاً؛ فقد اختار له بيئة الولادة وهي المدينة، واختار له الحجر الذي سيربّيه وهو حجر فاطمة، واختار له من يرضعه علمه وأدبه وخلقه وكرمه وهو جده رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن بعده أبوه أمير المؤمنين عليه السلام، وأخيراً اختار له التربة التي ستضمّه إلى يوم القيامة، وهي كربلاء.

أسباب اتّخاذنا التربة في الصلاة

وكربلاء لا نتعامل معها على أنها تربة دفن فيها الحسين عليه السلام فقط، بل إننا نتعامل معها بغير ذلك وإن كان بعضهم يحاول أن يثبت ذلك علينا متّهماً

---

(١) نهج البلاغة / الكلام: ٢٠١.

(٢) انظر البداية والنهاية ٢: ٢١٤، سبل الهدى والرشاد (الصالحي الشامي) ١: ٣١٧.

إيانا بعبادة الصنم بإصرارنا على الصلاة علىٰ تربته مع أننا إن لم توجد التربة فإننا نصلّي علىٰ ورقة أو حصير أو أي نبات لا يؤكل، لكن حيث تتوفّر التربة الحسينية فإننا نفضّلها علىٰ غيرها وذلك لأسباب منها:

أوّلاً: أنها تمثّل البيئة التي مثّل فيها الحسين عليه السلام أروع الخصال الكريمة، وأعطانا دروساً كاملة وناضجة في الصلابة والإيمان والدفاع عن العقيدة. فكانت بحّق تمثّل مدرسة متكاملة ـ وليست حجراً وتراباً دفن فيه الحسين عليه السلام ـ حينما رسم عليه السلام لنفسه ولقومه ولصحبه مصيره والدور الذي سيقوم به.

وهو تراب سيبقىٰ كالكتاب يخزّن الذكريات، وهو ما نلاحظه عند كلّ الشعراء الذين وقفوا علىٰ تراب الحسين وخاطبوه، وهم في ذلك إنما يستلهمون منه المعاني المكتوبة في الوعي والأجواء النفسيّة التي يُقرأ فيها ما مثّله لنا الحسين عليه السلام من الإباء والتضحية والشجاعة والصلابة وما جسّده علىٰ هذا التراب؛ فهو عليه السلام قد جعلها تربة مميّزة تعيش في أذهاننا وليس بعيداً عنها. والدليل علىٰ ذلك أن أي شيعي في شرق الأرض أو غربها حينما تُذكر عنده كربلاء فإنه يقفز إلىٰ ذهنه أنها وعاء كلّ تلك الخصائص التي ذكرناها ووعاء التضحيات الفذّة، ووعاء الموقف الحرّ، ووعاء الكرامة وكلّ ما اختار الله له، أليس عليه السلام هو القائل في خطبته: «وخيّر لي مصرع أنا لاقيه، وكأني بأوصالي هذه تقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلا»[1].

وهنا التفاتة دقيقة في التعبير الحسيني وهو قوله: «بأوصالي» أي بتقطّع

(١) اللهوف في قتلىٰ الطفوف: ٣٨، كشف الغمة ٢: ٢٣٩.

جسمي، أمّا موقفي فلا؛ لأنه سيبقىٰ علىٰ صلابته. وها هو أحد الشعراء يخاطبه قائلاً:

طلعت علىٰ الدنيا حساماً مهنّداً فعاشتك حيناً ثم عاشت على الصدىٰ
تمجّد قومٌ بالخلود وإنني رأيت بمعناك الخلودَ مخلّدا
أيا واحداً من خمسة إن ذكرتهم ذكرت بهم في كلّ وجه محمدا

فلهذا اختاره الله ليعيش بين جوانحنا وفي قلوبنا ووعينا ومشاعرنا، ولأنت كذلك ياسيدي يا أبا عبد الله. فنحن لهذا نختار التربة.

وثانياً: لأنها ترفع جباهنا في السجود عما يمكن أن يكون نجساً أو قذراً، وما هو كذلك لا يصحّ السجود عليه في واقع الحال.

وثالثاً: أن مجرد نظرنا إلى التربة ـ مع امتلاكنا لوعي يحدّد لنا ماذا جرىٰ في واقعة كربلاء ـ فإن أذهاننا تنصرف إلى المثل العليا والدماء التي سكبت عليها في واقعة الطف:

وفرجت الزمان عن خشعة الفجـ ـر علىٰ مهدك الزكيّ الضاحي
فرأيت النبيّ يفتضّ في سمـ ـعك آيات وحيه النفّاح
والبتول انتفاضةً تبعث الزهـ ـو حيياً في هاجر الأفراحِ
وعليا يريك أن قطاف الـ ـفتح يُستار من لهيب الجراحِ
هكذا لُحت قمة من كراما ت وموجاً مزمجراً من طماح
ومدىً ليست الكواكب إلّا نصباً في طريقه اللمّاحِ

إذن، هذا الاختيار من الله للحسين عليه السلام في الطفّ كان اختيار نهاية لحياته الجسديّة وليس ختاماً لحياته المطلقة، فالحسين ما مات ولن يموت، لكن جسده اختار الله له أن يقطّع أشلاءً تضمّها هذه التربة التي قدّر لها أن

تعيش في مشاعرنا. وها نحن نردّد مع أديب الطف:

لا تطلبوا قبر الحسـيـ ـن بشرقها أو غربِ
ودعوا الجميع وعرّجوا نحوي فمشهده بقلبي

ولذلك فإن العقيلة(ع) أبت أن تذهب إلى المدينة إلّا بعد أن تمتاح من هذه القيم والمثل، فأرادت للقافلة أن تعرّج نحو المصرع، وكانت تتلفّت يميناً وشمالاً، فسألها السجاد(ع) عن سرّ تلفّتها، فقالت: عمّه، قل للدليل فليعرّج بنا على كربلاء. فعرّج الدليل بهم، وما كادت تلوح لها قبور أهليها وأنصارهم حتى نزلت من على ظهر الناقة وأقبلت من ورائها مسبيّات الطفّ، يدففن دفّاً إلى قبر الحسين(ع) وما إن وصلته حتى احتضنته:

واعيونك يبو السجّاد لون يـمّك يـخلّوني
أحط راسي على گبرك وارشّه بدمعة عيوني
واگضي العمر كلّه اهناك واگلهم للـيلوموني
شـلّي بالعمر بـعدك شـنهو عيشتي بـليّاك



﴿٥٠﴾

عباد الله الذين اصطفى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحارِ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

إن هذه المجموعة من الصفات[2] التي نصّت عليها الآية الكريمة قد نعت الله تعالىٰ بها شريحة من الناس هم الصفوة من عباده. وسنرىٰ إن شاء الله تعالىٰ أن الإمام الحسين عليه السلام وصحبه الخيرة البررة من أبرز مصاديق هذه الآية الكريمة. وسوف نتناول هذه الصفات صفة صفة إن

(١) النساء: ١٧.

(٢) فائدة نحوية: الصفات المذكورة في هذه الآية الكريمة هي نعوت لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ﴾ في سابقتها: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا...﴾. وبما أن الاسم الموصول هنا غير مرفوع: فلذا لم ترفع هذه الصفات. وقد ورد في توجيه عدم الرفع فيه وجهان:
الأوّل: النصب، وهو بإضمار الفعل (أمدح) أو (أعني).
الثاني: الجرّ؛ وفيه قولان:
١ـ النعتيّة لقوله تعالىٰ: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ في سابقتها، أو على البدليّة منه.
٢ـ النعتيّة لقوله تعالىٰ: ﴿بِالْعِبَادِ﴾ في سابقتها، أو على البدليّة منه أيضاً.
الدرّ المصون ٢: ٣٧.

شاء اللّه.

المبحث الأوّل: صفة الصبر ومعناها

تقول الآية الكريمة: ﴿الصَّابِرِينَ﴾، والصبر هو كيفية وهيئة نفسية، وهو من أفعال القلب لا من أفعال الجسد، بل إنه من أعلى وأشرف أفعال القلب.

أبعاد الصبر وأقسامه

ثمّ إن الصبر له أبعاد وأقسام، ويقع على عدّة معانٍ، منها:

الأوّل: الصبر عن المعصية

إن الكثير من الناس يتعرضون للإغراء والوقوع في المعصية على مدى حياتهم، وبعض هذه الإغراءات عادة تكون مما يثلم المروءة، وبعضها ممّا يثلم الدين، وبعضها ممّا يثلم الكرامة. وهذه الأُمور بأجمعها قليلاً ما تصمد أمامها النفوس؛ إذ لا يصمد أمام الإغراء إلّا من له نفس كبيرة، ومن يملك ديناً وخلقاً واستقامة. ومن جملة ما يصدق عليه أنه صبْر أمام الإغراء هو الصبْر عند الخصومة؛ إذ أن هذا الأمر ممّا يبيّن حقائق الناس ومعادنهم؛ فالنبيل يصبر على خصمه عندما تكون له خصومة معه ولا يشمت به مع أن غيره يلتذ بالشماتة بعدوّه وينعته بأقبح النعوت. أما النبيل ذو النفس الكبيرة فكما قلنا يأبى ذلك أشد الإباء، ومن ذلك ما يروى أن ابن ميّادة دخل على جعفر بن أبي سليمان ـ من أعمام المنصور ـ فمدحه بأبيات، فأمر له بمئتي ناقة فأخذ يد جعفر فقبّلها وقال: واللّه ما قبّلت يد قرشي غيرك إلّا يد هشام ابن عبد الملك. فقال له جعفر: تلك يد ما قبّلتّها للّه. فقال ابن ميّادة: ويدك واللّه ما قبّلتها للّه. فقال له جعفر: واللّه

لا ضرّك الصدق عندي، ادفعوا له مئة ناقة أُخرى[١].

فهذا ذو نفس كبيرة صمدت أمام القوّة والمال بما اتّصفت به من علوّ ورفعة.

ومن ذلك أيضاً ما يروى من كلمة لعبد الملك بن مروان في حقّ مصعب ابن الزبير ـ مع أنه عدوّه، وكان في حرب معه ـ فقد قيل له: ما تقول في مصعب، فقد شرب الشراب؟ فقال: مصعب يشرب الشراب؟ والله لو علم مصعب أن الماء يُنقص من مروءته ما روي منه[٢].

ومن الجميل أن تجد في الحياة من يتصف بالأخلاق الحسنة والنفس العالية المتينة التي لا تنهار في درب العداوة والبغضاء. والأرض فيها القليل من هذه النماذج، لكنها في المقابل مليئة بالنماذج الوسخة القذرة. وهذه قاعدة عامّة؛ فالمألوف عند الناس والمعروف بينهم أن العُملة الجيدة نادرة وصعب الحصول عليها، أما العملة الرديئة فهي مبذولة وطاغية وسط المجتمع وسائدة فيه، وهذا ما يؤكّده القرآن الكريم بقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[٣]، فاللّه تعالى دائماً يعبّر عنهم بأُسلوب القلّة.

وعلى أية حال فإن الصبر عن مغريات الحياة ولذائذها يعدّ من أشد حالات الصبر؛ لأن الحياة مليئة بالإغراءات، بل الحياة عينها هي الإغراء؛ فأينما يذهب الإنسان يلق أمامه إغراءً ولذّة تدعوه إلى المعصية، فإذا استطاع السيطرة على أعصابه وتمكن من قيادة رغباته وغرائزه وتحكّم بشهواته وكبحها وعاش عفيف النفس شريف الأخلاق متعالياً عن

---

(١) المستطرف في كلّ فنّ مستظرف ٢: ١٥.

(٢) تاريخ بغداد ١٣: ١٠٧، تاريخ مدينة دمشق ٨٥: ٢٢٧، ٢٢٨.

(٣) سبأ: ١٣.

دعوات الإغراء فقد بلغ مرتبة التكامل النفسي.

الثاني: الصبر على الطاعة

إن الكثير من الطاعات بل أغلبها ينطوي على مشقة وجهد وتعب، لكنها عادة تمرّن الإنسان على مواجهة الحياة وملاقاتها والتكيّف مع متطلباتها. فالإنسان حينما يصلي أو يصوم أو يحجّ أو يخرج ماعليه من حقوق في أمواله للّه ولعباده الذين افترضها لهم، فإنه إنما يستثمر منظومة الطاقات المودعة عنده والكامنة في دواخله؛ فالصلاة مثلاً هي استثمار منابع الخير في أعماق الإنسان، والصوم هو عبارة عن استثمار الطاقة التي تواجَه بها الشدائد، وإلّا فإن الدين ليس له أي مصلحة في أن يكلّفك بإنفاق أموالك ويكلفك بالصلاة والصوم دون وجود سبب أو مبرّر في غاية المعقولية يبرّر هذا التكليف.

إذن فالإنسان حينما يؤمر بالإنفاق فإنه في الحقيقة يؤمر باستثمار منابع الخير داخله كما سيمرّ علينا. وكذلك الأمر بالصلاة والصوم؛ حيث إن الهدف منهما تربية الإنسان وتقويمه وإعداده إعداداً خالصاً كي يواجه كل متطلبات الحياة بقوة وصبر؛ لأن الحياة لا يمكن أن يعيش فيها الإنسان الرخو أو الضعيف؛ إذ أنها تنبذه وتسحقه. والحقيقة أن ناموس تنازع البقاء قضى أن يعيش الأقوى.

فالدين إذن يستهدف تربية الإنسان من خلال ترسيخ الخلائق الكريمة والصفات الحسنة القويمة في أعماقه؛ لكي يعدّه لمواجهة الحياة، فيستقبلها بطاقات كبيرة ومقدرة عظيمة.

الثالث: الصبر عند المصيبة

وهو عبارة عن استثمار طاقة الصمود عند الإنسان أمام التحديات. فكما أن في الدنيا إغراءات فكذلك فيها تحديات تتمثل بالمصائب والرزايا التي تقع على الإنسان الذي يعدّ صابراً حينها فيما لو صمد أمامها بثبات أعصاب وقوة شكيمة. إن الحياة عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات من المصائب والنوائب سيّما مع الإنسان المؤمن[1]، فهو نادراً ما يمر عليه يوم دون أن تقع له مصيبة. وهذا ليس تشاؤماً ولا هو دعوة إلى التشاؤم، كما أني لست متشائماً، لكن هذه هي سنة الحياة وحصيلة تجاربها. وعليه فإن على الإنسان الصمود أمام هذه الرزايا وألّا تهزّه المصائب فتغيّر مواقفه وعقائده؛ لأنه إن فعل ذلك فمعناه أنه قد انهار أمامها وتمزّقت شخصيته ووجوده. وحينئذٍ لن تكون هناك فائدة من وجوده ولن يحقق الغرض والهدف الذي خلقه الله من أجله وأراده له وهو استخلاف الأرض الذي لا يكون إلّا عبر بناء شخصيته بناءً متيناً محكماً يتغلّب بواسطته على مشاكل الحياة وشظفها.

إن حالة الصمود أمام هذه المشاكل هي فضيلة ينبغي استثمار طاقة الاستعداد عند الإنسان لها، وعدم تركها أو التخلّي عنها، وبالتالي مواجهة تحديات الحياة. وهناك الكثير من المواقف البطولية عند البعض في عالمنا؛ مما يثير الإعجاب، ويبعث على الشعور بتقديس الفضائل والنبل؛ لأن هذا الإنسان قد صمد فيها أمام تحديات الزمن. أُدخل رجل أعمى على الوليد بن عبد الملك بن مروان ـ وكان عبسياً قادماً مع وفد من

---

(١) سئل أبو جعفر عليه السلام: يكون المؤمن مبتلى؟ قال: «نعم، ولكن يعلو ولا يعلى». المحاسن ١: ١١٣ / ١٠٧، كشف الخفاء ٢: ٢٩٥ / ٢٦٩٦.

عبس ـ فقال له الوليد: متىٰ ذهب بصرك؟ فقال له: لو تعفيني من الإجابة علىٰ هذا، كان خيراً. فقال الوليد: ولمَ؟ فقال: لأنك في مجلس أُنسك ولا أُحب أن أُعكّر عليك صفو مجلسك أو أُوذيك بكلامي وأخلق لك جوّاً من الكآبة والأسىٰ. فقال له الوليد بن عبد الملك: إنك إنما زدتني شوقاً لسماعها. فقال: إذن سأحكي لك حكايتي: خرجت مع رفقة مسافرين ومعي مالي وعيالي، ولا أعلم عبسيّاً يزيد ماله على مالي، فعرّسنا في بطن وادٍ، فطرقنا سيل، فذهب ما كان لي من أهل ومال وولد غير صبي صغير وبعير، فشرد البعير وأنا أعلم أنه وسيلتي الوحيدة للنجاة، فوضعت الصغير على الأرض ومضيت لآخذ البعير، فسمعت صيحة الصغير، فرجعت إليه فإذا رأس الذئب في بطنه وهو يأكل فيه، فرجعت إلى البعير فضرب وجهي برجليه فذهبت عيناي، فأصبحت بلا عينين ولا ولد ولا مال ولا أهل. فقال الوليد: اذهبوا إلى عروة ليعلم أن في الدنيا من هو أعظم مصيبة منه.

ثم قال له: فكيف أنت الآن؟ فقال: كما ترى، والله لا أزداد لله إلّا شكراً؛ لأني لا أستطيع أن أُغيّر من الواقع شيئاً[1].

المبحث الثاني: منشأ الصبر والصدق فيه

فالصبر إذن هو خير وسيلة للإنسان علىٰ اجتياز محنه ونوائبه؛ ولذا فإن القرآن الكريم يقول: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ﴾، أي الصادقين في صبرهم. وهذا هو المقصود بالصدق هنا وليس هو الصدق في اللفظ أو الإخبار، وإنما هو الصدق في الصبر، وهو ما يقابل التكلّف فيه. فكأنما

(١) المستطرف في كلّ فن مستظرف ٢: ١٩٣.

هناك نوعان من الصبر بلحاظ منشئه: صبر يتكلّفه الإنسان، وصبر لا يتكلّفه.

الصبر الذي يتكلّفه الإنسان

وهذا النوع لا يتّصف به الإنسان لأن من شأنه أنه صبور أو أنه يتحمل المكاره، بل لأنه يحاول أن يتجلّد ويظهر نفسه على أنه كذلك، ورحم اللّه الشريف الرضي حيث يقول:

هيهات لا تتكلفنْ ليَ الهوى   فضح التطبّعُ شيمةَ المطبوعِ[1]

فالإنسان أحياناً يتكلّف الصبر ليظهر عليه الجَلَد، لكنَّ أحشاءه عبارة عن كتلة ملتهبة من النار؛ وهذا بسبب عدم وصوله إلى مرحلة التسليم للّه، ومنزلة الرضا بقضائه وقدره تسليماً ورضاً مطلقين لا تشوبهما شائبة، ولم يدرك في أعماقه أن اللّه تعالى لا يصنع بعبده إلّا الخير. وهذه العقيدة صعب منالها وهي غير موجودة إلّا عند القلائل من الناس. يروى أن الشاعر أبا ذؤيب الهذلي ـ وهو من الشعراء المعروفين بالصلابة ـ وقف على ثلاثة من أولاده قد فقدهم في إحدى المعارك، فقال قصيدته:

أمن المنون وريبه نتوجّع   والدهر ليس بمعتبٍ من يجزعُ

أودى بنيّ فأعقبوني حسرة   عند الرقاد وعبرة لا تقطع

سبقوا هوايَ وأعنقوا لهواهُمُ   وتخرّموا ولكل جنب مصرعُ

فالعين بعدهُمُ كأن جفونها   كحلت بشوكٍ فهي عورا تدمعُ

وتجلّدي للشامتين أريهُمُ   أني لريب الدهر لا أتضعضعُ

---

(١) ديوان الشريف الرضي: ٦٥٢.

إلىٰ هنا وهو في غاية الصلابة، لكنه ينهار فجأة فيقول:

وإذا المـنيّةُ أنشبت أظـفارها ألفـيت كـلّ تـميمةٍ لا تـنفعُ

ثم سقط متهالكاً على التراب لا يقوىٰ على القيام، ثم عمد إلى النياق وذبح فصائلها أمام أعينها، وذبح كلّ حيوان عنده في الحظيرة[1]، ليخلق مشهداً من الألم، ويتسنّىٰ له أن يوجد من يتألّم معه في ذلك المشـهد. فهذا قد تجلّد فترة ثمّ انهار ولم يستطع أن يواصل مشوار الصبر ورحلة التجلّد والصمود أمام المصيبة.

فـالقرآن الكـريم يشـير إلىٰ تـجلّد الصـادقين فـي صـبرهم، الذيـن يتحصنون بقناعتهم ضد التحديات، قناعتهم في أن ما صنعه اللّه هو عين الحكمة، وأن ما جرىٰ ويـجري هـو عـين الحكـمة. وهـؤلاء هـم الذي مدحهم الإمام الصادق عليه السلام بقوله: «نحن صبرنا، وشيعتنا أصبر منّا؛ لأنا صبرنا بعلم وصبروا على ما لا يعلمون»[2]

وفعلاً فهذا هو التسليم المطلق للّه تعالىٰ حيث ينقطع فيه الإنسان إليه انقطاعاً كاملاً.

المبحث الثالث: معنى القنوت

ثمّ قالت الآية الكريمة: ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾، والمراد بالقنوت هنا معنيان:

المعنى الأوّل: السكون والانقطاع

ويراد بالسكون هنا هو عدم الالتفات أو الإتيان بأي حركة فيه، فينقطع الإنسان انقطاعاً كاملاً إلىٰ اللّه تعالىٰ ويتوجّه إليه بكيانه وقلبه ويقبل عليه

(١) الكنىٰ والألقاب ١: ٧٦.
(٢) تفسير القمي ١: ٣٦٥.

بجوارحه. ومن هذا: القنوت في الصلاة. وما دمنا قد تطرّقنا لهذا الموضوع فأُحب أن أقول: إن القنوت في الصلاة عندنا[١] غير واجب، بل هو مستحب، فلا تبطل الصلاة بتركه عمداً أو سهواً، لكن استجبابه مؤكّد، وقد أخذناه عن النبي محمّد صلى الله عليه وآله[٢] عن طريق أهل بيته عليهم السلام. فالقنوت في الصلاة هو السكون عن الحركة، ومعناه أن الإنسان يجب أن ينقطع إلىٰ اللّه تعالىٰ في دعائه، ويوجه كل مداركه وحواسه وكيانه إلىٰ السماء دون أن يأتي بأي حركة تنافي هذا الخشوع والانقطاع.

المعنىٰ الثاني: الدوام علىٰ الشيء

وهو المعنىٰ المراد في آية المقام، ويراد بهذه الصفة هنا الدوام علىٰ الصبر والصدق في الصبر والطاعات، وعدم تركه في بعض الحالات. فالقانت إذن هو المداوم علىٰ الطاعة الملازم للصبر الذي يجب أن يتحلّىٰ به. وقد نلاحظ في حياتنا اليومية من خلال مشاهداتنا لبعض من يحيطون بنا أن البعض ملتزم بعبادة اللّه تعالىٰ وطاعته لكنه في النهاية يترك عباداته وطاعاته وينجرّ وراء الدنيا، ويعود إلىٰ وضعه السابق، لأن هناك مؤثرات تجرّه إليها وتدعوه إلىٰ التمتع بها. فهذا ليس عنده مداومة علىٰ العبادة، فكيف نجعل من الإنسان صاحب حصانة ومداومة عليها؟

إن من الصعب علىٰ البعض أن يستمرّ في طاعته علىٰ وتيرة واحدة ولا يتركها حتىٰ النهاية، والسبب في ذلك هو جواب تساؤلنا، وهو أن هذا الإنسان لم يتلبّس بالطاعة والعبادة ـ حينما تلبس بهما ـ عن وعي، وإنما

---

(١) انظر شرائع الإسلام ١: ٧٩.

(٢) مختصر المزني: ١٥، فتح العزيز ٣: ٤١٧، ٤٤٤، ٤: ٢٤٩، وفيها: مازال النبي صلى الله عليه وآله يقنت حتىٰ فارق الحياة.

أخذهما بالتقليد من أهله، وهذا لا يمكن أن يفهم لها معنى حقيقياً أبداً. ومع ذلك فهو تقليد حسن ومحبّذ ما دام لا يؤدّي بصاحبه إلىٰ التراجع عنه، أما إذا تراجع عن إيمانه وعبادته فهو بطبيعة الحال أمر ناشئ عن هذا التقليد لا عن غيره. وينفع هذا التقليد كونه لا يضرّ صاحبه بل علىٰ العكس إنه ينفعه.

عطاء الصلاة

وقد يسأل سائل فيقول: إن هذا تقليد أعمىٰ، وهو وهمي، لأن من المحتمل ألّا يكون هناك إله، فما فائدة العبادة إذن؟ ثمّ إن هذا المقلّد قد يغيّر عقيدته بين آونة وأُخرىٰ.

ويقال في جواب هذا: إنه علىٰ فرض ألّا يوجد هناك إله، لكن لنا أن نسأل: ما هو الضرر من الصلاة علىٰ المصلّي حتىٰ مع فرض أنه ليس هناك إله؟ بل إن العكس هو الصحيح[1]، فحتىٰ مع هذا المؤمن فإن الصلاة في حقيقتها عطاء وترويض للنفس علىٰ الخير وحب الناس؛ فهي من هذه الناحية ليس فيها أي خسارة أبداً ويمكن تلخيص هذا العطاء بعدة أُمور:

الأوّل: أنها تخلق الإنسان الصالح وتدفعه إلىٰ فعل الخير

فالمصلي يستيقظ صباحاً لينظف جملة من أعضائه نظافة جسدية ثمّ بعدها يتوجه إلىٰ تنظيف روحه. وهنا موضع التأكيد؛ حيث إن النظافة الروحية أهم من النظافة الجسدية، فينهض صباحاً فيواجه السماء

---

(١) قال المعرّي:

قال المنجّمُ والطبيبُ كلاهما ... لا تحشرُ الأجسادُ قلت إليكما
إن صحّ قولُكما فلست بخاسر ... أو صح قولي فالخسارُ عليكما

اللزوميات: ٢٠٦.

ويستمدّ منها العون واللطف ومعاني الخير والحب والطاقة قبل أن يواجه المجتمع، فيتوجه للقبلة الشريفة وإلىٰ الله تعالىٰ.

إن الأزمة التي نعيشها اليوم هي أزمة أخلاق وليست أزمة طعام أو شراب؛ لأن الأعم الأغلب من أبناء البشر اليوم هم ذئاب؛ فكل واحد منهم يعيش داخله ذئب يحاول أن ينقض علىٰ فريسته ليلتهمها، وليس هناك من آدمي تنبض فيه مشاعر الرحمة والمودّة والأخلاق إلّا القليل منهم كما أسلفنا. فمن الذي يخلق الإنسان بهذه الصفات المطلوبة؟ الذي يخلقه كذلك هو الدين وليس العلم؛ فهناك الكثيرون ممّن قطعوا شوطاً كبيراً في طريق العلم ووصلوا فيه إلىٰ غايات بعيدة، وحازوا حظاً وافراً من التكنولوجيا، لكنهم لا مانع لديهم من حرق العالم كلّه إذا تعارض مع مصلحته، مع أن فكره متطوّر ومع أنه يعد ذا خلفية علمية وحضارية.

فأين العلم إذن؟ وما فائدته مادام لم يردع حامله من أن يسيء إلىٰ العالم أي لحظة شاء؟ إن الجهة الوحيدة التي تستطيع صنع الإنسان المتكامل هي الدين. وصنع الإنسان ليس أمراً سهلاً، إننا اليوم بأمسّ حاجة للإنسان الملتزم بمبادئه وإنسانيته، ولا يوفّر لنا هذا إلّا العبادة، والعبادة لا تصنع الإنسان بالصفات المطلوب منها أن تخلق فيه إلّا إذا كانت منبثقة عن وعي وفهم لا عن تقليد.

إذن ليس هناك أي ضرر من العبادة ـ فضلاً عن فوائدها ـ خصوصاً أن المصلّي يتوجه إلىٰ مكان مقدّس في حقيقته وفي نظره؛ يستلهم منه الخير وينظف مشاعره من الأدران ويكيّف نفسه للخير ويستعدّ نفسياً لفعله، ثمّ يخرج ليواجه المجتمع: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[1]، وهكذا

(١) الفاتحة: ٦.

فإنه يواجه المجتمع وهو يسير في طريق صحيح؛ فلا يعتدي ولا يسرق ولا يخون ولا يكذب ولا يستعمل أي لون من ألوان الخلق الذميم الذي يثلم الشرف والكرامة والإنسانية والضمير. وهذه الالتزامات هي أوّل عطاء تمنحه الصلاة للإنسان.

الثاني: أنها تقرّب العبد إلى ربّه

ثمّ إن هذا العطاء الذي يعبر عنه الحديث النبوي الشريف بقوله: «الصلاة قربان كل تقي»[1] لا يذهب نفعه إلى اللّه تعالى، بل إنه يعود إلى العبد المصلي نفسه، فالمصلّي يرفع كل يوم قرباناً إلى اللّه تعالى خمس مرّات، وهذا القربان هو صلة بينه وبين اللّه تعالى يستلهم عبره معاني الخير من ربه. فما هو الضرر الذي يمكن أن يترتب على الصلاة؟ إذن فالعبادة يجب أن تكون نابعة عن وعي المصلّي بها.

المبحث الرابع: العبادات المالية: دوافعها ومبرراتها وآثارها

ثمّ قالت الآية الكريمة: ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾، والمنفقون هم الذين ينفقون أموالهم لوجه اللّه وفي سبيله.

وقد يعترض البعض على العبادات المالية فيقول: ما معنى أن يدفع شخص قسماً من أمواله التي تعب فيها بعنوان أنها حق اللّه للمجتمع؟ وما الذي يربطه بالمجتمع بهذا الشكل الذي يجعله يدفع أمواله لهم من أجله؟

إن من يملك أدنى مقدار من الوعي لا يمكن أن يصدر منه مثل هذا

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ١٣٦، مسند الشهاب ١: ١٨١ / ٢٦٥، وفيه عن أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله.

الكلام ولا أن يؤثّر فيه؛ لأن المفروض به أنه يعرف ما يفعله ويعيه، وأن كل درهم ينفقه في هذا المجال في سبيل اللّه هو عن وعي ومعرفة. فمن ينفق هذا المبلغ فعليه أن يعي أولاً أن هذا المبلغ سيعود عليه بالنفع بصورة غير مباشرة؛ ذلك أنه لم يوجد هذا المبلغ بنفسه، فعليه أن يسأل نفسه حول الكيفية التي حصل بها على هذا المال. إن هذا المال لم ينتجه لوحده، بل إنه أخذه من المجتمع؛ لأن المجتمع قد ساهم معه في إنتاج هذا المال وتحصيله، فسائق السيارة حينما يكسب مبلغاً شهرياً أو أسبوعيّاً أو غير ذلك جرّاء عمله في سيارته عليه أن يدرك أنه لولا المجتمع الذي استأجر سيارته لم يكن ليحصل على المال.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية إن هذه السيارة التي يعمل فيها من الذي أنتجها له؟ إنه المجتمع فهناك عدة مصانع أو مصنع واحد له جهات متعددة قامت بإنتاج هذه السيارة، وهذه المصانع، أو هذا المصنع ذو الجهات المتعدّدة لم تُقم لوحدها وإنما هناك الآلاف من العمال الذين قاموا بتصنيع هذه السيارة، ومن قبلهم آلاف مثلهم قاموا بالتعدين والتنجيم وغيرهم في استخراج النفط والزيوت من الأرض وهكذا، وأخيراً هناك شخص يملك شركة لاستيرادها، أو معرضاً لعرضها أمام الراغبين في الشراء، وهكذا.

فصحيح أن صاحب المال قد دفع الأموال حيالها، لكن ما فائدة هذه الأموال إذا لم يعمل كل هؤلاء من أجل توفير هذه السيارة له؟

إذن فالمجتمع كله تكاتف على تصنيع هذه الآلة، والإنسان حينما يأخذ الربح فإنما يأخذه من المجتمع نفسه، وحينما ينفق هذا المبلغ في سبيل اللّه فإنه في الحقيقة يعطيه إلى أفراد من المجتمع هم محتاجون

إليه، وبالتالي فإنه يحقّق مفهوم العدل والمحبّة بين الناس وينشر الشفقة والرحمة بين العباد.

وهذه العملية في الحقيقة تنطوي علىٰ عمليتين:

الأولىٰ: عملية استثمار من المجتمع.

الثانية: عملية ردّ إلىٰ المجتمع.

فالمنفق إذن عليه أن يعي هذا الأمر وأنه علىٰ بصيرة من أمره فيما يعمل، وأن ما يقوم به عبادة يتقرّب بها إلىٰ اللّه من جهة، ومن جهة ثانية أن نفع هذه العبادة وخيرها يعود عليه من قريب أو بعيد.

ولو تكلّمنا في هذا المجال بلغة الاقتصاد فإننا نقول: إن المنفق في سبيل اللّه إنما يوجد قوّة شرائية عند الأفراد المحرومين، وبالتالي يوجد عملية تحريك السوق وتسييره وانتشاله من حالة الركود التي ربما يكون عليها. ففعل الإنفاق انعكس بشكل إيجابي علىٰ السوق وأدىٰ إلىٰ تحريكه وبث الحيوية فيه.

أقسام الانفاق

ثمّ إن الإنفاق تارة يكون بالأموال وتارة يكون بالمعنويات كالإنفاق بالجاه والعلم وغيرها. وسنتناولها بإيجاز فيما سيأتي إن شاء اللّه.

القسم الأوّل: الإنفاق بالأموال وأنواعه

إن الإنفاق بالأموال يمكن أن يتصوّر علىٰ وجهين، أو نوعين:

النوع الأوّل: الإنفاق الواجب

ويكون مختصاً بالأقارب وحدهم[1]. أي أن علىٰ الإنسان أن ينفق

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ البقرة: ٢١٥.

علىٰ من يعوله كالأبوين العاجزين اللذين لم يتمكنا من العمل، وكالزوجة والأولاد.

النوع الثاني: الإنفاق المستحبّ

ويكون للأقارب وللأباعد، أي أن على الإنسان من باب صلة الرحم لا الوجوب أن يعين المحتاج من أقربائه وأبناء عشيرته[1].

القسم الثاني: الإنفاق بالأمور المعنوية وأنواعه

ويندرج تحت هذه القسم عدة عناوين نذكر منها:

النوع الأوّل: الإنفاق بالجاه

والإنفاق بالجاه مساعدة الإخوان باستعمال الجاه عند السلطان. فإن من يملك جاهاً عند الحاكم أو السلطان ويستطيع أن يقضي به حوائج إخوانه فعليه أن يتدخل ويستعمل جاهه لإعانة ذلك المحتاج أو المظلوم، فاللّه سائله يوم القيامة عن جاهه لماذا لم يستعمله في خدمة إخوانه وقضاء حوائجهم.

النوع الثاني: الإنفاق بالعلم

وكذلك فإن اللّه تعالىٰ يحاسب العالم يوم القيامة فيما إذا لم ينفق علمه علىٰ مستحقّيه؛ لأنه تعالىٰ لم يعطِ الإنسان هذا العلم حتىٰ يكنزه في صدره ويمنعه من الناس الذين يغرقون في الضلالة والجهالة[2].

وورد في الحديث: «الأقربون أولىٰ بالمعروف». المصنّف (ابن أبي شيبة) ٧: ٢٨٨، العهود المحمدية: ٥٣٠.

(١) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أكرم عشيرتك فإنهم جناحك الذي به تطير وأصلك الذي إليه تصير». نهج البلاغة / الوصية: ٣١.

(٢) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «زكاة العلم نشره». غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٢٤.

فالواجب على العالم ألّا يبخل بعلمه على المحتاج إليه. وكذلك يجب عليه ألّا يسخره في خدمة الجبابرة والظالمين، بعث المنصور خلف أحد العلماء، فأبى أن يأتيه، وقال لرسوله: ليس لي عنده حاجة، فإن كان له عندي حاجة فليأتني هو. فلما عاد جلوازه بجوابه إليه انتفض المنصور غاضباً، ثم جاءه مع مجموعة من جلاوزته، فقال له العالم: إن من إكرام الله إكرام صاحب العلم، فكيف تريد مني أن أتسكّع على بابك؟ فاحترم المنصور رأيه وقال له: تواضعنا لعلمك فاستفدنا منه، وتواضع لنا علم غيرك فلم نستفد منه.

فهو يقول له: كيف تريد مني أن أتسكّع على بابك؟ إن العلم إذا تسكّع على أبواب الظلمة فقد قدسيته[1]. فالمفروض أن هناك ضريبة على العلم يدفعها صاحبه، وهي ضريبة معنوية يقدّمها حامل العلم للطبقات التي تحتاج إلى علمه وإرشاده وتوجيهه. وسيرة أئمتنا الكرام البررة غنية بهذا المعنى.

المبحث الخامس: التهجّد والاستغفار

ثمّ قالت الآية الكريمة: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾، والمستغفرون المتهجدون هم قُوّام الليل الذين يصلون صلاة الليل بصلاة الصبح وينتهي استغفارهم وتسبيحهم إلى الأسحار. ومن أبرز من جسّد هذا

وقال عليه السلام: «ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلّموا حتى أخذ على أهل العلم أن يُعلّموا». نهج البلاغة /الحكمة: ٤٧٨.

وقال الباقر عليه السلام: «زكاة العلم أن تعلّمه عباد الله». الكافي ١: ٤١ / ٣.

(١) في المأثور: «إذا رأيتم العلماء على أبواب الملوك فبئس العلماء وبئس الملوك، وإذا رأيتم الملوك على أبواب العلماء، فنعم الملوك ونعم العلماء». الكنى والألقاب ١: ٢٧٢.

المعنىٰ هو الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه أودّاء اللّه تعالىٰ.

المبحث السادس: الإمام الحسين عليه السلام وعناوين الآية الكريمة

وبعد ذكر ما تقدّم من الصفات المحبوبة إلىٰ اللّه تعالىٰ والمحبّبة له سوف نقوم بتطبيق هذه الصفات علىٰ الإمام الحسين عليه السلام وسيرته العطرة؛ لنرىٰ مدىٰ الترابط الذي كان بينه عليه السلام وبين اللّه، ومرحلة العرفان والانصهار في ذات اللّه جلّ وعلا منه، ولنلاحظ العناوين التي جسّدها الحسين عليه السلام علىٰ تراب كربلاء.. التراب الذي حمل أقدس الدماء وأشرفها علىٰ ضوء هذه العناوين والصفات التي حملتها الآية الكريمة. ولنتناول هذه العناوين واحداً واحداً لنثبت صحة هذا:

العنوان الأوّل: صفة الصبر

فالآية الكريمة تقول: ﴿الصَّابِرِينَ﴾، وهذا ما كان عليه إمامنا الحسين عليه السلام؛ حيث إنه وقف يوم عاشوراء والمعركة كلها علىٰ كاهلة؛ فكان عليه السلام كلما وقع أحد أصحابه أو أهل بيته وقع جانب من قلبه الشريف معه، فسقوط قتيل من أصحابه وأهل بيته معناه سقوط نجم من نجوم آل محمّد صلى الله عليه وآله أو من النجوم التي آزرتهم. وكان هذا المعنىٰ يخلّف في قلبه الشريف أثراً كبيراً وفقداً لا يعوّض. لكن مع كل هذا لنلاحظ ما الذي كان عليه الحسين عليه السلام؟ وكيف كان؟ وما الذي كان يفعله؟ لنعرف مدىٰ صحّة المعنىٰ الذي نحاول إثباته هنا؟ لقد كان عليه السلام كلما وقع قتيل انحدر إليه مسرعاً ووقف عنده ثمّ يشخص ببصره إلىٰ السماء ويقول: «اللهم إن كان هذا يرضيك فخذ حتىٰ ترضىٰ»[1]. فهذه هي النفس الكبيرة المطمئنة

(١) انظر: شجرة طوبى ٢: ٤٠٩، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٣٥٧، ينابيع المودّة ٣: ٨٣.

العجيبة والقوية التي لم تعرف الوهن ولم تضعف أمام الخطوب مع أن الأمر لم يكن سهلاً؛ ذلك أنه عليه السلام فقد عشرة من أحفاد أمير المؤمنين: خمسة من أولاده وخمسة من أولاد أخيه، وأربعة عشر من آل عقيل، وسبعة من آل جعفر، وكذلك ضحّى بالباقين من أصحابه. وهو عليه السلام بهذا يكون قد فقد اثنين وسبعين نجماً هم عصارة الدنيا والصفوة من صلحاء المسلمين. وقد مرّ على هذه المصارع جميعها دون أن يجزع أو يبدو عليه أي مظهر من مظاهر عدم الرضا بقضاء الله تعالى والتسليم لقدره. فأي نفس كبيرة هذه التي تسمو فوق كل البشر والملائكة؟ وأي همّة لا تعرف الكلل؟ وأي روح هذه التي كلما اشتدت عليها النكبات زادتها صلابة.

لقد وقف عليه السلام على الضحايا والمصارع، ونطق كلمته الشهيرة: «لك العتبى يارب، صبراً على قضائك، ياغياث المستغيثين، إن كان هذا يرضيك فخذ حتى ترضى»[1]:

وتأمّلتَ في وجوهِ الضحايا	وزواكي الدماءِ منها تسيلُ
ومشت في شفاهِك الغرّ نجوى	نمّ عنها التسبيحُ والتهليلُ
لك عتبى يا ربّ إن كان يرضيـ	ـك فهذا إلى رضاك قليلُ[2]

العنوان الثاني: صفة الصدق

ثمّ قالت الآية الكريمة: ﴿الصَّادِقِينَ﴾، فأي صبر أعظم من هذا الصبر؟ وأي صدق يكون أكبر من هذا؟ لقد مرّت على أبي عبد الله عليه السلام لحظات من أشدّ ما تكون، تلك هي لحظات وداعه أهل بيته وهو يرى صبية

(١) المصدر نفسه.

(٢) ديوان المحاضر ١: ٤٠.

تصرخ، ونساء يندبن، وجيشاً يريد أن ينتزع منه الحياة، وجثثاً تتراقص على التراب بدمائها، فانفرد بزينب يودّعها ويوصيها فتختنق بعبرتها وتسائله: كيف تطلب مني أن أصبر على فراقك وفراق أهل بيتك؟ لكنه عليه السلام تجاوز هذا الموقف، وتلقى النكبة بصدر رحب وصمد وصدق في صبره، فلم يكن يتكلّف الصبر. يقول عبد اللّه بن عمّار: شاهدت الحسين عليه السلام يوم الطفّ، فما رأيت مكثوراً قطّ أربط جأشاً منه. وكان في غاية الصلابة صابراً صادقاً مداوماً على الصبر حتى لحظاته الأخيرة، وكان بين يديه ثلاثون ألفاً يشدّ فيهم كالأسد الهصور فينكسرون بين يديه كالجراد المنتشر وينهزمون بين يديه انهزام المعزى إذا شدّ فيها الذئب، ثم يرجع إلى مركزه فيتّكئ على قائم سيفه ويكثر من قول: «لا حول ولا قوة إلّا بالله»[1].

بل وحتى حينما وقع على أرض المعركة، يقول هلال بن نافع: مررت على الإمام الحسين عليه السلام فرأيت شفتيه تتحركان وهو في لحظاته الأخيرة، فقلت: إن كان يدعو علينا هلكنا وربّ الكعبة. فدنوت منه فسمعته يقول: «صبراً على قضائك يا رب، يا غياث المستغيثين، لا معبود سواك». ثم راح يردّد:

تركت الخلقَ طرّاً في هواكا	وأيتمتُ العيالَ لكي أراكا
فلو قطعتني بالحبِّ إرباً	لما مال الفؤادُ إلى سواكا[2]

(١) مثير الأحزان: ٥٤، البداية والنهاية ٨: ٢٠٤.

(٢) سبق أن نوّهنا في ج٢ ص٣٣٦ وفي محاضرة (الآثار الاجتماعية للصلاة) من المحاضرات إلى أننا لم نعثر على من ينسبهما للإمام الحسين عليه السلام، بل هما ينسبان لأحد أبناء إبراهيم بن أدهم. انظر تاريخ مدينة دمشق ٦: ٣٠٦.

العنوان الثالث: صفة الإنفاق

ثمّ قالت الآية الكريمة: ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾، فما الذي أنفقه الحسين عليه السلام؟ إنه لم يدّخر شيئاً دون أن ينفقه في سبيل الله تعالىٰ، فحتىٰ الطفل الذي ولد يوم العاشر من المحرم جاءت به أُمّه لأبي عبد الله الحسين عليه السلام وقالت له: هاكم رضيعكم آل بيت محمد؛ فلقد جفّ صدري من اللبن، فأخذه الإمام الحسين عليه السلام وجعل يطيل النظر إلى وجهه ثم قال: «بني، تعساً لقوم قتلوك». كبّر في أُذنه اليمنىٰ، وقبّله، فأقبل إليه سهم ذبحه من الوريد إلى الوريد، فوضع الإمام الحسين عليه السلام يده تحت عنق الطفل حتىٰ امتلأت دماً، وقذف بها إلى السماء وقال: «اللهم بعينك». وهذا هو المعنىٰ الذي يشير إليه السيّد حيدر الحلّي فيقول:

ومنعطفٍ أهوى لتقبيلِ طفلهِ فقبّل منه قبله السهمُ منحرا
لقد وُلدا في ساعةٍ هو والردى ومن قبلهِ من نحرهِ السهمُ كبّرا[1]

إنه عليه السلام لم يترك شيئاً دون أن ينفقه في سبيل اللّه تعالىٰ، فقد قدّم الأموال والأولاد والإخوة والعشيرة.

العنوان الرابع: صفة التهجّد والاستغفار

ثمّ قالت الآية الكريمة: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحارِ﴾، وقد مرّت هذه الليلة بالإمام الحسين عليه السلام وأصحابه (رضوان اللّه عليهم) وهم يتلون كتاب اللّه ويستغفرون ربّهم، وكان لهم دويّ كدويّ النحل، وهم بين قائم وقاعد وراكع وساجد. وهم إلى ذلك عاكفون علىٰ حراسة المخيم بمن فيه، لكن زينب عليها السلام وقفت في ليلة الحادي عشر من المحرّم ثمّ راحت تُجيل نظرها

(١) ديوان السيّد حيدر الحلّي: ٧٨.

دون أن ترىٰ أحداً حامياً أو مدافعاً، فنادت أُختها أم كلثوم وقالت لها: أُخية كلّ ليلة تحرسنا الأبطال، وهذه الليلة بقينا بلا حامٍ ولا كفيل، أُخيّة قفي أنت عن يمين الخيمة وأنا عن شمالها، فإن رأيت سوادة فأبعديها؛ لئلا يتسرّب الرعب إلى قلوب الأطفال والفاطميّات.

وفعلاً هدأ العيال والأطفال، وجاءت زينب عليها السلام تتفقد النساء فلم تجد الرباب في خيمتها، فقد خرجت لتشرب الماء بعد أن أُبيح لهم عقيب قتل الرجال، فلما شربت الماء درّ ثدياها لبناً، والمرأة تعرف أن ثديها حينما يدرّ فهذا يعني أن طفلها يطلب الرضاعة، فخرجت من المخيم وهي ترجو أن يكون في ولدها صبابة من روح أو بقية من حياة، فخرجت مولاتنا زينب عليها السلام تبحث عنها وإذا بفارس يدور حول الخيمة، فصاحت به: من أنت؟ قال: سيدتي أنا من معسكر عمر بن سعد، أمرني أن أحرسكم هذه الليلة. فاختنقت بعبرتها، وقالت: أبعد عين أبي الفضل أنت الذي تتولى حراستنا؟

ثم توجّهت إليه قائلة: هل مررت بأرض المعركة؟ فقال: نعم سيّدتي. فقالت: هل رأيت هناك امرأة؟ قال: لا يا سيّدتي، لكنني سمعت هناك أنيناً، ولعلّها هي. فهرولت نحو أرض المعركة، وهي تنادي: ربابُ، أين أنت؟ فوجدتها جالسة، وقد أخذت جثّة رضيعها وأدنتها إلى ثديها، وهي تقول: بني، صدري يؤلمني، وثدياي قد درّا عليك. فأخذتها من يدها ثم دخلت بها إلى الخباء، فوجدت مجموعة من الصبية تتلاعى، وصورة الحسين عليه السلام ماثلة أمام عينيها، فوقفت هناك تجول إلىٰ جانب النساء الثاكلات:

إن عسعسَ الليلُ وارى ذلّ أوجُهِنا ‏ ‏ ‏ ‏ وإنْ تَنفَّسَ وجهُ الصُّبحِ أبدانا

قــمْ يــا عَــليُّ فــما هــذا القُــعودُ ومــا عــهدي تــغضُّ عــلى الأقــذاءِ أجـفانا
انــــهَض لعــلَّكَ مــن أســرٍ ألمَّ بــنا تــــفكُّنا وتــــولّى دفــــنَ قــــتلانا

* * *

إلك جيت خويه بهدوة الليل أشــرب دمــع واكبع بـالعويل

الفصل الثامن

الإمام الصادق عليه السلام



﴿٥١﴾

الإمام الصادق عليه السلام

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأول: في ولادته عليه السلام وسيرته

ولد الامام أبو عبد الله الصادق عليه السلام في عام (٨٠) هجرية، (على مهاجرها وآله أفضل الصلاة وأتم التحية)، وكانت ولادته في فترة استوعبت عدداً من خلفاء الدولتين الأُموية والعباسية، فقد امتدّت فترة حياته الميمونة وإمامته المباركة من خلافة هشام بن عبد الملك إلى انتهاء عشر سنين من خلافة أبي جعفر المنصور العباسي. وكانت هذه الفترة المباركة من حياته الشريفة تعد نقطة هامّة في حياة الإسلام، وحلقة ذهبية لا ينكر لها دور في سلسلة الإمامة المطهرة والمباركة. وهذه الفترة التي عاشها الإمام عليه السلام، والتي تمتد على مدى ثمانية وستين عاماً تميّزت بأنها ذات خطوات متعثّرة؛ لما كانت تواجهه به السلطة من التحجيم والتحييد، ومن محاولات الضغط عليه لإبعاده عن أداء دوره الهام في الحياة العامة؛ سواء على مستوى الافتاء، أو القضاء، أو على مستوى مناقشة إشكالات الزنادقة والملحدين، بل على مستوى كل ما يمس حياة الإنسان المسلم، ومن شأنه أن يزعزع عقيدته.

وهكذا فإننا سوف نتناول حياة الإمام عليه السلام الفكرية والسياسية والدينية وجوانبها الأُخرى كافّة خلال هاتين الفترتين على مرحلتين:

المرحلة الأولى: حياته عليه السلام في فترة الحكم الأموي

ولكننا مع ذلك، ومع هذا التعثّر الذي أشرنا إليه، كان لابدّ لنا من المرور بكل ذلك على امتداد المساحة الزمنية لحياة إمامنا الشريفة؛ استكمالاً للفائدة، وإظهاراً للجوانب الهامة التي تميزت بها حياته عليه السلام العلميّة، والتي لابدّ من الوقوف عليها للاستفادة منها، ولاستجلاء العبر والمواعظ الكامنة فيها؛ بما تنطوي عليه من ميزات جعلتها في مقدمة الأمور التي يمكن أن يمتاح الإنسان المسلم منها كل حيثيات حياته، ومفردات حاجاته الفكرية والروحية.

ويمكن تقسيم فترة حياة الإمام الصادق عليه السلام خلال معاصرته الدولة الأُموية إلى فترتين:

الفترة الأولى: فترة ازدهار الحكم الأموي

إن الفترة الأُولى التي عاشها الإمام (سلام الله عليه) إبان حكم الدولة الأُموية كان فيها الحكم الأُموي في قمّة هيمنته وقوته واستبداده، وهي فترة اتّسمت بأن هذه الدولة قد سدرت في غيّها، وراحت تتعامل مع الآخرين من منطلق قوتها، ووفق منطق جاهليّتها.

الفترة الثانية: فترة ضعف الدولة الأُموية

أما في السنوات الأخيرة من الفترة التي عاصر عليه السلام فيها الدولة الأُموية فقد كانت سلطتها وقوتها قد بدأت تنحسر شيئاً فشيئاً؛ بعد أن تعرضت للهزّات والزلازل المتمثّلة بالثورات التي قام بها أبناء البلاد الإسلامية انتصاراً للحقّ، وثأراً للإمام الحسين عليه السلام. فالدولة الأُموية في أواخر فترة

معاصرة الإمام الصادق عليه السلام لها بدأ ينحسر ظلّها، ويضعف سلطانها، ويتراجع تأثيرها في مجريات الأحداث العامّة؛ لاندلاع تلك الثورات التي أشرنا إليها، والتي قامت ضدّها فضلاً عن التناحرات التي حصلت بين بعض أفراد العائلة الأُموية، والتنافر الذي حصل بينهم.

طبيعة السياسية الأُموية

ولو أننا دققنا في الواقع أكثر لوجدنا أن السياسة الأُموية كانت تبتني على أساس واحد هو زرع ألوان الحقد والتأزّم في نفوس الناس ضدّهم؛ عبر ممارساتهم سياساتهم الجائرة والبعيدة عن روح الإسلام وفكره وسياسته وآدابه، والتي سعوا من خلالها إلى القضاء على الإسلام، وإلى إرجاع المسلمين القهقرى إلى زمن الجاهلية العمياء. وهذه السياسة التي حاول الأُمويون أن يستولوا بها على مقدّرات الناس، وأن يتربّعوا فيها على رقابهم دون حقّ يذكر أدّت إلى تلك السلسلة من الانفجارات التي عصفت بالحكم الأُموي، والتي أدّت به في النهاية إلى السقوط والانهيار بعد مروره بتاريخ طويل حافل بالزلازل المتمثلة بتلك الثورات والتحركات الإصلاحية التي قام بها أصحابها انتقاماً للدين وثأراً له ولابن بنت صاحب الدين الإمام الحسين عليه السلام.

وهكذا فإننا نجد أن الأُمويين قد بنوا سياستهم هذه على زرع الحقد عليهم في نفوس رعيتهم وأتباعهم، وهذا ـ كما ذكرنا عبر تصرّفاتهم البعيدة عن الإنسانية فضلاً عن بعدها عن الدين ـ ضدّ المسلمين عامة دون أن يفرّقوا بين أحد وأحد إلّا من سار في ركابهم وحذا حذوهم، ومن طبّل وزمّر لسلطانهم. وهذه السياسة الجائرة التي كانوا يتّبعونها لم يسلم منها حتى أبناء البيت النبوي الطاهر، بل إنهم على العكس من ذلك قد

سعوا إلى أن يصبّوا حميم بغضهم وحقدهم وغيظهم من البيت الهاشمي الطاهر على أبناء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عبر محاولات كثيرة كانوا يستهدفون من ورائها تهميش الأئمة عليهم السلام ، وإبعادهم عن أن يقوموا بأدوارهم ووظائفهم في الساحة الإسلامية على مستوى الأدوار الحيوية التي تعترض الحياة العامة كافّة، كالأدوار السياسية والعلمية والتربوية والوعظية والإرشادية وما إلى ذلك.

وهكذا فإننا نجد أنهم كانوا يحاولون جاهدين أن يقضوا على أبناء هذا البيت العلوي الطاهر عبر هذه الممارسات التي أرادوا من خلالها تحجيم دور أهل البيت عليهم السلام ، وتحييدهم وإبعادهم عن دائرة الضوء في منطقة الحياة الإسلامية، كي يظلّوا هم ـ الأمويون ـ القطب الأوحد فيها، ومحور حركة الدولة، ونقطة دائرة نظام هذه الدولة دون مزاحمة من أحد ضدّهم ، ودون أن يحاول أي شخص أن يوازيهم في هذا.

المرحلة الثانية: حياته عليه السلام في فترة الحكم العبّاسي

ثم بعد أن انهارت الدولة الأموية على يد العباسيين الذين استغلّوا مشاعر الناس خير استغلال وتوجّهاتهم الدينية لنصرة أهل البيت النبوي عليهم السلام فاستغلّوها خير استغلال، وكما يقول بعض المحلّلين التاريخيين فإنهم قد ركبوا الموجة، وأدركوا أين تكون السنبلة فوضعوا أصابعهم عليها.

عوامل سقوط الدولة الأموية

وهنا لابدّ من الإشارة إلى جملة من العوامل التي أدّت إلى سقوط الدولة الأموية الجائرة، ولقد تضافرت تلك العوامل مع بعضها، من أجل

إنجاح هذا المسعى، وكان بعضها مقصوداً وبتدخّل من الإنسان، وبعضها عوامل ذاتية بعيدة عن الظروف الطبيعية، ونحن نذكر منها:

الأول: عامل النقمة في نفوس المسلمين

وكانت النقمة التي تستعر في نفوس الناس وقلوبهم ضد الدولة الأُموية ـ كما أشرنا إلى ذلك آنفاً ـ بسبب ممارستها الاستعلائية والاستكبارية ضد الناس ـ العرب منهم وغير العرب ـ قد أُخذت مأخذها من تلك النفوس، ووصلت إلى حدّ لا يمكن معه أن تنحسر عنها، أو أن يتراجعوا هم عن هدفهم المتمثّل في إسقاط هذه الدولة؛ ولذا فإنهم كانوا يستغلون كل ثورة تقوم ضد الحكم الأُموي لينضمّوا إليها وليناصروها. فلما جاءت الثورة العباسية وهي تحمل شعار الثأر لأبناء البيت العلوي عامة، وللإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام خاصة، سارع الناس إلى المشاركة فيها، وإلى نصرة أصحابها انتقاماً للدين كما ذكرنا، وثأراً لأصحابه الشرعيين المتمثلين بالأيمة من أهل بيت النبوّة عليهم السلام.

الثاني: عامل الإساءة إلى الدين والبعد عنه

لقد ذكرنا آنفاً أن الواقع الأُموي والسياسة الأُموية كانا يبتنيان على زرع ألوان الحقد والتأزّم في نفوس الناس، إضافة إلى ممارساتهم الجائرة التي تبتعد عن الإسلام الحنيف، بل الساعية إلى القضاء عليه، وإلى إرجاع المسلمين إلى عادات الجاهلية الجهلاء وأخلاقيّاتها.

الخلاصة

إذن فالعامل الأهم في سقوط الدولة الأُموية هو إساءة الأُمويين التعامل مع المسلمين عامة؛ بمختلف شعوبهم وأعراقهم وطبقاتهم، واختلاف

ألوانهم ودمائهم، ومع العلويين خاصّة متمثّلين بالأئمة الأطهار عليهم السلام من آل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم من أولاد الإمام الحسين عليه السلام. فهذه الإساءة هي التي أدت إلى إثارة تلك النقمة في نفوس المسلمين، وإلى استغلال أي محاولة للتحرك ضدّ الدولة الأموية الجائرة، وهو ما حصل في مساندتهم ثورة العباسيين الذين تحرّكوا ضدّ عتاة الحكم الأموي باسم العلويين، رافعين شعار الثأر للإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

موقف المؤرّخين من سقوط الدولة الأموية

إننا من خلال استقراء التاريخ الذي بين أيدينا، والذي يؤرخ لنا تلك الفترة الهامّة والحساسة من مسيرة الدولة الإسلامية والدين الإسلامي، ومن خلال استنطاق ما دوّنه أولئك المؤرخون في بطون كتبهم ومدوناتهم نستطيع أن نتلمّس واقع انقسامهم حول الموقف من الدولة الأموية وإسقاطها.

وهذا الانقسام ناشئ من اختلاف مذاهبهم وأهوائهم وآرائهم، ومن خلال نظرتهم الواقعية أو غير الواقعية إلى المسألة ككل، ولا سيما فيما يتعلّق بالسياسة الأموية الجائرة ضدّ الدين الإسلامي كدين سماوي وتشريع إلهي، وضد أبنائه من المسلمين عامة. وهذه الاختلافات في وجهات النظر تجاه الدولة الأموية يمكن أن تقسم إلى قسمين وفق اختلاف المؤرّخين واعتناق كلّ منهم وجهة النظر التي يراها من خلال موقفه مع الحقّ ونظرته إلى الأمور بواقعية، أو من خلال موقفه مع الجور والباطل، وتصويره المسألة هذه على أنها أمر مقصود، كما سيتّضح لنا إن شاء الله تعالى.

إذن فالمؤرخون ينقسمون إزاء سقوط الحكم الأموي إلى قسمين

هما:

القسم الأول: أصحاب النظرة الواقعية

وهؤلاء المؤرخون هم الذين ينظرون إلى مسألة سقوط الدولة الأُموية من خلال منظار واقعي قائم على أساس استقراء الواقع، وملاحظة أحوال الناس وحياتهم، واستنطاق واقعهم الذي كانوا يعيشونه. فهذا هو ما أدّى بهم إلى أن تملأ نفوسهم وقلوبهم نقمة وغيظاً وحقداً على الأُمويين بسبب سياساتهم تلك التي أشرنا إليها.

القسم الثاني: أصحاب الهوس القومي

وهؤلاء هم المؤرخون الذين ينظرون إلى مسألة إسقاط الدولة الأُموية على أنها مسألة شعوبية، أي أن الدولة الأُموية إنما قضى عليها الزحف الشعوبي؛ في إشارة إلى بعض من أعان العباسيين في ثورتهم تلك ضدّ الأُمويين من غير العرب كأبي مسلم الخراساني وغيره. وأصحاب هذا المنهج يمثّلون حلقة من سلسلة خيانة التاريخ؛ لأنهم إنما يشوّهون الواقع والحقائق، ويزوّرون التاريخ عبر تصويرهم المسألةَ على أنها حالة من حالات الشعوبية التي بدأت تنخر في جسد الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي، وأن هؤلاء إنما يوجّهون تصرّفاتهم وأعمالهم إلى الإسلام نفسه، وليس إلى من يحكم باسم الإسلام[1].

إذن فهؤلاء إنما يحاولون أن يغطّوا ذلك الإحساس المرير الذي صاحبهم وهم يشاهدون سقوط هذه الدولة التي وقفت بوجه أهل

---

(١) هذا إذا ثبت بما لا يقبل الشك أن هؤلاء إنما كانوا يحكمون باسم الإسلام وعلى ضوء قواعده ومبادئه وتشريعاته.

البيت ﷺ على أن سقوطها كان بفعل شعوبي. وهذا التصوير ـ كما ذكرنا ـ هو خيانة للتاريخ، وخيانة للإنسانية، بل إنه تصوير كاذب ومبرقع ببراقع مزيّفة من سنخ نسج نفوسهم المظلمة والمعتمة التي حاولوا أن يسبقوا التاريخ على مقتضى رغباتها، وميولها وولاءاتها إلى أسيادهم الأمويين.

نقد المذهب الثاني

وهذا المنهج حينما نضعه أمام النقد فإنه لا يمكن أن يصمد أبداً، بل إنه سوف ينهار من أول محاولة توجيه النقد له؛ لأنه قائم على شفا جرف هارٍ فينهار بهم وبمنهجهم هذا، ولأنه كذلك قائم لا على أساس الواقع أو الأدلّة أو الاستقراء، بل إنه قائم على أساس الأهواء وميول النفوس وولاءاتها كما ذكرنا سابقاً.

ولو رجعنا إلى القواد الذين اشتركوا في ثورة بني العباس ضدّ بني أمية، والذين انطلقوا من خراسان وهم يقودون الحملة العسكرية ضد الأمويين، وانتهوا بالقضاء على تلك الدولة لوجدنا أنهم كلهم من العرب. ومن أراد أن يطّلع على هذا الأمر فعليه بالرجوع إلى المصادر التي تناولت تلك الفترة تأريخاً ودراسة، فإنه سوف يجد الأمر كما نبهنا إليه.

ومن رام أن نرشده إلى بعض المصادر، فلينظر إلى ما كتبه المرحوم الشبيبي في كتابه (مؤرخ العراق ابن الفوطي)؛ حيث إنه قد بحث هذا المعنى في الجزء الثاني من كتابه هذا بصورة مفصّلة أثبت فيها أن قيادة الحملة التي تولّت القضاء على الأمويين هي قيادة عربية، وهؤلاء العرب كانوا يسكنون في خراسان، فقادوا الحملة العربية من هناك للقضاء على الدولة الأموية[١].

---

(١) المصدر غير متوفر لدينا، انظر ذلك عنه في هوية التشيع: ٦٧، وما بعدها.

وبهذا فإننا نعرف أنّ المسألة ليست كما يحاول أن يصورها البعض من أن القضاء على الدولة الأُموية إنما هو قضاء بإيحاء من الشعوبية التي كان لها دخل كبير، ويد طولى في هذه المسألة. وهؤلاء بهذا التصوير إنما يبرزون هذه المسألة على أن عملية إسقاط الدولة الأُموية إنما هي عملية قام بها زحف فارسي شعوبي للقضاء على دولة عربية، محاولين بهذا التقريب أن يلبسوها ثوباً شعوبياً كما ذكرنا؛ وبالتالي فهي معركة بين العرب والفرس. وهم يبنون تصويرهم أساساً على أن الفرس كانوا قد حاولوا أن يصلوا إلى بعض مراكز السلطة العالية في الدولة الأُمويّة فلم يقدروا على ذلك، فكان أن شنوا تلك الحرب مع الثورة العبّاسية، وأسقطوا تلك الدولة العربية.

وهذا الأمر الذي يحاول هؤلاء إلباسه صبغة هذا التقريب هو أمر غير صحيح، بل إنه تشويه للحقيقة؛ لأن الأمويين قد وظّفوا الكثير من الموالي من العجم وغيرهم، فشغلوا مناصب عالية في الدولة كما سنلاحظه إن شاء الله.

إذن فعملية تصوير المسألة على أن العناصر العربية أرادت الانتقام من الدولة الأُموية لأنها كانت محرومة من الاشتراك بالمنصاب العليا هو تصوير غير صحيح. يقول الشبيبي: الشق الثاني الوارد في الزعم ـ وهو أن العناصر غير العربية أرادت الانتقام؛ لأنها كانت محرومة من الاشتراك بالمناصب ـ هو بالجملة غير صحيح؛ لأن كثيراً من العناصر الأجنبية والموالي شغلوا مناصب كبيرة في العهد الأُموي على امتداد هذا العهد، ولم يكن وضعهم أيام العباسيين يختلف كثيراً عن وضعهم أيام الأُمويين. وقد أشار لذلك الدكتور أحمد أمين بقوله: فسلطة العنصر الفارسي كانت

تنمو في الحكم الأموي، وعلى الأخصّ في آخره، ولو لم يتح لها فرصة الدولة العباسية، لأتيحت فرص أُخرى مختلفة الأشكال.

وعليه فلقد تولّى جماعة من غير العرب مناصب هامّة، ومنهم:

١ ـ سرجون بن منصور الذي كان مستشاراً لمعاوية، ورئيس ديوان الرسائل، ورئيس ديوان الخراج.

٢ ـ مرداس مولى زياد، وكان رئيس ديوان الرسائل.

٣ ـ زاد نفروخ الذي كان رئيس ديوان خراج العراق.

٤ ـ محمد بن يزيد مولى الأنصار، وكان والياً على مصر من قبل عمر بن عبد العزيز.

٥ ـ يزيد بن مسلم مولى ثقيف، وكان والياً على مصر.

وفوق هذا كان منهم القضاة والولاة ورؤساء دواوين الخراج، وقد تغلغلوا في أبعاد الدولة وشعبها بصورة واسعة[1].

وهكذا فإننا نجد من خلال هذا الاستعراض التاريخي السريع والموجز، ومن خلال استنطاق ثنايا التاريخ أن العناصر غير العربية ممّن دان بالولاء للأمويين قد وجدت مجالاً كبيراً، ومسرحاً واسعاً، ومضماراً رحباً لا يستهان به في مختلف الوظائف الهامّة أيام الأمويين. أما في أيام العباسيين فالعكس هو الذي حصل تماماً؛ حيث إننا نجد أن الكثير من الجنسيات غير العربية قد تعرضوا إلى الطرد من وظائفهم التي كانوا فيها، أو إلى الإعفاء من مناصبهم، وربما تعدى ذلك إلى القتل كما حصل مع بني برمك.

---

(١) انظر هوية التشيّع: ٦٧.

إذن فالدولة العباسية لم تكن تستند إلى التيار الشعوبي في تحرّكها، وإلّا لكانت قد فعلت كما فعلت الدولة الأموية، ووظفت الكثير من أفراد العجم، لكننا نلاحظ أن العكس هو الذي حصل حيث إنه قد ارتكبت الكثير من المجازر وعمليات القتل ضدّ الجنسيات غير العربية كما حصل مع البرامكة كما ذكرنا، أو مع أبي مسلم الخراساني وغيره ممن تعرّض إلى القتل على يد السلطة العباسية. وهو تصرف يوحي بأنها دولة ليست قائمة على أساس شعوبي، بل لم يكن الدافع لها التيار الشعوبي.

وعليه فإن هذا التصوير الذي يسعى البعض إلى دسه بين صفوف كتب التاريخ، وفرضه على أفكار الناس، أو إلى تزوير التاريخ والحقائق وتشويههما عبر وضع أمثال هذه الأفكار النابعة من الهوى فيها لهو تصوير مغلوط وغير خاضع لقوانين العلم أو النقد أو النقاش، بل إن وراءه أهدافاً كثيرة لا تخفى على القارئ العامّي فضلاً عن الناقد المتفنّن، والباحث المقتدر.

رجع

وعلى أية حال فالإمام الصادقع قد عاصر أواخر الدولة الأُموية وبدايات الدولة العباسية، وكان الإمامع قد استغلّ ضعف الدولة الأُموية، وهذا الوضع العامّ لصالح نشر علوم أهل البيتعليهم السلام، فكان أن أنشأ مدرسته التي لا تزال حية حتى اليوم، وهي ـ كما نعرف ـ مدرسة تُعنى بعلوم أهل البيتعليهم السلام، ونشر أفكارهم وآرائهم ونظرياتهم حول الدين والسياسة، وحول كلّ ما يتعلّق بشؤون العباد ومصالحهم.

المبحث الثاني: محاولات الأمويين والعباسيين في تحجيم دور الصادقع

ومن هنا فإننا نخلص إلى نتيجة هي ـ كما رأينا ـ أن سلاطين هاتين

الدولتين قد عمدوا إلى تحجيم دوره عليه السلام، وإلى تقليصه عن أن يكون له أثر في الحياة العامة للمسلمين؛ سواء على الصعيد السياسي، أو غيره من الأصعدة الأُخرى. وقد سعت هاتان الدولتان جاهدتين إلى تحقيق ذلك التحجيم كما بيّنا، وإلى عدم فسح المجال له عليه السلام ليلج الساحة السياسية، أو الساحات الأُخرى التي تمسّ هموم الإنسان المسلم، وتعالج مشاكله وحاجاته وتلاقحها، وتتعلّق بمصيره. ويمكن حصر هذه المحاولات بما يلي:

المحاولة الأولى: التعتيم

إنّ من يهتمّ بدراسة التاريخ وتحليل الوقائع التي حدثت فيه، واستنطاق ما بين سطور مروياته وأحرفها، فإنه حتماً سوف يصل إلى نتيجة هي أن الحكام الأُمويين والعباسيين قد استشعروا خطر وجود الإمام الصادق عليه السلام على دولتيهم بما كان يمثله من امتداد للدين الإسلامي الأصيل، وللحركة المحمدية السماوية المتأصّلة في نفوس المسلمين الخلّص، ومن امتداد لفقه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفقه أخيه أمير المؤمنين عليه السلام. فكان أن عمدوا إلى التعتيم عليه عبر ممارسات عدّة يمكن أن نذكر منها:

١ ـ طمس أثره ووجوده الشريف في المجتمع وقتل حضوره فيه.

٢ ـ تقليص دوره وعدم فسح المجال له ليلج الساحة، ويملأ الفراغ الحاصل فيها؛ نتيجة بعد الكثير عن الدين وعن تعاليم السماء.

المحاولة الثانية: تضعيف شخصية الإمام عليه السلام

وهذا أمر طبيعي جداً؛ ذلك أن الإنسان إذا ما كان ذا تأثير كبير في مجريات الأُمور في الحياة العامة للناس، وفيما يتعلّق بمعطيات

وجودهم وحاجاتهم ومشاكلهم، وكان يمتلك الحلول الناجعة لها عبر استيعابه الصحيح والكامل لحجم تلك المشاكل وطريقة التعامل معها، فإن السلاطين حتماً سوف ينظرون إليه نظرة تخوّف؛ لأنهم يعدّونه شخصاً مزاحماً لهم على عروشهم وعلى قلوب رعيتهم. ومن هنا فإنهم يعمدون إلى تصغير عظمة من شأنه بين العامّة حتى لا ينقادوا وراءه، ولا يبدوا أي اهتمام لآرائه، ولا يعيروها أي أهمية تذكر.

وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على عظمة تلك الشخصية القيادية، وعلى أهمية دورها الذي تضطلع به بين الناس، وهي تقود هذه الأمّة روحياً إن لم تكن قيادة حقيقية أو قيادة مستندة إلى القوة والسلطان.

موقف السلطات الجائرة من الحركات الإصلاحية

ونحن حينما نرجع كذلك إلى تاريخنا لنستنطقه حول هذه الجنبة، فإننا نجد أن هنالك الكثير من الشخصيات الإصلاحية التي تعرّضت إلى مثل هذا التشويه والتقليل من شأنها بين الرعية، في سبيل خدمة تلك الأهداف الدنيئة والأغراض الباطلة التي يسعى إليها السلاطين. فمثل هذه الشخصيات من الطبيعي جداً أن تتعرّض إلى هذا اللون من التصوير بين الرعية، وإلى تشويه صورتها بينهم، والسبب ـ كما هو معلوم ـ واضح جداً ولا يحتاج إلى إعمال فكر لاستكناهه ولاستجلائه؛ حيث إن دوافع الحقد والحسد وعوامل البغض التي تستعمر قلوب أولئك وتستقر فيها ضد هؤلاء المصلحين تظلّ تحرّكهم وتدفعهم إلى فعل ذلك حتى يصلوا إلى ما يريدونه.

المحاولة الثالثة: إبراز آثار الحقد على الإمام عليه السلام

إن ممّا هو معروف مثلاً أن الإمام الصادق عليه السلام كان معروفاً عنه أنه أُستاذ جابر بن حيان في الكيمياء، بل إنه عليه السلام قد أُثر عنه أنه كان أُستاذاً لغيره في كثير من العلوم التطبيقية التي أُثرت عنه. وعلى أية حال فمن ضمن العلوم التي كان يدرّسها الإمام الصادق عليه السلام بعض طلّابه وتلاميذه علم الكيمياء، وكان من هؤلاء جابر بن حيان الذي يعدّ أحد روّاد هذا العلم. وكل كاتب تناول قلمه حياة الإمام الصادق عليه السلام يعرف عنه هذا الأمر؛ لأنه كان أمراً واضحاً يعرفه الجميع.

وإذا لم يُشر إلى هذه الحقيقة، وإلى أن الإمام الصادق عليه السلام كان أُستاذاً لغيره في جملة من العلوم التطبيقية التي لم تكن معروفة عند غيره فهو أمر لا ضير فيه عليه البتّة، لكن أن تستغل هذه الظاهرة استغلالاً سيّئاً، فتُلبس ثوباً يحاول أصحابه من ورائه أن يسيئوا إلى الإمام عليه السلام، فهذا ما لا نقبل به أبداً، وهو إنما يدلّ على حقدهم عليه؛ لما كان عليه عليه السلام من منزلة عظيمة في مجالات العلوم كافّة.

صور التعتيم التي مورست ضدّ الإمام عليه السلام

وهكذا فإننا من خلال تتبّعنا لسيرة الإمام الصادق عليه السلام، وملاحظة موقف السلطة وأزلامها وجدنا أن هناك أنماطاً من صور التعتيم التي مارسها أصحاب الأقلام غير النظيفة ضدّه عليه السلام، ورأينا أن الإمام عليه السلام قد تعرّض لكثير من محاولات الإبعاد والتحجيم؛ للحيلولة دون قيامه بوظيفته الشرعية التي تحتم عليه أن يشغل الساحة ويملأ كلّ ما فيها من فراغ، وأن يعالج كلّ مشاكل الأمّة ومشاغلها ويجلو همومها؛ كونه ممثل السماء، والامتداد الحيّ والسليم لرسول الله صلى الله عليه وآله. ومن هذه المحاولات

نذكر:

الصورة الأولى: افتراء إسحاق النشاشيبي على الإمامعليه السلام

وهذا إسحاق النشاشيبي حينما يمرّ بذكر هذا الإمام العظيمعليه السلام، فإنه يعبّر عنه بالقول: جعفر معفر لعفر، كان يشتغل بالزجر والكيمياء.

ونسأل: هل هذا أسلوب كاتب يحترم قلمه، ويقيم وزناً لمشاعر أمة إسلامية كاملة؟ وهل من يفتعل مثل هذه الأمور، ويفتري مثل هذه الألفاظ، ويتفوّه بمثل هذه التفاهات التي تنمّ عن حجم صاحبها وقيمته، ويتلفّظ بها في حق قادة الأمّة وسادتها هو إنسان محترم في نفسه، وفي قلمه، وفي أدبه؟ نترك الإجابة للقارئ المنصف المطّلع الذي لا تخفى عليه أمثال هذه الأمور المقصودة من أصحاب الأقلام الدنيئة والمأجورة.

إن الإمام الصادقعليه السلام ليس شخصية عادية، وإنما هو كيان ضخم، وهيكل عظيم، وطود شامخ يختزل تراث الأمّة بأكمله، وتاريخها ومسيرتها وعنفوانها، كما أنهعليه السلام يمثّل الأمّة الإسلامية كلها، ويمثّل الإسلام بأجمعه، ويمثّل رسول اللهصلى الله عليه وآله نفسه؛ حيث إنه الامتداد الروحي والجسدي له بما يحمل من دماء طاهرة لرسول اللهصلى الله عليه وآله تجري في جسده الطاهر وعروقه، وبما يحمل من علومهصلى الله عليه وآله ومعارفه وكنوزه السماوية الإلهية التي فتحها على أخيه أمير المؤمنين بألف باب، ينفتح من كل باب منها له ألف باب، والتي توارثها أبناؤهعليهم السلام من بعده خلفاً عن سلف مباركين بما وهبتهم السماء من دواعي القدسية والعصمة والتنزّه عن كل ما يمكن أن يشين.

وهكذا فإذا ما جاء أحد مثل إسحاق هذا ليتقوّل بما تقوّل به على الإمامعليه السلام، وليتفوّه ضدّه بأمثال هذه الألفاظ والترّهات والأكاذيب التي لا

تنمّ إلّا عن صغر نفس، وعن صغارٍ، ولا تنبئ إلّا عن جهل مطبق، وقلّة شيمة ومروءة، ولا تكشف إلّا عن اعتداء صارخ على شخصيات الإسلام، وعلى قادة الأمّة الإسلامية، فإن هذا إنما يعود على ذلك الشخص نفسه، ويدلّ على صغره وقلّة خطره أمام هذا الطود الشامخ العظيم.

أهل البيت عليهم السلام ثروة لكل المسلمين

إن الإمام الصادق عليه السلام لا يعني طائفة إسلامية دون طائفة، ولا مذهباً دون مذهب، بل إنه مفخرة من مفاخر الأمّة الإسلامية كلها باختلاف طوائفها ومذاهبها، ومشاربها ومتبنياتها وانتماءاتها. فالإمام عليه السلام لا يعني الشيعة فقط، وليس هو للشيعة دون غيرهم، بل إنه عليه السلام يعني الأمة الإسلامية كلّها وهو لها بأجمعها، فالأمة مدعوّة بقضّها وقضيضها إلى الدفاع عنه، وإلى الوقوف بوجه كل من يحاول أن يتعرّض له بسوء، أو أن يقلّل من شأنه أمام الناس من أبناء الأمّة الإسلامية أو أبناء العالم أجمع؛ بما أنه عليه السلام مفخرة للأمّة كلّها وللإنسانية جمعاء، وبما أنه عليه السلام موضع اهتمام المسلمين كلهم.

عقدة أصحاب الأقلام المأجورة

ثم إننا نعرف أن الإمام الصادق عليه السلام يرتبط بجهات إسلامية كثيرة من جهة النسب، فهو في الوقت الذي يرتبط فيه دموياً برسول الله صلى الله عليه وآله وبأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فإنه يرتبط من جهة أخرى بأول الخلفاء أبي بكر الذي ينتمي إليه من جهة أمّه؛ فهو عليه السلام إذن ينتمي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله من جهة فاطمة الزهراء عليها السلام، وإلى أبي بكر من جهة أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر؛ ذلك أن أمّه عليها السلام هي أمّ فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر.

إذن فهو عليه السلام ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وابن فاطمة الزهراء عليها السلام ، وهو ابن أبي بكر وابن أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر. ومن هنا فإنه يشغل حيزاً كبيراً في الساحة والتاريخ الإسلاميين، بمعنى أنه عليه السلام يشغل مساحة عريضة على امتداد الساحة الإسلامية بطيوفها؛ لأنه عليه السلام يكون قد جمع بين البيت العلوي الهاشمي ، وبين بقية أبناء المذاهب الإسلامية بنسبته إلى الخليفة الأول أبي بكر.

إذن فرجل ينتمي إلى هنا وهنا ، فضلاً عن كون عطائه للمسلمين عامّة وكافّة، ولا أقلّ من أنه عالم من كبار علماء المسلمين، فإن الذي ينبغي أن يكون حينئذٍ هو احترام هذا الرجل وتقديره ، وشكر جهوده التي يبذلها في سبيل إرساء قواعد الدين، وخدمة المسلمين، وفي سبيل إعلاء كلمة الحقّ وإحقاقها ، وكسر كلمة الشرك والباطل وإبطالها.

وعليه فاذا ما وصف عليه السلام بمثل هذا الوصف الذي وصفه به النشاشيبي هذا ، فإن هذا واضح أشدّ الوضوح في أن صاحب هذا القلم إنما يتجرّد عن أبسط قواعد الآداب والسلوك المختصّة بمهنة الكتابة، وأنه لا يحترم قلمه، ولا يحترم حتى نفسه بالدرجة الأولى. فمعروف عند الجميع أن من شروط الباحث الذي يكتب في موضوع ما ألّا يسيء إلى الآخرين ممن يناقش آراءهم، أو ينقل عنهم ، أو ممّن يضع أقوالهم ونظرياتهم على طاولة النقد والفحص والمناقشة. فكلّ أولئك ينبغي له أن يتعامل معهم باحترام، وأن يبتعد مع ذلك عن الألفاظ النابية التي تخدش احترام الإنسان لنفسه، واحترام الإنسان لقلمه ، واحترام الإنسان لأمّته التي يكتب عنها.

وإلّا فإن الإمام الصادق عليه السلام لم يكن في يوم من الأيام ممن يشتغل بالزجر

كما يدّعي هذا المختلق، فهذا منه كذب واضح، وافتراء فاضح موجّه في حقيقة الأمر ضد رسول الله صلى الله عليه وآله، فهو اختلاق مفضوح إذن، ممّا يعني أنه ليس له أي أساس من الصحة. ثم إننا نعرف أن من المعلوم أن الزجر هو أشبه ما يكون بالفال، والذي يشتغل به هو أشبه ما يكون بالفوّالين الذين يخدعون البسطاء عن أنفسهم، ويستلبون بذلك أموالهم، فهل هذا هو عمل هذا الإمام العظيم، ووارث علم رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله؟

إن هذا التصرّف إن هو إلّا صورة من صور التعتيم الذي حاول إسحاق أن يمارسه ضدّ هذه الشخصية الفذّة، فهو هنا يحاول أن يقلب الحقائق، وينسب إلى الإمام عليه السلام ما ليس منه ولا عنده ولا فيه.

والدليل على هذا هو: أن من المعروف أن هنالك شخصاً سميّاً للإمام عليه السلام يقال له جعفر بن محمد المعروف بأبي معشر الفلكي، وهذا الشخص معروف عنه أنه كان يشتغل بأمور الزجر والفال، وما إلى ذلك مما يتعلّق بهذا الفن مما هو معروف عند الكهنة سابقاً. فبناءً على تقارب عهد جعفر بن محمد هذا من عصر الإمام الصادق عليه السلام، وبناءً على التشابه بين الاسمين؛ حيث إن الإمام الصادق عليه السلام اسمه جعفر بن محمد عليه السلام كذلك، فإن إسحاق هذا حاول أن يموّه الحقيقة، وأن يعتم في هذه المسألة مستغلاً هذا التشابه والتقارب بين العصرين والاسمين؛ ليقلب الحقائق، وينقلها من جعفر بن محمد المعروف بأبي معشر الفلكي إلى الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ناسباً إياه إلى أنه كان يشتغل بالزجر، مع أن الحقيقة خلاف ذلك، كما ذكرنا، وكما نبّهنا.

إذن لنا هنا أن نلاحظ مدى التعتيم الذي يحاول البعض ارتكابه ضدّ هذه الشخصيات الإسلامية المعروفة، وكل ذلك لأجل إرضاء أهوائهم،

أو أحقادهم، أو خدمة لأهداف أخرى تخدم أعداء الإسلام الذين يريدون أن يصيبوا الإسلام بمقتل، وأن يهزموه من خلال تعرضهم لأشهر رجالاته ولأعظم قادته ولأفضل علمائه وهم أئمة أهل البيت عليهم السلام والتعريض بهم.

إذن فالإمام الصادق عليه السلام لم يكن ليشتغل بالزجر ولا بأمثال هذه الأمور وهذه العلوم الروحانية؛ لأنه أسمى وأجلّ وأعلى مرتبة من أن يمارس مثل هذه الأمور، فضلاً عن كونها تنجيماً وتخريصات تصيب وتخطئ، وهو عليه السلام لا يخطئ أبداً؛ لأنه لا ينطق عن الهوى.

الإمام عليه السلام والكيمياء

أما اشتغاله عليه السلام بالكيمياء، فهذا غير معروف عنه البتّة، لكن كل ما في الأمر أنه عليه السلام شأنه شأن كثير من العلماء ممن لديهم اختصاص في مجال ما، أو نظريات معينة في علم معين؛ فقد كان له عليه السلام نظرياته الخاصة في مجالات كثيرة وفي علوم شتّى، ومنها علم الكيمياء، حيث قام بتدريسها لتلامذته، ومنهم جابر بن حيان الذي أخذ عنه أساسيات هذا العلم والكثير من النظريات الحديثة فيه كما ذكرنا. لكن مع هذا فإنه لا يمكن أن يوصف الإمام عليه السلام بتلك العلوم، فيقال: هو عالم في الكيمياء أو غيرها وإن كان الحال على ما ذكرنا.

نعم، فمنزلة الإمام الكبيرة ـ سواء كانت منزلته العلمية، أو منزلته الدينية، أو منازله الأُخرى ـ لا تجيز أن يقال عنه عليه السلام بأنه ممن تخصّص بعلم الكيمياء، أو بعلم الفيزياء، أو غير ذلك؛ لأن هذا لم يكن من صميم عمله ولا وظيفته التي أناطتها به السماء. وهكذا فإننا نعتبر أنه إمام معصوم عن الزلل والخطأ وإن كانت عقيدتنا فيه عليه السلام وفي الأئمة عليهم السلام عامة

أنه لا يمكن أن تنقص أحداً منهم صفة من صفات الكمال، فهو عليه السلام بما أنه إمام معصوم، وبما أنه ممثل السماء في هذه الأرض فلابدّ أن يكون كاملاً على الأصعدة كافّة، وعلى شتّى المجالات، بحيث إنه عليه السلام لا يُسأل عن شيء إلّا أجاب عنه، ولا يُستنطق حول علم إلّا وكان له الشأو البعيد فيه.

إذن فالإمام الصادق عليه السلام لا أقلّ من أنه رائد من روّاد العلم في زمنه، بحيث إنه قد وضع الكثير من النظريات لبعض العلوم، ومنها علم الكيمياء، وفي هذا القدر من التقريب كفاية لا يحتاج معها السائل إلى أن يقال له: إن الإمام عليه السلام تلقّى هذه المحاولة مثلاً من الجنبة الكذائية أو من المجال الكذائي.

إذن فالكيمياء لم تكن مما يشتغل فيه الإمام الصادق عليه السلام، بل إنه بعض عطائه الثر الضخم الذي أغنى به المكتبة الإسلامية والفكر الإسلامي، وهذا حاله حال كثير من العلوم الأخرى التي عالجها الإمام عليه السلام، والتي كانت تدرس في مدرسته التي ضمت أكثر من أربعة آلاف طالب على ما يروى ولا أقل ـ كما في بعض الروايات ـ من ثمانمئة طالب.

الصورة الثانية: موقف البخاري من الإمام الصادق عليه السلام

إذن فمن خلال هذه المحاولة التي قام بها النشاشيبي نجد أن الإمام عليه السلام قد تعرّض لعدّة محاولات من هذا القبيل على يد أمثال النشاشيبي، فهناك مثلاً محاولة أُخرى من محاولات التعتيم التي تعرّض لها الإمام الصادق عليه السلام، وهي على يد بعض أصحاب الحديث ومنهم البخاري. وربما يستغرب البعض حينما نذكر أن تاريخ علم الحديث نفسه قد حاول محاولات كثيرة لتفعيل عملية التعتيم هذه ضدّ أئمة أهل البيت عليهم السلام عامّة، وضدّ الإمام الصادق عليه السلام خاصة؛ باعتباره (سلام الله عليه) صاحب

مدرسة اشتهرت في الآفاق، واستقطبت الكثير من الناس من التلاميذ وطلّاب العلم، حتى سمي بعد ذلك هذا المذهب الشريف منسوباً إليه، فيقال: المذهب الجعفري.

وعلى أي حال فقد درج بعض أصحاب الصحاح عدا البخاري على ذكر الإمام الصادق﵇، واحتجّوا بآرائه الفقهية، ونقلوها في كتبهم، أما البخاري فإننا نجد عنده محاولة غريبة وعقيمة في تفعيل عملية التعتيم تلك ضدّ الإمام الصادق﵇، فهو لم يذكر للإمام الصادق﵇ أي رأي، في حين أنه كان ينقل آراء وروايات عن مروان بن الحكم، وعمران بن حطّان، وحريز بن عثمان[1]، وبأقوال غيرهم من النواصب من أعداء أهل البيت﵈، بل إن بعضهم يعدون من التوافه في التاريخ الإسلامي، وفوق هذا كان يحتجّ بها.

موقف مروان من الإسلام والمسلمين

إذن فالبخاري يحتجّ بأقوال مروان بن الحكم وهو الذي خلق مشكلة كبيرة بين المسلمين، وكان أن شعبهم على إثرها إلى شعبتين دون أن يحتج بأقوال الإمام الصادق﵇ الذي يعد رافداً ضخماً في التاريخ والتراث الإسلاميين، والذي يعد في كل ذرة من ذرات كيانه الشريف عطاء ضخماً للمسلمين ولغيرهم. أمّا مروان فكان يعيش على هنات، نذكر بعضها:

الأول: موقفه يوم الجمل

لقد كان في معركة الجمل يرمي بسهم إلى معسكر الإمام أمير

---

(١) انظر صحيح البخاري ٤: ١٦٤، ٧: ٤٥، وغيرهما.

المؤمنين عليه السلام، وآخر إلى معسكر أم المؤمنين عائشة، ويقول: من أصبت منهما فهو فتح[1]. وكان يقول لأم المؤمنين عائشة: ليتك متّ قبل هذا اليوم! فقالت له: لماذا؟ قال: لكنا قد ضممناك إلى عثمان. أي أننا سوف نضمك إلى جانب عثمان في تهريجنا على المسلمين، وتحريضنا إياهم على الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بدعوى الأخذ بثأر عثمان.

الثاني: فرية إلصاق دم عثمان بأمير المؤمنين عليه السلام

هذا مع أن واقعهم كان يصرخ فاضحاً إياهم بأنهم كانوا يريدون السلطة. والدليل على هذا ما يرويه ابن حجر العسقلاني في صواعقه المحرقة حول هذا الموقف، حيث يقول: «سألوا مروان عن موقف علي عليه السلام من الخليفة الثالث، فقال: والله، إنه لأبرأ الناس من دمه. فقيل له: فلم تنسبون إليه تهمةً في عثمان؟ قال: إن أمرنا لا يستقيم إلّا بذلك»[2].

فهل من السهل أن يُحتج بآراء مثل هذا الشخص الذي يثير الأمّة الإسلامية بعضها ضدّ بعض على أكذوبة وضعها هو ثم صدّقها؟ وهل من الصحيح أن يعتبر هذا الأنموذج المنحرف مورد ثقة، وتنقل عنه الروايات، والإمام الصادق عليه السلام الذي هو ابن رسول الله صلى الله عليه وآله مع ما كان يمثّله من عطاء ضخم ثرّ، ومن مدرسة متعدّدة متنوعة المجاني، ومن امتداد للدوحة المحمدية؛ بدمها ونبوتها لا يُحتج به أبداً؟ إن هذا لهو العجب العجاب الذي لا يمكن أن يقبل به منصف، ولا أن يقر أحد عليه صاحبه.

الصورة الثالثة: محاولة أحمد أمين

وهذا المعنى مطّرد في عموم مسيرة التاريخ الإسلامي؛ بحيث إننا إذا

---

(١) رسائل الشريف المرتضى ٤: ٧٥، الاحتجاج ١: ٢٣٩.

(٢) الصواعق المحرقة ١: ١٦٣.

ما استرسلنا مع التاريخ لنصل إلى عصورنا الحاضرة، فإننا سنجد بعض الكتّاب ممن حذا هذا الحذو، وسار على هذا المنهج، كما هو الحال عند الدكتور أحمد أمين في كتابه (ضحى الإسلام)، فهو حينما يتعرّض للمدارس الفكرية والفقهية الإسلامية في المدينة المنوّرة نجده يذكر المدارس السنية الرئيسة المتمثّلة بمدرسة الإمام الشافعي، ومدرسة أبي حنيفة، ومدرسة أحمد بن حنبل، ومدرسة الإمام مالك، وبعض المدارس الأُخرى، ثم يتكلّم عنها بإسهاب، أما فيما يتعلّق بالإمام الصادق عليه السلام، وبمدرسته الشريفة فإنه لم يذكرها بشيء ذي قيمة أبداً، بل إن جلّ ما قاله عن هذه المدرسة هو أنّ صاحبها ومؤسسها مكتفياً به هو: جعفر بن محمد الصادق، كان يجلس بالمسجد ويفتي. هذا كل ما يتعلّق بمدرسة الإمام الصادق عليه السلام الضخمة التي استوعبت مجالات العلوم المعروفة آنذاك كافة، والتي فاقت على نظائرها من المدارس الأُخرى؛ لكونها مدرسة كلامية وفقهية وأُصولية وتفسيرية، بل كانت تحوي علوماً تطبيقية أُخرى، وكانت ذات طابع منهجي علمي يطبّق على جوانب تلك العلوم كلها.

ومكمن الخطر في هذا الكتاب ومنبعه لا ينحصر في الاكتفاء بهذه العبارة الموجزة عن الإمام عليه السلام، وعن مدرسته الضخمة، بل إن هذا الكتاب الآن يوزّع على أكثر من ستمئة مليون مسلم في شتّى أنحاء العالم الإسلامي وغيره، أي أن هذا العدد الضخم يقرأ مثل هذه التفاهات فيه، فيتأثر بها دون أن يكون لنا نحن الشيعة أي ردّ فعل على مثل هذه الأُمور.

إذن الخطر في هذه المسألة هو من انتشار هذا الكتاب بين أكثر من ستمئة مليون قارئ من المسلمين، فضلاً عن غيرهم، حيث يطلعون من

خلاله على هذه الأكاذيب، وعلى هذا التشويه المتعمّد للتاريخ، وعلى التعتيم المقصود على أهل بيت النبوة (سلام الله عليهم). فالمسألة إذن بهذه الضخامة من الخطورة، وليست هي على مستوى ضيّق كما ربما يتبادر إلى أذهان البعض، أو يتصوّر أنها كمسألة ما نحن فيه الآن، أي أنها كما لو كانت مثل مجلسنا هذا الذي يضم مثلاً بضعة أفراد يستمعون إلى الخطيب أو الواعظ الذي ينبّههم إلى خطورة مثل هذه الكتب، وإلى ضرر مثل هذه الإشارات.

موقف الشيعة من هذه الافتراءات

وهكذا ينبغي أن نعي أنّ هذا الأمر ليس مقتصراً على مجموعة صغيرة أو محصورة في هذه النقاط حتى يمكن أن يقال بأنه ليس من المهم إعارته أي أهمية، أو إعطاؤه أي قيمة، بل إنه كما ذكرنا يقرؤه مئات الملايين من المسلمين الذين يصدقون ما ورد فيه. أما موقفنا نحن، فهو موقف سلبي؛ حيث إننا نكتفي بوقوفنا موثوقي الأيدي إزاء ذلك، مع أن علينا أن نعرّف الآخرين بفكر أهل البيت عليهم السلام الذين هم أهل بيت النبوة، ومعدن العلم وأصله، ومختلف الملائكة، ومهبط الوحي؛ وأن نبيّن لهم تلك الأكاذيب وخطورتها؛ لأننا نعتقد أن فكر أهل البيت عليهم السلام هو الفكر القرآني، وهو الفكر المحمدي الأصيل الذي امتاحه رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم من السماء، والذي يستمدّ ينابيعه من الأحكام الإلهية الحقّة التي نزل بها الأمين جبرائيل عليه السلام على صدر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

إذن فمن العيب علينا نحن الذين نقول بأننا شيعة لأمير المؤمنين عليه السلام أن نترك هذا الفكر دون أن نحاول نشره أو الدفاع عنه أمام هذه المهاترات التي تصدر من أمثال هؤلاء الكتّاب؛ لأننا نعرف أن هذه المهاترات قد

أصبحت منهجاً يدرّس الآن في كثير من البلاد، وهي مناهج تؤكّد على المذاهب الإسلامية كلّها دون أن يكون فيها أي ذكر وأدنى تذكير بالإمام الصادق عليه السلام أو بمذهبه.. المذهب الحقّ الذي يمثل مذهب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودينه.

وهكذا فلابدّ من أن نشرع في القيام بهذا الدور، وأن نبدأ بنشر الكتب التي توظّف توظيفاً كاملاً في محاربة تلك الطروحات المضلّلة، ومحاولات التشويه والتعتيم المتعمدة التي يسعى البعض جاهداً إلى خلقها ونشرها في المجتمع، وأن نؤلّف ونكتب؛ لنعرّف بفكرنا الذي هو في واقع الأمر فكر أهل البيت عليهم السلام. ونحن الآن في أمسّ الحاجة إلى مثل هذا النهوض الذي يعني الدفاع عن الدين الإسلامي الحنيف، في حين أن تركه يعني الخنوع والاستسلام أمام محاولات الآخرين في التعتيم على نظرياتنا وأفكارنا ومبادئنا المستمدّة من القرآن الكريم، ومن وحي السماء عبر هذه السلسلة الذهبية الطاهرة المتمثلة بأئمة أهل البيت النبوي الطاهر عليهم السلام.

الصورة الرابعة: أحمد عطية والإمام الصادق عليه السلام

وهنالك محاولة تعتيم أُخرى واضحة كل الوضوح في كونها محاولة متعمّدة عند أحد كتّاب المسلمين وهو الكاتب أحمد عطية صاحب القاموس الإسلامي الذي صدر الجزء الرابع منه مؤخّراً، أي أنه قد صدر منه حتى الآن أربعة أجزاء، فهذا المؤلف حينما يتناول مدرسة الإمام الشافعي فإنه يكتب عنها بما مساحته (٤٢٠) سطراً كما تصديت أنا نفسي لإحصائها بنفسي، حينما يتناول مدرسة الإمام الصادق عليه السلام فإنه لا يزيد على أن يقول: إن جعفر بن محمد الباقر بن علي بن الحسين هو

سادس الأئمة عند الإمامية، وإنما سمي بالصادق لأنه لم يكذب، كما يقال. مكتفياً بهذا القدر في مقابل (٤٢٠) في مدرسة الإمام الشافعي.

كناطح صخرة يوماً ليوهنها

إذن فهذا اللون من التعتيم والتعمية هو ابتعاد عن الحقّ والصواب، بل إنه محاولة لمنع الإمام(ع) من أن يقوم بدوره الصحيح في إرشاد المجتمع وإصلاحه، وفي ترشيد تحرّكاته وإخضاعها إلى القانون الإسلامي. كما أنها تعتبر أيضاً محاولة عدم إعطاء أي أهمية لكل ما كان يقوم به الإمام الصادق(ع)، مع أنها محاولات فاشلة وعقيمة كما سنرى إن شاء الله تعالى. وفي المقابل فإننا ندري لمَ كل هذا، ولحساب من كان.

وفي واقع الأمر فإن جميع هذه المحاولات المنطوية على الحقد على الإمام الصادق(ع) والحقد عليهم، والغيظ منهم، والتي تتبلور على شكل محاولات تعتيم أو تشويه لصورتها، أو لمواقفه أو لآرائه الفكرية ولنظرياته العلمية لا يمكن بحال من الأحوال أن تمسّ الإمام الصادق(ع)، أو أن تسيء إليه أبداً؛ ذلك أنه طود شامخ، وعلم مرتفع يعانق السماء في العلم والمعرفة والتقوى والإيمان، وفي كل شيء أوصت به السماء؛ لأنه ابن السماء وربيبها، ولأنه ابن رسول الله(ص)، الذي غذّاه علومه التي توارثها أباً عن جدّ حتى يصل الأمر إلى أمير المؤمنين الذي علمه رسول الله ألف ألف باب كما ذكرنا قبل قليل.

إن شخصية الإمام الصادق(ع) قد بلغت في الكمال والرتب الغاية القصوى التي ليس بعدها غاية، وبلغت في مراتب التمام والكمال مرتبة ليس بعدها مرتبة إلّا مرتبة رسول الله(ص)، وعليه فإنّ أمثال هذه الأكاذيب والافتراءات والمحاولات العقيمة التي تريد النيل منه(ع) لا

يمكن أن تؤثّر فيه أبداً مهما فعل أصحابها، ومهما ارتكبوا، ومهما حاولوا أن يسيّسوا الحقائق، وأن يجيّروا التاريخ لصالحهم مبعدين إيّاهما عن ساحة الإمام عليه السلام الشريفة التي استوعبت كل مشاكل الناس وكل احتياجاتهم عبر تغطيتها بما احتوته مدرسته الشريفة من علوم، وهي مدرسة أسهمت إسهاماً كبيراً وواضحاً في إثراء المكتبة الإسلامية ـ كما ذكرنا ـ عبر تعدّد اختصاصاتها وفروعها، وكثرة طلابها والدارسين فيها.

وقفة مع التاريخ

ومن هنا فإننا نقول بأن هذا مما لا يمكن أن يتأثّر به الإمام عليه السلام، فضلاً عن أنه لا يمكن أن يزيده مدح مادح، ولا أن ينقصه قدح قادح. لكن هذه التصرّفات على أي حال تظلّ مؤشّر خطر في تاريخنا، ومنعطفاً سلبيّاً فيه، ونقطة سوداء في سجلّ هؤلاء؛ لأنها تعبّر عن المدى الكبير والبعيد الذي بلغه هؤلاء في حقدهم ووضاعتهم، وفي تجرؤتهم على أهل بيت العصمة (سلام الله عليهم).

وهذا الموشر الخطر هو الذي سوف يجعل من التاريخ غداً تاريخاً يذكر أُولئك باللعن والتقريع؛ لأنهم عمدوا إلى تشويه حقائقه، وإلى تزييف واقعه، وإلى تصوير الباطل حقاً والحقّ باطلاً، وهذا ما لا يمكن أن يقبل به التاريخ المنصف. ولهذا فإننا نرى ضرورة دعوة المنصفين إلى وجوب أن يُلقى هؤلاء وأمثالهم في قمامة التاريخ ومزبلته؛ لأن هؤلاء ليسوا بشراً؛ ماداموا لم يتقيّدوا بقانون الكتابة العلمية والأكادمية، ولم ينتهجوا المناهج العلمية الصحيحة في التأليف والدراسة والبحث، فكانت كتابتهم بعيدة كلّ البعد عن الموضوعية والتأريخ الموضوعي، وعن الحقّ الذي دعا إليه القرآن الكريم، ودعت إليه السنة النبوية

المطهرة (على صاحبها وآله أفضل الصلاة وأتم التسليم).

دعوة إلى التوحّد

ومن هنا فإننا نرى ضرورة أن يتكاتف المسلمون فيما بينهم، وأن يفتخر بعضهم بتراث بعضهم وإن اختلفت المذاهب والمشارب؛ لأن هذا التراث إن كان تراثاً علمياً قائماً على أساس الدليل فهو إنما يصبّ في النتيجة في خدمة الدين الإسلامي الحنيف، وفي خدمة رسول الله صلى الله عليه وآله، ويمثل استكمالاً لشوطه الذي بدأه بدعوته المباركة في الجزيرة العربية التي انطلق منها إلى العالم كله. فعلى كلّ مسلم أن يعتزّ ويفتخر بكلّ نظرية إسلامية وإن كانت من مذهب يخالف مذهبه، لا أن يعمد إلى انتقاصها وإلى تشويهها، أو إلى التعتيم عليها وإلى تحجيمها لا لشيء إلّا لأن صاحبها لا يتّفق معه، أو لأنه يختلف مع صاحبها في الآراء الفقهية، أو بعض الآراء المتعلّقة بالعقائد.

إننا ندعو إلى أن يكون المسلمون كلّهم صفّاً واحداً، وأن يكونوا وحدة متكاملة، فكما أننا يجب أن نعتزّ بكل نظرية محترمة أبدعها الإمام الشافعي، أو أبو حنيفة، أو أحمد بن حنبل، أو الإمام مالك، أو غيرهم من أعلام المذاهب الإسلامية؛ لأنها تصبّ في خدمة هذا الدين، وتمثل استكمالاً لذلك المشوار الضخم والعظيم الذي بدأه رسول الله صلى الله عليه وآله، كذلك على المسلمين الآخرين أن يعتزّوا بكل ما أبدعته لهم مدرسة الإمام الصادق عليه السلام، وعليهم أنهم إذا ما مرّوا بالإمام عليه السلام أن يعطوه حقّه الذي ينبغي له دون أن يسلبوه ذلك الحقّ من المدح والثناء في مجال ما أبدعه للمدرسة الإسلامية.

إننا الآن نعيش في القرن العشرين، وقد توفّرت كلّ سبل النشر ودواعي

التأليف، وتيسّرت آليات طلب العلم ووسائل نشره؛ وعليه فلا عذر لمن يمتنع عن أن يدافع عن مذهبه وهو يجد من نفسه القدرة على ذلك. وعلى أية حال فهؤلاء لا يمكنهم بحال من الأحوال أن يخدشوا ـ ولو جاؤوا بجنود الأرض ـ حقيقة كون الإمام الصادق عليه السلام وجوداً ناصعاً مباركاً زرعته السماء في الأرض، وجعلته مناراً يهتدي به السائرون، ويلوذ به طالبو العلم والمعرفة والحقيقة. وهؤلاء الذين يحاولون أن ينالوا من الإمام الصادق عليه السلام لو أنهم رجعوا إلى ما كان يكتبه بعض كبار علمائهم ـ كالشافعي وغيره ـ عن الإمام الصادق عليه السلام، أو عن أهل البيت النبوي الكريم عليهم السلام بشكل عامّ لربما كان لهم رادع عن أن يتفوّهوا بمثل تلك الترّهات والأكاذيب والافتراءات. فهذا الإمام الشافعي نفسه إذا ما مرّ بالإمام الصادق عليه السلام، فإنه يثني عليه ثناء جميلاً، وقد أُثر عنه قوله في آل البيت عليهم السلام كما حدّث عنه الربيع بن سليمان حيث قال: حججنا مع الشافعي، فما ارتقى شرفاً، ولا هبط وادياً إلّا وهو يبكي وينشد:

يا راكباً قف بالمحصّب من منى	واهتف بقاعد خيفها والناهضِ
سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى	فيضاً كملتطم الفرات الفائضِ
إن كان رفضاً حبّ آل محمد	فليشهد الثقلان أني رافضي[1]

(١) سير أعلام النبلاء ١٠: ٥٨ ـ ٥٩، تاريخ الإسلام ١٤: ٣٣٧ ـ ٣٣٨. ثم قال الذهبي: «بهذا الاعتبار قال أحمد بن عبد الله العجلي في الشافعي: كان يتشيّع، وهو ثقة. قلت: ومعنى هذا التشيع حب علي وبغض النواصب، وأن يتّخذه مولى: عملاً بما تواتر عن نبينا صلى الله عليه وآله وسلم: «من كنت مولاه فعلي مولاه»...».

وهو في حديثه عن أبان بن تغلب لم يعتبر التشيع عيباً حيث قال عنه: «شيعي جلد، لكنه صدوق، فلنا صدقه وعليه بدعته، وقد وثقه أحمد بن حنبل، وابن معين، وأبو حاتم، وأورده ابن عدي، وقال: كان غالياً في التشيع. وقال السعدي: زائغ مجاهر. فللقائل أن يقول: كيف

ومن هنا فإننا نعتزّ بأمثال هذا الرجل وبأفكاره، مع أن هؤلاء الذين نحن بصدد الحديث عنهم جميعهم يصبّ عطاؤهم في روافد مائدة نبينا الأكرم محمد ﷺ، وحينما نقول: مائدة محمد ﷺ فإنّ أياً من هذا العطا يجب أن يكون موضع اعتزاز من المسلمين قاطبة، لا أن يسخر بعضهم من بعض.

إذن هذه الأساليب الملتوية والمعوجّة، والتي يسعى البعض إلى اتّباعها من أجل إشباع رغباته أو أهدافه الشخصية، أو من أجل إطفاء نار الحنق والحقد التي تستعر في قلبه لهي أساليب بعيدة عن روح الإسلام الحنيف، وعن جوهره، وعن توصياته كدين سماوي مقدّس يريد أن يأخذ بيد الإنسان إلى برّ الأمان، وأن يوصله إلى ميناء السلامة في دينه ودنياه، ويريد للإنسان أن يكون بعيداً عن كل ما من شأنه أن يهزّ شخصيته أو كيانه أو وجوده في المجتمع، وما من شأنه أن يسعى إلى هدم المجتمع.

ونحن كشباب مسلمين حينما نريد أن نطلب الحقائق، وأن ننفض غبار التعتيم والتشويه عن هذا الدين الحنيف، وأن نستقلّ السلم الحقيقي الذي يوصلنا إلى الصدر الأول للإسلام فإننا حتماً سوف نقصد التاريخ باعتباره ذلك السلّم الذي يُرتقى به حتى يوصل مرتقيه إلى صدر الإسلام، وإلى عصر الرسالة الخالدة. فإذا ما كان هذا السلم ـ أو التاريخ ـ مملوءاً بالظُّلمة

ساغ توثيق مبتدع، وحد الثقة العدالة والإتقان؟ فكيف يكون عدلاً من هو صاحب بدعة؟ وجوابه أن البدعة على ضربين:

فبدعة صغرى كغلو التشيع، أو كالتشيع بلا غلو ولا تحرف، فهذا كثير في التابعين وتابعيهم مع الدين والورع والصدق. فلو رد حديث هؤلاء لذهب جملة من الآثار النبوية، وهذه مفسدة بينة.

ثم بدعة كبرى، كالرفض الكامل والغلو فيه...». ميزان الاعتدال ١: ٥ ـ ٦/ ٢.

والنقاط السوداء التي تتلبّس كل إحداثياته مشوّهاً بذلك الحقائق كلّها بحيث إنّه يأخذ بيد الإنسان إلى الوجهة المغلوطة غير الصائبة، فإذن هذا لا يمكن أن يعدّ تاريخاً إنسانياً، ولا كتّابه كتّاباً موضوعيين أو موسوعيين يتّصفون بصفة الإنسانية والأكاديمية في التعامل مع الحقائق والأشياء والحوادث التي تمر بهذا الدين، والتي يتّخذون منها مادّة لكتابتهم.

وهكذا فإن التاريخ حينما يرتقيه الإنسان سلّماً للوصول إلى مبتغاه، ثم يجده مفعماً بالتعتيم والتشويه والتزوير على أهل الحقّ وعلى أصحاب الحقّ، فهل يبقى عند ذلك الإنسان حينئذٍ ثقة بهذا التاريخ؟ وهل يبقى له في نظره قيمة تذكر؟ بطبيعة الحال أن هذا الإنسان سوف يهزأ بذلك التاريخ، وسوف يسخر منه ويبتعد عنه دون أن يعتمد عليه بعد ذلك في شيء ممّا يؤمّله أو يؤمّل فيه أن يوصله إلى الحقائق التي ينشدها.

الصورة الخامسة: مترجمو دائرة المعارف البريطانية والصادق عليه السلام

ولعل من أبرز الأمثلة على هذا التشويه المتعمد للحقائق والتاريخ، وهذا التعتيم المقصود به بعض قادة الأمّة الإسلامية من أهل بيت النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ما حصل مؤخّراً حينما عمد بعض المترجمين إلى ترجمة دائرة المعارف البريطانية، ملبسين الأمر على القارئ بعد أن شوّهوا الحقائق المتعلّقة بالإمام الصادق عليه السلام، حيث إنهم عند ترجمتهم ما ورد عنه عليه السلام فيها قالوا: إن جعفراً الصادق كان من أئمة المعتزلة.

وهذا كلام عجيب في بابه، وغريب في مجاله، فالمفروض بهذا المترجم أن يذكر الترجمة الصحيحة الموجودة في النصّ الأصلي كما

هي دون أن يحرّفها أو يزيّفها أو يزوّرها أو يتصرّف فيها على هواه، ودون أن يتعمّد قلب الواقع والحقائق، بل عليه كمترجم أن يتّصف بالأمانة والدقّة، ويجب عليه أن يتوخّى الحذر فيما يكتبه في ترجمته، فلا يشوّه ولايعتّم ولا يزور. ومثل هذه التصرفات في واقع الأمر هي تصرّفات يؤسف لها.

ثم إننا نعرف أنّ الإمام الصادق عليه السلام قد تعرض إلى محاولات كثيرة للتهميش والتحجيم والتعتيم ليس على هذا المستوى الذي أشرنا إليه فقط، بل على مستوى الافتراء عليه، ونسبة كثير من الروايات الخرافية التي تعدّ بالعشرات إليه دون أن تكون قد صدرت منه مطلقاً.

الكتب الأربعة عند الشيعة

وأنا من على هذا المنبر أُريد أن أعلن حقيقة للمتلقّي لابدّ من الإشارة إليها والتنبيه لها؛ لما لها من أهمية قصوى؛ حيث إن البعض يتّخذها ذريعة ضدّنا لثلبنا والانتقاص منّا؛ ذلك البعض من الناس يعتقد اعتقاداً لا مجال للشكّ فيه أن الشيعة يقدّسون الكتب الأربعة عندهم كما يقدسون هم (صحيح البخاري) مثلاً، مع أن هذا الكلام فرية لا أساس لها من الصحّة؛ ذلك أنه ليس كلّ ما قاله الكليني صحيحاً، ولا كل ما في (التهذيب)، أو غيره من الكتب الأربعة، ومن المراجع الحديثية الأُخرى هو صحيح مطلقاً عندنا[1].

إذن فليس كل في ما الكتب الأربعة أو في غيرها من مصادر الحديث

(١) والدليل على هذا أن المجلسي الثاني رحمه الله قد حقّق في كتابه (مرآة العقول) كتاب الكافي، وتوصّل إلى أن الكثير من أحاديثه ضعيفة السند. وكذلك الحال مع المجلسي الأول في روضته في شرح الفقيه.

ومراجعه عندنا صحيحاً، أو سليماً، أو معصوماً، عن المناقشة في السند، بل إنّ علماءنا يحسبون لكلّ رواية حساباً خاصّاً، ويخضعونها لقوانين علمي الرجال والدراية؛ ليتوصّلوا من خلالهما إلى إمكانية الاستدلال بتلك الرواية بناء على صحّتها، أو إلى عدم ذلك بناء على ضعفها وعدم صلاحيتها للاستدلال. ومن هنا فإننا نجد أن علماءنا يطرحون الكثير الكثير من الروايات بعد تضعيفها؛ لأنها لا تتماشى مع الذوق الفني في المقام، أو مع مبادئ علمي الرواية والدراية، أو لأنها بعيدة عن الخطوط العامة للتشريع الإسلامي، أو العقائد الإسلامية.

إذن فنحن حين ما نريد أن نتناول هذه الشخصية، أو أي شخصية أُخرى، فعلينا أن نعمد إلى المنابع الأصلية التي توصلنا إلى المنبع الصافي، وإلى المعلومات الصحيحة والسليمة حتى يكون ما نكتبه صحيحاً سليماً دون أن نحاسب عليه غداً بين يدي الله سبحانه وتعالى.

شروط الكتابة

ومن هنا فإننا نخلص إلى نتيجة تدور حول عدة محاور فيما يتعلّق بالكتابة والكاتب، نذكر منها:

الشرط الأول: الرجوع إلى المنابع الصحيحة والسليمة التي تغذّينا بالمعلومات الصادقة والصحيحة، والتي تنأى بنا غداً عن المساءلة والتهمة فيما لو كان هنالك شيء من النقص أو غيره.

الشرط الثاني: إخضاع تلك المعلومات إلى قواعد العلم الذي يكتب فيه، سيما فيما يتعلّق بالروايات المنقولة؛ حتى لا يقال بأن هذا الكاتب قد خرج عن قواعد الكتابة الصحيحة والمعتمدة، وعن الأدوات التي ينبغي أن تتوفّر عند الكاتب، وأن تتّبع في هذا المجال.

الشرط الثالث: أن يتعامل الكاتب مع المادّة التي يريد أن يكتب فيها بفكر أكادمي وموضوعي بعيداً عن الأهواء والآراء والنزعات والأغراض الشخصية التي يحاول البعض أن يجعلها قالباً يصب فيه ما يكتب، ليخرج بالنتيجة نتاجه وهو عنوان صريح وواضح لأزماته النفسية، أو لأهوائه وأغراضه، أو لمتبنياته التي يحاول أن يفرغها على نصوصه وطروحاته، وعلى ما يكتب، فيشذّ بالقارئ ويذهب به بعيداً عن الحقيقة والواقع.

المبحث الثالث: نشاط الصادق عليه السلام أيام الدولة العباسية

إنّ فالإمام الصادق عليه السلام قد استغلّ هذه الفترة المتمثّلة بأواخر الدولة الأُموية وأوائل قيام الدولة العباسية حيث ضعفُ النظام الأول في حينه وانشغالُ النظام الثاني في تثبيت أركانه في حينه كذلك. فالإمام الصادق عليه السلام استغلّ ذلك الأمر أقصى استغلال، واستثمره غاية استثمار في بث أفكاره التي هي أفكار الإسلام، ونظرياته وآرائه الفقهية والعقيدية والكلامية عبر مدرسته التي أنشأها في المدينة وفي الكوفة. وقد استطاع عليه السلام أن ينشر عبر هذه المدرسة أفكار أهل البيت عليهم السلام وآرائهم ونظرياتهم الفقهية والكلامية والتفسيرية وغيرها.

لكن بعد استحكام الدولة العباسية، واستتباب الأُمور لها، وقضائها القضاء التامّ على الدولة الأُموية، وبعد التفاتها إلى مسألة أن الإمام الصادق عليه السلام بدأ يكوّن خطراً كبيراً عليها من وجهة نظرها؛ لأنه ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، والامتداد الصحيح له، ولأن مدرسته تمثّل مدرسة رسول الله صلى الله عليه وآله؛ وعليه فإن اتّباعه يعني اتّباع رسول الله صلى الله عليه وآله. وهذا ما يجعل منهم دولة محيَّدة ومنعزلة عن الساحة الإسلامية، فراحت تعمل كل ما في وسعها على التشديد على الإمام عليه السلام ومنعه عن أداء دوره الذي أراد

القيام به سيما في أيام المنصور العباسي؛ حيث إن الإمامعليه السلام قد تعرّض إلى المضايقات الشديدة، وإلى التعتيم عليه، وإلى محاولات منعه من أن يكون في دائرة الضوء التي تمثّل معالجات المشاكل السياسية والفقهية والعقيدية وغيرها ممّا يمكن أن يبتلى به الناس، ويبتلى بها العالم الإسلامي.

وهكذا فإن الأيام التي سُلّط فيها الضوء على حياة الإمامعليه السلام لم تكن كافية في الواقع، وبتعبير آخر إنه لم يكن هنالك وقت كافٍ ليحصل ذلك التفاعل بين شخصية الإمامعليه السلام ومدرسته، وبين المجتمع الإسلامي. وكما ذكرنا فإن الإمامعليه السلام كان قد استغل تلك الفترة ـ وهي أواخر الدولة الأموية، وبداية الدولة العباسية ـ حيث ضعف الأُولى، وانشغال الثانية في تثبيت حكمها، لكنها كانت فترة قصيرة، ولم تكن لتتّسع لكلّ أفكار الإمامعليه السلام وآرائه ونظرياته وطروحاته العلمية على أصعدة علوم الدين كلّها. لكن على أية حال كانعليه السلام قد استغل تلك الفرصة استغلالاً كاملاً، فبدأ بنشر علومه ومعارفه الإلهية فيها. وكما ذكرنا فإنها تبقى فترة غير كافية لحصول التفاعل الكامل بين المجتمع الإسلامي، وبين منهج الإمامعليه السلام ومدرسته.

الإمام الصادقعليه السلام والمنصور

وعلى أية حال فالإمامعليه السلام قد اغتنم هذه الفترة في نشر علومه وآرائه وأفكاره العلمية في مجالات العلوم كافةً، لكنه في فترة التضييق عليه، وتحفّظ السلطات على تحرّكاته راح يمارس ذلك النشاط باستعمال لغة الإشارات في بعض الأحيان، أي أنهعليه السلام كان يستعمل الإشارات ويرسلها إلى أتباعه وأصحابه؛ خوفاً عليهم من ضغط السلطة آنذاك؛ ذلك أن السلطات كما هو معروف عنها لم يكن ليمنعها حقّ ولا ليردعها دين أو

رادع عن أن تفعل كل ما تريد حتى وإن كان خلاف الدين، مادام يصب في مصلحتها الشخصية.

ومن ذلك أن المنصور نفسه كان يعمد إلى التعتيم على الإمام الصادق عليه السلام كما يروى في الحادثة المعروفة التي حجّ فيها المنصور في إحدى سنوات خلافته، وقد حصل له ما حصل لهشام بن عبدالملك حينما لم يستطع أن يستلم الحجر الأسود المقدس، فوضعت له طنفسة وجلس عليها ينتظر أن ينحسر الناس، أو أن يفرجوا له عن الطريق ليصل إلى الحجر الأسود. وهنا دخل الإمام الصادق عليه السلام، فانفرج له الناس سماطين، وفتحوا له الطريق حتى وصل إلى الحجر الأسود واستلمه، فالتفت أحد الجالسين إلى أبي جعفر المنصور وقال له: من هذا؟ فقال له المنصور: لا أعرف من هو. ثم سأل الربيع عنه، فقال له الربيع: هذا هو جعفر بن محمد الصادق. فقال له المنصور: هذا هو جعفر الذي اتّخذه أهل العراق ربّاً؟ فقال الربيع: لا أدري، وما أدريه أن هذا جعفر بن محمد الصادق.

ولنلاحظ هنا اللغة التي استعملها المنصور في قوله: اتخذه أهل العراق ربّاً، فهو أُسلوب ينمّ عن مكر وخداع وتزييف للحقائق، وعن محاولة واضحة وعقيمة في التعتيم على الإمام عليه السلام وإبعاده عن الناس.

وفي هذه الأثناء دخل أحد الغلمان على المنصور فأسرّ إلى الربيع شيئاً، فأتى الربيع للمنصور وهو جالس فقال: يا أمير المؤمنين، مات فلان مولاك البارحة، فقطع فلان مولاك رأسه بعد موته. فاستشاط وغضب، ثم قال لابن شبرمة وابن أبي ليلى وعدّة من القضاة والفقهاء: ما تقولون في هذا؟ فقالوا جميعهم: ما عندنا في هذا شيء. ذلك أنهم احتاروا في

أمرهم؛ فهذا ليس حياً حتى يقال: قتله فعليه الدية، ومن جانب آخر هو اعتدى على ميت وقطع رأسه.

فراح المنصور يردد المسألة ويقول: أقتله أم لا؟ فقالوا: ما عندنا في هذا شيء، ولكن قد قدم رجل الساعة، فإن كان عند أحد شيء فعنده الجواب في هذا، وهو جعفر بن محمد، وقد دخل المسعى. فقال للربيع: اذهب إليه، واسأله. فأتاه الربيع وهو على المروة، فأبلغه الرسالة، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «حتى أفرغ ممّا أنا فيه». فلمّا فرغ عليه السلام جلس في جانب المسجد الحرام فقال للربيع: «اذهب فقل له: عليه مئة دينار».

فلمّا أبلغه ذلك قالوا له: فسله كيف صار عليه مئة دينار؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: «في النطفة عشرون ديناراً، وفي العلقة عشرون، وفي المضغة عشرون ديناراً، وفي العظم عشرون ديناراً، وفي اللحم عشرون ديناراً، ثم أنشأناه خلقاً آخر، وهذا هو ميت بمنزلته قبل أن ينفخ فيه الروح في بطن أمّه جنيناً».

فرجع إليهم فأخبرهم بالجواب، فأعجبهم ثم قالوا: ارجع إليه فاسأله عن الدنانير لمن هي؟ لورثته، أم لا؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: «ليس لورثته فيها شيء، إنما هذا شيء صار إليه في بدنه بعد موته. يحجّ بها عنه، أو تصير في سبيل من سبل الخير».

فالتفت المنصور إلى الفقهاء وقال: أليس فيكم من يستطيع أن يجيء بمثل هذا الجواب؟[1]

والغرض هنا هو هذا اللون من البوادر التي كانت تصدر من المنصور وأمثاله من الخلفاء؛ سواء كانوا عباسيين، أو أمويين ضد الأئمّة عليهم السلام، وهي

(١) الكافي ٧: ٣٤٧ / ١، الاستبصار ٤: ٢٩٥ ـ ٢٩٦ / ١١١٣، ولم يذكرا طرف الرواية.

بوادر معروفة ومكشوفة، والغرض منها واضح هو التعتيم الذي أشرنا إليه. وكما رأينا فإن في قول المنصور لهم: أليس فيكم من يستطيع أن يجيء بمثل هذا الجواب؟ دلالة واضحة على أن المنصور كان يغيظه أن يجيء الإمام الصادق عليه السلام بالأحكام الشرعية المستندة إلى الأدلّة الشرعية المعتمدة على القرآن الكريم دون أن يتمكّن الفقهاء الذين يضمهم تحت جناحه، والذين يصحبونه في حلّه وترحاله، ويحضرون مجالسه من أن يأتوا بمثل هذا الجواب، فكان هذا الأمر يغيظ المنصور من الإمام أيضاً غيظاً شديداً مابعده غيظ، وهو ما حمله على ذلك السؤال الذي توجّه به إلى الفقهاء الذين عجزوا عن الإجابة عن مثل هذه المسألة، وعن حلّها معتضدة بالأدلة المستندة إلى كتاب الله تبارك وتعالى.

وقد مر الإمام عليه السلام في هذه الفترة بمرحلتين:

المرحلة الأولى: مرحلة التشديد

وهي مرحلة كانت نتيجة واضحة لذلك الحقد والبغض والغيظ عمد هؤلاء الخلفاء والسلاطين إلى التشديد على الإمام الصادق عليه السلام وإلى التضييق عليه بكل ما أوتوا من وسيلة وطاقة، حتى وصل الأمر بأصحاب الإمام عليه السلام إلى أنهم حينما يحتاجون إليه في مسألة كانوا لا يستطيعون الوصول إليه للحصول على جوابها، أو على جواب الإشكال الذي يعترضهم، أو الذي يعترض به عليهم غيرهم.

ومن هنا فإن الإمام عليه السلام كان يعتمد التواصل مع أتباعه وصحابته عن طريق بعض أصحابه غير المراقبين أنفسهم، أي أنه عليه السلام يجعل بعض أصحابه ممن لا عين عليهم همزة وصل بينه وبين صحابته الذين فتحت عليهم عيون السلطات، والذين لا يستطيعون أن يزوروا الإمام عليه السلام في بيته؛

لأنه ـ كما ذكرنا ـ كان مراقباً ، حيث إن السلطات قد فرضت عليه رقابة شديدة تحصي عليه من خلالها الداخل عليه والخارج منه، فإذا حدث ودخل أحد عليه إلى بيته عليه السلام فإن السلطة تضع عليه علامة استفهام، وحينئذٍ سوف يتعرّض إلى المضايقة والمساءلة ، بل إلى السجن، وما إلى ذلك.

فكان من تعرض له مسألة من أصحاب الإمام عليه السلام يعجز أن يصل إليه عليه السلام ؛ لتلك المراقبة الشديدة التي كانت مفروضة على منزله عليه السلام ، فكانت هذه المسائل تؤخّر غالباً عن حينها حتى وإن كانت هامّة جدّاً، وكانت الحاجة إلى الحصول على الإجابة عنها ملحّة جدّاً.

واستمر الوضع على ذلك الحال من التضييق على الإمام عليه السلام ، والتشديد عليه وعلى زوّاره ومن يريدون أن يتفيّؤوا ظلال علمه، بحيث إن الإمام عليه السلام كان يضطر في كل أحيانه إلى أن تخرج أجوبته إلى مريديه وأصحابه ممن فُتحت عليهم أعين السلطة عن طريق أصحابه الذين لم يكونوا كذلك، والذين جعلهم همزة وصل ـ كما ذكرنا ـ بينه وبين أصحابه أُولئك.

الفترة الثانية: فترة ما بعد التشديد

إذن فالإمام عليه السلام بقي محاصراً، مضيّقاً عليه، مشدّداً على زوّاره حتى ألقى الله تبارك وتعالى في روع المنصور أن يسأل الإمام عليه السلام عن مخصرة رسول الله صلى الله عليه وآله، والمخصرة: هي عصا أو قضيب يشير به الخطيب أو الملك إلى الناس إذا خاطبهم، أو خطبهم، قال الشاعر:

يجيدون فصل القول في كل خطبة ... إذا وصلوا أيمانهم بالمخاصر

ويقال: اختصرتها، وتخصرت بها، إذا أمسكتها بيدك[١].

وعلى أية حال فالنبي صلى الله عليه وآله كان عنده مخصرة يمسكها بيديه حينما يخطب الناس، كما هو شأن الخطيب أن يفعل ذلك، بحيث إنه يتكئ عليها، أو يشير إليهم بها، أو ما إلى ذلك. والمنصور ـ التزاماً منه بالشكليات التي كان يسعى وراءها هو وأمثاله ممّن يقيمون للشكليات والأعراض وزناً دون الجواهر والحقائق ـ طالب الإمام الصادق عليه السلام بها، دأبه في هذا دأب أسلافه ومن سبقه ممن يلجؤون إلى هذه الشكليات ليدعّموا بها سلطانهم، فهو يريد المخصرة ليضعها بيده متباهياً بها وهو يخطب الناس، مرياً إياهم أنه يحمل مخصرة رسول الله صلى الله عليه وآله، ظناً منه أن هذا يمنحه منزلة في قلوبهم. تقول الرواية: إنّ المنصور قد كان همّ بقتل أبي عبد الله عليه السلام غير مرة، فكان إذا بعث إليه ودعاه ليقتله ثم نظر إليه هابه ولم يقتله، غير أنه منع الناس عنه، ومنعه من القعود للناس، واستقصى عليه أشدّ الاستقصاء حتى إنه كان يقع لأحدهم مسألة في دينه؛ في نكاح، أو طلاق، أو غير ذلك، فلا يكون علم ذلك عندهم، ولا يصلون إليه، فيعتزل الرجل أهله. فشق ذلك على شيعته، وصعب عليهم حتى ألقى الله عز وجل في روع المنصور أن يسأل الصادق عليه السلام ليتحفه بشيء من عنده لا يكون لأحد مثله، فبعث إليه بمخصرة كانت للنبي صلى الله عليه وآله طولها ذراع، ففرح بها المنصور فرحاً شديداً، وأمر أن تشقّ له أربعة أرباع، وقسمها في أربعة مواضع، ثم قال له: ما جزاؤك عندي إلّا أن أُطلق لك، وتفشي علمك لشيعتك، ولا أتعرّض لك ولا لهم، فاقعد غير محتشم،

---

(١) الفائق في غريب الحديث والأثر ١: ٣٢٣ ـ خصر، الصحاح ٢: ٦٤٦ ـ خصر، معجم مقاييس اللغة ٢: ١٨٨، وصدر البيت فيها: يكاد يزيل الأرض وقع خطابهم.

وأفتِ الناس، لكن لا تكن في بلد أنا فيه. ففشا العلم عن الإمام الصادق عليه السلام[(١)].

وفعلاً فتح الإمام عليه السلام باب داره في المدينة لرواة الحديث ولطالبي العلم، ولزوّاره، فراح الناس يدخلون عليه دون خوف ووجل. وفي هذه الأيام أيضاً استطاع الإمام عليه السلام أن يبثّ الكثير من العلوم التي كان يريد إيصالها إلى الناس؛ ولذا فإن داره الشريفة كانت تعجّ بالناس؛ فقد كانت مقصداً للوافدين، ومأمّاً للعلماء، ومنهلاً لطالبي العلم ومريديه، وفتح الإمام عليه السلام لهؤلاء ذراعيه، واحتضن عقولهم وأفكارهم وأذهانهم، وراح عليه السلام يقولبها بقالب الإسلام النقي، ويغذوها بفكر السماء، ويصوغها بصياغة القرآن الكريم، مفضياً إليها عن طريق الحقّ، مغذّياً إيّاها بالمعارف الحقّة المستقيمة وغير المشوهة، وهي المعارف النابعة من السماء، والتي بلغتها لرسول الله صلى الله عليه وآله عبر أمينها جبرائيل عليه السلام.

ولهذا الدور الذي قام به الإمام الصادق عليه السلام أضحت الطائفة الشيعية تنتسب إليه، وتسمى باسمه، فيقال: الطائفة الجعفرية، مع أن الإمام الصادق عليه السلام بالنسبة إلى بقية الأئمة الكرام من آل البيت النبوي الشريف عليهم السلام كأحدهم من ناحية العلم والإيمان والتقوى والتبليغ وما إلى ذلك، لكن لِما قام به الإمام عليه السلام من دور هامّ، ولِما اضطلع به من خدمة دين جدّه صلى الله عليه وآله عبر تبليغ أهدافه وآدابه وعلومه؛ عقيدة وأصولاً وفقهاً وتفسيراً وأخلاقاً، وما إلى ذلك نسبت هذه الطائفة الحقّة إليه، فقيل: الطائفة الجعفرية.

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٦٤، بحار الأنوار ٤٧: ١٨٠، مدينة معاجز الأئمة عليهم السلام ٥: ٢٤٤ / ١٦٠٦.

إذن فالأضواء التي سُلّطت ثانية على الإمام الصادق عليه السلام كانت أكثر من غيره بعد انفراج الأزمة التي افتعلها المنصور ضدّه، فكان أن راح عليه السلام يستغلّها أقصى غايات الاستغلال في سبيل خدمة هذا الدين، وفي سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي سبيل حثّ الناس على الارتباط بالدين أكثر فأكثر. فكانت حصته عليه السلام في مجال نشر فقه آل البيت عليهم السلام وعلومهم أكثر من حصّة غيره، وإلّا فإنه ليس هنالك من ارتباط خاص بين الشيعة والإمام الصادق عليه السلام غير ذلك الارتباط الذين ينبغي أن يكون بين الشيعة وبين أبي الأئمة أمير المؤمنين عليه السلام، أو بين الحسنين عليهما السلام، أو بين بقية الأئمة عليهم السلام.

ولو أننا أرادنا أن ندقّق أكثر في المسألة لرأينا أننا ربما نختصّ بأمير المؤمنين عليه السلام من ناحية عاطفية بشكل أكبر من اختصاصنا بغيره؛ ذلك أن أمير المؤمنين عليه السلام هو راعي هذا المذهب، وهو راعي الشيعة، وهو الذي نص عليه رسول الله صلى الله عليه وآله على أنه عليه السلام وشيعته هم الفائزون، وهم راضون مرضيّون.

مدرسة الكوفة

ثم بعد ذلك أخذت علوم الإمام عليه السلام بالانتشار شيئاً فشيئاً، حتى أُسست مدرسة الكوفة التي هي في واقع الأمر امتداد لمدرسة الإمام علّي عليه السلام، ولمدرسة الإمام الصادق عليه السلام في المدينة. وما من شكّ في أن الإمام الصادق عليه السلام يمثّل الامتداد الروحي والجسدي لأمير المؤمنين عليه السلام، كما أنه يمثل ذينك الامتدادين لرسول الله صلى الله عليه وآله. ومما ساهم في رسوخ مدرسة الإمام الصادق عليه السلام في الكوفة ونشوئها وثباتها واستقرارها واستمرارها هو أن في الكوفة تلاميذ كثراً للإمام أمير المؤمنين علّي عليه السلام، عاشوا في زمن

الإمامعليه السلام، وشكّلوا طلائع مدرسة فقهية شيعية له فيها كعبد الله بن مسعود، وعمار بن ياسر، وميثم التمّار، وغيرهم من أصحاب الإمام عليّعليه السلام.

إذن ممّا ساهم في نشوء مدرسة الإمام الصادقعليه السلام في الكوفة ورسوخها وثباتها هو أن الإمام الصادقعليه السلام قد رأى أن في الكوفة أرضية صالحة لنشوء مثل هذه المدرسة؛ كونها منطقة ذات خلفية حضارية، وهذه الخلفية الحضارية هي عينها السبب الذي حدا بالإمام عليّاًعليه السلام إلى أن ينتقل عاصمته من مدينة رسول اللهصلى الله عليه وآله إليها.

أمير المؤمنينعليه السلام ونظرته العميقة إلى القانون

إن الإمام عليّاًعليه السلام قد اختصّ بكثير من الأمور التي لم تكن في منظور غيره ضمن عصره، فكان لذلك قد خلق لزمن غير زمنه، أي أنه خلق لزمان بعد زمنه بقرون كثيرة. ومن هذه الأشياء التي تميز بها أمير المؤمنينعليه السلام ما سوف نتناوله تالياً تحت عنوان (خصائص مدرسة أمير المؤمنينعليه السلام وأوّليّاتها).

خصائص مدرسة أمير المؤمنينعليه السلام وأوّليّاتها

لقد كانت الكوفة ومدرستها زمن أمير المؤمنينعليه السلام تموج بأفكار الإمامعليه السلام وآرائه ونظرياته، بل بالأوّليّات التي تفرّد بها الإمام أمير المؤمنينعليه السلام، ونحن نذكر من هذه الأوّليّات كخصائص لمدرسته:

الأولى: محاكم التمييز

فمن هذه الأوليات التي اختصّ بها الإمام عليّعليه السلام ما أنشأه ممّا يصطلح

عليه في أيّامنا هذه بمحاكم التمييز، حيث إنه عليه السلام أول من جسّد هذه الفكرة، وجاء بها أُنموذجاً عملياً طبّق من خلال ما كان يقوم به. وإذا كانت محاكم التمييز في عصرنا الحاضر يُرى أنها من إبداعات هذا العصر، فإننا نقول: إن هذا غير صحيح، بل هو مغالطة واضحة، ذلك أن الإمام عليّاً عليه السلام هو أول من أسّس هذه المحاكم حينما بادر إلى إصدار قرار يتمّ بموجبه إحضار جميع القاضايا التي يبتّ بها القضاة في زمنه عليه السلام فيما يمكن أن نسميه محاكم الابتداء إليه. أي أنه بعد أن تتمّ المحاكمة في محاكم الابتداء، ويُنطق بالحكم فيها على المتّهمين، تُعرض ثانية على الإمام علّي عليه السلام؛ ليميّز هذه الأحكام، وليقرّ الصائب منها، ويرفض غير الصائب منها، ويعيد الحقّ إلى أهله وإلى نصابه.

الثانية: بناء السجون على أساس التأديب والإصلاح

وممّا اختص به أمير المؤمنين عليه السلام وتميّز به عن غيره نظرته العميقة إلى مسألة السجون التي توضع عادة عند الناس لإيقاع العقوبة على المجرمين بعد ثبوت الجرم عليهم. لكن الإمام عليه السلام كانت له نظرة أُخرى تختلف عن تلك النظرة التي كانت سائدة، وهي بناء سجون على أساس مبدأ الإصلاح والتأديب، وهي فكرة جزائية. أي أن الإمام عليه السلام كان ينظر إلى السجن على أنه مؤسسّة تربوية إصلاحية تقوم بإعادة تأهيل المجرم وإرجاعه فرداً صالحاً للمجتمع، لا أنه مؤسسّة قائمة على ضرورة إيقاع العقاب على الجاني.

الثالثة: شرطة الخميس

فالإمام عليّ عليه السلام يعتبر أول من بادر إلى تأسيس هذا التشكيل الذي كان

يحفظ الأمن في البلاد للعباد، ويساعد على استتبابه عبر متابعة كل من يحاول أن يمسّ بالأمن الفردي والجماعي، ويسيء إلى المواطنين.

الرابعة: سكّ النقود بالسكة الإسلامية

إننا جميعاً نعتقد ـ وهو اعتقاد مجافٍ للحقيقة، كما سيظهر لنا بعد قليل إن شاء الله تعالى ـ بأن أول من سكّ سكّة الأموال في الإسلام هو عبد الملك بن مروان بإشارة من الإمام الباقر عليه السلام، لكن بعد التتبّع والدراسة والبحث توصّل الباحثون إلى حقيقة مغايرة لتلك، وهي ما يثبته الكتّاني في كتابه (التراتيب الإدارية) حيث عقد فيه بحثاً شاملاً ومطوّلاً أثبت فيه أن الإمام عليّاً عليه السلام هو أول من سكّ النقود الإسلامية، وفصلها عن السكة الأجنبية.

الخامسة: التدريس الجماعي

حيث إنه عليه السلام سعى إلى تأليف جماعات أو حلقات تحضر كلّ حلقة منها، أو كل جماعة منها عند أحد المدرسين أو العلماء ممّن يستطيع التدريس؛ ليقوم بتعليم هؤلاء، بعد أن كان العلم يؤخذ على شكل فردي.

إذن فالإمام عليّ عليه السلام سعى عبر إبداع هذه الآراء والأفكار سعياً حثيثاً؛ نظرياً وتطبيقياً إلى تطبيقها، أي أنه عليه السلام أقام أساسها أولاً، ثم قام بتطبيقه تطبيقاً فعلياً. ومسألة طلب العلم الجماعي وإن كان عليه السلام قد اقتدى فيها بنبينا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم إلّا إنه عليه السلام قد وسّع فكرتها توسيعاً كاملاً، وعمّقها ورسّخها في أذهان الناس، حتى يدفعهم إلى أن يسعوا في طلب العلم على تلك الصورة التي ذكرناها.

وهكذا فإننا نجد أن مدرسة الإمام عليّ عليه السلام قد تميزت بكثير من

الأوليات، منها ما أشرنا إليه أنفاً، ومنها ما لم نشر إليه، وهو كثير. فكانت بحقّ مدرسة متميّزة نشأت تحت رعاية أمير المؤمنين عليه السلام، وترعرعت وتبرعمت تحت نظره الشريف، ثم بعد ذلك نضجت وآتت نماءها وثمارها على يد الإمام الصادق عليه السلام سيما فيما يتعلّق بالمدرسة الفقهية والأُصولية والتفسيرية والكلامية، بل والمدرسة التأثيرية التي نشأت هنا.

إن مدرسة الإمام الصادق عليه السلام الشريفة هي الامتداد الطبيعي والعلمي لمدرسة جدّه أمير المؤمنين عليه السلام، هذه المدرسة التي بلغت حلقات الدرس فيها أكثر من تسعمئة حلقة من حلقات طلبة العلم كما هو مروي عن الحسن الوشّاء حيث إنه قال: دخلت في مسجد الكوفة، فوجدت تسعمئة شيخ كلٌّ يقول حدثني جعفر بن محمد الصادق عليه السلام[1].

وهنا لنا أن نتأمّل ضخامة هذه المدرسة الشريفة المقدسة وأبعادها العلمية الشاسعة، لكنها لم تُتح لغير الإمام الصادق عليه السلام من أئمة أهل البيت عليهم السلام في باقي عصورهم؛ وهذا هو ما أوجب انتشار العلم عن الإمام الصادق عليه السلام أكثر وأكثر، وهو ماأدى إلى انتشار المذهب الشريف على يديه الكريمتين. وهكذا شاء الله تبارك وتعالى أن يرتبط هذا المذهب الشريف الحقّ باسمه الشريف الطاهر المبارك. وهذا هو كل ما في الأمر، وإلّا فإنه ليس هنالك من فرق ـ كما ذكرنا قبل قليل ـ بين الإمام الصادق عليه السلام وبين آبائه وأبنائه الكرام عليهم السلام من ناحية العلم أو التقوى أو الورع أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو نشر علوم أهل البيت عليهم السلام غير أن الإمام الصادق عليه السلام قد أُتيحت له هذه الفرصة التي لم تُتح لغيره منهم عليهم السلام عبر هذه المدرسة

(١) رجال النجاشي: ٤٠ / ٨٠.

التي استغل الظروف لتأسيسها ولبنائها، ولجعلها منطلقاً ومناراً لطلّاب العلم والهداية والحقيقة.

تلامذة الإمام الصادقعليه السلام ليسوا من الشيعة فقط

وهنا نقطة هامة أرغب أن أجلّيها للآخرين، وأن أبيّنها لهم؛ لما لها من أهمية قصوى، وهو أننا حينما نأتي إلى تلامذة الإمام الصادقعليه السلام فإننا لا نجدهم مصنّفين وفق هذا التصنيف الحادّ الذي عرف بعد ذلك عند المسلمين، فتصنيف أن هؤلاء فقهاء اثنا عشرية، أو شوافع، أو موالك، أو أحناف، أو حنابلة، أو غير ذلك لم يكن معروفاً على عهد الإمام الصادقعليه السلام ولا في مدرسته على النحو المعروف عندنا الآن، بل إننا حينما ندخل مدرستهعليه السلام فإننا نجد فيها الكثير من أبناء المذاهب الأُخرى الذين جاؤوا يتلمذون للإمام الصادقعليه السلام ويأخذون عنه. وهكذا فإن هذه المدرسة كانت تضمّ الكثير من أبناء المذاهب الإسلامية الأُخرى التي لا تتّفق مع المذهب الجعفري في كثير من الفروع.

وهكذا كانت مدرسة علميّة تضم فقهاء كثراً من أبناء المذاهب الإسلامية الأُخرى، وتضمّ كثيراً من المتصوّفة، وكثيراً من علماء الكلام، وكثيراً من الأُدباء وعلماء اللغة، بل حتى من علماء العلوم التطبيقية الأُخرى كما مرّ بنا في مسألة تلمذة جابر بن حيان للإمام الصادقعليه السلام في علم الكيمياء. كما أنه كان هناك علماء في التاريخ وأيام العرب، وغيرهم ممن كانت تتفرّق بهم الميول والسبل والاتجاهات الفكرية أو العقيدية أو الفقهية، أو ما إلى ذلك، لكنهم كانوا كلهم مجموعين تحت خيمة مدرسة الإمام الصادقعليه السلام التي صهرتهم جميعاً في بوتقتها وجعلت منهم تلامذة لهعليه السلام.

وهكذا فإن هذه المدرسة كانت تمثل شعاراً للوحدة الإسلامية؛ لأنها لم تكن تختصّ بمذهب دون مذهب، ولم تكن لتيار دون تيار، أو لأبناء عقيدة دون عقيدة أُخرى. فكانت بهذا بحقّ أنموذجاً فريداً لنشر روح الوحدة الإسلامية بين المسلمين، بل كانت مدرسة تمثل روح الإنسانية.

ومن باب أن الشيء بالشيء يذكر يروى أن سفياناً الثوري دخل في يوم من الأيام على الإمام السجاد عليه السلام فوجده على غير طبيعته، حيث إن بوادر الألم كانت تلوح على وجهه، فجلس بين يديه وقال له: سيدي، يابن رسول الله، روحي فداك، أرى أنك ليس على طبيعتك، فما عدا؟ فالتفت إليه الإمام عليه السلام وقال له: «كان عندنا ضيوف واستعجلت هذا الغلام بالشواء الذي كان في التنّور ـ وهو جدي ـ فأخرج السفود من التنور وهو يلتهب ناراً فوقع على صبي لي فقتله، فاضطرب هذا الغلام، فقلت له: يا هذا على رسلك إنك لم تتعمّد هذا». فسألوه: هل تألمت لموت الصبي؟ قال: «لا، إن الصبي مضى لأجله، لكنني تألمت لما أدخلت من الرعب على قلب الغلام». ثم صاح للغلام وقال له: «أنت حرّ لوجه الله، أما إنك لم تتعمّده»[1].

فالإمام السجاد عليه السلام يقول له: إني لم أتألّم لفقد ولدي، بل إنني أتألم لهذا الغلام الذي دخل الرعب قلبه خوفاً مني، ظانّاً أني سوف أُعاقبه على ما لم يكن يقصده من فعل. فأنا أتألم له لأنه قد ارتعب بسببي. ثم بعد ذلك كما رأينا استدعى الغلام وأعتقه ردّاً لاعتباره، ومجازاة له على ما أدخله من روع ورعب في قلبه.

ولنا هنا أن نتصور عظمة الأخلاق التي كانت عليها نفسية هذا الإمام

---

(١) مسكن الفؤاد: ٦١، بحار الأنوار ٤٦: ٩٩، ٧٩: ١٤٢، مطالب السؤول ٢: ٤٨، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٩٦.

الطاهرة التي أبت أن تكون سبباً في دخول الرعب إلى قلب غلام خادم.
والإمام الصادقﷺ لم يكن دون ذلك، بل إنه كان نسخة تنطبق تمام الانطباق على آبائه الكرامﷺ من حيث أخلاقهم، وعلومهم، وتقواهم وورعهم، وحبهم للخير، وشفقتهم على الناس ورأفتهم ورحمتهم بهم؛ ولذا فإنهﷺ قد كرّس حياته لأداء ذلك الدور، ولنشر علوم أهل البيتﷺ ما أمكن ذلك، وما قاد إليه سبيل. كل ذلك من أجل خدمة الناس والمجتمع، ومن أجل إنقاذهم من الضلالة إلى الهدى، ومن التيه إلى الاستقامة.

المبحث الرابع: صفات الإمام الصادقﷺ

ومن خلال ما مرّ بنا نستطيع أن نتلمّس صورة واضحة لصفاتهﷺ وآدابه وأخلاقه ولعلمه. وهنا سوف نتطرّق بشكل موجز إلى جملة من صفاته الكريمة التي سوف نتناولها عبر ركيزتين:

الأولى: صفاتهﷺ الجسدية

إذن بقي هنا قبل الإشارة إلى صفاته الخُلُقية الكريمة أن نشير إلى صفاته الجسدية، والتي ينص المورخون على أنهﷺ كان ربعة، أبيض الوجه، رقيق البشرة، أشمّ، حالك الشعر.

الثانية: صفاتهﷺ الخُلُقية

كان الإمامﷺ يتّصف بالكثير من الصفات الحميدة التي تنمّ عن خلق سامٍ، وحسن تربية سماوية عالية، ووراثة أنبياء الله تبارك وتعالى في علومهم وأخلاقهم، ومنها:

أولاً: لباسه عليه السلام

كان عليه السلام يلبس لباساً جيداً ، ويقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[1]. ثم يقول عليه السلام : «البس وتجمل؛ فإن الله جميل يحب الجمال ما كان من حلال»[2].

وقد روي عنه أنه دخل عليه أحد الصوفية ليشنع عليه لبسه ذلك، فقال له: إن أباك كان يلبس الخشن، ويأكل الجشب، ويركب الحمار، ويعود المريض، وأنت تلبس هكذا؟ وكان الإمام متكئاً، فاستوىٰ جالساً، فقال له: «كان ذلك زمان إقتار وافتقار، وكانوا يعملون على قدر إقتاره وافتقاره، وهذا زمان قد أسبل كلّ شيء إليه». ثم حسر عن ردن جبّته، فإذا تحته جبّة صوف بيضاء يقصر الذيل عن الذيل والردن عن الردن، وقال: «لبسنا هذا لله تعالى، وهذا لكم»[3].

مناقشة الرواية

إن هذه الرواية بعيدة كل البعد عن أخلاق الإمام عليه السلام وعن آدابه، فليس من شيم الإمام ولا من عاداته أن يعنّف شخصاً ويؤذيه لمجرّد أن ذلك الشخص انتقده، أو وجه اللوم له، أو حتى فيما لو تعمّد إيذاءه. وهو عليه السلام إنما يتابع بهذا خط آبائه الكرام عليهم السلام الذين كثيراً ما تعرّضوا للتشنيع والتشهير والأذى، لكنهم مع ذلك لم يقابلوا بالمثل، بل كانوا يقابلون الإساءة بالإحسان، ويقابلون الجرم بالصفح والعفو والمغفرة كما هو

(١) الأعراف: ٣٢. (٢) دعائم الإسلام ٢: ١٥٤ / ٥٤٤.
(٣) بحار الأنوار ٤٧: ٢٢١، وفيه أنها مع الثوري.

معروف عن آبائهعليهم السلام في كثير من المواقف التي لا يتّسع المجال لذكرها.

إذن فالإمام الصادقعليه السلام لم يكن من شأنه ولا من شيمه أن يرد بذلك الرد على ذلك الإنسان. وهوعليه السلام إن كان قد وجد فيها إساءة إليه فإنه بناء على مشاكلته لآبائه الطيبين الكرامعليهم السلام في الأدب والحلم والعفو سوف يعفو عن ذلك الإنسان ويصفح، وسوف يمتنع عن الرد عليه مثل ذلك الرد الذي لا ينم عن واقع الأئمةعليهم السلام، وهو الواقع الذي كان يتّسم كله بالأدب، والعفو والصفح والمغفرة، ومعاملة الناس بالرفق واللين؛ كونهم سفراء إلى الله تبارك وتعالى.

إن منهج الإمام الصادقعليه السلام في لباسه كان واضحاً؛ ذلك أنه كان يحبّ أن يلبس اللباس الجديد والجيّد، وكان يحب أن يبرز للناس بملابس محترمة؛ سواء بين أصحابه، أو بين غيرهم. وكان من أخلاقهعليه السلام أنه يحب أن يتصدق بذلك اللباس بعد ذلك.

ثانياً: منهجيتهعليه السلام في الطعام والإطعام

كما أنهعليه السلام كان له منهجيته الخاصة في طعامه؛ حيث إنه كان له منهج واضح في ذلك، فإذا دعا قوماً إلى طعامه فإنه يكثره ويطيّبه، ويقدم لهم من أطيب الألوان وأجودها. وهوعليه السلام فوق ذلك كانعليه السلام يحمل الماء بيده ويسقي المدعوين، بل إنه كان يسقي غلمانه أيضا. يقول أبو بصير: «وكان إذا وضع الطعام لأصحابه كثّره وأطابه»[1].

وكانعليه السلام إذا ما جلس إلى الطعام دعا غلمانه إلى أن يجلسوا معه، ويحمل قربة الماء ويسقيهم، فقال أحدهم: ما تصنع يابن رسول الله؟ مرنا

---

(١) المحاسن ٢: ٣١٤ / ٣٢.

ونحن بخدمتك. فقال: «الأب واحد وهو آدم، والأم واحدة وهي حوّاء، ويجمعنا دين الإسلام»[١].

وبهذا اللون من الخلق العالي كان الإمام عليه السلام يعيش بين الناس ويتعامل معهم ويتعامل مع مشاكلهم ومع قضاياهم ويسعى إلى أن يكمل لهم أمور دينهم ودنياهم، فيعلمهم مكارم الأخلاق، ويهديهم إلى سواء الصراط، ويغذي عقولهم وأفكارهم وأرواحهم بالأخلاق الحميدة، وبالعقائد الحقّة، وبالعلوم الشريفة التي ورثها عن أهله وآبائه من أئمة أهل البيت عليهم السلام.

أهمية الوقت في حياة الإمام الصادق عليه السلام

ولأهمية كل هذا عند الإمام عليه السلام نجد أنه يقسم وقته إلى أقسام، فقد خصّص كلّ قسم منها إلى معالجة حالة من الحالات التي تقتضي منه التدخل والعلاج في الحالات الفردية، أو الحالات الجماعية، أو الحالات التي تمسّ أمن الفرد، أو أمن الأمّة بأجمعها.

ثالثاً: أنه عليه السلام كان يكلم الناس على قدر عقولهم

ومن هنا فإننا بالرجوع إلى سيرته الشريفة العطرة نجد أنه قد جعل وقته على أقسام؛ فكان عليه السلام عند الضحى يحضر لأجوبة المسائل التي تعترض الناس، والتي هم بحاجة إلى إيجاد أجوبة عنها. وكان في هذه الجنبة يراعي عقول الناس ومستوياتهم في الأجوبة التي يلقيها عليهم بناءً على أن الأنبياء والأوصياء عليهم السلام يخاطبون الناس على مقدار عقولهم، ومن ذلك ما يروى من أن المفضل بن عمر رضي الله عنه دخل عليه يوماً وسأله عن قوله تعالى:

---

(١) مثله في الكافي عن الإمام الرضا عليه السلام. انظر الكافي ٨: ٢٣٠ / ٢٩٦.

﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[١]، فقالعليه السلام : «تأويل ذلك أن الله تعالى إذا أفنى هذا الخلق وهذا العالم، وسكن أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، جدّد الله تعالى عالماً غير هذا العالم، وجدّد خلقاً من غير فحولة ولا إناث يعبدونه ويوحّدونه، وخلق لهم أرضاً غير هذه الأرض تحملهم، وسماء غير هذه السماء تظلّهم. ولعلك ترى أن الله تعالى إنما خلق هذا العالم الواحد، وترى أن الله تعالى لم يخلق بشراً غيركم؟ بلى والله، لقد خلق الله تعالى ألف ألف عالم، وألف ألف آدم، وأنت في آخر تلك العوالم وأولئك الآدميين».

يقول أحد حضّار مجلس الإمامعليه السلام: وكان رجل قبله قد سأله عن السؤال نفسه فأجابهعليه السلام قائلاً: «مئة ألف آدم». وسأله ثالث فقال لهعليه السلام: «عشرة آلاف آدم». يقول أحد الحاضرين فاستغربت من هذا الكلام الذي صدر من الإمامعليه السلام؛ حيث إنهعليه السلام قد أجاب هؤلاء الثلاثة كل واحد منهم بخلاف ما أجاب به الثاني، فلما خرج السائلون توجهت إليه وقلت له: سيدي، إن كانت المسألة واحدة، فلماذا كان لها ثلاثة أجوبة؟ فأخبرهعليه السلام بأنها جواب واحد وإن تعدّدت؛ لأن العشرة آلاف هي من ضمن الألف ألف، والمئة ألف من ضمن الألف ألف كذلك، لكنهعليه السلام رأى أن عقلي ذينك السائلين لا يتّسعان إلى هذا العدد الضخم، فأجابهما بما أجاب خلاف الثالث[٢].

---

(١) ق: ١٥.

(٢) لم نعثر عليه بهذا النص وفي شرح الأسماء الحسنى ١: ٢٤٠ الحديث فقط دون بقية الأسئلة، كما أن ما فيه عن الإمام الباقرعليه السلام. وفي بعض الكتب أن رجلاً سأل الإمامعليه السلام عن الإمام: هل فوض الله إليه كما فوض إلى سليمان؟ فقالعليه السلام: «نعم». وذلك أنه سأله رجل من مسألة فأجابه، وسأله رجل آخر عن تلك المسألة فأجابه بغير جواب الأول، ثم سأله آخر عنها فأجابه بغير جواب الأولين، ثم قالعليه السلام: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ

فهو عليه السلام يريد أن يقول له بأن عقلي هذين لا يمكنهما أن يستوعبا هذا العدد الهائل، كما أنه عليه السلام أراد أن يجيبهما مقرّباً لهما هذا المعنى دون أن يتركهما من غير جواب، ويريد عليه السلام أن يبيّن لهما أنّ هنالك عوالم أُخرى غير عوالمنا.

العلم الحديث وفكرة وجود عوالم أُخرى

وهذا الذي أجاب به الإمام عليه السلام هو ما يسعى الآن العلم الحديث جاهداً وبشكل حثيث إلى إثباته والبرهنة عليه، ويحاول جاهداً أن يوثّقه عبر ما توصل إليه من كشوفات بواسطة أُجهزة الرصد المتطوّرة، وما إلى ذلك؛ ليحاول أن يثبت عبره أن هناك كواكب أُخرى مأهولة غير كوكبنا، أو أن هنالك عوالم أُخرى غير عالمنا تعيش في أجزاء أُخرى من هذا الكون الرحب الفسيح. وهذا الأمر كما يلوح من بعض الكشوفات والملاحظات والاستقراءات أنه ربما ينتهي الأمر معه إلى إثبات وجود هذه العوالم؛ حيث إن العلم الحديث فعلاً قد بدأ يقطع مسافات شاسعة وبعيدة في هذا المضمار.

إن العلم الحديث ربما يفاجئنا في يوم من الأيام بأدلّة قاطعة لا تقبل الشكّ أو التشكيك على وجود مثل هذه الحيوات في كوننا هذا، أي الكون المنظور والبعيد والمترامي الأطراف.

إذن فالإمام عليه السلام عنده أجوبة كثيرة تختلف باختلاف عقلية السائل، ومن هنا فقد ورد عن جدهم صلى الله عليه وآله قوله: «إنا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم»[1]. ولما كانوا عليهم السلام أوصياء خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله، وامتدادَ

جسّاب ﴿ ص: ٣٩. بصائر الدرجات: ٣٨١ / ١، ٤٠٧. ينابيع المعاجز: ٨٤، ٨٥.

(١) الكافي ١: ٢٣ / ١٥.

خطّ الرسالة المحمدية الخالدة، فوظيفتهم هي وظيفة الأنبياء عليهم السلام عينها؛ ولذا فإنهم يخاطبون الناس على قدر عقولهم كذلك، ويجيبونهم بما يناسب مستويات ذكائهم ومقدرتهم على الفهم والفحص والتمييز والاستعياب.

مسألة الديصاني

يروى أن أبا شاكر الديصاني سأل هشام بن الحكم رضي الله عنه قائلاً: ألك ربّ؟ قال: نعم، الله عزّ وجلّ ربّ السماوات والأرض. قال: أربّك قادر قاهر؟ قال: نعم، قادر قاهر. قال: هل يستطيع ربّك أن يدخل الدنيا كلها في بيضة، لا تكبر البيضة ولا تصغر الدنيا؟

فعجز هشام واستمهله الجواب قائلاً النظرة. فأنظره حولاً، ثم ركب هشام حتى دخل على الإمام الصادق عليه السلام وأخبره بما كان بينه وبين الديصاني، فقال له الإمام الصادق عليه السلام: «يا هشام، كم حواسّك؟». قال: خمس. قال: «أيها أصغر؟». قال: الناظر. قال: «وكم قدر الناظر؟». قال: مثل العدسة أو أقل منها. فقال له: «فانظر أمامك وفوقك، وأخبرني بما ترى». فقال: أرى سماء وأرضاً ودوراً وقصوراً وبراريَ وجبالاً وأنهاراً. فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «إن الذي قدر أن يدخل الذي تراه العدسةَ أو أقلّ منها قادر أن يدخل الدنيا كلّها البيضةَ لا تصغر الدنيا ولا تكبر البيضة»[1]. فأكبّ هشام على قدمي الإمام يقبّلهما، وهو يقول: حسبي يابن رسول الله.

ومع أن هشام بن الحكم رضي الله عنه كان عملاقاً في الفكر، وطوداً ضخماً شامخاً في العلوم إلّا إنه كما رأينا قد حيرته هذه المسألة، ووقف إزاء

---

(١) الكافي ١: ٧٩/٤، وفي التوحيد: ١٢٠/١٠ ـ ١٢ أنه سؤال وجهه رجل لأمير المؤمنين عليه السلام.

حلّها عاجزاً لا يعرف بما يجب؛ لأنه إن قال: إنه تعالى قادر على ذلك فإن السائل سوف يطالبه بالدليل، ولا دليل عنده، وإن قال بأنه تعالى غير قادر على ذلك كفر. ولذا فإننا نجده ﷺ شدّ الرحال إلى المدينة ليسأل الإمام عن جواب هذه المسألة.

ثم إننا نلمح في جواب الإمام عليه السلام دقّة واضحة في الجواب، وحكمة بارزة بيّنة، مع أنه جواب إقناعي، وليس جواباً علمياً، لكن الإمام عليه السلام عرف بأن السائل لا يمكنه أن يستوعب الجواب العلمي الضخم لسؤاله هذا، فعمد إلى إجابته بما يناسب عقله وهو الجواب الإقناعي[1]. أما الجواب العلمي الدقيق لهذه المسألة والذي يعالجها بشكل علمي فهو أن القدرة لا تتعلّق بالممتنعات أبداً. أما تفصيل هذه النظرية العلمية وبيانها ـ وهي أن القدرة لاتتعلّق بالممتنعات ـ فسوف نتركه إلى محلّه؛ لأننا إن أجبنا عنه هنا فسوف نقع في المفارقة نفسها، وسوف نلج في المطبّ عينه؛ ولذا فإننا سوف نرجئ الإجابة عنه إلى محلّ آخر، وإلى مقام آخر يتناسب معه.

---

(١) قد ذكرنا فيما مضى أن ذهنيّة السائل هذا لم تكن على مستوى تقبّل الأجوبة العلمية بدليلين، هما:
الأول: أنه لو كان ذا عقليّة علميّة لما سأل مثل هذا السؤال حتماً، إذ أنه حينها سيكون عارفاً بأن قصور البيضة عن قبول ذلك إنما هو قصور ذاتيّ فيها، وليس هو قصوراً من الفاعل ـ وهو الله جلّ وعلا ـ مطلقاً. ولو لم يكن كذلك لما فاه بمثل هذا.
الثاني: اقتناعه بجواب الإمام عليه السلام مع أن الذي دخل العين هو صورة العالم لا العالم نفسه، وبينهما بون شاسع وفرق واسع: فالصورة غير المادّة: لأنهما قسيمان، والقسيم غير قسيمه حتماً كما نُصّ عليه وأُثبت في محلّه. وهذا واضح من خلال تقسيم الفلاسفة العلل إلى أربع: مادّيّة، وصوريّة، وفاعليّة، وغائية.

ثالثاً: صِلاتهعليه السلام وعطاياه

وكان من أخلاق الإمامعليه السلام السامية ـ إضافة إلى ما مرّ من كونه عالماً فقيهاً ملهماً بتعليم من السماء ـ أنهعليه السلام كان على خلق عالٍ، وعلى جانب كبير من التربية التي غرستها فيه السماء، والتي زرعتها الآداب المحمدية الشريفة في نفسه المقدسة. ومن هذا الخلق ما يروى من أنهعليه السلام دخل عليه الأفطس يوماً، وهو أحد أبناء عمومته، وبيده سكين يريد قتله، لكن الإمام لم يؤذِه، بل ومع كلّ ذلك كان يصله، بل إنهعليه السلام أمر في لحظات نزعه الأخيرة أن يعطى الأفطس سبعين ديناراً، فقالت له جاريته سالمة: هذا بالأمس أراد قتلك! فقالعليه السلام: «يا سالمة، تريدين أن أكون ممن قال الله تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾[1]...». وهذا هو خلق آل البيتعليهم السلام الذي كان يسع العدو والصديق. فهوعليه السلام وإن كان في آخر لحظة من لحظات حياته لكننا نجده مع ذلك لم ينسَ ذلك الخلق السامي، وذلك الأدبَ الرفيع الذي اتّصف به طيلة فترة حياته حتى وهو على فراش موته. وهذا بحدّ ذاته عطاء من مدرسةٍ شريفةٍ كريمة معطاء، بل إنها كلّها عطاء؛ لأنها من عطاء القرآن الكريم، ومن عطاء النبي الأكرمصلى الله عليه وآله.

رابعاً: تقواهعليه السلام

وبعد ذلك أمرعليه السلام بأن يجمع له أهل بيته وأقاربه، فخاطبهم قائلاً موجّهاً كلامه إلى ابنه الإمام الكاظمعليه السلام: «يا بني، إنه لا ينال شفاعتنا من استخفّ بالصلاة، ولا يرد علينا الحوض من أدمن هذه الأشربة». فقال الكاظمعليه السلام: «يا أبه، وأي الأشربة؟». فقال لهعليه السلام: «كل مسكر»[2].

---

(١) البقرة: ٢٧.

(٢) الكافي ٣: ٢٧٠ / ١٥، ٦: ٤٠١ / ٧، تهذيب الأحكام ٩: ١٠٧ / ٤٦٤.

المبحث الخامس: شهادة الإمام عليه السلام

وهكذا فإننا ندخل لهذا السرد التاريخي، ومن خلال هذا العرض الذي تطرقنا من خلاله إلى بعض جوانب حياة الإمام الصادق عليه السلام ـ ذلك أن تناول حياة الإمام عليه السلام كلها على المستويات الفكرية والعلمية، وعلى مستوى العطاء العلمي والنظري لا يمكن أن تتّسع له الأسفار ولا الكتب ـ عرفنا أن الإمام عليه السلام كان قد تعرض إلى مضايقات شديدة وإلى محنٍ كبيرة اعترضت سبيله في نشر علوم آبائه وأجداده عليهم السلام. وهذه المضايقات كان بعضها من الأمويين وبعضها من العباسيين كما رأينا، لكن المضايقات الأُشدّ كانت من العباسيين الذين يدّعون أنّهم أبناء عمومتهم، والذين رأينا أنهم حاولوا جهد إمكانهم أن يعتّموا على دوره، وأن يهمشوا حركته، وأن يبعدوه عن الأضواء؛ حتى لا يكون له باع في الساحة الإسلامية، ولا مشاركة في إيجاد الحلول للمشاكل التي كانت تعترض المجتمع الإسلامي والأُمّة الإسلامية.

موقفه عليه السلام من المنصور

لكن ينبغي هنا الإشارة إلى أن تلك المحن والشدائد لم تكن تعكس سلبية مواقف من الإمام عليه السلام كما يحاول البعض أن يصوّره وهو يحاول أن يرسم لنا لوحة يبيّن فيها مدى ضعف الإمام عليه السلام أمام السلطات الحاكمة بحكم تعرضه عليه السلام إلى تلك المضايقات. والحال أنه عليه السلام كان له مواقف كبيرة وكثيرة مع الخلفاء الأُمويين والعباسيين نتبيّن منها صلابته في الحقّ، وقوّته في ذات الله، ومنها مواقفه مع المنصور الذي كتب له عليه السلام يسأله: لمَ لا تغشانا كما يغشانا سائر الناس؟ فأجابه عليه السلام: «ليس لنا ما نخافك من أجله، ولا عندك من أمر الآخرة ما نرجوك له، ولا أنت في نعمة فنهنّئك، ولا تراها نقمة

فنعزّيك بها، فما نصنع عندك؟». فكتب إليه: تصحبنا لتنصحنا. فأجابه عليه السلام: «من أراد الدنيا لا ينصحك، ومن أراد الآخرة لا يصحبك»(١).

وكان عليه السلام في يوم من الأيام في مجلس المنصور، فجاءت ذبابة ووقعت على أنف المنصور، فدفعها فرجعت إليه، ثم دفعها ثانية فرجعت إليه، تكرّر ذلك مرّات عدّة، فقام للإمام عليه السلام يسأله: يا أبا عبد الله، لمَ خلق الله الذباب؟ فقال عليه السلام: «ليذلّ به الجبابرة»(٢).

وينقل عن الربيع أنه قال: ألحّ عليّ المنصور مرّة في أن أحيأه بجعفر الصادق من المدينة، فلما انصرفت من الحجّ جئته وقلت له: يا أبا عبد الله، اذكر الله؛ فإنه قد أرسل إليك بما لا دافع له غير الله. فقال عليه السلام: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

ثم إن الربيع أعلم المنصور بحضوره، فلما دخل الإمام عليه السلام عليه، أوعده وأغلظ وقال: أي عدوّ الله، اتّخذك أهل العراق إماماً يبعثون إليك زكاة أموالهم، وتلحد في سلطاني، وتبغيه الغوائل؟ قتلني الله إن لم أقتلك. فأنكر الإمام عليه السلام ذلك، وأخبره بأنه لا شأن له به(٣).

وهكذا فإن الإمام عليه السلام قد واجهه دون أن يبدو على موقفه أي علامة للذلّ أو الانكسار، ونحن نعلم أن المنصور بل وحتى غير المنصور قد واجهوا الإمام بالقسوة والعنف والتهديد والوعيد، بل إنه وغيره كانوا في بعض الحالات حينما يواجهون الأئمة يواجهونهم وهم يرعدون ويزبدون، مهددينهم عليهم السلام بأنهم سوف يقتلونهم. لكن الإمام عليه السلام لم يخنع

---

(١) كشف الغمّة ٢: ٤٢٧، بحار الأنوار ٤٧: ١٨٤ ـ ١٨٥ / ٢٩.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٧٥، سير أعلام النبلاء ٦: ٢٦٤.

(٣) كشف الغمة ٢: ٣٧١، بحار الأنوار ٤٧: ١٨٢ ـ ١٨٣، ٩٢: ٢٢٣.

ولم يخضع، بل إنه واجه المنصور برجولة وواجه الموت كلّه برجولة، وأي واحد من آبائه عليهم السلام لم يواجه الموت برجولة؟

وكذلك الحال مع أبنائه عليهم السلام الذين وقفوا بوجه الظالمين وواجهوهم دون خوف من الموت.

إذن فهذا اللون من التصوير الذي يبرز لنا الإمام على أنه كان يخشى من الخلفاء لهو تصوير غير صحيح، بل بعيد عن الواقع، ولا نعرف ما هي الدوافع التي تكمن وراءها، والتي يحاول هؤلاء عبرها إبراز الإمام بهذه الكيفية، وبهذه الصورة التي نراه عليها بأمثال هذه الروايات.

نماذج من دموية المنصور وإجرامه

وفعلاً خرج الإمام عليه السلام، وكانت نفس المنصور حتى مع حال اللين الذي يبرزه لهم عليه السلام تظل تحمل الحقد عليهم بأشد ما يكون، فكان متأزّماً مع الإمام عليه السلام مهما حاول أن يكون معه ليّناً وبه رفيقاً. ثم إننا نعرف أنّ المنصور كان من أشدّ الناس دموية، ومن أكثرهم إجراماً، وأولغ في الدماء. فالتاريخ يحدّثنا أنه كان مولعاً بدماء خصومه، والذين لا يتّفقون معه في الرأي والرؤية، حتى إنه قد قتل الكثير الكثير من أبناء المسلمين لهذا السبب. وسوف نورد هنا ثلاثة نماذج تدل دلالة واضحة على ما نذهب إليه من وجهة نظر فيه، وهي:

الأنموذج الأول: قتل أبناء بنت رسول الله صلى الله عليه وآله

يقول المورخون: لمّا عزم المنصور على السفر إلى الحجّ كتب وصيته إلى المهدي ابنه الذي كان بالري، ثم دعا زوجته ريطة بنت أبي العباس السفّاح فأوصاها بما أراد، ودفع إليها مفاتيح الخزائن، وكان من ضمن ما جاء في هذه الوصية أنه كان عنده خزانة أحلفها ألّا تفتحها، ولا تطلع

عليها أحداً إلّا المهدي، فإذا بلغهما موته اجتمعت هي والمهدي وليس معهما أحد حتى يفتحا الخزانة بأنفسهما دون أن يأمرا أحداً بفتحها. فلما قدم المهدي من الري، دفعت إليه المفاتيح، وأخبرته بما طلب المنصور منها.

فلما استيقنا موته، وولي المهدي الخلافة مكانه جاءا وهما يحملان الوصية ومفتاح الخزانة، حتى إذا فتحا الباب وجدا فيها ثلاثة وستّين رأساً لأطفال ورجال وشباب ومشايخ للطالبيّين، وكلّها محنّطة، وكلّ رأس منها كان مخروم الأُذن، وفيه ورقة مكتوب عليها اسم هذا المقتول وكنيته ونسبه وما إلى ذلك ويوم قتله وجنايته. وهنا رعب المهدي وزوجته رعباً شديداً لما رأوا من هذه الرؤوس المقطعة وما فعل بها من فعل شنيع، وأصابهما الفزع والهلع، ثم بعد ذلك أمر بالرؤوس فغسّلت وكفّنت ودفنت، ثم بُني على موضع دفنها دكّان[1].

الأنموذج الثاني: موقفه من عبدالله بن الحسن

يروي المورخون أنه ألقى القبض على عبد الله بن الحسن وعلى أولاده، وزجّ بهم في السجن، وهم ثلاثة عشر رجلاً. ثم مرّ يوماً بموكبه يريد الحجّ، فوقفت له طفلة من بنات عبد الله واستشهدت له بأبيات فقالت:

ارحم كبيراً سنّه متهدّم ... في السجن بين سلاسل وقيودِ
وارحم صغار بني يزيد إنهم ... يتموا لفقدك لا لفقد يزيدِ
إن جدت بالرحم القريبة بيننا ... ما جدّنا من جدّكم ببعيدِ

(١) انظر تاريخ الطبري ٩: ٣٤٣ ـ ٣٤٤.

فقال لها: لقد أذكرتنيه وكنت قد نسيته. ثم قال لجلاوزته: أنزلوهم إلى المطبق. أي أنه أمرهم بزجهم في السجن الشديد المظلم المسمى المطبق، فوضعوهم في أحد سراديبه، وضربوا بأيديهم المسامير على الحيطان، ثم أمر بالسرداب فأُغلق عليهم إلى أن ماتوا داخله[1].

الأنموذج الثالث: تسميم السم للإمام الصادق عليه السلام

ولما هو معهود عنه من محبته لسفك الدماء وولوغه فيها، أرسل بسمّ ليدس في طعام الإمام الصادق عليه السلام؛ حتى يتسنّى له أن يخلص منه. ولما جرع الإمام عليه السلام السّم الذي دسّه له المنصور ـ وكان قد تلقّى ذلك برجولة منقطعة النظير ـ فأخذ السمّ يجري في عروقه ويقطع حشاشته، فراح عليه السلام يجول في غرفته عرضاً وطولاً، وهو يعالج آثار السّم وأوجاعه وآلامه صابراً محتسباً حتى آخر لحظات حياته الشريفة، ثم راح عليه السلام يقلّب وجهه بين وجوه أهل بيته وهو ينظر إليهم نظر مشفق، ثم يرفع رأسه إلى السماء وتمتم بكلمات شريفة، وبقي على هذا الحال حتى كادت روحه الشريفة أن تفارق جسده الطاهر، فأوصى وصاياه، وكانت من ضمن وصاياه أنه قال لولده عليه السلام: «بني، أسرج في مكاني ضياءً». وهذه الوصية معلّلة عند أهل البيت عليهم السلام؛ ذلك أن الروح ترجع في ليلة وفاة الإنسان إلى محل الجسد، فإذا رأته مظلماً استوحشت.

وهذه عادة جرت عند أهل البيت عليهم السلام، لكن يا ترى هل أسرجت الحوراء زينب عليها السلام ضياء عند قبور إخوتها ليلة الحادي عشر من المحرم، أم إنها عليها السلام كانت والعائلة كلّها والأطفال في الظلام وهم يتصارخون؛ هذا

(١) تاريخ بغداد ٩: ٤٣٩، تاريخ مدينة دمشق ٢٧: ٣٨٩.

يقول: عمّة، أين أبي؟ وذاك يقول: عمّة، أين أخي؟ فوقفت بين أُولئك اليتامى:

إن غسعس الليلُ وارى ذلّ أوجُهنا ... وإنْ تنفّس وجهُ الصُّبحِ أبدانا
قُمْ يا عليُّ فما هذا القُعودُ وما ... عَهدي تغضُّ على الأقذاءِ أجفانا
انهض لعلّكَ من أسْرٍ ألمَّ بنا ... تفُكُّنا وتُولّي دَفنَ قتلانا

* * *

عليته هود الليل ... احنه حرم ما لهن كفيل

وأهاج وجدها طفلة للحسين عليه السلام انتبهت مرعوبة في منتصف الليل تطلب أباها، وإذا كان الإمام الصادق عليه السلام قد أوصى ابنه الإمام الكاظم عليه السلام بأولاده وعياله فكان الأطفال في كنفه وظلّه، وكان الكاظم عليه السلام ملء السمع والبصر، فإن الإمام الحسين عليه السلام لم يجد من يوصيه بأطفاله سوى النساء، وعلى رأسهن العقيلة زينب عليها السلام. وعلى أية حال لقد أهاج وجدها عليها السلام يتيمة الحسين عليه السلام التي تعلّقت بثيابها وهي تقول لها: عمّة، لقد حضر وقت الصلاة، فما لي لا أرى أبي؟ وكانت هذه الطفلة قد اعتادت أن تعدّ مصلّى أبيها الحسين عليه السلام عند كل صلاة، فقالت لها عمتها زينب: عمّة وأين أبوك؟ ثم أخذت اليتيمة في حجرها، وراحت تعلّلها:

أنا اتعرمرت والله بيتاماك ... يحسين مالي گلب فرگاك

* * *

ألحَيّ من يحمي بنات محمدٍ ... إن صرن يسترحمن من لا يرحمُ



الفصل التاسع

الإمام الكاظم عليه السلام



﴿٥٢﴾

السياسة العباسيّة في محاربة فكر الإمام الكاظم عليه السلام

مانال منهم بنو حرب وإن عظمت تلك الجرائر إلّا دون نيلكُمُ
كم غدرة لكُمُ بالدين واضحة وكم دم لرسول الله عندكُمُ[1]

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأول: العوامل التي أزّمت الموقف بين العلويين والعباسيين

إن هذا المضمون الذي تكلم عنه أبو فراس الحمداني رحمه الله يعتبر مضموناً لا مبالغة فيه؛ لأننا لو رجعنا إلى الفترة التي عاشها العباسيون والهاشميون بما حفلت به من أحداث وبما شهدته من متغيرات بين طرفي البيت الهاشمي (العلويين والعباسيين) لوجدنا أن الموقف كان يتميز بكونه متسماً بالتوتر الشديد في العلاقة بينهما مع أنهما شريكان في المصيبة التي كانا قد عانياها معاً من جراء الحكم الأُموي. إن هذا التشنج في العلاقة والتوتر فيها يرجع إلى عدة عوامل أو أسباب جعلت منه موقفاً متشنّجاً بهذه الصورة.

ونحن هنا سوف نحاول أن نتلمّس بعض هذه الجوانب أو العوامل وأن

---

(١) الأبيات لأبي فراس الحمداني. الغدير ٣: ٤٠٠، أعيان الشيعة ٤: ٣٤٢.

نبحث عن عمقها التاريخي وبداياتها الزمنية، وكيف وصل بها الأمر إلى أن تتضخّم بعد ذلك. إن المتتبعين لهذه العلاقات المتوترة لم يكونوا يظنون أنّ الأمر سيصل بالعباسيين إلى أن يقفوا هذا الموقف العدائي وهذا الموقف المليء بالبغض والحقد على أهل البيت النبوي عليهم السلام مطلقاً.

مبدأ العقدة

وهؤلاء الباحثون يُرجِعون السبب إلى أيام عبد المطلب ، فيروون قصّة في هذا الصدد هي أن عبد المطلب كان عند إحدى زوجاته الحرائر ـ وهي أم أبي طالب ـ جارية اسمها نثيلة، وطئها، فأولدها العباس . وهو إنما وطئها لأنّ زوجته أم أبي طالب قد وهبته إياها، فأصبحت ملكا له.

ومن هنا جاء مورد العقدة التي كانت عند العباسيين من العلويين؛ لأن أم العباسيين كانت جارية مملوكة لآل أبي طالب حيث إنها كانت ملكاً لأمهم أم أبي طالب ، وهذا الأمر هو الذي ولّد عقدةً عند هؤلاء ضدّ البيت العلوي، وهذا المعنى يشير إليه أبو فراس الحمداني بقوله:

بنو علي مواليهم وإن رغموا   أتفخرون عليهم لا أبا لكُمُ[1]

ذلك أن المولى من الألفاظ المتضادة ـ أي التي تطلق على الضدين ـ فهي تطلق على السيد وتطلق على العبد، أي أنكم سواء عليكم ارتقيتم عروش الملك أم لم ترتقوها، فأنتم عبيد له. وهو معنىً لم يُرد أن يشير إليه الإمام موسى الكاظم عليه السلام في إحدى مناظراته مع الرشيد. وقد ذكرت هذا الأمر فيما مضى في إحدى محاضراتي السابقة.

---

(١) الغدير ٣: ٤٠٠، أعيان الشيعة ٤: ٣٤٢.

إذن فالعقدة تبدأ من هنا، والسبب الأول لهذا العداء المستحكم وهذا الحقد والبغض يبدأ من هذه النقطة. وينبغي التنويه هنا إلى أنه صحيح أن الولد يتبع أشرف الأبوين، والأب هنا حرّ فهو حرّ، لكنه يبقى ابن أمة مملوكة في نظر الناس. وهذا الأمر كان يثير حفيظة العباسيين، وكان يشعرهم بعقدة النقص هذه، وهذا الأمر أو هذه العقدة قد استغلها بعض الأشخاص، فكانوا إذا أرادوا أن يخرجوا إلى الاستسقاء لا يخرجون معهم علي بن أبي طالب عليه السلام بل إنهم يخرجون العباس بن عبد المطلب، فكانوا يعرضون عن علي بن أبي طالب عليه السلام مع علمهم ومعرفتهم بأنه لا نسبة هناك بين العباس وعلي بن أبي طالب عليه السلام.

وهذا المعنى قد انعكس في حادثة وقعت في الكعبة، وهي أن أمير المؤمنين عليه السلام دخل على العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه وطلحة بن شيبة، بعد أن افتخرا عليه، فقال طلحة: أنا صاحب البيت، بيدي مفتاحه، ولو أشاء بتّ في المسجد؛ فأنا أفضل من علي. وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، ولو أشاء بتّ في المسجد؛ فأنا أفضل من علي. فقال عليه السلام: «ما أدري ما تقولان، لقد صلّيت ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد». وفي رواية أنه عليه السلام قال: «لكنني أسلمت وآمنت بالله ورسوله وجاهدت في سبيل الله قبلكما، فلي في ذلك من الحظ ما ليس لكما. ولقد ضربتكما بالسيف على خياشيمكما حتى دخلتما في دين الله». فأنزل الله تعالى قوله: أجعلتم ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[١]...[٢].

---

(١) التوبة: ١٩.

(٢) انظر المحاورة في شرح الأخبار ١: ٣٢٤ - ٣٢٥، العمدة: ١٩٣، فتح الباري ٣: ٣٩٣.

وفعلاً فلولا سيف علي بن أبي طالب عليه السلام لما دخلا في هذا الدين الجديد؛ ذلك أن العباس أُسر في يوم بدر وقد أسره أمير المؤمنين عليه السلام نفسه فقد أسر أخاه عقيلاً الذي أجبرته قريش على الخروج معهم للقتال بعد أن قالوا له: لا يمكن أن يكون منكم نبي يظهر ثم يعمد إلى آلهتنا فيسبها ويسفه أحلامنا وأنتم جالسون بين أظهرنا، إن هذا لا يمكن أن يكون[1]. وعليه فلابدّ لكم من أن تخرجوا إلى قتاله ومناجزته معنا.

فأخرجوا عقيل بن أبي طالب وأخرجوا العباس بن عبد المطلب فكان أن أسرهما الإمام عليه السلام وجاء بهما إلى رسول الله صلى الله عليه وآله.

وقد حاول بعض المؤرخين المأجورين أن يسيء إلى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في هذه القضية متصوراً أنه بهذا يسيء إليه فعلاً، وذلك حينما يذكر أُسارى بدر فإنه يقول: ومن الأسرى يوم بدر عقيل أخو علي بن أبي طالب. فكأنه يريد أن يقول: إن أخا علي بن أبي طالب كان مشركاً يقاتل مع المشركين ضدّ رسول الله صلى الله عليه وآله وضد المسلمين.

وفي نظره أن هذا مما يمكن أن يعيب علي بن أبي طالب عليه السلام مع أن هذا ليس بشيء جديد، فكل المسلمين ما عدا الرسول صلى الله عليه وآله وعلي بن أبي طالب عليه السلام كانوا مشركين، وكل مسلم أدرك الجاهلية كان مشركاً، ولم يستثنَ من ذلك أحد سوى رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام كما قلنا. وهذا أمر طبيعي لأنهم كانوا على ديانة ثم جاءت ديانة جديدة فدخلوا فيها، بمعنى أنهم انتقلوا من الشرك إلى الإسلام. وهذا أمر قد وقع للمسلمين كافة كما مرّ، ولم تكن هنالك جبهة لم تسجد للآلهة سوى

---

(١) الكافي ٨: ٢٠٢ / ٢٤٤، شرح نهج البلاغة ١٤: ١٨٢ ـ ١٨٣.

جبهة علي بن أبي طالب عليه السلام، وهذا هو الواقع الذي عليه أكثر المؤرخين.. الجبهة المشرقة المتلعة التي شمخت أمام جميع فرسان العرب ولم تخشَ من فارس منهم ولم تسجد وتخضع إلّا لله جل وعلا.

على أية حال، فقد جاء بهما أمير المؤمنين عليه السلام أسرى وكان العباس ليلتها يئنّ فلم يستطع النبي صلى الله عليه وآله أن ينام، فأمرهم بإطلاقه، ولم يكن عنده ما يلبسه، ولم يجدوا له شيئاً من ذلك لأنه كان طويل القامة بعد أن تخرَّق قميصه في المعركة فلم يجدوا له قميصاً يلبسه سوى قميص قيس بن سعد رضي الله عنه؛ لأنه كان طويل القامة مثله فاستعاروا له منه قميصاً وأعطوه إياه ليلبسه.

إذن فمن هنا بدأت العقدة والمشكلة، كما أنها بدأت تأخذ أبعاداً كثيرة في هذا المجال، مع أن أمير المؤمنين عليه السلام قد حاول مرّات عدة أن يمتصّ هذا المعنى من نفوسهم بأن وَلّىٰ أولاد العباس الأربعة كلّهم ولايات في خلافته، أي أنه عليه السلام أعطاهم إمرة على الناس ليمحو هذا الأثر من نفوسهم ويمتصّه من تفكيرهم، ولكي لايشعروا بأنهم أقل منهم، كونهم أبناء أمة. وأولاده الأربعة هم قثم والفضل وعبدالله وعبيد الله، ولهذا فإننا نجد أبا فراس الحمداني رحمه الله يذكّرهم بهذا بقوله:

أمّا علي فقد أدنى قرابتكم	عند الولاية إن لم تُكفرِ النعمُ
أينكر الحبر عبد الله نعمته	أبوكمُ أم عبيد الله أم قثمُ
بئس الجزاء جزيتم في بني حسن	أباهمُ العلم الهادي وأمّهمُ
لا بيعة ردعتكم عن دمائهمُ	ولا يمين ولا قربى ولا ذممُ[1]

---

(١) الغدير ٣: ٤٠٠، أعيان الشيعة ٤: ٣٤٢.

أي أنه يريد أن يقول لهم: لقد منّ أمير المؤمنين عليه السلام عليكم بهذه المنّة وجعلكم ولاة، فلماذا تكافئونه بهذا الجزاء؟

على أية حال فواقع الأمر أن أمير المؤمنين عليه السلام حاول أن يمتصّ هذا اللون من التفكير من نفوس بني العباس بأن ولّاهم ولايات في أيام خلافته حتى وصل الأمر إلى أن يدخل عليه جماعة فقالوا له: علام قتلنا الشيخ بالأمس؟ بمعنى أننا إنما قتلناه لأنه أدنى قرابته، وإنك الآن إنما تدني قرابتك وتفعل عين فعل عثمان، فلماذا إذن قتلناه إذا كنت تفعل مثل فعله، وتأتي بأقربائك وتوليهم الولايات؟ فأجابهم الإمام بما محصّله على رسلكم فأنا لم أولِّ عليكم ولاةً غير صالحين، ثم إنني أملك زمام من أولّي ولا أتركه يفعل ما يشاء وفق هواه.

وفعلاً كان هذا الأمر موجوداً، فقد كان عليه السلام يتابع شؤون ولاته وأعمالهم وأخبارهم، ومن ذلك أن أضخم ولاة أمير المؤمنين عليه السلام عثمان بن حنيف، كان واليه على البصرة، وقد دعي إلى وليمة فحضرها، وهنا تتجلّى عظمة أمير المؤمنين عليه السلام؛ ذلك أنه حينما علم بها كتب إليه كتاباً شديد اللهجة قال له فيه: «أما بعد يابن حنيف، فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدُبة، فأسرعت إليها؛ تستطاب لك الألوان، وتنقل إليك الجفان. وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلُهم مجفوّ، وغنيّهم مدعو. فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضم؛ فما اشتبه عليك علمه فالفظه، وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه.

ألا وإن لكلّ مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه.

ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه.

ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفة وسداد، فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً، ولا ادّخرت من غنائمها وفراً، ولا أعددت

لبالي ثوبي طمراً»[١].

إذن فالإمام علي عليه السلام حاول أن يوليهم بحكم كونهم رحمه وذوي قربى وقرابة، كما أنهم كانوا كفوئين لهذا الأمر ومخلصين فيه. لكن هذه الثقة التي وضعها أمير المؤمنين عليه السلام فيهم لم يحفظها بعضهم، ومن ذلك أن واليه على اليمن عبيد الله حينما جاء إليه بسر بن أرطاة غازياً ترك اليمن ومسؤوليّاته السياسية والإداريّة فيها، وترك أولاده حتى قتلوهما. فلم يكن بالذي يستطيع أن يحفظ هذه الثقة ويحفظ أهل اليمن من غزوِ بسر بن أرطاة، فقد أخذهما بسر وذبحهما أمام أمّهما التي جُنّت وقتها وأنشدت أبياتها المشهورة.

وهذا ليس بغريب؛ فالقوم أبناء القوم، والتاريخ عينه يعيد نفسه، فكانت تجول حول مصرعهما وتنشد هذه الأبيات:

يـــامن أحسّ بـابنيّ اللّـذين هـما ... كـالدرّتين تشظّى عنهما الصّدفُ
يـــامن أحسّ بـابني اللـذين هـما ... مُـخّ العظام فمخّي اليوم مزدهفُ
يـــامن أحسّ بـابني اللـذين هـما ... قلبي وسمعي فقلبي اليومَ مُختَطفُ
مـــن دل والهـــة حـــيرى مـدلّهة ... عـلى صـبيّين ذلّا إذ غـدا السـلفُ
نـبّئتُ بسراً وما صدّقتُ مازعموا ... من قولهم ومن الإفك الذي اقترفوا
أنحى عـلى وَدَجَـي ابنيّ مُرهفة ... من الشفار كذاك الإثم يقترفُ[٢]

وحينما جاء الإمام الحسن عليه السلام للخلافة حاول كذلك أن يجهز على بقايا هذه المخلّفات الموجودة في نفوسهم، ولذا بعث عبيد الله بن عباس قائداً على أحد الجيوش لقتال معاوية، لكن معاوية أرسل له أموالاً، ومنّاه

(١) نهج البلاغة / الكتاب: ٤٥.
(٢) الكامل في التأريخ ٣: ٣٨٤ ـ ٣٨٥.

بالأمان، فترك الجيش والتحق بمعاوية.

العقدة الثانية: شعورهم بأن العلويين هم الذين أوصلوهم إلى الحكم.

فالعباسيون لم يكن يدور في خَلَدهم أنهم في يوم من الأيام سوف يمسكون زمام الأمور، وأنهم سوف يجلسون على كرسي الحكم؛ لأنهم لم يكن لهم أي رصيد شعبي، ولأن هناك في الساحة من يزاحمهم ولايتركهم يصلون إلى هذا المنصب، وهم أولاد علي بن أبي طالب عليه السلام.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن أكثر من ضحّى وأعطى قرابين وأكثر من كان له مواقف مضادّة للحكم الأموي هم العلويّون على امتداد خط حكمهم ـ أي حكم الأُمويّين ـ فكانت المواقف كلها في كفة آل علي بن أبي طالب عليه السلام، ولذا فإن الأنظار كانت تتوجه إليهم في هذه المسألة. وبتعبير آخر فإن الساحة كانت مليئة بدم أبناء علي بن أبي طالب عليه السلام ذلك أن العباسيّين استغلّوا كل الإنجازات العلوية وكل التضحيات التي قدمها البيت العلوي وارتقوا على تلك الجماجم والدماء ليصلوا إلى مبتغاهم. ولهذا فإنهم قد رفعوا شعار «يالثارات الحسين»، ومعنى هذا أنهم قد ركبوا التيار العلوي حتى أوصلهم إلى الحكم، وحين ذاك تنكروا له وحاربوه، وحاولوا أن يقضوا عليه؛ كيلا يظلّوا يشعرون بهذا النقص يشوب استيلاءهم على السلطة.

إنهم بعد أن وصلوا إلى السلطة حاولوا أن يتخلّصوا من شعارات آل أبي طالب التي وصلوا بها إليه ـ أي إلى الحكم ـ فعمدوا إلى محاربة آل أبي طالب؛ ولذا فإنهم راحوا يضعون الخطط للخلاص من هذه العقدة، فخططوا ونفذوا تحت جنح الليل للقضاء على أهل هذا البيت النبوي الطاهر. وهذه العقدة كان لها الأثر الكبير في هذا العداء المستحكم؛

لأنهم كانوا يتساءلون: هل يجب أن نترك هؤلاء الذين وصلنا بهم إلى الحكم ـ وقد أخذنا الحكم منهم ـ ليعرف الناس أننا قد استولينا على حقهم؟ وهل يجب أن نبقي على هذا الفضل الذي لهم علينا في إيصالنا إلى الحكم بالإبقاء عليهم؟ وكان الجواب: لا، بل يجب أن نتخلّص من كل هذا، وأن نقضي عليه، فلابدّ أن يتم القضاء على هذا بالقضاء على أهل البيت العلوي أو البيت النبوي المطهر صلى الله عليه وآله.

المبحث الثاني: سبل الحرب العباسية على العلويين

لقد اتّبع العباسيون في حربهم القذرة هذه للقضاء على أهل البيت النبوي الطاهر عدّةَ سبل منها:

السبيل الأول: سبيل المنهج الفكري

إننا بالرجوع إلى التاريخ سنجد أن الجهود التي بذلها الأُمويّون في الطعن بأهل البيت النبوي ومحاولات القضاء على البيت العلوي لا تبلغ معشار الجهود التي بذلها بنو العباس وعملاؤهم للقضاء عليهم [1]؛ وقد بدأ هذا الأمر يتحرّك ضمن إطارين:

الإطار الأول: أن العلويين أبناء بنت

فالجهود العباسية في هذا المضمار قد انصبّت على أن هؤلاء الذي ينتسبون إلى علي بن أبي طالب عليه السلام لا يمثلون لرسول الله صلى الله عليه وآله شيئاً سوى أنهم أبناء عمه، ونحن كذلك أبناء عمه، فنحن وهم على حد سواء في هذه

---

(١) قال الشاعر:

والله ما فعلت أُميّة فيهمُ ... معشار ما فعلت بنو العباسِ

مختصر البصائر: ١٦، أعيان الشيعة ١: ٢٨.

المسألة. فكما أنهم يدّعون بأن لهم الحق في خلافة الرسول صلى الله عليه وآله فإننا ـ بني العباس ـ لنا الحق أيضاً في ذلك؛ لأننا بنو عمه كما أنهم كذلك.

إنهم أبناء عمه أبي طالب، ونحن كذلك أبناء عمه العباس، فالعباس وأبو طالب وعبد الله إخوة يرجعون إلى أصل واحد هو عبد المطلب. وقد راحوا يضربون على هذا الوتر ضرباً قوياً؛ كي يؤكدوا أحقيّتهم بالخلافة، وأنهم على قدم المساواة مع أبناء علي عليه السلام فيها. وقد أخذوا يلقنون هذا الأمر لأُدبائهم ومفكريهم، وهذا ما انعكس بالتالي حتى على الصراع الفقهي حيث إنهم راحوا يثيرون مسألة هل إن ابن البنت يعتبر ابناً على الحقيقة حتى يرث، أو إنه ليس ابناً على الحقيقة فلا يرث؟ وإن هؤلاء إذا كانوا يدعون أحقيتهم بالخلافة كونهم أبناء بنت رسول الله صلى الله عليه وآله فإنهم على خطأ، لأن ابن البنت لا حقَّ له بالوراثة ولا في غيرها، فهم في هذا على خطأ[1].

بمعنى أن هؤلاء راحوا يدعمون نظرية العَصَبة في التوريث، وهي نظرية غير موجودة عند أهل البيت النبوي عليهم السلام. ونظرية العصبة لا يقول بها فضلاً عن علماء أهل البيت عليهم السلام وفقهائهم جملة من الصحابة ممن عاصروهم كذلك، فإنهم لا يقولون بها بمعنى أنه إذا توفي أحدٌ وعنده ولد صلبي؛ والولد سواء كان ذكراً أو أنثى فإنه يأخذ الميراث كله ولا دخل للعصبة حينئذٍ؛ لأنهم لا يرثون مع وجود الطبقة الأُولى الذين هم الأبناء والآباء. أما على نظرية التعصيب فإن البنت تأخذ النصف بالفرض والنصف الثاني تأخذه عصبة الميت.

(١) وهو خلاف ما أثبته المأمون في مناظرته مع كبار علماء السنّة. العقد الفريد ٤: ٣٦١٦ ـ ٣٦٣٧.

فمذهب أهل البيت وبعض الصحابة أنها تأخذ الميراث كله: نصفه بالفرض، ونصفه الثاني بالرد.

فالعباسيون أكدوا هذه النظرية، وهي نظرية تفيد أن أبناء البنت لا يرثون شيئاً من جدّهم لأُمّهم؛ فالميراث يكون للعصبة، وقد تصدى لهم جملة من شعراء الشيعة في هذا الأمر، وبينوا لهم أنهم ليسوا إلّا أولاد الطلقاء[١]، والطليق لا يرث.

وهنا نقطة هامة يجب التنويه إليها وهي أنهم إذا كانوا أبناء عمومة النبي صلى الله عليه وآله كما يدّعون وأنهم على قدم المساواة مع العلويين؛ لأن العلويين أيضاً أبناء عم الرسول صلى الله عليه وآله وليس لهم قرابة بالنسب عن طريق أمهم، فهم بهذا إنما يغالطون أنفسهم؛ لأنهم يعرفون أن العباس بن عبد المطلب لم يهاجر كما هاجر أمير المؤمنين عليه السلام. وقد قاتل العباس ـ ولو كرهاً ـ رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام لم يقاتله، بل قاتل دونه في كل معاركه.

والعباس بن عبد المطّلب إذ لم يهاجر ـ كما قلنا ـ فإنه يستحق الميراث؛ لأن الميراث ولاية، وهي ولاية لا يستحقها إلّا المهاجر، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٢]، والعباس أسلم ولم يهاجر فقطع الله ولايته، والميراث نوع من أنواع الولاية.

---

(١) قال أبو فراس الحمداني:

هلّا صفحتم عن الأسرى بلا سببٍ ... كصفحهم يوم بدر عن أسيركمُ

ديوان أبي فراس الحمداني: ٢٥٥.

(٢) الأنفال: ٧٢.

وهذه النقطة أيضاً ولّدت عقدة في نفوس العباسيين إلى درجة أن الرشيد يسأل الإمام موسى الكاظم ﷺ فيقول له: هل وصلت منك هذه الفتوى إلى أحد من أعدائنا؟ فو الله إن خرجت من فمك فليفارقن رأسك بدنك. فهو يرى أنها مسألة ضخمة وكبيرة عليهم أنهم لا يرثون كما يرث بنو علي ﷺ. ولذا فإن البلاط العباسي قد بذل جهوداً جبارة ليبيّن للناس أن بني علي ﷺ لا يرثون عن طريق أمهم وإنما هم على حدٍ سواء مع بني العباس في الوراثة، وأنهم لا حق لهم في الخلافة والحكم، وإذا لم يكن لهم حق في الخلافة فيجب ألّا يقول حينها قائل: إن بني العباس قد وصلوا إلى الخلافة عن طريق تيار آل البيت ﷺ أو بشعار «يا لثارات الحسين».

والعباسيّون بهذا يريدون أن يوجدوا حاجزاً شرعياً يحول بين العلويين وبين وصولهم إلى الخلافة، فكل هذه الأكاذيب وكل هذا التزييف للحقائق هو للحؤول دون وصول آل البيت النبوي إلى سدة الحكم.

الإطار الثاني: شرك أبي طالب ﷺ

إن أول من أكد على شرك أبي طالب ﷺ هم العباسيون، فهؤلاء يقولون: إن جدّ العلويين قد مات مشركاً، وإن جدّنا قد مات مسلماً. وقد بذلوا جهوداً جبارة ضخمة في هذا الإطار، فاخترعوا روايات ونظريات كلها تدور حول أن أبا طالب ﷺ قد مات وهو مشرك، وضربوا بكل الأدلة التاريخية والعقلية عرض الجدار لأجل تحقيق هدف في نفوسهم هو تمويه حقيقة معينة، وبيان شيء مزيّف للناس ينصّ على أن أبا طالب ﷺ قد مات وهو مشرك:

وأنـتم بـنو بـنته دونـنا ونحن بنو عمّه المسلم[1]

وبهذا نجد أنهم قد سلّحوا ابن المعتز ومروان بن أبي حفصة وغيرهما من شعراء البلاط بهذه الفكرة وجـنّدوهم بـها، فـتبنّوها ونـافحوا عـنها وأعلنوها بين الناس. وبالتالي فإنهم سوف يسقطون حق العلويين في هذه المسألة ويجلعون الناس ينفضّون من حولهم ويلتجئون إلى بني العباس. فأشبعوا الساحة بهذا المفهوم الذي أخذ يتضخّم ويكبر حتى وصل إلى حالة من الصراع الفكري بين المدافعين عن الحق والمـدافـعين عـن بـني العباس.

السبيل الثاني: السبيل الفقهي

وقد حورب في هذا المجال على جميع الأصعدة، فكان كـل مـن له علاقة بنظرية تمتّ إلى علي بن أبي طالب عليه السلام بصلة يحارب ويطارد. وهو الحال في الأغلب في الأمور الفقهية، فـقد كـان فـقهاء المـدينة حـينما يتناولون بعض الأحكام الفقهية فإنهم يذكرون فـيها رأيـاً لعـلي بـن أبـي طالب عليه السلام؛ فكان إذا أفتى أحدهم برأي علي بن أبي طالب عليه السلام يبعث خلفه الرشيد وينهاه عن ذلك، فقد أرسل خلف أحد الفقهاء، لا لشيء إلّا لأنه أفتى وفق رأي أمير المؤمنين عليه السلام في مسألة التكبيرات في الصـلاة عـلى الجنازة، وقال له: ألم تعلم أنّا قد نهينا أن يذكر لهذا الرجل رأي؟ إياك أن أسمع مثل ذلك منك مرّة أُخرى!

ومن هذا كذلك نظرية الوضوء التي وقعت مع علي بن يقطين، فنحن نعرف أن هناك خلافاً بين الإماميّة وباقي المذاهب الإسـلاميّة الأُخـرى

(١) أعيان الشيعة ٨: ١٢٣، الإصابة ٧: ٢٠٢.

حوله، فالله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾[1]، فوقع الخلاف ـ من ضمن ما وقع ـ في مسح الأرجل أو غسلها، بناءً على الاختلاف في تحديد المعطوف عليه؛ فالكعبان الواردان في الآية الشريفة هل هما العظمان الناتئان من جانبي القدم، أو غيرهما؟

كتب علي بن يقطين للإمام الكاظم عليه السلام: جعلت فداك، إن أصحابنا قد اختلفوا في مسح الرجلين، فإن رأيت أن تكتب إلي بخطّك ما يكون بحسبه، فعلت إن شاء الله تعالى. فكتب إليه الإمام عليه السلام: «فهمت ما ذكرت من الاختلاف في الوضوء، والذي آمرك به في ذلك أن تتمضمض ثلاثاً، وتستنشق ثلاثاً، وتغسل وجهك ثلاثاً، وتخلّل شعر لحيتك، وتغسل يدك إلى المرفقين ثلاثاً، وتمسح رأسك كلّه، وتمسح ظاهر أُذنيك وباطنهما، وتغسل رجليك إلى الكعبين ثلاثاً، ولا تخالف ذلك إلى غيره».

فلما وصل الكتاب إلى علي بن يقطين، تعجّب مما كتب له الإمام عليه السلام، واستغرب من حضر عنده، ثم قال: مولاي أعلم بما قال، وأنا ممتثل أمره.

وكان لابن يقطين مكانة عند الرشيد، وكان يستغلّها لخدمة أبناء المذهب وقضاء حوائجهم. وفعلاً راح يعمل في وضوئه على هذا الشكل الذي رسمه له الإمام عليه السلام ويخالف ما عليه جميع الشيعة امتثالاً لأمره.

فسُعي به إلى الرشيد وقيل له: كيف تأتمن مثل هذا على بيتك ونفسك ودولتك؟ قال: ما الخبر؟ قيل: إن علي بن يقطين رافضي مخالف لك، وهو

---

(١) المائدة: ٦.

من أتباع علي بن أبي طالب. فقال: إني لا أرى أنه قد قصّر في خدمتي، ولا أظن أن عنده هذا الذي ترمونه به.

أي أن هذا الأمر - ولاء علي بن أبي طالب ﷺ - يُعدُّ جريمةً في نظر السلطات، ولذا فالقائمون عليها ينفون هذه النهمة التي يعتبرونها عاراً عن كل من يرون أنه موالياً لهم، مع أن هذا الأمر كان في القرن الأول بسبب الخلافة لكن الآن بأي سبب؟ والغريب أن البعض ليس له من هم سوى شتمنا بهذا!

وعلى العموم بعد أن كثرت الوشاية به عند الرشيد قال لبعض خاصّته: قد كثر عندي القول في علي بن يقطين والاتهام له بخلافنا، وميله إلى الرفض، ولست أرى في خدمته لي تقصيراً، وقد امتحنته مراراً، فما ظهر منه ما يقرف به، وأُحبّ أن أستبري أمره من حيث لا يشعر بذلك فيتحرّز مني. فقيل له: إن مذهب الرافضة يخالف مذاهب الجماعة في الوضوء فيخففه، ولا يرى غسل الرجلين، فامتحنه من حيث لا يعلم بالوقوف على وضوئه. فقال: أجل، إن هذا الوجه يظهر به أمره.

ثم تركه مدّةً وناطه بشيء من الشغل في الدار، وقال له: إنه ليس كل أحد يصلح لهذه المهمة، ولست آمن على داري أحداً غيرك. فقام بها ابن يقطين، حتى إذا دخل وقت الصلاة - وكان علي بن يقطين يخلو في حجرة في الدار لوضوئه وصلاته - وقف الرشيد من وراء حائط الحجرة بحيث يرى علي بن يقطين ولا يراه هو، فدعا بالماء للوضوء، فتمضمض ثلاثاً واستنشق ثلاثاً، وغسل وجهه، وخلل شعر لحيته وغسل يديه إلى المرفقين ثلاثا، ومسح رأسه وأذنيه، وغسل رجليه كما أمره الإمام ﷺ، والرشيد ينظر إليه، فلما رآه الرشيد فعل ذلك لم يملك نفسه حتى أشرف

عليه بحيث يراه، ثم ناداه: كذب يا علي بن يقطين من زعم أنك من الرافضة، وصلحت حاله عنده.

وبعد ذلك ورد عليه كتاب من الإمام عليه السلام: «ابتدئ من الآن يا علي بن يقطين، توضأ كما أمر الله تعالى؛ اغسل وجهك مرة فريضة وأخرى إسباغاً، واغسل يديك من المرفقين كذلك، وامسح بمقدّم رأسك وظاهر قدميك من فضل نداوة وضوئك؛ فقد زال ما كان يُخاف عليك، والسلام»[1].

فالإمام عليه السلام يأمره بأن يتوضأ على الطريقة التي عليها أبناء المذاهب الإسلامية الأخرى، ويأمره بأن يبقى على هذه الشاكلة حتى يأتيه كتاب آخر منه عليه السلام في هذا الخصوص؛ لأنه علم ـ بتعليم الله له ـ بما يدبّر له.

التشيّع جريمة في نظر السلطات

والواقع كما هو معروف أن علي بن يقطين كان ذا مكانة مرموقة في البلاط العباسي كما هو مذكور في كتب التواريخ والسير، وكان رحمه الله يستغل هذا المركز في دفع البلاء عن أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام كما ذكرنا، بمعنى أنه كان يخدم المذهب من خلال مكانته ووجوده في السلطة. وعليه فإن هؤلاء الذين وشوا به إلى الرشيد لم يكونوا ليشوا بمثل هذه الشكاية والتهمة إلّا إذا كانت تعدّ جريمة عند أصحاب السلطة، أي أن السلطة في ذلك الوقت كانت ترى أن موالاة علي بن أبي طالب عليه السلام واتباعه جريمة تخالف قانونهم وتهدم عروشهم، كما ذكرنا قبل قليل.

ولذا فإننا نجد أنهم قد حاربوها بشتى أنواع المحاربة، غير أن الله جل وعلا أراد خلاف ما أرادوا؛ ولهذا فإننا وجدنا أن الرشيد قد دافع عنه رادّاً

---

(١) الإرشاد ٢: ٢٢٧، مناقب آل أبي طالب ٤: ٢٨٨، الخرائج والجرائح ١: ٣٣٥ / ٢٦.

عليهم بأنه شخص مخلص ولم يقصّر في أداء واجبه أو خدمته للخلافة.

وهذا الأمر ليس وقفاً على زمان معين دون آخر، بل إنه لازال يعيش حتى هذه اللحظة، فهناك من لا شأو له في الحياة إلّا أن يشتم هذا المذهب وأتباعه، والأنكى والأدهى أنه لا يشتم إلّا بما فيه هو: رمتني بدائها وانسلّت. وهذه المسألة مما يجب التنويه بها ولفت النظر إليها؛ لأنها مما يجب أن يعرف به الناس وأن يطلع عليه أبناء هذا الدين الحنيف؛ ليعرفوا مَن هو المحق من المبطل. وقد جاءني هذا اليوم منشور يذكر فيه أصحابه أنّ مَن أراد أن يتزوج زواج «المسيار» فعليه أن يتصل بهذا الرقم؛ فإنهم سيقومون بتوفير هذه الزوجة وبإجراء اللازم له.

وهذا الزواج ليس في حقيقته وواقعه إلّا زواج المتعة، وإذا كان الأمر كذلك وكان يروّج له وتفتح له المكاتب فلماذا إذن تفتعل هذه الضجة الكبيرة على الشيعة، ويسبون بسبب هذا الأمر وهو أمر مشروع يعملون به هم أنفسهم؟ مع أننا لا نفعل حول زواج المتعة هذا الفعل ولا نقرّ به ولا نقرره بهذا الإقرار أو التقرير، بل إننا نضعه في حالات معينة لعلاج بعض ما يعتري الأشخاص الذين يعيشون في غربة مثلاً ولم يكونوا يصبرون عن ممارسة هذا الحق المشروع، فيأتي الرجل إلى المرأة ليعقد عليها عقداً مؤقتاً، فليس في الأمر مكاتب ولا أرقام هواتف ولا ما إلى ذلك مما يروّج به هؤلاء لتجارتهم هذه.

ولست أدري لماذا لا نتحلّى بصدور واسعة وبمستوى من العقل والذكاء يمكناننا من فهم الآخرين بشكل أفضل أو بشكل صحيح، دون أن نلجأ إلى المهاترة والسباب والتكفير وما إلى ذلك؟ إن العلماء يقولون: إن حكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد، وهذان مثلان فلماذا يجوز

هناك ولا يجوز عند أصحاب هذا المذهب؟ إذن فالواجب أن نتحلّى بصدور رحبة واسعة وأن نكون على مستوى المسؤولية التي وضعنا الله بها كي نفهم الآخرين فهماً صحيحاً، ولا نسيء إليهم، فكل منّا رافد يصبّ في نهر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله.

وبناءً على هذا فيجب على كل مسلم أن يناقش أحكامه وأحكام الآخرين مناقشة موضوعية خاضعة للفهم والعقلية الناضجة؛ لأن المسلمين هم عائلة واحدة ينتمون إلى دين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله. لكن ما الذي يمكن أن نفعله إزاء هذا الأفق الضيّق المحدود وصاحبه الذي يحاول أن يحبس نفسه بين طيات مجموعة من الآراء التي تمنعه من أن ينطلق، وأن يفكّر، وأن يستوعب الآخرين بعقله وحكمته؟

إذن فالمسألة في واقع الأمر قد بدأت تأخذ أبعاداً كبيرة جداً إلى درجة أن الفقيه الذي يذكر رأياً لعلي بن أبي طالب عليه السلام فإنه يتعرّض للمساءلة القانونية بناءً على أوامر السلطات القائمة. كما أن هناك حالة أخرى تروى في هذا المجال وهي أن بعض أئمة الصلاة كبّر التكبيرات في صلاة العيد على رأي علي بن أبي طالب عليه السلام، ذلك أن رأي علي عليه السلام في التكبيرات المختصة بصلاة العيد يختلف عن رأي غيره من الصحابة، فلما بلغ السلطات الحاكمة آنذاك أرسلت خلفه وعنفته ونهته أن يكرر مثل هذا الفعل نهياً قاطعاً لا رجعة فيه.

يذكر الكاتب محمد أبو زهرة في كتابه (الإمام الصادق عليه السلام) قائلاً: إن من غير المعقول أن يقتل هؤلاء أبناءَ علي بالسيف، ثم يعمدون إلى القول بآرائهم الفقهية أو الأخذ بها.

وهذا واقع؛ لأنهم حتماً سوف يحاولون القضاء على الفكر كما

يحاولون القضاء على صاحبه، فإذا كان هذا الفكر أو هذا الرأي أو هذه النظرية تعلي شأن صاحبها فهم حتماً سوف لن يوافقوا على الإبقاء عليها؛ لأنها حينئذٍ ستشكّل عنصر خطر لهم؛ لذا فإنهم عمدوا إلى محاربة كلّ رأي، أو كلّ نظرية تنسب إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، أو أحد من أبنائه عليهم السلام، فشوّهوها ونسبوها إلى النقائص.

وهكذا فإننا نجد أن هؤلاء قد حاولوا جاهدين، وعملوا مصرّين على إبعاد آل أبي طالب عليهم السلام عن هذه الساحة في جميع أصعدتها ونشاطاتها؛ سواء الفقهية منها أو الكلامية أو السياسية وما إلى ذلك.

السبيل الثالث: السبيل السياسي

وقد عمد هؤلاء إلى محاربة أهل البيت عليهم السلام، مع أنهم الامتداد السماوي لرسول الله صلى الله عليه وآله من الناحية السياسية كذلك والقضاء عليهم وإبعادهم عن الساحة السياسية تماماً.

ولعل البعض سيستغرب حينما يعرف أن النكبة الكبرى التي حلّت بالبرامكة كانت بسبب إطلاق يحيى بن الحسن الذي قاد حركةً عسكريةً مسلحة ضد الرشيد وخرج عليه، ففشلت حركته وأمسكت به قوات النظام وجاؤوا به إلى الرشيد الذي أمر بحبسه، حيث إنه سلّمه إلى جعفر بن يحيى البرمكي وقال له: تحفظ عليه في السجن عندك.

فأخذه جعفر وقد عرف يحيى بن الحسن أنه سوف يقتل، وفي يوم من الأيام مر جعفر بن يحيى البرمكي في السجن فناداه يحيى وقال له: الله الله في دمي واتّقِ الله فيّ، فإني أظن أن الرشيد سوف لن يعفو عني! فرقّ له جعفر وقال له: أنا أُطلق سراحك لكن بشرط. قال: ما هو؟ قال: أن تقسم لي وتؤمنني ألّا تخرج مرة أخرى على الرشيد. فقال له: إني أُقسم لك

على ذلك. فلما استحلفه وحلف له أطلق سراحه بعد أن أخذ عليه العهود والمواثيق بألّا يخرج ثانية.

وبعد أن أطلق جعفر سراحه جاء بعض الوشاة إلى الرشيد وأخبروه بما فعل جعفر، فازبأرّ الرشيد وتأثر، وأرسل خلف جعفر بن يحيى وقال له: أين يحيى؟ فقال له: هو في سجنه يا أمير المؤمنين. فقال له أتحلف بحياتي؟ فأمسك جعفر وعرف أن في المسألة وشاية، وأن هناك من رفع تقريراً إلى الرشيد بخصوص إطلاق سراح يحيى (رضوان الله تعالى عليه)، وقال له: لا وحياتك، لقد أطلقت سراحه بعد أن استحلفته بعدم الخروج عليك ثانية، وبعد أن استوثقت منهُ بالعهود والمواثيق، وتأكدت أنه سوف لن يخرج عليك مرّة أُخرى. فقال له الرشيد: نعم ما صنعت.

فلما خرج جعفر من مجلس الرشيد أتبعه هذا بنظرة وقال: قتلني الله إن لم أقتلك.

وهكذا نرى أن إطلاق شخص واحد من عائلة آل أبي طالب عليه السلام يؤدي إلى كارثة وإحلال نكبة بعائلة كبيرة، وأي نكبة هي! إنها نكبة مروعة ومهولة؛ لأن يحيى بن خالد أبا جعفر هو الذي ربى الرشيد في حجره، وحمله على صدره.

وهكذا نجد أن الملاحقة العباسية للعلويين أو الطالبيّين قد بلغت حدّاً امتدّت معه إلى جميع أصعدتها؛ فكانت ملاحقةً على الصعيد النظري، وملاحقةً على الصعيد الفقهي، وملاحقةً على الصعيد العملي، مضافاً إلى ذلك الملاحقة على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي؛ فأجاعوهم إلى درجة يصعب معها تصوير تلك الفاجعة أو المحنة، بل هي كارثة بكلّ المقاييس قد حلّت بالإسلام جرّاء هذه الأفعال البعيدة عن كلّ قيمه

وأخلاقياته.

ومن هذا أن هناك نخلاتٍ غرسهنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله بيده الشريفة في المدينة المنورة؛ فكان الحجاج أو الزوار حينما يأتون إلى المدينةِ المنورة ويعرفون أن هذه النخلات من غرسٍ يدِ رسول الله صلى الله عليه وآله يعمدون إلى أن يأخذوا حفنة من تمرها لكي يتبركوا به، ويعطوا للعلويين مقابل ذلك بعض الهدايا، فكانوا يستعينون بها في أمور دنياهم. فحتى هذه النخلات التي بقيت إلى زمن أمر بها هذا الرجل فقطعت من أصلها.

إذن قطع عنهم العطاء إلى درجة أن أحد المؤرخين كان يقول: إن العلويات في ذلك الزمان لم يكنَّ يملكن إزاراً يصلّين به فكنَّ، يشتركن بإزارٍ واحد، فكل عشرة منهنَّ أو أكثر أو أقل يشتركن بإزارٍ واحد، وكنَّ ينتظرن بعضهنَّ للصلاة كي يصلّين بهذا الإزار، فكلّما فرغت واحدةٌ منهنَّ من صلاتها وانفتلت منها أعطت الإزار إلى الأخرى كي تصلي به، وهكذا تفعل هذه حتى يؤدين الصلاة كلهن. فكنَّ لا يخرجنَ من بيوتهن لهذا السبب، وهو أنهنَّ لا يملكن ملابسَ يرتدينها أو ليخرجن بها.

وهكذا نرى أن اللؤم قد وصل بهؤلاء إلى مداه الأبعد، وإلى شأوه الأقصى، وإلى غايته التي لا مجال بعدها ليكون هناك لؤم أشدّ منه.

السبيل الرابع: سبيل السيف

وبعد كل هذه المحاولات التي رصدناها لمحاربة البيت جاء دور السيف حيث إنه أعمل السيف فيهم، خرج أبو جعفر المنصور قاصداً البيت الحرام فقيل للإمام الكاظم عليه السلام: لقد قصد أبو جعفر المنصور بيت الله الحرام. فقال عليه السلام: «والله لن يصل». فلما وصل إلى بئر ميمون قيل له: يابن رسول الله، لقد وصل إلى بئر ميمون. فقال عليه السلام: «والله لن يصل». وفعلاً مات

أبو جعفر المنصور عند بئر ميمون، وهناك كتب وصيته إلى ابنه المهدي.

وموضع الشاهد في هذه القصة أنه لمّا عزم على السفر إلى الحجّ كتب وصيته إلى المهدي ابنه الذي كان بالري، ثم دعا زوجته ريطة بنت أبي العباس فأوصاها بما أراد، ودفع إليها مفاتيح الخزائن، وكان من ضمن ما جاء في هذه الوصية أنه كان عنده خزانة أحلفها ألّا تفتحها، ولا تطلع عليها أحداً إلّا المهدي، فإذا بلغهما موته اجتمعت هي والمهدي وليس معهما أحد حتى يفتحا الخزانة بأنفسهما دون أن يأمرا أحداً بفتحها. فلما قدم المهدي من الري إلى مدينة السلام دفعت إليه المفاتيح وأخبرته بما طلب المنصور منها.

فلما استيقنا موته وولي المهدي الخلافة جاءا وهما يحملان الوصيةَ ومفتاح الخزانة، حتى إذا فتحا الباب وجدا فيها ثلاثة وستّين رأساً لأطفال ورجال وشباب ومشايخ للطالبيّين، وكلّها محنّطة، وكلّ رأس منها كان مخروم الأُذن، وفيه ورقة مكتوب عليها اسم هذا المقتول وكنيته ونسبه وما إلى ذلك ويوم قتله وجنايته. وهنا رعب المهدي وزوجته رعباً شديداً لما رأوا من هذه الرؤوس المقطعة وما فعل بها من فعل شنيع، وأصابهما الفزع والهلع، ثم بعد ذلك أمر بالرؤوس فغسّلت وكفّنت ودفنت، ثم بُني على موضع دفنها دكّان[1]:

مانال منهم بنو حرب وإن عظمت   تلك الجرائر إلّا دون نيلكمُ

الإمام ﷺ والرشيد العبّاسي

والذي زاد الطين بلّة أن جعفر بن محمد بن الأشعث كان شيعياً، ولكنه كان من المقرّبين إلى الرشيد، وقد كان رجلاً حربياً حازماً وقائداً من قواد

(١) انظر تاريخ الطبري ٩: ٣٤٣ ـ ٣٤٤.

الجيش كبيراً، وكانت له أيدٍ بيضاء على الدولة وكان الرشيد قد وضع ولديه الأمين والمأمون في حجره يربيهما ويعلّمهما الفروسيّة وفنون القتال، وهنا تهيّأت بعض النفوس الضعيفة للتحرك في محاولة لاحتواء هذه المسألة، لا سيّما يحيى بن خالد بن برمك الذي حسده لأجل هذا؛ لأنه ومن معه تداولوا هذا الأمر فيما بينهم، فاتّفقوا على نتيجة هي أنه إذا ولي الأمر بعد الرشيد ولداه فإن الأمر سيخرج من بني العباس إلى بني علي؛ لأن هذا الشيعي سوف يربي الأمين والمأمون على حب أهل البيت، وعلى ضرورة تقريبهم منهما، وبالتالي إعطائهم بعض حقوقهم؛ واتفقوا على القضاء على جعفر بن محمد بن الأشعث والإمام الكاظم عليه السلام.

وبناءً على هذا فقد تآمروا ووضعوا خطة لإبعاد هذا الرجل عن الأمين والمأمون، فكان أن كتبوا إلى الرشيد كتباً وتقاريرَ رفعوها إليه يذكرون له فيها أنَّ هذا الشخص من الشيعة الموالين لهذا البيت (البيت العلوي)، ومن محبي موسى بن جعفر وأنه يجمع الأموال ويبعثها إليه ليشتري بها سلاحاً أو لينفقها على شيعته ليجمعهم حوله.

وكان هذا هو السبب في سجن الإمام الكاظم عليه السلام، فقد كان جعفر بن محمد بن الأشعث يقول بالإمامة، وكان يحيى بن خالد بن برمك يكثر غشيانه في منزله فيقف على أمره ويرفعه إلى الرشيد، ويزيد عليه في ذلك بما يقدح في قلبه على أمره. ثم قال يوماً لبعض ثقاته: تعرفون رجلاً من آل أبي طالب ليس بواسع الحال يعرف ما أحتاج إليه؟ فدُلّ على علي بن إسماعيل بن جعفر بن محمد عليه السلام، فحمل إليه يحيى بن خالد بن برمك مالاً.

وكان الإمام الكاظم عليه السلام يأنس بعلي بن إسماعيل، ويصله ويبرّه، فلمّا

أنفذ إليه يحيى بن خالد يرغّبه في قصد الرشيد، ووعده بالإحسان إليه، فعمل على ذلك، وأحسّ به الإمام الكاظم عليه السلام، فدعاه وقال له: «إلى أين يابن أخ؟». قال: إلى بغداد. قال عليه السلام: «وما تصنع؟». قال: علي دين، وأنا مملق. فقال له الإمام الكاظم عليه السلام: «فأنا أقضي دينك، وأفعل بك وأصنع».

وكان الإمام عليه السلام مشهوراً بصراره التي كانت تخرج إلى المحتاجين والمعوزين كلّ يوم، وخصوصاً ذوي قرابته، وكانت تتراوح بين (٢٠٠) و(٣٠٠) دينار ذهباً[1].

فلم يلتفت علي بن إسماعيل إلى ذلك، وادّعى بأنه يريد التوسعة على عياله، وعزم على الخروج. فلمّا رأى الإمام الكاظم عليه السلام منه الإصرار على السفر استدعاه وقال له: «أنت خارج؟». قال: نعم، لابدّ لي من ذلك. فقال عليه السلام له: «انظر يابن أخي، واتّقِ الله، ولا تؤتم أولادي».

ثم أمر له بثلاثمئة دينار وأربعة آلاف درهم، فلما قام من بين يديه قال الإمام الكاظم عليه السلام لمن حضره: «والله ليستعين في دمي، ويؤتم أولادي». فقالوا له: جعلنا الله فداك، وأنت تعلم هذا من حاله وتعطيه وتصله؟ فقال عليه السلام: «نعم، حدثني أبي عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله أن الرحم إذا قطعت فوصلت فقطعت قطعها الله تعالى، إنني أردت أن أوصله بعد قطعه لي حتى إذا قطعني قطعه الله تعالى».

فخرج علي بن إسماعيل حتى أتى يحيى بن خالد فتعرّف منه خبر الإمام الكاظم عليه السلام، ورفعه إلى الرشيد، وزاد عليه، ثم أوصل علي بن إسماعيل إلى الرشيد، فسأله عن عمّه فسعى به إليه وقال له: خليفتان في

(١) تاريخ الإسلام ١٢: ٤١٨ ـ ٤١٩، مقاتل الطالبيّين: ٣٢٢.

الأرض تجبى لهما الأموال والخراج، ويطيعهما الناس؟ أنت خليفة وموسى بن جعفر خليفة؟ ثم أخبره أن الأموال تحمل إليه من كل مكان.. من المشرق والمغرب، وأنه اشترى ضيعة سمّاها البشيرة بثلاثين ألف دينار.

فلمّا سمع ذلك منه الرشيد شكره، ثم أمر له بمئة ألف درهم من أي ناحية يريدها، فاختار بعض كور المشرق، وأمضت رسله المال، ومرض في بعض تلك الأيام، فزحر زحرة خرجت منه حشوته كلّها، فسقط، وجهدوا في ردّها فلم يقدروا، فوقع لما به، وجاءه المال وهو ينزع، فقال: ما أصنع به، وأنا في الموت؟ ومثل هذا أما كان له نوع من هذا التفكير الذي يعصمه أن يصبح أداةً بيد الرشيد وأعوان الرشيد للإيقاع بالأئمة عليهم السلام وهم رحمه؟[١]

الإمام عليه السلام والهادي العبّاسي

على أية حال، فهنا بدأت الحالة تشتدّ على الإمام عليه السلام وبدأت المضايقات العباسية ومراهنات السلطة على اعتقاله وقتله تزداد ونسب ذلك تكبُر، وللإنصاف نقول: بأن الضيق لم يكن وليد عهد الرشيد، بل إنه ابتدأ منذ عهد الهادي الذي كان ينصب العداء لكل علوي، ولكل ما هو علوي، بل من عهد المهدي ثم الهادي ثم الرشيد، وكان الهادي يشتد حقده ويزداد غيظه، وكان يغلي حنقاً على الإمام عليه السلام، وقد وصل النبأ إلى الإمام عليه السلام بأن الهادي يتوعّده وكان عنده جملة من أهل بيته وأصحابه الخلّص، فقال عليه السلام لهم: «ما ترون؟». فقالوا: رأينا أن تتباعد عن هذا

(١) روضة الواعظين: ٢١٨ ـ ٢٢٠.

الرجل، وأن تغيب وجهك عنه؛ لأن هذا الرجل غشوم ظلوم وهو سوف ينالك بسوء.

فهدأهم الإمام عليه السلام وطلب منهم ألّا يخافوا، ثم تبسّم عليه السلام وأنشد:

«زعمت سخينة أن ستغلب ربها ولَيُغلبنّ مغالبُ الغلّابِ»

ثم رفع عليه السلام يده إلى السماء ودعا بهذا الدعاء العالي المضامين الجليل القدر، فقال: «إلهي، كم من عدوّ شحذ لي ظبة مديته، وأرهف لي سنان حدّه، وداف لي قواتل سمومه، ولم تنم عني عين حراسته، فلمّا رأيتَ ضعفي عن احتمال الفوادح، وعجزي عن ملمّات الجوائح، صرفت ذلك عني بحولك وقوّتك لا بحولي ولا بقوتي، فألقيته في الحفير الذي احتفره لي خائباً ممّا أمّله في دنياه، متباعداً ممّا رجاه في آخرته. فلك الحمد على ذلك قدر استحقاقك.

سيدي اللهم فخذه بعزّتك، وافلل حدّه عني بقدرتك، واجعل له شغلاً فيما يليه، وعجزاً عمن يناويه. اللهم وأعدني عليه عدوى حاضرة تكون من غيظي شفاء، ومن حقّي عليه وفاء، وصِل اللهم دعائي بالإجابة، وانظم شكاتي بالتغيير، وعرّفه عمّا قليل ما وعدت الظالمين، وعرّفني ما وعدت في إجابة المضطرّين؛ إنك ذو الفضل العظيم والمنّ الكريم».

ثم تفرق القوم، فما اجتمعوا إلّا لقراءة الكتاب الوارد بموت موسى الهادي بن المهدي (١).

وقد وقع هذا الأمر من هؤلاء مع علمهم التام ومعرفتهم تمام المعرفة بأن هذا الشخص لم يكن ليفعل شيئاً من هذا مع الأمين والمأمون، وأن كل ما كان يفعله هو تدريبهم على فنون الحربِ والفروسيةِ والقتال ودواعي

---

(١) الأمالي (الصدوق): ٤٥٩ ـ ٤٦٠ / ٦١٢.

تنمية الرجولة عندهما. وقد أيّد هذا عندهم ما كان يعتمل في نفوسهم من حقد وضغينة على آل أبي طالب عليهم السلام، وما كان يحسونه من عقدة اتجاههم بأنهم إنما خلقوا ليخرجوا عليهم ويسلبوهم ملكهم وسلطانهم، ولذا فإنهم دعموا هذه التهم بهذه العقدة التي كانوا عليها في كتاباتهم إلى الرشيد وتقاريرهم التي رفعوها إليه.

فالإمام عليه السلام في حقيقة الأمر قد تعرّض في أيام الهادي إلى ملاحقة شديدة مكثفة، وإلى مضايقة وإلى مهاترات السلطة التي حاولت بشتى الوسائل أن توجد المبرر والسبب الداعي لقتله، وكان من ذلك الضغوط الشديدة والتهديد بالقتل حتى فعل الله ما فعل بالهادي ببركة دعاء الإمام عليه السلام.

الإمام عليه السلام والمهدي العبّاسي

وكان هذا الأمر ـ معاناة الإمام عليه السلام من العبّاسيين ـ على أشدّه في زمن المهدي من قبل.. المهدي الذي لم يكتفِ بالتهديد، بل فعل كل ما بوسعه من أجل إنزال الأذى بالإمام عليه السلام فقد عمد إلى سجن الإمام عليه السلام في السجون الخاصة؛ ذلك أنه كان عنده نوعان من السجون: سجون عامة وسجون خاصة، مع أنه عليه السلام قد سجن كذلك في السجون العامة لكنه سجن أيضاً في السجون الخاصة. يروي الفضل بن الربيع عن أبيه الربيع قال: كنت ذات ليلة في فراشي مع بعض جواريّ، فلما كان في نصف الليل سمعت حركة باب المقصورة، فراعني ذلك، فلم يمضِ إلّا يسير حتى رأيت باب البيت الذي كنت فيه قد فتح، وإذا مسرور الكبير قد دخل عليّ فقال لي: أجب الأمير، ولم يسلم علي. فيئست في نفسي وقلت: هذا مسرور دخل إلي بلا إذن، ولم يسلّم، فما هو إلّا القتل.

فنهضت ولبست ثيابي وخرجت معه حتى أتيت الدار، فسلمت على الخليفة وهو في مرقده، فردّ علي السلام، فقال: تداخلك رعب؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين. فتركني ساعة حتى سكنت، ثم قال لي: سر إلى حبسنا فأخرج موسى بن جعفر بن محمد وادفع إليه ثلاثين ألف درهم، واخلع عليه خمس خلع، واحمله على ثلاثة مراكب، وخيّره بين المقام معنا أو الرحيل عنا إلى أي بلد أراد وأحبّ. فقلت: تأمر بإطلاق موسى بن جعفر؟ فقال لي: نعم. فكررت ذلك عليه ثلاث مرّات، فقال لي: نعم ويلك أتريد أن أنكث العهد؟ فقلت: أي عهد؟ قال: بينا أنا في مرقدي هذا إذ ساورني أسود ما رأيت من السودان أعظم منه، فقعد على صدري وقبض على حلقي وقال لي: حبست موسى بن جعفر ظالماً له؟ فقلت: فأنا أطلقه وأهب له وأخلع عليه، فأخذ عليّ عهد الله وميثاقه وقام عن صدري وقد كادت نفسي تخرج.

فخرجت من عنده ووافيت موسى بن جعفر وهو في حبسه، فرأيته قائماً يصلّي، فجلست حتى سلّم، ثم أبلغته سلام أمير المؤمنين، وأعلمته بالذي أمرني به في أمره، وأني قد أحضرت ما أصله به، فقال: «إن كنت أمرت بشيء غير هذا فافعله». فقلت: لا وحقّ جدّك رسول الله صلى الله عليه وآله ما أمرت إلّا بهذا. فقال: «لا حاجة لي في الخلع والحملان والمال إذا كانت فيه حقوق الأمّة». فقلت: ناشدتك بالله لا تردّه فيغتاظ. فقال: «اعمل به ما أحببت».

فأخذت بيده وأخرجته من السجن، ثم قلت له: يابن رسول الله، أخبرني السبب الذي نلت به هذه الكرامة من هذا الرجل. فقال: «رأيت النبي صلى الله عليه وآله ليلة الأربعاء في النوم فقال لي: يا موسى أنت محبوس مظلوم. فقلت:

نعم يا رسول الله محبوس مظلوم. فكرّر عليّ ذلك ثلاثاً ثم قال: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[1]، أصبح غداً صائماً، وأتبعه بصيام الخميس والجمعة، فإذا كان وقت الإفطار، فصلّ اثنتي عشرة ركعة، تقرأ في كلّ ركعة الحمد مرّة، واثنتي عشرة مرّة ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾، فإذا صلّيت منها أربع ركعات، فاسجد ثم قل: يا سابق الفوت، ويا سامع كلّ صوت، يا محيي العظام وهي رميم بعد الموت، أسألك باسمك العظيم الأعظم أن تصلّي على محمد عبدك ورسولك وعلى أهل بيته الطيّبين، وتعجل لي الفرج مما أنا فيه. ففعلت فكان الذي رأيت».

وفي رواية أنّ المهدي لما كان في بعض الليالي رأى علي بن أبي طالب عليه السلام وهو يقول له: يا محمد، ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[2] فاستيقظ مذعوراً وأمر به فأُخرج عليه السلام من السجن ليلاً، أمر فجيء به عليه السلام إليه، فلمّا رآه قال له: مرحباً بك يابن العم. ثم أجلسه معه وعانقه وأقبل عليه، وأخبره خبره، ثم أخذ عليه العهد ألّا يخرج عليه ولا على أحد من أولاده، فقال عليه السلام: «والله ما هذا من شأني ولا حدّثت فيه نفسي».

فالإمام عليه السلام يخبره بأن هذا ليس من شأنه وليس وارداً في اعتباراته أو حساباته؛ لأن هذا الأمر موكول إلى زمنه، فقال له: صدقت. ثم أمر بتجهيزه بعد أن خيره بين المكوث عنده وبين الرجوع إلى أهله، فاختار الإمام عليه السلام الرجوع إلى أهله بعد هذه الفترة الطويلة من السجن؛ لأنهم قد استوحشوه، فجهزه الربيع وخرج به حتى يوصله إلى المكان الذي يغادر منه إلى المدينة[3].

---

(١) الأنبياء: ١١١. (٢) سورة محمد: ٢٢.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٧٣ ـ ٧٤ / ٤، تاريخ الإسلام ١٢: ٤١٨ ـ ٤١٩، البداية والنهاية ١٠: ١٩٧.

وهذا ما ذكره عليه السلام لأبي خالد الزبالي حيث قال: قدم أبو الحسن موسى الكاظم عليه السلام زبالة [(١)] ومعه جماعة من أصحاب المهدي، بعثهم إليه في إشخاصه له، فأمرني بشراء حوائج له، ونظر إليّ وأنا مغموم فقال: «يا أبا خالد، مالي أراك مغموماً؟». فقلت: جعلت فداك، هو ذا تصير إلى هذا الطاغية، ولا آمنه عليك. فقال: «يا أبا خالد، ليس عليّ منه بأس، إذا كانت سنة كذا وكذا، وشهر كذا وكذا فانتظرني في أول الميل، فإني أُوافيك إن شاء الله تعالى».

قال: فما كانت لي همّة إلّا إحصاء الشهور والأيّام، فلما حان حين ذلك، وكانت الليلة التي أُطلق فيها سراح الإمام عليه السلام غدوت إلى أول الميل في اليوم الذي وعدني، فلم أزل أنتظره إلى أن كادت الشمس أن تغيب، فلم أرَ أحداً، فشككت، ووقع في قلبي أمر عظيم، فنظرت قرب الميل فإذا سواد قد رفع، فانتظرته فوافاني أبو الحسن عليه السلام أمام القطار على بغلة له، فقال عليه السلام: «إيه يا أبا خالد». قلت: لبّيك جعلت فداك. قال: «لا تشكنّ، ودّ والله الشيطان أنك شككت». قلت: قد كان والله ذلك جعلت فداك.

قال: فسررت بتخليصه، وقلت: الحمد الله الذي خلّصك من الطاغية. فقال عليه السلام: «يا أبا خالد، إن لهم إليّ عودة لا أتخلّص منهم» [(٢)].

---

(١) زبالة ـ بضم أوّله ـ: منزل معروف بطريق مكّة من الكوفة، وهي قرية عامرة بها أسواق بين واقصة والثعلبية. وقال أبو عبيد السكوني: زبالة بعد القاع من الكوفة وقبل الشقوق، فيها حصن وجامع لبني غاضرة من بني أسد.

وسميت زبالة بزبلها الماء، أي بضبطها له وأخذها منه. يقال: إن فلاناً شديد الزبل للقرب والزمل. ويقال: ما في الإناء زبالة، أي شيء.

وقال ابن الكلبي: سميت زبالة باسم زبالة بنت مسعر، وهي امرأة من العمالقة نزلتها.

معجم البلدان ٣: ١٢٩ ـ ١٣٠ ـ زبل.

(٢) قرب الأسناد: ٣٣٠ ـ ٣٣١ / ١٢٢٩، الكافي ١: ٤٧٧ ـ ٤٧٨ / ٣، الفصول المهمة ٢:

الرشيد يأمر بسجن الإمام عليه السلام

ثم جاء دور الرشيد الذي تكلّمنا عنه آنفاً ، وهو دور لم يكن بأقل حقداً وحنقاً وغيظاً وبغضاً لأهل هذا البيت ، فكان أن فعل أكثر مما فعل أسلافه ، وقد حجّ الرشيد بعد ذلك، فلما قرب من المدينة أمر بأن يستقبله الناس ـ وكان هذا جزءاً من تشريفات الرشيد التي اعتاد عليها ـ فاستقبله الوجوه من أهلها ، وتقدّمهم الإمام موسى بن جعفر عليه السلام على بغلة ، فقال له الربيع : ما هذه الدابّة التي تلقّيت عليها أمير المؤمنين هارون الرشيد ، وأنت إن طَلَبت عليها لم تدرِك ، وإن طُلِبت لم تفت؟ فقال عليه السلام : «**إنها تطأطأت عن خيلاء الخيل ، وارتفعت عن ذلّة الحمير ، وخير الأمور أواسطها**».

فلما دخل هارون الرشيد المدينة توجّه لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله ومعه الناس ، فتقدّم إلى قبر الرسول صلى الله عليه وآله وقال : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يابن عمّ . ومدّ بها صوته مفتخراً بذلك على غيره ، وكان قصده من هذا السلام أن يبيّن بأنّ مكانه في الخلافة غير متقلقل ؛ لأنه ابن عمّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ، وأن يقول للناس بأنه حينما يكون ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله ، فإنه يكون حينئذٍ الأحقّ بالخلافة من بعده ، وأنه لم يغتصبها من أحد . وهنا تقدم أبو الحسن عليه السلام فقال : «**السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا أبه**».

فتغيّر الرشيد وتبين الغيظ فيه حتى عزم على قتله ؛ لأنه ظنّ أن في الأمر تحدّياً ، وأن الإمام عليه السلام يريد أن يواجهه ، وأن يقول له: بأنك إذا كنت تدّعي هذا الأمر بالقرابة فأنا أحقّ به منك لأني ابنه[1] .

---

٩٤٢ ـ ٩٤٣.

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ٧٣، روضة الواعظين : ٢١٥ ـ ٢١٦. وانظر : الإرشاد ٢ : ٢٣٤ ـ

وهنا توجه الرشيد تلقاء رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إني أعتذر إليك من أمر قد عزمت عليه، فإني أريد أن آخذ موسى بن جعفر فأحبسه؛ لأني قد خشيت أن يلقي بين أمّتك حرباً تُسفك فيها دماؤهم وتزهق أرواحهم.

ثم أمر به فأُخذ من المسجد فأُدخل عليه فقيّده، واستدعى بقبّتين فجعله في إحداهما على بغل وجعل القبة الأُخرى على بغل، وخرج البغلان من داره عليهما القبّتان مستورتين، ومع كلّ واحد منها خيل، فافترقت الخيل فمضى بعضها مع إحدى القبّتين على طريق البصرة، والأُخرى على طريق الكوفة، وكان الإمام الكاظم عليه السلام في القبة التي مُضي بها على طريق البصرة، وإنما فعل ذلك الرشيد ليعمّي على الناس أمر الإمام عليه السلام. وأمر القوم الذين كانوا مع قبة أبي الحسن عليه السلام بأن يسلموه إلى عيسى بن جعفر المنصور، وكان على البصرة حينئذٍ فسُلّم إليه، فحبسه عنده سنة.

وكتب إليه الرشيد في دمه، فاستدعى عيسى بن جعفر المنصور بعض خاصّته وثقاته، فاستشارهم فيما كتب به الرشيد، فأشاروا عليه بالامتناع عن ذلك والاستعفاء منه، وحذّروه من هذا الأمر تحذيراً شديداً، وطلبوا منه ألّا يقحم نفسه في غلطة كهذه، وقالوا له: إن الرشيد ربما انقلب عليك بعد ذلك، ونسب لك أمر قتله، وأنك تصرفت في هذا الأمر من نفسك ثم يقتلك. وعليه فإياك أن تفعل مثل هذا الفعل! وحاول أن تتخلّص منه.

وفعلاً أخذ عيسى بمشورتهم، وكتب عيسى بن جعفر إلى الرشيد

---

٢٣٥. البداية والنهاية ١٠: ١٩٧ ـ ١٩٨. سير أعلام النبلاء ٦: ٢٧٣. قال (الذهبي): ولعل الرشيد ما حبسه إلّا لقولته تلك: «السلام عليك يا أبه»؛ فإن الخلفاء لا يحتملون مثل هذا.

يقول له: قد طال أمر موسى بن جعفر ومقامه في حبسي، وقد اختبرت حاله ووضعت من يسمع منه ما يقول في دعائه فما دعا عليك ولا عليّ، وما ذكرنا بسوء، وما يدعو لنفسه إلّا بالمغفرة والرحمة، ولم أرَه إلّا قائماً وقاعداً وراكعاً وساجداً[1]، ولم أسمعه إلّا داعياً. فإن أنفذت إليّ من يتسلّمه منيّ ويحضره إليك، وإلّا خلّيت سبيله؛ فإنني متحرّج من حبسه.

وهنا وجد الرشيد أن من الخطر ترك الإمام عليه السلام عند عيسى؛ لأن هذا قد أصبح يثني عليه ويمدحه في شخصيّته وخصاله؛ ولذا فإنه وجه إليه من يتسلّمه من عيسى بن جعفر، وصير به فسلم إلى بغداد. سُلّم إلى الفضل بن الربيع، فبقي عنده مدّة طويلة، فأراد منه الرشيد أن يقتله، فأبى، فكتب إليه بتسليمه إلى الفضل بن يحيى فتسلّمه منه، وجعله في بعض حجر دوره، ووضع عليه الرصد، فكان عليه السلام مشغولاً بالعبادة يحيي الليل كلّه صلاة وقراءة قرآن ودعاء واجتهاداً، ويصوم النهار في أكثر الأيام، ولا يصرف وجهه من المحراب، فوسّع عليه الفضل بن يحيى وأكرمه، فعلم الرشيد بذلك، فكتب إليه ينكر عليه توسيعه على الإمام عليه السلام، ويأمره بقتله. فتوقّف عن ذلك، ولم يقدم على ما أمره به؛ ممّا حدا بالرشيد أن يستشيط

---

(١) حينما حُبس الإمام عليه السلام عند السندي بن شاهك سألته أُخته أن تولّى حبسه، وكانت تتدين فسمح لها، فكانت تلي خدمته، تقول: كان إذا صلّى العتمة حمد الله عز وجل ومجّده، ودعاه، فلم يزل كذلك حتى يزول الليل، فإذا زال الليل قام يصلّي حتى يصلّي الصبح، ثم يذكر قليلاً حتى تطلع الشمس، ثم يقعد إلى ارتفاع الضحى، ثم يتهيّأ ويستاك ويأكل، ثم يرقد إلى قبل الزوال، ثم يتوضّأ ويصلّي حتى يصلّي العصر، ثم يذكر في القبلة حتى يصلّي المغرب، ثم يصلي ما بين المغرب والعتمة، فكان هذا دأبه.

وكانت إذا نظرت إليه كذلك قالت: خاب قوم تعرّضوا لهذا الرجل؛ فقد كان عبداً صالحاً.

تهذيب الكمال ٢٩: ٥٠، تاريخ بغداد ١٣: ٣٢ ـ ٣٣، سير أعلام النبلاء ٦: ٢٧٣، الكامل في التاريخ ٦: ١٦٤.

لذلك غيضاً وحنقاً[1].

فلما جاؤوه بعد ذلك به وضعه في سجن عام يقال له سجن القنطرة، وكان هذا السجن في غاية البشاعة والإرهاب؛ ذلك أنه كانت تمارس فيه ألوان لا يمكن أن يتصوّرها العقل من فنون التعذيب وإلحاق الأذى بالنزلاء فيه، وقد اشتهر عنه ما فيه من أدوات تعذيب، وقتل وإبادة، ونشر الإرهاب بين نزلائه. وهذا الحال كان يصفه لنا الشيخ المجلسي بقوله: «كان الإمامعليه السلام يألم من عذاب المعذَّبين أكثرَ مما يألم لنفسه وهو في سجنه»؛ لأنهعليه السلام كان يسمع أصوات المعذبين وصراخهم ويرى آلامهم على وجوههم وتأوهاتهم التي تصدر نتيجة ما يلاقونه من شتى صنوف التعذيب.

ثم بعد ذلك أرسلوه إلى سجن الفضل بن يحيى بن خالد ثم بعد ذلك إلى سجن غيره، وكل هؤلاء يمتنعون عن قتل الإمامعليه السلام؛ لما يرون عليه من آثار الزهد والورع والعبادة والتقوى، حتى إذا رأى الرشيد منهم ذلك ورأى إصرارهم على عدم تنفيذ أمره في قتل الإمامعليه السلام قال: أرسلوا به إلى سجن السندي بن شاهك، وبمجرّد أن دخل سجن السندي دخل عليه أبو يوسف القاضي ومحمد بن الحسن وهما من أصحاب أبي حنيفة وكانا يتلمذان للإمامعليه السلام وقد دخلا عليه ليسلما عليه وليسألاه، وحينما كانا جالسينِ معه جاءه الموكل بالسجن فقال له: يابن رسول الله لقد انتهت حراستي لهذا اليوم، وأنا عازم على الذهاب إلى أهلي، فهل من حاجة أقضيها لك وأنا خارج السجن؟ فشكره الإمامعليه السلام على ما أبداه من تعاطف

---

(١) روضة الواعظين: ٢١٨ ـ ٢٢٠.

معه.

فلما خرج الموكل بالسجن قال الإمام عليه السلام: «مسكين هذا يريد أن يقضي لي حاجة وهو لا يعلم أنه سيموت بعد ساعة».

فنظر كل من أبو يوسف ومحمد بن الحسن إلى بعضهما وقالا: جئنا نسأله في مسألة شرعية فأخبرنا بمسألة غيبية. ثم أرسلا خلفه من يتتبعه ليرى ما يكون من أمره، فخرج هذا الشخص خلف الموكل بالسجن فلما دخل الى بيته دخل هذا الشخص الذي أوكلاه بمراقبته إلى مسجد قرب بيته وبقي فيه، وما تناصف الليل حتى سمع الصراخ من بيته، فلما سأل عن السبب قيل له: بأن هذا الموكل بالسجن قد توفي. فلما رجع إليهما وأخبرهما بما حصل جاءا إليه عليه السلام وقالا له: يابن رسول الله لقد علمنا أنك قد أخذت علم الفقه والدين من هذا البيت.. من أبيك عن آبائك، لكن هذا العلم الذي هو إخبار عن المغيبات من أين أخذته؟

وهنا أجابهما الإمام عليه السلام بقوله: «قد أخذت هذا العلم من الألف باب التي فتحها رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي بن أبي طالب عليه السلام، فانفتح له من كل باب منها ألف باب». فأذعنا وسكتا[1].

على أية حال، فإن الإمام عليه السلام بعد أن نُقل إلى هذا السجن كان نوعاً ما أحسن من السجون التي سبقته؛ فقد كان يلتقي ببعض الناس، أو كان يدخل عليه بعضهم للمسألة أو الاستعلام وما إلى ذلك، كما رأينا من أمري أبي يوسف القاضي ومحمد بن الحسن، لكن الرشيد بعد ذلك أخذ يشدّد عليه أكثر وأكثر حتى إنه نقله إلى الطامورة.

---

(١) الصراط المستقيم ٢: ١٩١ / ١٢.

وكأنما هذا السجن كان على طبقتين: الطبقة الأرضية التي يوضع فيها عامة السجناء، وهنالك الطامورة التي إذا اُدخل فيها أحدٌ فإنه لا يراه أحدٌ ولا يرى أحداً، وعلى حد تعبير المؤرخين فإنه يقولون: انحدر به إلى الطامورة التي لم تكن يعرف فيها الليل من النهار، أي أنزلوه إليها.

ومكث الإمام عليه السلام في هذا السجن الفترة التي بقيت له من حياته، وكان السّجانون يسمعونه وهو يصلي ويبكي ويناجي ربه جلّ وعلا برقيق الدعاء والمناجيات التي لم تكن تفارقه، ومن ضمن ذلك أنه عليه السلام هناك تفرّغ عليه السلام لعبادة ربه سبحانه وتعالى، ولذا فإنه كان يناجي ربه في سجوده قائلاً: «اللهم إنك تعلم أنني كنت أسألك أن تفرّغني لعبادتك، اللهم وقد فعلت؛ فلك الحمد يارب على آلائك ونعمائك. إلهي مسكينك بفنائك، وفقيرك بفنائك، يامحسن قد أتاك المسيء، تجاوز عن قبيح ما عندنا بجميل ما عندك»:

من البصره السجن بغداد جابه	بحديد وكيد ويدور باهابه
ذبّه ابسجن مظلم غلگ بابه	ونهى السجان يمه ناس يصلون

* * *

بسجن والسندي بن شاهك السجان	عليه بكل وكت مغلگ البيبان

ظل اسنين للوادم فلا بان

وقد مكث عليه السلام في هذا السجن فترة طويلة ليس له من دأب أو ديدن إلّا العبادة والانقطاع إلى الله جل وعلا، يروي علي بن سويد يقول: دخلت عليه فوجدته متفرّغاً للعبادة، فلما فرغ من صلاته قال: «ما وراءك يابن سويد؟». فقلت: سيدي متى الفرج؟ فقال عليه السلام له: «يابن سويد، الفرج قريب». فقلت: متى يكون ذلك يا سيّدي؟ قال: «يوم الجمعة على الجسر ببغداد ضحىً».

فخرجت منه ولا تكاد تحملني قدماي، فما انتهيت إلى باب من أبواب إخواني إلّا طرقتها وأخبرتهم الخبر وبشّرتهم، إلى أن حانَ الموعد، فاحتشدنا في الطرقات المؤدّية إلى الجسر، وبينما نحن كذلك إذا بالسجانين يحملون على أيديهم جنازة قد لفّت بعباءة، فطرحوها على الجسر، ونودي عليها بذلك النداء الفظيع.

يقول ابن سويد: كانت لي صحبة مع طبيب نصراني كان قد مرَّ أمام الجسر، فقلت له: بالمسيح عيسى عليك إلّا ما نظرت في كفّ هذا المسجّى. فكشف عنه الرداء وأخذ يده فلمّا نظر فيها طويلاً قام ولم يتكلم، فقلت له: ما بالك؟ قال: يا هذا لا تُطل، هل لهذا الرجل من عشيرة؟ قلت: ما الخبر؟ قال: ليطالبوا بدمه فإن الرجل مسموم.

وانتهى الأمر بأن جاء سليمان وأخذ الجنازة ووضعها في مفترق أربعة طرق، ونودي عليها: ألا من أراد أن يحضر جنازة الطيّب ابن الطيّب فليحضر. فبلغ عدد المشيّعين سبعين ألفاً[1]:

يگلوله غريب اهله امبيِّنين	لاچن بالمدينه عنه بعيدين

* * *

أتـناست باب الحوائج فهرَّ	وهو في قيده يعاني الحبوسا

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٩٣.



الفصل العاشر

الإمام الرضا عليه السلام



﴿٥٣﴾

غريب طوس عليه السلام

سيدي يا أبا الجواد ويا بن الـ ـحبر موسى ويا مناط الرجاءِ
يا مقيماً بقلب كل محبّ ولوَ ان المدى بعيدٌ نـاءِ
يا بن أصلاب من أعزّ رجال وابن أرحام من أعفّ نساءِ

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأوّل: في ولادته الكريمة ونشأته

ولد الإمام الرضا عليه السلام سنة مئة وثمانية وأربعين للهجرة، ومجموع عمره الشريف خمس وخمسون سنة؛ لأنّه توفي عام مئتين وثلاثة للهجرة، وهو بمقدار عمر أبيه الإمام الكاظم عليه السلام. وكانت ولادته في المدينة المنوّرة في دارهم المعروفة بالعريض، وأمّه أمّ ولد نوبية يقال لها أروىٰ، وتلقّب بشقراء، يقول هشام بن أشقر: قال لي أبو الحسن الأول عليه السلام: «هل علمت أحدا من أهل المغرب قدم؟». قلت: لا. قال: «بلى، قد قدم رجل من أهل المغرب المدينة، فانطلق بنا». فركب وركبت معه حتى انتهينا إلى الرجل، فإذا رجل من أهل المغرب معه رقيق، فقلت له: اعرض علينا. فعرض علينا سبع جوارٍ، كل ذلك يقول أبو الحسن عليه السلام: «لا حاجة لي فيها». ثم قال: «اعرض علينا». فقال: ليس عندي إلا جارية مريضة. فقال له:

«ما عليك أن تعرضها؟». فأبى عليه، فانصرف ثم أرسلني من الغد، فقال لي: «قل له: كم كان غايتك فيها؟ فإذا قال لك: كذا و كذا، فقل: قد أخذتها». فأتيته فقال: ما كنت أريد أن أنقصها من كذا و كذا. فقلت: قد أخذتها. قال: هي لك، ولكن أخبرني من الرجل الذي كان معك بالأمس؟ قلت: رجل من بني هاشم. قال: من أي بني هاشم؟ فقلت: ما عندي أكثر من هذا. فقال: أخبرك أني اشتريتها من أقصى المغرب، فلقيتني امرأة من أهل الكتاب، فقالت: ما هذه الوصيفة معك؟ قلت: اشتريتها لنفسي. فقالت: ما ينبغي أن تكون هذه عند مثلك، إن هذه الجارية ينبغي أن تكون عند خير أهل الأرض، فلا تلبث عنده إلا قليلاً حتى تلد غلاماً لم يولد بشرق الأرض و لا غربها مثله. قال فأتيته بها، فلم تلبث عنده إلّا قليلاً حتى ولدت الرضا عليه السلام[1].

لماذا الزواج من الجواري والسراري

إذن كان الإمام الرضا عليه السلام ابن جارية، وهذه الظاهرة ليست غريبة، ولا فريدة في تاريخ أهل البيت عليهم السلام، والزواج من الجواري من الأمور التي دعا إليها الإسلام وحثّ على فعلها. وهناك عدّة أهداف يرمي إليها الإسلام من وراء تزوّج الجواري والسراري، وهذا هو الذي يفسر لنا سرّ إقبال أهل البيت عليهم السلام على الزواج من الجواري، ومن هذه الأهداف:

الهدف الأوّل: كسر نظرة التعالي عند العرب لغيرهم من الشعوب

وإنّما قلنا: إنها ظاهرة ليست غريبة في حياتهم عليهم السلام؛ لأن غيرهم سيستغربها حقّاً، فالعرب كانوا يحتقرون ابن الجارية ويعتبرونه هجيناً،

---

(١) الإرشاد ٢: ٢٥٤ ـ ٢٥٥، مناقب آل أبي طالب ٤: ٣٦٣.

وهي نظرة جاهلية لا تنسجم مع العقل ولا مع الشرائع السماوية، وإنما تنسجم مع التقاليد. فالعقل يقول غير ذلك؛ لأن هذه الجارية ربما كانت تتحدّر من حضارة أضخم من حضارة العرب آنذاك. هذا من ناحية العقل، أما من ناحية الإسلام فإنّه دين سماوي عالمي ورسالة عامّة، ويريد أن يجعل الشعوب مندمجة مع بعضها بلا فرق بين هذا الشعب وذاك بالعرق والقومية أو اللون أو المنطقة الجغرافية. وهذا أوّل أهداف الإسلام.

الهدف الثاني: تخفيف وطأة الفتح على أبناء البلاد المفتوحة

فالإسلام يريد بهذا أيضاً أن يخفّف من وقع الفتح ووطأته على نفوس أبناء البلاد المفتوحة التي لم يسلم الإسلام من بقايا عقد ضدّه ظلت راسخة في نفوس أهلها؛ كونه فتح بلادهم وغيّر نظام الحكم والسلطة والقوانين وأثّر في حضاراتهم. وهذا الشيء بطبيعة الحال ليس سهلاً عليهم أبداً.

ولو رجعنا إلى الحروب الحديثة في تاريخنا المعاصر كالحرب العالمية الثانية لوجدنا أن الدول أو المدن التي احتلّها الحلفاء لم تستقر إلى أن رجع المحتلّ عنها، كألمانيا على سبيل المثال، فليس سهلاً أن يأتي المحتلّ إلى بلد فينظر له الناس فيه نظرة طبيعية، إنّ الشعوب تنظر إلى المحتل نظرة متشنجة. وهذا ما دفع الإسلام إلى وضع مجموعة نظم في التعامل مع هذه الشعوب تهدف إلى امتصاص هذه النظرة المتشنجة إن لم نقل: اجتثاثها.

ومن هذه الطرق فتح باب الزواج من الجواري والسراري على مصراعيه، وهو نظام دفع المسلمين إلى الزواج من أكبر قدر من نساء هذه

البلاد المفتوحة بوجه شرعي وسليم، ممّا أدّى إلى اختلاط الدماء والتدرّج في القضاء على نظرة التعالي التي كان العرب ينظرون بها إلى أبناء الشعوب الأُخرى. وبهذا أصبحنا نرىٰ الكثير من أشراف القوم وأُمهاتهم غير عربيات، فهذا أمّه روميّة وذاك صقلّية والثالث فارسية، فالتقت الشعوب مع بعضها واندمجت بالمصاهرة، وأصبح الاتّصال قائماً بين الأُمم على مختلف أجناسها وألوانها وأعراقها؛ مما أدّىٰ إلى امتصاص النقمة.

الهدف الثالث: إيجاد حالة من التلاقح الفكري

والهدف الآخر الذي يسعى إليه الإسلام الحنيف من وراء حث المسلمين على الزواج من الجواري هو تسهيل عملية التبادل والتواصل الفكريين بين الشعوب المتصاهرة؛ لأن امتزاج الدماء يسهّل عملية التبادل بالأفكار بين الطرفين، ويقرب ما بينها؛ إذ أنه سيكون بينهما تزاور وتبادل علاقات، وبالتالي تحصل عملية نقل الأفكار والحضارات من شعب إلى شعب[١].

إذن عملية التزاوج تلعب دوراً مهمّاً في إحداث حالة من الانسجام والتبادل الفكري وكسر حاجز الترفّع بين الشعوب المتصاهرة، وهذا ما حصل فعلاً؛ وهو الذي دفع بالاسلام كما قلنا إلى وضع هذا التشريع.

بيع الرقيق

ويبقىٰ هنا سؤال لابدّ من إثارته وطرحه ثم مناقشته لتتّضح وجهة نظر

---

(١) انظر هذا المطلب كاملاً في محاضرة (قبسات من حياة السجاد عليه السلام) في ج ٤ من المحاضرات.

الإسلام حيال مسألة الرق. هذا السؤال يطرحه البعض من المثقفين وربما الكثير منهم بصورة متشنّجة، وهو: هل إنّ الإنسان حيوان حتى يباع ويشترىٰ في الأسواق؟ وإن كان أرفع من الحيوان، فلماذا تباع الجواري إذن، مع أنها إنسان، والإنسان له كرامة يجب أن تُحفظ وتصان؟

والجواب عن هذا التساؤل أن نقول: إن الإسلام لم يستهدف إذلال الآدمي، بل إنّه استهدف رفع منزلة الشعوب وتعظيم كرامتهم بدعوته إياهم إلى الدخول فيه. ثم إنّه لم يقاتل هذه الشعوب مباشرة، بل إنّه كان يخيّرها قبل القتال بين الدخول في الإسلام أو البقاء على دينها مع دفع الجزية؛ لأنّه يريد أن يبسط حمايته عليهم. ومعنى هذا أنه وسّع دائرة الاختيار لهذه الشعوب قبل أن تختار القتال، فإذا دخلت هذه الشعوب في الإسلام فقد حلّت المسألة ولم يبقَ هناك أي مجال للسبي واقتياد الجواري وغير ذلك، وأصبح هذا البلد إسلامياً له ما لجميع البلاد الإسلامية من حقوق وعليه ما عليها من واجبات. ومع رفض هذا البلد الإسلامَ واختيارهم البقاء على دينهم، فإنهم يسمح لهم بذلك لكن بشرط المواطنة الصالحة؛ وهي أن يذعنوا لقانون الإسلام، ويدفعوا الجزية التي هي مبلغ رمزي كي يأخذ مقابلها كل الحقوق التي يأخذها المسلم.

الإسلام يسهّل باب العتق

إذن المراد بهذه العملية هو ترويض من يرفض أن يدخل في الإسلام أو يرفض أن يكون مواطناً مسلماً صالحاً. ولذا فإنّ الإسلام عمد إلى كسر هذه الحالة من التمرّد الأهوج، ثم بعد ذلك فتح باب تحرير هؤلاء وعتقهم على أوسع مجالاته. ويكون هذا العتق بعدة أُمور منها:

أوّلاً: الحث على عتقهم لوجه الله

فهناك الكثير من الحث على عتق هؤلاء طلباً لثواب اللّه تعالىٰ واكتساباً لمرضاته[١].

ثانياً: انعتاق أمّ الولد

فهؤلاء الجواري حينما يحملن من مالكهين فإنهن ينعتقن تلقائياً بمجرد موت المالك؛ حيث إنهن يحتسبن حينها من نصيب أبنائهن. ومعنى هذا أن ملكيتهن تصبح متزلزلة بمجرد أن يبين حملهن، وتسمى حينئذٍ أم ولد.

المبحث الثاني: ألقاب الإمام الرضا عليه السلام

وبعد أن وضعت أروىٰ (رضي اللّه عنها) مولودها الكريم المبارك،

---

(١) فعن رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «لا يقل أحدكم عبدي وأمتي، وليقل: فتاتي وغلامي». مسند أحمد بن حنبل ٢: ٣١٦، مسند أبي يعلى ١١: ٤٠٥ / ٦٥٢٩.

وكان الإمام زين العابدين عليه السلام يجمع غلمانه في ليلة العيد فيعتقهم، ثم يطلب منهم ليدعوا له، ويقول لهم: «قولوا: اللهمّ اعفُ عن علي بن الحسين كما عفا عنّا». الصحيفة الكاملة السجاديّة / دعاؤه عليه السلام في آخر ليلة من شهر رمضان، الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ٤٤٤، بحار الأنوار ٤٦: ١٠٤، ٩٥: ١٨٧.

وعن ابن مسعود قال: كنت أضرب عبدي بالسوط فسمعت صوتاً من خلفي، وإذا هو رسول اللّه صلى الله عليه وآله يقول: «اعلم أبا مسعود، أن اللّه أقدر عليك منك علىٰ هذا الغلام». فقلت: يا رسول اللّه، هو حرّ لوجه اللّه. فقال صلى الله عليه وآله: «أما لو لم تفعل للفحتك النار». مسند أحمد ٥: ٢٧٣ ـ ٢٧٤، صحيح مسلم ٥: ٩١ ـ ٩٢، مسند أبي داود ٢: ٥٠١ / ٥١٥٩.

وقال صلى الله عليه وآله: «من قتل عبده قتلناه، ومن جدع عبده جدعناه». سنن أبي داود ٤: ١٧٦ / ٤٥١٥، سنن الدارمي ٢: ١٩١، الجامع الصحيح «سنن الترمذي» ٤: ٢٦ / ١٤١٤.

ومن ذلك سن تشريع المكاتب والمدبّر، وجعل كفّارة الكثير من الجرائر عتق رقبة مؤمنة، كل ذلك للقضاء على آفة الرقّ.

أسماء الإمام الكاظمﷺ بأحبّ اسم، وهو اسم عليّ الذي كان أهل البيت ﷺ يحرصون على التسمّي به؛ لأنّه اكتسب مكانة ممّن سمي به، وهو أمير المؤمنينﷺ. ولقبﷺ بألقاب عدة منها الوفي والصابر والسلطان والرضا، وهو أشهرها:

الصابر

ولقب الصابر جاء من صبره في مواقف صعبة جداً يصعب معها الصبر على من هو غيره، وكما سيمرّ بنا إن شاء اللّه تعالى خلال الأبحاث القادمة. فالإمامﷺ كان مثال التصبّر والتجلّد، ولم يُبدِ تأثراً أو تألّماً مطلقاً.

الوفي

وهو لقب استحقّه بجدارة وأهلية تامة، لأنّهﷺ كان بحق وفيّاً لرسالته المناط به أداؤها، ولدوره الذي تحمّل عبء القيام به كما هو شأن آبائه وأبنائه الطاهرين المنتجبينﷺ.

الرضا

ويراد به رضا اللّه في أرضه ورضا الناس عنه في الدنيا؛ لأنّهﷺ نادراً ما واجه معارضة في ولاية العهد التي قبلها. وكان الأعمّ الأغلب يرىٰ أنّ هذا المنصب هو دون منصب الإمامة، وهو كذلك فعلاً وبكثير.

السلطان

وهو أبرز الألقاب بعد لقب الرضا، وقد ورد في الزيارة الشريفة خاصّته: «السلام عليك أيها السلطان علي بن موسى الرضا». ونجد هناك إصراراً من البعض على هذا اللقب مع أنه لا يعني شيئاً لهﷺ، فمروان بن

الحكم صار سلطاناً، وكذلك يزيد صار سلطاناً، وكذلك أمثالهما. فالإمام لا يزيده شيئاً كونه سلطاناً؛ فيكفي أن يقال عنه: الرضا، الوفي، الصابر، وغيرها من الألقاب الدينية الشريفة، ومثل هذا اللقب لا يقدم شيئاً للإمام ولا يؤخّر عنه شيئاً.

المزايا المجعولة والمنجعلة

إن العلماء يقسمون المزايا إلى قسمين: مجعولة ومنجعلة، وهذا اللقب داخل ضمن المزايا المجعولة. وسنجمل هذه المزايا بالآتي:

المزايا المجعولة

وهي المزايا التي تأتي من خلع أحد على أحد آخر لقباً من قبيل وزير أو قائد أو عقيد، أو غير ذلك من ألقاب السلطة. وهذه الألقاب (المزايا) مرتبطة عادة بالمهنة، فإذا أُبعد الملقّب بها عن منصبه فقد ذلك اللقب وذهب عنه، وإن كان البعض يستمرّ معه لقبه، لكن تجوّزاً وليس حقيقة؛ لأنه لقب مجعول ينفك عن صاحبه بمجرد تركه داعيه أو السبب له وهو المنصب أو المهنة.

المزايا المنجعلة

أما المزايا المنجعلة، فهي المزايا التي تعدّ من الملكات الروحية التي لا تنفك عن صاحبها ولا تفارقه، ولا يمكن أن يسلبه أحد إيّاها. وذلك مثل لقب عالم أو إمام حقّ، فلا يمكن أن يقول أحد أنّ فلاناً بعد موته لا يمكن أن يسمى عالماً أو الإمام كذلك، يقول الشاعر:

إن الأمـــير هـــو الذي ... يُمسي أميراً يوم عَزلة
إن زالَ سُـــلطانُ الولا ... يةِ لم يَزُل سُلطانُ فضلة

إذن الفضل والعلم من الصفات الملازمة للإنسان ولا يمكن أن ينفكّا عنه.

وهذا ما ينطبق على الإمام الرضاعليه السلام؛ فليس شيئاً ذا شأن أن يقال عنه: سلطان ـ كما مرّ ـ وهو لقب مجعول. فصفاته الشريفة الأُخرى وألقابه الكريمة المنجعلة أحقّ أن يوصف بها وأن ينعت ويلقّب؛ لأنّها مشتقّة من ذاته الشريفة المباركة، أمّا لقب السلطان فهو لقب يمقته الإمامعليه السلام؛ لأن الظروف السياسية وضعته أمام الأمر الواقع، وأدّت به إلى قبول هذا اللقب، وليس عن رضا نفس أو قناعة به. فهو لقب ـ كما مر ـ لا يقدم ولا يؤخّر في حقّ الإمامعليه السلام.

ثم إنه صحيح أنّ بعض الناس يرفع من قدره السرير لكن البعض الآخر لا يؤثر فيه السرير رفعة ولا مقاماً؛ لأنّه بلغ الغاية القصوىٰ والشأو الأبعد في الكمال والمنزلة. سئل أحمد بن حنبل بعد أن طال النقاش عنده حول أمير المؤمنينعليه السلام وخلافته، فقال: «قد أكثرتم، إن كانت الخلافة قد زيّنت غير علي، فإن علياً قد زان الخلافة»[1]. وهنا يخاطبه أحد الأدباء بقوله:

إنــي أتــيتُك أجــتليك وابــتغي ... وِرداً فــعندك للــعطاش مــعينُ

وأغضُّ من طرفي أمام شوامخ ... وقــع الزمــان وأسُّــهنَّ مــتينُ

وأراك أكــبرَ مــن حــديث خــلافةٍ ... يســتافُها مــروانُ أو هــارونُ

لك بــالنفوس إمــامةٌ فــيهونُ لو ... عــصفت بك الشورى أو التعيينُ

---

(١) الهداية الكبرى: ١٢، شرح نهج البلاغة ١: ٥٢، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٤٤٦، تاريخ بغداد ١: ١٤٥.

فـدع المعاول تـزبئرّ قساوة وضـراوة إن البـناء مـتينُ[1]

إذن أهم ألقاب الإمام عليه السلام هو الرضا، وهو أشهرها وأحبّها إلى نفسه الكريمة.

المبحث الثالث: النص على إمامته

نشأ الإمام عليه السلام في كنف والده الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ورعايته الكريمة، وترعرع تحت عينه الشريفة، وقد نصّ عليه الإمام عليه السلام بأنه الإمام من بعده، يقول داود الرَّقّي: قلت لأبي إبراهيم عليه السلام - يعني الإمام الكاظم عليه السلام -: جعلت فداك، إني قد كبر سنّي، فخذ بيدي من النار. إنه عليه السلام يقول له عليه السلام: قد كبرت سنّي، ولست أعلم متى أُغادر هذه الدنيا، وإني أرجو لك من الله العمر المديد، لكن خذ بيدي وضعها على من يلي هذا الأمر الشريف من بعدك. فأشار عليه السلام إلى ابنه أبي الحسن عليه السلام وقال: «هذا صاحبكم من بعدي»[2].

وعن النصر بن قابوس قال: قلت لأبي إبراهيم عليه السلام: إني سألت أباك عليه السلام: من الذي يكون من بعدك؟ فأخبرني أنك أنت هو فلمّا توفّي أبو عبد الله عليه السلام ذهب الناس يميناً وشمالاً، وقلت فيك أنا وأصحابي، فأخبرني: من الذي يكون من بعدك من ولدك؟ فقال عليه السلام: «ابني فلان»[3].

شرط العصمة في الإمام عليه السلام

إذن كان الإمام الكاظم عليه السلام ينصّ على أنّ عليّاً الرضا عليه السلام هو الإمام من

---

(١) ديوان المحاضر ١: ٢٠.

(٢) الكافي ١: ٣١٢ / ٣، الإرشاد ٢: ٢٤٨، الغيبة (الطوسي): ٣٤ / ٩.

(٣) الكافي ١: ٣١٣ / ١٢، عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٤٠ - ٣٩ / ٢٦.

بعده، ويؤكّد على تعيينه من بعده؛ لأنّ الأمور التي تعرف بها الإمامة وتدّل عليها لا سبيل إلى معرفتها إلّا من اللّه، ومن جملتها العصمة، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[١]، إذن كيف نعرف الصادق من غيره؟ إنّ العصمة الشريفة أمر خفي، ولذا كان لا سبيل إلى الاستدلال بها إلّا من قبل المعصوم؛ فالنبي صلى الله عليه وآله نصّ على أمير المؤمنين عليه السلام والحسنين عليهما السلام والأئمّة عليهم السلام من بعده، وكذلك أمير المؤمنين عليه السلام[٢]، وهكذا.

إذن فنحن إنما نشترط العصمة في الإمام؛ لأنّ اللّه تعالى أمرنا بإطاعة أولي الأمر، فإذا كان ولي الأمر غير معصوم فمعناه أن من الممكن أن يشرب هذا الولي الأمرَ الخمر، وأن يزني وأن يقتل بغير وجه حقّ وينحرف[٣]، ولازم هذا أنّ اللّه يأمرنا المعصية وبإطاعة من يعصيه، وهذا لا يمكن أن يكون بحال أبداً. وعليه فإنه لا يمكن أن يرضى اللّه لعباده المعصية ولا يمكن أن يأمرهم بإطاعة من يعصيه[٤]. وهذا هو الذي حدا بنا إلى اشتراط العصمة في الإمام؛ لأنّ المعصوم لا يعصي اللّه قط، ولا يقدم على سفك الدم إلّا بالأدلّة والأصول؛ لأن سفك الدم عظيم عند اللّه تعالى: «لأن تزول السماوات والأرض أهون عند الله من قطرة دم حرام تسفك».

---

(١) التوبة: ١١٩.

(٢) لأنهم ممّن نصّ عليهم رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله، ومن ينصّ عليه النبي صلى الله عليه وآله فهو أهل لأن ينصّ على غيره؛ لأنّه صلى الله عليه وآله لا ينص إلّا على من هو أهل لذلك؛ فلا يكذب ولا يخون ولا يفعل أي قبيح.

(٣) كما هو شأن الكثير ممّن يدّعون أنهم ولاة الأمر، كخلفاء بني أُميّة وبني العبّاس، وغيرهم.

(٤) وهذا أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق». نهج البلاغة / الحكمة: ١٦٥.

ونحن بهذا نريد أن نضمن مسألة التقيّد بما رسم اللّه تعالى وبما أمر عن طريق العصمة.

شرط العدالة في الحاكم

وقد يقول قائل: ليكن شرط العدالة هو المأخوذ في الحاكم دون شرط العصمة، فالمسلمون جميعاً يشترطون عدالة الحاكم أو الإمام.

ونقول: أين هي العدالة التي يُتكلّم عنها؟ ألم تكن الدماء تسفك لأتفه الأسباب، بل دون سبب أحياناً[١]؟ دخل خالد وجنده على مالك بن نويرة وأصحابه في ليلة ظلماء وقتلوهم غيلة وغدراً، وأعرس هو بزوجة مالك ليلة مقتله دون عدّة ودون وجه حقّ في قتلهم[٢]، ثم يُراد بنا أن نلقي عقولنا أرضاً ونلغيها ونصدق ما يبرّر به كل فعل مخالف للسنة ومنافٍ للعدالة[٣].

فقولنا بعصمة الإمام هو قول نابع من حاجة الحياة إلى ذلك؛ لأنّها لا تستقيم ولا تصلح أُمورها ما لم يكن الإمام والحاكم معصومين. والقول باشتراط العصمة هو ضمان لاستمرار سيرة الحكم والحاكم والمحكوم

---

(١) كما هو شأن سمرة بن جندب الذي قتل في يوم واحد ثمانية آلاف شخص ولم يفرّق ويميّز بين الخارجي والمسلم، وحينما اعتُرض عليه في قتل المسلمين قال: الخارجي يعجّل به إلى النار، والمسلم يعجّل به إلى الجنة. تاريخ الطبري ٤: ١٧٦، تاريخ ابن خلدون ٣: ١٠، النصائح الكافية: ٧٦. ونقول له: وأنت إلى أين يعجّل بك؟

وكما هو شأن مسرف بن عقبة وما فعله بأهل مدينة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله. تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ١٨١ ـ ١٨٢.

(٢) بشهادة عمر بن الخطاب، حيث قال له: قتلت امرأً مسلماً ونزوت على زوجته! لأرجمنك بأحجارك. المصنّف (ابن أبي شيبة) ٨: ٥، شرح نهج البلاغة ١٧: ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

(٣) كقول أبي بكر: لا أُشيم سيفاً سلّه اللّه على أعدائه؛ إنه اجتهد فأخطأ. المصدر نفسه.

على العدل والاستقامة.

المبحث الرابع: نشاطاته عليه السلام في الحياة العامّة والخاصّة

ذكرنا أنّ الإمام عليه السلام نشأ وربي في حجر والده الإمام الكاظم عليه السلام، فكان أن نال أحسن تربية وحاز أعلى القيم والمثل والمبادئ. وهذا ما كان له دور كبير في تحديد شخصيّته المستقبلية (سلام اللّه عليه وعلى آبائه وأبنائه)؛ حيث أدّىٰ ما عليه من رسالة على أتمّ وجه.

نشاطه العلمي في المدينة المنوّرة

كان الإمام عليه السلام في المدينة المنوّرة يتصدّىٰ لنشر العلم على طريقة آبائه وأسلافه عليهم السلام؛ حيث إنه عليه السلام يأخذ مجلسه في المسجد أو في بيته، ويفد عليه الوافدون ليتزوّدوا من علمه ويستنيروا بهداه وفكره. والمؤرخون حينما يتناولون شخصية الإمام الرضا عليه السلام يذكرون له مواقف علمية عدّة في هذا المجال، ويروون عنه أنه عليه السلام ما سئل عن مسألة لم يجب عنها قط.

من أجوبته عليه السلام وأقواله المأثورة

مراحل الإفتاء والاجتهاد

وكانت أجوبته عليه السلام كلها انتزاعات من القرآن الكريم، وهو ما يسمّى بمرحلة الفتوىٰ مع النصّ، ذلك أنّ الإفتاء أو الاجتهاد مرّ بعدة مراحل هي:

الأولى: مرحلة النص القريب

وهي مرحلة يكون فيها المفتي أو المشرّع قريباً من النصّ، أو يكون النص قريباً منه، كأن يسأل سائل في زمن النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم: هل يجوز الأكل في شهر رمضان بعد شروق الشمس؟ فيأتيه الجواب: لا؛ لأن

القرآن الكريم يقول: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾[١]؛ فهذا النصّ موجود، ومعناه واضح وقريب جداً إلى الأذهان؛ فيأتي الجواب مباشرة حول مثل هذا السؤال.

الثانية: مرحلة الفتوى مع النصّ

وهذه هي المرحلة التي كانت في زمن الأئمّة عليهم السلام، والتي تطوّر فيها الاجتهاد نوعاً ما، حيث إن المعصوم عليه السلام ينتزع فيها الحكم أو الجواب من القرآن الكريم انتزاعاً.

جوابه عليه السلام لمن نذر أن يتصدق بأموال كثيرة

سأله رجل أنه نذر إن عوفي من مرضه أن يتصدّق بمال كثير، فما هو حدّ المال الكثير؟ فقال له عليه السلام: «تصدّق بثمانين درهماً». فقال الرجل: وما الدليل على هذا؟ قال عليه السلام: «إن الله عز وجل يقول: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾[٢]، فعددنا تلك المواطن فكانت ثمانين»[٣].

فالإمام هنا انتزع الحكم والجواب من القرآن الكريم مباشرة، أي أنّ الإمام عليه السلام ليس بحاجة إلى استخدام الأدوات الفقهية لاستنباط الحكم الشرعي، وإنّما يأخذ الحكم مباشرة من الكتاب العزيز.

المأمون يجمع له علماء دار الخلافة

وهكذا كان الإمام عليه السلام يجلس متصدّياً لأسئلة الناس، حتى إن المأمون

(١) البقرة: ١٨٧. (٢) التوبة: ٢٥.

(٣) الكافي ٧: ٤٦٣ - ٤٦٤ / ٢١، وفيه أنها بين المتوكل والهادي عليه السلام.

جمع له جماعة من علماء الأديان ليناظروه، وراحت الأسئلة تنهال على الإمامﷺ، فأجابهم جميعهم، حتى إن المؤرّخين يقولون: ما تلكّأ في جواب قط. وهكذا كانﷺ يتصدّىٰ للإجابة على جميع الأسئلة الفقهية وغير الفقهية.

جوابه عمن سأله عن معنى الجواد

وقف أحدهم للإمامﷺ في الطواف وقال له: من الجواد؟ فقالﷺ: «إن لكلامك وجهين: فإن كنت تسأل عن المخلوقين، فإن الجواد الذي يؤدّي ما افترض الله عليه، والبخيل من بخل بما افترض الله، وإن كنت تعني الخالق فهو الجواد إن أعطى وهو الجواد إن منع؛ لأنه إن أعطاك أعطاك ما ليس لك، وإن منعك منعك ما ليس لك»[١].

ذلك أنّ اللّه تعالى عندما يمنع عطاءه عن بعض الناس فإنما يمنعه لمصلحة اقتضتها حكمته وارتأتها مشيئته، كأن يريد أن يربيهُ؛ فبعض الناس إذا أُعطي أفسد. ونحن نخاطب اللّه عزّ وجلّ في دعاء الافتتاح فنقول: «ولعل الذي أبطأ عني هو خير لي؛ لعلمك بعاقبة الأُمور»[٢].

ولأُقرب لك المعنى بأن أروي لك الحادثة التالية: كان أحد الصحابة ثقيل السمع، وكان من الفقراء، وكان يحرص على أن يجلس إلىٰ جانب النبيﷺ؛ كيلا يفوته شيء من كلامه، وكان قيس بن ثابت من وجهاء الأنصار، وقد دخل يوماً علىٰ النبيﷺ، وشقّ طريقه إليه كي يجلس إلىٰ جانبه ويستمع إليه أيضاً، وكان يظن أن هذا الفقير سوف يتنحّىٰ له عن

---

(١) مشكاة الأنوار: ٤٠٧، تحف العقول: ٤٠٨.

(٢) مصباح المتهجد: ٥٦٤ / ٦٦٤.

مكانه ويتركه من أجله؛ لأنه يظن أنه أفضل منه باعتباره غنياً ووجيهاً، وهذا من عائلة فقيرة، لكنه لم يفعل؛ اعتزازاً بقرب مكانه من النبي صلى الله عليه وآله، فقال له قيس: يابن فلانة، أقف عليك ولا تقوم؟

فآذت هذه الكلمة النبي صلى الله عليه وآله؛ لأن العرب كانوا يقصدون من تسمية الشخص باسم أمّه في مثل هذه المواقف تحقيراً له، فلما فرغ صلى الله عليه وآله من كلامه ناداه فأقبل، فقال صلى الله عليه وآله له: «انظر، ماذا ترىٰ في المجلس؟». قال: أرىٰ الأحمر والأبيض والأسود. قال النبي صلى الله عليه وآله: «إنك لا تفضل علىٰ أحد منهم إلّا بالتقوىٰ والعمل الصالح». فقال: يا رسول اللّه أخطأت، وسأُعطيه نصف أموالي إن رضي عني.

فنادىٰ النبي صلى الله عليه وآله الرجل الأوّل وقال له: «سمعت ما قال أخوك، هل ترضىٰ عنه ويعطيك نصف أمواله؟». قال: روحي فداك، بل أرضىٰ عنه من غير هذا. قال النبي صلى الله عليه وآله: «لماذا؟». قال: أخشىٰ أن يدخلني ما دخله[1].

وهذا هو موضع الشاهد، وهو أنّ الإنسان حينما يمتلك ثروة أحياناً فإنّه يطغىٰ في الأرض ويفسد، وقد تقضي على أخلاقه التي هي أهم من الثروة بالنسبة للرجل، لكن الأخلاق تبقىٰ ميزة متصلة بالإنسان لا تبتعد عنه.

إذن كان الإمام عليه السلام يقول: إنّ اللّه تعالى جواد سواء أعطىٰ أو منع؛ لأنّه لا يريد من وراء عطائه أو منعه مصلحة ما، وأجوبته عليه السلام كلها من هذا النوع. وكان عليه السلام يستشهد بما يرويه عن آبائه عليهم السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: « قال الله عز وجل: ما آمن بي من فسّر برأيه كلامي، وما عرفني

(١) الكافي ٢: ٢٦٢ / ١١، بحار الأنوار ٢٢: ١٣١ / ١٠٨، ولم يسميا قيساً.

من شبّهني بخلقي»[(١)].

فالقرآن الكريم لا يمكن أن يفسّر بالرأي؛ لأنّ التفسير بالرأي بإجماع المسلمين باطل، أمّا التفسير القائم على أساس الوسائل العلمية فهو تفسير مقبول ولا بأس به.

ويقول صلى الله عليه وآله عن الله تعالىٰ: «ما على ديني من استعمل القياس في ديني»[(٢)].

يعني بهم هؤلاء الذين يستعملون القياس دون أن يكون مستنداً إلى علة معروفة صحيحة. ومثال ذلك أن يعمد أحد إلى قياس مقاربة الأهل في شهر رمضان على تعمّد الأكل والشرب فيه أو بالعكس؛ بحجّة أنّهما كليهما من المفطّرات المنهيّ عنها والمبطلة للصوم. وهذا القياس باطل بالضرورة ومخطوء وغير مقبول؛ لأنّ اللّه عزّ وجلّ فرّق بين المتساويات وساوىٰ بين المتفرقات.

ولتوضيح هذا الأمر نقول: إنّ اللّه تعالىٰ جعل من نواقض الوضوء النوم والذهاب إلى الحمام (التخلّي)، وهما أمران متباينان لكنه تعالىٰ جمع بينهما، وكذلك لو سرق أحد ربع دينار من حرز فإنّ يده تقطع[(٣)]، لكن إذا غصب أرضاً قيمتها مئة ألف دينار فإن يده لا تقطع، ويكون له حكم آخر[(٤)]، والحال أنّ هاتين الحالتين متساويتان، لكن اللّه تعالى فرّق بينهما، إذن القياس لا يجري دائماً.

وقد ناقش الإمام الصادق عليه السلام أبا حنيفة في القياس نقاشاً عسيراً[(٥)].

---

(١) التوحيد: ٦٨ / ٣٢، الأمالي (الصدوق): ٥٥ – ٥٦.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المقنع: ٤٤٤، الأم ٤: ٣١١، ٦: ١٥٩.

(٤) المراسم العلويّة: ٢٦٠.

(٥) علل الشرائع ١: ٨٦، الأمالي (الشيخ الطوسي): ٦٤٥، مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٧٦، أخبار القضاة (محمد بن خلف بن حيان) ٣: ٧٨. وذلك أن أبا حنيفة دخل على أبي عبد

الجوانب الأخلاقية في حياة الإمام عليه السلام

وعلى العموم كان الإمام عليه السلام يتصدّىٰ دائماً إلى الإجابات العلمية، وكانت الأسئلة تنهال عليه، وكان يوزّع وقته بين الإجابة على الأسئلة العلمية وبين الإجابة على غيرها من الأسئلة. وإضافة إلى هذا كان بيته مأمناً للخائف، وكانت داره مرتاد الوّفاد. يقول الغفاري: كان لرجل من آل أبي رافع ـ ورافع هذا كان مولى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكان منهم كاتب عند أمير المؤمنين عليه السلام ـ علي حقّ، فألح عليّ في الطلب، فأتيت الرضا عليه السلام، وقلت له: يابن رسول الله؛ إن لمولاك فلان عليّ حقاً، وقد شهرني.

يقول: وكنت آمل أنه يرسل خلفه من يأتيه به، وأمره بأن يخفّ طلبه ماله مني قليلاً، حتى ييسّر الله لي، لكنه عليه السلام طلب مني أن أنتظره في

الله عليه السلام فقال له: «يا أبا حنيفة، بلغني أنك تقيس». قال: نعم أنا أقيس. قال عليه السلام: «اتق الله ولا تقس؛ فإن أول من قاس إبليس حين قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ الأعراف: ١٢. فقاس ما بين النار والطين، ولو قاس نوريّة آدم بنوريّة النار عرف الفضل ما بين النورين، وصفاء أحدهما على الآخر. ولكن قس لي رأسك: أخبرني عن الملوحة في العينين، وعن المرارة في الأذنين، وعن الماء في المنخرين، وعن العذوبة في الشفتين، لأي شيء جعل ذلك؟». قال: لا أدري. قال: فأنت لا تحسن أن تقيس رأسك، فكيف تقيس الحلال والحرام؟». قال: يابن رسول الله، أخبرني ما هو؟ قال عليه السلام: «إن الله عزّ وجلّ خلق العينين فجعلهما شحمتين، وجعل الملوحة فيهما ضنّاً منه على ابن آدم، ولولا ذلك لذابتا فذهبتا. وجعل المرارة في الأذنين ضنّاً منه عليه، ولولا ذلك لهجمت الدوابّ فأكلت دماغه. وجعل الماء في المنخرين ليصعد التنفس وينزل ويجد منه الريح الطيبة من الريح الرديئة. وجعل العذوبة في الشفتين ليجد ابن آدم طعم لذّة مطعمه ومشربه».

ثم قال عليه السلام له: «أيما أعظم عند الله قتل النفس أو الزنا؟». قال: لا، قتل النفس. فقال له عليه السلام: «إن الله عز وجل قد رضي في قتل النفس بشاهدين، ولم يقبل في الزنا إلّا بأربعة. أيما أعظم عند الله الصوم أم الصلاة». قال: لا، بل الصلاة. فقال عليه السلام: «فما بال المرأة إذا حاضت تقضي الصيام، ولا تقضي الصلاة؟».

مكاني، ثم ذهب ولم يعد إليّ إلّا عند المغرب، وكنت صائماً، وقد أحسست بالجوع. فلمّا جاء قال لي: «لعلك لم تأكل». فقلت: نعم. فأخذني معه إلى منزله، ثم أمرني بالجلوس على الوسادة، فلما أكلنا وفرغنا قال: «ارفع الوسادة وخذ ما تحتها». فرفعتها فإذا بدنانير تحتها، فأخذتها، وأمر غلمانه بأن يوصلوني إلى بيتي، فطلبت منه أن أرجعهم من مكان معلوم، ولمّا سألني السبب، أجبته بأني أخشى الوالي، فقبل.

فلمّا أتيت المنزل نظرت إلى الدنانير فإذا هي ثمانية وأربعون ديناراً، وفيها دينار يلوح، منقوش عليه: «حق الرجل عليك ثمانية وعشرون ديناراً، وما بقي فهو لك». ووالله لم أكن قد عرّفت ماله عليّ على التحديد[1].

وهذا كان ديدن الإمام عليه السلام ـ ومن قبله طريقة آبائه وأجداده عليهم السلام ـ سواء في خراسان أو في أيام مكثه في المدينة المنوّرة؛ فهو عليه السلام معروف بعطائه المعنوي والمادّي والأخلاقي. يروي أحد المؤرّخين عن إبراهيم بن العباس أنه قال: «ما رأيت أبا الحسن الرضا عليه السلام جفا أحداً بكلمة قطّ، ولا رأيته قطع على أحد كلامه حتى يفرغ منه، وما ردّ أحداً عن حاجة يقدر عليها، ولا مدّ رجله بين يدي جليس له قطّ، ولا اتّكأ بين يدي جليس قطّ، ولا رأيته شتم أحداً من مواليه ومماليكه قطّ، ولا رأيته بصق ولا رأيته يقهقه في ضحكه قط، بل كان ضحكه التبسّم. وإذا خلا ونصب مائدته أجلس معه عليها مماليكه ومواليه، حتى البوّاب والسائس.

وكان عليه السلام قليل النوم بالليل كثير السهر، يحيي أكثر لياليه من أوّلها إلى الصبح، وكان كثير الصيام، فلا يفوته صيام ثلاثة أيام في الشهر، ويقول:

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٤٥٦، بحار الأنوار ٤٩: ٥٩ / ٧٦.

«ذلك صوم الدهر». وكان عليه السلام كثير المعروف والصدقة في السرّ، وأكثر ذلك يكون منه في الليالي المظلمة، فمن زعم أنه رأى مثله في فضله فلا تصدقه»[١].

فهذا الخلق العالي، وهذه التربية النبيلة السامية، وهذا الأسلوب الكريم هو شأن أئمّة أهل البيت النبوي المطهّر عليهم السلام، فهم في حركاتهم وسكناتهم، وفي كلامهم وسكوتهم مادّة حيّة للدرس الأخلاقي والمعنوي والوعظي والإرشادي. وكان عليه السلام يقول: «إن أوحش ما يكون هذا الخلق في ثلاثة مواطن: يوم يولد ويخرج من بطن أمّه فيرى الدنيا، ويوم يموت»؛ لأنه يترك هذه الدنيا الواسعة إلى قبر ومجموعة من الأحجار والصفائح، يقول الشاعر:

ومسنّدين على الجُنوب كأنهم	شَرب تخاذل بالطلا أعضاؤهُ
تحت الصعيد لغير إشفاق إلى	يوم المعاد يضمّهم أحشاؤهُ
أكلتهُمُ الأرضُ التي ولدتْهُمُ	أكل الضّروس حلت له أكلاؤهُ[٢]

ويتابع عليه السلام موعظته فيقول: «فيماين الآخرة وأهلها، ويوم يبعث فيرى أحكاماً لم يرها في دار الدنيا. و قد سلّم الله عزّ وجلّ على يحيى عليه السلام في هذه الثلاثة المواطن، و آمن روعته، فقال: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾[٣]، وقد سلّم عيسى بن مريم عليه السلام على نفسه في هذه الثلاثة المواطن فقال: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[٤]...»[٥]. وقد صوّر الله تعالى حال هؤلاء بقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٩٧ – ١٩٩ / ٧.
(٢) شرح نهج البلاغة ١١: ١٧٤.
(٣) مريم: ١٥.
(٤) مريم: ٣٣.
(٥) بحارالأنوار ٦: ٥٨ / ١٨.

﴿ قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾[١].

فهوﷺ يقول: إنّ الإنسان أوحش ما يكون في هذه المواطن، ولذلك فإن الله سلّم على أنبيائه فيها

فكان الإمامﷺ يغتنم الفرص للدرس الأخلاقي والدرس الاجتماعي والدرس العلمي بفروعه كافّة، وكانت حياته عامرة بالتقوى، زاخرة بالإيمان، وكان لسانه يلهج بذكر الله، ويده متمرّسة بالعطاء، وروحه منفتحة عليه.

المبحث الخامس: الإمامﷺ وخلفاء عصره

لقد عاصر الإمامﷺ الفترة الأخيرة من خلافة الرشيد، ثم خلافة ابنه محمد الأمين، وكانت ثلاث سنوات وخمسة وعشرين يوماً، ثم خلع الأمين وأُجلس عمّه إبراهيم بن شكلة، وكانت بيعته أربعة عشر يوماً، عاد محمد بعدها إلى الحكم حيث أُخرج من الحبس وبويع له ثانية، وجلس في الملك سنة وستة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً، ثم قتله طاهر بن الحسين الخزاعي وزير عبد اللّه المأمون الذي استلم الحكم بعده، والذي استشهد الإمامﷺ في عصره كما سيمرّ علينا[٢].

من مغيّباتهﷺ

إخبارهﷺ من رأى رؤيا فيه أنه سيدفن في طوس

كانﷺ يخبر أصحابه بأنّه سيُستدعى إلى خراسان وأنهﷺ سيدفن فيها، جاءهﷺ رجل من أهل خراسان وقال له: يابن رسول الله، لقد رأيت رسول اللهﷺ في المنام كأنه يقول لي: «كيف أنتم إذا دفن في أرضكم

---

(١) يس: ٥٢.
(٢) عيون أخبار الرضاﷺ ٢: ٢٨ - ٢٩.

بضعتي، واستحفظتم وديعتي، وغيّب في ثراكم نجمي؟». فقال له الرضا عليه السلام: «هل وعيت ما قاله النبي صلى الله عليه وآله؟». قال: لا يابن رسول الله. فقال عليه السلام «أنا المدفون في أرضكم، وأنا بضعة نبيّكم؛ فأنا الوديعة والنجم. ألا ومن زارني وهو يعرف ما أوجب الله تبارك وتعالى من حقّي وطاعتي، فأنا وآبائي شفعاؤه يوم القيامة، ومن كنّا شفعاءه نجا ولو كان عليه مثل وزر الثقلين: الجنّ والإنس. ولقد حدثني أبي عن جدّي عن أبيه عن آبائه عليهم السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من زارني في منامه فقد زارني لأن الشيطان لا يتمثّل في صورتي، ولا في صورة أحد من أوصيائي، ولا في صورة أحد من شيعتهم، وأن الرؤيا الصادقة جزء من سبعين جزءاً من النبوة»[1].

إخباره عليه السلام دعبلاً بذلك وإنشاده فيه شعراً

ولذلك فإنّه عليه السلام حينما دخل دعبل بن علي الخزاعي رحمه الله عليه بمرو قال له: يابن رسول الله، إني قد قلت فيكم قصيدة، وآليت على نفسي ألّا أُنشدها أحداً قبلك. فقال عليه السلام: «هاتها». فأنشدها:

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصاتِ

فلمّا بلغ إلى قوله:

أرى فيئهم في غيرهم متقسّماً وأيديهُمُ من فيئهم صفراتِ

بكى عليه السلام وقال: «صدقت يا خزاعي». فلمّا بلغ إلى قوله:

إذا وتروا مدّوا إلى واتريهمُ أكفّاً عن الأوتار منقبضاتِ

جعل عليه السلام يقلّب كفّيه وهو يقول: «أجل والله منقبضات». فلمّا بلغ إلى

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٨٧ - ٢٨٨/ ١١.

قوله:

لقد خفت في الدنيا وأيام سعيها ... وإني لأرجو الأمن بعد وفاتي

قال عليه السلام له: «آمنك الله يوم الفزع الأكبر». فلما انتهى إلى قوله:

وقبر ببغداد لنفس زكية ... تضمّنه الرحمن في الغرفاتِ

وقبر بأرض الجوزجان محلّه ... وقبر بباخمرى لدى الغرباتِ

قال عليه السلام له: «أفلا ألحقُ لك بهذا الموضع بيتين بهما تمام قصيدتك؟». فقال: بلى يابن رسول الله. فقال عليه السلام:

«وقبر بطوس يا لها من مصيبة ... تسوقّد في الأحشاء بالحرقاتِ

إلى الحشر حتى يبعث الله قائماً ... يفرّج عنا الهمّ والكرباتِ»

فقال دعبل: يابن رسول الله، هذا القبر الذي بطوس قبر من هو؟ فقال عليه السلام: «قبري، ولا تنقضي الأيّام والليالي حتى تصير طوس مختلف شيعتي وزوّاري في غربتي، ألا فمن زارني في غربتي بطوس كان معي في درجتي يوم القيامة مغفوراً له»[1].

المأمون يأمر باستدعاء الإمام عليه السلام من المدينة المنوّرة

فالإمام عليه السلام كان يشير إلى ذلك المعنى الذي ذكرنا، وفعلاً استدعاه المأمون من مدينة جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله سنة (٢٠١)هـ ـ أي قبل وفاته الشريفة بسنتين وأشهر ـ حيث كان قد بعث الجلودي خلفه.

والجلودي هذا له مواقف شائنة وقاسية مع عائلة الإمام موسى الكاظم

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٦٤ / ٣٤، كمال الدين وتمام النعمة: ٣٧٢ - ٣٧٦، دلائل الإمامة: ١٨٢، إعلام الورى: ٢٣٠.

وعائلة الإمام الرضا عليه السلام من بعده، وكان من أقسى القوّاد، وصاحب تاريخ إجرامي مؤلم مع أهل البيت عليهم السلام، وقد أحرق دور آل محمد صلى الله عليه وآله في المدينة المنوّرة، وجاء إلى دار الإمام الكاظم وهو في السجن فأشعل فيها النار بأمر من الرشيد حيث إنه لما خرج محمد بن جعفر بن محمد بالمدينة بعثه الرشيد إليه وأمره أن يضرب عنقه، وأن يغير على دور آل رسول الله صلى الله عليه وآله، وأن يسلب نساءهم، ولا يدع على واحدة منهن إلّا ثوباً واحداً.

ففعل الجلودي ذلك، فخرج الإمام الرضا عليه السلام يتخطّى النار ويقول: «أنا ابن إبراهيم خليل الله، أنا ابن إسماعيل ذبيح الله، أنا ابن محمد حبيب الله، أنا ابن عيسى روح الله». حتى أطفأها، ولمّا نظر إليه الرضا عليه السلام جعل النساء كلّهن في بيت، ووقف على باب البيت، فقال الجلودي لأبي الحسن عليه السلام: لابدّ من أن ادخل البيت فأسلبهن كما أمرني أمير المؤمنين. فقال الرضا عليه السلام: «أنا أسلبهن لك، وأحلف أني لا أدع عليهن شيئاً إلّا أخذته». فقبل، فدخل أبو الحسن الرضا عليه السلام، فلم يدع عليهن شيئاً ـ حتى أقراطهن وخلاخيلهن وأزرارهن ـ إلا أخذه منهن وجميع ما كان في الدار من قليل وكثير، فأعطاه إياه[1].

الموقف الإنساني للإمام عليه السلام مع الجلودي

والجلودي هذا على الرغم من إجرامه وبغضه لآل البيت النبوي الطاهر وشنآنه لهم كان للإمام الرضا عليه السلام بعد ولايته العهد موقف مشرّف معه، ذلك أنّ الجلودي أُدخل يوماً على المأمون وكان قد حبسه مع اثنين

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٧١ ـ ١٧٣.

آخرين؛ لأنهم نقموا عليه أخذه البيعة للرضاعليه السلام، ولم يرضوا به. وفي اليوم التالي دعا المأمون بهؤلاء النفر فأُخرجوا من الحبس وأُدخلوا عليه، فأمر بقتلهم، وحينما جاء دور الجلودي وأُدخل على المأمون قال الرضاعليه السلام: «هب لي هذا الشيخ». وتشفّع له عنده، فقال المأمون: هذا الذي فعل ببنات محمدصلى الله عليه وآله ما فعل من سلبهن!

فلمّا نظر الجلودي إلى الرضاعليه السلام وهو يكلّم المأمون، ويسأله عن أن يعفو عنه ويهبه له، ظن أنه إنما يعين عليه لما كان فعله به وبعياله، فقال: يا أمير المؤمنين،أسألك بالله وبخدمتي الرشيد ألّا تقبل قوله فيّ. فقال المأمون: يا أبا الحسن، قد استعفى، ونحن نبرّ قسمه. ثم قال: لا والله، لا أقبل فيك قوله، ألحقوه بصاحبيه. فقدّم فضرب عنقه[1].

والجلودي هذا هو الذي بعث به المأمون لإحضار الإمامعليه السلام، مع ما هو عليه من حقد وبغض ونصب لآل بيت رسول اللهصلى الله عليه وآله، فأحضره وأحضر معه مجموعة من آل أبي طالب؛ من جملتهم إسحاق ابن الإمام الصادقعليه السلام (عم الإمام الرضاعليه السلام)، وحملهم آخذاً بهم على طريق البصرة، فلما صاروا إلى فارس لقيهم رجاء بن الضحّاك وتسلّمهم من الجلودي، وجاء بهم إلى مرو، فأنزلهم المأمون في دار وأنزل الإمام الرضاعليه السلام في دار على حدة وأقبل عليه غاية الإقبال، ثم قال له يوماً: يابن رسول الله، إني قد رأيت أن أعزل نفسي عن الخلافة وأجعلها لك، وأبايعك. فقال له الرضاعليه السلام: «إن كانت الخلافة لك وجعلها الله لك فلا يجوز أن تخلع لباساً ألبسك الله وتجعله لغيرك، وإن كانت الخلافة ليست لك فلا يجوز لك أن تجعل لي ما ليس

(١) المصدر نفسه.

لك».

فأصرّ المأمون وقال له: لا بد لك من قبول هذا الأمر. فقال عليه السلام: «لست أفعل ذلك طائعاً أبداً». فلمّا يئس من قبوله قال له: فإن لم تقبل الخلافة ولم تحبّ مبايعتي لك، فكن وليّ عهدي؛ لتكون لك الخلافة بعدي. فقال عليه السلام: «والله لقد حدّثني أبي عن آبائه عن أمير المؤمنين عن رسول الله صلى الله عليه وآله أني أخرج من الدنيا قبلك مقتولاً بالسمّ مظلوماً، تبكي عليّ ملائكة السماء وملائكة الأرض، وأدفن في أرض غربة إلى جنب هارون الرشيد».

فبكى المأمون، ثم قال له: ومن الذي يقتلك، أو يقدر على الإساءة إليك وأنا حي؟ فقال الرضا عليه السلام: «أما إني لو أشاء أن أقول من الذي يقتلني لقلت». فقال المأمون: إنما تريد بقولك هذا التخفيف عن نفسك، ودفع هذا الأمر عنك، ليقول الناس: إنك زاهد في الدنيا. فقال الإمام الرضا عليه السلام: «والله، ما كذبت منذ خلقني ربّي عزّ وجلّ، وما زهدت في الدنيا للدنيا، وإني لأعلم ما تريد». فقال له المأمون: وما أُريد؟ قال الإمام عليه السلام: «تريد بذلك أن يقول الناس: إن علي بن موسى لم يزهد في الدنيا، بل زهدت الدنيا فيه، ألا ترون كيف قبل ولاية العهد طمعاً في الخلافة؟».

فقال: إنك تتلقّاني أبداً بما أكرهه، فبالله أُقسم لابدّ من قبولك ولاية العهد. فقال عليه السلام: «قد نهاني الله عزّ وجلّ أن أُلقي بيدي إلى التهلكة، فإن كان الأمر على هذا فافعل ما بدا لك، وأنا أقبل ذلك على أني لا أُولّي أحداً، ولا أعزل أحداً، ولا أنقض رسماً ولا سنّة، وأكون في الأمر من بعيد مشيراً».

فرضي منه بذلك، وجعله ولي عهده[1].

---

(١) الأمالي (الصدوق): ١٢٥ - ١٢٨ / ١١٥.

وتم إعلان ولاية العهد للإمام الرضاﷺ، يقول أبو الصلت الهروي: وفي تلك السنة خُطب على المنابر باسم الإمام الرضاﷺ، ودُعي له، وضربت السكّة باسمه، وهي الدراهم المعروفة بالرضوية، وقام بين يديه الخطباء والشعراء، وخفقت الألوية على رأسه، فاستبشرت في ذلك اليوم، وقلت: حق من حقوق آل محمّد ﷺ عاد إليهم. فنظر إلي وانا مستبشر بما جرى، فأوما إليّ أن ادنُ، فدنوت منه، فقال لي من حيث لا يسمعه غيري: «لا تشغل قلبك بهذا الأمر، ولا تستبشر؛ فإنه شيء لا يتمّ»[1].

يقول أبو الصلت الهروي: لما عزم المأمون على الذهاب إلى العراق والإمام معه، بدا لهم أن يدسّوا له السمّ، فدخل عليه رسول المأمون يستدعيه، فلما دخل عليه ناوله رمّاناً اعتصره بيده وكان قد دسّ فيه السم، أو عنقود عنب قد أكل نصفه وقد كان شرّبه بالسم، وقال للرضاﷺ: حمل إليّ هذا العنقود، فاستطبته، فأكلت منه وتركت هذا لك. فقالﷺ: «أو تعفيني من ذلك؟». قال: لا والله، فإنك تسرّني بما تأكل منه. فاستعفاه الإمامﷺ ثلاث مرات فلم يقبل منه،فأخذﷺ منه ثلاث حبات فأكلها، فلمّا أحسّﷺ بالسمّ يسري في بدنه، غطّى رأسه ونهض من عنده.

ولما أتىﷺ بيته دخل حجرته، وامتدّ على فراشه وهو يتألم من حرارة السمّ، وأحسّﷺ به يسري في بدنه، ومرّت به ساعات يمتزج فيها الألم بالشعور بالغربة والبعد عن الأهل، وفي الساعة التي دنا فيها أجله جلست عنده، ثم طلب مني أن أسجّيه إلى القبلة، فأسبل يديه ورجليه وفاضت روحه الطاهرة.

---

(١) انظر: مناقب آل أبي طالب ٣: ٤٧٣، الخرائج والجرائح ١: ٣٥٢ - ٣٥٩.

وإذا المأمون قد وافى، وهرع الناس كلاً ينادي: واسيّداه، وإماماه. وتصدّر المأمون تشييعه حتى جاؤوا به إلى قبره[1].

ونقول: لكن جدّه الحسين ﷺ لم يشيّعه أحد، ولم يدفن لساعته، وقفت الحوراء زينب ﷺ بعد وقعة الطف في اليوم العاشر من المحرّم وتلفّتت يميناً وشمالاً ثم صاحت: «ويحكم، أما لهذا المسجى من عشيرة؟ أما فيكم مسلم يواري هذا الغريب؟ أما فيكم موحّد يدفن هذا السليب؟». يروي أبو الصلت فيقول: أمرني الرضا ﷺ أن أسرج في موضع غسله. ويعلله البعض بأن الروح تعود إلى موضع الجسد؛ فإن رأته مظلماً استوحشت، ولست أدري هل أسرجت الحوراء ليلة الحادي عشر من المحرّم مكان إخوتها وأبناء عمومتها أسرجة، أم بقيت مصارعهم مظلمة تلك الليلة، والأطفال يتصارخون في الظلماء؟

وحائراتٍ أطارَ القومُ أعينَها	رُعباً غداةَ عليها خِدرَها هجموا
عجَّتْ بهم مُذْ على أبرادِها اختلفت	أيدي العدوِّ ولكن من لها بِهِمُ[2]

---

(١) انظر روضة الواعظين: ٢٢٦ / ٨. (٢) ديوان السيّد حيدر الحلّي ٢: ١٠٣.

الفصل الحادي عشر
الإمام الجواد عليه السلام



﴿٥٤﴾

الحرية الدينية في التشريع الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: العقيدة ضرورة حياتية عند الإنسان

هناك مجموعة من الحرّيات التي تكفلها الشرائع السماوية والقوانين الإلهية للإنسان، وفي طليعة هذه القوانين حرية المعتقد؛ فالإنسان لا يمكن أن يعيش من غير عقيدة يعتقدها أو دين يدين به. ولو تتبّعنا التنقيبات الأثريّة عن الأمم السابقة والحضارات البائدة فإننا سنجد من خلال الحفريات أن كل منطقة مأهولة عند هذه الأُمم والحضارات ربما كانت تخلو من مستشفىً أو ملعب أو مكان للمصارعة، لكن من غير الممكن ألّا نجد فيها آثاراً لمعبد كان يرتاده أبناء تلك الحضارات

(١) البقرة: ٢٥٦.

القديمة[١]. فالمعبد كان أمراً ضرورياً للإنسان من القدم يسير معه في رحلته في الحياة؛ لأنّ الإنسان في أصل فطرته يمتلك شعوراً ـ أو يتوفّر عليه ـ بأنّه لابدّ من وجود قوة خفية تحميه، وجهة ما تمتلك القدرة والقوّة والقابلية على أن تتحكم في حياته ومصيره وتوفّر له الحماية من شرور قوىٰ الشرّ التي كان يرى أنّها موجودة في كل مكان. وهذه القوّة الخفيّة لها القابلية المطلقة على أن تؤثّر عليه بصورة مباشرة.

حدود الحرية الدينية

وما يعبده الإنسان يختلف من حضارة لأُخرىٰ، ومن اُمّة لأُمّة، ويناط ذلك الاختلاف بمستوى تفكير أبناء الحضارات وقابلياتهم على فهم الحقائق والظواهر وهضمها. وهكذا فإننا نجد أن البعض يعبد أشياء ماديّة والبعض الآخر يعبد أشياء معنوية.

لكن هنا يرد سؤال هو: إلى أي مدى يمكن أن تضمن الحريّة الدينية العقيدية للإنسان؟ والجواب أنها تضمن له ما دامت لا تشكل مورد مضايقة لحرّيات الآخرين الدينية أو لعقائدهم. فمسألة العقيدة أمر حيوي وضروري لكل إنسان، ويجب مراعاتها. وهنا يبرز جانب من المشكلة وهو أنّ بعض الناس يمتلك عقيدة «أنّ لا عقيدة»، أي أنه لا يؤمن بالأديان وبوجود إله خالق حيّ رازق، وأقلّها أنه لا يؤمن بوجود قوة خارجية تتصرّف في الكون وتتحكّم في العالم. وهذا طبعاً يعاكس فطرته التي تحكم بهذا الأمر وبوجود هذه القوّة الخارجية؛ وبالتالي فإنّه لا

---

(١) يقول عالم الآثار الألماني بلوتارك: «من الممكن أن تجد مدناً بلا أسوار ولا آداب أو مسارح، ولكن لم يرَ إنسان قط مدينة بلا معبد أو شعباً لا يمارس الصلاة». الإسلام رسالتنا / السنة الثالثة: ١٠.

يحترم حريته ولا حرية غيره.

ثم إنّ كل عقيدة لابدّ أن تحتوي على جوانب تنظيمية للحياة، فالعقيدة تنظم الحياة، ومن المستحيل أن تجد عقيدة ليس فيها نظام أو قوانين تحكم العلاقات وتبرمج الحياة. ومن لا عقيدة له فلا نظام يحكم حياته.

المبحث الثاني: سبب نزول الآية ومعنى الإكراه فيها

وبعد هذا التوضيح نرجع للآية الكريمة فنقول: هناك عدة آراء في سبب نزول هذه الآية الكريمة، وفي معنى الإكراه الوارد فيها، نذكر منها:

الرأي الأوّل: أنّها في أهل الكتاب خاصة

أي في اليهود والنصارى. والمراد هنا: أنّ لهؤلاء حرية البقاء على عقائدهم ودينهم الذي يدينون به، ولهم ألّا يجبروا على الدخول في الإسلام. ومن هذا ما كان من أمر بعض العرب وغيرهم من أنّهم يفضلون المقلات (وهي التي لا يعيش لها ولد[1] أبداً، أو التي تحمل مرة واحدة فقط[2]). يقول الشاعر:

بُغاثُ الطَّيرِ أكثرُها فِراخاً وأمُّ الصَّقرِ مِقلاتٌ نَزُورُ[3]

فالذي يريده الشاعر هنا أن الطيور العادية تبيض كثيراً؛ فتكون فراخها كثيرة لكنها لا فائدة فيها، أما الصقر فتبيض أُنثاه بيضة واحدة لكنه سيّد

---

(١) الكنز اللغوي: ٩١، الصحاح ١: ٢٦١ ـ قلت، وهي هنا بخصوص المرأة.

(٢) الصحاح ١: ٢٦١ ـ ٢٦٢ ـ قَلَت، وهي هنا بخصوص النياق.

(٣) اختلف في قائله. شرح نهج البلاغة ٦: ١٥٥، ١٣: ٢٢، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ١٤٩، ٥٠: ٨٤، ٨٥.

الفضاء[١]، ثم يشبه الأم الولود بعادي الطيور، والمقلات بأم الصقر تمييزاً لها عن غيرها، وأن ابنها مليء بالعنفوان والرجولة. وكان من عاداتهم أنّ المقلات كما مرّ تنذر أنها إن جاءها ولد فإما أن تجعله يهودياً أو نصرانيّاً. وكان اليهود يقطنون المدينة كما هو معروف، وقد انعكست آراؤهم على التفسير والفقه والأخلاق. ولا زلنا إلى الآن نعاني من رواسبهم، هذه ولم نستطع التخلّص منها.

وكان الأوس والخزرج على هذه العقيدة أيضاً؛ فلذا كان لهم الكثير من أولادهم عند يهود المدينة، فلما أمر الرسول ﷺ بإجلائهم (يهود المدينة) عنها، وكان فيهم أبناء الأنصار، قال أبناؤهم من الأوس الذين كانوا مسترضعين فيهم، لنذهبن معهم ولندينن بدينهم. فمنعهم أهلهم وأرادوا أن يكرهوهم على الإسلام، ثم جاؤوا إليه ﷺ وقالوا له: يا رسول الله، أبناؤنا وإخواننا. فنزلت الآية، فقال ﷺ: «خيّروا أصحابكم؛ فإن اختاروكم فهم منكم، وإن اختاروهم فأجلوهم»[٢].

فمن يملك عقيدة سماوية وديناً إلهياً لا يشكّل أي خطر على الإسلام أو على البنية الاجتماعية لأي شعب.

الرأي الثاني: أنها في الناس عامّة

فقوله تعالىٰ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ على هذا الرأي لا تختصّ بطائفة من الناس دون طائفة؛ حيث إن الشريعة الإسلامية كانت تدعو الناس عامّة للإسلام بالحسنىٰ ولا تجبرهم عليه أو تكرههم على اعتناقه، بل حتىٰ

---

(١) يقول الشاعر:

وفي الزرازير جبن وهي طائرة وفي البزاة شموخ وهي تحتضرُ

(٢) مجمع البيان ٢: ١٦٣ - ١٦٢، أسباب نزول الآيات: ٥٢ ـ ٥٣.

المشرك كان مشمولاً بهذه الآية الكريمة حيث إنّه يُبقى على عقيدته. واستمرّ العمل بهذا الحكم إلى أن نسخت[1] هذه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[2]. فالتعامل السلمي والصلح مع هؤلاء كان على أساس أن يتعرفوا على محاسن الإسلام ومواطن الرحمة والحب فيه؛ ليدخلوا في الإسلام عن قناعة ورغبة، بعد أن أُتحيت لهم الفرصة لمعرفة الحقّ من الباطل، ومنحوا الوقت الكافي للتعرّف على الجوانب الأخلاقية في الإسلام. وهذا الأمر كان دافعاً كافياً لطالب الحق أن يدخل في الإسلام ويعتنقه دون إجبار أو إكراه، فإنّه إن عرض عليه الإسلام وأبى قوتل. إذن فالآية نزلت في خصوص فسح المجال أمام المشركين لدراسة محاسن الإسلام.

الرأي الثالث: أنها فيمن يسلم بعد قتال

فقد كان الكثير من المشركين وغيرهم ممن هم ليسوا على دين الإسلام يدخلون الإسلام بعد انتهاء المعركة بينهم وبين المسلمين بهزيمتهم وانتصار المسلمين كما حصل في فتح مكة وغيره، لكن بعض المسلمين كان يتعامل معهم بصورة توحي بأنهم ليسوا مسلمين فعلاً، وأنهم إنما دخلوا الإسلام بعد أن ذاقوا حرّ النار والحديد، وكانوا يسمعونهم ذلك. وللحقيقة نذكر أنّ هذا اللون من الإسلام قد حصل من بعض كأبي سفيان وأمثاله، لكن ليس معنى هذا أن نستقبل كل مسلم بمثل هذا التصرّف

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٢: ٤٩٤ – ٤٩٥ / ٢٦١٦، نواسخ القرآن: ٩٤، فتح القدير ١: ٢٧٥.
(٢) التوبة: ٧٣.

وهذا الكلام حملاً له على أمثال أبي سفيان، إذ ربما كان قد أسلم حقاً، وهو إنّما يطلب الإسلام ويرجو اللّه في ذلك. وعليه فلا يصح استقباله بهذا، وأن نقول له: إنك إنّما اسلمت بعد المعركة، وإن اسلامك إنما كان بالإكراه والإجبار.

وهؤلاء قد فُرّق بينهم وبين باقي المسلمين حتى في العطاء، فعمر بن الخطاب كان يسميهم «مسلمة الفتح»، وكان يعطيهم دون ما يعطي غيرهم من المسلمين.وهذه المسألة كانت من ضمن جملة من المسائل التي اختلف فيها معه جماعة ممّن عاصروه أو جاؤوا بعده.

فالآية الكريمة نزلت لهذا السبب، ولتقول للمسلمين: لا تجرحوا مشاعر هؤلاء؛ فإنهم قد دخلوا حضيرة الإسلام، فعليكم أن ترحّبوا بهم وتشجّعوهم.

هذا على صعيد الإسلام، أمّا على مستوى المذاهب الإسلاميّة، فإنّ التطبيق خلاف هذا، وهو خلاف واضح واختلاف بيّن؛ فلو أنّ أحداً من المسلمين ممّن يوصف بالغيرة تساءل: لماذا المسلمون ممزّقون؟ ولماذا لا نسعىٰ لامتصاص هذه الفرقة ونجمع شمل المسلمين مادامت الأُصول واحدة وهي مدعاة للوحدة والتوحّد لا للفرقة والتفرّق؟ فإنّه سيرمىٰ بأنّ كلامه غير صحيح لأنّه لم يقصد هذا فعلاً وإنّما تفوّه به تقيّة، وكل قلم شريف يحاول أن يعالج مسألة من مسائل المسلمين ومشكلة من مشاكلهم فإنّه يرمى بهذه التهمة، وكأن التقيّة ليس لها أي مدرك شرعي. إنّ هذا الشعور البغيض تجاه هؤلاء هو الذي يولّد الفرقة بين أبناء الدين الإسلامي ويسبب التنافر والتناحر بينهم.

إنّ هناك الكثير من الشعوب ممّن توحّدهم المصلحة المادية وليس

غير، في حين أنّ المسلمين توحّدهم اللغة والدين والعقيدة والكتاب والأرض وغير ذلك، لكنهم مع ذلك متنافرون متباغضون متفرّقون، فلم هذا؟ إننا نأسى ونأسف على المسلمين أن يصلوا إلى هذا الأمر وأن يصل بهم الحال إلى هذه الفرقة البشعة.

فالآية الكريمة تلزمنا بألّا نصف هؤلاء بأنهم مكرهون على اعتناق الإسلام لأنّ بوسعهم إضمار شيء وإظهار خلافه، فعندما يعلن فرد إسلامه دون إكراه وإجبار مباشرين من أحد فعلى المسلمين ألّا يجرحوا مشاعره. ثم إن الدين الذي يأتي بالإكراه لا يسمى ديناً، والعقيدة التي تأتي عن طريق الإملاء والإجبار لا تسمى عقيدة أبداً، لأنّهما أشبه شيء بأن يكونا عقداً من العقود، والعقود يلزم فيها القبول وإلّا كان العقد باطلاً: ﴿إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾[1]، فالقرآن يفرض في التجارة أن تكون نابعة عن الرضا النفسي. وهكذا نجد أن البيع على بساطته يشترط الشرع فيه الرضا، فكيف بأمور العقيدة والدين والآخرة؟ وهل من الممكن أن تقع وتصحّ من دون رضا؟ ومن هذا يذهب المحقّقون إلى أنّ الدين إن كان بالإكراه فهو ليس بدين ولا العقيدة عقيدة.

المبحث الثالث: بين الفلسفة والعلم

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾، أي أنّ هؤلاء قد أعطيناهم فترة وفرصة طويلتين ليطلعوا على الإسلام ومحاسنه وتعاليمه، وقد كان بوسعهم أن يسألوا عمّا لا يعرفونه من ذلك أو ما يودّون السؤال عنه. وهذا قد حصل فعلاً، فقد كان بعض الأعراب يأتون

---

(١) النساء: ٢٩.

النبي صلى الله عليه وآله فيسألونه عما يدعو إليه، فيجيبهم بأنه يدعو الى شهادة أن لا إله إلّا اللّه وحده لا شريك له، وإلى عبادته وأنه رسوله، وإلى صلة الرحم ومكافحة الظلم ومقارعة الظالم. فالنبي صلى الله عليه وآله يقوم بتوضيح محاسن الإسلام لهم. وهكذا فإنّ بوسع أي إنسان أن يسأل خصوصاً هذه الأيام حيث انتشار وسائل الإعلام والتوعية في كل مكان، والأضواء التي تسلّط على العقائد بشكل أو بآخر، أما من يقول: لا أدري أو لا أعرف من هذا شيئاً، فهو إمّا جاهل، أو أن تكون دعواه مبطّنة، أو يكون هو موبوءاً. وإلّا فلماذا تسخّر الأقلام في الكتابة ضد الإسلام؟ فعندما نقرأ كتاب مصطفى محمود (اللّه والناس) نجده يقول فيه: إنّ العالم الخارجي نابع من مشاعرنا، وإنّ اللّه لا وجود له إلّا في مشاعرنا وليس له أي وجود خارجي.

ولنا أن نسأله: ما دليلك على هذا؟ وهل إنّ هذا من ضمن اختصاصك؟ إننا يجب أن نلتفت إلى أن هناك فرقاً بين الفلسفة والعلم؛ حيث إنّ العلم يتعامل مع الأشياء التي تقع ضمن نطاق الحسّ والتجربة، فيتناولها ليقوم بتحليلها في المختبر، فيفحص مكوّنات المادّة كيمياويّاً، أمّا الفلسفة فموضوعها كل ما هو خارج الحسّ وما وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا) كالتساؤل: كيف بدأ الكون؟ ومتىٰ؟ وهل إن له مكوّنات؟ وما هي صفاتها؟

وبناء على هذا نجد أنّ لكل إنسان تخصّصاً يعمل في نطاقه ويتحرّك في مجاله، فمن لم يكن ذا اختصاص فلسفي فما الذي يدعوه إلى تناول موضوعاتها، والقرآن الكريم يقول: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾[1]؟

---

(١) الإسراء: ٣٦.

الشيعة الطائفة المفترى عليها

إذن أصبحت محاسن الإسلام واضحة جليّة لكل فرد، وبإمكان أي إنسان أن يطّلع عليها متى أراد، وعليه ألّا يقول: لا أدري، فهذا القرآن بين يدي الجميع. وأنا استغرب واقعاً من قلة اطّلاع البعض أو تعمّدهم ذلك فينسبون إلى غيرهم ما ليس عندهم، علماً أنّ هذا يتكرّر على مرّ العصور، ومن ذلك أنّ أحد العلماء يكتب عن طائفة بأكملها لها مؤلّفاتها وآثارها أنها تأكل في شهر رمضان إلى أن تطلع الشمس وكأنه لم يسمع بما عند هذه الطائفة من آلاف المؤلفات التي تزخر بها مكتبتهم، والتي أثروا بها المكتبة الإسلامية على شتى الأصعدة من العقائد والكلام والسيرة والتاريخ.

ولست أدري لِمَ لَمْ يكلف نفسه بالرجوع إلى الكتب الفقهية لهذه الطائفة! إنّ في هذا لوناً واضحاً من الانحراف.

فالآية الكريمة تقول: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾، أي قد عرف الهدىٰ وعرف الضلال، فلن يجبركم أحد على الدين. لقد كانت بيوتكم مليئة بالانحراف، والإسلام جاء ليطهرها منه، ولذا فهو يوصيكم بأن تكون علاقاتكم قائمة على أساس النظافة والطهارة القلبيّتين والنفسيّتين، ورفع عنكم العهر والفجور، «وكنتم على شفا حفرة من النار، أذلّة خاسئين، تقتاتون القِدّ وتشربون الطَّرْق فأنقذكم الله بأبي محمد صلى الله عليه وآله منها»[1]. والطرق: ماء السماء الذي تبول فيه الإبل[2]. ففجّر لكم الأنهار والعيون، وجعل الأطعمة تحت متناول أيديكم، ودرّت الدنيا عليكم بعزاليها وكنتم أذلّة

---

(١) شرح الأخبار ٣: ٣٥.
(٢) لسان العرب ٨: ١٥١ ـ طرق.

توطؤون بالأقدام فجاء ليرفعكم. أفليس في هذا برهان على أن هذه الشريعة جاءت لتحييكم وتنقذكم وتحوّلكم من أموات إلى أحياء؟ وهل هناك برهان أكبر من هذا؟

المبحث الرابع: المراد من الطاغوت

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾، وللمفسرين في الطاغوت رأيان:

الرأي الأوّل: أنه الشياطين والأصنام

فكل شيطان أو صنم يعبد من دون الله طاغوت. والإنسان السليم الذي يحمل مخّاً سليماً لا يمكن بحال من الأحوال أن يؤمن بعبادة غير الله من صنم أو نحوه؛ لأنّ هذا من الواضحات؛ فلا يستحقّ العبادة إلّا الله، فالعاقل يعرف أن الصنم أو غيره مما يُعبد من دون الله ما هو إلّا حجر أو خشبة لا تضرّ ولا تنفع. فما الذي يدفع إنساناً عاقلاً لعبادتها ويدعوه إلى تأليهها، وهو يملك عقلاً من المفترض به أن يبين له الطريق الصواب؟ إنّ معظم العبادات مأخوذة عن طريق تقليد الأبناء آباءهم. إذن الطاغوت هو كل ما يبعد عن عبادة الله وشريعته. فالأصنام تُضل الآخرين، وهو إكراه تقليدي. وعلى هذا الرأي القليل من المفسرين.

الرأي الثاني: أنّه الطغاة من الناس

فكلُّ إنسان يحرف الآخرين عن عبادة الله فهو طاغوت[1]، فيكون المراد من الآية: وجوب أن يكفر الإنسان بهؤلاء الطغاة الذين يدعونهم

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: الجبت حيي بن أخطب، والطاغوت كعب بن الأشرف. زاد المسير ٢: ١٣٨، الجامع لأحكام القرآن ٥: ٢٤٨، تفسير القرآن العظيم ١: ٥٢٥.

إلى عبادة غير اللّه. وقد يستغرب البعض حينما نقول: إنّ المراد بالطاغوت هو الطغاة من الناس، فيقول: لا يوجد طاغ يدعو الناس إلىٰ عبادة غير اللّه فيقول لهم: اتركوا آلهتكم.ونقول: نعم هو كذلك بهذا الشكل، أما بأشكال أُخرىٰ فهو موجود، ووجوده لا يخلو منه زمان. فهؤلاء يدعون الناس إلى عبادة غير اللّه بأفعالهم وتصرفاتهم، كأن يأتي أحدهم إلى مجرم يسفك الدم الحرام ويعتدي على العرض الحرام، ويرعب الناس، فلا يحاسبه وإنّما يقول له: إنّ لك مركزاً فاستخدمه في خدمتي ولتحقيق أغراضي وأهدافي ومصالحي، ولك عليَّ الأموال التي تريدها. يقول نابليون: «لو لم توجد البابوية كنت قد أوجدتها». لأنّها تبرّر له تصرفاته وأعماله، وتذلّل العقبات أمامه، وتُصوّره كإنسان عادل محترم.

دخل أحدهم على المتوكّل وقال له:

ثلاثة أملاك فأما محمد ... فنورٌ له يهدي إلهك من يهدي

وأمّا أبو عبد الإله فإنه ... مثيلك بالتقوىٰ ويجدي كما تجدي

وذو الفضل إبراهيم للناس عصمة ... تقيٌّ وفيٌّ بالوعيد وبالوعدِ

فأولهم نورٌ وثانيهمْ هدى ... وثالثهم رشدٌ وكلُّهمْ مهدي

فهل إن هذا لا يعرف من هو المتوكل؟ إنّه يمجد ويمدح المتوكّل الذي يشرب الخمر وجواريه حوله، فما هي دوافعه؟ إنّ دوافعه هو أن يسحق الحقّ وينصر الباطل وينشر الضلال، وهذا هو الانحراف بعينه. فهذا مؤمن بالطاغوت، ومن النادر أن تجد أحداً من القتلة وليس إلىٰ جانبه من يبرر له عمله بشكل أو بآخر، ومن يفتي له بوجوب طاعته على ما هو عليه من ضلال وانحراف وفسق بصورةٍ أن هؤلاء المفتين يعدّون الخروج

عن طاعة هؤلاء الطغاة خروجاً عن ربقة الإسلام، فلا يجوز للمرء أن يرمي هذه البيعة من عنقه حتىٰ ولو كان المبايَع له الحجّاج أو يزيد أو غيرهما، وحتىٰ لو كان الخروج عن الطاعة شبراً واحداً[1]. فتراثنا بالغ الأسف مترع بعبادة الطاغوت والإيمان به وطاعته، مع أنّ القرآن الكريم يقول: ﴿وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾، والإيمان بالله عصمة للمرء في حياته من الانحراف والضلال.

المبحث الخامس: من هم العروة الوثقىٰ

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾، إن القرآن الكريم يلجأ أحياناً إلى التشبيهات الحسيّة للأشياء غير المحسوسة؛ لأجل

---

(١) روى مسلم أن ابن عمر حين كان من أمر وقعة الحرّة ما كان قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجّة له. ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية». صحيح مسلم ٦: ٢٠ - ٢٢.
وقال النووي: «وأما الخروج عليهم - أي سلاطين الجور - وقتالهم، فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين. وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرته، وأجمع أهل السنة أنه لا ينعزل السلطان بالفسق... وقال جماهير أهل السنة من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين: لا ينعزل - أي السلطان الجائر - بالفسق والظلم وتعطيل الحقوق. ولا يُخلع، ولا يجوز الخروج عليه بذلك، بل يجب وعظه وتخويفه: للأحاديث الواردة في ذلك». صحيح مسلم بشرح النووي ١٢: ٢٢٩، وانظر سنن البيهقي ٢: ١٥٨ - ١٥٩ / ٨.
وقال القاضي الباقلاني ما ملخصه: قال الجمهور من أهل الإثبات وأصحاب الحديث: لا ينخلع الإمام بفسقه وظلمه بغصب الأموال، وضرب الأبشار، وتناول النفوس المحرمة، وتضييع الحقوق، وتعطيل الحدود، ولا يجب الخروج عليه، بل يجب وعظه وتخويفه وترك طاعته في كلّ شيء مما يدعو إليه من معاصي الله. واحتجّوا في ذلك بأخبار كثيرة متضافرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعن الصحابة في وجوب طاعة الأئمّة وإن جاروا واستأثروا بالأموال، وأنه قال صلى الله عليه وآله وسلم: «اسمعوا وأطيعوا ولو لعبد أجدع، ولو لعبد حبشي، وصلّوا وراء كلّ برّ وفاجر». وروي أنه قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أطعهم وإن أكلوا مالك وضربوا ظهرك». التمهيد: ١٥٢ (ط القاهرة ١٣٦٦ هـ).

تقريب المعنى إلى أذهاننا، فهو يقرب المعنى عبر تشبيهه بالمحسوسات من الأشياء، فمثلاً هنا نجد أنه يشبه دين اللّه بالعروة، ووجه التشبيه أنّ الإنسان الذي يستند إلى عروة بيده فإنّه سوف لن يقع أبداً مادام متمسّكاً بها. وهذا كمن يريد تشبيه حلاوة الماء وعذوبته بالسكر، فيقول: هذا الماء حلو كالسكر.

ومعنى هذا التشبيه أنّ من تمسّك ﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾، وهي دين اللّه تعالى ويرجع إليها في كل أموره وأحواله فإنّه لن يزلّ عن الصراط؛ لأنّه وضع قدمه على الخط الصحيح، لكن بشرط أن يكون إسلاماً صحيحاً كما أمر اللّه لا كما تأمره الأهواء والآراء.

نماذج من الاجتهادات البعيدة عن الدين

إنّ الأعم الأغلب من الناس هم من العوام، فلا يستطيعون تحصيل عقائدهم وأصول دينهم عن طريق المدارسة والبحث والتحليل والنقض والإبرام، فهؤلاء يحتجّون مثلاً بقلّة معرفتهم وقصور باعهم عن فهم عويص بحور الاستدلال، وبانشغالهم في أمور كسبهم وحياتهم، فهم يريدون أخذ عقائدهم وأمور دينهم جاهزة من أهل الاختصاص.

عدم جواز استرقاق الوثني العربي وجوازه مع الأعجمي

لكن في مثل هذه الحالة تبرز مشكلة أمام البعض، فمثلاً حينما يريد أحد أن يقرأ في باب (السيف) من كتاب (الميزان) للشعراني فإنّه سيجد أن المصنّف يصرّح بأنّ الوثنيين من غير العرب (الفرس وغيرهم) يجوز تملّكهم واسترقاقهم، أما الوثنيون العرب فلا يجوز استرقاقهم أو تملّكهم.

ولنا أن نناقش هذا الرأي فنقول: لماذا هذا التمايز؟ وما هو منشؤه؟ فإن كانت العلة في الحكم هي الوثنية، فلماذا جاز استرقاق هؤلاء ولم يجز بحقّ أولئك؟ إنّ مثل هذا الكلام يعني أن صاحبه لم يهضم تعاليم الإسلام السمحة وأحكامه العادلة، وأنه إنّما ينطلق في أحكامه هذه من منطلق عرقي، وأنه يستخدم لغة عرقية بغيضة وبعيدة عن الإسلام وروحه تمام البعد؛ لأنّ الدين يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1] بغض النظر عن اللغة والانتماءات العرقيّة والقوميّة.

طهارة الكلب

والقارئ المتتبّع يجد كثيراً من مثل هذا مما هو بعيد عن مسلّمات الفقه والعقائد والشريعة، فمثلاً يفتي أحد الفقهاء بطهارة الكلب[2]، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾[3]. وهكذا فإنّ من يحفظ بضعة أحاديث يعدّ فقيهاً فيفتي بما يريد حسب مذاقه وهواه، وأكبر إفكاً من هذا أنه يوزّع الجنة والنار على هواه، فيكفّر هذا ويدخله النار، ويسم ذاك بسمة الإيمان والإخلاص فيدخله الجنة.

---

(١) الحجرات: ١٣. وقال رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله: «ليس منّا من دعا إلى عصبيّة، وليس منّا من قاتل على عصبيّة، وليس منّا من مات على عصبيّة». بحار الأنوار ٧٠: ٢٨٣، سنن أبي داود ٢: ٥٠٣ / ٥١٢١، وغيرها.

(٢) ذهب بعض الفقهاء ومنهم مالك وداود وابن نجيم المصري: كما ذكروه، أو كما هو منقول عنهم إلى طهارة الكلب. انظر على سبيل المثال: فتح العزيز ١: ٢٦١، فتح المعين ١: ١١٩، مواهب الجليل ١: ٢٥٤، البحر الرائق ١: ١٨٣، لكن لم نعثر على من يستدلّ بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾.

(٣) النور: ٤٥.

الصلاة إلى غير القبلة

وكذلك ما هو ثابت عن الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذي لا يكاد يفيق من سكره، فإذا أفاق وأراد الصلاة صلّى إلى غير القبلة متذرعاً بـ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[١]، ويقول: نحن ننشد وجه اللّه[٢]. وهكذا يعارض النصوص الكثيرة[٣] وإجماع المسلمين.

رواية شدّ الرحال

إنّه بهذا إنّما يريد أن يدعم رأي جده عبد الملك حينما افترى رواية: «لا تشدّ الرحال إلا إلى ثلاث... وقبّة الصخرة»[٤]، ذلك أنّ عبد اللّه بن الزبير حينما استولى على مكّة والحجاز، وكان يقرب الحجيج في مواسم الحج، ويعرض عليهم حركته ويدعوهم إلى نصرته ويشوّه صورة الأمويّين في أعينهم، خشي عبد الملك افتتان الناس به وتأثّرهم بحركته، فحرك أحد وعّاظ السلاطين وحملة الشعائر الدينيّة ومسخّريها لخدمة السلاطين، الذي انبرى له بوضع هذه الرواية.

فهل شدّ الرحال لطلب العلم ممنوع؟ فإن كانت هذه الرواية محمولة على الكمال، فلماذا لا يُجوّز شدّ الرحال لغير هذه الثلاثة؟

---

(١) البقرة: ١١٥. (٢) شرح نهج البلاغة ١٥: ٢٤٢.

(٣) وأبرزها قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ البقرة: ١٤٤.

(٤) نقل محمود أبو ريّة في كتابه أضواء على السنة المحمدية: ١٦٩، أن الأحاديث الصحيحة أوّل الأمر كانت في فضل المسجد الحرام ومسجد رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ولكن بعد بناء قبّة الصخرة ظهرت أحاديث في فضلها وفضل المسجد الأقصى.

المهم أنّ هذه الرواية اخترعت لصرف الحجاج عن حجّ بيت اللّه، وفعلاً بني مسجد قبة الصخرة، وأمر الناس بالحج إليها معلّلاً بأنّها بيت المقدس بعد أن منعهم من حج بيت اللّه الحرام. والقصد من هذا: التقليلُ من قيمة مكّة والكعبة الحرام؛ لأنّ الحاجّ لبيت اللّه الحرام يزور النبي صلى الله عليه وآله أيضاً فيلتقي بأبناء المهاجرين والأنصار الذين يقفون ضد الأُمويين. ولذا كان كل همّهم ألّا تبقى لهذا البيت حرمة في نفوس المسلمين.

وهذا هو الدافع الذي حفّز أبا الأحرار والشهداء عليه السلام أن يخرج من مكّة حفاظاً على حرمتها من أن تنتهك؛ لأنهم راموا قتله عليه السلام في الكعبة[1]. فلمّا خرج سأله عبد اللّه بن مطيع: لِمَ تخرج وبينك وبين الحجّ سويعات؟ إن بإمكانك أن تحرم وبوسعك أن تؤدّي مناسك حجّك ثم تخرج. فقال عليه السلام: «لو لم أُعجّل لأخذت»[2].

وهو عليه السلام لا يضيره أمر إراقة دمه بقدر ما يضيره انتهاك حرمة البيت المقدّس، وإراقة الدم فيه، وقتل حرمات اللّه داخله. فجزاه اللّه تعالى على ذلك عن الإسلام كلّ خير، وقال له: لأجعلنّ لك كعبة في قلب كلّ مؤمن، ولأجعلن مشهدك قبلة في قلوب المؤمنين. ولم يضِر قبر

(١) كان عمرو بن سعيد الأشدق والياً على مكّة أيام نهضة الحسين عليه السلام. فكان يقول لأزلامه: اركبوا كلّ بعير بين السماء والأرض واطلبوا الحسين، واقتلوه ولو كان متعلّقاً بأستار الكعبة. الإمامة والسياسة ٢: ٣، جواهر المطالب ٢: ٢٦٤.

(٢) مثير الأحزان: ٢٨. وقد قال عليه السلام: «إن أبي حدّثني أن بها كبشاً يستحلّ حرمتها، فما أُحبّ أن أكون ذلك الكبش». شجرة طوبى ١: ١٢٥، تاريخ الطبري ٤: ٢٨٩، البداية والنهاية ٨: ١٧٩، مقتل الحسين عليه السلام (أبو مخنف): ٦٦. وكان عليه السلام يعرف ذلك سلفاً؛ فقد قال: «واللّه لا يدَعوني حتىٰ يستخرجوا هذه العُلقة من جوفي، فإذا فعلوا سلّط اللّه عليهم من يذلّهم حتى يكونوا أذلّ من فرام المرأة». لواعج الأشجان: ٧٢، الكامل في التاريخ ٣: ٤٠١. وفرام المرأة: خرقة الحيض. لسان العرب ١٢: ٤٥١ ـ فرم.

الحسين عليه السلام أن يضرب أو يهدم[١]، فبقي متألّقاً سامياً؛ لأنّ تحته نفساً أبية تتفجّر عنفواناً، أبت أن تركع للذل وأن تخضع له، ولأنّ تحته سيد شباب أهل الجنة[٢]. وهكذا جعل الله تعالى أفئدة من الناس تهوي إليه:

يممت يومك أستجلي روائعه ... فأشبعت ناظري موّارة صورُ
ما رمت رائعة إلا وجدت به ... كأن كلّ سموّ فيه منحصرُ
هو المدى ميّز الشوط البعيد به ... أعنّة الركب من جدّوا ومن قصروا
يؤذيه أنّا دأبنا أن نطالعه ... من عبرة وهو فيما يحتوي عبرُ
لو شئت قلت وما زهو الفتوح سوى ... دنياك إنك دنيا ملؤها ظفرُ
لقد رأيتك فيها ألف قادمة ... تهوى الشواهق إذ تستوبأ الحفرُ
ومارداً زحم الأعصار منكبه ... حتى لواه وما ألوت به الغيرُ
وفكرة تستشفّ الغيب ما وهبت ... إلّا لتخلد والطغيان ينتحرُ[٣]

سيّدي سيبقى قبرك في قلوب المؤمنين:

لا تطلبوا قبر الحسيـ ... ـن بشرق أرض أو بغربِ
ودعوا الجميع وعرّجوا ... نحوي فمشهده بقلبي

وما تزال عواطف المؤمنين تُسكب على هذه الرملة صباحَ مساءَ، ومن هذه العواطف عواطف بنات الرسالة حينما رجعن من السباء، ووصلن إلى قبر أبي عبد الله عليه السلام، ووضعن خدودهن على ثراه وأمطرنه بالدموع،

---

(١) انظر هذه المحاولات في محاضرة (فلسفة زيارة الحسين عليه السلام) ج ١ من كتابنا هذا.

(٢) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ٢٠، ٥٨، ٧٦. مسند أحمد ٣: ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٢. ٥: ٣٩١، ٣٩٢. سنن ابن ماجة ١: ٤٤. الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢١، ٣٢٦. المستدرك على الصحيحين ٣: ١٦٧، ١٦٧، ١٦٧، ٣٨١. صحيح مسلم بشرح النووي ١٦: ٤١. وغيرها كثير.

(٣) ديوان المحاضر ١: ٣٦.

وكان للعقيلة القسط الأوفر؛ فقد هرولت إلى قبر الحسين عليه السلام، وألقت بنفسها عليه:

خويه من اليسر توني لفيتك أربعين ليله فاركيتك

تحت الثرى مرمي لگيتك

ثم احتضنت التراب ونادت: «والوعتاه، واحسيناه، واعزيز رسول الله». ثم جاءت إلى نهر العلقمي، عند قبر أبي الفضل عليه السلام:

لونّه اللحد ينكشف بابه لجيمن عليه وانگل اترابه

أصبل للولي واسمع جوابه أعاتبه واكثر اعتابه

* * *

إلي مناشده وياك وعتاب يمنوّخ الهودج على الباب

* * *

ما يرضه الگلب ينسه ولا ترضه العيون تنامْ

ولا طيفك يفاركني ولا تنسّيني الأيّامْ

واللي زوّده النوحي نوح اطفالك الأيتامْ

الفصل الثاني عشر

الامام الهادي عليه السلام



﴿٥٥﴾

سفير السماء الإمام الهادي عليه السلام

ولهت إلى رؤياكُمُ وله الصادي	يُذاد عن الورد الرويّ بذوّادِ
محلى عن الورد اللذيذ مساغه	إذا طاف ورّاد به بعد ورّادِ
إذا ما بلغت الصادقين بني الرضا	فحسبك من هادٍ يشير إلى هادِ
مقاويلُ إن قالوا بهاليلُ إن دعوا	وفاة بميعاد كفاة لمرتادِ
إذا أوعدوا أعفوا وان وعدوا وفوا	فهم أهل فضل عند وعد وإيعادِ
كرام إذا ما انفقوا المال أنفدوا	وليس لعلم أنفقوه بإنفادِ
ينابيع علم الله أطواد دينه	فهل من نفاد إن علمت لأطوادِ
نجوم متى نجم خبا مثله بدا	فصلّى على الخابي المهيمن والبادي
عباد لمولاهم موالي عباده	شهود عليهم يوم حشر وإشهادِ
هُمُ حجج الله اثنتا عشرة متى	عددت فثاني عشرهم خلف الهادي
بميلاده الأنباء جاءت شهيرة	فأعظم بمولود وأكرم بميلادِ(١)

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأول: في ولادته عليه السلام وسيرته

الإمام الهادي عليه السلام هو عاشر أئمة أهل البيت عليهم السلام، واسمه اسم محبّب

---

(١) الأبيات لأبي الغوث أسلم بن مهوز الطهوي المنبجي، نسبة إلى منبج، وهو الملقّب بشاعر آل محمد صلى الله عليه وآله. مقتضب الأثر: ٤٩ ـ ٥٠.

لأهل البيت عليهم السلام؛ لأنه عليه السلام سميّ جده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فاسمه علي كذلك. وهذا الاسم كان أعداء أهل البيت عليهم السلام وما يزالون يحاولون أن يسخروا منه وأن يهزؤوا. ويرد هنا تساؤل نابه هو أنه إذا كان الاسم وحده يثير كل هذا الكمّ الهائل من الحقد والغيظ والألم والسخرية في نفوس هؤلاء، فكيف بالمسمّى ـ وهو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إذن؟ إن الحقد والغيظ والألم والسخرية عندهم من المسمّى كانت أضعافاً مضاعفة؛ ولذا فإن الأمويين حاولوا بكل الوسائل أن يقفوا بوجه كل شخص يحاول أن يُسمي أبناءه بهذا الاسم الشريف، فكانوا يصدّون أُولئك الذين يسمون أبناءهم باسم الإمام علي عليه السلام، حتى إنه يروى أن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنه كان يكنّى أبا الحسن، فدخل يوماً على عبد الملك بن مروان، فقال له عبد الملك: أنت علي أبو الحسن؟ قال: نعم. فقال عبد الملك: والله لا أجمعهما لك، عليّ وأبو الحسن؟ إما أن تغيّر اسمك أو تغيّر كنيتك. فاضطر إلى أن يغيّر كنيته[1].

وهكذا كان هذا الاسم الشريف يثير عند أعداء الله تعالى تلك الحساسية اتّجاهه، وهو ما ينبئ عن عدم وعي عند هؤلاء الذين يسعون هذا السعي، ويحاولون هذه المحاولات من أجل أن يطمسوا حقيقة من حقائق السماء، وأن يقفوا بوجه انتشار هذا الاسم الذي وضعته السماء وسمّت به فارسها وسيفها علي ابن أبي طالب عليه السلام.

وعلى أية حال فالإمام الهادي عليه السلام اسمه علي بن محمد (صلوات الله وسلامه عليهما وعلى آبائهما وابنيهما). ويجمع هذين الإمامين

(١) تاريخ مدينة دمشق ٤٣: ٤٥، بل فيه أنه أغراه بمئة ألف كي يغيّر كنيته أوّلاً.

الكريمين الطاهرين ـ الإمام محمدالجواد والإمام علي الهادي عليهما السلام ـ تاريخ ميلاد واحد؛ حيث إنهما عليهما السلام ولدا كلاهما في شهر الله المعظم رجب المرجّب، وقد ورد في الدعاء الشريف: «اللهم إني أسألك بالمولودين في رجب؛ محمد بن علي الثاني، وابنه علي بن محمد المنتجب، وأتقرب بهما إليك خير القرب»[1].

وقد ولد الإمام محمد الجواد عليه السلام في اليوم العاشر من شهر رجب، وولد الإمام الهادي عليه السلام في اليوم الخامس منه، من أمّ ولد مغربية تسمّى سُمانة.

لماذا يتزوج الأئمة عليهم السلام من أمهات الأولاد؟

وهنا نقطة تثير الاهتمام والتساؤل حولها، وهي السبب في سعي الأئمة عليهم السلام إلى أن يكون أبناؤهم المعصومين عليهم السلام من الجواري اللواتي يطلق عليهن بعد ذلك أمهات الأولاد. وهو تساؤل مشروع؛ لأنه محاولة لتفسير هذا التصرّف الذي ربما يستغلق فهمه على البعض، أو لا أقل من أنه لا يلحظه ولا يلتفت إليه، بل ربما لا يعيره أي اهتمام؛ لعدم تمكنه من استكناه حقيقته. غير أن هذا الأمر في الواقع هو تصرّف يصبّ في مجال خدمة الإسلام الحنيف ونشره. ونحن نوجز الإجابة على هذا التساؤل بسببين، هما:

الأول: تحقيق جانب المساواة في المجتمع الإسلامي

إن سعي أئمة أهل البيت عليهم السلام الحثيث لفعل هذا الأمر الهامّ عندهم، ودأبهم عليه هو ـ انطلاقاً من حرصهم الشديد على تجسيد الإسلام،

---

(١) مصباح المتهجّد: ٨٠٥. الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٢١٥. المصباح (الكفعمي): ٥٣٠. الصحيفة الهادية والتحفة المهدية: ١٠٢.

وتجسيد تعاليمه وتشريعاته ـ لبيان أن الإسلام دين العدل والمساواة؛ وأنه دين لا يفرّق بين الحرّ والعبد، ولا يُفضّل أحدهما على الآخر إلاّ بالتقوى.
فالإسلام الحنيف حينما أطلق دعوته الثورية إلى المساواة بين الناس؛ حرّهم وعبدهم، وأسودهم وأحمرهم، لم يقنّنها نظرياً ثم تركها دون أن تدخل حيّز التطبيق، بل إنما وظّف من أجل تحقيقها، وسعياً وراء إبراز الإسلام على أنه دين قانون وعمل، وأنه منهج نظرية وتطبيق، ودستور واقع ومستلزمات، وظّف كل ما يمكن توظيفه من أدوات في سبيل نشر هذا المفهوم السامي، ومن أجل إعلانه على أنه حقيقة الإسلام وجوهره، وعلى أنه روح هذا الدين وحقيقته؛ إبرازاً لحقيقة الإسلام الناصعة بين الشعوب والمجتمعات البشرية كلّها.

ولهذا فإنه من الطبيعي جدّاً أن يسعى روّاد الإسلام وقادته وحملته إلى تطبيق هذه المبادئ وإخراجها من الجنبة النظرية إلى الجنبة العملية التطبيقية؛ فكان أن عمدوا إلى الزواج من الجواري؛ إيذاناً للآخرين بأنهن عند الله تبارك وتعالى لسن أقلّ أهمية من الحرائر، إذا ما جمعت بينهن جميعاً رابطة الإسلام والإيمان والتقوى[1]، بل إن الإماء والجواري المؤمنات أفضل مطلقاً عند الله تبارك وتعالى من الحرائر غير المؤمنات.

---

(١) ونستحضر هنا قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حينما أتته امرأتان فقالتا: يا أمير المؤمنين: إننا امرأتان فقيرتان مسكينتان. فقال: «قد وجب حقّكما علينا وعلى كل ذي سعة من المسلمين إن كنتما صادقتين». ولمّا أعطاهما وساوى بينهما في العطاء قالت له إحداهما: يا أمير المؤمنين، فضّلني بما فضّلك الله به وشرّفك. قال: «وبماذا فضّلني الله وشرّفني؟». قالت: برسول الله صلى الله عليه وآله. قال: «صدقت، وما أنت؟». قالت: امرأة من العرب، وهذه من الموالي. فتناول عليه السلام شيئاً من الأرض ثم قال: «قد قرأت ما بين اللوحين فما رأيت لولد إسماعيل على ولد إسحاق عليه السلام فضلاً ولا جناح بعوضة». أنساب الأشراف: ١٤١.

إن إحدى المشاكل التي واجهها الإسلام حينما جاء أنه وجد مجموعة من الأنظمة الصارمة، والقوانين الصلبة، والموروثات المتشدّدة عند المجتمع الذي بُعث فيه، وعند والمجتمعات الأُخرى، وهي أنظمة وقوانين وموروثات جائرة وظالمة؛ لأنها تجنح إلى العصبية، وإلى التفريق بين الناس على أساس ألوانهم ودمائهم، وعلى أساس مذاهبهم ومعتقداتهم، وعلى أساس حريتهم وعبوديتهم، وعلى أساسات أُخرى بعيدة كلّ البعد عن مفاهيم الإنسانيّة الراقية، بل إنها ما أنزل الله بها من سلطان؛ بحيث إن العرب في الجزيرة العربية مثلاً كانوا لا يرون أي قيمة للإنسان إذا ما كان غريباً عنهم.

وهذه النظرة نظرة عامّة تتجه إلى كل فرد ليس عربياً، وليست موجهة إلى فئة معينة فقط دون فئة أخرى، أو إلى عرق معين فقط دون عرق آخر، بل إنها نظرة تشمل الجميع. وهذا الأمر لم يكن ليرضي الإسلام الحنيف في شيء؛ ولذا فإنه سعى عبر كلّ أدواته إلى أن يكسر هذا النطاق الجائر، وإلى أن يحطّم هذا الطوق الذي فرضته تقاليد العرب وموروثاتهم وعاداتهم، وأن يبيّن للناس بأنه ليس هنالك من فرق بين أحد وأحد، ولا فضل لأحد على أحد، إلاّ بإيمانه بالله سبحانه وتعالى، وبتقواه وورعه والتزامه بالدين الإسلامي الحنيف وبأحكامه الشريفة. ومن هنا فإنه رفع شعار لا فرق بين عربي وغيره[1].

إذن فالإسلام أراد أن يكسر هذا الطوق، وأن يحطّم هذا القيد الذي

---

(١) حيث قال رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله: «أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلّا بالتقوى». مسند أحمد ٥: ٤١١.

فرضته موروثات العرب الجاهلية على أبناء الجزيرة العربية، فكان أوّل من بادر إلى تحطيم هذه العادات والتقاليد الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله حيث تزوّج من الإماء، وتبعه بذلك من بعده رواد الإسلام وقادته وهم أئمة أهل البيت عليهم السلام حيث تزوجوا من الإماء كذلك، وأولدوهنّ أولاداً صالحين شكّلوا بعد ذلك الحلقات الذهبية المتبقية من سلسلة الإمامة المطهّرة.

إذن فهذا أحد الأسباب الكامنة وراء تزوّج الأئمة عليهم السلام من الإماء، وإلاّ فإنهم لو أرادوا أن يتزوجوا من غيرهن فإنهم سوف يتزوّجون من أي بيت من بيوتات الشرف في المجتمع الإسلامي من غير أن يجرؤ أحد منها على أن يردّهم عليهم السلام، أو أن يمتنع عن تزويجهم؛ لأنهم ينتمون إلى بيت من أشرف بيوت أهل الأرض، وإلى نسب هو أشرف الأنساب وأعلاها، وإلى جدّ هو أشرف الآباء وأطهرهم وأفضلهم عند الله سبحانه وتعالى.

ثانياً: نشر الإسلام بين الأصهار

إن التزويج بالإماء وإيلادهنّ، يعني أن هذا الولد سوف يذهب إلى أخواله وهو يحمل معه رسالة الإسلام إليهم. وهذا ما نراه واضحاً في تاريخنا؛ حيث إن هنالك الكثير ممن حملوا رسالة الإسلام إلى جماعات غير مسلمة عن طريق التزاوج والإصهار؛ لما للإصهار من دور في تمازج الدماء والتقائها بعضها ببعض، ولما ينطوي عليه الأمر من فوائد لا تعدّ.

فالإصهار كان يلعب دوراً في نشر الإسلام بين الناس؛ لأن الدماء حينئذٍ سوف تمتزج، ويلتقي بعضها ببعض مما يؤدّي إلى فتح المجال أمام الدين الإسلامي لينتشر بين أفراد قبيلة الأمّ.

ثالثاً: أن الله تعالى اختار أُمهات الأئمة

ومنها كذلك أن الله سبحانه وتعالى قد اختار هؤلاء الجواري

الطاهرات لأن يلين شرف الحمل بامتداد النبوّة، فيحملن نور الإمامة، وينجبنّ للأئمة عليهم السلام أئمة معصومين طاهرين.

إذن فالأئمة عليهم السلام أرادوا أن يبلغوا عدّة أهداف من وراء تزوّجهم من الإماء منها ما ذكرناه من كسر الطوق الذي صرّح القرآن الكريم ببطلانه حاثاً الناس على التصاهر فيما بينهم؛ كونهم من قبائل تنتمي إلى عرق واحد بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1]. ومنها غير ذلك ممّا ذكرنا.

وبهذا فإننا نجد أن هنالك العشرات من الفوائد المترتبة على الإصهار.

وعلى أية حال فأُمّ الإمام الهادي عليه السلام كانت أمة مغربية، لكن المؤرخين لم ينصّوا على جنسيتها، وكونها عربية أو غير عربية، فهم لم يذكروا عنها سوى أنها سُمانة المغربية. أمّا ولادة الإمام عليه السلام فقد كانت في قرية من قرى المدينة تسمّى «صوريا»؛ حيث إن الإمام الجواد عليه السلام كانت عنده ضيعة هناك، وكانت أمّ الإمام الهادي عليه السلام معه فيها، فولدت له الإمام عليه السلام في تلك الضيعة في الخامس من شهر رجب سنة (٢١٤) من الهجرة الشريفة.

المبحث الثاني: الخلفاء الذين عاصرهم الإمام عليه السلام

وبناءً على هذا التاريخ لولادة الإمام عليه السلام فإننا نعرف بعد التتبع لعمره الشريف الذي لم يتجاوز الأربعين عاماً بأنه عليه السلام قد عاصر سبعة من الخلفاء العباسيين؛ ذلك أن الخلفاء الذين كانوا في زمنه عليه السلام لم يكونوا ممّن طالت فترة خلافتهم، بل إنهم كانوا يمكثون فترة قصيرة ربما تعد بالشهور على

---

(١) الحجرات: ١٣.

كرسي الخلافة، ثم يأتي بعدهم التالي. وقد ابتدأت حياته ﷺ بخلافة المعتصم، ثم بعد ذلك بقية الخلفاء الين جاؤوا بعده، وهؤلاء الخلفاء هم:

الأول: محمد المعتصم بن الرشيد، وقد امتدت فترة خلافته من سنة (٢١٨) هإلى سنة (٢٢٧) هـ.

الثاني: الواثق بن المعتصم، وقد امتدت فترة خلافته من سنة (٢٢٧) هـ إلى سنة (٢٣٢) هـ.

الثالث: المتوكّل بن المعتصم، وقد امتدت فترة خلافته من سنة (٢٣٢) هإلى سنة (٢٤٧) هـ.

الرابع: المنتصر بن المتوكّل، وقد امتدت فترة خلافته من شهر شوّال سنة (٢٤٠) هإلى شهر ربيع الأول سنة (٢٤٨) هـ.

الخامس: المستعين بن المعتصم، وقد امتدت فترة خلافته من سنة (٢٤٨) هإلى سنة (٢٥٢) هـ.

السادس: المعتزّ بن المتوكّل، وقد امتدت فترة خلافته من سنة (٢٥٢) هإلى سنة (٢٥٥) هـ.

السابع: المهتدي بن المعتصم، وقد امتدت فترة خلافته من ليلة بقيت من شهر رجب المرجّب سنة (٢٥٥) هإلى منتصف شهر رجب المرجّب سنة (٢٥٦) هـ[١].

وكما رأينا فإن هؤلاء كانت فترات خلافتهم قصيرة، وربما كان ذلك والله أعلم بسبب انتقام الله عزّ وجلّ منهم على أيدي الأتراك وغيرهم بعد أن تسلطوا – الأتراك - على العباسيين فتصرّفوا بهم وبمقدرات

(١) أي أن مدّة خلافته سنة إلّا خمسة عشر يوماً.

الدولة، ومنحوا أنفسهم صلاحية تعيين الخليفة وإزاحته وإقالته عن الخلافة، فكانوا كلما عنّ لهم أن يضعوا خليفة على كرسي الخلافة وضعوه، وإذا عنّ لهم أن يقيلوه عنه أقالوه وجاؤوا بآخر غيره مكانه(١).

فكأن الله تبارك وتعالى أراد أن يردّ إلى العباسيين سهمهم الذي نحروا به آل بيت محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ويضعه في نحورهم من أجل ما فعلوه بأهل هذا البيت الطاهر عليهم السلام.

وهكذا فكما أن العباسيين تسلّطوا بالظلم والقهر على المسلمين، وحاربوا أهل الدين، وعلى رأسهم أئمة البيت عليهم السلام، وآذوهم أشدّ الأذى، فكذلك جاء الأتراك ففعلوا مع العباسيين الفعل نفسه، حيث إنهم تسلّطوا عليهم، وآذوهم، وبدؤوا يتلاعبون بهم، ويحرّكونهم على رقعة الخريطة السياسية للدولة الإسلامية كما يحركون بيادق الشطرنج. وبهذا كان الخلافاء يفعلون كل ما يمليه عليهم الأتراك وما يقولونه لهم دون أن يستطيعوا أن يردّوا ذلك عنهم ودون أن يتمكنوا من أن يمتنعوا عن تنفيذ

(١) والدليل على هذا ما يذكره السيوطي في المقام عن المعتز وسلفه المستعين حيث قال عن المستعين: لما تنكّر له الأتراك خاف وانحدر من سامرا إلى بغداد... فقصدوا الحبس وأخرجوا المعتز بالله وبايعوه وخلعوا المستعين. تاريخ الخلفاء ١٤٨.
وعن المعتزّ قال: وكان المعتز مستضعفاً مع الأتراك... فاجتمع الأتراك على خلعه... فلبسوا السلاح، وجاؤوا إلى دار الخلافة، فبعثوا إلى المعتزّ أن اخرج إلينا، فبعث يقول: قد شربت دواء وأنا ضعيف. فهجم عليه جماعة وجرّوا برجله، وضربوه بالدبابيس، وأقاموه في الشمس في يوم صائف، وهم يلطمون وجهه ويقولون: اخلع نفسك. ثم أحضروا القاضي ابن أبي الشوارب والشهود، وخلعوه... ثم إن الملأ أخذوه فأدخلوه الحمام، فلما اغتسل عطش، فمنعوه الماء، ثم أُخرج ـ وهو أول ميت مات عطشاً ـ فسقوه ماء بثلج فشربه وسقط ميتاً. تاريخ الخلفاء ١٤٩.
وإذا كان المعتزّ أول ميت مات عطشاً كما يدّعي السيوطي، فأين السبط الثاني لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وأهل بيته إذن، وهم الذين لم يذوقوا الماء ثلاثة أيام حتى استشهدوا؟

أوامرهم ؛ خوفاً من أن تمتدّ لهم يد التغيير والإزاحة عن كرسي الخلافة .

وهكذا كان الخلفاء العباسيون آنذاك يفعلون كل ما يمليه عليهم الأتراك ، حتى قال فيهم الشاعر:

خليفة في قفص   بين وصيف وبغا

يقول ما قال له   كما يقول الببغا[1]

وقد أشار إلى هذا المعنى أيضاً أبو فراس الحمداني (رضوان الله عليه) حينما وقف في معسكر بني العباس وراح يخاطبهم:

أبلغ لديك بني العباس مالكة   لا يدّعوا ملكها ملّاكها العجمُ

أي المفاخر أمست في منازلكم   وغيركم آمر فيها ومحتكمُ؟

أنى يزيدكُمُ في مفخر علم؟   وفي الخلاف عليكم يخفق العلمُ

يا باعة الخمر كفّوا عن مفاخركم   لمعشر بيعهم يوم الهياج دمُ

خلّوا الفخار لعلّامين إن سئلوا   يوم السؤال وعمالين إن علموا

لا يغضبون لغير الله إن غضبوا   ولا يُضيعون حكم الله إن حكموا

تنشا التلاوة في أبياتهم سحراً   وفي بيوتكُمُ الأوتار والنغمُ

منكم علية أم منهم وكان لكم   شيخ المغنين إبراهيم أم لهم؟[2]

المبحث الثالث: موقف المتوكّل من أهل البيت عليهم السلام

إذن فقد وصل الأمر بالخلفاء العباسيين في تلك الفترة إلى أن يحكم

---

(١) البيتان لجنبذ الكاتب ، وقبلهما:

خلافةٌ جائرةٌ   فاسدةٌ ما تبتغى

صاحبُها محتجبٌ   يفرق من حرِّ الوغى

ثمار القلوب (الثعالبي) ١: ٤٨٨ / ٧٩١. باختلاف يسير ، مع ذكر مناسبة قولهما في المستعين.

(٢) الغدير ٣: ٤٠١ ـ ٤٠٢.

بعضهم بالأشهر وليس بالسنوات؛ فالمنتصر بن المتوكل مثلاً كانت كل فترة خلافته ستة أشهر، وهذا ما وعده به الإمام عليه السلام حيث أخبره بأن عمره سوف يقصر؛ ذلك أن المتوكّل كان عنده مخنّث يدعى عبادة، فكان يشدّ على بطنه مخدّة، ويرقص بين يدي المتوكّل، والمغنون يغنون: أقبل البطين، خليفة المسلمين. يعنون أمير المؤمنين علياً عليه السلام، والمتوكّل يشرب ويسمع له ويضحك. وكان ابنه المنتصر حاضراً، فقال لأبيه: إن الذي يحكيه[1] هذا الكلب، ويُضحك منه الناسَ هو ابن عمك، وشيخ أهل بيتك، وبه فخرك، فكل أنت لحمه، إذا شئت، ولا تطعمه هذا الكلب وأمثاله.

فقال المتوكل: غنوا:

غار الفتى لابن عمّه ... رأس الفتى في حِرِ امّه

وهو جواب بذيء هازئ ساخر دون وازع من إيمان أو دون ورع وتقوى. ثم إن المنتصر سمعه يوماً يشتم سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام فسأل الإمام الهادي عليه السلام وقال: سيدي من يشتم جدتك الزهراء ما هو حكمه؟ فقال له: «قد وجب عليه القتل». فقال: حتى ولو كان أبي؟ فقال عليه السلام: «إلّا إن من قتل أباه لم يطل عمره». فقال المنتصر: لا أبالي إذا أطعت الله بقتله ألّا يطول عمري. فقتله[2]. ذلك أن في قتل الأب قطيعة للرحم، وهي منهي عنها مع الأب ولو كان كافراً، وقطيعة الرحم كما هو معلوم تقصّر الأعمار.

---

(١) أي يقلّده ويفعل مثله.

(٢) انظر: شجرة طوبى ١: ١٥٧، الإمامة وأهل البيت عليهم السلام ٣: ١٩٥، الكامل في التاريخ ٧: ٥٥.

إذن فالمنتصر أقسم أن يقتل أباه؛ لأنه كان يشتم الزهراء عليها السلام، ويشتم أمير المؤمنين عليه السلام.

ومن يمرّ بتاريخ المتوكل فإنه يجد أن كل المؤرخين ينصّون على أنه قد أساء إساءة لا حدود لها للإمام علي عليه السلام ولأهل بيته عليهم السلام جميعاً، فكان يعمل جهده، وكل ما في وسعه وما يتمكّن منه من أجل إلحاق الأذى والضرر والقتل بهم عليهم السلام حتى إنه لم يكتفِ بالأحياء منهم، بل عمد حتى إلى من انتقلوا عن الدنيا إلى الرفيق الأعلى، فراح يشتمهم كما كان يفعل مع أمير المؤمنين علي ابن أبي الطالب عليه السلام، فكان يسبه ويشتمه ويستهزئ به متلذّذاً شامتاً دون أن يكون فيه أدنى غيرة أو حمية على الإسلام وعلى قادة الإسلام ورجالاته الذين اختصّهم الله تبارك وتعالى واصطفاهم.

وهذا ما حدا ببعض الشعراء ـ وهو البحتري ـ أن يذكّرهم بحقيقة أولوية الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام بهم، فقال:

وإن علياً لأولى بكم	وأزكى يداً عندكم من عمز
وكل له فضله والحجو	ل يوم التراهن دون الغرز[١]

وكذلك يذكّرهم أبو فراس الحمداني رحمه الله بحقيقة أولوية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول:

أمـا علي فأدنى من قرابتكم	عند الولاية إن لم تكفر النعمُ
أينكر الحبر عبد الله نعمته	أبوكمُ أم عبيد الله أم قثمُ؟
بئس الجزاء جزيتم في بني حسن	أباهمُ العلم الهادي وأمهمُ
لا بيعة ردعتكم عن دمائهمُ	ولا يمين ولا قربى ولا ذممُ[٢]

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢: ٤٣ ـ ٤٤، تاريخ الإسلام ١٨: ٤١٨.

(٢) الغدير ٣: ٤٠٠.

ولكل هذا فإن المنتصر عمد إلى قتل أبيه مستنكراً عليه فعله. وهكذا بيّت المنتصر لأبيه حتى قتله، فكان أن وهكذا وقع لحم خليفة المسلمين ومن يدعي له بأنه أمير المؤمنين، ومحيي السنة[1] في كؤوس الخمر التي حرّم شربها مهدداً شاربيها بالعقوبة الكبيرة. ومن هنا يقول الشاعر:

هكذا فلتكن منايا الكرام ... بين ناي ومزمرٍ ومُدامِ
بين كاسين أردياه جميعاً ... كأس لذّاته وكأس الحمامِ
يقظ في السرور حتى أتاه ... قدر الله خفية في المنامِ[2]

في حين أن شاعراً يُدّعى له بأنه شيعي، وهو البحتري ـ ونحن نقول هذا ببالغ الأسف لأنه يخاطبه ممجّداً إياه ـ يقول له:

عن أي ثغر تبتسم ... وبأي طرف تحتكمْ
حسن يضيء بحسنه ... والحسن أشبه بالكرمْ
قل للخليفة جعفر الـ ... ـمتوكل بن المعتصمْ
المرتضى بن المجتبى ... والمنعم بن المنتقمْ
نلنا الهدى بعد العمى ... بك والغنى بعد العدمْ
اسلم لدين محمد ... فإذا سلمت فقد سلمْ[3]

---

(١) ورد ذلك في أُرجوزة نقلها ابن كثير في البداية والنهاية ١٣: ٢٣٩.
وقال السيوطي: حتى قال قائلهم: الخلفاء الثلاثة... والمتوكّل في إحياء السنة وإماتة التجهّم. تاريخ الخلفاء: ١٤٣.
وقال: رؤي في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي بقليل من السنة أحييتها. تاريخ الخلفاء: ١٤٥.

(٢) البيتان لأحمد بن إبراهيم الأسدي. بحار الأنوار ٥: ١٩٢ـ١٩٤/ ٩، ٩٢: ٢٣٤ ـ ٢٣٦/ ٣٠، ثمار القلوب (الثعالبي) ١: ١٩١ ـ ١٩٠.

(٣) الكنى والألقاب ٢: ٦٦، الوافي بالوفيات ٢٧: ٢٧٤.

والبحتري هذا هو الذي يقول فيه أيضاً:

أخفي هوى لك في الضلوع وأظهرُ	وأُلام من كمد عليك وأُعذرُ
بالبرّ صمت وأنت أفضل صائم	وبسنة الله الرضية تفطرُ
فانعم بيوم الفطر عيناً إنه	يوم أغرّ من الزمان مشهّرُ
أظهرت عزّ الملك فيه بجحفل	لجب يحاط الدين فيه وينصرُ
والشمس طالعة توقد في الضحى	طوراً ويطفيها العجاج الأكدرُ
حتى طلعت بضوء وجهك فانجلى	ذاك الدجى وانجاب ذاك العِثْيَرُ
ذكروا بطلعتك النبي فهلّلوا	لما طلعت من الصفوف وكبّروا
حتى انتهيت إلى المصلى لابساً	نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع	لله لا يزهو ولا يتكبّرُ
أيدت من فصل الخطاب بحكمة	تنبي عن الحق المبين وتخبرُ
ووقفت في برد النبي مذكّراً	بالله تنذر تارة وتبشّرُ[1]

فهل مثل هذا يمكن أن يعدّ من شعراء الشيعة، كما يعدّ دعبل بن عبد الله الخزاعي رحمه الله؟ إننا نعرف كيف كان يقف دعبل بوجه العباسيين ويخاطبهم بصريح العبارة بأنهم قد آذوا العلويين، وقتلوهم، وشرّدوهم، فهو يقف في وجه المأمون مثلاً ويقول له:

تأسفت جارتي لما رأت زوري	وعدّت الشيب ذنباً غير مغتفرِ

حتى يقول:

لولا تشاغل نفسي بالأُلى سلفوا	من أهل بيت رسول الله لم أقرِ

(١) الكنى والألقاب ٢: ٦٥. وفيات الأعيان ٦: ٢٥ ـ ٢٦.

وفي مواليك للمحزون مشغلة ... من أن تبيت لمفقود على أثرِ

حتى يقول:

يا أمّة السوء ما جازيت أحمد عن ... حسن البلاء على التنزيل والسورِ

خلفتموه على الأبناء حين مضى ... خلافة الذئب في أبقار ذي بقرِ

وليس حي من الأحياء نعلمه ... من ذي يمانٍ ومن بكر ومن مضرِ

إلّا وهم شركاء في دمائهمُ ... كما تشارك أيسار على جزرِ

قتلاً وأسراً وتحريقاً ومنهبة ... فعل الغزاة بأرض الروم والخزرِ

أرى أمية معذورين إن قتلوا ... ولا أرى لبني العباس من عذرِ[1]

ونجده يقف في جانب آخر ويقول:

مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحي مقفر العرصاتِ

لآل رسول الله بالخيف من منى ... وبالركن والتعريف والجمراتِ

ديار علي والحسين وجعفر ... وحمزة والسجاد ذي الثفناتِ

منازل وحي الله ينزل بينها ... على أحمد المذكور في السوَراتِ

منازل قوم يهتدى بهداهمُ ... فتؤمن منهم زلّة العثراتِ

منازل كانت للصلاة وللتقى ... وللصوم والتطهير والحسناتِ

منازل جبريل الأمين يحلها ... من الله بالتسليم والرحماتِ

منازل وحي الله معدن علمه ... سبيل رشاد واضح الطرقاتِ

ديار عفاها جور كل منابذ ... ولم تعفُ للأيام والسنواتِ[2]

فهذا الرجل الناصح في حبّه لله تعالى، ولرسوله النبي الكريم صلى الله عليه وآله،

---

(١) ديوان دعبل الخزاعي: ١٠٤ ـ ١٠٧.

(٢) ديوان دعبل الخزاعي: ٥٨ ـ ٦٠.

ولأهل بيته الطاهرين الكرام عليهم السلام هو الذي يحقّ لكل شيعي أن يجعله موضع افتخار له، وهو من يستحقّ بأن يقال له بأنه شيعي، وليس ذلك التافه الذي يسير في مسالك الظالمين وركابهم.

وهذه التائية العظيمة كلما قرأتها ذبت أمامها، ووالله إني لأرى أن على كل شيعي أن يحفظها؛ لأنها تسجل كلّ مشاعرنا ونبضنا وانتمائنا إلى هذا المذهب الإلهي، وإلى هذا البيت النبوي الطاهر، وهذا ما ينبغي أن يكون. أما أُولئك السائرون في ركب الظلمة ـ وهم كثر، وموجودون في كل دور ـ فينبغي ألّا يعاروا أي اهتمام، وهم كما ذكرنا موجودون في كل آن ومكان، بل إننا نجد حتى في عصورنا الحاضرة أُدباءَ وكتّاباً تافهين من أصحاب الأقلام المأجورة التي ليس لها من قيمة تذكر أبداً؛ لأنها تسخّر أقلامها لخدمة الظلم والظالمين دون أن تدافع عن دينها وعن أخلاقها ومقدّساتها، هذا في مقابل مجموعة من الأُدباء والكتّاب من أصحاب الكلمة الحرّة، والأقلام التي تسطر الحقّ وتسجله.

وهؤلاء مع أنهم ممّن لا يزالون حتى الآن يأكلون من حقوق جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، لكنهم لا يفكّرون أبداً في أن ينبروا للدفاع عنه وعن مذهبه، حتى ولو على مستوى المفردة المنصفة، فهم لا يكلّفون أنفسهم بأن ينتصروا له، بل إنهم يتمادون أكثر، فيضعون أنفسهم في خدمة السلاطين، ويسيرون في ركابهم. فهل إن أبناء هذا اللون يمكن أن يسموا شعراء الشيعة؟ ومن هنا فإننا نقول لهذا الذي يخاطب المتوكل، فيمجد الباطل به بقوله:

نلنا الهدى بعد العمى ... بك والغنى بعد العدمْ

نقول له: أي هدى هذا الذي كان عند المتوكّل، وهو الذي كان يعاقر

الخمرة من أوّل الليل حتى الصباح، ويدأب على سماع الغناء، ويصرّ على فعل كل المنكرات والمحرمات التي نهى الله تبارك وتعالى عنها؟ وأي هدى هذا وهو الذي يأبى إلّا أن يلج في كل معصية له جلّ شأنه؟

والغريب أن بعض الشعراء يرثيه فيقول:

خلت المنابر واكتست شمس الضحى	بعد الضياء ملابس الإظلام
ما كادت الأسماع إكباراً له	يسمعن للإجلال والإعظام
ملأ القلوب من الغليل فأنزفت	ماء الشؤون مدامع الأقوام
هجمت فجيعته على كبد الورى	فأذابت الأرواح في الأجسام

مع أنه نفسه يصور لنا حادثة قتل المتوكّل ووزيره، واختلاط دمييهما ولحميهما بكؤوس الخمر. فإذا كان كما وصف، فكيف يعود بعد ذلك ليرثيه بهذا الرثاء المارّ، والذي لا يستحقّه؟ أمّا تصويره لنا حادثة قتل المتوكّل ووزيره، فهي في قوله:

هكذا فلتكن منايا الكرام	بين ناي ومزمرٍ ومُدام
بين كأسين أردياه جميعاً	كأس لذّاته وكأس الحمام
يقظ في السرور حتى أتاه	قدر الله خفية في المنام[1]

ونقول له: إذا كنت أنت القائل فيه كذلك، فكيف ترثيه مع ذلك بذلك الرثاء الذي تجعل فيه منه ولياً من أولياء الله؟ أولست أنت الذي تصف مقتله بهذا الوصف الذي ينكره الأولياء؟

رجع

وعلى أية حال فالإمام عليه السلام ولد في عام (٢١٤) هجرية، وعاصر

---

(١) البيتان لأحمد بن إبراهيم الأسدي. بحار الأنوار ٥: ١٩٢ ـ ١٩٤ / ٩، ٩٢: ٢٣٤ ـ ٢٣٦ / ٣٠، ثمار القلوب (الثعالبي) ١: ١٩١ ـ ١٩٠.

تلك المجموعة من خلفاء بني العباس الذين قصرت أعمارهم وقصرت فترة خلافتهم بسبب معاملتهم الظالمة والجائرة لأهل البيت ﷺ كما ذكرنا. وكان الإمام ﷺ في المدينة حينما بدا للمتوكّل أن يرسل خلفه؛ لظنه بأن الإمام الهادي ﷺ كان يبغيه الغوائل، فهو يعرف بأن الناس يلتفّون حوله؛ بدافع معرفتهم به، ولمكانته العلمية والروحية في الإسلام، ولقربه من الرسول الأكرم ﷺ. وهذا الأمر هو ما كان المتوكّل يظن معه بأنه سوف يخلق له المشاكل السياسية المتمثّلة بالوقوف في وجه سلطته وخلافته.

ولذا فإنه استدعى أحد قوّاده وهو يحيى بن هرثمة وقال له: اذهب إلى المدينة، واحمل إليّ علي بن محمد الملقب بالعسكري، بعد أن تعطيه هذا الكتاب، ولا تؤذِه، بل احمله إليّ معظماً مكرّماً، وانزل بنزوله وارتحل بترحاله، وقم بخدمته.

يقول يحيى: وكان في أصحابي الذين خرجوا معي قائد من الشراة[1]، وكان لي كاتب متشيّع، وأنا على مذهب الحشوية، وكان ذلك الشاري يناظر الكاتب، وكنت أسمع إلى مناظرتهما لقطع الطريق. فلما صرنا وسط الطريق قال الشاري للكاتب: أليس من قول صاحبكم علي بن أبي طالب: «ليس في الأرض بقعة إلّا وهي قبر، أو ستكون قبراً»؟ فانظر إلى هذه البرية أين من يموت فيها حتى يملأها الله قبوراً كما تزعمون؟ وتضاحكنا ساعة إذ انخذل الكاتب.

وهذا هو حال المعاندين، فمع أن هذا الأمر ـ وهو أنه ليس في الأرض

---

(١) أي الخوارج.

بقعة إلّا وهي قبر - مفروغ منه، وقد أشار إليه الخيام بقوله:

كُـلُّ ذرَّاتِ هــذهِ الأرْضِ كـانَتْ أوْجُــهاً كَــالشُّمُوسِ ذاتَ بَـهَاءِ
اجْلُ عَـنْ وَجْـهِكَ الغُـبَارَ بِـرِفْقٍ فَـهْوَ خَــدٌّ لِكَـاعِبٍ حَسْـنَاءِ[1]

إلّا إن هؤلاء قوم رين على قلوبهم، فسدروا في غيّهم، وسفّوا في كفرانهم حيث سفّ العتاة.

وعلى أية حال يقول يحيى: ثم سرنا حتى دخلنا المدينة، فقصدت بيت أبي الحسن علي بن محمد بن الرضا عليه السلام، فدخلت عليه فقرأ كتاب المتوكل وقال: «انزلوا». فلما حضرت إليه من الغد ـ وكنا في تموز أشدّ ما يكون من الحر ـ فإذا بين يديه خيّاط وهو يقطع من ثياب غلاظ له ولغلمانه، ثم قال للخياط: «اجمع عليها جماعة من الخياطين، واعمد على الفراغ منها يومك هذا، وبكر بها إليّ في هذا الوقت».

ثم نظر إليّ وقال: «يا يحيى، اقضوا وطركم من المدينة في هذا اليوم، واعمل على الرحيل غداً في هذا الوقت».

قال: فخرجنا وإنما بيننا وبين العراق مسيرة عشرة أيام، فما يصنع بهذه الثياب؟ ثم قلت في نفسي: هذا رجل لم يسافر، وهو يقدر أن كل سفر يحتاج فيه إلى هذه الثياب، والعجب من الرافضة حيث يقولون بإمامة من هذا فهمه. فعدت إليه في الغد في ذلك الوقت، فإذا الثياب قد أُحضرت، فقال لغلمانه: «ادخلوا، وخذوا لنا معكم لبابيد وبرانس». ثم قال: «ارحل يا يحيى». فقلت في نفسي: هذا أعجب من الأول، أيخاف أن يلحقنا الشتاء في الطريق حتى يأخذ معه اللبابيد والبرانس؟

---

(١) رباعيات الخيام: ١.

فخرجت وأنا أستصغر فهمه، حتى إذا وصلنا إلى موضع المناظرة في القبور ارتفعت سحابة، واسودت وأرعدت وأبرقت، حتى إذا صارت على رؤوسنا أرسلت برداً مثل الصخور، وقد شدّ على نفسه وغلمانه الثياب الغلاظ، ولبسوا اللبابيد والبرانس، وقال لغلمانه: «ادفعوا إلى يحيى لبادة، وإلى الكاتب برنساً». وتجمعنا والبرد يأخذنا حتى قُتل من أصحابي ثمانون رجلاً، وزالت، ورجع الحرّ كما كان، فقال لي: «يا يحيى، أنزل من بقي من أصحابك ليدفن من مات، فهكذا يملأ الله هذه البرية قبوراً».

قال: فرميت نفسي عن الدابة، واعتذرت إليه، وقبلت ركابه ورجله، وقلت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأنكم خلفاء الله في أرضه، وقد كنت كافراً وإني الآن أسلمت على يديك يا مولاي. ثم تشيعت ولزمت خدمته إلى أن مضى.

فلما وصلنا إلى المتوكّل، أمر بأن يحجب عنه يومه، وأن ينزل في خان يعرف بخان الصعاليك، وأقام يومه ثم تقدم المتوكل بإفراد دار له فانتقل إليها، وأقام عليه السلام مدة مقامه بـ«سر من رأى» مكرّماً في ظاهر حاله؛ لأن المتوكل كان قد جهد في إيقاع حيلة به فلم يتمكّن من ذلك[1].

وبهذا فإن ابن هرثمة هذا قد أصبحت لديه قناعة بأن الإمام الهادي عليه السلام وآباءه عليهم السلام هم الذين ينبغي أن يلتفّ جميع المسلمين حولهم دون غيرهم، وليس الشيعة فقط كما تقدم من تعجّبه من اتباعهم إيّاه عليه السلام، وهكذا شايع الإمام عليه السلام، ولزم طاعته وخدمته، وبقي معه.

والمتوكل إذ أمر بوضع الإمام عليه السلام في خان الصعاليك، فإنه إنما كان يريد

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٥١٩، مدينة معاجز الأئمة عليهم السلام ٧: ٤٦٦ / ٢٤٧١، الثاقب في المناقب: ٥٥١ ـ ٥٥٣ / ٤٩٤.

بذلك أن يحطّ من قدر الإمام ﷺ دون أن يعلم بأن قدر الإمام كبير عند الله سبحانه وتعالى، وعند العارفين بحقّه وحقّ أهل البيت ﷺ؛ ولذا فإن الإمام ﷺ لم يكن ينقص هذا التصرّف منه شيئاً، فالعظيم عظيم وإن أُجلس على الثرى، أما الوضيع فيبقى وضيعاً وإن أُطعم بأواني الذهب، فالذهب لا يغير من حقيقة الوضيع شيئاً، وكذلك الجواد الأصيل فإنه يبقى جواداً وإن ترك دون سرج، فهو أصيل في تصرفاته، وفي عدوه، وفي كل شيء، أما الحمار فيبقى حماراً وان جُلّل بالذهب والحرير:

كن عالماً واجلس بصفّ النعالْ	خير من الصدر بغير الكمالْ
إذا تصدّرت بلا آلة	صيرت ذاك الصدر صفّ النعالْ[1]

ولننظر الآن الى خان الصعاليك الذي أنزل فيه المتوكل الإمام علياً الهادي ﷺ كيف أصبح، فقد أصبح قباباً من ذهب تناطح السماء علواً وسموّاً، ومناراً يهتدي به السالكون وهي تعكس أشعة الحقّ، ومرآة تعكس أشعّة الشمس لرائيها عن مسافة بعيدة. مع أننا لا نقول بأن قيمة هذه القبور هي من قيمة هذا الذهب؛ لأن الذهب لا قيمة له أمامهم ﷺ بعد أن زهدوا فيه وتركوه لغيرهم؛ لأنه لو كان له قيمة حقيقية لكانوا ﷺ أول من بادر إليه وإلى جمعه، ولكنهم لأنهم يعرفون بأنه لا قيمة له فقد زهدوا فيه وفي الدنيا كلها. أما قيمتهم الحقيقية فهي تنبع من تلك العروش التي بنوها لهم في قلوب الأحرار، وفي نفوسهم، وفي عقولهم.. بنوها بتلك الأخلاق العالية، والتربية الإلهية السامية الرفيعة، وبذلك الإيمان الناصع، وبذلك الارتباط الفريد والصادق مع الله سبحانه وتعالى، وهو

(١) البيتان للإسفرايني. تاريخ مدينة دمشق ١٨: ٢٣، المستطرف في كل فن مستظرف ١: ٥٤.

ارتباط لا حدود له.

المتوكل ينذر أموالاً كثيرة

وبعد فترة من الزمن مرض المتوكل، فنذر لله إن رزقه الله تبارك وتعالى العافية أن يتصدّق بمال كثير، فلما سلم وعوفي سأل الفقهاء عن حدّ المال الكثير: كم يكون؟ فاختلفوا؛ فقال بعضهم: ألف درهم. وقال بعضهم: عشرة آلاف. وقال بعضهم: مئة ألف. فاشتبه عليه الأمر، فقال له الحسن وكان حاجبه: إن أتيتك من هذا بالخبر الحقّ والصواب، فما لي عندك؟ فقال المتوكّل: إن أتيت بالحقّ، فلك عشرة آلاف درهم، وإلّا أضربك مئة مقرعة. فقال: قد رضيت.

ثم أتى الإمام الهادي عليه السلام فسأله عن ذلك، فقال الإمام عليه السلام: «قل له: يتصدّق بثمانين درهماً».

فرجع إلى المتوكل فأخبره، فقال: سله: ما العلّة في ذلك؟ فسأله فقال: «إن الله عزّ وجلّ قال لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾[1]، فعددنا مواطن رسول الله صلى الله عليه وآله، فبلغت ثمانين موطناً».

فرجع إليه فأخبره، ففرح وأعطاه عشرة آلاف درهم[2].

استنطاق الرواية الشريفة

ونحن حينما نضع هذه الرواية الشريفة على طاولة البحث والاستنطاق، ونخضعها إلى الفحص من خلال التمحيص في دقائقها، فإننا نخرج بنتائج عديدة هامّة، منها:

---

(١) التوبة: ٢٥.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٥٠٦، الاحتجاج ٢: ٢٥٧ ـ ٢٥٨.

أولاً: أن الأئمة عليهم السلام كلهم بلا استثناء أجوبتهم جميعها بلا استثناء إنما هي امتداد للقرآن الكريم، واستمداد منه. وهم بذلك انما يحذون حذو جدهم رسول الله صلى الله عليه وآله الذي لا ينطق عن الهوى، ولا يخرج عن حدود القرآن ولو قيد شعرة. وهؤلاء هم أهل بيت النبوة الذين اختارهم الله تبارك وتعالى واصطفاهم، وفضّلهم على غيرهم وطهرهم.

ثانياً: أن علماء المسلمين من غير أهل البيت عليهم السلام لا يستطيعون أن يتعاملوا مع القرآن الكريم بذلك النطاق الواسع الذي يتعامل به أهل البيت عليهم السلام معه، حتى إنهم عجزوا عن حلّ مثل هذه المسألة، بل غيرها كثير مما عجزوا عنه[1].

ومن هنا فإن هؤلاء العلماء قد أجابوا المتوكّل بأنهم ليس عندهم من علم في خصوص تحديد الكثرة التي نذر المال بها، وهو ما لم يستطيعوا مع ادّعائهم العلم أن يهتدوا إليه، بل لم يهتدوا حتى إلى استنطاق القرآن الكريم حوله كما فعل الإمام عليه السلام بعد أن استنطق إحدى آياته متّخذاً منها دليلاً وحجّة على ما يفتي به؛ لأنه عدل القرآن[2] وشريكه[3].

---

(١) كما هو الحال في قصة المنصور مع الإمام الصادق عليه السلام حينما مات أحد غلمان المنصور، فعمد غلام له آخر الى قطع رأس ذلك الغلام الميت، وجواب الصادق عليه السلام له عن حكم هذا الغلام بالدليل القرآني حيث عجز العلماء الآخرون عنه حتى قال لهم المنصور: أيعجز أحدكم عن أن يجيب بمثل هذا الجواب؟

(٢) فهو عليه السلام عدل القرآن لأن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلىٰ الأرض، وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً. ولقد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض». فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، وغيرها كثير.

(٣) وهو عليه السلام شريك القرآن؛ لأنه قد ورد في الزيارة الشريفة لجدّه السبط الشهيد عليه السلام: «السلام عليك يا شريك القرآن». المزار (المشهدي): ٤٢٦، الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٣٤١.

ثالثاً: أن الذي يبدو هنا أن الكثير يطلق عليه الرقم ثمانون[١].

موقف الأتراك من أهل البيت عليهم السلام

واستقرّ الإمام عليه السلام في ذلك البيت أياماً قليلة، لكن الدنيا كانت تغلي من حوله؛ فالوضع كان حرجاً جداً، ودفة البلاد السياسية كانت بيد الأتراك الذين كانوا يتّصفون بموقفهم المتشدّد من أهل البيت عليهم السلام والمتّسم ببغضهم إيّاهم، وبنصب العداء لهم. ولو أننا أنعمنا النظر في تاريخ الأتراك لوجدنا أن مواقفهم من أهل البيت عليهم السلام كانت مواقف عجيبة وغريبة، فكان تاريخهم على امتداد هذه الفترة الزمنية وصولاً حتى أيامنا هذه يمثّل موقفاً عدائياً لهم (صلوات الله وتسليماته على جدّهم وعليهم) بشكل خاص، ولشيعتهم بشكل عام.

وكان الإمام عليه السلام خلال وجوده في تلك الفترة قد أُخضع لمراقبة شديدة جدّاً؛ لأن الأتراك كانوا يخشون من أن يكون له عليه السلام دور في الوقوف بوجه مخطّطاتهم، أو من أن يكون له دور في أي ثورة يمكن أن تندلع ضدّهم أو ضد نظام الحكم العباسي. ومن هنا فإن الناس كانوا يخشون من أن يدخلوا عليه، وكان بعض أصحاب الإمام الخلص يزورونه ليلاً بشكل سري بعيداً عن الأعين والرقباء، لأن الطوق الذي ضربه الأتراك حول الإمام كان طوقاً شديداً وقاسياً، وقد وصل الحدّ بهذا الطوق الى أن من يزوره بإذن من السلطات كانت أنفاسه تُحصى عليه خلال تلك الزيارة لشدّة المراقبة التي

---

(١) وهناك استنتاج رابع هو محاولة التعتيم على الإمام عليه السلام من قبل المتوكّل حينما لم يحاول سؤال الإمام عن مسألته، ولم يسأله إلّا بعد أن أعيا الجوابُ وعّاظَه، وبعد تنبيه حاجبه له، وكأنه غافل عن حقيقة أمر الإمام عليه السلام. وهو أمر يؤكّده ما طرحه المحاضر بشكل مفصّل في محاضرة (عصر الإمام الصادق عليه السلام).

كانت تفرض عليه وعلى زائريه (سلام الله عليه). وقد استمرت الحال هذه على ذلك المنوال فترة طويلة.

الإمام عليه السلام يصف علاجاً للمتوكل

يروي المؤرخون أن المتوكل مرض من خُرّاج أصابه، فأشرف منه على الموت، ولم يجسر أحد أن يمسّه، فنذرت أمّه إن عوفي أن تحمل إلى أبي الحسن عليه السلام أموالاً نفيسة، فقال له وزيره الفتح بن خاقان: لو بعثت إلى هذا الرجل، فسألته، فربما كان عنده شيء. فسأل عنه الإمام عليه السلام، فقال: «خذوا كُسب[1] الغنم، فديفوه بماء ورد، وضعوه على الخُرّاج». فلمّا فُعل ذلك برأ المتوكل، وخرج منه ما كان فيه، فحملت أمّ المتوكّل عشرة آلاف دينار تحت ختمها إلى الإمام الهادي عليه السلام.

وبعد فترة سُعي إلى المتوكّل بالإمام الهادي عليه السلام أن عنده أموالاً وسلاحاً، فأمر المتوكّل سعيداً الحاجب أن يهجم عليه ليلاً، ويأخذ ما يجد عنده، فصعد سعيد سقف داره ولم يهتدِ أن ينزل ـ وكانت الدنيا شديدة الظلمة ـ فنادى أبو الحسن عليه السلام: «يا سعيد مكانك حتى يأتوك بشمعة». فلما دخل الدار قال عليه السلام: «دونك والبيوت».

فما وجد عنده إلّا المصحف الذي كان الإمام الهادي عليه السلام يقرأ فيه، وكيساً مختوماً، وبدرة مختومة، وسيفاً تحت مصلّاه عليه السلام، فأتى به مع كلّ ذلك المتوكّل، فلما رأى المتوكّل ختم أمّه على البدرة سألها عنها، فحكت نذرها الذي نذرته حينما مرض، فردّها إليه، فقال الحاجب: اعزز علي بدخولي دارك بغير إذنك، ولكني مأمور. فقال عليه السلام: «يا سعيد،

(١) الكسب ـ على وزان قفل ـ: عصارة الدهن. الصحاح ١: ١٢١ ـ كسب.

﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[١] ...»[٢].

وهكذا فإن سعيداً الحاجب لم يجد عند الإمام سوى تلك البدرة التي بعثت بها أم المتوكل إليه، والمصحف الذي كان يقرأ به الإمام عليه السلام، عند جلوسه للتعبد والتهجد في محرابه. وهذا ما حمل المتوكّل على أن يعتذر من الإمام عليه السلام متذرّعاً عنده معلّلاً تصرّفاته هذه بما تصله من تقارير وأخبار عن أنه يجمع السلاح في بيته ليقوم بثورة ضده.

زرافة الحاجب ومعلم أبنائه

وفي هذا المضمار يروي زرافة الحاجب أن المتوكل أراد أن يذلّ جماعة من الناس، وفي الوقت نفسه أراد أن يرفع من قدر وزيره الفتح بن خاقان، وكان عندهم يوم في السنة يعرضون فيه الجيش، فنادىٰ المنادي في يوم العرض أن يخرج الناس مشياً علىٰ أقدامهم، ولا يركب إلّا المتوكّل والفتح بن خاقان. فخرج الناس مشاة، وخرج معهم الإمام الهادي عليه السلام ماشياً أيضاً. وكان الإمام بديناً، فكان العرق يتصبّب منه. يقول زرافة الحاجب: دنوت إليه، فقدمت له كتفي فوضع يده عليها، فسمعته يقول: «والله، لست بأقل من ناقة صالح»، ثم قرأ قوله تعالىٰ: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[٣].

فلم أدرِ ماذا أراد الإمام بذلك، فلما انتهىٰ العرض عاد المتوكل مع وزيره، وقد أعطَوا الإذن للناس بالركوب، فقدّمت للإمام برذوناً فركبه وعاد إلىٰ البيت وهو يتصبب عرقاً، ورجعت إلىٰ البيت.

---

(١) الشعراء: ٢٢٧.
(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٥١٧ ـ ٥١٨.
(٣) هود: ٦٥.

وكان عندي مؤدب لأولادي يتشيع، فأقبلت إليه وقلت له: سمعت اليوم من إمامك شيئاً. قال: ما هو؟ فرويت له الحادثة، فقال: بالله عليك، أنت سمعت ذلك؟ قلت: نعم. قال: إذن هيّئ نفسك، واجمع مالك وولدك، فسيحدث شيء بعد ثلاثة أيام. فقلت: من أين لك ذلك؟ قال: لا عليك.

فنهرته وأغلظت له القول، ولكن وقع في نفسي من قوله شيء، فأصلحت شأني، وخبأت ما كان عندي من أموال عند من لي في نفوسهم ودّ ومحبّة. وصدق الإمام ﷺ فيما قاله؛ حيث قتل المتوكّل بعد ثلاثة أيام كما تقول الرواية: وفي اليوم الثالث أصبحنا على أصوات الناس، وإذا ابنه المنتصر ومعه القواد الأتراك: وصيف وبغا وباغر وقد دخلوا عليه وبعجوه بسيوفهم هو ووزيره الفتح بن خاقان، وقطعوهم إرباً إرباً حتى اختلط لحمهما مع الخمرة، وتناثر في الكؤوس. وهنا أدرك زرافة سر قول الإمام ﷺ[1].

ومثل ذلك ما ورد عن علي بن يقطين بن موسى الأهوازي إذ قال: كنت رجلاً أذهب مذاهب المعتزلة، وكان يبلغني من أمر أبي الحسن علي بن محمد ﷺ ما أستهزئ به ولا أقبله، فدعتني الحال إلى دخولي بـ«سرّ من رأى» للقاء السلطان، فدخلتها، فلما كان يوم وعد السلطان الناس أن يركبوا إلى الميدان، وكان من غد ركب الناس في غلائل القصب، بأيديهم المراوح وركب أبو الحسن ﷺ في زي الشتاء، وعليه لباد وبرنس، وعلى سرجه تجفاف طويل، وقد عقد ذنب دابته، والناس يهزؤون به وهو ﷺ يقول: «ألا ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[2] ...».

---

(١) انظر: بحار الأنوار ٥: ١٩٢ ـ ١٩٤ / ٩، ٩٢: ٢٣٤ ـ ٢٣٦ / ٣٠، ثمار القلوب (الثعالبي) ١: ١٩٠ ـ ١٩١.

(٢) هود: ٨١.

فلما توسطوا الصحراء، وجازوا بين الحائطين، ارتفعت سحابة، وأرخت السماء عزاليها، وخاضت الدوابّ إلى ركبها في الطين، ولوثتهم أذنابها، فرجعوا في أقبح زي، ورجع أبو الحسن عليه السلام في أحسن زي، ولم يصبه شيء مما أصابهم فقلت: إن كان الله عز وجل أطلعه على هذا السرّ، فهو حجة. ثم إنه لجأ إلى بعض السقايف، وكنت قد عزمت أن أسأله عن الصلاة في عرق الجنب، فلما قرب نحّى البرنس، وجعله على قربوس سرجه ثلاث مرات، ثم التفت إليّ وقال: «إن كان من حلال فالصلاة في الثوب حلال، وإن كان من حرام فالصلاة في الثوب حرام». فصدقته وقلت بفضله[1].

وهكذا كانت هذه الحادثة سبباً لرجوع علي بن يقطين الأهوازي هذا إلى القول بإمامة الإمام الهادي عليه السلام وإلى مشايعته.

المبحث الرابع: الإمام الهادي عليه السلام بعد عهد المتوكل

ولما ذهب المتوكّل إلى حيث يستحقّ، لم يسترح الإمام عليه السلام في حياته، حيث ظلّت المشاكل والقضايا تلاحقه سيّما مع وجود الأتراك الذين أشرنا إلى مواقفهم قبل قليل. وكانت حياة الإمام عليه السلام ومهامّه في هذه الفترة قد توزعت بين عدّة أوقات لأداء عدد من الوظائف التي أراد عليه السلام من خلالها أن يوصّل المذهب الحقّ هناك، ومنها

١ ـ تقديم المعونات المادّية والمالية لشيعته من فقرائهم ومحتاجيهم ومعوزيهم.

٢ ـ برّ أصحابه وتلامذته وإخوانه وصلتهم.

٣ ـ الانصراف إلى مهامّه الخاصة ورعاية أهل بيته.

---

(١) بحار الأنوار ٥٠: ١٨٧ ١٨٨ ٧٧: ١١٨، ١٤٣، مدينة معاجز الأئمّة ٧: ٤٩٧.

٤ ـ التفرّغ لعباداته ومناجياته وتهجّداته التي كانت تشغل مساحة عريضة من حياته الشريفة المباركة.

٥ ـ السعي لتخليصهم من المظالم التي يوقعهم فيها أعداؤهم وأعداء أهل البيت عليهم السلام.

نماذج ومواقف من سعيه عليه السلام في ردّ مظالم المؤمنين

وقد كان من أخلاق الإمام عليه السلام السامية ودأبه أنه كان يرعى الصغير والكبير على حد سواء، وكان يجير كل من كان يفزع إليه، فيردّ إليه لهفته، وسوف نضرب هنا بضعة أمثلة للتدليل على ما نذهب إليه في هذا الخصوص، وهي:

الأول: ردّ لهفة يونس النقاش

فمن ذلك أن يونس النقاش كان من أصحاب الإمام عليه السلام، وكان يخدمه، فجاءه يوماً يرعد، وقال له: يا سيدي، أوصيك بأهلي خيراً. فقال عليه السلام: «ما الخبر؟». قال: عزمت على الرحيل. فقال عليه السلام وهو يتبسّم: «ولم يا يونس؟». قال: إن موسى بن بغا وجّه إليّ بفص ليس له قيمة[1] لأنقشه، فلما أقبلت عليه أنقشه كسرته إلى نصفين، وموعده غداً، وعقوبته لي إما ألف سوط، أو القتل. فقال عليه السلام: «امضِ إلى منزلك، إلى غد فرج؛ فما يكون إلّا خيراً».

فلما كان من الغد جاء إلى الإمام عليه السلام وهو يرعد، فقال: قد جاء الرسول يلتمس الفص. فقال عليه السلام: «امضِ إليه؛ فما ترى إلّا خيراً». قال: وما أقول له يا سيدي؟ فتبسّم عليه السلام وقال: «امضِ إليه، واسمع ما يخبرك به، فلن يكون إلّا خيراً». فمضى، وما لبث أن عاد وهو يضحك، فقال للإمام عليه السلام: قال لي يا

(١) أي لا يقدّر بثمن؛ لارتفاع قيمته.

سيدي: لي جاريتان اختصمتا عليه، فيمكنك أن تجعله فصّين ونغنيك. فقال الإمام عليه السلام: «اللهم لك الحمد؛ إذ جعلتنا ممن يحمدك حقّاً، فأيش[1] قلت له؟». فقال: قلت له: أمهلني حتى أتأمّل أمره كيف أعمله. فقال عليه السلام: «أصبت»[2].

الثاني: ردّ لهفة أبي موسى عمّ المنصوري

ومنه ما يرويه المنصوري عن عمّ أبيه، وكان من شيعة الإمام الهادي عليه السلام، وممّن يتردّد عليه، وقد جبهه المتوكّل بذلك، فكان أن لجأ إلى الإمام الهادي عليه السلام يستنجد به، ويطلب منه أن يدعو الله له أن يعود حاله كما كان عند المتوكّل، ويعيد إليه ما قطع عنه من صِلات، تقول الرواية عنه: حدثني عم أبي قال: قصدت الإمام عليه السلام يوماً فقلت: يا سيدي، إن هذا الرجل قد اطّرحني وقطع رزقي وملّني، وما أتّهم في ذلك إلّا علمه بملازمتي لك، فإذا سألته شيئاً منه يلزمه القبول منك، فينبغي أن تتفضل عليّ بمسألته. فقال عليه السلام: «تكفى إن شاء الله».

فلما كان في الليل طرقني رسل المتوكّل، رسول يتلو رسولاً، فجئت والفتح على الباب قائم، فلمّا دخلت عليه قال: يا أبا موسى، نشغل عنك، وتنسينا نفسك؟ أي شيء لك عندي؟ فقلت: الصلة الفلانية، والرزق الفلاني. وذكرت أشياء، فأمر لي بها وبضعفها، فقلت للفتح: هل جاء علي بن محمد إلى هنا؟ فقال: لا. فقلت: كتب رقعة؟ فقال: لا. فوليت منصرفاً، فتبعني وقال لي: لست أشك أنك سألته دعاء لك، فالتمس لي

---

(١) أي «أيّ شيء»؟.

(٢) الأمالي (الطوسي): ٢٨٨ ـ ٢٨٩ / ٥٥٩، مناقب آل أبي طالب ٣: ٥٢٨، مدينة معاجز الأئمة عليهم السلام ٧: ٤٣٩ / ٢٤٣٩.

منه دعاء. فلما دخلت إليه عليه السلام قال لي: «يا أبا موسى، هذا وجه الرضا».
فقلت: ببركتك يا سيدي، ولكن قالوا لي: إنك ما مضيت إليه، ولا سألته.
فقال عليه السلام: «إن الله تعالى علم منا أنا لا نلجأ في المهمات إلّا إليه، ولا نتوكّل في الملمّات إلّا عليه، وعوّدنا إذا سألناه الإجابة، ونخاف أن نعدل فيعدل بنا».

ثم أخبرته بطلب الفتح، وقلت له: إن الفتح قال لي كيتَ وكيتَ.
فقال عليه السلام: «إنه يوالينا بظاهره، ويجانبنا بباطنه، الدعاء لمن يدعو به. إذا أخلصت في طاعة الله، واعترفت برسول الله صلى الله عليه وآله وبحقّنا أهل البيت، وسألت الله تبارك وتعالى شيئاً لم يحرمك». فقلت: يا سيدي، فتعلّمني دعاء اختصّ به من الأدعية. قال: «هذا الدعاء كثيراً ما أدعو الله به، وقد سألت الله ألّا يخيب من دعا به في مشهدي بعدي، وهو: يا عدتي عند العدد، ويا رجائي والمعتمد، ويا كهفي والسند، ويا واحد يا أحد، ويا قل هو الله أحد، أسالك اللهم بحقّ من خلقته من خلقك ولم تجعل في خلقك مثلهم أحداً، أن تصلّي عليهم، وتفعل بي كيتَ وكيتَ».

يقول عم المنصوري: فما دعوت الله عزّ وجلّ في شدّة من الشدائد بهذا الدعاء إلّا استجاب لي دعائي[1].

شرائط الدعاء

وعلى أية حال فإنني أود أن أشير إلى أن هنالك موضوعاً هامّاً يتعلّق بالدعاء، لكنني لا أستطيع أن أخوض فيه الآن بشيء من التفصيل؛ لأنه ليس هنالك من مجال له. أما ما أودّ أن أشير إليه، فهو أن بعض الناس يتساءل عن أسباب عدم استجابة دعائه حينما يدعو الله تبارك وتعالى

---

(١) الأمالي (الطوسي): ٢٨٥ ـ ٢٨٦ / ٥٥٥، مدينة معاجز الأئمة عليهم السلام ٧: ٤٣٦ / ٢٤٣٧.

مثلاً، مع أنه ربما يتغافل عن حقيقة ـ أو ربما يكون فعلاً غافلاً عنها ـ هي أن لكل دعاء شروطاً ودواعي تقتضي إجابته معها، وهذه الشروط لابدّ من أن تتوفّر عند الداعي حتى يستجاب الدعاء. وسوف نتعرّض لهذا الأمر مفصّلاً إن شاء الله تبارك وتعالى فيما إذا وفّقنا جلّ شأنه لذلك[1].

إذن فالامام عليه السلام كان يرعى أصحابه في غيابهم وفي حضورهم، وكان يبرّهم ويصلهم، ويقضي حوائجهم، ويحدب عليهم كما يحدب الأب على ابنه؛ سواء تلك التي تتعلّق بهم عند السلاطين أو غيرها. ولقد كانوا عليهم السلام كلّهم عطاء، ورحمة للمسلمين جميعاً.

رؤيا عيسى الكاتب

يقول عيسى الكاتب: رأيت ليلة رسول الله صلى الله عليه وآله فيما يرى النائم كأنه نائم في حجرتي، وكأنه دفع إلي كفّاً من التمر من مكتل كان أمامه، فلما عددته وجدته خمساً وعشرين تمرة، فتأوّلتها أني سوف أعيش خمساً وعشرين سنة.

ثم ما لبثت إلّا قليلاً حتى أقدم أبو الحسن علي بن محمد عليه السلام ومعه أحد

---

(١) يذهب علماء الأخلاق والعرفان إلى أن للدعاء لونين من الشروط:

الأول: شروط الصحة. ومنها كون الداعي مسلماً، وألّا يدعو الله تبارك وتعالى فيما فيه ضرر للآخرين، وألّا يكون دعاؤه في شيء محرم وألّا يكون دعاؤه ملحوناً، وألّا يكون الإنسان قد ارتكب معاصي تحول دون استجابة دعائه؛ فقد ورد في (دعاء كميل) عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء». الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٣٣٢، وغير ذلك.

الثاني: شروط الكمال. ومنها اختيار الزمان المخصّص للدعاء، واختيار الأمكنة المشرّفة كالمساجد وأضرحة الرسول صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار (صلوات الله وسلامه على جدّهم وعليهم)، والتطيب، وكون الإنسان على طهارة، وغير ذلك.

القواد، فأنزله في حجرتي، وكان القائد يبعث ويأخذ من العلف من عندي، فسألني يوماً: كم لك علينا إزاء ما أخذنا منك؟ فقلت: لست آخذ منك شيئاً من ثمنه. فقال لي: أفتحب أن تدخل إلى هذا العلوي فتسلم عليه؟ قلت: لست أكره ذلك. فدخلت فسلمت عليه، وقلت له: إن في هذه القرية كذا وكذا من مواليك، فإن أمرتنا بإحضارهم فعلنا. فقال: «لا تفعلوا». فقلت: فإن عندنا تموراً جياداً، فتأذن لي أن أحمل لك بعضها؟ فقال: «إن حملت شيئاً لم يصل إليّ، ولكن احمله إلى القائد؛ فإنه سيبعث إليّ منه».

فحملت إلى القائد أنواعاً من التمر، وأخذت نوعاً جيداً في كمّي، فحملته إليه، ثم جئت، فقال لي القائد: أتحب أن تدخل على صاحبك؟ فقلت: نعم. فدخلت، فإذا قدّامه من ذلك التمر الذي بعثت به إلى القائد، فأخرجت التمر الذي معي، فوضعته بين يديه، فأخذ كفّاً من تمر فدفعه إليّ، فعددته فإذا هو كما رأيته في المنام خمس وعشرون تمرة، لم يزد ولم ينقص. فقلت: سيّدي، زدني. فقال عليه السلام: «لو زادك رسول الله صلى الله عليه وآله لزدناك»[1].

إذن فآل محمد صلى الله عليه وآله كلهم عطاء، وكلهم رأفة جعلها الله سبحانه وتعالى للمسلمين كلّهم على الأرض تسير بينهم ومعهم؛ كي يفيض برحمته عليهم بهم، ولا يعذبهم[2].

---

(١) الخرائج والجرائح ١: ٤١١ ـ ٤١٢ / ١٦، وقريب منها عن عيسى عن أبي حبيب البناجي مع الإمام الرضا عليه السلام في عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٢٧ ـ ٢٢٨ / ١٥، دلائل الإمامة: ٣٦٧ ـ ٣٦٨ / ٣٢١.

(٢) قال جلّ وعلا: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ الأنفال: ٣٣.

إن آل بيت الرسول صلى الله عليه وآله رحمة وعطاء للمسلمين كافّة، ومن الصعب والعسير على المرء أن يرى هذا الإعراض الكبير عند المسلمين عن هذا العطاء الضخم، في حين أنه يجد عندهم تهالكاً عجيباً غريباً على عطاء الآخرين الذي لا يصل من ناحية القيمة العلمية، ولا كماً ولا كيفاً إلى عطاء أهل بيت النبوة عليهم السلام. وهذا في واقع الأمر لا يعود سلباً على أهل البيت عليهم السلام، بل إنه إنما يكشف عن سوء حظّ هؤلاء الناس الذين يبتعدون عن هذه السلسلة الذهبية التي تمثل حلقة الوصل الوحيدة بينهم وبين الله عز وجل؛ بما أنهم امتداد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في هذه الأرض؛ سواء كان على مستوى الدم؛ حيث إنهم ذريته صلى الله عليه وآله، أو على مستوى العلم والإيمان والقيادة والالتزام والسير وفق تعاليم الدين؛ لأنهم عليهم السلام خلفاؤه وقادة الأمّة من بعده، وبما أنهم أوصياؤه على هذه الأمّة.

ثم أو ليس رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله هو القائل: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً، ولقد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض»[1]؟

إذن فهم عليهم السلام لا يضرّهم ابتعاد الناس عنهم، بل إن ذلك الابتعاد يضرّ الناس أنفسهم؛ لأنهم عليهم السلام عطاء بحدّ ذاته؛ فهم ليسوا بحاجة إلى أحد، في حين أن الكلّ محتاجون إليهم.

رجع

وعلى أية حال عاش الإمام عليه السلام الفترة المتبقية من عمره في سامراء التي

---

(١) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل) ١٥: ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢.

قال عنها كما يروي المنصوري عن عمّه: «يا أبا موسى، أُخرجت إلى «سرّ من رأى» كرهاً، ولو أُخرجت عنها أُخرجت كرهاً». فقال: ولم يا سيدي؟ قال عليه السلام: «لطيب هوائها، وعذوبة مائها، وقلّة دائها». ثم قال: «تخرب «سرّ من رأى» حتى يكون فيها خان وقفاً للمارّة. وعلامة خرابها تدارك العمارة في مشهدي من بعدي:

دخلنا كارهين لها فلما ... ألفناها خرجنا مكرهينا»[1]

وهكذا شاء الله تبارك وتعالى لهذا المكان أن يكون مأوى لملائكته، وموضع عبادة لعباده المؤمنين، ومستجنّاً لأرواح الصالحين منهم، وأن يكون بقعة من البقاع المقدّسة، والأراضي الطاهرة التي يعبد الله على ظهرها؛ لوجود الإمامين العسكريين عليهما السلام فيها.

المبحث الخامس: وفاة الإمام عليه السلام

وفي سنة (٢٥٤) هجرية توفي الإمام عليه السلام شهيداً، وعلى هذا فيكون عمره أربعين سنة أو أكثر من ذلك بقليل. وقد استشهد مسموماً بعد أن دسّ له السم المهتدي بن المعتصم العبّاسي، غير أن المؤرخين لم ينصّوا على نوع الطعام الذي دُسّ له السمّ فيه. ومهما كان فبعد أن سرى السم الرهيب في جسده المقدّس راح عليه السلام ينازع ذلك السم، ويصارع الموت، ثم أخذ ينظر يميناً وشمالاً، ثم شخص ببصره تلقاء المدينة المنوّرة حيث جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله، وأُمّه الزهراء عليها السلام، وبقية الأئمة عليهم السلام من آبائه المدفونين في البقيع.

(١) الأمالي (الطوسي): ٢٨١، مناقب آل أبي طالب ٣: ٥١٩ / ٥٤٥، مدينة معاجز الأئمة عليهم السلام ٧: ٥٠٨، ٢٥٠٢.

ونودّ هنا أن ننبّه إلى حقيقة هي أنه مهما كانت البقاع التي يسكنها الأئمة عليهم السلام، وأينما كانت فإنهم يظلّون يحنّون إلى تلك البقعة المقدسة.. إلى دار الهجرة حيث مدينة جدهم رسول الله صلى الله عليه وآله، وحيث مهبط الوحي ومقام النبوّة. وهكذا راح عليه السلام يصارع الموت، وأهل بيته من حوله، وهم يرون ما هو فيه، ويعيشون أشدّ حالات الألم. ولما أسلم عليه السلام الروح إلى بارئها، وشيّعوه، خرجت جارية من وراء جنازته وهي تصيح: الله يا يوم الاثنين ماذا فعلت بنا؟

وهكذا كان يوم وفاة الإمام عليه السلام في سامراء يوماً مشهوداً؛ حيث إنها قد ضجت وخرجت عن بكرة أبيها، وإن الناس فيها كما يقول المؤرخون قد خرجوا كلهم أجمعون، وهم يضجّون بالنحيب والبكاء، وهرعوا أفواجاً إلى تشييع جنازة الإمام عليه السلام.

وإذا كان في انتظار الإمام عليه السلام من يشيعه ومن يمشي وراء جنازته، فإن جدّه الحسين عليه السلام يوم العاشر من المحرم لم يكن هنالك من يقف خلفه أو يشيعه، فضلاً عمّن يدفنه، ولذا فقد وقفت الحوراء زينب تنظر حائرة إلى أخيها، وهي ترى الأنصار وقد حملهم أبناء عشيرتهم وعمومتهم، وابن رسول الله صلى الله عليه وآله مسجّى على الصعيد ليس له من أحد يحمله أو يدفنه، فدارت يميناً وشمالاً ثم صاحت: «أما لهذا المسجّى من عشيرة؟ أما فيكم من مسلم يواري هذا الغريب؟ أما فيكم من أحد يواري هذا السليب؟»:

تعالوا لابنكم غسلوه مهو اعزيزكم چا ليش عفتوه

فنادى عمر بن سعد مجيباً لها على استصراخها واستنهاضها: ياخيل الله اركبي، وبالجنّة أبشري، وحطّمي صدر الحسين. فتسابقت الخيول

لرضّ ذلك الصدر الذي حوى علم رسول الله صلى الله عليه وآله وإيمانه:

ولمّا قضى للعُلا حقّها — وبالسيف شيَّد بُنيانَها
ترجّلَ للموتِ عن سابقٍ — لهُ أخلَتِ الخيلُ مَيدانَها
تريبَ المُحيَّا تظنُّ السَّما — بأنّ على الأرضِ كيوانَها
غريباً أرى يا غريبَ الدِّيار — توسّد خديه كثبانَها[1]

* * *

أتراني أعير وجهيَ صوناً — وعلى وجهِهِ تجولُ الخيولُ

---

(١) ديوان السيد حيدر الحلي: ١٠٨.



الفصل الثالث عشر

الإمام العسكري عليه السلام



﴿٥٦﴾

الإمام العسكري عليه السلام

بحيث احتفال السنا الأزهر	وحيث أريج الثرى الأعفر
ومن حيث سامرة في التلاع	جلال ومنبع وحي الثري
تلفّع في أُفق أزرق	وتجلس في مقعد أخضر
هناك ضريح لهادي الأنام	وآخر للحسن العسكري
ضريحان عندهما للنبي	مكان المعاني من الأسطر
ولاغرو فالزهر نسل الخميل	وسنخ الثريا من المشتري[1]

المباحث العامة للموضوع

المبحث الأول: في ولادته عليه السلام وسيرته

إن اللقب الذي عرف به الإمام أبو محمد الحسن بن علي عليه السلام هو لقب العسكري، وهذا اللقب نسبة إلى المحلة التي كان يسكنها، وهي محلة عسكر في سامرّاء. في حين أن بعض المؤرخين يذهب إلى أن النسبة هي لمدينة سامراء عامة؛ لأنها حينما أُسست من أول مرّة أُسست كمعسكر للجنود الذين شايعوا المتوكل، والذين أفرد لهم هذه المدينة،كما سنرى.

---

(١) الأبيات للمحاضر، ولم نعثر عليها في ديوانه المطبوع، وهو ديوان غير حاوٍ لجميع شعره رحمه الله.

المدن العسكرية في العراق

وعلى منوال سامرّاء هنالك الكثير من المدن في العراق التي أُسست على أنها ثكنات عسكرية لسكن الجنود أو الجيوش، أو لتدريبها، حيث إنها تؤسّس على تلك الرؤية وعلى ذلك المنظار، ولم تكن أُسست على أنها مجتمعات سكن مدنية أبداً. ومن ذلك مدينة الكوفة التي أُسست أول أمرها كثكنة عسكرية، وليست دار سكنى يسكنها عامة الناس، لكنها بعد ذلك أخذت تتحوّل من كونها ثكنة عسكرية إلى مجتمع مدني.

إذن فعلى أنقاض الثكنة العسكرية نشأ عندنا مجتمع مدني يسكن في تلك المناطق التي بنيت أساساً على أنها ثكنات، وهذا هو الحال مع مدينة سامراء التي أُسست أصلاً على أنها مركز عسكري وليست مركزاً مدنياً بعد أن اختار المعتصم الانتقال إليها مع عسكره وإسكانهم هناك. وهذا أمر معروف بين المؤرّخين، والسبب في ذلك أن الأتراك في أيام المعتصم كانوا يخرجون بخيولهم ويجولون في شوارع بغداد دون أن يعيروا أي اهتمام للناس فيها، فإذا ما رأوا طفلاً صغيراً، أو شيخاً ضعيفاً كبيراً، أو امرأة ضعيفة، فإنهم لا يراعونهم ولا يرعوون عن أن يسحقوهم بحوافر خيولهم.

واستمرت هذه الحال على هذا المنوال، واستمر تمادي الأتراك بذلك حتى وصل الأمر عند الأهالي إلى حدّ لا يطاق، ولا يمكن لهم أن يسكتوا معه على ظلم الأتراك، فوقفوا ذات يوم للمعتصم وموكبه من الأتراك بعد أن خرج في شوارع بغداد، وقالوا له: ادفع عنا جيشك وإلّا حاربناك. أي أبعد عنا جنودك الأتراك الذين لا يرعون لمسلم ذمّة وإلّا

فإننا سنعلن الحرب عليك. فقال لهم المعتصم: وبأي شيء تحاربونني؟ فقالوا له: بدعاء السحر. فقال: هذا جيش لا أقوى على قتاله والوقوف بوجهه.

وعندها قرّر أن يخرج بجيوشه من بغداد، فكان أن قصد منطقة تسمى القاطول[1]، وبقي فيها يومين أو ثلاثة، فاستعذب هواءها، فقرّر أن يبني فيها معسكراً لجنده من الأتراك، فكان أن بنيت تلك المدينة وأسست.

إذن فالسبب في بناء المدينة وتأسيسها هو هذا الموقف الذي وقفه أهل بغداد من المعتصم وجنوده الأتراك. أما سبب تسميتها بالعسكر، فواضح؛ حيث إنها أنشأت على أنها ثكنة عسكرية تضم جنود المعتصم وعوائلهم. أما النسبة إلى هذه المدينة فهي العسكري.

وكما ذكرنا في بداية هذا المبحث فإن البعض يرى أن هذه النسبة ليست لمدينة سامرّاء كلها بل لمحلة بعينها فيها تسمى عسكر.

حديث «تلّ المخالي»

وفيما يتعلّق بهذه التسمية أيضاً ـ وربما بسبب هذا اللقب الشريف الذي اختص به الإمام عليه السلام ـ ما يرويه المؤرخون حول ما عرف بعد ذلك بحديث «تلّ المخالي»، وذلك أن الخليفة الواثق أمر العسكر ـ وهم تسعون ألف فارس من الأتراك الساكنين بـ«سرّ من رأى» ـ أن يملأ كل واحد منهم مخلاة فرسه من الطين الأحمر، وأن يجعلوا بعضه على بعض في وسط برية واسعة قريبة من منهم. ففعلوا ما أمرهم به، فلما صارت

(١) القاطول: اسم من القطل وهو القطع، وهو اسم نهر كأنه مقطوع من دجلة. وكان في موضع سامراء قبل أن تعمر. ويروى أن الرشيد هو أول من حفر هذا النهر.

كالتل العظيم ـ ولنا أن نتصوّر مدى حجمه وارتفاعه ـ صعد فوقه، ثم استدعى الإمام أبا الحسن عليه السلام واستصعده، ثم قال: استحضرتك لنظارة خيولي وعسكري. وقد كان أمرهم أن يحملوا الأسلحة، وقد عرضوا بأحسن زينة، وأتم عدة، وأعظم هيبة ـ أي أنه عمل ما يطلق عليه الآن استعراضاً عسكرياً، وكان كبيراً بحيث إنه شمل مختلف قطعات جيشه ـ وكان غرضه أن يكسر قلب كلّ من يخرج عليه، وكان خوفه من الإمام عليه السلام أن يأمر أحداً من أهل بيته أن يخرج على الخليفة. فقال له الإمام أبو الحسن عليه السلام: «وهل تريد أن أعرض عليك عسكري؟». قال: نعم. فدعا عليه السلام الله سبحانه، فإذا بين السماء والأرض من المشرق إلى المغرب ملائكة مدجّجون، فغشي على الخليفة، فلما أفاق قال الإمام أبو الحسن عليه السلام: «نحن لا ننافسكم في الدنيا، نحن مشتغلون بأمر الآخرة، فلا عليك شيء مما تظن»[1].

ويذهب البعض إلى أن هذه الحادثة مع المتوكّل، وقد ذكرنا أكثر من مرّة بأنه ووزيره الفتح بن خاقان حينما قتلهما المنتصر بن المتوكل قد تناثر لحمهما ودمهما في كؤوس الخمر؛ جزاء له على عتوّه في الأرض، ومع ذلك نجد هناك من يسمي المتوكل هذا بمحيي السنة ومميت البدعة[2].

وهكذا فإن الإمام عليه السلام أراد أن يري الواثق القوّة الحقيقية، والعسكر الحقيقي الذين هم جند الله سبحانه وتعالى، وليس هؤلاء الجند الذين

---

(١) الخرائج والجرائح ١: ٤١٤ ـ ٤١٥ / ١٩، مدينة معاجز الأئمة عليهم السلام ٧: ٤٨٤ / ٢٤٨٠.
(٢) قد خرّجنا ذلك أكثر من مرّة، وكان آخرها في محاضرة (سفير السماء الإمام الهادي عليه السلام)، ومن رام الاطّلاع فليراجع.

ألّفهم حوله. وهذا الذي أراده الإمام عليه السلام هو الذي حصل الآن، فنحن حينما نريد أن نرى الآن ما كان عليه الخلفاء العبّاسيون، كالمتوكل والجوسق والجعفري، والهاروني، وهي قصوره التي أسسها وأنفق عليها كما يقول المؤرخون أكثر من مئتي ألف ألف درهم - أي مئتي مليون درهم[1] - فلننظر إليها أين أضحت، وكيف صارت، وما الذي حلّ بها، لقد أضحت خراباً. أما ذلك الخان أو المكان المتواضع الذي أمر المتوكّل بأن يُنزل فيه الإمام العسكري عليه السلام ويُسكن - وهو المسمى بخان الصعاليك - فقد أصبح معلماً بارزاً من معالم الإسلام، وعلماً سامياً يهتدي به الضالّون وطالبو الحق. يقول أحد الأدباء مصوراً هذه الحالة:

أخان الصعاليك هل ضجت الـ ... ـتواريخ في سمعك الموقرِ

وهل مرّت العبر الحاشدات ... وما للمظاهر من مخبرِ

لتنبيك أن ديار الضلا ... ل من جوسق ثمّ أو جعفري

تهاوت ركاماً وظل الخلود ... ينام على رملك الأسمرِ

وتهتف أن بذور الطغاة ... طواها التراب ولم تثمرِ

وإن بذور التقى أنجبت ... خمائل رائعة المنظرِ

ويا أيها الدهر أين الطغاة ... وقرع السيوف على مغفرِ

وسكر المقاصير في لهوها ... وعزف القيان على مزهرِ

وبطش السياط وفتك السلاح ... وردح المدائح من مفتري

تلاشت فلا صخب للخيول ... ولا سجعات على منبرِ

وظلت محاريب آل الرسول ... وحبر لها في الدجى ينبري

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢: ٤٠.

بـــأجوانـــهن صـــدى ضـــارع ... وفـــي التـرب جـبهة مســتغفرِ

أجـــل تـــلك عـــاقبة المــتقين ... رواهـــا الخـــلود مـــدى الأعـصرِ

فـــيا لضـــريحين يـــجثو الرجاء ... بـــظل ســـماحيهما المـــمطرِ

ويـــا لســـميمين تـــبكيهما ... عـــيون الهـــدى بـــالدم الأحـــمرِ

غـــريبين عـــاشا وليـل الغريب ... دمـــوع تـــرقرق بـــالمحجرِ

ومـــاتا بـــعيدين يـــا للشـــجا ... عـــن الدار والأهـــل والمـــعشرِ

فـــيا لضـــرانـــح آل النـــبي ... بـــعدن عـــن الخـيف والمشـعرِ

تـــوزعن أشـــتات فـــي حـــاضر ... مـــن الأرض أو مـــهمه مـــقفرِ[1]

وهكذا أصبح خان الصعاليك مناراً يهتدي به الضالوّن وعلماً يقصده التائهون، وموضعاً من مواضع عبادة الله سبحانه وتعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2].

إذن في هذه المنطقة نفسها سكن الإمام الحسن العسكري عليه السلام ونُسب إليها، كما سكنها من قبل أبوه الإمام علي الهادي عليه السلام ونسب إليها كذلك؛ فسميا عليهما السلام بالعسكريين، كما أنهما عليهما السلام كان يعبّر عن كل واحد منهما بابن الرضا عليه السلام.

ولادته عليه السلام ووفاته

وعلى أي حال فالإمام الحسن العسكري عليه السلام قد وُلد عام (٢٣٢) هـ، وتوفي مسموماً عام (٢٦٠) هـ، أي أن مجموع عمره الشريف كله هو (٢٨) سنة؛ عاش منها (٢٢) سنة مع أبيه الإمام الهادي عليه السلام، ثم عاش بعد

---

(١) الأبيات للمحاضر رحمه الله، كما أشرنا في مستهلّ المحاضرة.

(٢) القصص: ٨٣.

أبيه عليه السلام ست سنوات مارس فيها دوره ووظيفته ومهامّ إمامته كخليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله، وكمرجع روحي من بعده للأُمّة الإسلاميّة وللمسلمين.

وقد ولد عليه السلام في سامرّاء على رواية، وفي المدينة المنورة على رواية أُخرى. ونحن لا يهمّنا هنا تحقيق مكان ولادته عليه السلام بقدر ما يهمنا بيان ما يمكن أن نستفيده من سيرته العطرة، ومن حياته الشريفة المليئة بالخير والعطاء، وبكل ما فيه مصلحة للأُمّة الإسلامية.

المبحث الثاني: محطّتان هامّتان في حياته عليه السلام

إذن فحياة الإمام عليه السلام الشريفة قد مرّت بمرحلتين هامّتين تستمدّان أهمّيتهما من تأثّر الإمام عليه السلام نفسه بغيره من المسلمين، أو من تأثيرهما أنفسهما فيه عليه السلام، وهما:

المحطّة الأولى: حياته في كنف أبيه عليه السلام

ولنرَ هنا تلك الفترة التي عاشها الإمام عليه السلام حيث عاصر فيها أباه الإمام علياً الهادي عليه السلام، وترعرع فيها إلى جانبه. إن تلك الفترة كانت من أشدّ الفترات على الأئمة عليهم السلام؛ لأن الحكم العباسي حينها كان سليب الإرادة، مغلول اليد، ليس له من الأمر شيء، أما المتصرّف الحقيقي في الأُمور، واليد التي تحرّك بيادق الشطرنج على رقعة الخريطة السياسية والاقتصادية والعسكرية وغيرها للدولة الإسلامية، فهم الأتراك الذين تبوءوا أعلى المناصب وأهمها، والذين حكموا البلاد حكماً حقيقياً، فسيطروا على مقدّراتها وعلى السلطات التنفيذية والقضائية وغيرها كلها فيها دون أن يتركوا للعباسيين شيئاً سوى الاسم.

إذن فالعباسيون لم يكونوا ليحكموا بإرادتهم، بل إنهم كانوا واجهة فقط

للأتراك الذين سيطروا سيطرة فعلية على الحكم، فكان الخليفة العباسي ينفّذ ما يمليه عليه الأتراك، ويطبّق لهم سياساتهم التي يرسمونها بما أنه الواجهة التي وضعوها ليمرّروا من خلالها كلّ سياساتهم ومخطّطاتهم ورغباتهم وأوامرهم.

وهكذا فالأتراك كانوا هم الذين يديرون الدولة في واقع الأمر، وكان بأيديهم الأمر والنهي والحل والعقد. وهذا ما قرّره لنا أبو فراس الحمداني ﷺ وهو يخاطب العباسيّين، ويقول مصوراً هذه الحال، وموضحاً ذلك الأمر إبان فترة تحلّل الدولة العباسية:

الدين مخترم والحقّ مهتضم ... وفيء آل رسول الله مقتسمُ

حتى يقول:

أبلغ لديك بني العباس مالكة ... لا يدّعوا ملكها ملّاكها العجمُ
أي المفاخر أمست في منازلكم ... وغيركم آمر فيها ومحتكمُ؟
أنّى يزيدكُمُ في مفخر علم؟ ... وفي الخلاف عليكم يخفق العلمُ
يا باعة الخمر كفّوا عن مفاخركم ... لمعشر بيعهم يوم الهياج دمُ
خلّوا الفخار لعلّامين إن سئلوا ... يوم السؤال وعمالين إن علموا
لا يغضبون لغير الله إن غضبوا ... ولا يُضيعون حكم الله إن حكموا
تنشا التلاوة في أبياتهم سحراً ... وفي بيوتكُمُ الأوتار والنغمُ
منكم علية أم منهم وكان لكم ... شيخ المغنين إبراهيم أم لهم؟[1]

وفعلاً فإن الأتراك هم الذين كانوا يحكمون بشكل حقيقي وفعلي، وهم

---

(١) الغدير ٣: ٤٠١ ـ ٤٠٢.

الذين يتصرّفون في الأموال، أي أنهم قد سلبوا الحكم من العباسيين، وجعلوا من خلفائهم مجرّد علامات على رقعة هذه الدولة، بحيث إنهم يقومون بتحريك تلك العلامات وتغييرها متى شاؤوا[١].

مفارقة في حياة الخلفاء العباسيين

لكن المفارقة المثيرة للعجب أن الخلفاء العباسيين بدلاً من أن يصبّوا غضبهم على الأتراك أنفسهم؛ لأنهم هم الذين سلبوهم حكمهم وسلطانهم ودولتهم، ومنعوهم من الأموال التي كانوا يرتعون ويسرحون فيها، ويبعثرونها كيف شاؤوا ومتى شاؤوا دون وازع من ضمير، ودون خوف من الله تبارك وتعالى، ودون رعاية لجنبة حقّ أكل أموال الناس وكونه بحقّ أو بباطل، فإننا نجدهم يميلون على أهل البيت العلوي الطاهر عليهم السلام؛ ويصبّون عليهم غضبهم، ويضغطون عليهم بشكل لا يمكن أن يطاق.

فهل إن هؤلاء الخلفاء تناسوا كل شيء تقدّم به الأتراك تجاههم، وتوجهوا بكل ما عندهم من سلطان متبقٍّ لديهم إلى تعذيب آل بيت علي عليهم السلام؛ وإلى تهجيرهم وسجنهم وتقتيلهم، وكأنه ليس هنالك من خطر عليهم إلّا من آل علي عليهم السلام، بل كأنهم الخطر الوحيد الذي ليس وراءه خطر آخر يتهدّد دولتهم ووجودهم وسلطانهم المنقوص.

وبما أن الإمام الهادي عليه السلام كان موجوداً في هذه الفترة التي نحن بصدد الحديث عنها ـ وهي فترة حياة الإمام العسكري عليه السلام في كنف أبيه عليه السلام ـ وبما أن الإمام علياً الهادي عليه السلام يمثّل واجهة الأسرة العلوية المشرّفة، بل هو

---

(١) كما أشرنا إلى ذلك في محاضرة (سفير السماء، الإمام الهادي عليه السلام).

الشخص الأبرز والمبرّز فيها، فإن من الطبيعي عند أهل الباطل أن يتوجّه غضب السلطات إليه. والتاريخ يحدثنا عن أن الإمام الهادي عليه السلام كان منزله بين آونة وأخرى يتعرّض إلى المداهمة من قبل سلطات الدولة العباسية بدعوى أنه يجمع الأموال والسلاح للقيام بثورة ضدّ نظام الحكم القائم.

إذن فمنزل الإمام عليه السلام لم تكن تراعى له حرمة أبداً، فما بين آونة وأخرى تأتي قوات الأمن لتكبس منزله عليه السلام متّهمة إياه بأنه يجمع الأسلحة كما ذكرنا، ثم يعرضون كتباً ملفّقة ومزوّرة على الإمام عليه السلام متّهمين إياه فيها بأنه قد راسل بها شيعته طالباً منهم نصرته في الثورة على العباسيين. ومن البديهي أن ينكر الإمام عليه السلام ذلك، لأنه لم يكن قد فعله، فيحاول أن يبين لهم بأن هذه الكتب ليست بخطه، ولا هي من كتابته دون جدوى. ونحن نعلم بأنه عليه السلام لم يكن ممّن يتنصّل عن مسؤوليته التي إن كان قد ولجها وحملها على عاتقه فعليه المضي فيها؛ لأنه عليه السلام لا يتنصّل عن مسؤولية يتقمصها أبداً. فبما أنه أنكر هذا فهي ليست من كتابته إذن.

ثم يروح الإمام عليه السلام يبين لهم بأنه ليس من خلقه ولا من واقعه أن يفعل شيئاً ثم ينكره؛ لأنه عليه السلام لا يكذب أبداً (تقدّس وتنزه عن ذلك) ولا يمكن أن يتنصّل عن مسؤولية يتلبّسها كذلك أبداً.

وعلى أية حال فالإمام عليه السلام قد عاش هذا الجوّ الإرهابي المتعمّد والمفتعل من بداية عهد المتوكل وانتهاء بعصر المهتدي بن المعتصم حيث توفي الإمام الهادي عليه السلام في عهده سنة (٢٥٤) هـ.

المحطة الثانية: حياته بعد تبوئه أعباء الإمامة

وبعد أن توفي الإمام الهادي عليه السلام انتقلت أعباء الامامة إليه عليه السلام، فتقلد قيادة

الأمة الإسلاميّة روحياً، وأصبح هو المرجع العلمي والروحي لأمّة جده صلى الله عليه وآله. وفي هذه الفترة التي بقيت من عمره الشريف، والتي تبلغ ست سنوات كما ذكرنا تحمّل ما تحمّل، وتكبد ما تكبد من عناء من الدولة العباسية ومن أسياد خلفائها، أي الأتراك الذين عملوا جهد إمكانهم على إلحاق الأذى والضرر بالإمام عليه السلام بأي صورة كانت، وبأي شكل كان ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

وعليه فإنه عليه السلام منذ أوّل لحظة فتح فيها عينيه، وصافحهما فيها نور الحياة، بادر إلى أن يمشي على خط آبائه عليهم السلام وجدّه رسول الله صلى الله عليه وآله، ويسير على خطاهم حتى في حياة أبيه الإمام الهادي عليه السلام، لكن كلّ ما في الأمر أن الإمام المعصوم مع وجود الإمام السابق له وفي حياته فإن إمامته تكون محجوبة حتى ينتقل سلفه إلى الرفيق الأعلى، حيث تنتقل إليه أعباء الإمامة حينئذٍ كاملة، ويُرفع الحجْب عنها، فيمارس دوره ومهامه ووظيفته الدينية وفق المنهج الذي رسمته السماء لهذه الإمامة التي أرادت لها أن تكون امتداداً لخطّ النبوة، ومكمّلاً لها ولمسيرتها على يديه الشريفتين، كما على أيدي آبائه عليهم السلام.

إذن فالإمام عليه السلام في حال حياة سلفه عليه السلام تكون إمامته محجوبة عن الوظيفة الكاملة التي يمكن أن يقوم بها الإمام عليه السلام فيما لو كان متلبّساً بأعبائها كاملة، غير أنه يقوم ببعض الأعمال الثانوية التي تصبّ في خدمة المجتمع، وفي هدايته، وفي إرشاده؛ وذلك كأن يقوم عليه السلام بالإجابة على بعض الاستفتاءات، أو إرشاد الناس ووعظهم، وما إلى ذلك من أمور تستتبعها. لكن بعد أن تنتقل إليه الإمامة كاملة، فإنه يتسنّم دفّتها، ويديرها بأعبائها تامّة؛ إذ إنها تقع عليه دون شكّ ولا ريب، فيؤدي تلك الوظيفة

كاملة غير منقوصة بما تستلزمه من مقومات ووظائف، وتصدٍّ لأمور الأمّة وهمومها.

المبحث الثالث: النصّ على الإمام عليه السلام

ومسألة انتقال الإمامة للإمام اللّاحق عن الإمام السابق عليه السلام بعد انتقال الإمام السابق إلى الرفيق الأعلى تكون عادة بنصّ الإمام السابق على خلفه، وهذا النص يكون على صور، نذكر منها:

الصورة الأولى: النص الصريح على إمامة الإمام التالي

ومثال هذه الحالة أن يأتي جماعة إلى الإمام عليه السلام مثلاً، فيسألونه عن خليفته أو الإمام الذي يكون من بعده، فيجيبهم الإمام عليه السلام بأن ينص على خلفه، فيقول لهم مثلاً بأن الإمامة من بعدي لابني فلان. وهذا ما حصل مع الإمام الهادي عليه السلام حينما حضرته الوفاة؛ حيث دخل عليه جماعة من أصحابه فيهم علي بن مهزيار فقال له عليه السلام: إن كان كون ـ وأعوذ بالله ـ فإلى من؟ فقال عليه السلام: «عهدي إلى الأكبر من ولدي». يعني الحسن عليه السلام[(١)].

وعن علي بن عمرو العطار قال: دخلت على أبي الحسن عليه السلام، وابنه أبو جعفر موجود، وأنا أظن أنه هو الخلف من بعده، فقلت له: جعلت فداك، من أخُصّ من ولدك؟ فقال عليه السلام: «لا تخصّوا أحداً حتى يخرج إليكم أمري». قال: فكتبت إليه بعدُ: فيمن يكون هذا الأمر؟ فكتب عليه السلام إليّ: «في الأكبر من ولدي». قال: وكان أبو محمد عليه السلام أكبر من جعفر[(٢)].

---

(١) الإرشاد ٢: ٣١٦، كشف الغمّة ٣: ٢٠٠.

(٢) الإرشاد ٢: ٣١٦، كشف الغمة ٣: ٢٠٠. وفي بعض الروايات النصّ على الإمام عليه السلام باسمه من أبيه عليه السلام، كما في رواية النوفلي قال: كنت مع أبي الحسن عليه السلام في صحن داره، فمرّ بنا محمد ابنه، فقلت: جعلت فداك، هذا صاحبنا بعدك؟ فقال عليه السلام: «لا، صاحبكم بعدي

وهذا المعنى لم يكن ليغفل عنه الخلفاء العباسيون وأسيادهم الأتراك، ولذا فإنهم كانوا يراقبون تصريحات الإمام عليه السلام هذه التي كان بعضها سرّاً خشية منه على الإمام الخليفة من بطشهم، كما يفهم من بعض الروايات.

إذن فالعباسيون والأتراك كانوا يراقبون الإمام عليه السلام لمعرفة من الذي ينصّ عليه من بعده، ويعهد له بالأمر وبالإمامة وبقيادة الأُمة، فـفتّحوا عيونهم، واتّسعت آذانهم، واشرأبّت أعناقهم لمعرفته؛ حتى يقفوا منه ذلك الموقف العدائي الذي يقفونه عادة من الأئمة عليهم السلام كافّة، وحتى يعرفوا من يطلق عليه لقب الإمامة. يروي المؤرخون بأن المعتز بعد أن عرف بأن الإمام عليه السلام قد استخلف من بعده الإمام العسكري، أرسل خلف سعيد الحاجب، وأمره بأن يأخذ الإمام العسكري عليه السلام إلى قصر ابن هبيرة، وأن يفتعل له حادثة في الطريق حتى يقتله، فإن فعل فليرجع إليه؛ حتى يخبره الخبر دون أن يشعر الناس بحقيقة هذه المؤامرة.

لكن بعض الخُلّص من أصحاب الإمام عليه السلام ممن يشتغلون مع السلطة قرؤوا ملامح التآمر الذي أمر به المعتز واضحة في حركاته، فأُرسلوا إلى الإمام عليه السلام يحذّرونه من ذلك، ويخبرونه بأن القوم يأتمرون به، فلما وصل إليه عليه السلام كتابهم كتب لهم: «إني نازلت الله في هذا الطاغي، وهو آخذه بعد ثلاث».

وهذا ما حصل فعلاً؛ ذلك أنه لمّا كان اليوم الثالث خُلع من الخلافة، وكان من أمره ما كان حيث قتل بعد أن هجم عليه الأتراك[1].

الحسن». الإرشاد ٢: ٣١٥، كشف الغمة ٣: ١٩٩ ـ ٢٠٠. وعلى أيّة حال من رام الاطّلاع على النصّ عليه عليه السلام فلينظر: الإرشاد ٢: ٣١٤ ـ ٣٢٠، كشف الغمة ٣: ١٩٩ ـ ٢٠٢.

(١) لم نعثر عليه عن المعتزّ إلّا بلفظ: لما أمر المعتزّ بدفعه عليه السلام إلى سعيد الحاجب عند مضيه

وهذه أول بادرة من بوادر السلطة العباسية وأسيادها من الأتراك تجاه الإمام عليه السلام، حيث إنهم أرادوا قتل والده لا لسبب إلّا لأنه أوصى إليه بالأمر من بعده، وأناط به أمر القيام بأعباء الإمامة.

الصورة الثانية: التنبيه إلى فضل الإمام اللّاحق

ومن صور بيان إمامة الإمام اللّاحق، وانتقال الخلافة إليه من الإمام السابق إحالة الإمام المنصّب فعلياً بعض من يسأله عن كثير من المسائل الشرعية، أو غيرها إلى خليفته في الإمامة؛ ليظهر للناس فضله، وليشيع بينهم مكانته، وليبين لهم أنه الخليفة من بعده[1].

إلى الكوفة، وأن يحدث فيه ما ما يحدّث به الناس بقصر ابن هبيرة، كتب إليه أحد أصحابه: جعلني الله فداك بلغنا خبر قد أقلقنا وأبلغ منا. فكتب عليه السلام إليه: «بعد ثلاث يأتيكم الفرج». فخلع المعتز اليوم الثالث. الغيبة (الطوسي): ٢٠٨ / ١٧٧، مناقب آل أبي طالب ٣: ٥٣١. وهي مع الإمام أبي محمد العسكري وليست مع الإمام الهادي عليه السلام، أما ما هو وارد في هذا الخصوص مع الإمام الهادي عليه السلام، مع المتوكل ـ وليس مع المعتز ـ فهو ما رواه أبو سليمان بن أورمة قال: خرجت أيام المتوكّل إلى «سرّ من رأى»، فدخلت على سعيد الحاجب وقد دفع المتوكّل أبا الحسن عليه السلام إليه ليقتله... فدخلت عليه عليه السلام، وإذ هو بحياله قبر محفور، فسلمت وبكيت بكاء شديداً، فقال عليه السلام: «ما يبكيك؟». قلت: لما أرى. قال: «لا تبكِ لذلك، لا يتم لهم ذلك». فلمّا سكن ما كان بي، قال: «إنه لا يلبث أكثر من يومين حتى يسفك الله دمه ودم صاحبه الذي رأيته». قال: فوالله، ما مضى غير يومين حتى قتل. جمال الأسبوع: ٣٦، كشف الغمّة ٣: ١٨٨.

في حين أن هنالك روايات بين الإمام العسكري عليه السلام والمستعين في خصوص قوله عليه السلام: «إني نازلت الله في هذا الطاغي»، حيث جاء فيها: عن علي بن محمد بن زياد الصيمري قال: دخلت على أبي أحمد عبد الله بن طاهر وفي يديه رقعة أبي محمد عليه السلام، وفيها: «إني نازلت الله في هذا الطاغي - يعني المستعين - وهو آخذه بعد ثلاث». فلما كان اليوم الثالث خلع وكان من أمره ما كان، إلى أن قتل. مناقب آل أبي طالب ٣: ٥٣٠، مدينة معاجز الأئمة عليهم السلام ٧: ٥٧٧ ـ ٥٧٨ / ٢٥٧٠، وانظر: كشف الغمّة ٣: ٢١٣، ٢٢٧.

(١) كما حصل مع الإمام علي عليه السلام والإمام الحسن حينما أحال عليه بعضاً من السائلين الذي

المبحث الرابع: نشاط الإمام العسكري عليه السلام

وخلال هذه الفترة كان الإمام عليه السلام قد وزّع نفسه الشريفة للقيام بالكثير من الأعمال التي تهمّه، والتي تهم الأُمّة الإسلامية كلها. ويمكن أن يشار إلى هذه الأعمال بما يلي:

النشاط الأول: الانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى

لقد كان على رأس مهام الإمام عليه السلام، ومن أولويات اهتماماته الشريفة سيره على وفق سيرة سلفه الصالح عليهم السلام، ومن تلك السيرة العطرة الانقطاع الكامل والصادق إلى الله سبحانه وتعالى وعبادته ليلَ نهارَ، وقراءة القرآن وما إلى ذلك. وهكذا فإن عبادة الإمام عليه السلام كانت عبادة منقطعة النظير، لم تشابهها عبادة إلّا عبادة أسلافه (صلوات الله وسلامه على جدهم وعليهم). وتقواه كذلك؛ فقد كانت بعيدة الشأو منقطعة النظير. وبهذا فإن الإمام عليه السلام يكون قد ضرب لنا في العبادة والتقى والورع المثل الأسمى.

النشاط الثاني: رعاية أتباعه

وذلك عبر صلتهم شيعتهم خاصّة، والضعفاء من الناس عامّة، وقضاء حوائجهم، وردّ المظالم عنهم. فأعماله عليه السلام كانت كلها مرتبطة بما يصب في صالح الانسانية وفي خيرها. دخل جماعة على صالح بن وصيف بعد أن أُوكل اليه أمر سجن الإمام عليه السلام ثم بعد ذلك قتله، فقالوا له: إننا إنما أمرناك بأن تسجنه ثم تقتله، فلماذا لم تقتله حتى الساعة؟ وهؤلاء طبعاً يتكلّمون بلسان السلطة؛ لأنهم من أهل السلطة، فهم من العباسيين. فأجابهم بقوله: وما أصنع، قد وكّلت به رجلين من أشرّ من قدرت عليه، لكنهما صارا من

أرادوا معرفة بعض الأحكام الشرعية، وكما حصل مع غيره من أئمة أهل البيت عليهم السلام.

العبادة والصلاة والصيام إلى أمر عظيم؟ فأرسلوا خلفهما وسألوهما عنه ﷺ، وعن سبب تأخيرهما تنفيذ أمر قتله ﷺ غيلة، وعن سبب ما صارا إليه، فقالا لهم: وماذا نقول في رجل يصوم النهار، ويقوم الليل كلّه، لا يتكلّم ولا يتشاغل، وإذا نظرنا إليه ترتعد فرائصنا، ويداخلنا في أنفسنا ما لا نملكه منها. فلما سمعوا ذلك انصرفوا خائبين(١).

وهكذا فإننا نستكشف من هذه الرواية بأنه ﷺ كان قائماً ليله كلّه، صائماً نهاره، لهجاً لسانه بذكر الله، مشغولاً بالعبادة دون أن يشغل نفسه الشريفة بشيء غيرها أبداً. فكان أن وضع الله تبارك وتعالى له تلك الهيبة في نفسي ذينك الرجلين اللذين أوكلا به.

وهذه هي سيرته العطرة ﷺ على امتداد حياته الشريفة؛ سواء كانت خارج السجن أو داخله، فهو ﷺ لم يكن ليفارق الصلاة والصيام والعبادة، ولم يكن لسانه لينقطع عن ذكر الله تبارك وتعالى، أو لأن يترك الدعاء له والتسبيح، أو أنه لا يلهج بذكره.

النشاط الثالث: جمع المسائل الفقهية

وذلك عن طريق جمع مسائله التي خرجت عنه في كتاب (المقنعة) الذي وصل إلينا، والذي ينسب إليه.

النشاط الرابع: تفسير القرآن العظيم

ثم إنه ﷺ كان كلما سنحت له فرصة تصدّى بها لجواب من يطلب منه تفسير آية كريمة من كتاب الله تبارك وتعالى، أو شرح معناها، أو بيان غامضها. وهكذا استمرّ ﷺ حتى خرج إلينا ذلك الكتاب الذي هو تفسير

---

(١) الكافي ١: ٥١٢ / ٢٣، روضة الواعظين: ٢٤٨، الإرشاد ٢: ٣٣٤.

للقرآن الكريم، وهو المنسوب اليه.

علم الأئمة عليهم السلام علم الهامي

وهنا مسألة أود أن أشير إليها، وهي أن الكثير الكثير من الناس ممن لا يعتقدون بما نعتقده نحن بالأئمة عليهم السلام يسألون عن مصدر علم الأئمة عليهم السلام، وكيف هم على هذه المنزلة من العلم دون أن يختلفوا إلى مدرّس أو معلّم، ودون أن يقصدوا مدرسة يأخذون من أساتذتها وأساطينها علومهم. ومن هذا ما يروى من أن البعض سألوا علياً بن جعفر عليه السلام ـ وهو ابن الإمام الصادق عليه السلام ـ فقالوا له: إن ابن أخيك الرضا عليه السلام لم يختلف إلى مدرّس، ولم يجلس في مدرسة، فمن أين له هذا العلم كلّه؟

فيا لله! كأن هؤلاء لم يعرفوا أن الإمام عليه السلام إنما يُلهم العلم إلهاماً، ويُلقى إليه في قلبه، أو يوحى إليه في منامه، وما إلى ذلك. وهذه المسألة بقيت تتكرّر على امتداد فترة الإمامة الشريفة؛ لأن عامّة الناس لا يرون في الأئمة عليهم السلام ما نراه فيهم، ثم إنهم حينما يختبرونهم عليهم السلام على علماء المسلمين فإنهم يجدونهم أعلم من علمائهم أولئك، بل إن أولئك العلماء لا يقدرون على أن يباروهم في مضمار العلوم كافّة؛ سواء في التفسير، أو في الكلام، أو في الفقه، أو في الحديث، وما إلى ذلك من علوم. ولهذا فإن هذا الأمر قد وصل إلى الإمام العسكري عليه السلام حيث إنه على صغر سنه نجده يتصدّى للإفتاء والتفسير وغير ذلك؛ ممّا أثار عجب الناس حول مصدر علمه عليه السلام.

ونحن نعتقد اعتقاداً كاملاً وجازماً بأن علمه عليه السلام إنما هو إلهام من الله سبحانه وتعالى، أما المسلمون فنظرتهم إليه ليست كنظرتنا نحن كما أشرنا، وبالتالي فإنهم ينظرون اليه كأي عالم من علماء المسلمين لابدّ أن

يختلف إلى مدرّس أو إلى معلّم، ولابدّ أن يقصد مدرسة ليتعلم فيها. أما أن يخرج إلينا عليه السلام بهذه الأفكار، أو الآراء أو النظريات العلمية المتينة على أصعدة العلوم كافّة، فإن هذا مما يثير العجب عندهم كما هو الحال، مثلاً حينما سأله محمد بن صالح الأرمني يوماً عن قوله تعالى: ﴿لله الأمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾[1]، حيث أجابه بقوله عليه السلام: «له الأمر من قبل أن يأمر به، وله الأمر من بعد أن يأمر به بما يشاء». يقول: فقلت في نفسي: هذا قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[2]، فأقبل علي وقال: «هو كما أسررت في نفسك ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾...». فقلت: أشهد أنك حجة الله وابن حججه على عباده[3].

أي أن الإمام عليه السلام يقول للسائل بأن الأمر لله من قبل خلق مخلوقاته؛ لأنه هو الذي خلقها وليست هي من خلق نفسها، فهو تعالى يقول للشيء كن، فيكون أي أنه أمر بإيجادها، وأما من بعد ذلك فهو أمر بإدامتها؛ لأنها لا يمكن أن تستمرّ ما لم يكن هنالك إدامة. فالله تبارك وتعالى حينما خلق الخلق أو الكون لم يخلقه ثم أهمله، بل إنه جلّ وعلا إن صرف عنه عنايته ولو لحظة قصيرة لا تقاس فإن الكون كلّه سوف يتلاشى ويضمحل وينتهي.

إذن لبقاء العالم كما هو لابد أن يكون هنالك علة استدامة تبقى معه حتى يبقى على حاله دون أن يتلاشى ويفنى. وهكذا فإن لله الأمر ﴿مِن بَعْدُ﴾، أي من بعد أن خلق الله تبارك وتعالى الخلق، ومنحه قابلية الإدامة. وهذه هي العناية الربانية التي تحفظ للأشياء وجودها، وإلّا فإن

---

(١) الروم: ٤. (٢) الأعراف: ٥٤.

(٣) الخرائج والجرائح ٢: ٦٨٦ ـ ٦٨٧ / ٨، الدر النظيم: ٧٤٤ ـ ٧٤٥.

الأشياء لا يمكن أن تبقى ما لم تكن هذه العناية، وما لم توجد.

والخلاصة أن الأمر ﴿مِن قَبْلُ﴾ هو بالإيجاد، أمّا الأمر ﴿مِن بَعْدُ﴾، فهو بالإدامة.

وهذا الجواب لا يُلمس منه إلّا أن يكون المجيب عالماً مقتدراً متمكناً ممسكاً بأعنّة العلوم، وهو جواب يعجز عنه الإنسان ما لم يكن يتّصف بهذه الصفات، وهذا يعني أن لنا أن نستشفّ منه أنه عليه السلام إمام معصوم، وأن علمه إلهامي من الله سبحانه وتعالى، وليس علماً تحصيلياً.

النشاط الخامس: تصدّيه عليه السلام للأفكار المخالفة للعقائد الحقّة

وكان عليه السلام يتصدّى للأفكار الوافدة والفاسدة، وللشبَه التي تعترض الناس؛ علماءهم وجهّالهم، فيحلّها دفاعاً عن كتاب الله تبارك وتعالى، وانتصاراً لدينه الكريم. وهو بهذا يكون قد واصل مسيرة آبائه عليهم السلام، وسار على ذلك الدرب الذي ساروا عليه من أجل الدفاع عن الإسلام وعن عقيدته، ومن أجل الانتصار لكتاب الله تبارك وتعالى.

بين الإمام العسكري عليه السلام والكندي

ومما يروى في هذا المجال أن أبا إسحاق الكندي الفيلسوف المشهور، والذي يعتبره المسلمون مفخرة لهم عرضت له جملة شبه في القرآن الكريم؛ حيث إن قصور فهمه عن مغزى هذا الكتاب الكريم أدّى به إلى أن يظن أن في القرآن تناقضاً بين بعض آياته.

دعوى التناقض في القرآن الكريم

ومعلوم أن من لا يمتلك أدوات الفهم الكافي، والعلم الذي يمكنه من فهم معاني الكلام البليغ، فإنه سوف يقع في مثل هذا الإشكال.

أولاً: آيات الجبر والاختيار

ومن هذا قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[1]، وقوله تعالى في آية ثانية: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[2]، وفي آية ثالثة: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾[3]. وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾[4]، فكيف يتّفق هذا مع قوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾؟ فإن في هذه الآيات الكريمة الأربعة ما يشعر بالجبر تارة وبالاختيار تارة أُخرى، وهو ما يبين منه التناقض.

والجواب: أن أي عمل من الأعمال التي يقوم بها الإنسان ينطوي على جنبتين:

الجنبة الأولى: الجنبة المتعلقة بالله تبارك وتعالى.

الجنبة الثانية: الجنبة المتعلّقة بالإنسان.

فالإنسان حينما يخرج من بيته قاصداً السوق بداعي أن يشتري ما يحتاج إليه من طعام أو غيره فهو إنما يخرج بإرادته؛ سواء كان ما يريد أن يشتريه أمراً محلّلاً فلا يأثم، ولا يُحاسب عليه ولا يؤاخذ، أو أنه كان محرماً فيكتسب به الآثام. لكن هذا الإنسان إذا لم يكن الله تبارك وتعالى قد أعطاه القابلية على المشي، ولم يكن قد منحه القوة والقدرة عليه، ولم يزوّده بالقابلية على التفكير وتمييز ما يحتاج إليه من غيره، فهل يستطيع أن يقصد السوق أولاً؟ وهل يمكن له أن يشتري ما يحتاجه دون أن يشتري ما لا يحتاجه ثانياً؟

إذن فهذه العملية ـ وهي الذهاب إلى السوق لشراء الاحتياجات التي

---

(١) الكهف: ٢٩.
(٢) الإنسان: ٣.
(٣) الأنفال: ١٧.
(٤) الإنسان: ٣٠.

تختصّ بالانسان ـ قد توفّر فيها أمران حتى تحقّقت وحصلت، وهما:

الأول: القوة التي منحها الله سبحانه وتعالى للإنسان؛ سواء كانت القوة على المشي، أو القوة على التمييز، أي لتمييز ما يحتاجه مما لا يحتاجه.

الثاني: اختيار الإنسان الخروج إلى السوق؛ لشراء تلك الأشياء والاحتياجات بعد أن منحه الله القدرة عليها.

إذن فالانسان وإن كان مخيّراً، لكنه ليس مستقلاً بفعله تماماً وإلّا فإن علّة الإدامة التي تكلمنا عنها قبل قليل تكون قد انتفت؛ وبهذا يتمّ انتفاء ارتباط المخلوق بخالقه تبارك وتعالى، الأمر الذي يعني اضمحلاله وتلاشيه.

ولا معنى لهذا إلّا أن المخلوق حتى تستمرّ حياته لابدّ أن يبقى على ارتباط دائم بالله سبحانه وتعالى عبر ما يوفّره له وما يعطيه إياه من قدرات وقابليات على الحركة والمشي والتفكير والعمل.

وهكذا نصل إلى نتيجة هي أن مشيئة اللّه تعالى لها طرف بالفعل، ومشيئة الإنسان كذلك، فالمشيئة الإلهية تعني أن اللّه يخلق عند العبد الاستعداد لفعل الإشاءة ومؤهّلات الإرادة، ومشيئة العبد تدور حول تمكّن العبد من أن يستعمل هذه المؤهّلات التي لولا خلْق اللّه إياها عند العبد لما استطاع أن يفعل شيئاً، وكذلك لولا إشاءة العبد لما فعل اللّه تعالى شيئاً؛ لأن معنى ذلك أنه إجبار للعبد عليه ودفع له لفعله. فالقيام بهذه الأعمال باختيار الإنسان، لكن بتيسير من الله سبحانه وتعالى له، وبإعطائه القوّة المناسبة؛ سواء كانت هذه الأعمال التي يقوم بها الانسان أعمالاً محلّلة أو محرّمة.

إذن فالله تبارك وتعالى قد منح الإنسان الطاقة والقابلية على فعل

الأشياء، وعرّفه الداعي إلى ذلك، ثم ترك للإنسان حرية اختيار ما يريده. والدليل على هذا أن أحدنا يخرج من بيته مثلاً قاصداً مكاناً معيناً، ثم بعد ذلك يبدو له أن يغير رأيه فيذهب إلى مكان غيره، ثم ربما يعرض له أمر لا يعلم كنهه ولا يعرف حقيقته، فيدفعه إلى أن يغير مساره إلى مسارٍ ثانٍ، وهكذا ربما تتعدّد المسارات بتعدّد تغير القصود دون أن يعي الإنسان تلك الحقيقة، أو دون أن يعرف منشأها وسببها.

وبهذا التقريب نعرف أنه ليس هنالك من تناقض بين هاتين الآيتين، وبالتالي فإنه يمكن الجمع بينهما ويرتفع التناقض.

ثانياً: آيات العدل بين الزوجات

وكذلك ممّا يضرب مثلاً في هذا المضمار مما يظن البعض أنه تناقض في آيات القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾[1]، وقوله تعالى في مكان آخر: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾[2].

والجواب: أن هذا ليس من التناقض في شيء أبداً؛ لأن متعلق العدل مختلف، فالقرآن الكريم إنما يقول: إن استطعت أن تعدل بالنفقة بحيث تكون عندك قدرة مالية وجسدية فتزوّج من النساء مثنى وثلاث ورباع، أما إذا لم تستطع أن تعدل بحيث يكون في التعدّد جور وظلم فلا.

أمّا المراد من العدل في الآية الأخرى فهو العدل في المودّة؛ إذ لا يستطيع الإنسان أن يعدل في المودّة مهما حاول، فلا بدّ أن تكون

---

(١) النساء: ١٢٩.

(٢) النساء: ٣، مع أن تمام الآية ـ وهو قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ ـ تؤكد الآية السابقة.

لإحداهن ميزة تختلف عن الأُخرى. بل حتى لو لم يكن ذلك فإن الميل النفسي يجعل الإنسان يميل من جانب إلى آخر.

وهكذا فإننا نعرف من خلال هذا التقريب بأنه ليس ذلك من التناقض في شيء؛ لأن العدل في المودة غير العدل في النفقة؛ ذلك أن النفقة مما يمكن العدل فيه؛ لأنها مما يكون داخلاً ضمن دائرة اختيار الإنسان، أما المودة فهي خارج هذه الدائرة؛ ولذا فإنها لا يمكن أن يتحقق فيها العدل.

إذن فباختلاف المتعلّق ينتفي التناقض ويرتفع.

رجع

وعلى أية حال فالكندي كان يظن بأن هذه الآيات وأمثالها تحتوي تناقضاً فيما بينها، وتنطوي على تضارب بين مفاهيمها، مع أنه دقيق الفكر وفيلسوف كما عبرنا، لكنه لعدم تمكّنه من أعنّة البلاغة، ولإفلاسه في تقلّد مفاتيح علوم القرآن الكريم وقع في روعه ذلك، وفكّر في أن يشتغل بجمع كتاب أطلق عليه اسم (متناقضات القرآن)، فانفرد في منزله من أجل ذلك.

وفي أحد الأيام دخل بعض تلامذته على الإمام الحسن العسكري عليه السلام، فقال له الإمام عليه السلام: «أما فيكم رجل رشيد يردع أُستاذكم الكندي عما أخذ فيه من تشاغله بالقرآن؟». فقال التلميذ: نحن من تلامذته، فكيف يجوز منا الاعتراض عليه في هذا أو في غيره؟ أي أنه يريد أن يقول للإمام عليه السلام: إنني تلميذ قاصر أمامه لا أملك الاستعداد العلمي الكافي على مواجهته ومناظرته، فضلاً عن كون هذا أمراً يخالف آداب التعلّم؛ حيث إن التلميذ ينبغي ألّا يردّ على أستاذه، فأنا من الناحية الأدبية كذلك لا أقدر على معارضته ومناقشته.

فقال له الإمام عليه السلام: «أتؤدّي إليه ما أُلقيه إليك؟». قال: نعم. فقال عليه السلام: «فصر إليه، وتلطّف في مؤانسته ومعونته على ما هو بسبيله، فإذا وقعت الأُنسة في ذلك، فقل: قد حضرتني مسألة أسألك عنها؛ فإنه يستدعي ذلك منك، فقل له: إن أتاك هذا المتكلّم بهذا القرآن فهل يجوز أن يكون مراده بما تكلّم منه غير المعاني التي قد ظننتها أنت وذهبت إليها؟ فإنه سيقول لك: إنه من الجائز؛ لأنه رجل يفهم إذا سمع، فإذا أوجب ذلك فقل له: فما يدريك لعلّه قد أراد غير الذي ذهبت أنت إليه، فيكون واضعاً لغير معانيه؟».

فصار الرجل إلى الكندي، وتلطّف معه، ثم ألقى عليه هذه المسألة، فقال له: أعد عليّ. فأعاد عليه، فتفكّر في نفسه ورأى ذلك محتملاً في اللغة، وسائغاً في النظر، فقال: أقسمت عليك إلّا أخبرتني من أين لك؟ فقال: إنه شيء عرض بقلبي فأوردته عليك. فقال: كلّا، ما مثلك من اهتدى إلى هذا، ولا من بلغ هذه المنزلة، فعرفني من أين لك هذا؟ فقال: أمرني به أبو محمد. فقال له: الآن جئت به، وما كان ليخرج مثل هذا الكلام إلّا من أهل ذلك البيت. ثم إنه دعا بالنار، وأحرق جميع ما كان ألّفه[1].

وهذه القصة تنبئنا عن أن الإمام عليه السلام لم يكن بالذي يغفل أمثال هذه الأمور، ولا بالذي يتركها، بل إنه عليه السلام يتصدّى لها ويحلّها حلاً علمياً عميقاً بما أُوتي من علم إلهامي من الله تبارك وتعالى، وبما مُنح من تسديد إلهي كامل حتى يتمكّن من أن ينتصر لدين الله سبحانه وتعالى، وأن يرفعه فوق الشبه والاعتراضات التي يدلي بها بعض من ليس له حظ من العلم أو

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٥٢٥ ـ ٥٢٦.

من الإسلام. لقد راح عليه السلام يتصدّى لبيان أحكام الله تبارك وتعالى، وبيان مبهمات كتابه التي تخفى على البعض، فيفسّر كتاب الله الكريم مبيناً المراد الحقيقي لله سبحانه وتعالى في آياته، ويفتي الناس في أمور دينهم وعباداتهم ومعتقداتهم، ويبيّن لهم عقائدهم الحقّة بعد أن يناقش العقائد الفاسدة ويدحض حججها.

وقد كانت تصله عليه السلام كثير من المكاتبات من شيعته وأصحابه يستفتونه فيها، فيجيبهم عما سألوا عنه، وإن كانت حول مشاكل معينة وقعوا فيها، فإنه عليه السلام يبادر إلى رعاية تلك الأمور، وإلى حلّ تلك المشاكل، ويتولّى أمورهم حتى يصل بهم إلى برّ الأمان.

المبحث الخامس: مواقف في حياة الإمام عليه السلام

ومن خلال هذا وغيره ـ وهو كثير ـ نخرج بنتيجة مفادها أن الإمام عليه السلام كان له مواقف عدّة تجاه الأمّة الإسلاميّة كلّها، وهي مواقف تصبّ في رافد خيرها وصلاحها، وتأخذ بيدها إلى ميناء المعرفة الحقّة لله تعالى، وهي:

الموقف الأول: الإمام عليه السلام وأحمد بن إسحاق

عن الحسن بن محمد القمي قال: إن الحسين بن الحسن بن جعفر بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام كان بقمّ يشرب الخمر علانية، فقصد يوماً لحاجة له باب أحمد بن إسحاق الأشعري ـ وكان وكيلاً في الأوقاف بقم ـ فلم يأذن له، وقال: من أبناء رسول الله صلى الله عليه وآله ويشرب الخمر؟ فرجع إلى بيته مهموماً. وبعد فترة توجّه أحمد بن إسحاق إلى الحجّ، فلمّا بلغ «سرّ من رأى» استأذن على أبي محمد الحسن

العسكري عليه السلام، فلم يأذن له، فبكى أحمد لذلك طويلاً، وتضرّع حتى أذن له، فلمّا دخل قال: يابن رسول الله؛ لم منعتني الدخول عليك وأنا من شيعتك ومواليك؟ فقال عليه السلام: «لأنك طردت ابن عمّنا عن بابك».

فبكى أحمد بن إسحاق، وحلف له بالله أنه لم يمنعه من الدخول عليه إلّا لأنه يريده أن يتوب من شرب الخمر. فقال عليه السلام: «صدقت، ولكن لابدّ من إكرامهم واحترامهم على كل حال، وألّا تحقرهم ولا تستهين بهم؛ لانتسابهم إلينا؛ فتكون من الخاسرين».

فلما رجع أحمد إلى قم أتاه أشرافهم، وكان الحسين معهم، فلما رآه أحمد وثب إليه واستقبله وأكرمه، وأجلسه في صدر المجلس، فاستغرب الحسين ذلك منه، وسأله عن سببه، فذكر له ما جرى بينه وبين العسكري عليه السلام في ذلك، فلما سمع ذلك ندم على أفعاله القبيحة، وتاب عنها، ورجع إلى بيته فأهرق الخمور وكسر آلاتها، وصار من الأتقياء المتورّعين، والصلحاء المتعبّدين، وراح يلازم المساجد معتكفاً فيها حتى أدركه الموت، ودفن قريباً من مزار فاطمة المعصومة (رضي الله عنهما)[1].

والملاحظ أن الإمام عليه السلام لم يكن يريد أن يدافع عن هذا العلوي وهو يشرب الخمر لأنه علوي، كما أنه عليه السلام لا يريد أن يقرّه على هذا العمل، ولا أن يشجّعه عليه، بل ولا أن يتهاون معه، غير أنه عليه السلام يظهر من تصرّفه هذا أنه يعرف بأن هذا الأسلوب سوف ينفع مع هذا الإنسان، وسوف يعود به إلى خط أهل البيت عليهم السلام، وإلى خطّ الطاعة، فيترك بذلك المعصية التي هو

(١) بحار الأنوار ٥٠: ٣٢٣ـ٣٢٦ / ١٧.

عليها والتي سدر في غيّها. وهذا ما لاحظناه واقعاً من خلال هذه الرواية.

إذن فالإمام عليه السلام عرف أنه من خلال هذا التصرّف مع أحمد بن إسحاق لأجل الحسين بن الحسن أنه سوف يتأدّب، ويرجع عمّا هو عليه إلى الحقّ، وإلى الطاعة وإلى قاعدته التي يسير عليها آباؤه الطاهرون عليهم السلام، وإلّا فإننا نعرف بأننا جميعاً مأمورون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومطالبون بأداء هذه الفريضة دون فرق بين أن يكون المأمور بالمعروف والمنهي عن المنكر سيّداً من نسل رسول الله صلى الله عليه وآله، أو غير سيّد. فكل من يرتكب محرماً يجب أن يحاسب ويعاقب وفق جرمه؛ فإن كان جرمه يقتضي الحدّ أُقيم عليه الحدّ، وإن كان يقتضي التعزير عزّر وما إلى ذلك من أنواع المعالجات التي أقرّها الإسلام إزاء المعاصي والمنكرات التي يرتكبها الانسان دون تفريق بين أبناء النبي صلى الله عليه وآله وبين غيرهم.

ونحن نعرف بأن النبي صلى الله عليه وآله كان يقول: «ليس بين الله وبين أحد شيء يعطيه به خيراً، أو يصرف به عنه شرّاً إلّا العمل. أيها الناس، لا يدّعِ مدّعٍ، ولا يتمنَّ متمنٍّ، والذي بعثني بالحقّ لا ينجي إلّا عمل مع رحمة، ولو عصيت لهويت. اللهم هل بلغت؟»[1].

وهكذا فإن الذي يظهر أن هذه الخطوة من الإمام عليه السلام كانت خطوة تربوية وتأديبية؛ حيث إن الحسين بن الحسن قد تاب بعد ذلك توبة نصوحاً، وأصبح إنساناً تقياً عابداً ملازماً للمساجد، وحسنت له الخاتمة، كما رأينا من خلال هذه الرواية الشريفة.

---

(١) الإرشاد ١: ١٨٢، شرح نهج البلاغة ١٠: ١٨٣ ـ ١٨٤.

أساليب التربية عند أهل البيت عليهم السلام

وهكذا فإننا نلاحظ أن الأساليب التربوية التي كان يعتمدها الأئمة عليهم السلام ويتبعونها خلال مسيرتهم الدعَوية كانت كلها تصب في مجال خدمة الإسلام، ولهذا فإنهم عليهم السلام كانوا لا يخرجون عن إطار الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، وكسب الناس إلى الإسلام؛ لأنهم إنما يمثّلون الإسلام، ويمثّلون الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في الأمّة الإسلامية؛ ولهذا فإن الإمام عليه السلام لم يكن يخرج عن هذا الإطار الذي يتحرّك ضمنه أئمة أهل البيت من آبائه الكرام عليهم السلام؛ ومن هنا فإنه عليه السلام كان يدعو الناس ويعلمهم كلاً حسب الجهة التي يمكن أن يأتيه منها، فبعض يربيه عن طريق إعطائه الأموال، وآخر يقف عليه بنفسه ويخاطبه ويدعوه إلى أن يسلك السبيل الصحيح، وثالث يتبع معه أسلوباً آخر كما في قصّة الحسين بن الحسن. وكلها أساليب تصبّ في مجال التربية التي يتصدى لها الإمام عليه السلام، ويريد أن ينقل المجتمع إليها ويصل به معها إلى رتبة الكمال.

الموقف الثاني: الإمام عليه السلام وعيسى بن صبيح

يروى عن عيسى بن صبيح أنه قال: دخل الحسن العسكري عليه السلام علينا الحبس، وكنت به عارفاً، فقال لي: «لك خمس وستون سنة، وشهر، ويومان». وكان معي كتاب دعاء عليه تاريخ مولدي، وإني نظرت فيه فكان كما قال، ثم قال عليه السلام: «هل رزقت ولداً؟». فقلت: لا. فقال عليه السلام: «اللهم ارزقه ولداً يكون له عضداً، فنعم العضد الولد». ثم تمثل عليه السلام:

«من كان ذا عضد يدرك ظلامته إن الذليل الذي ليست له عضدُ»

فقلت له: ألك ولد؟ قال: «إي والله، سيكون لي ولد يملأ الأرض قسطاً،

فأمّا الآن فلا». ثم تمثّل:

«لعلّك يوماً أن تراني كأنما	بنيّ حواليّ الأسود اللوابدُ
فإن تميماً قبل أن يلد الحصى	أقام زمانا وهو في الناس واحدُ»[١]

ومن خلال هذه الرواية الشريفة أيضاً نستنتج أن هنالك نوعاً من الرعاية الخاصّة التي كان يقوم بها الإمام عليه السلام تجاه محبيه، وكذلك نستنتج منها أن الإمام عليه السلام لم يكن ليترك شيعته وشأنهم، ولم يكن بالذي يقول: ليس لي شأن بهم، وليس لي علاقة بما هم فيه، بل إنه عليه السلام كان يباشر تلك الرعاية وتلك العملية التربوية معهم ولم يتركهم لوحدهم مع حاجاتهم ومشاكلهم، فقد كان عليه السلام يتدخّل بشكل مباشر لها، ويتصدّى لحلّها. وهو عليه السلام بهذا إنما يجسد قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «كلّكم راعٍ، وكلّكم مسؤول عن رعيته»[٢].

وكون الإمام عليه السلام في أعلى قمة الهرم في الدولة الإسلاميّة؛ سواء في السلطة الدينية والروحية، أو حتى على ما ينبغي أن يكون عليه في قمة السلطة العسكرية أو المدنية؛ لأنه الخليفة الشرعي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو الذي ينبغي أن يكون حاكماً بأمر من الله سبحانه وتعالى، فإنه أراد أن يمارس تلك الرعاية حتى ولو سلبت منه تلك السلطة؛ ولذا فإنه كان يتولّى أصحابه، ويتولّى الأمّة جميعها في جميع ما تحتاج إليه فيما يتعلّق بالدين والدنيا، كما رأيناه قبل قليل في موقفه مع الكندي حينما كان بحاجة إلى أن يحلّ ذلك الإشكال الذي عرض له دون أن يتمكّن من حله.

(١) الخرائج والجرائح ١: ٤٧٨ ـ ٤٧٩ / ١٩، مدينة معاجز الأئمة: ٧: ٦٢٩ / ٢٦١٣.
(٢) عوالي اللآلي: ١: ١٢٩ / ٣: ٣٦٤ / ٥١، مسند أحمد: ٢: ٥، ٥٤، ١١١، ١٢١.

وهذا الأمر كان دأب أهل البيت عليهم السلام جميعاً، حيث إنهم كانوا يمارسون مهامّهم الإرشادية والتربوية للأمّة الإسلامية، وفيها على أعلى مستوىً، ووفق أرقى الطرق والأساليب وأسلمها وأسماها وأعلاها، غير أن هذا العطاء المتجذّر في أهل البيت النبوي الكريم عليهم السلام لم يكن ليحظى بالحرية الكاملة ـ لأجل تلك الكراهية الكامنة في نفوس الحكّام ـ لأن يؤدّي مهامه ووظائفه. ولهذا فإننا نجد أن السلطات ما إن ترَ وجود قاعدة شعبية عريضة لأهل هذا البيت عليهم السلام حتى تبادر إلى فرض القيود والمضايقات عليهم، وإلى ضرب طوق يمنع الآخرين من الوصول إليهم، بل إن زبانيتهم وجلاوزتهم كانوا يسعون إلى خلق جوّ من التشكيك وعدم الاستقرار لهم عبر ما يكتبونه إلى الخلفاء وإلى أصحاب السلطة من كتب مختلقة يذكرون لهم فيها بأن أهل البيت عليهم السلام تجبى إليهم الأموال، وتجمع في بيوتهم الأسلحة؛ كي يقوموا بثورة ضد السلطة الحاكمة.

الموقف الثالث: الإمام عليه السلام وعلي بن أوتاج

ولهذا فإن الإمام عليه السلام مع أن فترة إمامته كانت قصيرة إلّا إنه لم يرتح فيها؛ لأن العباسيين والأتراك قد صوبوا إليه سهام أنظارهم، فراحوا ينقلونه من سجن إلى سجن، ويقلّبونه من مضايقة إلى مضايقة حتى يمنعوه عليه السلام من أن يمارس دوره، ومن أن يفيض عطاؤه على شيعته، وعلى الأمّة الإسلامية كلها. يروي محمد بن إسماعيل العلوي فيقول: أرسل الخليفة خلف علي بن أوتاج ـ أو «أوتامش»، أو «نارمش» ـ وهو أنصب الناس، وأشدّهم على آل أبي طالب عليهم السلام، وكان تركيّاً، فقال له: احبس عندك أبا محمد، وافعل به وافعل. فلما أقام عنده فترة قالت له زوجته: اتّقِ الله فيمن عندك، ولا تسئه؛ فإن له مقاماً عالياً، فضلاً عن عبادته وورعه وتقواه. فقال لها: ما

الذي تقولينه، وقد عزمت على أن أُلقي به في بركة السباع؟ وكان للخليفة في سامراء بركة عظيمة مملوءة بالسباع الضواري تسمى «بركة السباع»، وكان يلقي من أراد قتله إليها، فتفترسه في آن واحد. ثم أمر أتباعه بإلقاء الإمام الحسن العسكري عليه السلام فيها ليلاً، فلما أصبحوا وجدوه عليه السلام سالماً وهو قائم يصلّي، والسباع خاضعة حوله، متواضعة لديه، فأقبل علي بن أوتاج حتى وضع خديه له؛ وكان بعد ذلك لا يرفع بصره إليه إجلالاً له، وإعظاماً لقدره. وهكذا خرج من عنده وهو أحسن الناس بصيرة، وأحسنهم فيه قولاً[1].

الموقف الرابع: الإمام عليه السلام وأخوه جعفر

وهكذا راحوا ينقلون الإمام عليه السلام من سجن إلى سجن حتى روى سعد بن عبد الله قال: كان جماعة قد حبسوا بسبب قتل عبد الله بن محمد العباسي، فلما سجن أبو محمد عليه السلام وأخوه جعفر أُدخلا عليهم ليلاً، وكان منهم أبو هاشم داود بن القاسم الجعفري، يقول أحدهم: فاطّلعنا إلى موضع الباب، فإذا برجلين قد أُدخلا إلى السجن، وردّ الباب وأُقفل، فدنونا منهما وقلنا: من أنتما؟ فقال أحدهما: «أنا الحسن بن علي، وهذا جعفر بن علي». فلما نظر إليهما أبو هاشم قام عن مضربة كانت تحته، فقبّل وجه أبي محمد عليه السلام، وأجلسه عليها، وجلس جعفر قريباً منه، فقال جعفر: واشطناه. بأعلى صوته، يعني جارية له، فزجره أبو محمد عليه السلام وقال له: «اسكت». وكانت تبدو عليه آثار السكر، فغلبه النوم وهو جالس معهم.

---

(١) انظر: الكافي ١: ٥٠٨ / ٨، الإرشاد ٢: ٣٢٩ ـ ٣٣٠، مفتاح الفلاح: ١٧٩ ـ ١٨٠.

وراح المعتمد يتجسّس أخبار الإمام عليه السلام، ويسأل علياً عن أخباره في كل وقت، وكان كلّما سأله عنه أخبره أنه يصوم النهار، ويصلي الليل، فقال له: امضِ الساعة إليه، وأقرئه مني السلام، وقل له: انصرف إلى منزلك مصاحباً.

قال علي: فجئت إلى باب الحبس، فوجدت حماراً مسرجاً، فتعجّبت كيف عرف بالأمر، فدخلت عليه، فوجدته جالساً وقد لبس خفّه وطيلسانه وشاشته، فلما رآني نهض، فأدّيت إليه الرسالة، فركب. فلما استوى على الحمار وقف، فقلت له: ما وقوفك يا سيدي؟ فقال لي: «حتى يجيء جعفر». فقلت: إنما أمرني بإطلاقك دونه. فقال لي: «ترجع إليه فتقول له: خرجنا من دار واحدة جميعاً، فإذا رجعت وليس هو معي كان في ذلك ما لا خفاء به عليك».

فمضى وعاد، فقال له: يقول لك: قد أطلقت جعفراً لك؛ لأني حبسته بجنايته على نفسه وعليك، وما يتكلّم به. وخلى سبيله فصار معه إلى داره[1].

فالإمام عليه السلام قد شُدّد عليه مع قصر فترة إمامته عليه السلام، فقد راحوا يضيّقون عليه بالسجون تارة، وبالمراقبة والتشديد عليه تارة أُخرى، وقد كانت داره عليه السلام مراقبة أشدّ المراقبة؛ لأن العباسيين عندهم علم بأن الإمام صاحب الزمان سوف يولد في هذه الدار بعد أن جاءهم خبر بذلك، فكان أن أكثروا المراقبة والتشديد عليه عليه السلام، وعلى داره، حتى إنهم أرسلوا أزلامهم لملازمة البيت ومراقبته ملازمة شديدة ومراقبة عتيدة.

---

(١) بحار الأنوار ٥٠: ٣٠٦ـ ٣٠٧، ٣١٣ـ ٣١٤.

سجون العبّاسيين

ومن هنا نعرف أن العباسيين كان عندهم نوعان من السجون:

أولاً: السجون العامة، وهي السجون التي تبنى لغرض إيداع من يخالفهم فيها، كالمطبق وغيره.

ثانياً: السجون الخاصة، وهي التي تكون في بيوت أتباعهم وخدامهم وأزلامهم. وكانت هذه السجون أكثر من السجون العامّة بكثير؛ لأن العباسيين كانوا يأتمنون أزلامهم وجلاوزتهم فيها على من يقع عليه غضبهم، وعلى من يريدون أن ينزلوا به عقوبتهم.

وعلى أية حال فكان من ضمن السجون الخاصّة عند العباسيين بيت علي بن أوتاج هذا.

حول مسألة السرداب

إننا نعرف أن سامراء وما حولها من المناطق شديدة الحرارة صيفاً، وقد تصل بها في بعض الأيام إلى حدّ لا يمكن أن تطاق معه، ولهذا فإن أهالي تلك المناطق يعمدون إلى حفر أقبية تحت البيوت، أو ما يسمى بالسراديب، ليستظلّوا بفيئها، وليتنعموا ببرودتها ظهراً بعيداً عن حر الجوّ ولهيب الشمس. وهي في هذا شأنها شأن النجف الأشرف؛ حيث إنها كذلك تحفر الأقبية أو السراديب ليلوذ فيها الناس من الحر. وهذا السرداب الذي كان في بيت الإمام عليه السلام من أجل الاستظلال بظلّه قد حيكت حوله الأساطير العجيبة والغريبة، وهي ما جعلها أصحابها مورد طعون على الشيعة، ومواضع سخرية عليهم، حتى قال قائلهم:

ما آن للسرداب أن يلد الذي ... صيّرتموه بزعمكم إنساناً[1]

(١) البيت لابن حجر العسقلاني، وقد ردّ عليه نظماً السيد جعفر الدارابي المعروف بالكشفي

مع أن أمر الإمام المهدي عليه السلام مسلّم به بإجماع المسلمين كافّة ؛ لما ورد فيه عن رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، فهم جميعهم يذهبون إلى أن الله عزّ وجلّ سوف يبعث الإمام المهدي عليه السلام في آخر الزمان ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً. وما من فرقة من فرق المسلمين إلّا وهي تقول به ، بل إن بعض علماء السنة يكفرون من لم يعتقد بوجوده عليه السلام.

فما هو الإشكال اذن في مسألة السرداب؟ إن السرداب ما هو إلّا عبارة عن مكان يستظلّ به الناس عن حرّ الصيف كما ذكرنا، والغريب أن يأتي الآلوسي مفتي الدولة العثمانية، وهو ليس من عامّة الناس ، بل إنه يعدّ من العلماء، وهو صاحب شرح عينية عبد الباقي العمري التي يقول فيها:

أنت العلي الذي فوق العلا رفعا ببطن مكة عند البيت إذ وضعا[1]

كما أنه صاحب كتاب روح المعاني في تفسير القرآن العظيم وهو تفسير ضخم ، لكنه يعود من جهة أُخرى ليبين جهله المطبق حينما يدّعي على الشيعة ظلماً ما ليس فيهم ، فيقول : إنهم يجمعون أخماسهم كلّ سنة ، ويضعونها في هذا السرداب حتى يظهر الإمام صاحب الزمان عليه السلام ويأخذها.

ضرورة غربلة الموروث الحديثي

وينبغي ألّا ننكر نحن الشيعة بأننا نشكل جزء علة في هذه المشكلة؛

في كتابه المسمى (الرد على ابن حجر العسقلاني) . الذريعة إلى تصانيف الشيعة ١٠ : ١٧٦ ـ ١٧٧ / ٣٦٥.

(١) في كتابه (سرح الخريدة الغيبية في شرح القصيدة العينية) . وقد قال في شرح هذا البيت: وكون الأمير (كرم الله وجهه) ولد في البيت أمر مشهور في الدنيا ، وذكر في كتب الفريقين السنة والشيعة . انظر الغدير ٦ : ٢٢ ـ ٢٣.

لأننا ليس لنا مركز يتولّى تنقية هذه الأُمور، أو مؤسسة تقوم بدور غربلة هذا الكمّ من الموروث، وإبراز الصحيح منه، وما يعكس وجه الشيعة أبيض ناصعاً للآخرين، وإلّا فإن مسألة السرداب لا تعني شيئاً في واقع أمرها ؛ فالسرداب ما هو إلّا مكان كان يجلس فيه الإمام عليه السلام، وهو بهذا حاله حال جميع الأرض التي يطؤها ويمشي عليها. إننا نرى بأنه ليس هنالك من شيء مقدس من هذا القبيل، بل المقدس عندنا هو المعصوم عليه السلام نفسه، وإلّا -إن لم يكن الأمر كما ذكرنا- فإن هذا يعني، بل يستلزم أننا يجب أن نقدّس الأرض كلها، لأن النبي صلى الله عليه وآله أو الإمام عليه السلام قد وطئها ومشى عليها.

إذن فنحن ليس عندنا شيء مقدس من هذا القبيل، والمقدّس هو الإمام عليه السلام نفسه، وما دام السرداب يوجب كل هذا الكره لنا، ويثير كوامن نفوس الآخرين ضدّنا، ويعمل على تشويه صورتنا أمامهم، وما دام القول به ليس من صلب عقائدنا وأساسيات مذهبنا بحيث إن من لا يؤمن به لا يعدّ كافراً، فإننا نرى أن الأفضل أن يغلق، حتى نسدّ هذه المشكلة بوجه كل من يحاول أن يتطاول علينا، وأن يسخر ويهزأ. وبخلاف هذا فإننا سوف نضع أنفسنا موضع التهمة[1].

إذن فعلينا ألّا نضع أنفسنا في مواضع التهمة، وألّا نجعل منها في موضع يثير الشبهة علينا ويعكس صورة سيئة عنّا.

---

(١) وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «من وضع نفسه في مواضع التهمة، فلا يلومن من أساء به الظن». نهج البلاغة / القول: ١٥٩.

وقال عليه السلام: «من دخل موضعاً من مواضع التهمة، فاتّهم، فلا يلومن إلّا نفسه». بحار الأنوار ٧٢: ٩٠ / ٥.

وعلى أية حال فإن هذه الدار وهذا السرداب كانا مراقبين أشدّ المراقبة، وأهل الدار كانوا ملاحقين أشدّ الملاحقة؛ لأن بني العباس كما ذكرنا قد وصلهم نبأ قرب ولادة الإمام المهدي (عجل الله فرجه)، الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً. وهكذا فإن أهل بيت الإمام عليه السلام، والشيعة كذلك في زمنه كانوا يعيشون المحنة بكلّ معناها ومؤدّاها، وبكل ما توحي به؛ بسبب تشدّد العباسيين والأتراك، وتسلطهم، وبغضهم الشديد لأهل البيت عليهم السلام.

آخر ما نصّ به على ابنه الحجّة عليه السلام

وهذا ما تجليه لنا رواية أبي الأديان رضي الله عنه حيث يقول: كنت أخدم الحسن بن علي العسكري عليه السلام، وأحمل كتبه إلى الأمصار، فدخلت عليه في علّته التي توفي فيها، فكتب لي كتباً وقال لي: «امضِ بها إلى المدائن، فإنك ستغيب خمسة عشر يوماً، وتدخل إلى «سرّ من رأى» يوم الخامس عشر، وتسمع الواعية في داري، وتجدني على المغتسل». فقلت: يا سيدي، فإذا كان ذلك، فمن؟ فقال عليه السلام: «من طالبك بجوابات كتبي، فهو القائم بعدي». فقلت: زدني. فقال عليه السلام: «من يصلّي عليّ فهو القائم بعدي». فقلت: زدني. فقال عليه السلام: «فمن خبر بما في الهميان، فهو القائم بعدي».

يقول: فمنعتني هيبته أن أسأله ما في الهميان، وخرجت بالكتب إلى المدائن، وأخذت جواباتها، ودخلت «سرّ من رأى» يوم الخامس عشر كما قال عليه السلام، وإذا أنا بالواعية في داره، وإذا به على المغتسل، وإذا أنا بجعفر الكذّاب أخيه بباب الدار والشيعة من حوله يعزّونه ويهنّونه، فقلت في نفسي: إن يكن هذا الإمام، فقد بطلت الإمامة؛ لأني كنت أعرفه بشرب النبيذ، وبالمقامرة في الجوسق، وباللعب بالطنبور.

ثم تقدّمت بغتة، فعزّيت وهنّيت، فلم يسألني عن شيء، ثم خرج غلام العسكري عليه السلام، فقال: يا سيدي، قد كُفّن أخوك، فقم فصلِّ عليه. فدخل جعفر والشيعة من حوله، فلمّا صرنا في الدار إذا نحن بالحسن بن علي عليه السلام على نعشه مكفّناً، فتقدّم جعفر ليصلي عليه، فلما همّ بالتكبير، خرج صبي بوجهه سمرة، فجذب رداء جعفر، وقال: «تأخّر يا عم، فأنا أحقّ بالصلاة على أبي». فتأخّر جعفر وقد أربد وجهه، فتقدم الصبي، وصلّى عليه، ثم دفنه إلى جانب قبر أبيه الهادي عليه السلام.

ثم قال لي: «يا بصري هات جوابات الكتب التي معك». فدفعتها إليه، وقلت في نفسي: هاتان علامتان اثنتان، وبقي الهميان. ثم خرجنا إلى جعفر وهو يزفر، فقيل له: يا سيدي، من الصبي لنقيم الحجّة عليه؟ فقال: والله، ما رأيته قطّ، ولا أعرفه. وبينا نحن جلوس، إذ قدم نفر من قم، فسألوا عن الحسن بن علي عليه السلام فعرفوا موته، فقالوا: فمن بعده؟ فأشار بعض الناس إلى جعفر بن علي، فسلموا عليه وعزّوه، وقالوا: معنا كتب ومال، فأخبرنا ممّن الكتب، وكم المال. فقام جعفر ينفض أثوابه ويقول: يريدون منا أن نعلم الغيب! وخرج، فجاء الخادم وقال: «معكم كتب فلان وفلان، وهميان فيه ألف دينار، وعشرة دنانير فيها مطلية». فدفعوا إليه الكتب والمال وقالوا: الذي وجّه بك لأخذ المال هو الإمام؛ فإن جميع ذلك كذلك.

يقول أبو الأديان: فعلمت صحّة ما قاله الحسن عليه السلام من أمر الهميان[1].

والذي يؤلم النفس، ويحزّ فيها، ويثير مكامن الأسى والحزن عندها أن

---

(١) الخرائج والجرائح ٣: ١١٠١ ـ ١١٠١٣ / ٢٣.

يكابد الإمام عليه السلام سكرات الموت وهو في ريعان الشباب، وفي مثل هذه السنّ، حيث إنه كان في الثامنة والعشرين من عمره كما ذكرنا، وقد عالج الموت وحده مع صغر سنه، غير أن ما هوّن الخطب أن قائم آل محمد عليهم السلام، بقية الله في الأرض حضر جنازة أبيه عليه السلام، وصلى عليه، ونقله إلى مثواه الأخير، وذهب به إلى محلّ قبره حتى واراه التراب، أما الإمام الحسين عليه السلام، فإنه لم يكن كذلك حيث إنه بقي صريعاً على حرّ الثرى، تصهره حرارة الشمس ولهيبها، ولم تستطع الحوراء زينب عليها السلام عند تلك المصيبة صبراً، فوقفت يوم العاشر من المحرم بعد انتهاء المعركة، ونظرت إلى أصحاب الإمام الحسين عليه السلام وقد حملتهم عشائرهم، وذهبت بهم لتدفنهم، أما هو عليه السلام فبقي ليس هنالك من أحد يجرؤ على أن يقترب منه ويحمله ويدفنه هو وأهل بيته عليهم السلام، فأثارت هذه المأساة الحزنَ في قلب سيدتنا ومولاتنا العقيلة الحوراء زينب عليها السلام، فصاحت: «أما لهذا المسجّى من عشيرة؟ أما فيكم من مسلم يواري هذا الغريب؟ أما فيكم من أحد يواري هذا السليب؟». فكان أن أجابها عمر بن سعد بندائه: ياخيل الله اركبي، وبالجنّة أبشري، وحطّمي صدر الحسين:

من عادت اليوكع بالأكوان	يصير للنشاب نيشان
تجيه اخوته وتطرد الجيمان	يسقوه ماي ان چان عطشان
شعتذر عندك ما لي لسان	فزعنالك من الخيم نسوان

ونحن نعرف بأن الإمام صاحب الزمان عليه السلام قد غاب غيبته الصغرى بعد ذلك، أي بعد وفاة أبيه عليه السلام، واحتجب عن الأبصار، وغاب عن الأنظار، ولم يعد يراه أحد إلّا سفراؤه الأربعة (رضوان الله عليهم) في غيبته الصغرى،

أما في غيبته الكبرى فلم يعد هنالك من اتّصال بينه وبين شيعته، وهنا نستغل هذه المناسبة لنتوجّه إليه بالمناجاة والتوسّل والنداء: سيدي يا صاحب الأمر متى ترانا ونراك وقد نشرت لواء النصر في أرجاء هذه الأرض؟ ثم نخاطبه بما ورد في دعاء الندبة، ونقول له: «هل إليك يابن أحمد سبيل فتلقى؟ هل يتّصل يومنا منك بغده فنحظى؟ متى نرد مناهلك الروية فنروى؟ متى ننتقع من عذب مائك فقد طال الصدى؟ متى نغاديك ونراوحك فتقر عيوننا؟ متى ترانا ونراك و قد نشرت لواء النصر ترى؟ أترانا نحفّ بك وأنت تؤمّ الملا، وقد ملأت الأرض عدلاً، وأذقت أعداءك هواناً وعقاباً، وأبرت العتاة وجحدة الحقّ، وقطعت دابر المتكبرين، واجتثثت أصول الظالمين؟ ونحن نقول: الحمد لله رب العالمين[1]:

ماذا يهيجك إن صبر ... ت لوقعة الطف الفجيعه
أترى تجيء فجيعة ... بأمضّ من تلك الفجيعه[2]

---

(١) المزار: ٥٨٢، الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ٥١١، الصحيفة الهادية والتحفة المهدية: ٨٦، صحيفة المهدي عليه السلام: ٢٢٢.
(٢) ديوان السيد حيدر الحلّي: ٣٧.



الفصل الرابع عشر

الحجة ﷺ



﴿٥٧﴾

وراثة الأرض واستعمارها

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: الاستعداد العلمي والأخلاقي لحمل الرسالة

الزبور هو مجموعة الكتب السماوية؛ لأن الزبْر هو عبارة عن الكتابة، وكل الكتب السماوية مكتوبة. فالمقصود بالزبور إذن هو رسالات السماء التي حملها الأنبياء ﷺ، والذكر يقصد به اللوح المحفوظ، وعلى هذا يكون معنى الآية الكريمة: أنا قد قضينا بأن الأرض يرثها عبادنا الصالحون، وأنها ستكون لهم وحدهم دون غيرهم.

إن كتب السماء تحمل الحقائق دون شك، لكن التوصّل إلى معرفة هذه الحقائق يحتاج إلى تبحّر واستعداد علمي؛ كي يتمكّن الإنسان من إدراك كنهها. وبتعبير آخر: إن الآيات الكريمة هي عبارة عن فيض من العطاء على مستويات عدّة من العلم والمعرفة والإخبار عن المغيّبات، لكن

---

(١) الأنبياء: ١٠٥.

يجب أن تكون في أيدٍ أمينة، وهم أهل العلم والمعرفة الذين يختصّهم الله تعالى، وهم المعبّر عنهم بالراسخين في العلم[١]. فالذي يريد أن يتناول آية من آيات الكتاب دون أن يكون له حظّ من العلم فإنه سيخلط الأمور ببعضها، أو أنها هي ستختلط عليه. وهذا أيضاً يشمل من عنده علم لكنه لا يمتلك أي خلفية دينية؛ فإنه سيخلط الأمور أيضاً وسيصرف الآيات عن معانيها إلى معانٍ أخرى تمليها عليه نفسه.

جاءني أحدهم يسأل فقال: إن أحد المتحاملين على أمير المؤمنين عليه السلام يعترض على ما ينسب له عليه السلام حول قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[٢]، وأشياء أخرى ثابتة في حقّ أمير المؤمنين عليه السلام، كقلع باب خيبر، فيقول: إن هذه الأمور كلّها تنسب كذباً إلى أمير المؤمنين عليه السلام. ومثل هذا لا يستبعد منه أن يقول: إن علي بن أبي طالب عليه السلام شخصيّة وهمية وليس لها وجود، ونحن لا نلوم هذا؛ فالرسول الأكرم صلى الله عليه وآله يقول لأمير المؤمنين عليه السلام: «لا يحبّك إلّا مؤمن ولا يبغضك إلّا منافق»[٣]. ورحم الله صفي الدين الحلي؛ حيث يقول:

بحبّ عليٍّ تسرُّ النفوسُ وتزكو القلوبُ وتحلو الثمارْ
فإمّا رأيتَ له مبغضاً ففي أصلِهِ نسبٌ مستعارْ

على أية حال إن هذا الأمر لا يضير أمير المؤمنين عليه السلام بشيء، ولا ينقص من قدره ومكانته.

---

(١) قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ آل عمران: ٧.

(٢) المائدة: ٥٥.

(٣) مسند أحمد ١: ٩٥، ١٢٨، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٠٦، كنز العمّال ١١: ٥٩٨ / ٣٢٨٧٨.

أقسام النصّ القرآني

فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ يقرّر أن الصالحين سيرثون الأرض، لكن ما المراد من الأرض هنا؟ وأود أن ألفت النظر هنا إلى نقطة هامة وهي أن النص القرآني يكون عبارة عن قسمين:

الأول: النصّ

فهو أحياناً لا يحتمل إلّا وجهاً واحداً، وفي مثل هذه الحالة يصبح نصاً بالمعنى الاصطلاحي، فلا مجال لحمله على معنى آخر غير الذي وضع له. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[1]، فهو نص لا مجال للاجتهاد فيه، ولا إلى توجيهه إلى معنى جديد غير الذي وضع له؛ لأنه نصّ صريح لا يحتمل إلّا معنى واحداً.

الثاني: الظاهر

أمّا إذا كان يحتمل معاني عدّة؛ ففي هذه الحالة إذا كان المعنى راجحاً، فإننا نسميه ظاهراً، وإن كان المعنى مرجوحاً، فإننا نسميه مؤولاً.

المبحث الثاني: المقصود من الأرض

وعلى ضوء هذا التقريب لنرَ هذه الآية من أي الاقسام هي، إن الناظر إلى هذه الآية بعد التأمّل والتدقيق سيجد أنها من النوع الثاني من القسم الثاني. وسأوضح هذا المعنى إن شاء الله تعالى خلال استعراضي لبعض النقاط الرئيسة التي يتضمّنها البحث. فللمفسّرين ثلاثة آراء حول المراد من الأرض في الآية:

---

(١) الإخلاص: ١.

الرأي الأوّل: أنها الجنة

إن بعض المفسرين يذهبون إلى أن المراد بالأرض هنا هي الجنّة؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾[1].

هذا من جهة، ومن جهة ثانية إن لسان الآية فيه عموم، فالأرض لو كانت هي هذه الأرض التي نحن عليها لرأينا أن هناك تناقضاً بين الآية والواقع؛ لأن الصالحين لم يرثوا من هذه الأرض شيئاً، فهي كلّها لغير الصالحين. والواقع يقول هذا ولا يمكن لأحد أن ينكره، فالأرض كلها الآن بأيدي الكفرة، فسيبيريا وحدها بحجم البلاد العربيّة وهي بأيدي الكفرة، وقطعة من بلادهم. إذن الأراضي اليوم قد ورثها غير الصالحين، وقد لا يحصل فيها صالح على قطعة أرض يعيش عليها، وهؤلاء غالباً هم حملة الرسالات، والدعاة إلى الإيمان؛ ولذا فانهم كانوا ولا زالوا مطاردين لا يجدون مكاناً يستقرّون فيه. وقد سئل أحدهم: أين أنت حين طلبك الحجاج؟ فقال: بحيث يقول الشاعر:

عوى الذئبُ فاستأنستُ بالذئبِ إذ عوى ... وصوّت إنسانٌ فكدت أطيرُ[2]

وهذا البيت يصوّر حال الصلحاء ـ الذين هم غالباً ما يكون شأنهم هكذا ـ أفضل تصوير. ولأضرب لك مثلاً واحداً يشهد بصحّة هذا،

---

(١) الزمر: ٧٤.

(٢) الكنى والألقاب ٣: ٢٤٥، وفيه أن إبراهيم النخعي تمثّل به حين سئل: أين كنت حين طلبك الحجاج؟ غريب الحديث (الحربي) ٣: ٩٤٩، معجم البلدان ٢: ٤٨٣، وفيه أنه للأحيمر السعدي، وكان قد أتى العراق فقطع الطريق، فطلبه أمير البصرة سليمان بن علي وأهدر دمه، فهرب وذكر حنينه إلى وطنه، فأنشد قصيدة منها هذا البيت.

فسعيد بن جبير رضي الله عنه كان قد طارده الحجاج مطاردة مروعة بعد فشل ثورة القرّاء، وضيّق عليه الخناق حتى لم يكن يجد موطئ قدم يلوذ به ويلجأ إليه، وبث العيون في كل النواحي تترصّده وأرسل الطلب خلفه يتعقّبونه، حتى وصل به الأمر أن نزل قرب دير. وكانت الشرطة تجدّ في طلبه حتى وصلت إلى الدير الذي نزل قربه، فرأوا راهباً في صومعته، فسألوه عنه فدلّهم عليه.

فانطلقوا فوجدوه ساجداً يناجي ربّه، فدنوا منه وسلموا عليه، فأتمّ بقيّة صلاته، ثم ردّ السلام عليهم، فقالوا له: إنا رسل الحجّاج إليك، فأجبه. فقام معهم حتى انتهوا إلى دير الراهب، فقال لهم الراهب: يا معشر الفرسان، اصعدوا؛ فإن اللبوة والأسد يأويان حول الدير. فلما همّوا بالصعود أبى سعيد أن يدخل معهم، فقالوا: ما نراك إلّا وأنت تريد الهرب منا. قال: لا، ولكني لا أدخل منزل مشرك أبداً. قالوا: فإنا لا ندعك، فإن السباع تقتلك. قال: لاضير، إن معي ربي يصرفها عني ويجعلها حرساً تحرسني. فقالوا: فأنت من الأنبياء؟ قال: ما أنا من الأنبياء، ولكن عبد من عبيد الله تعالى مذنب.

ثم أعطاهم موثقاً ألّا يبرح مكانه حتى يُصبح، فرضوا بذلك، ولما صعدوا إذا هم بلبوة قد أقبلت، فلمّا دنت من سعيد تمسّحت به، ثم ربضت قريباً منه، وأقبل الأسد فصنع كذلك، فأمرّ سعيد يديه على رأسيهما، فلما رأى الراهب ذلك وأصبحوا، نزل إليه فسأله عن شرائع دينه وسنن رسوله، ففسّر له سعيد ذلك كلّه، فأسلم.

ثم جاء به القوم إلى الحجّاج، فقال لهم: أتيتموني بسعيد بن جبير؟ قالوا: نعم، وعاينّا منه العجب. فصرف بوجهه عنهم، وقال: أدخلوه عليّ.

فخرج المتلمّس[١] فقال لسعيد: أستودعك اللّه، وأقرأ عليك السلام.

فأُدخل عليه. فقال له الحجّاج: ما اسمك؟ قال: سعيد بن جبير. قال: أنت شقي بن كسير. قال: بل أُمي كانت أعلم باسمي منك. قال: شقيت أنت وشقيت أمّك. قال: الغيب يعلمه غيرك، فلم تنعتني وإيّاها بالشقاء؟ فقال له: لأبدلنّك بالدنيا ناراً تلظّى. قال: لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهاً.

ثم سأله: ما قولك في محمد صلى الله عليه وآله؟ قال: نبي الرحمة، وإمام الهدى. قال: فما قولك في علي؛ في الجنة هو أم في النار؟ قال: لو دخلتها، فرأيت أهلها عرفت. قال: فما قولك في الخلفاء؟ قال: لست عليهم بوكيل. قال: فأيهم أعجب إليك؟ قال: أرضاهم لخالقي. قال: فأيهم أرضى للخالق؟ قال: علم ذلك عنده. قال: أبيت أن تصدقني. فقال: إني لم أُحبّ أن أُكذبك. قال: فما بالك لم تضحك؟ قال: لم تستوِ القلوب. فقال: ويلك يا سعيد. قال: الويل لمن زحزح عن الجنة وأُدخل النار. قال: اختر أي قتلة تريد أن أقتلك. قال: اختر أنت لنفسك يا حجّاج، فوالله ما تقتلني قتلة إلّا قتلتك قتلة في الآخرة. قال: فتريد أن أعفو عنك؟ قال: إن كان العفو فمن اللّه، وأما أنت فلا براءة لك ولاعذر.

ثم أمر الحجّاج بالنطع وقال: اذهبوا به فاقتلوه. فقال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٢]. قال: شدّوا به لغير القبلة. فقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[٣]. قال: كبوه لوجهه. قال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾[٤]. قال: اذبحوه. قال: إني

---

(١) كان قائد الحملة المكلّفة بالبحث عن سعيد رضي الله عنه.

(٢) الأنعام: ٧٩.

(٣) البقرة: ١١٥.

(٤) طه: ٥٥.

أشهد وأحاجّ أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، خذها مني حتى تلقاني يوم القيامة. ثم دعا سعيد الله تعالى وقال: اللهم لا تسلّطه على أحد يقتله بعدي. فذبح على النطع.

وهكذا كان؛ إذ مات بعده بخمس عشرة ليلة لم يستقرّ فيها لحظة، فقد كان إذا نام رآه في المنام وهو يأخذ بمجامع ثوبه ويقول: يا عدو الله، فيم قتلتني؟ فيقول الحجاج: مالي ولسعيد بن جبير، مالي ولسعيد بن جبير؟[1]. ولذا يقول له أحد الأدباء:

بعض التفكّر يا فتى	فأخو الحصافة ما انبرْ
هل أنت في أمن من الـ	أحداثِ تعصفُ والغِيرْ
أو ما رأيت سجونَ وا	سطَ كالهشيمِ المحتضرْ
ومقاصرَ الحجّاجِ تضـ	ـحكُ في مداركِها العبرْ
كُتبَ الخلودُ بها لمجـ	ـزورٍ وليس لمن جزرْ
أضحى بها ابنُ جبير يُتـ	ـلى مثلَ فاتحةِ السورْ

فانظر عاقبة المتّقين وعاقبة المفسدين؛ فأين الحجاج الآن؟ وأين ضخامة بنائه؟ الحجّاج لم يكن إلّا تراباً على ظهر الأرض وعاراً في بطون الكتب ولعنة في أذهان الناس و على ألسنتهم، وهذه هي عاقبة الظالمين.

فهذه الأرض لم تكن دائماً إرثاً للصالحين، بل قد لا يملك الصالحون فيها موطئ قدم، وقد ضاقت على سعيد وأمثاله من المؤمنين؛ وهذا يدلّ بشكل واضح على أن الأرض التي وعد الله تعالى بها المؤمنين هي الجنّة.

---

(١) تاريخ الطبري ٥: ٢٦٠، الطبقات الكبرى ٦: ٢٦٥، سير أعلام النبلاء ٤: ٣٢٨، حلية الأولياء ٢: ٢٩٠ / ٤.

كما أن هؤلاء يقولون: إن القرآن الكريم لا يمكن أن يحمل على الظاهر دائماً؛ لأن هذا الظاهر يصطدم بالواقع أحياناً؛ فكان لا بدّ من تخصيصه بالواقع، وهو ما يعبّر عنه بأنه عموم مخصّص بالواقع. فالقرآن الكريم لا يمكن أن يكون فيه كذب حاشا لله، وعليه فلا بدّ من تأويل هذه الآية بأنها الجنة؛ حتى لا يقع التكاذب.

بيان

قد بيّنت أكثر من مرّة أننا عندما نرجع إلى الروايات فينبغي أن نأخذ منها على الإجمال ما ورد على لسان المعصومين عليهم السلام، وبالطريق الصحيح السالم من المؤاخذة. والغرض من هذا البيان هو أنني أريد أن أبيّن حقيقة ناصعة هي أن القطعة الصغيرة التي يعيش عليها المؤمن تعادل الدنيا بما فيها من نعيم وملذّات، يقول الإمام الحسين عليه السلام: «اللهم إن كنت حبست عنّا النصر عاجلاً، فاجعل لنا ولشيعتنا منزلاً كريماً في مستقرّ رحمتك، واجمع بيننا وبينهم تحت ظلّ عرشك يوم لا ظلّ إلا ظلّك»[1].

الرأي الثاني: أنها أرض القدس

وهذا ما يميل إليه بعض المفسّرين الذين يذهبون إلى أن المراد بالأرض في الآية الكريمة أرض القدس، أي أرض القبلة الأولى؛ فبيت المقدس كان قبلة المسلمين أوّل الأمر حينما شرعت الصلاة.

علّة جعل بيت المقدس قبلة

والظاهر أن المراد من تشريع القبلة إلى بيت المقدس هو أن الله تعالى

---

(١) قريب منه في الإرشاد ٢: ١٠٨، مثير الأحزان ٥٢، تاريخ الطبري ٤: ٣٤٢، البداية والنهاية ٨: ٢٠٣.

يريد أن يثبت للعرب في ذلك الوقت أن التوجّه بالعبادة هو ليس استمراراً لتوجّههم إلى الكعبة ـ ذلك أنهم كانوا يتوجّهون إليها في عباداتهم ـ لأن الله تعالى ليس في جهة، بل إن التوجّه إلى أي جهة يأمر بها هو توجّه إليه تعالى، وليس بالضرورة أن يكون ذلك إلى الكعبة. ولذلك توجّه المسلمون أوّل الأمر إلى بيت المقدس مدّة طويلة؛ لأنه أرض مقدّسة، وهي الأرض التي بارك الله تعالى فيها[1]، وهي مصلّى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والأنبياء عليهم السلام كلهم. كما أنه هو المكان العزيز علينا بكلّ ما فيه من آثار، والذي تربطنا به رابطة العقيدة والروح والوجود والكرامة والدم.

ولا شك أن بيت المقدس من الأماكن العزيزة على نفس كلّ مسلم يتوجّه يومياً إلى الله عزّ وجلّ؛ فهو يذكر أن هذه المنطقة كانت في يوم من الأيام قبلة أسلافه الأولى. كما أنها ترتبط بمشاعرنا من ناحية تاريخية.. ترتبط بمشاعرنا من ناحية الإسراء والمعراج. وهي الآن تشكّل وصمة عار علينا جميعاً لما تتعرّض له من تدنيس على أيدي حفنة من اليهود الذين اغتصبوها من أيدي كلّ هذه الأمم الإسلاميّة. وبناء على هذا الوعد الذي تقرّره هذه الآية الكريمة يقول أحد الأدباء:

بسماتُ المسيحِ فوق ثراهُ ... وشذا من عبيرِه فوّاحُ
وبه من محمدٍ قسماتٌ ... يجتلي حسنَها السنا اللمّاحُ
سيعود السلامُ يا بلدَ القد ... سِ وشيكاً ويطردُ السفّاحُ

---

(١) قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ الإسراء: ١.

وســـــتزهو مــــلاعبُ بــــالصبايا وتـــنثُ الهـــوى وجـــوهٌ صـــباحُ
ليس حــلماً يــا أرضَ قــدسٍ ولكــن كـــفُّ قـــومي بـــدا بـــها مـــفتاحُ[1]

فرية عبد الله بن سبأ

وللحقيقة أقول: إننا قد ابتلينا باليهود وبأذنابهم، وإلّا فإنه لم يكـافح أحدٌ اليهودَ على مرّ التاريخ كما كافحناهم نحن الشيعة، ونحن الآن نرفع شرف مكافحة اليهود، ففي الجنوب اللبناني الشيعي تـرتفع الأصـوات وتلعلع الأسلحة وهي تبارز اليهود[2]. فلتخرس جميع الأصـوات التـي ترمينا بأننا يهود، فاليهود غيرنا وليس نحن. وعندما نسأل هذا المفتري علينا فريتَه هذه عن سبب إطلاقها ضدّنا، وعن دليله عليها، فإنه يـتذرّع بشخصيّة مفتعلة اسمها عبد الله بن سبأ. ونحن نقول لهذا المـفتري: إذا كنت ترمينا بعبد الله بن سبأ واحد، فأنت عندك مئة عبد الله بن سبأ، ومع ذلك نجدك تنزّه نفسك عن وصمة اليهوديّة وتدّعي أنك لست يهودياً. مع أن هذه الشخصية هي شخصيّة وهمية لا وجود لها، وهذا ما يقول به حتى كتّابكم[3].

ولو تنزّلنا وفرضنا أنه شخصيّة حقيقيّة، فهل يعني هذا أن تصبح الأُمة كلّها يهوديّة؟ هذه كتبنا وهذا تاريخنا ابتداء من أمير المـؤمنين عليه السلام وإلى الآن يشهد بذلك؛ ونحن نسأل: على يدي من قتل مرحب؟ فإن كان هناك من يقول: إنه لم يقتله علي بن أبي طالب عليه السلام فإن هذا لا مـجال للـحديث

---

(١) ديوان المحاضر ١: ٧٢.

(٢) وكذلك يوم القدس العالمي الذي أُعلن في الجمعة الأخيرة مـن شـهر رمـضان المـبارك من كل عام.

(٣) لمزيد من الاطّلاع يراجع كتاب (عبد الله بن سبأ) للباحث السيد مرتضى العسكري.

معه؛ لأنه مكابر وعار على الدنيا، وعار على الذوق الإنساني وعلى التاريخ.

وهل علي بن أبي طالب ﷺ محسوب على جهة أو منسوب إلى فئة من المسلمين دون غيرها؟ إنه عطاء للمسلمين كافّة، وهو سيف مشهور دون كلمة الله تعالى.

إذن فسيوفنا قد قارعت اليهود وكذلك سواعدنا قُطعت من أجل إعلاء كلمة الله تعالى وطرد الفكر اليهودي وهي تحاربهم، أما أقلامنا فهي من أول الأقلام التي قارعت اليهود عبر التاريخ، ودونك تفاسيرنا تشهد بذلك، فهي خالية من الإسرائيليّات التي تزخر بها تفاسير غيرنا مثل خبر الجسّاسة[1]. والذي له صلة بهذا التاريخ يعرف هذا المعنى. إننا قاتلنا اليهود وما زلنا نقاتلهم؛ فكراً وقلماً وسيفاً وساعداً.

إذن المقصود بالأرض التي سيرثها الصالحون ـ الأرض الموعودة ـ هي أرض بيت المقدس.. أرض القبلة الأولى والمقدسات.. البلدة التي ابتليت باليهود؛ حيث دنّستها أقدامهم. ونحن لا ننكر أن هذه التربة الطاهرة قد ارتوت من دماء المجاهدين، فهي كانت ولازالت تشكّل بؤرة صراع بين الحقّ والباطل، لكن لا يمكن أن يرفع العار عن جباه المسلمين حتى يستردّوا هذه الأرض الطاهرة ويسترجعوها من أيدي اليهود الغزاة الكفرة. والقرآن الكريم يعطينا هذا الوعد ويذكّرنا أن هذه التربة.. تربة بيت المقدس ستكون مرتع الصالحين من عباده.

---

(١) انظر: مسند أحمد ٦: ٣٧٣، ٣٧٤، ٤١٢، ٤١٧، ٤١٨، صحيح مسلم ٨: ٢٠٤، سنن ابن ماجة ٢: ١٣٥٥ / ٤٠٧٤.

الرأي الثالث: أنها هذه الأرض المعروفة

فالمقصود بالأرض التي سيرثها الصالحون وفق هذا الرأي هي كل هذه الأرض التي نعيش عليها. لكن لنا أن نتساءل: كيف يرثها الصالحون؟ وما معنى هذه الوراثة؟ هل معناها أن هناك من يملك الأرض ولا يعلم ما الذي أودعه الله تعالى فيها ولا كيف يستثمرها، وأن الذي يعرف كيف يستثمرها هو الذي سيرثها؟

أقسام العوامل البيئيّة

ولكي أُقرّب لك هذا المعنى أقول: إن علماء البيولوجيا يقسمون عوامل البيئة إلى قسمين هما:

الأوّل: العوامل الجامدة (Physical factors)

وهي عوامل البيئة الجامدة وإنما سميت عوامل جامدة؛ لأن المقصود بها خواصّ الأرض التي تشكّل النصف الأكبر من عوامل البيئة، وهي الحرارة والهواء والجاذبيّة وخواصّ التربة ومكوّنات الأرض وتضاريسها.

الثاني: العوامل الحيّة (Living factors)[1]

والمقصود بها الأحياء التي تعمر الأرض، وهي التي يعبّر عنها القرآن الكريم بقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾[2]، فيأتي الفلاح ليبذر البذرة ويذهب وهو لا يعلم ما الذي يحصل بعد ذلك من عوامل تخدم هذه البذرة حيث إنها تخدمها المليارات من البكتريا الموجودة في جوف الأرض، وهي تهيئ لها الأسمدة والاملاح. ثم إن مكونات التربة المغذية للنبات تستخرج وتحضر معمليّاً حيث يحقن بها النبات ومنها

(١) Living agent.

(٢) المدّثر: ٣١.

الأوكسينات والفايتمينات وغيرها، وكل هذا دلّتنا عليه الكشوفات العلميّة التي اضطلع بها أهلها.

كما أن هناك أشياء أُخرى بعضها قد يكون غريباً كاستخراج الماء من الأرض، وهم أشخاص موهوبون، وأولهم «بازل فالنتيني» الذي عاش في اواخر القرن الخامس عشر الميلادي، حيث كان يحمل عصا يستدلّ بها على وجود الماء تحت الأرض. ثم جاءت من بعده الكشوفات العلميّة الحديثة التي تتعرّف على مواقع المياه الجوفية.

فهؤلاء هم الذين يستفيدون من الأرض وليس نحن الذين لا نستطيع أن نستخرج المعادن منها، ولا أن نستثمرها، ولا نعرف نوع الزراعة التي تصلح لها. إذن فالذي يعرف هذه الأشياء هو المالك الحقيقي للأرض، وليس نحن. فقوله تعالى: ﴿أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾تعبيره واضح في أن وارث الأمر هو الذي يملك الاستعداد لاستثمارها.

وهذا الرأي نقله أحد الكتّاب في كتابه (بدع التفاسير)، وحمل على صاحبه حملة شديدة، واتّهمه بأنه يدعو الاستعمار إلى احتلال أراضينا، ووصفها بأنها دعوة مقنعة للاستعمار. لكن إذا كان الأمر كذلك فلماذا لا تسبق الاستعمار وتستخرج خيرات الأرض وما فيها من معادن وغيرها؟ ولماذا لا تستثمر البيئة بكل ما فيها وقد سخّرها الله تعالى لك؟ إننا نتمنّى أن نجد من أبنائنا هذا الحرص، وأن نجد فيهم من يستثمر خيراتنا ولا يدع الأجنبي يدخل بلادنا ليستثمرها هو. لكن هذا لا يمنعنا من الاعتراف بالواقع المرّ الذي نعيشه، والذي يجب أن نتأقلم مع آثار الاعتراف به، إننا لا نستطيع بما نملك من إمكانات أن نستثمر هذه الخيرات التي منحنا الله تعالى إياها، فيجب أن نشمّر عن السواعد وأن نتوجّه إلى استثمارها

والاستفادة منها. وإلّا فإن من غير الصحيح أن يتفضّل الله تعالى علينا بكلّ هذه النعم ولا نتوجّه إلى الاستفادة منها، فبلادنا مليئة بالكنوز ونحن غافلون عن استثمارها. فهل إننا لا نعرف كيف يتم ذلك، أم أن القسم الأكبر منا لاهون عنها بالصراعات المحتدمة فيما بينهم. وتكفير بعضهم البعض. فالواجب أن نتوّجه إلى الجانب المهم من المسألة الذي يرتبط بوجودنا مباشرة، وأن نشغله بما يسده ويصبّ في مصلحتنا.

فهذه الحملة ليست في محلّها أبداً، فالأرض فعلاً هي التي يجب أن يرثها الصالحون الذين يعرفون كيف يستثمرونها وكيف يوجّهون الطاقات المخزونة فيها، والكنوز المودعة بها في خدمة الإنسان والبلد. ولا شك أن هؤلاء الصالحين هم الذين سيرثون الأرض ومن عليها، وسيأخذونها منا شئنا أم أبينا، ولن يبقى لنا سوى الاسم، أي أنها ستكون حينها أرضنا بالاسم فقط، لكن الغير هو من يستثمرها ويأخذ من عطائها ما لا نقوى نحن على حصره ومعرفته والإفادة منه.

وهذا في الواقع شيء مؤلم، والمسلمون بأجمعهم مدعوّون إلى أن يتصرّفوا بما منحهم الله عزّ وجلّ من ثروات وخيرات تصرّفاً لائقاً يتناسب مع ضمان هذه الثروات، وأن يتعلّموا كيف يستغلّونها، وكيف يفجّرون خيرات الأرض ويستنبطونها ويصنعونها ويوجّهونها لما فيه خيرهم وخير دينهم وخدمته. وليُعلم بأن الأُمم الأُخرى تحسدنا على ما عندنا من ثروات حسداً عظيماً، فكيف يمكننا أن نتّقي هذا الحسد؟ إن من الممكن أن نتّقيه بالجدّ وبذل الوسع والطاقة في تحصيل المعارف والعلوم، والله تعالى قد دفعنا إلى العلم وتعلّمه، ولم يخصّ ذلك بعلم

من العلوم[١].

العلم ليس للأديان والأبدان فقط!

وقد رأيت بعض الكتّاب الإسلاميّين الذين يتناولون هذا الجانب يقولون: العلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان، والمقصود بهما العقيدة والطب، لكن لنا أن نسأل: هل إن الاجتماع والفيزياء والكيمياء والنفس والفضاء ليست علوماً؟ يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً به. وإنّه ليستغفر لطالب العلم من في السماء ومن في الأرض حتى الحوت في البحر، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر، وإنّ العلماء ورثة الأنبياء»[٢]. وهذا لا ينافي أي علم من العلوم التي تخدم الإنسانية، فكل واحد منها بحدّ ذاته يعدّ علماً محبوباً إلى الله. إذن ماهو الداعي الى حصر العلوم بهذين الجانبين فقط؟

ومن هذا نعلم بأننا مدعوّون إلى الاستفادة من طاقاتنا الذهنيّة والبدنيّة؛ كيلا نسمح لها أن تذهب إلى أيدي غيرنا، وهو ما يحصل الآن. وما يجري في بعض البلاد الإسلاميّة الغنيّة شيء يؤسف له؛ حيث تجد أحدهم لا ينزل إلى عمل من الأعمال البدنيّة المرهقة في حين أننا نرى هذا الذي كان يعيش في جنة من الجنان يأتي بهذا الحرّ الشديد الذي ربما يصل إلى ٥٠ ٪، وينزل إلى بئر عمقها سبعون متراً ثم بعد ذلك يخرج ملطّخاً بالزيوت والأوساخ من أجل أن يعمل وأن يستثمر طاقاته

---

(١) قال عزّ من قائل: ﴿ يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾ الرحمن: ٣٣.

(٢) الجامع الصحيح (سنن الترمذيّ) ٥: ٤٨-٤٩ / ٢٦٨٢.

وقدراته وطاقات الأرض وقدراتها، وهو إلى ذلك يملك قلباً من أروع ما يكون، في حين أننا نأنف من هذا العمل، ونحاذر أن تتّسخ ثيابنا أو أن يصيبها الغبار. كان أمير المؤمنين عليه السلام يخرج من المسجد ثم يمرّ بميثم رضي الله عنه ويشتري منه شيئاً من التمر، ثم يحمله بيده الشريفة، فيتلقّاه شرطة الخميس ويطلبون منه حمل هذا التمر، فيقول: «ربّ العيال أحقّ بحمله»[1].

فانظر إلى هذه العصامية الرائعة التي تمثّل لنا أروع درس عملي في أن نتولّى زمام أُمورنا بأنفسنا، وأن نباشر حاجاتنا دون الاتّكال على غيرنا. أما المتبطّرون كما يروى[2]، فينادي أحدهم ـ وهو المأمون ـ غلامه ويأمره بأن يصبّ الماء على يده ليتوضّأ، فنهاه الإمام الرضا عليه السلام وقرأ قول الله تعالى: ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾[3].

إذن فالأرض إنما يرثها من حمل العلم والفكر والمعرفة. وهذا هو الذي يحصل على أرض الواقع؛ فالأرض الآن مليئة بالخيرات ولم يستثمرها ويوصلها إلى ما هي عليه الآن غير العلماء.

الرأي الرابع: أنها دولة المهدي عليه السلام

إن أصحاب هذا الرأي يذهبون إلى أن المراد بالأرض التي يرثها العباد الصالحون هي الأرض التي تكون في زمان دولة الإمام المهدي عليه السلام؛ حيث إنه عليه السلام سيملؤها عدلاً وقسطاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً. فالأرض مرت

---

(١) الغارات ١ : ٨٩، مناقب آل أبي طالب ١ : ٣٧٢، تاريخ مدينة دمشق ٤٢ : ٤٨٩، البداية والنهاية ٨ : ٦، كنز العمّال ١٣ : ١٨٠ / ٣٦٥٣٧.

(٢) الارشاد : ٣١٥، وسائل الشيعة ١ : ٤٧٨ / ١٢٦٩.

(٣) الكهف : ١١٠.

على امتداد تاريخها الطويل بأزمان سيطرت فيها الانحرافات والظلم والفساد، فالذي ينبغي أن يكون إذن هو أن يسيطر عليها زمان العدل والقسط. وهذا هو لسان الحديث النبوي الشريف الذي يفسّر لنا هذه الآية، تروي كتب الصحاح أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «لو لم يبقَ من الدنيا إلّا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يخرج من أهلي من يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً»[1].

وهذا ما عليه المذاهب الإسلامية كافّة. روى الثعلبي في تفسيره أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «نحن ولد عبد المطلب سادة الجنة؛ أنا وحمزة وجعفر وعلي والحسن والحسين والمهدي»[2]. فبأي معنىً وبأي صفة يكونون سادة الجنة؟ طبعاً بما يستحقّون به ذلك كنتيجة طبيعيّة لما قدّموه من عطاء للإنسانية. فإمامنا الذي ننتظره يستحقّ أن يكون من سادات الجنة، يقول الحديث الذي يرويه أبو داود وينتهي إسناده إلى أبي هريرة: «كيف بكم إذا نزل عيسى بن مريم وإمامكم منكم يصلّي به»[3].

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٩٧، سنن أبي داود ٢: ٣٠٩ / ٤٢٨٢، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٣: ٣٤٣ / ٢٣٣٨، المعجم الأوسط ٢: ٥٥.
وقد روي في كثير من الكتب من غير لفظ: «لطوّل الله ذلك اليوم»، انظر: سنن ابن ماجة ٢: ٩٢٩ / ٢٧٧٩، سنن أبي داود ٢: ٣٠٩ ـ ٣١٠، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٣: ٣٤٣، المصنف (ابن أبي شيبة) ٨: ٦٧٩، صحيح ابن حبّان ١٣: ٢٨٢ ـ ٢٨٣، المعجم الكبير ١٠: ١٣٣، المعجم الأوسط ٢: ٩٩، وغيرها.

(٢) عنه في بحار الأنوار ١٥: ١٠٢، وانظر: سنن ابن ماجة ٢: ١٣٨٦ / ٧٠٨٧، المستدرك على الصحيحين ٣: ٢١١، ثم قال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٣) لم نعثر عليه عند أبي داود، وقريب منه ما في سننه ٢: ٣١٩ / ٤٣٢٤، وهو مروي في الإصابة ٤: ٦٣٧. وقد نقل في فتح الباري ٦: ٣٥٨، عن الشافعي، وفي عون المعبود ١١: ٣٠٧أن الأخبار متواترة في نزول النبي عيسى بن مريم عليه السلام وصلاته خلف الإمام المهدي عليه السلام، بل في (عون المعبود) أنه عليه السلام ينزل بجسده العنصري.

يقول عيسى بن صبيح: دخل العسكري عليه السلام الحبس علينا وكنت به عارفاً، فقال لي: «لك خمس وستّون سنة وشهر ويومان؟». وكان معي كتاب دعاء عليه تاريخ مولدي، فنظرت فيه فكان كما قال، ثم قال: «هل رزقت من ولد؟». قلت: لا. قال: «اللهم ارزقه ولداً يكون له عضداً؛ فنعم العضد الولد». ثم تمثّل:

«من كان ذا ولدٍ يدركْ ظلامتَه إن الذليلَ الذي ليس له ولدُ»

فقلت له: ألك ولد؟ قال: «إي والله، سيكون لي ولد يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، فأما الآن فلا». ثم تمثل وقال:

«لعلك يوماً أن تراني كأنما بنيَّ حوالَيَّ الأسودُ اللوابدُ
فإن تميماً قبل أن تلد الحصى أقام زماناً وهو في الناس واحدُ»[1]

وفعلاً رزقه الله إمام العصر الموعود المنتظر عليه السلام الذي تتوق إليه أبصار المؤمنين.

التشكيك بقضية المهدي عليه السلام

إن من يظنّ أننا نعيش في حالة من الوهم أو الخيال لاعتقادنا بمسألة المهدي المنتظر عليه السلام، أو أننا نعيش حالة تعويض[2] كما هو دأب الكثير من الكتّاب فإنما يخادع نفسه؛ لأن قضية المهدي عليه السلام ثابتة بالسنة المتواترة عند الفرق الإسلامية كافّة. إن هؤلاء الكتّاب يطرحون هذه الفكرة، وهي أن الشيعة قد مرّوا بتاريخ تعرّضوا فيه إلى إبادة وسجن، مما أدّى بهم إلى

(١) الخرائج والجرائح: ٣١٩، كشف الغمّة ٣: ٢٠٧.
(٢) أو ما يسمى بإيجاد المعادل الموضوعي.

أن يكونوا تحت سيطرة حلم من أحلام اليقظة، أي أنهم راحوا يعوّضون الواقع المرّ بالأحلام فيتصوّرون أن هؤلاء الظلمة ستدول دولتهم؛ لخروج من ينتقم منهم ويأخذ بحقّهم لهم. وهذا ما يسمى بعمليّة التعويض.

والواقع أن الأمر خلاف ذلك؛ إذ أن جميع المذاهب الإسلاميّة يقولون بأن من لم يؤمن بالمهدي فهو كافر، بمعنى أنه ينكر ضرورة من ضرورات الدين. وكلّ الكتاب الذين هم على علم بمعرفة علوم الشريعة حينما يتناولون موضوع الإمام المهديﷺ فإنهم يتعاملون معه على أنه حقيقة ثابتة لا سبيل إلى نكرانها، وكل ما في الأمر أنهم يقولون بأنه غير موجود الآن، وأنه سيولد بعد ذلك في آخر الزمان.

أما بناء على نظريتنا ـ من أن الأرض لا تخلو من حجة[1]، وأنه ليس من الضروري أن نلتقيه أو نراه ـ فإنهﷺ مولود حي غائب. والاعتراض بكونه غائباً وبالتالي يكون وجوده كعدمه من جهة عدم إمكان الالتقاء به لا ينهض حجة ومبرراً لنقض فكرة الإمام المهديﷺ؛ فنحن في هذا الزمان نعيش في بلد ونرجع إلى علماء يعيشون في بلد آخر، وتفصلنا عنهم مسافات بعيدة، ومع ذلك فإننا ننتفع بعلمهم وآرائهم ونظرياتهم. فغيبة الإمامﷺ هي غيبة عن الأبصار وليست غيبة عن الوجود. وهنا الفرق واضح؛ إذ أنه ربّما حضر مجالس العلماء وطرح رأيه وفكره في مسألة ما

(١) الأصول الستة عشر (عدة محدثين): ١٦، ٩٠، المحاسن ١: ٣٨، ٩٢ / ٤٥، ٢٣٤ / ١٩٣، ٢٣٦ / ٢٠١، بصائر الدرجات: ٤٨٨ / ١، ٤٨٩ / ٤، ٥٠٥ ـ ٥٠٦ / ٤، ٩ ـ ١٠، ١٥، ٥٠٧ / ١٧، ٥٠٩ / ٨، الإمامة والتبصرة: ٢٥ / باب أن الأرض لا تخلو من حجّة، الكافي ١: ١٧٨ ـ ١٨٠ / باب أن الأرض لا تخلو من حجّة.

مع أفكار وآراء العلماء، وبالتالي فإننا نستفيد منه ومن وجوده.

وهذا ما تنصّ عليه الآيات الكريمة التي تأخذ بأعناقنا وتخبرنا بأنه موجود يعيش بين ظهرانينا ويشكل مصدر أمان لأهل الأرض: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾[1].

وإذا كانت هذه هي العلّة بالنسبة للنبي صلى الله عليه وآله، فالإمام عليه السلام هو امتداد للنبي ومتمّم لخطّه، وقد جعله الله أماناً لأهل الأرض، يقول الحديث الشريف: «النجوم أمان لأهل السماء فإذا ذهبت النجوم أتىٰ أهل السماء مايكرهون، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض فإذا ذهب أهل بيتي أتىٰ أهل الأرض مايكرهون»[2].

فهذه النصوص ونظائرها تأخذ بأعناقنا للاعتراف بوجود الإمام عليه السلام، وأنه حقيقة قائمة وواقعة، وهو يعيش بيننا؛ وبالتالي فإننا لا نجترّ الأحلام ولا الخيالات، ولا نقوم بعمليّة تعويض، بل الأمر على العكس من ذلك؛ فهذه الكتب ملأى بالنصوص التي تؤكّد هذه الحقيقة. ولا يكاد أحدنا يجد كتاباً لا يتناول فكرة الإمام المهدي عليه السلام ويشرحها ويثبتها.

وهذا ما عليه المسلمون كافّة، ومن لا يعرف هذه الحقيقة أو ينكرها فهو لا يعرف كيف ينظر إلى التاريخ، بل ليس هذا عمله.

دليليّة التواتر على وجود الإمام المهدي عليه السلام

إننا الآن ندين بالإسلام ونؤمن برسالة نبيّنا صلى الله عليه وآله عن طريق التواتر،

---

(١) الأنفال: ٣٣.

(٢) انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، المعجم الكبير ٧: ٢٢ ـ ٢٣، نوادر الأصول (الحكيم الترمذي) ٣: ٦٣، ٦٦ / الأصل: ٢٢٢، ينابيع المودّة ١: ٧٢ / ٤ وغيرها

ومعنى التواتر هو وجود جماعة في كل زمان يؤمن جانبهم من التواطؤ على الكذب، فيخبرون بشيء، ويكون إخبارهم هذا المتواتر حجّة ودليلاً على صدق القضيّة[1]. ومثال ذلك أنك تعيش هنا فيأتيك شخص يحدّثك عن مدينة اسمها «ديترويت»، ثم يأتيك ثانٍ فيحدّثك عنها بمثل ما حدّثك عنها الأوّل، ثم يأتي ثالث فيحدّثك عنها أيضاً بمثل ما حدّثك به سابقاه، فإنك حينئذٍ تصدّق بوجودها وإن كنت لم ترَها؛ لوجود التواتر هنا. فالتواتر إذن هو ما يكون من طبقة عن طبقة يتعذّر تواطؤهم على الكذب.

إذن فنحن إنما أخذنا علوم الإسلام بالتواتر، وكذلك أخذنا رواية الإمام المهدي عليه السلام بالتواتر أيضاً. وبالنتيجة فالإمام المهدي عليه السلام هو الذي يرث الأرض ليملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، وليرفع فيها كلمة الله عز وجل، ولينشر بيننا القرآن الكريم غضاً طريّاً أي من غير تلاعب بمفاهيمه ولا عبث وتحريف بتفسيره؛ لأنه عليه السلام هو المنبع الذي يشرح علوم القرآن.

ونحن نقول له: سيدي يا صاحب العصر، إن أعناقنا إليك ممتدّة، وأبصارنا إليك شاخصة، يقول أحد الأدباء:

شخصنا إليك بأبصارنا ... شخوص الغريقِ لمرّ السفنْ

فالواقع نحن غرقى في بحر مظلم، وننتظر فيه من يخلصنا فنتوجّه إليه، لكن متى يأذن الله تعالى له؟ هذا ما لم تحدّده الروايات، نعم إنها تعطينا علائم على ظهوره لكن نحن توّاقون إلى رؤياه، ومنتظرون طلعته الرشيدة

---

(١) انظر اصطلاحات الأصول: ١٤٢.

وغيرته الحميدة. وهذا الانتظار لا يعني تعطيل حكم من أحكام اللّه، وأرجو ألّا يختلط الأمر عليكم، فنحن الآن نقول بأن الجهاد واجب سواء وجد الإمام بيننا أو لم يوجد، رأيناه أو لم نرَه، وأعمالنا في الدنيا كلّها نحن مكلّفون بها. ففكرة الإمام عليه السلام وغيبته لا تعيقاننا عن أداء واجبنا وعباداتنا، ولا تحولاننا إلى مجتمع مشلول أبداً.

وغاية ما في الأمر أننا نرنو الإمام عليه السلام ونتوق إليه؛ لأننا نريد منه أن يقيم العدل وأن يضع الأشياء في مواضعها، غير أن أمر خروجه لا يكون حتى يأذن الله. يقول أحدهم: رأيت في عالم الرؤيا شخصين، فسألت عنهما فقيل لي: هذا الإمام المهدي عليه السلام وهذا الذي إلى جانبه هو السيد حيدر الحلي. يقول: فسمعت الإمام عليه السلام يخاطب السيّد الحلي بقوله: يا سيد حيدر، كفاك عتباً؛ فلقد قصمت ظهري إذ تلحّ علي بالعتاب:

ماذا يهيجك إن صبرت لوقعة الطف الفظيعة
أترى تجيء فجيعةٌ بأمضَّ من تلك الفجيعة
حيث الحسينُ على الثرى خيل العدى طحنت ضلوعَهْ
قتلته آلُ أميةٍ ظامٍ إلى جنبِ الشريعة
ورضيعُه بدمِ الوريدِ مخضّبٌ فاطلب رضيعهْ
يا غيرةَ اللهِ اهتفي بحميةِ الدينِ المنيعة
وظبا انتقامِك جردي لطلا ذوي البغي التليعة
ودعي جنودَ اللهِ تملأ هذه الأرض الوسيعة[1]

فالإمام عليه السلام يقول له: أنت تلح عليّ بهذا الأمر، وإلحاحك يؤلمني، غير

(١) رياض المدح والرثاء: ٣٢.

أني لا أملك من أمري شيئاً، فأنا أنتظر فيه أمر الله تعالى. ولذا فإن السيد ﷺ يخاطبه كلّ يوم بقوله:

فيما اعتذارك للنهوض وفيكُمُ للضيمِ وَسمُ فوق كلِّ جبينِ
أيمينكم فقدت قوائمَ بيضها أم خيلُكم اضحت بغيرِ مُتونِ[1]

يقول المؤرّخون: إذا خرج الإمام المهدي عليه السلام يأتي أولاً إلى ضريح أبي عبد الله عليه السلام، فيقف عليه قليلاً ثم يجلس ويمدّ يديه، فيستخرج عبد الله الرضيع، ثم يعرضه على أصحابه، فيقول لهم: «ما ذنب هذا الطفل الرضيع، يقتل وهو على يدي أبيه؟».

أقول له: سيدي أنت رأيت الأمر بعد الواقعة، وبعد هذه المدّة الطويلة وتأثرت كلّ هذا التأثر، فكيف سيكون الأمر لو أنك رأيته لحظتها، وجدّك الحسين يحمل رضيعه على يديه وهو يضطرب على عضديه ودماؤه تسيل؟ نعم رجع به الحسين عليه السلام إلى المخيّم ثم صاح: «رباب، خذي ولدك مذبوحاً». فتناولت رضيعها ورجعت به إلى الخيمة:

ولو تراه حاملاً طفله رأيت بدراً يحمل الفرقدا
مُخضّباً من فيض أوداجه ألبسه سهم الردى مجسدا[2]

---

(١) ديوان السيد حيدر الحلّي: ١١١.

(٢) المجسد: الثوب الملاصق للجسد، يريد: أن السهم ألبسه ثوباً من دم. انظر المعجم الوسيط: ١٢٢ ـ جسد.



﴿٥٨﴾

فكرة الإمام المهدي عليه السلام عند المذاهب الإسلامية

إلى الحشر حتى يبعث اللّه قائماً يفرّج عنا الهمّ والكرباتِ [١]

المباحث العامة للموضوع

المبحث الأوّل: قضية الإمام المهدي في الفكر الإسلامي

لعل من الأُمور المهمّة التي تمتدّ على مساحة واسعة من الفكر الإسلامي، وتشغل بال الكثير من الكتّاب المسلمين، والتي دار حولها نقاش طويل وحادّ هي قضية الإمام المهدي عليه السلام. وهي من القضايا التي اختلفت فيها الآراء وكثرت حولها التفسيرات وسبل الأخذ والرد.

محاور البحث

ويمكن تلخيص هذه القضية على ضوء محاور أربعة هي:

الأوّل: هل إنّ روايات المهدي عليه السلام مختصة بالشيعة فقط كما توحي به كتابات البعض، أم إنّها من مرويّات المسلمين كافّة؟

الثاني: هل إنّ الإمام المهدي عليه السلام موجود فعلاً حالياً بناءً على القول

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٦٤ / ٣٤، كمال الدين وتمام النعمة: ٣٧٣ - ٣٧٦، دلائل الإمامة: ١٨٢، إعلام الورى: ٢٣٠.

بوجوده، وصحة الفكرة حوله، أم إنه سيولد بعد في زمان خروجه؟

الثالث: على فرض وجوده، ما هي الجدوىٰ منه إذا كانت الأُمّة لا تستطيع أن تصل إليه وتتّصل به وتستفيد من علمه؟

الرابع: ما هو مردود فكرة الإمام المهدي عليه السلام؟ وهل هو مردود إيجابي يمكن أن ينتفع به الناس والمجتمع الإسلامي أم لا؟ وإذا كان المردود إيجابياً فما هو؟

سنحاول تلخيص النزاع في هذه المحاور؛ وهو نزاع مطوّل ذو شعب كثيرة، وقد تزامن مع أُخريات عصر الأئمّة عليهم السلام وبعد غيبة الإمام عليه السلام سيّما الغيبة الكبرىٰ. وكان هذا النزاع يمرّ بأدوار سجال تتراوح بين القوّة والضعف والشدّة والفتور، أي أنه يشتدّ في بعض العصور ويعنف ثم يأخذ صفة الاعتدال وهكذا.

لكن مع كل هذا يبقىٰ أصل الفكرة محل أخذ وردّ بين المسلمين.

المحور الأوّل: روايات المهدي في المدوّنات الإسلامية

إنّ الروايات المختصّة بالإمام المهدي عليه السلام والتي وصلتنا عبر التاريخ والكتب لم تكن عن طريق الشيعة أو الكتب الشيعية فقط، وإنما هي موجودة ومبثوثة في كتب المذاهب الإسلامية كافّة. وقد يستغرب البعض حينما يجدني أُقرّر أنّ روايات الإمام المهدي عليه السلام عند المذاهب الإسلامية هي أكثر منها عند الشيعة، ومن يظن أنّ الشيعة وحدهم من اختصّوا بهذا الموضوع واحتضنوه فهو لا يملك أدنى فكرة عن الموضوع ولا علم له به. ومن أراد أن يتحقّق من مصداقية هذا فبوسعه أن ينظر في كتب الحديث التي تناولت هذا الموضوع، وأقصد بها السنن والصحاح بأجمعها، فسيجد أنّها قد حفلت بروايات الإمام المهدي عليه السلام، مع

اختلاف لسان الروايات فيها ومن ذلك قول رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «أبشروا بالمهدي فإنه يبعث على اختلاف من الناس شديد، وزلازل يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً. ويرضى به ساكن السماء، وساكن الأرض، ويملأ الله به قلوب عباده سروراً»[(١)].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «المهديّ من نسل فاطمة سيدة نساء هذه الأمة ـ طالت الأيام أو قصرت ـ يخرج فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً»[(٢)].

وروايات أُخرىٰ مثل «المهديّ منّي»[(٣)]. و«المهديّ منّا أهل البيت»[(٤)]. وغيرها من الروايات الكثيرة ذات الصيغ المختلفة والأساليب المتكثّرة، وكلها تصبّ حول فكرة الإمام المهدي عليه السلام.

وبهذا نلاحظ أنّ كتب المذاهب الإسلامية مشحونة بروايات هذا الباب، والتأكيد على وجوده وتكفير منكره، يقول ابن حجر حين سئل عمّن ينكرون خروج المهديّ المنتظر عليه السلام: «فهؤلاء المنكرون للمهدي الموعود به آخر الزمان، وقد ورد في حديث عن أبي بكر الإسكافي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من كذّب بالدجّال فقد كفر، ومن كذّب بالمهديّ فقد كفر»... ونملي عليك من الأحاديث المصرّحة بتكذيب هؤلاء وتضليلهم وتفسيقهم ما فيه مقنع وكفاية لمن تدبّره»[(٥)].

إنه يعتبر وجود الإمام المهدي عليه السلام ضرورة من ضرورات الدين لتواتر الروايات بذلك؛ بدليل أنه كفّر منكره؛ لأنّه يؤول إلى كونه منكراً لضرورة

---

(١) كمال الدين: ٢٢، شرح الأخبار ١: ١٢٣، مسند أحمد ٣: ٢٧، ٢٨، ٣٧، ٥٢، ٧٠، سنن أبي داود ٢: ٣٠٩.
(٢) شرح الأخبار ٣: ٣٦٣.
(٣) مسند أحمد ٣: ٣١٠.
(٤) المستدرك على الصحيحين ٤: ٤٦٥، عمدة القاري ١: ١١٣، تحفة الأحوذي ٦: ٤٠٣.
(٥) هوية التشيع (المحاضر): ١٨١ عن (الفتاوى الحديثية) لابن حجر.

من ضرورات الدين، كما قلنا. وهذا طبعاً تقرير ناشئ عن كثرة الأحاديث أو الروايات التي عالجت هذا الموضوع وأثبتته. وعليه فلا يمكن القول: إنّ الشيعة وحدهم هم من يقول بالإمام المهدي عليه السلام أو أنّ كتبهم فقط هي التي تنقل الروايات التي تختصّ به والتي تعالج هذه القضية كفكرة متبناة عندهم.

المحور الثاني: هل إنّه عليه السلام موجود بالفعل أم أنه سيولد فيما بعد؟

وهذا المحور بالذات سيتضمّن الكلام على المحور الثالث كما سيأتي، وهو محور الخلاف بين الإمامية وبين بقية المذاهب الإسلامية الأخرى الذين يقولون بأننا نسلّم بأن اللّه عزّ وجلّ سيبعث الإمام المهدي عليه السلام في الأرض فيملؤها قسطاً وعدلاً، ونسلّم بصحّة الروايات الواردة في ذلك لكننا لا نسلّم بوجوده الآن فعلاً.

إشكالات أهل السنة على وجود المهدي عليه السلام وأسبابها

وهذا الاعتقاد عندهم ناشئ من أنه يتضمّن عدة إشكالات تعود للأسباب التالية:

الأوّل: أنّ في وجوده عليه السلام خرقاً للعمر الطبيعي للإنسان

فهم يقولون: إنّ هناك معدّلاً طبيعيّاً للأعمار، وعمر الإنسان الطبيعي يجب ألّا يتجاوز معدّلاته المعروفة والمألوفة، وهي سبعون أو ثمانون سنة. وهذا الإشكال يتضمّن أغلب الكلام على هذا المحور؛ لأنه إشكال مبتنٍ على أنّ المهدي عليه السلام هل هو موجود بالفعل أم لا؛ لأن وجوده بالفعل يستلزم خرق النواميس والعادات البشرية.

فإذا عاش الإنسان خارج هذا النطاق أو المعدّل فإنه يكون قد دخل

ضمن النطاق غير المعقول للأعمار؛ خصوصاً إذا كان الخروج عن المعدّل خروجاً هائلاً جدّاً؛ حيث إنّ عمر الإمام المهدي عليه السلام الآن قد تجاوز الألف سنة بكثير. وعليه فإنّ عمراً كهذا يكون خارجاً عن النظام الطبيعي المألوف بكل المعايير.

الثاني: عدم جدوى وجوده لعدم التمكن من الاتصال به

وهذا هو الإشكال الثاني أو السبب الثاني لعدم القول بوجوده حاليّاً؛ حيث إنّ الشيء الذي لا يمكن الاستفادة منه يكون وجوده كعدمه ـ أي عبثاً ـ وبما أننا لا نتمكن من الوصول إلى المهدي عليه السلام ولا نستطيع الاستفادة منه، والمفروض أن يكون الإمام على تماسّ مع الناس وأن يكون مصدر هداية. فإذن لا يمكن القول بوجوده فعلاً.

الثالث: أنّ الاعتقاد بوجوده إلغاء للتكاليف

وهذا الإشكال يمثل المحور الرابع من محاور بحثنا، وهو إشكال قائم على أن الاعتقاد بوجود المهدي عليه السلام كل هذا العمر الطويل والمدى الواسع، ثم إنّه سيخرج ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً ـ أي أنه عليه السلام تناط به وحده مسؤولية تصحيح الأوضاع الشاذّة في الأرض، ومهمّة إقامة دولة العدل ـ معناه إلغاء التكاليف سيما وظيفتي الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا يعني شلّ حركة الأمّة، لأنها ستبقى تنتظر الفرج على يديه.

الرابع: عدم صحة الاحتجاج بالغائب

وتقرير هذا الإشكال أنه كيف يصح القول بأنّ الله تعالى يحتجّ على العباد بإمام لا يرونه؟

مناقشة بعض هذه الإشكالات

وتكون الإجابة على هذه التساؤلات كالآتي، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الإجابة على الإشكال الثاني ستكون موضوع المحور الثالث، ومناقشة الإشكال الثالث ستكون موضوع المحور الرابع من محاور بحثنا هذا:

مناقشة الإشكال الأوّل

وهو الإشكال الذي يقوم على التساؤل: هل إنّ الإمام المهدي مولود فعلاً ويعيش بيننا، أم إنه سيولد في أوان خروجه؟ وزمان إيذان اللّه تعالى له بذلك؟

أدلة وجود الإمام المهدي عليه السلام

الدليل الأوّل: رواية أنّ الأرض لا تخلو من حجّة

والجواب أنه مولود فعلاً ويعيش بيننا، والأدلّة على هذا كثيرة، منها قوله صلى الله عليه وآله: «**لا تخلو الأرض من حجّة**»[1].

والمقصود بـ«حجة» هنا هو من يمثّل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله؛ لأننا لا نستطيع أن نجعل غير المعصوم حجّة فيما بيننا وبين اللّه تعالى[2]؛ إذ أنّ غير المعصوم تحتمل منه المعصية، وفي حال صدورها منه تسقط حجّيته، ولا يمكن اعتبارها فيه حينئذٍ. ولذلك فنحن الآن لا نعتبر قول

---

(١) انظر: الأُصول الستة عشر (عدة محدثين): ١٦، ٩٠، المحاسن ١: ٣٨، ٩٢ / ٤٥، ٢٣٤ / ١٩٣، ٢٣٦ / ٢٠١، بصائر الدرجات: ٤٨٨ / ١، ٤٨٩ / ٤، ٥٠٥ـ٥٠٦ / ٤، ٩ـ١٠، ١٥، ٥٠٧ / ١٧، ٥٠٩ / ٨، الإمامة والتبصرة: ٢٥ / باب أن الأرض لا تخلو من حجّة، الكافي ١: ١٧٨ ـ ١٨٠ / باب أن الأرض لا تخلو من حجّة.

(٢) قال الإمام عليه السلام: «وان أئمتكم وفودكم إلى الله، فانظروا من توفدون في دينكم». قرب الأسناد: ٧٧، كنز الفوائد: ١٥٢.

الفقيه حجة لأنّه قول للفقيه، بل لأنّه ينقل النصّ الشرعي الذي هو قول الله تعالى أو النبي أو المعصوم عليه السلام أو يستنبط الحكم منه؛ إذ أنّ الفقيه عندنا هو قناة لنقل الحكم من منبعه (المشرّع) إلى مصبّه (المتلقّي أو المكلّف). إذن إنّما تتمّ الحجّة بوجود المعصوم.

الثاني: رواية من «لم يعرف إمام زمانه»

ومن الأدلّة على وجود المهدي المنتظر عليه السلام حالياً هو قول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»[١] وهي رواية يرويها جمهور المسلمين[٢]، فإذا كان إمام الزمان غير موجود، فكيف يمكن معرفته؟ وعليه فلابدّ من وجوده في كل عصر وزمان كي تمكن معرفته والإيمان به، ليخرج المسلم من ربقة ميتة الجاهلية.

ثم إنّ مسألة أن يعيش الإنسان كل هذه الفترة الطويلة ضمن النطاق الطبيعي هو أمر غير ممكن بأي حال من الأحوال ولا يمكن أن يكون؛ لأنّه خلاف العادة وخلاف الطبيعة البشريّة. ونحن لا نعدو هذه الحقيقة ولا نقول بخلافها لكننا في المقابل نتكلم ضمن النطاق الإعجازي، وحينئذٍ فلا مشكلة، وهذا له نظائر كالنبي نوح والخضر والنبي عيسى عليهم السلام.

وهذا بإجماع المسلمين، فكلّهم يقولون ببقاء هذين الأخيرين عليهما السلام حيين[٣]. فالكلام إذا كان في حيّز المعجزة فلا إشكال حينئذٍ فيما يقع

(١) الإمامة والتبصرة (ابن بابويه): ١٥٢، كمال الدين: ٤٠٩ / ٩.

(٢) شرح المقاصد ٢: ٢٧٥، وذكر الشيخ الأميني في الغدير ١٠: ٣٦٠ أن الشيخ عليّاً القاري صاحب (المرقاة) حكاه في خاتمة الجواهر المضية ٢: ٥٠٩ عن (صحيح مسلم).

(٣) وقد تمكّن العلماء عبر الهندسة الوراثيّة من إطالة عمر الفار، فإذا كان الإنسان يقدر على

ذلك الكلام عليه. وهناك الكثير من المعجزات التي وصلت وخرقت العادة، وهي موجودة في كتب جميع المسلمين؛ كقضية النطق التي هي من مختصات الإنسان وسماته، لكن القرآن الكريم يحدّثنا عن الشجرة التي كانت تكلّم النبي موسى عليه السلام، والروايات تحدّثنا عن حنين الجذع لمجلس رسول الله صلى الله عليه وآله بعد وفاته. ولنا أن نسأل: لماذا تعتبر حنين الجذع أمراً معجزاً وقابلاً للوقوع ولا تعتبر إطالة عمر الإنسان أمراً معجزاً قابلاً للوقوع؟

إنّ الذي يدعونا إلى القول بهذا المعجز هو كثرة الروايات التي تلزمنا به وتأخذ برقابنا للاعتقاد به والتصديق بوقوعه، فالروايات كثيرة حول الإمام المهدي عليه السلام، وهي تثبت وجوده بما لا يقبل التشكيك إلّا عناداً. فنحن هنا ملزمون بأن نوجه هذه القضية ـ لكثرة الروايات الملزمة ـ إلى أنّ وجود الإمام عليه السلام هو أمر إعجازي. فكلّ عمر خلاف العمر الطبيعي لا بدّ أن يكون معجزة، وليس له إلّا هذا التفسير. والمسلم مدعوّ إلى الإيمان بالمعجزات كلّها أمّا أن يؤمن ببعضها ويكفر ببعض فهذا غير مقبول وغير موضوعي؛ لأنّ الموضوعية تحتّم الإيمان بالأمثال على حد سواء.

مناقشة الإشكال الثاني (المحور الثالث)

وهذا الإشكال كما قلنا هو المحور الثالث من محاور بحثنا، وهو: إذا كان موجوداً فلماذا لا يرىٰ؟ وما الفائدة حينئذٍ من وجوده. و الجواب على هذين التساؤلين يكون في مقامين:

هذا، فكيف بالله تعالى؟

الأوّل: أنّ وجوده عليه السلام لطف بالمكلّف

فنقول: إن لهذه الحالات نظائر[١]، ويقول العلماء: إنّ وجود الإمام عليه السلام هو لطف إلهي للمكلّفين وبهم، بمعنى أنّ كل المسلمين يعتقدون الآن بوجود الجنة والنار، والقرآن الكريم يصرّح بهذا في موارد كثيرة[٢] منها ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٣]، وأُعدت بمعنى هيّئت، أي أنّها موجودة فعلاً، مع أننا لا يمكن لأحد منا أن يصل إلى الجنة والنار، فهل معنى هذا أنّ وجودهما عبث؟ إذ أننا الآن في دار تكليف ولسنا في دار جزاء، وإذا أساء أحد المكلّفين أو أحسن فهو لا يُدخل النار أو الجنّة الآن، بل إنّه سيحشر يوم القيامة، ثم يجازىٰ حينها على عمله.

إذن فما فائدة الجنة والنار الآن؟ ولماذا هما موجودتان بالفعل مع أننا لا نستطيع أن نصل إليهما ولا أن نحشر فيهما الآن، واللّه تعالى منزّه عن العبث؟ يجيب علماء المسلمين على هذين التساؤلين وغيرهما بأنّ هناك لطفاً من اللّه تعالى بعباده حيث أوجدهما الآن وخلقهما مع أننا لا نتمكن من الوصول إليهما. فهو لطف من اللّه تعالى للمكلف وبه؛ إذ أن المكلّف إذا عرف أن هناك ناراً وجنة وأنهما أُعدّتا له؛ إن أحسن فللجنّة لينعّم

---

(١) أمّا النبي نوح عليه السلام فدعوته لقومه قبل الطوفان فقط تسعمئة وخمسون سنة كما نص القرآن على ذلك: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾العنكبوت: ١٤. هذا عدا عمره الشريف قبل الدعوة وبعد الطوفان.

(٢) فأغلب الأنبياء وأوصيائهم عليهم السلام كانت لهم غيبات عن أقوامهم، ومن أراد الاطلاع أكثر فليرجع إلى كتاب (إكمال الدين وإتمام النعمة) للشيخ الصدوق رحمه الله إذ أنه ذكر فيه كل من كانت له غيبة ثابتة بالطرق المعتبرة من الأنبياء وأوصيائهم.

(٣) آل عمران: ١٣٣، وكذا ما ثبت من حديث المعراج، ورؤيته صلى الله عليه وآله النار وأهلها.

فيها، وإن أساء فللنار ليعاقب فيها، فإن هذا سيكون له تأثير على سلوكه؛ حيث إنّه حينها سيخشىٰ النار ويحاول تجنّبها ويسعىٰ لذلك، وسيطمع في الجنة ويحاول الوصول إليها ويسعى لذلك لمرحلة ما بعد الموت. وبهذا يكون وجودهما لطفاً بالمكلفين.

وفي قضية الإمام المهدي عليه السلام يكون الجواب نفسه؛ حيث إنّ وجود الإمام فيه لطف بالمكلف وإن لم يكن هذا المكلّف يراه.

الثاني: أنه عليه السلام يُرىٰ ويستفاد منه

إنّ هذا التقريب المارّ هو تقريب بناءً على القول بأنّ الإمام عليه السلام لا يمكن أن يرىٰ، وتسليماً لمن يقول بذلك، أما وجه الحقّ فمن قال: إنّه عليه السلام لا يمكن أن يرىٰ أو يُتّصل به؟ إنّ الحقّ أنّه عليه السلام يمكن رؤيته لكن لا يمكن معرفته. وهذا له نظائر عندنا أيضاً، فالمسلمون بأجمعهم يرون أن النبي عيسى عليه السلام رفع إلى السماء حياً، وأن الخضر حيّ كذلك، وهذا بإجماع منهم، وأن الخضر يرىٰ من قبل فئة خاصة، أي أنه حي يعيش معنا لكن لا يمكن معرفته، وكذلك الإمام المهدي عليه السلام، فإنّه يمكن أن يلقي بين العلماء رأيه في مسألة ما يكون اختلافهم فيها كبيراً، ويمكن أن يرشدهم إلى الجواب الصحيح دون أن يعرفوه. وهذا ما عليه أغلب جمهور علماء الشيعة الإمامية[1].

---

(١) أي أنّ هناك من يقول منهم بعدم الرؤية زمن الغيبة الكبرىٰ ويروون في ذلك روايات منها ما في أنه قد خرج التوقيع الشريف إلى أبي الحسن السمري، وفيه: «قد وقعت الغيبة التامّة، فلا ظهور إلّا بعد إذن الله تعالى ذكره، وذلك بعد طول الأمد، وقسوة القلوب، وامتلاء الأرض جوراً. وسيأتي من شيعتي من يدّعي المشاهدة، ألا فمن ادّعى المشاهدة قبل خروج السفياني والصيحة، فهو كذّاب مفترٍ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم». كمال الدين وتمام النعمة: ٥١٦، الغيبة (الشيخ الطوسي): ٣٩٥، الاحتجاج ٢: ٢٩٧، بحار

مناقشة الإشكال الثالث (المحور الرابع)

وهذا الإشكال كما مرّ هو عينه المحور الرابع من محاور هذا البحث ـ لتداخل موضوعات البحث ـ وهو إشكال قائم على التساؤل حول المردود الإيجابي لفكرة المهدي عليه السلام، وأنّها فكرة تقوم على إلغاء التكاليف وشلّ حركة الأمّة. والجواب على هذا الإشكال يكون في مقامين:

الأوّل: أنّ روايات المهدي عليه السلام لا تلغي التكاليف

فهذا الكلام غير واقعي وغير صحيح، وهو مرفوض على الإطلاق؛ لأنّه في الوقت الذي جاءت الروايات المثبتة لفكرة الإمام المهدي عليه السلام والمبشّرة به جاءت روايات في مقابلها لم تأمر بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل إنها جاءت تحثّ على القيام بهذه الوظيفة الشريفة

الأنوار ٥٢: ١٥١ / ١.

أمّا القائلون بإمكان الرؤية فهم كثر، ويروون في ذلك روايات كثيرة أيضاً منها رؤية العلّامة رحمه الله له عليه السلام حيث ساعده على نسخ كتاب رأس السنّة آنذاك، وكان قد كتب في الرد على الإمامية كتاباً، فاحتال العلّامة في تحصيله فلما حصل عليه أخذه إلى البيت ليستنسخه على قدر إمكانه لكن النوم غلبه فإذا بالحجّة عليه السلام يدخل عليه يقول له: «اجعل الأمر في هذه الكتابة إلي ونم». ففعل ولما استيقظ رأى نسخة الكتاب كاملة بكرامة الحجّة عليه السلام، وفي آخره: «كتبه (م ح م د) بن الحسن العسكري صاحب الزمان». مجالس المؤمنين ١: ٥٧٣، النجم الثاقب: ٢٩٤ ـ ٢٩٥، جنّة المأوى ٢: ٢٥٢، قصص العلماء: ٣٥٨.

وهناك وروايات أُخرىٰ غيرها، منها رواية وقوع العصا من يد العلّامة ومناولة الإمام عليه السلام له إيّاها، ثم قوله له جواباً على سؤال العلّامة: «كيف لا يمكن رؤية صاحب الزمان ويده في يدك؟»، قصص العلماء: ٣٥٨.

ومن أراد أن يطلع أكثر على رؤيته عليه السلام في زمن الغيبة الكبرىٰ فليرجع في هذا المجال إلى بحار الأنوار ٥٢: ١٥٩ ـ ١٧٨.

السـامية، وجـاءت روايـات تـحث عـلى فـريضة الجـهاد المـقدّسة. والمسلمون بصورة عامة يرون الآن أنّ فريضة الجهاد قائمة والأمر بـها نافذ؛ فإذا توفّرت شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو شروط الجهاد وجبا، وأصبح لزاماً على المسلمين أن يقوموا بهاتين الفريضتين الشريفتين سيما فريضة الجهاد المقدسة.

إذن فكرة الإمام المهدي عليه السلام لا تلغي التكاليف ولا تشلّ حركة الأمة؛ فهي لا تنهىٰ عن بناء مصنع أو استصلاح أرض وزراعتها، ولا تدعو إلى الإحجام عن مقاومة العدو حينما يـعتدي عـلى أرض المسـلمين، بـل العكس هو الحاصل، وهو بناء على أوامر القرآن وتوجيهاته وإرشاداته، فهو يأمر باستثمار الطـاقات البشـرية وطـاقات الأرض والجـوّ، ويأمـر بالدفاع عن الوطن والأرض، ويأمر بأداء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وكل من يشكّ في هذا، فليرجع إلى كتب الإمامية، وليـنظر بابي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد فيها، وليرَ هل عطّلت أحكامهما؟ وهل يقول فقهاؤنا بتعطيلهما؟ طبعاً لا؛ فهم لا يقولون بهذا، وحكمهما لا زال قائماً عندنا[1].

الثاني: أنّ الحقّ المراد في الروايات هو حق أهل البيت عليهم السلام

ثم هل إنّ روايات خروج صاحب الزمان عليه السلام تأمرنا بانتظاره حتىٰ يأخذ لنا بحقّهم وحقّنا ممّن ظلمهم واغتصبهم حقوقهم على مدىٰ إمامتهم عليهم السلام وظلمنا بحيث إننا لا نتحرّك طلباً لذلك الحق؟ طبعاً لا، فالقرآن الكريم

(١) للاستزادة انظر أجوبة مسـائل جار الله: ٦١ ـ ٦٦ / المسألة: ٧. والكتاب إجابة لمسـائل أثارها التركستاني موسى جار الله.

يقول: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[١].

إذن هذه الدعوى ـ دعوى أن فكرة الإمام المهدي (عجّل الله فرجه الشريف) تشلّ الحركة عند الأُمّة وتركنها إلى الجلوس والتقاعس ـ هي مغالطة؛ لأنها غير موجودة عندنا أبداً، والإشكال عليها إشكال على شيء معدوم؛ فيكون إشكالاً باطلاً بالضرورة.

المبحث الثاني: المردود الإيجابي لفكرة المهدي عليه السلام

وهو مردود يقوم على أساس أنّ فكرة الإمام المهدي عليه السلام هي فكرة وجود العدل، بمعنى أنّ اللّه تعالىٰ يريد أن يشدّ العباد إلى هذه الفكرة ـ فكرة العدل ـ ويشعرهم أنّ الظلم أمر غير مرغوب به في الأرض، وأن كل ظلم يحدث فلابد من إيجاد المقوّمات الأساسية لتعديله وتقويم مرتكبه.

والواقع أن الاعتراف بفكرة وجود المهدي عليه السلام هو أمر يشدّنا إلى فكرة العدل ووجوب تحقيقه في الأرض بين الناس، والوقوف بوجه الظلم، وكذلك يشدّنا إلى فكرة الاستقامة. فالوقوف بوجه الظلم أمر محبّذ تدعو إليه الشرائع والعقول المستنيرة. ومعنى «يملأ الأرض قسطاً وعدلاً»: أنّ الأرض من غير عدل لا تستقيم، وأنّ المتعيّن على المسلم دفع الظلم ومحاربته والوقوف بوجهه.

هذا فضلاً عن أنه ليس هناك أي مردود سلبي أو أي لون من ألوان السلبية لفكرة الإمام المهدي عليه السلام، خصوصاً بعد أن وصلت الأحاديث حدّ التواتر، كما أنّها لا تتعارض مع طاقات الأمة

---

(١) البقرة: ١٩٤.

هذه فكرة مجملة عن الإمام المهدي ﷺ وددت إيرادها؛ لأننا في آخر جمعة من شهر رمضان المبارك، ونحن في ظلّ صاحب العصر والزمان ﷺ ورعايته وعنايته وحياطته (عجّل الله تعالىٰ فرجه، وسهّل مخرجه، وفرّج عنا به، ونسأله تعالى أن يسدّدنا بالقول والعمل).

المبحث الثالث: أسئلة وأجوبة

هذه جملة من الأسئلة التي طرحها بعض الحضور سنجيب على ما يسمح به الوقت إن شاء الله تعالىٰ كالتالي[1]:

الأسئلة الكلامية

السؤال الأوّل: رؤية الإمام المهدي ﷺ

يقول السؤال: هل هناك من رأى الإمام المهدي ﷺ شخصياً؟

الجواب: في الحقيقة أنني لا أستطيع أن أقول: إنّ هناك من رأىٰ الإمام المهدي ﷺ؛ لأنني لا أستطيع أن أبتّ بهذا الأمر دون دليل واقعي، وهناك قصص حول هذا الأمر، لكن هل هي وهم أو حقيقة، الله أعلم بها[2].

السؤال الثاني: رواية «اسم أبيه اسم أبي»

يقول السؤال: هناك رواية تقول: «اسمه اسمي وكنيته كنيتي واسم أبيه اسم أبي»[3]. فما مدىٰ صحة هذه الرواية؟

الجواب: إنّ هذه الرواية مفتعلة؛ لأنّ الحديث الشريف يقول: «اسمه اسمي»، أمّا الزيادة هذه فهي مدّعاة كما يقول العلماء الذين نقلوا هذه

---

(١) لقد قمنا بتصنيفها موضوعياً كما سيرى القارئ الكريم، فهي ليست وفق ترتيب طرحها.

(٢) وقد مرّ جوابه في المقام الثاني من مناقشة الإشكال الثاني.

(٣) سنن أبي داود ٢: ٣٠٩، تحفة الأحوذي ٦: ٣٩٣، المعجم الأوسط ٢: ٥٥.

الرواية.

السؤال الثالث: حول البداء

يقول السؤال: ما هو البداء؟ وما المقصود منه؟

الجواب: الواقع أنني لا أستطيع أن أُجيب عن موضوع البداء أو أشرحه في هذه العجالة؛ لأنّه بحث فلسفي دقيق جداً، ويحتاج إلى دراسة ولا أُحبّ أن أشغل أذهانكم ببحوث لا يسألكم اللّه تعالى عنها يوم القيامة. لكن من يرد الاطّلاع على هذا الموضوع فليرجع إلى الكتب والبحوث المؤلّفة، ككتاب (البداء)، وبحث (البداء) من تفسير (البيان) للسيد الخوئي، ففيه بحث مفصّل ووافٍ حول هذا.

السؤال الرابع: الكفر باللّه تعالى في مرحلة الاستدلال على وجوده

يقول السؤال: هل إن الاستدلال على وجود اللّه تعالىٰ والوصول إلى هذا الاستدلال يبرّر الكفر به تعالىٰ ثم الرجوع إلى الإيمان به؟

الجواب: أنّ هذا الأمر لا بأس به ولا مانع منه إذا كان ناتجاً عن حالة قهرية تورّث الشكّ عند الإنسان في مرحلة ما من مراحل الاستدلال والبحث عن الحقيقة. وهذا مما لا إشكال فيه؛ سيما إذا عرفنا غالباً أن الإيمان المتأتّي بعد الشكّ أعمق من الإيمان الفطري؛ فهناك إيمان عشوائي فطري وهناك إيمان قائم على أساس الدليل الصحيح والبحث المرتكز إلى الأساليب العلمية والمنطقية والبراهين العقلية. وهذا الإيمان ـ الحاصل بعد الشك ـ لا شك أن له قيمته، لكن ليس معنى هذا أن ندفع بالإنسان إلى التشكيك بوجود اللّه تعالىٰ؛ لأن وجوده تعالىٰ ظاهر للعيان، فأبسط الموجودات لا يمكن أن توجد من غير خالق، فكيف بهذا النظام الدقيق

المعقّد؛ سواء في الذرّة ومحتوياتها، أو في المجرّة ونجومها وكواكبها.

فهذا الكون الهائل والنظام العظيم بما يحويه من غرائب وعجائب من غير المعقول أن يوجد لمحض الصدفة أو أنّه موجود بنفسه من غير أن يكون له خالق عظيم قادر مدبّر. ولو تدرّجنا نزولاً حتى نصل إلى أبسط غدّة في جسم الإنسان لوجدنا فيها نظاماً خارقاً وتعقيداً تركيبيّاً ووظيفيّاً لا يمكن تجاوزه لما فيه من دلالة واضحة على وجود قوّة خالقة له أو منظمة ومدّبرة لوظيفتها وتركيبها. فالحكمة التي تلاحظ في مثل هذه الأجزاء الدقيقة كافية لأن تضع الإنسان في موضع الإقرار بوجود الخالق العظيم. فوجوده تعالىٰ من أظهر الأمور.

أسئلة في تفسير القرآن الكريم

السؤال الأوّل: تزاحم الجنة والنار

يقول السؤال: هناك آية في القرآن الكريم تقول: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١] فأين النار إذن؟

الجواب: إنّ المخاطبين بهذه الآية ـ وبالقرآن الكريم عامّة ـ هم أهل الكرة الأرضية وسكانها، فما هي السماوات المقصودة؟ وماهي بالنسبة لسكان الأرض؟ هل هي الأفلاك أم أنها كواكب المجموعة الشمسية؟ إن المجموعة الشمسية هي واحدة من اثنين وثلاثين مليار مجموعة كوكبية، أي أنّ مجموعتنا الشمسية هي ذرّة تائهة في الفضاء الواسع الرحب والمجهول، وهي لا تشكل في الكون الشاسع شيئاً يذكر، إذ أنّ الكون في اتساع مستمرّ دون توقّف[٢]. ووفق نظرية آينشتاين فإن

(١) آل عمران: ١٣٣.

(٢) هذا بناء على نظرية الانفجار الكبير (Big Bang) في تفسير نشوء الكون وولادته. حيث

صاروخاً يسير بسرعة الضوء، وهي (١٨٦) ألف ميل في الثانية ـ أي ما يعادل (٣٠٠,٠٠٠) كم تقريباً ـ إذا سار عشرين مليار سنة فسوف لن يصل إلى حافّة الكون[1]؛ لأن الكون حينئذٍ يكون قد تمدّد بمقدار الضعف من حجمه الحالي.

وليعلم بأن أبعد نجم اكتشف يبعد عنا عشرة مليارات سنة ضوئية. وإذا كانت سرعة الضوء (١٨٦) ألف ميل في الثانية فكم هي سرعته في اليوم والشهر والسنة؟ وكم هي سرعته في عشرة مليارات سنة؟

فالمراد من الآية هو عرض مجموعتنا الشمسية، وإذا كان الأمر كذلك فإنّ مجموعتنا الشمسية هذه لا قيمة لها أمام هذا الكون الهائل العظيم، وبذلك يبقىٰ متسع كبير جدّاً في الكون للنار على ضوء ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

السؤال الثاني: الآثار الناجمة عن يوم القيامة؟

يقول السؤال: قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[2]، يصوّر لنا مشهداً من مشاهد يوم القيامة، فما هي الآثار الناجمة عن يوم القيامة؟

الجواب: في الحقيقة أنا لا أعرف الآثار الناجمة عن يوم القيامة؛ لأنّ هذه الأمور وأمثالها لا تعرف حتى ترى عياناً على أرض الواقع، لكن

إنّ مجرّاته عامّة واقعة تحت قوة الطرد التي خلفتها عملية الانفجار الكبير هذه.

(١) باعتبار أن العلماء يقدّرون أن حافّة الكون تبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية بناء على الإشارات الغامضة المسمّاة «خلفيّة الأشعّة الكونيّة». والتي تلقتها مراصدهم.

(٢) الحجّ: ١ ـ ٢.

تبقى الصورة التي يرسمها القرآن الكريم مرعبة جداً، وهو يريد أن يبين لنا أنّ درجة الرعب التي يصل إليها الموقف هنالك بين يدي اللّه عزّ وجلّ تصل إلى حدّ أنّ المرأة المرضع تذهل عن رضيعها وتنساه على الرغم من شدّة تعلّقها به وحبها له وتضحيتها بنفسها من أجله، وكذلك تلد الحامل دون أن تدري أو تعي.

السؤال الثالث: معرفة الملائكة بما سيفعله آدم عليه السلام

يقول السؤال: كيف قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[1]، مع أنهم لا يعلمون الغيب؟

الجواب: أنّ اللّه تعالى أعلم الملائكة أنّ هؤلاء الذين سيخلقهم وسيهبطهم إلى الأرض هم بشر غير معصومين، وغير المعصوم تجوز عليه المعصية وارتكاب المآثم. وعليه فيكون إشكال الملائكة قائماً على أنهم معصومون لا يفعلون المعصية ولا يرتكبون الإثم، لأن لديهم ما يمنعهم عن فعل ذلك، إضافة إلى أنهم لا غريزة عندهم ولا جسد، وأن البشر عندهم الغريزة والجسد ومن الممكن أن يرتكبوا المعصية، ويكون خطابهم له تعالى مبتنياً على هذا التساؤل: لماذا إذن تخلق في الأرض من يرتكب الآثام ويكسب الذنوب ويجترح السيئات، ونحن أولى بها؟ فأجابهم اللّه تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[2].

فهؤلاء فيهم من هو بمستوى أعلى من مستويات الملائكة؛ لأنّ هؤلاء الذي يصلون إلى هذا المستوى إنما يصلون بالتغلّب على عواطفهم وغرائزهم بعقولهم، في حين أنّ الملائكة ليس لديهم عواطف ولا

---

(١) البقرة: ٣٠. (٢) البقرة: ٣٠.

غرائز؛ ولذا فإنهم لا يعصون، كما مرّ في أوّل الجواب. أما من يملك العواطف والغرائز ويملك كذلك العقل ثم غلبت غرائزه على عقله فهو أتعس من الحيوان[١]؛ لأن الحيوان ليس عنده سوى الغريزة. فالله تعالى يبين لهم بأنه أعلم منهم، إضافة إلى أنه لابدّ من إعمار الأرض.

السؤال الرابع: قتل أسرى المشركين

يقول السؤال: ما المقصود بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٢]؟

الجواب: أنّ هذه الآية الكريمة نزلت في واقعة بدر بعد أن جيء بأسرى المشركين إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، حيث إنّه صلى الله عليه وآله استشار أصحابه في قتلهم، أو الإبقاء عليهم ومفاداتهم. فتنازع الصحابة فيما بينهم؛ فقال بعض: نحن محتاجون إلى المال لشراء السلاح والرواحل والطعام، ولا ينفعنا قتل هؤلاء إن ضربنا أعناقهم، فلنأخذ منهم الفداء. وقال البعض الآخر: الأولى أن نقتلهم؛ لأننا إن فاديناهم وأطلقنا سراحهم رجعوا إلى تأجيج نار الحرب ضدّنا.

فنزلت الآية الكريمة ترشد النبي الكريم صلى الله عليه وآله إلى قتلهم؛ لأنهم يشكّلون خطراً على الإسلام والمسلمين، وتجب إزاحتهم عن طريقهم كي ينتشر الإسلام في كل مكان.

السؤال الخامس: معنى الليل

ما المقصود بالليل في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلاَ

---

(١) قال تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ الفرقان: ٤٤، وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «من غلبت شهوته عقله فهو شرّ من البهائم». علل الشرائع ١: ٤ ـ ٥ / ١.

(٢) الأنفال: ٦٧.

تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[1]؟

الجواب: الليل هو نهاية النهار وبداية ذهاب الحمرة المشرقية؛ لأنه يبتدئ بغروب الشمس كما أن النهار يبتدئ بطلوعها. فمتى تغرب الشمس، يهلّ الليل لغة، وهناك عند الفقهاء والأصوليّين ما يسمىٰ بمفهوم الغاية والمغيّا، والسؤال الذي يطرح في المقام وجوابه الذي هو محل الخلاف فيه هو: هل إنّ الغاية داخلة في المغيّا، أم إنّها غير داخلة؟ فحينما نقول لأحد: اذهب إلى باب الحسينية، فهل معنى هذا أن الباب داخل في الأمر فيجب إدخاله في امتثاله، أم أنه غير داخل فيه فلا يجب إدخاله في الامتثال؟ أي هل يجب على من أمرته أن يتجاوز الباب، أم يقع الامتثال منه حيث يقف عنده؟

فهذا موضع خلاف بين الفقهاء، فمن يقل بأن الغاية داخلة في المغيّا يرَ أنه لابدّ من دخول الليل لامتثال أمر الله في صحة الصوم، ومن يقل بأنها غير داخلة فيه يرَ أنه يجوز الإفطار بمجرّد غياب الشمس. وهذا هو مبنى الاختلاف بين الفقهاء.

الأسئلة التربوية والفكرية والثقافية

السؤال الأوّل: اختلاف الألسنة ولغة آدم عليه السلام

يقول السؤال: يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾[2]، فمتىٰ بدأت عمليّة اختلاف الألسنة؟ وبأي لغة كان آدم عليه السلام يتكلّم؟

---

(١) البقرة: ١٨٧. (٢) الروم: ٢٢.

الجواب: لا أعلم ما هي اللغة التي كان آدمﷺ يتكلّم بها، لكن حتماً كانت له لغته الخاصّة. أمّا الشق الأوّل من السؤال، فهناك نظريتان في تفسير بدء اختلاف الألسنة واللغات:

الأولى: النظرية التوقيفية

وهي النظرية القائلة بأنّ اللّه تعالى علم آدمﷺ الأسماء كلها، ثم علم آدمﷺ كل أمّة لغتها.

الثانية: العلمية

وهي النظرية القائلة بأن اللغات تنشأ عند الأُمم بالمواضعات، حيث تقوم الأُمم بوضع أسماء للأشياء التي تتعامل معها أو بها، فتسميها بمسميات تبين المراد منها، وتحقّق الإشارة إليها.

السؤال الثاني: كيف يكسب الإنسان صديقاً؟

يقول السؤال: ما هي الطريقة الصحيحة لكسب الأُصدقاء؟

الجواب: لكي يحقق الإنسان ذلك فإنّ عليه أن يكون ذا نفس كريمة تحبّ الخير للناس، ولا تترفّع عن خدمتهم وإبداء الإنسانية مهما كانت النتائج، وكذلك تدفعه للمساهمة معهم والاشتراك في أفعال البرّ والخير والإحسان. وأفضل طريقة لكسب الأُصدقاء هي الصدق معهم وخدمتهم والتفاني من أجلهم والتخلّي عن الأنانية إزاءهم والتحلّي بروح خالية من الحقد والتعقيد، والتمتّع بخلق عالٍ يشدّهم إلى صاحبه. وهذه هي الوسيلة المثلى والطريقة الفضلى للاتّصال بالناس والاختلاط بهم.

السؤال الثالث: العدل بين الأولاد

يقول السؤال: نعلم أن الإسلام يأمر الآباء بعدم التفرقة بين الأبناء في

الغطاء، فهل ينطبق هذا الأمر على البنات أيضاً؟

الجواب: هذا مما لا شكّ فيه في حال حياة الأب؛ حيث إنّه ملزم شرعاً بألا يفرّق بين الذكور والإناث، أما بعد وفاته فلابدّ من العمل بقانون الإسلام في عملية توزيع الميراث؛ إذ أنّ هناك تفرقة بين الذكر والأُنثى يفرضها الهيكل الاقتصادي الإسلامي الذي يعفي المرأة من التكاليف المعيشية ويكفل لها حياتها المعيشية في ظل الزوج، في حين أنه ينيط ذلك بالرجل فيلزمه بالإنفاق عليها وتوفير الطعام والشراب واللباس والمسكن لها.

أمّا في حال الحياة فالأمر مختلف كما قلنا، وهو فرض مبدأ التساوي بين الولد الذكر والبنت، بل إن هناك روايات تقول بضرورة تفضيلهن في الهدية والعطاء وتقديمهن فيهما، يقول رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله: «من دخل السوق فاشترى تحفة إلى عياله، كان كحامل صدقة إلى قوم محاويج، وليبدأ بالإناث قبل الذكور»[1].

وهذا لكي يردّ الاعتبار للمرأة، ويعطيها شيئاً من الثقة بالنفس والقيمة، ويسدّ عندها الشعور بالنقص الذي يعتريها جرّاء معاملة المجتمع لها.. المجتمع الذي لا زال حتى الآن يعاملها معاملة غير كريمة. فالإسلام يحرص على ألّا يفرق بين الجنسين في كل خطاباته فخطاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2] عام يشمل الذكور والإناث.

---

(١) ثواب الأعمال: ٢٠١.

(٢) البقرة: ١٠٤، ١٥٣، ١٧٢، ١٧٨، وغيرها كثير.

السؤال الرابع: فضل قراءة القرآن الكريم وأمر ختمه

يقول السؤال: ما هو فضل قراءة القرآن الكريم خصوصاً في الشهر الكريم؟ وهل يشترط ختمه في ثلاثين يوماً، أم يجوز في أكثر من ذلك؟

الجواب: حول الشق الأوّل نقول: إنّ فضل قراءة القرآن العظيم فضل كبير سيّما في شهر رمضان المبارك، فهو فضل عظيم جداً، وبه روايات كثيرة تنصّ على أنّ اللّه تعالى يضاعف ثواب قراءته فيه. فالقرآن هو نور الوجه [١]، وهو قربان إلى اللّه؛ لأنه خطاب اللّه لعباده.

وحول الشق الثاني نقول: ليس هناك شرط من هذا القبيل، فالإنسان يستطيع أن يقرأ ما يتيسّر له، لكن كلّما كانت قراءته بتدبّر كان أفضل [٢].

السؤال الخامس: تركيز مفهوم التوحيد لدى المسلم

يقول السؤال: كيف نركز مفهوم التوحيد لدىٰ الإنسان المسلم الرسالي؟

الجواب: أن مفهوم التوحيد هو مفهوم فلسفي، بمعنى أنك حينما تريد أن تستدلّ على أنّ اللّه تعالى واحد فإنّك تحتاج إلى إيجاد الأدلّة في ذلك، والأدلّة هذه تحتاج إلى فهم فلسفي ومنطقي وكلامي خاص لهضمها وإمكانية تطبيقها، وكذلك فهم مجموعة علوم أُخرىٰ. ولذا فالشخص الذي يريد أن يعرف كيف يردّ على النافين لوجود اللّه تعالىٰ، وكيف يثبت وجوده وكيف يناقش في هذه الأمور مدعّو إلى فهم هذه العلوم سيّما علم الكلام.

---

(١) صحيح ابن حبّان ٢: ٩٨.

(٢) قال أمير المؤمنين عليه السلام «ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبّر». الكافي ١: ٣٦ / ٣.

السؤال السادس: خلق الرغبة في النفس للقراءة

يقول السؤال: كيف نبعد عنا حالة الملل من قراءة الكتب؟

الجواب: في الواقع إن هذا هو داء العصر، فالوسائل التكنولوجية والحضارية قضت على الكتاب وعلى قارئه؛ فأجهزة التلفزيون والراديو والأجهزة الأُخرىٰ جعلت الإنسان يلتجئ التجاءً كلياً إليها، والانصراف إلى الاستمتاع عبرها، بل وحتى تحصيل المعلومة من غير تعب، وينصرف عن القراءة. وهذا بلا شك داء ونقص وضحالة في الشخصية يجب التغلب عليه بإكراه النفس على القراءة والتمرّن عليها حتىٰ تصبح بعد ذلك عادة عند المطالع أو القارئ.

السؤال السابع: اختلاف المسلمين في تحديد يوم العيد

يقول السؤال: نرى اختلافاً في تحديد يوم العيد بين السنة والشيعة[١] كل عام تقريباً، فما هي حقيقة هذا الاختلاف؟ وما دوافعه؟

الجواب: واللّه يا سيّدي لا أستطيع أن أتصوّر مسلماً يؤمن باللّه تعالى وبرسوله الكريم وبكتابه العزيز يرىٰ الهلال ولا يصوم أو يرىٰ الهلال ولا يفطر. فمنشأ الخلاف هو رؤية الهلال وعدمها إلّا إذا كان هناك من له هدف سيّئ، والدنيا لا تخلو.

السؤال الثامن: الأسلوب الأمثل في تربية الأبناء

يقول السؤال: هل يجوز أن يتعنّت الأب في تربية ابنه؟ وهل يجب على الابن أن يطيع أباه في كل شيء؟

---

(١) بل إننا نلاحظ الاختلاف حتى بين السنة أنفسهم فبعض الدول الإسلامية تفطر أو تصوم في يوم، والبعض الآخر يعلن ذلك في اليوم الذي يليه أو الذي يسبقه.

الجواب: يقع الكلام هنا في مقامين:

الأوّل: طاعة الأبناء أباءهم

ونقول في الجواب هنا: إنّ الأب إذا كان يريد أن يحمل ابنه على المعصية، كأن يأمره بالقتل أو الاعتداء أو شرب الخمر أو ترك واجب شرعي، فهنا لا تجوز طاعة الأب، بل الواجب هنا معصية الأب[1]. أمّا إذا كان يريد توجيه ابنه وإرشاده ونصحه، فيقول له مثلاً: إنّ هذا الأمر في نظري خطأ، وهذا التصرّف غير صحيح، فهنا تكون طاعة الأب واجبة.

الثاني: نبذ العنف واللجوء للأساليب الحديثة في التربية

وهذه المشورة من الأب للابن يجب ألّا تتّخذ طابع العنف أو التعنّت من جانب الأب؛ إذ لا يجوز له أن يلجأ إلى أساليب تؤذي الولد وتسبّب له أضراراً نفسية أو جسدية. وقد ورد: «رحم الله والداً أعان ولده على البرّ»[2].

فالواجب على الأب قدر الإمكان أن يتجنّب ذلك وأن يستعمل قدر الإمكان التوجيه، والكلمة الطيبة والابتعاد عن إهانة ولده وتحقيره؛ لأن هذه الأساليب تخلق عنده ردود فعل، وتحوّله إلى كائن متمرّد[3].

هذا في الأُمور العامّة، أما في الأُمور الشرعية فيجب إطاعته، ولو لزم الأمر ضَرْب الابن ضُرِب، كما هو الحال في ترك الصلاة، أو ارتياد أماكن

---

(١) قال تعالى: ﴿وَإِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما﴾ العنكبوت: ٩، وورد في الحديث الشريف: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق». نهج البلاغة / الحكمة: ١٦٥.

(٢) الأمالي (الصدوق): ٣٦٣، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٦: ١٠١.

(٣) ويجب عليه ألّا ينسى أنّ زمان ولده غير زمانه. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تقسروا أولادكم على آدابكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم». شرح نهج البلاغة ٢٠: ٢٦٧، والمقصود بها هنا المتغيّرات، أما الثوابت الخلقية فلا تشملها هذه القاعدة؛ إذ أن الثوابت أمور أساسية في عملية التربية، فإن تغيّرت تغيّر الهيكل التربوي كله معها.

الانحلال والانحراف؛ فللأب أن يضرب ابنه لو أصرّ على ترك الصلاة أو ارتياد تلك الأماكن. وهكذا في كلّ واجب شرعي أمراً كان أو نهياً، حيث يُضرب الابن على المخالفة الشرعية التي هي معصية للّه تعالىٰ. يبقى أن تلك العقوبة أو الضرب يجب أن يكونا ضمن الحدود الشرعية التي رسمها الله تعالى، فلا تجوز مخالفة الشارع في إيقاعها. ومع ذلك تبقىٰ الكلمة الطيبة والمعاملة الحسنة هما الأساس في عملية البناء التربوي، فالشارع كما يريد البرّ من الولد بوالده، فكذلك يريد الرحمة والرأفة من الوالد بولده.

السؤال التاسع: الدعوة في أماكن الفجور

يقول السؤال: هل يجوز للمسلم أن يدعو إلى الله في أميركا من هو في البار مع علمه بأنّه في غير وعيه؟

الجواب: طبعاً لا؛ لأن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شروطاً يجب توفّرها ومراعاتها قبل القيام بهذه الفريضة، ومنها أن يكون المأمور والمنهي واعياً بما يحاول الآمر إيصاله له، وبما يقوله، وهو هنا غير متوفّر. ثم إنّه ما الذي يدفع المسلم للذهاب إلى البار، حتى ولو كان المسوّغ الدعوةَ إلى الله تعالىٰ؟

السؤال العاشر: حربُ الإمام عليّ عليه السلام الجنَّ

يقول السؤال: يقال: إنّ الإمام عليّاً عليه السلام قد حارب الجن، فهل هذا صحيح؟

الجواب: الذي أعرفه أن للجن مكلّفين بدعوتهم منهم، أمّا ما هو نوعهم، فهذا ما لم تفصح عنه الروايات بشكل واضح. وجميع الروايات التي وردت في هذا الخصوص محلّ تأمّل، والأغلب يعتبرها مرسلة

وفيها تساهل، وبالتالي فإنها ليست محل وثوق عند العلماء؛ لأنهم يقولون: إن أمير المؤمنين عليه السلام غير مكلّف بمحاربة الجنّ، وانّما هو عليه السلام مكلّف بمحاربة الإنس. وقد ذكر القرآن الكريم الجن وصرّح بوجودهم لكن على نحو الإجمال؛ لا التفصيل. ثم إن معرفة ذلك ليس محلّ تكليف.

السؤال الحادي عشر: قيام دولة إسلامية قبل عصر الظهور

يقول السؤال، هل يمكن أن تقام دولة إسلامية قبل ظهور الإمام المهدي عليه السلام؟ وكيف نقضي على الشبهة القائلة بأن الإمام المهدي يظهر عندما تملأ الأرض ظلماً وجوراً؟

الجواب: ليعلم أنه لا تعارض بين قيام حكومة إسلامية وبين وجود الظلم، لأن هذا يمكن أن يجاب عنه من جهتين:

الأولى: ظلم الإنسان نفسه

فمن موارد الظلم مثلاً أن يظلم الإنسان نفسه بفعل المعصية وترك الطاعة[1]. فليس مفهوم الظلم منحصراً بمعنى ظلم الإنسان للآخرين. وعليه فعندما نقول: إنّ الإمام المهدي عليه السلام يقضي على الظلم، فالمقصود به ليس ظلم الإنسان غيره فقط، بل إنّ هناك ظلماً باقياً، هو ظلم الإنسان نفسه، وهو المراد هنا.

الثانية: أن المقصود بـ«الأرض» ليس استيعابها

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن الحكومة الإسلامية إن حصلت فإنها

---

(١) قال تعالى: ﴿وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ هود: ١٠١. وقال: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ النحل: ١١٨.

حتماً لا تملك الأرض كلّها، بل إنها تحصل في بقعة محدودة صغيرة من الأرض، في حين أنّ باقي الأرض كلّه يبقىٰ مملوءاً بالظلم والجور.

وعليه فإن حديث «يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً»[1] ليس على نحو الاستيعاب، أي أنه ليس شرطاً أن يكون كلّ جزء من الأرض مملوءاً بالظلم، بل يكفي فيه أن يكون بعض أجزائها مملوءاً بالظلم والجور. وهذا من قبيل ما يروى من أن فاطمة بنت قيس جاءت رسول الله ﷺ وقالت له: إن معاوية بن أبي سفيان، وأبا جهم خطباني، فما تقول؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك لا مال له»[2].

وليس معنى هذا أنه لا يضع عصاه على الأرض مطلقاً، فهو يضعها عند النوم وعند الطعام مثلاً، فهذا التعبير إذن خاضع لأساليب البلاغة، وإلى أن فيه مبالغة. والأمر هنا كذلك فحينما يقول: «الأرض»، فهو يعني أغلب بقاعها وبلدانها وليس تمامها أو كلّها؛ فلا تعارض حينئذٍ بين قيام هذه الحكومة، وبين ظهوره عليه السلام؛ لأن الظلم حتماً سيكون موجوداً في أماكن أُخرىٰ، وهذا الوجود مسوّغ للظهور.

السؤال الثاني عشر: إشكال حول خلق الله المعاصي

يقول السؤال: لماذا يخلق الله أصحاب النار وهو يعلم مصيرهم إليها، حيث إنّه تعالى يعلم مصير كلّ مخلوق؟

---

(١) كمال الدين: ٢٢، مسند أحمد ٣: ٢٧، ٢٨، ٣٧، ٥٢، ٧٠، سنن أبي داود ٢: ٣٠٩.

(٢) مسند أحمد ٦: ٤١٢، صحيح مسلم ٤: ١٩٥، سنن أبي داود ١: ٥١٠ / ٢٢٨٤، سنن النسائي ٦: ٧٧ – ٧٥.

الجواب: أنّ العلم بالشيء لا يغيّر الواقع، فالله جلّ وعلا يعرف أنّ هذا باختياره سيدخل النار، وأنّ هذا باختياره سيدخل الجنة. لأن شأنه عزّ وجلّ هو أن يمنح الإنسان قابلية الفعل وحرّية الاختيار، دون أن يحرمه التصرّف فيهما، إذ أنه تعالىٰ ليس في ساحته بخل. وهذا مثل ما لو أنّ شخصاً يطلب من الدولة قطعة أرض ليزرعها مع علم الدولة بأنّه سيتكاسل عن العمل والزراعة، لكنّها تعطيه إياها؛ فإن تركها ولم يزرعها أو يستصلحها، فإنها ستأخذها منه حينئذٍ وتعاقبه؛ لتركه زراعتها، وطلبه فعل ما لا يفعله.

وهكذا الله تعالىٰ، فهو عزّ وجلّ ليس في ساحته بخل، وإذا طُلب الوجود من اللّه تعالىٰ فإنّه يُفيضه. وقد يستغرب أحد كيف أنّ أحداً يطلب من اللّه الوجود؛ لأن معنى هذا أنه غير موجود، فنقول: إن هذا من أدقّ البحوث الفلسفية، وإنّ ماهية الإنسان قبل أن يخلع عليه الوجود هي بنفسها داعية بلسان الحال أن يمنحها اللّه الوجود. ولأقرب المعنى إلى ذهن القارئ فأقول: إنّ مثل ماهية الإنسان كمثل الأرض العطشة التي يقول العلماء عنها: إنّها تطلب المطر بلسان الحال لا بلسان المقال، فالماهية لم تطلب من اللّه تعالى أن يفيض عليها الوجود بلسان المقال، بل إنها طلبته بلسان الحال، شأنها في هذا شأن الأرض العطشة تماماً.

وبما أنّ اللّه عزّ وجلّ جواد كريم، فهو تعالى لم يبخل عليها بذلك، فأفاض عليها الوجود مع علمه تعالى بأنّ بعض أفراد هذه الماهية سيدخل النار بسبب معصيته وفعله؛ لأن عدم إفاضته تعالى الوجود عليها معناه بخل، وهو تعالىٰ منزّه عنه.

فإذا أفاض اللّه تعالى الوجود على شخص وأعطاه الاختيار، ولم

يتدخل مباشرة في أفعاله وسلوكه، بقي الإنسان هو واختياره؛ فإما أن يختار عمل الخير فيدخله اللّه الجنة، أو أن يختار عمل الشرّ فيدخله النار. لكن نبقى نؤكد على مسألة هي أن علم اللّه تعالى باختياره عمل الشر لا يعني أن اللّه عزّ وجلّ يحرمه من فرصة الوجود؛ لأن حرمانه من الوجود معناه عدم إعطائه فرصة التكليف. والنتيجة أن اللّه تعالى حينما يعطي الإنسان فرصة التكليف وهو عالم بأنه سيكفر أو سيعصي فإنه تعالى إنما يريد أن يظهر معدنه؛ لأن هذا يجب أن يكون داخلاً في دائرة التكليف ليصح فيه مبدأ الثواب والعقاب.

الأسئلة الفقهية

السؤال الأوّل: حرمة لعبة الشطرنج

يقول السؤال: المعروف أنّ لعبة الشطرنج محرمة في الإسلام؛ لأنها تلهي الفرد المسلم عن قضاياه الإسلامية، فنرجو منكم أن تبينوا أدلّة التحريم من القرآن والسنّة، أفيدونا (غفر اللّه لكم).

الجواب: أن الفقهاء والمفسرين من المذاهب الإسلامية كافّة يفتون بحرمة الشطرنج شراء ولعباً، ويستدلون بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1]، ومن السنة بقوله صلى الله عليه وآله: «من لعب بالشطرنج والنردشير فكأنما غمس يده في دم الخنزير»[2]، وغيره[3]. ويستثنى من ذلك الإمام الشافعي

---

(١) المائدة: ٩٠.

(٢) الكافي ٦: ٤٣٧ / ١٥. الفقيه ٤: ٥٨ - ٥٩ / ٥٠٩٢. جامع الخلاف والوفاق: ٦١٥. الدراية في تخريج أحاديث الهداية ٢: ٢٤٠.

(٣) كقوله صلى الله عليه وآله: «ملعون من لعب بالشطرنج، والناظر إليه كالآكل لحم الخنزير». الجامع الصغير ٢: ٥٤٠ / ٨٢٠٩. كنز العمال ١٥: ٢١٥ / ٤٠٦٣٦.

حيث إنّه يرىٰ أن التلهي به من غير مراهنة حلال إلّا أن يلهي اللاعب به عن الصلاة فيحرم حينئذٍ[1]. وعدا هذا فإن جميع علماء المذاهب الإسلامية يحرّمونه مطلقاً. ومن أراد أن يتأكد فليرجع إلى كتب التفسير حول قوله جلّ وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

السؤال الثاني: العقيقة

يقول السؤال: هل يجب على المسلم أن يضحي بشاة أو غيرها عندما يرزقه الله تعالى بمولود؟

الجواب: ليس هناك وجوب في مفروض السؤال، بل إنّه يستحبّ للأب أن يعقّ عن ولده عقيقة، وليس أُضحية.

السؤال الثالث: عدد الرضعات الناشرة للحرمة

يقول السؤال: ما عدد الرضعات التي يصبح معها المرتضع أخاً لابن صاحب اللبن بالرضاعة؟ وهل هناك شروط أُخرى؟

الجواب: أن عدد الرضعات يجب أن يكون خمساً متتاليات حتىٰ يصبح المرتضع أخاً لابن صاحب اللبن، أي أن العدد الذي يكون دون ذلك لا تنعقد به الحرمة. أما الشروط الأُخرىٰ فمنها:

١ ـ أن تكون الرضاعة عن طريق الثدي. أي أن يلتقم المرتضع الثدي بفمه، وليس بوسيلة أُخرىٰ كأن يصبّ الحليب في فمه.

٢ ـ أن تكون الرضاعة خلال الفترة الشرعية لها، وهي سنتان هجريتان

---

(١) عنه في الخلاف ٦: ٣٠٤ / المسألة: ٥٣، المغني ١٢: ٣٦، الشرح الكبير ١٢: ٤٥، ولم ينقلاه عنه بشرط ألّا يلهي اللاعب به عن صلاته.

من أوّل يوم ولادته، فإذا ارتضع بعد السنتين فلا تنشر الحرمة حينئذٍ.

السؤال الرابع: نكاح المتعة

يقول السؤال: كيف يتم تحويل النكاح المؤقت إلى نكاح دائم؟

الجواب: يتم ذلك بأن يهبها المدّة ثم يعقد عليها ثانية عقداً جديداً دائماً. وأحبّ أن ألفت النظر هنا إلى أن هذا الموضوع حساس جداً، وقد بحثته بحثاً كاملاً مدعماً بأدلّة ضخمة في كتاب (من فقه الجنس). وإن شاء الله سيجد القارئ في هذا الكتاب إجابات وافية على الكثير من الأسئلة التي تخطر في ذهنه. وقد بينت فيه أنّ نشر هذا النوع من الزواج والتساهل فيه قد تترتب عليه آثار سلبية، أمّا إذا كان ضمن الحدود الطبيعية، وفي نطاق القيود والشروط المفروضة فيه على المُقدم عليه فحينئذٍ لا يكون فيه ما يضرّ أبداً.

والواقع أنني أضيق ذرعاً بهذا الموضوع، والله شاهد على ذلك، فهو حالة استثنائية شرّعت للضرورة؛ فيجب ألّا تأخذ من تفكيرنا كلّ هذا الحيّز.

السؤال الخامس: حكم صلاة النساء في المشاهد المشرّفة

يقول السؤال: ما حكم الصلاة للنساء في المشاهد المقدّسة؟ فهناك نساء يصلين أمام الرجال كما هو حاصل في مقام السيدة زينب عليها السلام.

الجواب: يجب أن يكون هناك حاجز بين النساء والرجال كما ينص عليه الفقهاء؛ للتفرقة بين صلاة الجنسين.

السؤال السادس: حكم تارك الصلاة لفترة من الزمن

يقول السؤال: ما حكم من ترك الصلاة لسنة أو سنتين ثم عاد إليها مرّة

أُخرىٰ؟ وهل يقضي ما فاته؟ وهل عليه كفّارة ذلك؟

الجواب: ليس هناك كفارة في هذا المورد، لكنّ القضاء واجب، فإذا ترك العبد صلاته فالواجب عليه قضاء ما فاته، فيقضي بمقدار ما ترك من صلاة إن كان عارفاً به، وإن لم يكن عالم بمقدار ما فاته من صلاة فإنّه يقضي ويستمرّ على ذلك حتى يحصل عنده يقين بأنّه قد استوعب فترة ترك الصلاة. واللّه تعالى توّاب غفور رحيم يفتح باب التوبة لمن يتوب مخلصاً نادماً سيّما في مثل هذه الليالي المباركة؛ حيث ورد: «إذا كانت ليلة الجمعة أمر الله عز وجل ملكاً فنادى من أول الليل إلى آخره، وينادي في كل ليلة غير ليلة الجمعة من ثلث الليل الآخر: هل من سائل فأعطيه؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ يا طالب الخير أقبل، يا طالب الشرّ أقصر»[١].

(نسأل اللّه أن يرحمنا برحمته)؛ لأنّ الحياة مهما طالت فهي منتهية:

فهبك وهبتها مئتين حولاً   فما بعد الحياة سوى المماتِ

السؤال السابع: حكم وجود الصور في البيوت

يقول السؤال: هل إنّ وجود الصورة في البيت حرام حتى لو كانت صورة أحد أفراد العائلة؟

الجواب: طبعاً لا إشكال في وجود الصور الفوتوغرافية ولا ضرر منها ولا حرمة فيها، لكن المجسّمات البشريّة لا يجوز وضعها فيها.

والحمد للّه رب العالمين وصلّى اللّه على سيّدنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين.

---

(١) الكافي ٤: ٦٧ - ٦٨ / ٦، دعائم الإسلام ١: ١٨٠.



﴿٥٩﴾

المهدي عليه السلام ضرورة دينيّة يفرضها الواقع

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: فضيلة ليلة النصف من شعبان

تزدحم في هذه الليلة المباركة الكريمة ثلاث مناسبات:

المناسبة الأولى: إشراقة الحق

ففي مثل هذه الليلة كانت ولادة إمام العصر ومنقذ الأمة وأمل المسلمين والمستضعفين وبقية الله في أرضه. وقد أهلت طلعته المباركة على الوجود فأنارته في ليلة النصف من شعبان في سنة (٢٥٥)، تروي عمة العسكري عليه السلام السيّدة حكيمة بنت الإمام الجواد عليه السلام فتقول: بعث إلي أبو محمد الحسن بن علي عليهما السلام فقال: «يا عمة، اجعلي إفطارك الليلة عندنا؛

---

(١) القصص: ٥ ـ ٦.

فإنها ليلة النصف من شعبان؛ فإن الله تبارك وتعالى سيظهر في هذه الليلة الحجّة، وهو حجّته في أرضه». فقلت له: ومن أُمّه؟ فقال عليه السلام لي: «نرجس». فقلت له: جعلني الله فداك، ما بها أثر. فقال عليه السلام: «هو ما أقول لك».

قالت: فجئت، فلما سلّمت وجلست جاءت تنزع خفّي وقالت لي: يا سيدتي كيف أمسيت؟ فقلت: بل أنت سيدتي وسيّدة أهلي. فأنكرت قولي وقالت: ما هذا يا عمّة؟ فقلت لها: يا بنيّة إن الله تعالى سيهب لك في ليلتك هذه غلاماً سيداً في الدنيا والآخرة. فخجلت واستحيت. فلما أن فرغت من صلاة العشاء الآخرة، أفطرت وأخذت مضجعي فرقدت، فلما أن كان في جوف الليل قمت إلى الصلاة ففرغت من صلاتي وهي نائمة ليس بها حادث، ثم جلست معقّبة، ثم اضطجعت، فانتبهت فزعة وهي راقدة، ثم قامت فصلّت ونامت، فخرجت أتفقّد الفجر، فإذا أنا بالفجر الأول كذنب السرحان وهي نائمة، فدخلني الشكوك، فصاح بي أبو محمد عليه السلام من المجلس فقال: «لا تعجلي يا عمّة، فهاك الأمر قد قرب».

فجلست وقرأت ﴿ألم﴾ السجدة و﴿يس﴾، فبينما أنا كذلك إذ انتبهت فزعة، فوثبت إليها فقلت: اسم الله عليك، أتحسّين شيئاً؟ قالت: نعم يا عمة. فقلت لها: اجمعي نفسك واجمعي قلبك، فهو ما قلت لك. فأخذتني فترة وأخذتها فترة، فانتبهت بحسّ سيدي، فكشفت الثوب عنه فإذا أنا به عليه السلام ساجداً يتلقّى الأرض بمساجده، فضممته إليّ، فإذا به نظيف متنظّف، فصاح بي أبو محمد عليه السلام: «هلمّي إليّ ابني يا عمّة».

فجئت به إليه، فوضع يديه تحت إليتيه وظهره، ووضع قدميه على صدره، ثم أدلى لسانه في فيه، وأمرّ يده على عينيه وسمعه ومفاصله، ثم قال عليه السلام: «تكلّم يا بني». فقال عليه السلام: «أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له،

وأشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله». ثم صلّى على أمير المؤمنين عليه السلام وعلى الأيمّة عليهم السلام إلى أن وقف على أبيه، ثم أحجم، فقال أبو محمد عليه السلام: «يا عمّة، اذهبي به إلى أمّه ليسلّم عليها وائتيني به».

فذهبت به إليها، فسلّم عليها، ورددته فوضعته في المجلس ثم قال: «يا عمّة، إذا كان يوم السابع فائتينا».

تقول: فلما أصبحت جئت لأسلّم على أبي محمد عليه السلام، وكشفت الستر لأتفقّد سيدي عليه السلام فلم أرَه، فقلت: جعلت فداك، ما فعل سيدي؟ فقال: «يا عمّة، استودعناه الذي استودعته أمّ موسى عليه السلام».

قالت حكيمة: فلمّا كان اليوم السابع جئت فسلّمت وجلست، فقال: «هلمّي إليّ ابني». فجئت بسيدي عليه السلام وهو في الخرقة، ففعل به كفعلته الأولى، ثم أدلى لسانه في فيه كأنه يغذّيه لبناً أو عسلاً، ثم قال عليه السلام: «تكلّم يا بني». فقال عليه السلام: «أشهد أن لا إله إلّا الله»، وثنّى بالصلاة على محمد صلى الله عليه وآله، وعلى أمير المؤمنين وعلى الأيمّة الطاهرين (صلوات الله عليهم أجمعين) حتى وقف على أبيه عليه السلام، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[1].

لماذا استأثرت ولادته عليه السلام باهتمام المسلمين؟

والواقع أن ولادة الإمام صاحب الزمان عليه السلام تستأثر باهتمام المسلمين من نواحٍ عدة:

الأولى: بلوغ الروايات حدّ التواتر

فالروايات التي وردتنا في هذا الخصوص قد بلغت كمّاً هائلاً عند

(١) كمال الدين وتمام النعمة: ٤٢٤ ـ ٤٢٦ / ١.

الكثير من المحدّثين والمؤرّخين، وهي مسألة وصلت عند بعض المسلمين إلى حدّ كونها من الضرورات الإسلاميّة، وأن إنكارها كفر. فهناك فتاوى حتى عند أبناء المذاهب الإسلاميّة الأُخرى تكفّر من ينكر صاحب الزمان (عليه الصلاة والسلام)[١]. إن مسألة وجود الإمام المهدي عليه السلام وولادته وأنه الإمام الثاني عشر مسألة مفروغ منها تماماً، وذلك بحكم الروايات والنصوص الواردة إلينا من النبي صلى الله عليه وآله، ومنها ما ورد في كتب الصحاح من أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «لا يزال الدين قائماً حتى يكون اثنا عشر خليفة من قريش»[٢].

وفي رواية أنه صلى الله عليه وآله قال: «لا تنقضي الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي - أو قال: عترتي - يواطئ اسمه اسمي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً»[٣].

وقال صلى الله عليه وآله: «من ولدي اثنا عشر نقيباً نجباء محدثون مفهمون، آخرهم القائم بالحقّ يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً»[٤].

ثم يبدأ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بإعطاء صفات هذا الإمام (عليه أفضل الصلاة والسلام)، فيقول: «على خده الأيمن خال، مفلّج الثنايا»[٥].

وفي رواية أُخرى أنه إذا خرج «قسم بالسوية، وعدل في خلق الرحمن؛ البرّ

---

(١) وسوف يذكر المحاضر إن شاء الله من خلال هذا البحث الكثير من المصادر التي تناولت هذا الموضوع وأشبعته بحثا ودراسة.

(٢) مسند أحمد ٥: ٨٦، صحيح مسلم ٦: ٣ ـ ٤، سنن أبي داود ٢: ٣٠٩ / ٤٢٧٩.

(٣) انظر: الحدّ الفاصل: ٣٢٩، صحيح ابن حبّان ١٥: ٢٣٧، المعجم الأوسط ٢: ٥٥، ٧: ٥٤، المعجم الكبير ١٣٣ ـ ١٣٧ / ١٠٢١٤ ـ ١٠٢٣٠، وغيرها كثير.

(٤) تقريب المعارف: ٤١٩، شرح أُصول الكافي ٢: ٢٤٠.

(٥) الغيبة (النعماني): ١٥٠، عن أمير المؤمنين عليه السلام.

منهم والفاجر منهم، من أطاعه أطاع الله، ومن عصاه عصى الله... وتخرج الأرض كنوزها من الذهب والفضة، فيقول: أيها الناس هلمّوا، فخذوا ما سفكتم فيه الدماء، وقطعتم فيه الأرحام. ويعطي ما لم يعطِه أحد قبله، ولا يعطيه أحد بعده. اسمه اسم نبي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً»[1].

إلى آخر ماورد في نعته من الروايات.

إذن فالروايات قد تكاثر نقلها بخصوصه عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وعن أمير المؤمنين عليه السلام، وكذلك عن أيمّة أهل البيت عليهم السلام. إن كلّ الروايات التي تشير إلى هذا المجال تنصّ على أنه الحفيد الثاني عشر لأمير المؤمنين عليه السلام، وأنه بهذا الاسم. أما الإضافة التي أُضيفت إلى الروايات المختصّة بهذا الباب وهي عبارة «واسم أبيه اسم أبي»[2]، فهي منحولة وغير صحيحة؛ لأن الروايات الصحيحة لم تذكر هذه الزيادة، وقد وضعت بعد ذلك. وهذه المسألة مجمع عليها.

وكما ذكرنا فإن هناك الكثير من المصادر التي تناولت قضية الإمام عليه السلام وأشبعتها بحثاً ودراسة وإجابة عن الإشكالات المعترضة والمطروحة كافّة. وذلك من قبيل كونه حيّاً يعيش بيننا، ومن قبيل كونه من أهل البيت عليهم السلام أو من حيث تسلسله بالنسبة للأئمة عليهم السلام، وقد ردّت على كل الإشكالات والاعتراضات والشبهات التي طرحت في الساحة في خصوص هذا الموضوع. وقد وصل الأمر عند البعض إلى حدّ الحكم بكفر منكرها وخروجه عن الملّة كما ذكرنا.

---

(١) شرح الأخبار ٣: ٣٩٧ / ١٢٧٨، بحار الأنوار ٥٢: ٣٣٧ / ٧٧، سنن ابن ماجة ٢: ١٣٥٧ / ٤٠٧٥، المستدرك على الصحيحين ٤: ٤٩٢ - ٤٩٣.

(٢) سنن أبي داود ٢: ٣٠٩، تحفة الأحوذي ٦: ٣٩٣، المعجم الأوسط ٢: ٥٥.

ولعل أقرب المصادر التي بين أيدينا، والتي تناولت هذه المسألة بحثاً ودراسة ورداً كتاب (البيان) للجلندي الشافعي، وكتاب (الغيبة) للشيخ الطوسي وكتاب (المهدي الموعود عليه السلام) للشيخ نجم الدين العسكري. وهناك عشرات الكتب غيرها، ومنها القسم الخاص بالمهدي المنتظر عليه السلام من كتاب (البحار) للعلامة المجلسي، وما إلى ذلك. ومن هذا نرى أن مسألة حقيقة المهدي عليه السلام هي مسألة مفروغ منها عند المذاهب الإسلامية كافّة.

اختلاف المسلمين في زمان ولادته عليه السلام

لكن هنالك نقطة هامة تعترض في هذا الباب، وهي: هل إنه عليه السلام مولود وموجود، أم إنه غير مولود الآن، وإنه يولد في زمان ظهوره؟ الذي عند الأعمّ الأغلب من المذاهب الإسلامية أنه سوف يخلق بعد ذلك، وأنه سوف يولد في زمان ظهوره. وحتى أكثر المؤرخين بعداً عن هذا اللون من الفكر كابن خلدون فإنه يذكره في مقدمته[1]، وينصّ عليه. كما أن هناك روايات تشير إلى أنه عليه السلام سيفتح القسطنطينية ويستولي على أموال الروم ويوزّعها على فقراء المسلمين[2]. وابن خلدون ليس وحده في هذا الأمر، بل هنالك طائفة أخرى من أبناء المذاهب الإسلامية وإن كان هؤلاء يقرّون بأنه يولد في زمان ظهوره.

أسباب إنكار وجوده عليه السلام

وسرّ استبعادهم لهذه المسألة واعتراضهم عليها وإشكالاتهم حولها

---

(١) تاريخ ابن خلدون ١: ٣٢٥.

(٢) المصدر نفسه، شرح الأخبار ٣: ٣٧٦، تاريخ مدينة دمشق ٣٧: ١٥.

تعود إلى عدّة أسباب منها:

الأول: انتفاء جدوى وجوده

فهو ﷺ إذا كان موجوداً غائباً، فإنه لافائده تتحقّق منه، فمادام غائباً لا يتّصل بالناس ولا ينفعهم، فأي فائدة ترجى من وجوده إذن؟

الثاني: أن في بقائه خرقاً للناموس الطبيعي

كما أن في بقائه ﷺ هذه الفترة الطويلة خرقاً لقوانين العمر البشري الذي لا يمكن أن يدوم لهذه الفترة الطويلة من وجهة نظرهم. وهو ﷺ بهذا يكون قد تجاوز معدل عمر الإنسان في هذا الزمان، وحتى معدل عمر آبائه ﷺ برقم كبير جدّاً؛ حيث إن آباءه ﷺ قد توفّوا وهم في عقدهم السابع. إذن فمن غير الممكن أن يعيش هذا العمر الطويل الخارق للعادة وللقوانين الطبيعية البشرية.

الثالث: انعدام مبرّرات الغيبة

وهنا ينتقلون إلى جهة أخرى من الإشكالات وهي انعدام الدوافع التي تبرّر اختفاءه ﷺ، فهم يقولون: ليس هنالك أي موجب لأن يختفي عن الناس، فما هي العلّة التي حصل من أجلها هذا الاختفاء؟

الردّ على هذه الإشكالات

ولنبدأ بالإجابة على هذه الإشكالات واحداً واحداً بإشارات بسيطة إن شاء الله تعالى:

الجواب عن الإشكال الأول

وهو الإشكال المبتني على انعدام الثمرة من وجوده ﷺ حال غيبته،

والجواب عن هذا الإشكال هو أن يقال: إن ظواهر الروايات والنصوص تحملنا وتأخذ برقابنا أخذاً للإيمان بهذا المعتقد والتصديق به، وهي الروايات التي تؤكّد ـ على نحو الجزم ـ على أن الله جلّ وعلا لا يخلي الأرض من حجّة له، فالأرض لا يمكن أن تخلو في يوم من الأيام من نبي، فما ترك الله جل وعلا عصراً من العصور لم يبعث فيه نبيّاً للناس يعلّمهم ويرشدهم، ويهديهم ويوضح لهم معالم طريق الله تعالى والصواب من طريق الشيطان. والسبب في هذا واضح، وهو أنه تعالى إذا ترك أمّة من الأمم في زمان من الأزمنة من غير نبيّ يبعثه إليهم فإنه يكون قد أعطاهم المسوّغ لأن يحتجّوا عليه بأنهم لم يُبَلّغوا قوانينه وتشريعاته، وبالتالي فإنهم غير مستحقّين لعذابه.

كما أنه تعالى لا يبعث لهم الحجّة التي تحتجّ عليهم يوم القيامة بأنه كان نبيّاً لهم، وانه أمرهم ونهاهم ولم يأتمروا ولم ينتهوا[1]. فالله تعالى حينما يسأل عباده غداً عن التكاليف التي كلّفهم بها لابدّ أن يكون هناك من أوصلها إليهم ليعذّبهم على تركها، وإلّا فكيف يمكن أن يسألهم ولم يكن قد بعث إليهم نبيّاً؟ بل إن هؤلاء المكلّفين من السهل جدّاً أن يروا بأنهم لم يُبَلّغوا ولم يأتهم من يلقي الحجة عليهم أو يقيمها عليهم. فإذا أرد الله أن يحتجّ على عباده فلابد أن يبعث إليهم بنبي حتى يقول لهم: إني قد بلّغتكم وألقيت عليكم الحجّة عن طريق النبي الذي بعثته إليكم، والكتاب الذي أنزلته عليكم.

---

(١) وهو تعالى يقول: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الزمر: ٦٩.

وهذا الأمر من البديهي والثابت الذي لا يناقش فيه إلّا معاند، فالله جلّ وعلا لابدّ أن يلقي الحجة على عباده، ولا يلقيها إلّا نبي وكتاب، أو وصيّ نبيّ. وعليه فإن الله جلّ وعلا ما لم يبعث الحجة لا يعذب عباده [١].

هذا في خصوص النبي صلى الله عليه وآله أما الإمام عليه السلام ـ وهو وصي النبي ـ فمن الثابت أن الغاية من بعثته ومن وجوده هي الغاية عينها من وجود النبي صلى الله عليه وآله ومن بعثته، والله جلّ وعلا حينما يتوفّى أنبياءه فمن غير المعقول أن يترك الأرض من غير حجّة تقوم مقامهم، وتبلّغ عباده، وتلقي عليهم هذه الحجة يوم يلقونه.

وربما هنا يقول قائل: إن العالِم يكفي في هذا المجال، والكتاب موجود، وهو يكفي كذلك، وعليه فلا حاجة في هذا العصر إلى هذا الحجّة التي تحلّ محل النبي صلى الله عليه وآله.

والجواب: أن هذا الكلام ينطوي على مغالطة؛ ذلك أنه لو كانت الكتب السماوية كافية لما بعث الله أنبياءه بعد من أنزل عليهم كتبه، كالنبي موسى والنبي عيسى عليهما السلام، فما دام الكتاب كافياً فلا حاجة إذن إلى بعثة النبي صلى الله عليه وآله معه بعد عيسى عليه السلام أو لبعثة الأنبياء عليهم السلام بعد موسى عليه السلام. وحتى على صعيد كتاب المسلمين ـ وهو القرآن الكريم ـ فإنه إذا كان كافياً فلا حاجة معه إذن إلى نصب الإمام مع أن الأمّة الإسلاميّة كافّة مجمعة على ضرورة نصب الإمام ووجوبه، لكن هذا الإجماع على النصب يختلف باختلاف نظريات المسلمين؛ فمنهم من يذهب إلى أن وجوبه عقلي، وغيرهم يرى أنه شرعي. فهذا الأمر قد وقع فيه اختلاف بين المسلمين.

---

(١) قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ الإسراء: ١٥.

رواية «لا تخلو الأرض من حجّة»

ثم إن هناك رواية مشهورة، هي رواية عدم خلو الأرض من حجة، فالله جلّ وعلا لا يخلي الأرض من حجة، وهذا الحجّة إمّا أن يكون نبيّاً، وإمّا أن يكون وصيّاً له[1].

الجواب عن الإشكال الثاني

أمّا حول غيبته ﷺ وتعذّر الوصول إليه، فهذا أيضاً غير صحيح؛ لأن الوصول إليه غير متعذّر، وهنالك الكثير من الروايات التي تنصّ على أنه قد رآه كثير من الناس[2].

احتجاب عن النظر وليس احتجاباً عن الوجود

وهذا يقودنا إلى تأكيد مسألة هامّة جداً، وهي أن احتجابه ﷺ ليس احتجاباً عن الوجود وإنما هو احتجاب عن النظر، فربما هو ﷺ الآن في مجلس من مجالسنا ولا نراه، وربما نراه ولكن لا نعرفه كما تقول الروايات التي تنصّ على وجود مسألة الرؤية له ﷺ. فهو ﷺ إذن محتجب عن العيون والأبصار، وليس عن الواقع والحياة التي يعيش فيها أتباعه، والتي يعيش فيها المسلمون وغير المسلمين بشكل عام. بل إن البعض من علمائنا يذهب إلى أن الإجماع إنما كان حجّة لأنه قد دخل فيه الإمام ﷺ، وقول الإمام ﷺ حجّة. وهذا يعني أن الإمام ﷺ يسدّد هؤلاء العلماء ويوجّههم

---

(١) انظر: الأصول الستة عشر (عدة محدثين): ١٦، ٩٠. المحاسن ١: ٣٨، ٩٢ / ٤٥، ٢٣٤ / ١٩٣، ٢٣٦ / ٢٠١. بصائر الدرجات: ٤٨٨ / ١، ٤٨٩ / ٤، ٥٠٥، ٥٠٦ـ ٥٠٦ / ٤، ٩ـ ١٠، ١٥، ٥٠٧ / ١٧، ٥٠٩ / ٨. الإمامة والتبصرة: ٢٥ / باب أن الأرض لا تخلو من حجّة. الكافي ١: ١٧٨ ـ ١٨٠ / باب أن الأرض لا تخلو من حجّة.

(٢) انظر بحار الأنوار ٥٢: ١ ـ ٧٨ / ب ١٨.

الوجهة الصحيحة في استنباط الحكم الشرعي.

فهو عليه السلام يلقي برأي من آرائه الحكيمة أو الصائبة أو الصحيحة التي تصيب الحكم الواقعي في هذه المسألة بين هؤلاء العلماء المجمعين؛ حتى يسدّد رأيهم.

وهذه المسألة دقيقة جدّاً، وهي مسألة واسعة ومعقدة، ولا أريد أن أخوض فيها الآن في هذه العجالة؛ لأنها ممّا لا يتّسع له الزمان ولا المقام.

وعلى أية حال فعلى نحو الإجمال نقول: إن العلّة من وجود الإمام عليه السلام هي عينها العلّة من وجود النبي صلى الله عليه وآله في كلّ زمان وفي كلّ مكان، وعليه فإن الله جلّ وعلا لا يمكن أن يخلي الأرض من حجّة يثبت الحكم الشرعي، ويتّصف بكونه معصوماً؛ لأنه لابدّ من أن ينقل الحكم بشكل لا يمكن معه الأخذ والردّ، أو التشكيك فيه، فلا يمكن للمعصوم أن ينقل حكماً يكون معه قائل لهذا الأخذ والردّ وما إلى ذلك. وبمعنى آخر فإنه لابدّ من العصمة حتى لا يتطرّق الخلل والعيب إلى مضمون الأحكام.

مفهوم العصمة عند المسلمين

وكأنما يمثّل مفهوم العصمة حالةً من حالات التعسّف للمسلمين، وينظر إليه بعضهم على أنه شيء خيالي لا يمكن وقوعه، فينظرون إليه نظرة ملؤها الشكّ والريب والتحفظ، بل والتهاون أيضاً. كنت مرّة في الإمارات وقد بحثت هذا الموضوع في إحدى المحاضرات، فجاءني أحد المسؤولين الكبار وقال لي: كنت متخلّفاً عن فهم هذه المسألة، ولم أستطع أن أدخلها في ذهني، أمّا الآن فلا.

والذي جعله يصل إلى هذا الفهم هو أنني طرحت هذه المسألة على

صيغة تساؤل فقلت: هل يمكن لنا الآن أن ننقد أحداً من صحابة النبي صلى الله عليه وآله؟ ثم أجبت بأنه لا يمكن لنا هذا في واقع المسلمين؛ لأننا حينما ننقد صحابياً فإن المسلمين جميعاً يتوجّهون إلينا باللوم، وبالاتّهام بأننا نخطّئ أشخاصاً لا يمكن أن يخطئوا. فهم يرموننا بأننا نخطّئ صحابة النبي صلى الله عليه وآله، وهم جماعة لا يجوز عليهم الخطأ. وليس هذا في واقع الأمر إلّا العصمة؛ لأن العصمة هي أن ندّعي لشخص أو نُثبت له أنه لا يجوز عليه الخطأ. فإذا كان هذا المفهوم جائزا لصحابة الرسول صلى الله عليه وآله فعليّ عليه السلام منهم، وكذلك أولاده عليهم السلام من بعده[1].

فالعصمة هي أن يكون الشخص على نمط معيّن من التربية العالية؛ بحيث إنه لا يصدر منه القبيح، ولا يترك واجباً، ولا يفعل محرّماً. ولو رجعنا إلى تعريف العصمة عند فقهائنا، لوجدنا أنهم ينصّون على أنها لطف يفعله الله تعالى بالمكلف؛ بحيث إنه لا يكون معه داعٍ إلى ترك الطاعة أو فعل المعصية مع وجود القدرة عليهما. أي أن هذا المعصوم يستطيع أن يفعل المعصية لكنه لا يأتيها بما يمتلكه من التربية العالية، والخلق الرفيع.

ولو رجعنا إلى واقعنا الذي نعيشه، لوجدنا أن هناك الكثير من الأشخاص على شاكلة المعصوم وإن لم يكونوا كذلك بالمعنى الاصطلاحي، فنجدهم يمتنعون عن فعل القبائح والمعاصي، ولا يتركون الطاعات، بل إنهم يلازمونها.

وكذلك الأمر في تهذيب المعصوم عليه السلام وأخلاقه واستقامته وورعه

---

(١) لأنهم عليهم السلام مطهّرون بنصّ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ الأحزاب: ٣٣.

وتقواه، وليس هذا إلّا العصمة التي هي لطف إلهي.

ونحن لانقول: إن في العصمة إلجاء؛ لأنه لو كان فيها إلجاء لم يكن فيها فضل أو فضيلة لصاحبها؛ لأن الله جلّ وعلا قد جبله على ترك المعصية وفعل الطاعة. وحينئذٍ فلا فضل له؛ لأنه حينما يسلبه الله جلّ وعلا القدرة على تحقيق الدواعي إلى فعل المعصية وترك الطاعة، فإنه حينئذٍ لا فضل له في هذا المجال. وعليه فالمسألة لاتعدو كونها نوعاً من التربية العالية والخلق السامي الذي يربّي الله جلّ وعلا عليه أنبياءه ورسله وأوصياءه وخاصّته.

وكما أن الأب المؤمن الملتزم يحاول أن يربّي أبناءه على التربية العالية والخلق القويم؛ كي يكونوا أفراداً صالحين محبوبين في المجتمع، يحترمهم الناس ويقدّرهم، فكذلك الله جلّ وعلا يعمل على تربية أنبيائه ورسله بذلك النمط، وكذلك يفعل مع أوصيائهم ذلك النمط من التربية العالية والخلق السليم والقويم؛ كي يكونوا قدوة للناس فيهتدوا بهم.

إذن فوظيفة الإمام هي وظيفة التثبيت للأحكام الشرعيّة، وهذه هي الوظيفة عينها للنبي صلى الله عليه وآله، وما داما يؤدّيان الوظيفة عينها فلابدّ إذن أن يكونا في هذا المجال على مستوى واحد من الحجّة؛ لأنه جلّ وعلا لايخلي الأرض من حجّة على الناس يوم القيامة. وهذه الحجة لابدّ أن تكون موجودة في كلّ عصرٍ وزمان ومكان، فإن لم تكن لنبي فهي لوصي نبي.

ثم إن المسلمين يعتقدون بأن هناك بعض الأشخاص لازالوا يعيشون حتى الآن، ومنهم النبي عيسى عليه السلام فإنه لازال حيّاً، والقرآن الكريم يقول:

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾[(١)].

كما أنهم يعتقدون بحياة الخضر وغيره من الأشخاص الذين يرون أنهم قد عاشوا كلّ هذه الفترة الطويلة. ولو أننا رجعنا إلى أخبار المعمرين لوجدنا أن الكتب المختصّة في هذا المجال تروي أن هناك بعضاً ممن عُمّر ثلاثمئة سنة أو أربعمئة سنة أو حتى أكثر من ذلك، والكتاب الأصدق من كل هذه الكتب هو القرآن الكريم الذي يحدّثنا عن النبي نوح (ع) الذي عُمّرَ طويلاً حتى إن فترة دعوته فقط كانت تسعمئةٍ وخمسين سنة [(٢)].

وحينما يجتاز الإنسان المعدل الطبيعي لعمر الإنسان، فإنه حينئذٍ لافرق بين أن يكون هذا الاجتياز بألف سنة أو أقل منه أو أكثر، فما دام قد اجتاز السنّ المألوفة والطبيعيّة فحينذاك لا فرق في كون هذا الاجتياز قليلاً أو كثيراً، فمادام الخصم يقول: إن من الممكن أن يجتاز الإنسان المعدّل الطبيعي ـ وهو السبعون سنة، أو الثمانون سنة ـ فحينئذٍ لا ضير ولا فرق في أن يكون هذا الاجتياز مئتي سنة أو ألف سنة؛ ذلك أنه باجتيازه الحدّ الطبيعي تصبح المسألة كميّةً فقط، ليس إلّا.

إذن فنحن لسنا منفردين في هذا المجال، ولم نكن بدعة في التاريخ أو في العقائد حينما نقول بهذا. ثم إن الذي يقول بأن الإمام (ع) موجود حالياً، لا يقول بأنه كذلك بشكل طبيعي، بل بشكلٍ معجز، بمعنى أن المعجزة تتدخّل هنا ويقوم الإعجاز الإلهي بدوره في تحقيق هذا الأمر. وإذا كانت معجزةً فإن الأمر حينئذٍ يخرج من حيّز الاستغراب ودائرة التعجّب؛ لأن الله جلّ وعلا لايعجز أن يجعل عمر إنسان معين داخلاً

---

(١) النساء: ١٥٧.

(٢) قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ العنكبوت: ١٤.

ضمن نطاق الإعجاز. فهذا غير ممتنع أبداً؛ ذلك أنه داخلٌ في دائرة الإمكان وليس في دائرة الممتنع.

وبمنظار آخر فإننا نقول: إن الموت ما هو إلّا قطع حبل الحياة. وإذا أراد الله جل وعلا أن يمدّ في هذا الحبل ولايقطعه، فليس هناك من مانع أبداً، فيمنح خلايا الإنسان القدرة على عدم التلاشي، ويمنح أجهزته القدرة على الاستمرار؛ وبالنتيجة فإنه سوف لن يستهلك تلك الأنسجة والأجهزة، وإنما سوف يعيش بتجدّدها كلّ مرة. وهذا معنى أن الله تعالى يعطي الإنسان القدرة على البقاء.

نعم إن هذا هو الشيء الاستثنائي عن القاعدة، فالقاعدة هي أن يكون للإنسان أمدٌ وأجل تنتهي حياته عند بلوغه، أما إذا خرمت هذه القاعدة، ومدّ في حبل الحياة، ومدّ في عمر الإنسان وأجله، فإن هذا هو استثناء من القاعدة، وليس هو الأمر الطبيعي أو القاعدة. فالروايات الشريفة تأخذ بأعناقنا، وتحملنا على الاعتقاد بهذا الأمر، مع أنه غير ممتنعٍ واقعاً أو عقلاً.

وليعلم الآخرون بأن هذه الخطرات والإشكالات التي تخطر في أذهانهم تخطر في أذهاننا أو على عقولنا كذلك دون اختلاف ودون توقّف، لكن مالذي يمكن أن نفعله ونحن أمام هذا الكمّ الهائل من الروايات والنصوص المثبتة لهذا الأمر، والتي تأخذ بأعناقنا إلى الاعتقاد به؟ فنحن حينما نقرأ رواية صحيحة السند عن رسول الله صلى الله عليه وآله تخبرنا بأن الإمام الثاني عشر من ولده يعيش بين ظهرانينا، فإننا نصبح ملزمين أن نأخذ بها ونتعبد، وأن نقطع بوجوده عليه السلام. والرواية التي أشرنا إليها أنه عليه السلام

«بين ظهرانيكم، يراكم وترونه، ويرعاكم وترعونه».

إضافة إلى قوله ﷺ: «لا تخلو الأرض من حجّة»[1]، وإلى قوله ﷺ: «لو لم يبقَ من الدنيا إلّا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يخرج من أهلي من يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً»[2].

و «المهدي منّا أهلَ البيت، أشم الأنف أقنى أجلى، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، يعيش هكذا»، وبسط يساره وإصبعين من يمينه؛ المسبّحة والابهام، وعقد ثلاثة[3].

وإلى آخر ما هنالك من الروايات التي لا يمكن إلّا أن يذعن لها الإنسان، وإلّا أن يتعبّد بها ويخضع لها. وبناء على هذا فقضيّة العمر المديد مسألة مأخوذةٌ هنا على نحو المعجز لا على نحو الشكل الطبيعي.

---

(١) انظر: الأُصول الستة عشر (عدة محدثين): ١٦، ٩٠، المحاسن ١: ٣٨، ٩٢ / ٤٥، ٢٣٤ / ١٩٣، ٢٣٦ / ٢٠١، بصائر الدرجات: ٤٨٨ / ١، ٤٨٩ / ٤، ٥٠٥ ـ ٥٠٦ / ٤، ٩ ـ ١٠، ١٥، ٥٠٧ / ١٧، ٥٠٩ / ٨، الإمامة والتبصرة: ٢٥ / باب أن الأرض لا تخلو من حجّة، الكافي ١: ١٧٨ ـ ١٨٠ / باب أن الأرض لا تخلو من حجّة.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٩٧، سنن أبي داود ٢: ٣٠٩ / ٤٢٨٢، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٣: ٣٤٣ / ٢٣٣٨، المعجم الأوسط ٢: ٥٥.

وقد روي في كثير من الكتب من غير لفظ: «لطوّل الله ذلك اليوم»، انظر: سنن ابن ماجة ٢: ٩٢٩ / ٢٧٧٩، سنن أبي داود ٢: ٣٠٩ ـ ٣١٠، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٣: ٣٤٣، المصنف (ابن أبي شيبة) ٨: ٦٧٩، صحيح ابن حبّان ١٣: ٢٨٢ ـ ٢٨٣، المعجم الكبير ١٠: ١٣٣، المعجم الأوسط ٢: ٩٩، وغيرها.

(٣) شرح الأخبار ٣: ٥٦٥ / ١٢٥٩، دلائل الإمامة: ٤٦٤ / ٤٤٥، مسند أحمد ١: ٨٤، سنن ابن ماجة ٢: ١٣٦٧ / ٤٠٨٥، المستدرك على الصحيحين ٤: ٥٥٧، قال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، الجامع الصغير ٢: ٦٧٢ / ٩٢٤٣، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٨: ٦٧٨ / ١٩٠.

الجواب عن الإشكال الثالث

وهو المتعلّق بالمبرّر لغيبته عليه السلام ، وأنه عليه السلام إذا كان موجوداً فما الفائدة من وجوده، وهو لا يمكن أن يرىٰ؟ ولقد ولد (سلام الله عليه) سنة مئة وخمس وخمسين للهجرة، وتوفّي أبوه الإمام العسكري عليه السلام وله من العمر خمس سنوات، وكان خلال تلك الفترة يلتقي أصحابه ويلقي عليهم تعاليمه، ويسألونه فيأخذون منه أحكامهم على نحو التكتّم. وبعد ذلك اضطرّته أسباب كثيرة أغلبها سياسي إلى أن يغيب عن نظر أوليائه. وهناك عدّة نظريات تعلل وتفسّر تلك الغيبة، منها نظريّة تقول بأنه عليه السلام إنما غاب عن الأنظار تجنّباً للقتل. وإن كنت أرى أن بهذه النظريّة شيئاً من اللّامعقوليّة وشيئاً من الضعف، لكنها تبقى ممكنة ولا يمنع منها الواقع؛ لأننا عشنا ظروفاً صعبة وحرجةً تجعل كلّ ما هو شيعي مصدر رعب وخطر على السلطات ومركز خوف وتخوّف لها حتى قبر الإمام عليه السلام وليس الإمام نفسه. وكمثال شاهد على ذلك قبر الإمام الحسين عليه السلام الذي أوصل الرعب منه بصاحبه إلى أن يقصف ذلك القبر.

إذن فنحن لانستطيع أن نبتّ في العلّة أو الحكمة الكامنة وراء غيبته عليه السلام أو أن نحددها، أو أن نحدّد اللطف الكامن وراء ذلك. وغاية ما في الروايات أنها تنصّ على أنه عليه السلام إنما غاب، وأن غيبته عن الأنظار وليست عن الوجود؛ بدليل قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «بين ظهرانيكم». أما الدوافع الحقيقية للابتعاد والغَيبة، فربما كانت ما علّلوه، وربما كانت ما لم يعلّلوه؛ ذلك أن الله جلّ وعلا أعلم بحقائق الأُمور.

الغيبة الصغرى

على أية حال فالإمام عليه السلام غاب غيبته الأُولى المسمّاة بالغيبة الصغرى

التي كان فيها الواسطة بينه وبين الناس أربعة سفراء هم:

الأول: عثمان بن سعيد الأسدي السمان، المتوفى سنة (٢٨٠) هـ.

الثاني: ولده محمد بن عثمان، المتوفى سنة (٣٠٤) أو سنة (٣٠٥) هـ.

الثالث: الحسين بن روح النوبختي، المتوفى سنة (٣٢٦) هـ.

الرابع: علي بن محمد السمري، المتوفى سنة (٣٢٩) هـ.

وهم الذين كانوا يسمون بالنواب الأربعة، أو الوكلاء الأربعة، أو السفراء الأربعة للإمام الحجّة المنتظر عليه السلام، والذين كانوا يمثّلون حلقة وصل بينه وبين شيعته وأتباعه. فقد كانت تمرّر عن طريقهم الاستفتاءات والأوامر والحقوق وما إلى ذلك، وكانت التوقيعات الشريفة التي تخرج من الناحية المقدّسة إلى الشيعة تخرج على أيدي هؤلاء الأربعة، ومن ذلك مثلاً التوقيع الذي أقرّ للمرأة الخروج في جنازة زوجها، تقول الرواية: سئل عليه السلام عن المرأة يموت زوجها، هل يجوز لها أن تخرج في جنازته، أم لا؟ التوقيع: «تخرج في جنازته». وهل يجوز لها وهي في عدّتها أن تزور قبر زوجها، أم لا؟ التوقيع: «تزور قبر زوجها، ولا تبيت عن بيتها». وهل يجوز لها أن تخرج في قضاء حقّ يلزمها، أم لا تخرج من بيتها وهي في عدّتها؟ التوقيع: «إذا كان حقاً خرجت فيه وقضته، وإن كان لها حاجة ولم يكن لها من ينظر فيها خرجت لها حتى تقضيها، ولا تبيت إلا في منزلها»[1].

وعلى يد آخر النواب الأربعة ـ وفي آخر لحظات سفارته ـ خرج التوقيع من الناحية المقدّسة موجّهاً إلى شيعته، يقول عليه السلام فيه للسمري: أيام، فاجمع أمرك ولا توصِ إلى أحد فيقوم مقامك بعد وفاتك؛ فقد وقعت الغيبة

(١) الغيبة ٢: ٢٣٠، وسائل الشيعة ٢٢: ٢٤٥ / ٢٨٥٠٣.

التامّة، فلا ظهور إلّا بعد إذن الله تعالى ذكره، وذلك بعد طول الأمد، وقسوة القلوب، وامتلاء الأرض جوراً»[١].

وبالفعل فإنه جهز نفسه، واستعدّ للقاء خالقه بعد الأيام السبعة التي حدّدها له الإمام ﷺ وتوفي ولم يعهد إلى أحد، ولم يوصِ بعده بوصيّة السفارة.

الغيبة الكبرى

وبوفاة السفير علي السمري (رضوان الله تعالى عليه) حدثت الغيبة الكبرى التي لا يعلم أمدها إلّا الله جلّ وعلا، ولا يعلم أحد متى يخرج الإمام ﷺ سواه تعالى، فموعد الفرج على يديه الشريفتين هو من مختصّات علم الله جلّ وعلا، وليس يعلمه أحد. وهناك جملة كبيرة من الروايات الشريفة التي تنصّ على أنه ﷺ يتحيّن وينتظر ساعة الفرج، فهو ﷺ ينتظر متى يأمره الله تعالى بأن يخرج ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً.

وقد أحببت أن أبيّن هذه الفكرة وأبعادها وإن كنّا على عجالة في هذه الليلة؛ لأنها ليلة مولد هذا الإمام المنقذ؛ حيث تشرّفت الدنيا إذ تشرّفت أبعادها بطلوع جبين هذا الإمام العظيم.

والجواب على التساؤل الوارد أول الكلام عند الجواب عن الإشكال الثالث حول المبرّر لوجوده يكون في مقامين:

الأوّل: أنه لطف بالمكلّف

يقول العلماء: إنّ وجود الإمام ﷺ هو لطف إلهي للمكلّفين وبهم،

---

(١) الغيبة (الطوسي): ٣٩٥، الثاقب في المناقب (ابن حمزة): ٦٠٣.

بمعنى أنّ كل المسلمين يعتقدون الآن بوجود الجنة والنار، والقرآن الكريم يصرّح بهذا في موارد كثيرة، منها ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]، وأعدت بمعنى هيّئت، أي أنّها موجودة فعلاً، مع أننا لا يمكن لأحد منا أن يصل إلى الجنة والنار، فهل معنى هذا أنّ وجودهما عبث؟ إذ أننا الآن في دار تكليف ولسنا في دار جزاء، وإذا أساء أحد المكلّفين أو أحسن فهو لا يُدخل النار أو الجنّة الآن، بل إنّه سيحشر يوم القيامة، ثم يجازىٰ حينها على عمله.

إذن فما فائدة الجنة والنار الآن؟ ولماذا هما موجودتان بالفعل مع أننا لا نستطيع أن نصل إليهما ولا أن نحشر فيهما الآن، والله تعالى منزّه عن العبث؟ يجيب علماء المسلمين على هذين التساؤلين وغيرهما بأنّ هناك لطفاً من الله تعالى بعباده حيث أوجدهما الآن وخلقهما مع أننا لا نتمكن من الوصول إليهما. فهو لطف من الله تعالى للمكلف وبه؛ إذ أن المكلّف إذا عرف أن هناك ناراً وجنة وأنهما أُعدّتا له؛ إن أحسن فللجنّة لينعّم فيها، وإن أساء فللنار ليعاقب فيها، فإن هذا سيكون له تأثير على سلوكه؛ حيث إنّه حينها سيخشىٰ النار ويحاول تجنّبها ويسعىٰ لذلك، وسيطمع في الجنة ويحاول الوصول إليها ويسعى لذلك لمرحلة ما بعد الموت. وبهذا يكون وجودهما لطفاً بالمكلفين.

وفي قضية الإمام المهدي عليه السلام يكون الجواب نفسه؛ حيث إنّ وجود الإمام فيه لطف بالمكلف وإن لم يكن هذا المكلّف يراه.

---

(١) آل عمران: ١٣٣، وكذا ما ثبت من حديث المعراج، ورؤيته صلى الله عليه وآله وسلم النار وأهلها.

الثاني: أنه عليه السلام يُرى ويستفاد منه

إنّ هذا التقريب المارّ هو تقريب بناءً على القول بأنّ الإمام عليه السلام لا يمكن أن يرىٰ، وتسليماً لمن يقول بذلك، أما وجه الحقّ فمن قال: إنّه عليه السلام لا يمكن أن يرىٰ أو يُتّصل به؟ إنّ الحقّ أنّه عليه السلام يمكن رؤيته لكن لا يمكن معرفته. وهذا له نظائر عندنا أيضاً، فالمسلمون بأجمعهم يرَون أن النبي عيسى عليه السلام رفع إلى السماء حياً، وأن الخضر حيّ كذلك، وهذا بإجماع منهم، وأن الخضر يرىٰ من قبل فئة خاصة، أي أنه حي يعيش معنا لكن لا يمكن معرفته، وكذلك الإمام المهدي عليه السلام، فإنّه يمكن أن يلقي بين العلماء رأيه في مسألة ما يكون اختلافهم فيها كبيراً، ويمكن أن يرشدهم إلى الجواب الصحيح دون أن يعرفوه. وهذا ما عليه أغلب جمهور علماء الشيعة الإمامية[1].

المناسبة الثانية: أنها ليلة الرغائب

وهي الليلة التي يعبّر عنها القرآن الكريم بأنها ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[2]. ومعنى هذا أنها تحدّد فيها كثير من الأُمور، ومنها مسألة الآجال؛ ففي هذه الليلة تحدّد آجال جميع الناس. وإن كانت هنالك رواية تقول: إن هذا الأمر يحصل ليلة القدر[3]، أي إن ليلة الرغائب هي ليلة القدر. وهنالك بعض الروايات التي تحاول أن تجمع وتوفّق بين هاتين الطائفتين من الروايات بأن تجعل إنزال الأمر على نحو الإجمال في هذه الليلة، ويكون على نحو التفصيل في ليلة القدر[4].

---

(١) للاطلاع على رؤيته عليه السلام في زمن الغيبة الكبرى انظر: بحار الأنوار ٥٢: ١٥٩ ـ ١٧٨.
(٢) الدخان: ٤.
(٣) فضائل الأشهر الثلاثة: ٦٢ / ٤٤.
(٤) الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٣٢٣.

على أيّة حال هنالك ـ كما قلنا ـ طائفة من الروايات التي تقول بأنها هذه الليلة، أي ليلة الخامس عشر من شعبان، وتنصّ الرواية على أن كلّ شخص سيكتب له في مثل هذه الليلة إلى مثلها من العام القادم؛ هل إنه سيعيش أم لا، وهل إنه سيوسّع عليه أم لا، وهل إنه سيصحّ أو يسقم، وما إلى ذلك من الأمور. إذن ففي مثل هذه الليلة يقدّر لكلّ مخلوق أمور عدّة:

الأول: الآجال

هل إنه سيعيش هذه السنة حتى الليلة نفسها من العام القادم أم لا، حتى إن الرواية تقول: «إن أحدكم ليشتري ويبيع ويتجهز ولا يدري أنه في الأموات».

الثاني: الأرزاق

وكما ذكرنا فإنه في هذه الليلة أيضاً تقدّر الأرزاق، ففيها يقدّر ما هو مكتوب له أن يرزقه، وأن يعطاه في هذه السنة منذ هذه الليلة وحتى الليلة نفسها من العام القادم، أي ما يمكن أن يحصله وما يمكن أن يدخل إليه من أموال. فكلّ هذا سيسجّل في مثل هذه الليلة، وستحدّد نسبته وقسمه من الرزق، او سيحدّد نسبة الرزق إليه.

الثالث: أمر الحاجّ

ومما يحدّد في هذا الليلة أيضاً أمر الحاجّ، ففي مثل هذه الليلة يكتب كلّ من قُسم له أن يحجّ البيت الحرام في هذه السنة، فهل إنه مكتوب له أن يتوفّق لأداء هذه الفريضة أو غير مكتوب له ذلك.

إذن فكلّ مايتعلّق بحياة الإنسان، وكلّ مايتعلّق بمسيرته في الوجود سوف يحدّد في مثل هذه الليلة.

نظريّة البداء

وهنا نقطة هامة أود أن أشير إليها وهي أن كلّ شيء يكتب في هذه الليلة للإنسان فإنه يكتب تحته: لله فيه البداء. ومعنى «لله فيه البداء» أن هذا سيحصل لهذا الشخص ما لم يبد لله فيه شيء آخر. ومسألة البداء من الأمور التي لم يفهمها بعض المسلمين ولم يهضمها، فلم يتمكن من أن يتقبّلها؛ لذا فإنه راح يهرّج على مذهب بأكمله بسببها، ويتهموننا بالكفر؛ لأنهم يتهموننا بأننا نقول: إن الله تعالى لم يكن يعلم ثم علم. مع أننا لانقول بهذا أبدا؛ فهذا كفر معاذ الله منه.

وهذه كتبنا الكلاميّة ومصادرنا في العقيدة والحديث كلّها تنصّ على خلاف هذا، وكلها تنصّ على أن الله جلّ وعلا عالم حكيم. لكن ببالغ الأسف أقول: إن هؤلاء إما أن يكونوا غير عارفين بحقيقة هذه المسألة ولم يتوصلوا إلى فهمها بشكل صحيح، أو إنهم لايريدون أن يفهموها ويستوعبوها لأغراض معيّنة، وإلا فإننا ليس أحد منا من ينسب إلى الله جلّ وعلا هذا الشيء، بل إننا نبرأ ممّن يقوله في الله تعالى، وينسبه إليه تعالى، ونكفّره ولا نعترف به مسلماً. ولأهمية هذا الموضوع فإنه ليس هناك كتاب من كتب العقائد عندنا إلّا ويتناول مسألة البداء ويتطرق إليها بشكل أو بآخر؛ تارة بتفصيل، وأخرى بإجمال.

ثم إن البداء لم نقل به عن تحكّم أو تعسّفٍ في الرأي، بل إننا نستدلّ عليه بقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[1]. ومعنى هذا أن هذه الأشياء التي تكتب لشخص في هذه الليلة فإنها إنما تكتب بحسب

---

(١) الرعد: ٣٩.

الظاهر الذي سيكون عليه هذا الشخص، لكن الله تعالى يظهر بعد ذلك في اللوح ما أخفاه عن العباد، لا لجهل منه تقدّس عن ذلك وتنزّه، بل لحكمة ومصلحة يرتئيها جلّ وعلا. وهذا الأمر حاله حال النسخ بلا اختلاف، فالنسخ في الأحكام الشرعية موجود عند المسلمين كافّة ومذكور في كتبهم، بل إن أهل السنة يجمعون على وجوده، ومتّفقون على تحقّقه وحصوله.

وأبرز شيء على ذلك مسألة القبلة التي كانت إلى بيت المقدس ثم بعد ذلك نسخت وجعلت إلى الحرم المكي. فهل إن الله جلّ وعلا لا يعلم أنه بعد ذلك ستحصل أُمور تجعل من الضرورة الانتقال بالقبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة؟ طبعاً لا؛ فإن الله عالم وحكيم، ولا يتصرّف إلّا عن علم وحكمة، وبهذا فإننا نذعن بأن هذا إنما حصل لمصلحة؛ فلمصلحة أبقى القبلة إلى بيت المقدس ولمصلحة نسخها بعد ذلك وجعلها إلى بيت الله الحرام. ولهذا فإن البداء لا يختلف عن النسخ في هذا الأمر: لأن النسخ في الأديان والشرعيّات، والبداء في التكوينيات.

فالشخص الذي يقدّر له عمر مثلاً، ثم يبدو لله في هذا العمر شيء، فإن معناه أنه تعالى إنما قدّر له مثلاً عشرين سنة فيما لو قطع رحمه، أما لو وصل رحمه فإن عمره سيصبح ستين سنة. وهذا يعني أنه قدر له عمراً ما بين العشرين والستين، وتبقى هنالك العوامل الخارجية التي تعمل على جعل هذا العمر عشرين سنة كقطع الرحم وما إلى ذلك من أُمور، أو ستين سنة كصلة الرحم والبر بالآخرين.

إذن فهذا هو معنى البداء، لا أن الله جلّ وعلا علم بعد جهل تنزّه عن ذلك وتقدّس. وموضوع البداء كما ذكرت في أكثر من محاضرة هو

موضوع معقد وعويص، ويحتاج إلى زمن أكبر من هذا؛ لنستطيع أن نقدّم صورة واضحة متميّزة عنه. وبوسع الإنسان أن يقرأ ماكتب عن البداء في كتب العقائد عند الإمامية، فمثل هذا اللون من التفكير السطحي والساذج الذي يرمينا به البعض لا يمكن أن يكون عندنا، فنحن أبعد غوراً، وأعمق فكراً من أن ننزلق في مهاوي هذا التفكير السطحي والساذج الذي يحاول البعض أن ينسبه إلينا. إننا لا يمكن بأي حال من الأحوال أن ننزلق إلى هذا اللون من التفكير السطحي كما ذكرنا، فعقيدة أن الله علم بعد جهل لا يقول بها إنسان مؤمن أبداً، ونحن بُراء ممّن يقولها ويعتقد بها. وهذا هو الذي موجود في كتب عقائدنا، وكتب علم الكلام عندنا.

في مستحبات هذه الليلة

إن على الإنسان أن يستغلّ كلّ طاقاته وجهده في إحياء هذه الليلة المباركة في العبادة والدعاء والصلاة وما إلى ذلك؛ لأنه لايعلم ما الذي خبّئ له في هذه الدنيا من موت أو ماشاكل

وبطبيعة الحال فإن الدعوات في هذه الليلة لاتقتصر على الأمور الأُخروية، بل إنها تتّسع لتشمل الأُمور الدنيوية، فمن الشيء الطبيعي أن الإنسان يحبّ الصحة والعافية والغنى وما إلى ذلك، والسلامة في الدنيا؛ لأن الإنسان لا يعلم ما الذي سيحصل له بعد حين؛ ولذا فإنه قد ورد في الدعاء الشريف: «اللهم إني أعوذ بك من شرّ ما تعلمه ولا أعلمه، وأسألك من خير ماتعلمه ولا أعلمه». وهناك الكثير من الأشياء التي تكون عادة خارج دائرة حواسّنا وعلمنا وقابلياتنا على التنبّؤ والتوقّع، وهذه الأشياء قطعاً نتوجّه إلى الله تعالى بالاستعاذة به منها؛ ليجنّبنا ضررها وأذاها.

ثم إن هذا الأمر ليس ببدعة في الكلام ولا في الاعتقاد، ذلك إن الله جلّ وعلا قد أمرنا بالدعاء، فقال عزّ من قائل: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1]. وإضافة إلى ذلك وحول هذه الليلة المباركة فقد وردت الرواية بأنه يصدر النداء من ملكين من قبله تعالى: «هل من تائب فيتاب عليه؟ هل من سائل فيعطى؟ هل من مستغفر فيغفر له؟ هل من طالب حاجة فتقضى له؟ فأجيبوا داعي الله، واطلبوا الرزق فيما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس؛ فإنه أسرع في طلب الرزق من الضرب في الأرض، وهي الساعة التي يقسم الله فيها الرزق بين عباده»[2].

وطبعاً هناك من يشفع بذاته وهو تعالى، وهو هنا يريد من عباده أن يحقّقوا معنى العبودية له في هذه الليلة، وهذا الأمر يريده الله تعالى من عباده في كلّ زمان وفي كلّ مكان، لكن التأكيد ينصبّ على هذه الليلة؛ لما لها من خصوصيّة، ولما فيها من بركة وخير، ولما فيها من خصائص جعلتها بهذه المنزلة. والله جلّ وعلا إنما يتفضّل على عباده بكلّ هذا من منطلق الربوبيّة؛ لأنه المالك الحقيقي للأشياء كافّة، فهو مالك الملك، وهو مقسّم الرزق وباسطه، وهو الممتنّ به على عباده. فهو تعالى واهبها وخالقها.

وفي مثل هذه الليلة يكون للدعاء قيمته، وقد ورد في الحديث الشريف «ادفعوا أمواج البلاء بالدعاء»[3]. فعلى الإنسان في مثل هذه الليلة أن يتوجّه إلى الله تعالى، وأن ينقطع إليه بشيء من الإخلاص والعبودية والتوجّه الكامل إليه جل وعلا، وأن يجتهد إليه بالصلاة بقلب خاشع؛ لأنه

(١) غافر: ٦٠. (٢) الخصال: ٦١٦، تحف العقول: ١٠٦.
(٣) الدعوات (الراوندي): ٢١: / ٣٢.

يرجو من الله جل وعلا أن يعطيه وأن يرزقه في هذه الليلة المباركة الكريمة التي خصّها الله بخصائص وميزها بميزات تفرزها عن الليالي العادية الأُخرى من ليالي الدهور.

وقد نصّ أكثر من مفسّر[١] على أن المراد بليلة الرغائب هذه الليلة المباركة؛ لأنها يقدّر فيها للإنسان كلّ مايتعلق به من أعمار وأرزاق وما إلى ذلك من متعلقات الحياة، فكلّ ماله مدخليه كبيرة في حياة الإنسان وكل شيء هام في حياة الإنسان يكتب في هذه الليلة. وكما ذكرنا سابقاً فإن ما يكتب فيها لإنسان يكتب مذيّلاً بكلمة: «لله فيه البداء»، أي أن هذا هو الظاهر لكم من الأُمور، أما ما خفي فالله أعلم به، فانقطعوا له بالدعاء حتى يكتب لكم خيرا منه، واستزيدوا من الله جل وعلا واطلبوا منه أن يمنّ عليكم وأن يتكرّم ويتفضل.

الثالثة: أنها ليلة نزول الملائكة على شهداء الطفّ

ففي مثل هذه الليلة من كل عام تتنزل أُفواج من الملائكة لتترحّم على الشهداء عامّة وعلى شهداء الطفّ خاصّة، فالرحمة ينزلها الله تعالى أحياناً على أيدي ملائكته أي بشكل غير مباشر، فهو تعالى تارةً ينزلها بشكل مباشر، وأُخرى بشكل مباشر عن طريق أُحد خلقه. وهنا ينزلها تعالى على يدي كرام مخلوقاته، وهم الملائكة؛ ولذا فإننا نجد في الروايات أن هناك أفواجاً من الملائكة تتنزّل في مثل هذه الليلة، وتتوجّه لزيارة الحسين عليه السلام. وموضوع زيارة الإمام الحسين عليه السلام قد حرص عليه تاريخ الإماميّة بشكل خاصّ حرصاً شديداً.

---

(١) في خصوص قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾.

وهكذا فإننا حينما نتناول الروايات المختصّة بهذا المجال نجدها مفعمة بالحثّ على الزيارة، ونجدها على درجة كبيرة من الاستيثاق، ومن هذه الروايات ما يقوله الإمام الباقر عليه السلام لأحد أصحابه: «الغاضرية هي البقعة التي كلّم الله فيها موسى بن عمران عليه السلام، وناجى نوحاً عليه السلام فيها، وهي أكرم أرض الله عليه، ولولا ذلك ما استودع الله فيها أولياءه وأبناء نبيّه؛ فزوروا قبورنا بالغاضريّة»[1].

و«لو أن أحدكم حجّ دهره كلّه، ولم يزر الحسين عليه السلام كان تاركاً حقاً من حقوق رسول الله صلى الله عليه وآله». وهذا هو الشكل الطبيعي لحفظ حق الآخرين؛ لأن المرء إنما يحفظ في ولده، والحسين هو ابن رسول الله صلى الله عليه وآله[2].

كما أن هذا المكان الذي استشهد فيه الإمام الحسين عليه السلام هو مكان قد جسدعليه السلام فيه أهداف رسالة جدّه صلى الله عليه وآله، بمعنى أنه كان الامتداد الطبيعي لجدّه رسول الله صلى الله عليه وآله على الأصعدة كافّة؛ سواءً كانت صعيد الرسالة، أو صعيد الخُلق، أو صعيد الدين، أو صعيد الدم، وما إلى ذلك ممّا يتعلق بهذا المجال. والحسين عليه السلام في نهضته المباركة هذه ما جاء إلّا ليجدّد ما أخلقه الأُمويّون في محاولاتهم لإرجاع الناس إلى الجاهلية الأولى، وطمس معالم الدين؛ فالإسلام حينما جاء أصّل حرّيّة الإنسان في ممارسة حياته وعقيدته واقتصاده وما إلى ذلك من أنواع الحريات الشخصية الأُخرى، وكذلك أصّل الحفاظ على كرامته، لكن الأُمويّين حينما جاؤوا أعلنوا نظرية استعباد المسلمين واسترقاقهم والاستحواذ

---

(١) كامل الزيارات: ٤٥٢ / ٦٨٠.

(٢) مر تحقيق كون هذه البنوة بنوة حقيقية في ج٢/ ص ١٦٦ من كتابنا هذا.

عليهم وكانوا يختمون على جباه العبيد [١]؛ ليحقّقوا معنى أن الناس أقنان لهم، وهذا ما حصل في أخذ البيعة القسرية من أهل المدينة بعد واقعة الحرة حيث قال لهم مسرف: تبايعون على أنكم عبيد أقنان ليزيد بن معاوية [٢]. كما إن الإسلام جاء لحفظ أعراض الناس والتأكيد على طهارة المولد، وعفّة الإنسان؛ رجلاً كان أو امرأة، لكن الامويين خرقوا هذا التشريع وأباحوا المدينة ثلاثة أيام.

وكذلك فإن الإسلام جاء ليكرّم الإنسان وليحقن الدماء وليحفظ للإنسان حقوقه ورزقه، فوضع تشريع بيت مال المسلمين، وكذلك جاء لرفع مستوى الإنسان، ولكن الأمويين صادروا كلّ تلك الحقوق، فقطعوا أرزاق كثير من المسلمين بحجة أنهم شيعة لعلي بن أبي طالب عليه السلام. فكل هذه القيم العالية، وكلّ هذه الأخلاقيات الرفيعة التي نادى بها الإسلام قد سحقت واستهزئ بها وسخر منها. وكان المتصدّون لكل ذلك، ولفعله وتحقيقه أغيلمة من بني أمية، الذين يعبّر عنهم الرسول صلى الله عليه وآله بأنهم ينزون على منبره نزو القردة، قال صلى الله عليه وآله: «رأيت بني أميّة ينزون على منبري نزو القردة يردّون الناس عن الدين القهقرى» [٣].

---

(١) قال ابن أبي الحديد: وكانت بنو أميّة تختم في أعناق المسلمين كما توسم الخيل؛ علامة لاستعبادهم. شرح نهج البلاغة ١٥: ٢٤٢.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ١٨١ ـ ١٨٢.

(٣) جامع البيان: المجلّد ٩ ج ١٥: ١٤١، الجامع لأحكام القرآن ١٠: ٢٨٢، سير أعلام النبلاء: ٢١٠٨. فهبط عليه جبرئيل عليه السلام يحمل سورة القدر، وأخبره أن ما رآه حقّ، وأن مدّة ملك بني أميّة ألف شهر.

وروى الفخر الرازي وغيره عن ابن عباس قوله: إن الشجرة الملعونة في القرآن هم بنو أميّة. وروى السيوطي عن عائشة أنها قالت لمروان بن الحكم: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لأبيك وجدك: «إنّكم الشجرة الملعونة في القرآن». انظر: التفسير الكبير ٢٠: ١٨٩، تفسير

ولذا فإن الحسين عليه السلام جاء ليحقّق أهداف النهضة المحمدية، وليقف بوجه هذه الوافدات الجاهليّة التي حاول الأُمويون إدخالها ودسّها بين صفحات الإسلام وتاريخه. وعليه فإننا حينما نذهب لزيارته عليه السلام فإنما نذهب لنؤدّي بها حقّاً من حقوق رسول الله صلى الله عليه وآله؛ لأن من امتدّ برسالته يجب أن يحفظ كما يحفظ رسول الله صلى الله عليه وآله. وكما قلنا: إن المرء يحفظ في ولده، وإلّا فما معنى قوله صلى الله عليه وآله: «حسينٌ منّي وأنا من حُسين»[(١)]؟ فالكل يعرف أن التبعيض هنا غير مراد في هذا الحديث الشريف وغير مقصود؛ لأنهم يعرفون بأن الولد بعض أبيه أو جزء أبيه. إذن فلابد أن تكون كلمة «من» هنا لغير التبعيض، أي أن تكون لأمر من الأُمور التي ينبغي التوجّه إليها والتنبه إلى المراد الكامن وراءها، وإن لم تكن كذلك فهي أشبه ماتكون باللغو الذي يجب أن ينزّه عنه رسول الله صلى الله عليه وآله.

إذن فكلمة «من» هنا استعملت لغرض آخر، وهو بيان الجنس، بمعنى أن المراد بها السنخية، أي أن الحسين عليه السلام من سنخ رسول الله صلى الله عليه وآله. وبتعبير آخر أن «حسين مني وأنا من حسين» يعني أني حامل لرسالة السماء، والحسين امتداد لهذه الرسالة.

المبحث الثاني: الآثار المترتّبة على زيارة الحسين عليه السلام

وعليه فزيارته عليه السلام تحقّق عدة أُمور منها:

الأول: أن فيها صلة لرسول الله صلى الله عليه وآله

فالقرآن الكريم يرفع عقيرته آناء الليل وأطراف النهار وهو ينادي: ﴿قُل

غرائب القرآن ٤: ٣٦٢، الدر المنثور ٤: ٣٤٦.

(١) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٧٧، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥١٥.

لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾[1]، و﴿الْقُرْبَى﴾ هنا المقصود بهم آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، الذين ورد بهم حديث الكساء[2]. أما مودتهم فظاهرها الفرح لفرحهم والحزن لحزنهم، ونحن حينما نتوجّه إلى قبر الحسين عليه السلام ونزور ذلك الضريح الشريف المبارك، فإنما نؤدّي نوعاً من الآداب الاجتماعية التي اقتضتها آية (المودة في القربى)؛ لأن هذه الزيارة تمثّل مظهراً من مظاهر المودّة.

الثاني: استلهام أهداف الثورة

إننا بهذه الزيارة الشريفة إنما نستلهم أهداف الثورة، وأهداف الحركة، واستبيان أبعادها العقيدية والسياسية وما إلى ذلك مما يتعلق بها.

الثالث: تحقيق فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

فبهذه الزيارة إحقاق لهذه الفريضة وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وإنكار له أيضاً؛ لأن هذه الزيارة إنما جاءت لتذكّر بهدف الثورة، وبأن هذه الأصوات في الزيارة إنما ترتفع لتذكّر الناس بهذه الدماء التي أُريقت في أرض كربلاء في موقف الحقّ ضد الباطل، فهذه الدماء قد أُريقت ظلماً وعدواناً ومن غير حقّ. وهذا ما تؤكّد عليه الزيارة الشريفة حيث تقول: «أشهد لقد اقشعرّت لدمائكم أظلّة العرش مع أظلّة الخلائق»[3].

إذن ففي الواقع نحن حينما نزور الحسين عليه السلام فإنما نكون قد حقّقنا

---

(١) الشورى: ٢٣.

(٢) المعجم الأوسط ٧: ٣١٩، فيض القدير شرح الجامع القدير ١: ٢١٧ / ٢٠٤.

(٣) الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٣٤٢، المزار: ١٤٤.

فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر برفع الأصوات للتذكير بهذه الفاجعة التي وقعت أو التي حصلت على أرض الطف، وبهذه الدماء التي أريقت ظلماً وعدواناً، وبغير وجه حقّ إلّا لأنها وقفت بوجه الباطل وأهله. ومن هذا فإننا نجد أن الإمام الصادق عليه السلام ـ بل وجميع الأيمّة عليهم السلام ـ يؤكّد على أن زيارة الحسين عليه السلام في ضريحه أفضل من زيارته بشخصه ـ أي الإمام الصادق عليه السلام ـ يقول أحد أصحابه: قلت له: سيدي لقد تجشّمت وعثاء السفر. فقال لي: «لا تشكُ أمر ربّك، هل زرت من هو أعظم مني منزلة؟».

يقول: فعظمت عليَّ المسألة، فمَن هنالك في الوجود من هو أعظم من أبي عبد الله الصادق عليه السلام؟ ومن هو هذا الذي أعظم حقاً عليَّ من زيارة هذا الإمام المعصوم المفترض الطاعة؟ فالتفت إليَّ وقال: «هلا زرت جدّي الحسين عليه السلام، فهو أعظم حقاً مني».

وعظم الحقّ هذا إنما جاء من حمل هذه الرسالة، فهذا هو السرّ في قول الإمام الصادق عليه السلام لصاحبه هذا، فهو حمل رسالة النبي صلى الله عليه وآله وامتدّت على يديه، وكأنما قام بأمر لم يُتح للأيمّة عليهم السلام غيره أن يقوموا به؛ ولذا فإنه يؤكد على هذه الزيارة، ويبيّن له بأن زيارة الحسين عليه السلام أهمّ من زيارته هو بشخصه.

وكذلك هناك رواية أخرى تقول: دخل أحد صحابة الإمام الصادق عليه السلام وهو سدير بن حكيم عليه، فقال له: «يا سدير، أتزور الحسين عليه السلام في كل يوم؟». فقال: لا. فقال عليه السلام: «ما أجفاكم أفتزوره في كلّ شهر؟». قال: لا. فقال عليه السلام: «أفتزوره في كلّ سنة؟». قال: قد يكون ذلك. فقال عليه السلام: «ما أجفاكم بالحسين عليه السلام! أما علمت أن الله تعالى بعث ألف ألف ملك غبر يبكونه ويزورونه، ولا يفترون؟ وما عليك يا سدير أن تزور الحسين عليه السلام في كلّ يوم مرّة؟».

قال سدير: فقلت: جعلت فداك، إن بيننا وبينه فراسخ كثيرة! فقال ﷺ: «اصعد فوق سطحك، ثم التفت يمنة ويسرة، ثم ارفع رأسك إلى السماء، ثم تنحو نحو القبر وتقول: السلام عليك يا أبا عبد الله، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[١].

شبهة حول زيارة الحسين ﷺ

والواقع أن هؤلاء الذين يظنّون أننا حينما نتوجّه إلى زيارة الإمام الحسين ﷺ فإننا نقصد عظاماً ونقصد تراباً، إنما هم واقعون في وهم كبير؛ لأنهم لايعرفون ولا يفقهون الفلسفة الحقيقيّة في زيارة هذا الإمام العظيم الحقّ؛ لأن من يزور الحسين ﷺ إنما يقف على موقف، ويقف على حركة وعلى مبادئ، وليس على تراب أو على عظام. فهذا تصوّر مخطوء للمسألة. إن الزائر يقف على صرخة مدوّية قد انطلقت من هذا المكان، ولم يستطع أن يحتويها، وهو إنما يقف على مجموعة من القيم والمثل التي جسّدها الإمام أبو الشهداء ﷺ على صعيد الطف؛ ولهذا فإننا لانزور عظاماً أو تراباً:

ويا كربلا يا هدير الجراحِ	وزهو الدم العلوي الأبيِّ
ويا صرح مجد بناه الحسين	وأبدع في رصفه المعجبِ
ويا عبقاً من عبير الخلود	يشدُّ الأنوف إلى الأطيبِ
سيبقى الحسين شعاراً على	أصيلك والشفق المذهبِ[٢]

وهكذا نجد أن من يظن أن الذاهب إلى زيارة الحسين ﷺ أنه يتوجّه إلى زيارة قطعة من تراب أو شباك من معدن، أو قطعة من عظام بالية لهو في

---

(١) المصباح (الكفعمي): ٤٩٠ ـ ٤٩١.   (٢) ديوان المحاضر ٢: ٢٥.

قمّة الخطأ وفي قمة الوهم؛ لأنه لم يكن بالذي يدرك الأهداف الحقيقيّة لهذه الثورة المباركة[١].

وأكبر دليل على هذا الأمر ـ هو كون الزائر لايزور عظاماً بالية، ولا شباكاً من المعدن أو الخشب، ولا أرضاً أو تراباً وإنما يزور مثُلاً ومبادئ وقيماً ورسالة ـ هو وقوف الظالمين أجمع بوجه زيارة هذا المكان المطهّر؛ فقد وقف الظالمون والجبابرة في ذلك الزمان وإلى زماننا هذا بوجه زيارة الإمام الحسين عليه السلام وبوجه من يزوره، وفرضوا على زيارته الضرائب الكثيرة؛ ماليةً ودموية، فلو كانت زيارة عادية أو كانت زيارة عظاماً بالية لما أرعبت هذه الزيارة الجبابرة والظالمين. لقد خشي الأُمويون والعباسيّون من أمثال المتوكل وغير المتوكل وذيولهم من بعدهم من هذه الزيارة، فوقفوا بوجهها وحاولوا منعها بكل ماأُوتوا من قوة؛ وما ذلك إلّا لأنهم يرون في زيارة هذا القبر إحياءً لتلك النهضة المباركة، وإحياءً لذلك الامتداد العظيم لرسالة السماء المتجسّدة بشخص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

واستمر الرعب من هذه الزيارة الشريفة حتى عصرنا الحاضر وقد ظن هؤلاء أنهم حينما يضربون القبر فإنما يضربون مُثُل الحسين عليه السلام، ويضربون مبادئ الحسين عليه السلام، ويضربون قيم الحسين عليه السلام التي هي مُثُل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومبادئه وقيمه. فالحسين عليه السلام أكبر من كلّ هذه الأفعال الجاهليّة؛ لأنه مضمون، والمضمون لايمكن أن يموت أبداً:

إن تهاوى الضريحُ والجدرانُ ... مما تهاوى الشموخ والعنفوانُ

---

(١) هذه الثورة التي امتدّ صداها حتى خارج البلاد والمجتمعات الإسلامية، وقد ذكرنا سابقاً كيف أن غاندي كان يتمثّل الإمام الحسين عليه السلام في حياته وثورته.

إنـــما تـــهدم الحـــجارة والمـضـ ـــمون يـبقى مـع المـدى ويُـصانُ

إننا لا نقف على قبر فيه مجموعة من العظام، وإنما نقف على صرخة مدوّية شقّت أرجاء الكون ولم تتّسع لها الدنيا: «والله لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرُّ فرار العبيد»(١).

الرابع: الجانب العاطفي

فكلّ هذه الأمور التي ذكرناها والتي نستمدّها ونستوحيها من زيارة الإمام الحسين عليه السلام صاحب تلك النهضة المباركة لا تمنع من أن تكون هنالك جنبة عاطفية في البين؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يفرغ من عواطفه ومن مشاعره وأحاسيسه، فلا يمكن لأي إنسان مهما أُوتي ومهما كان أن يتخلّى عن مشاعره وأحاسيسه وعواطفه أو يتجرّد عنها(٢).

---

(١) الإرشاد ٢: ٩٨، تاريخ الطبري ٤: ٣٢٣، البداية والنهاية ٨: ١٩٤، وفيها أقرّ إقرار.

(٢) روي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بكى على ولده إبراهيم عليه السلام وقال: «إن القلب ليحزن، والعين تدمع، ولا نقول ما يسخط الربّ، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون». انظر: صحيح مسلم ٤: ١٤٤٢ / ٢٣١٥، التفسير الكبير ١٨: ١٩٤، الرحلة في طلب الحديث (الخطيب البغدادي): ١٤. وقد بكىٰ علىٰ عمّه الحمزة، وعلىٰ ابن عمّه جعفر، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «على مثل جعفر فلتبكِ الباكية». الطبقات الكبرىٰ ٨: ٢٢٠.

وبكى صلى الله عليه وآله وسلم علىٰ الإمام الحسين عليه السلام. فقد ورد أن الإمام الحسين عليه السلام دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فوضعه في حجره، فإذا عيناه الكريمتان تهريقان الدموع، فلمّا سئل صلى الله عليه وآله وسلم عن سبب بكائه، قال: «أتاني جبرائيل فأخبرني أنّ أمّتي ستقتل ابني هذا»، فقلت: أيكون هذا؟ فقال: «نعم، وأتاني بتربة من تربته حمراء». المستدرك على الصحيحين ٣: ١٧٦ ـ ١٧٧. قال صاحب (المستدرك): «وهذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين».

وعن أمّ سلمة قالت: كان النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم جالساً ذات يوم في بيتي، فقال: «لا يدخلنّ عليّ أحد». فانتظرت، فدخل الحسين عليه السلام، فسمعت نشيج النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يبكي، فاطّلعت فإذا الحسين في حجره يمسح رأسه وهو يبكي، فقلت: والله ما علمت به حتىٰ دخل، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ جبرئيل كان معنا في البيت، فقال: أتحبّه؟ فقلت: أما من حُبّ الدنيا فنعم. فقال: إنّ أمّتك

إذن فنحن لا يمكن أن نتخلّى عن الجنبة العاطفية ؛ لأنها مسألة فطريّة عند كل إنسان ، وإن كان الهدف الأسمى والهدف الأوّل والرئيس ، والهدف الأكبر هو تحقيق الأهداف الثلاثة المارّة التي ذكرناها قبل قليل . ولذا فإننا نتذكّر تلك الدماء التي أُريقت ظلماً ، ونتذكّر ذلك الثغر الذي طالما أشبعه رسول الله صلى الله عليه وآله لثماً وتقبيلاً ، والذي راحت عصا يزيد تعبث به ، ولنكرم ذلك الفم الذي طالما ظلّ مشغولاً بذكر الله دون أن يفتر عنه لحظة واحدة ، ولنكرم ذلك الجبين المشرق الطاهر الذي وقع عليه حجر أبي الحتوف الجعفي . إننا نقف على ذلك كلّه ؛ ولذلك فإننا حينما نحتضن قبره فإنما نحتضن تلك السمات الكريمة والمواقف الجليلة .

ومن هنا فان الزوار يقفون على ذلك القبر ينتزعون منه كلّ تلك المبادئ والقيم ، وأوّل من وقف على ذلك الضريح المقدّس لينتزع منه كلّ ذلك عبيد الله بن الحر ، ثم وقف من بعده سليمان بن قبّة ، ثم بعد ذلك جابر بن عبد الله الأنصاري الذي قال لغلامه : ياغلام ، أُلمِسني القبر . فلما أخذ بيده إلى القبر ووضعها عليه ، وأحسّ ببرد ترابه صاح : ياحسين ، ياحسين ، ياحسين . ثم قال : حبيب لا يجيب حبيبه ، وأنى لك بالجواب وقد شخبت أوداجك على أثباجك ، وفرق بين رأسك وبدنك؟ » .

وهنا أطلت أُخت الحسين عليه السلام ومن ورائها السبايا يقصدن زيارة القبر الطاهر ، وكانت زيارة من نوع آخر ، كانت زيارة فيها روح عمليّة ، فقصدن القبر ووقعن عليه ، وهن يحتضنّه ، ثم جلن حوله :

ستقتل هذا بأرض يقال لها كربلاء». فتناول جبرئيل من ترابها فأراه النبيّ صلى الله عليه وآله. كنز العمّال ١٣: ٦٥٦ / ٣٧٦٦٦. وقال: «أخرجه الطبراني». المعجم الكبير ٣: ١٠٨ ـ ١٠٩ / ٢٨١٩، ٢٣: ٢٨٩ / ٦٣٧.

يا من على رغمي نزلت بقربكم ردوا سؤال مسوله في حيكم

أين البدور الطالعات بأفقكم (يانازلين بكربلا هل عندكم

خبر بقتلانا وما أعلامها)

على كبر السبط ذبت نفسها تون بسهداي ماينسمع حسها

ولم يتأخّر الإمام السجّاد عليه السلام في ذلك المقام بل إنه سمح لهن بالبقاء ثلاثة أيام، ثم أمر بالرحيل، فقال له أحد من معه: يابن رسول الله، دع النساء تتزوّد من أبي عبد الله الحسين عليه السلام. فقال له: «أما إنكم لا ترون كما أرى». قالوا: وما ترى يا بن رسول الله؟ قال عليه السلام: «إني أخشى على عمتي زينب أن تموت، فإنها تقوم من قبر وتجلس عند قبر».

ثم أقبل إليها وقال لها: «عمتي قومي». قالت: عمة إلى أين؟ قال عليه السلام: «عمّة إلى أرض المدينة». قالت: وماذا بقي لي في المدينة؟ وكأني بها:

شفت ونتي وهضمة اعيالي بيت وبكى من الزلم خالي

تلك الديار العامرات بأهلها



الفصل الخامس عشر

مسلم بن عقيل



﴿٦٠﴾

ملامح الشخصيّة الرساليّة

رسول حسين ونعم الرسـول	إليـهم من العترة الصـــالحه
لـقد أسـلموه وقـد خذلوه	وغـدرتهم لم تزل واضحه

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأول: دور الشخصيّة الرساليّة

إذا أراد الباحث أن يتلمّس الملامح العامة للشخصية التي تتصف بصفة الولاء لأهل بيت النبي ﷺ وتنتمي إليهم عليهم السلام فإنه حتماً سوف يتلمس الملامح العامة للشخصيةِ الرسالية؛ ويبحث عن شخصية كل ملامحها أنها شخصية أمينة على أداء رسالتها. وهذا في واقع الأمر يعتبر أمراً هاماً جداً على صعيد دراسة الشخصية الرسالية.. الشـخصية التـي يجب أن تكون أمينة في أداء هـذه الرسـالة التـي يناط بـها أمـر تـبليغها وأدائـها والوصول بها إلى الهدف الذي أُعلنت من أجله. وهذا من الأمور الهـامة التي راعى وجودها الإمام الحسين عليه السلام في شخصية رسـوله إلى الكـوفة، أعني ابن عمّه مسلم بن عقيل عليه السلام.

لقد كان اختيار الإمام الحسين عليه السلام لمسلم بن عقيل اختياراً انتقائياً قائماً

على أساس من التفكير السليم والتخطيط الواعي والشعور بالمسؤولية تجاه هذا الهدف الذي كان يرنو إلى تحقيقه، ذلك أن الإنسان وهو يعيش في أسرته فإنه غالباً ما تنطبع عليه بصمات تلك الأسرة وعاداتها وثقافاتها وما إلى ذلك من لوازم تفكيرها. وهذا ليس ببعيد عن حال مسلم بن عقيل عليه السلام؛ ذلك أنه عاش في أسرة هي من أشرف الأسر، والأسرة كما بيّنا أكثر من مرّة[1] هي من أهمّ وجوه المحيط وتركيباته، وكان لهذا الأمر مدخلية في تكوين وتركيب شخصية هذا الإنسان المؤمن الرسالي.

ولقد عاش عليه السلام حالة التأثير والتأثّر الطبيعيتين اللتين لا يمكن أن ينفك عنهما إنسان يعيش في مجتمع، وكل ما في الأمر أن هاتين الحالتين (التأثير والتأثر) تارةً تكونان سلبيتين وتارةً تكونان إيجابيتين. وتأثير مسلم بن عقيل عليه السلام وتأثره كان من النوع الإيجابي؛ حيث إنه عليه السلام قد تشرب بأخلاق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأخلاق أمير المؤمنين عليه السلام والإمامين الحسنين عليهما السلام، وبهذا فإنه كان على مستوى رفيع من الأخلاق النبيلة والحسنة، وبهذا فإننا نعرف أن الشخص يسهمُ إسهاماً كبيراً في بناء الأسرة، والأسرةُ كذلك تسهم إسهاماً أكبر في بناء ملامح شخصية الإنسان.

وهذا التأثير وهذا التأثّر ينسحبان على كل مفردات حياة الحرب، وحياة السلم.. الحياة التي يشتبك فيها سلاحُ الحقّ مع سلاح الباطل. ولاشك أن هذا الأمر قد مارسه مسلم بن عقيل عليه السلام على أتمّ وجهٍ بما أثر فيه من تربية نالها من هذه الأسرة الكريمة ومن أبنائها المعصومين عليهم السلام.

ومعركة الطفّ كانت تعد معركةً حاسمةً في تاريخ الإسلام والتشيع،

(١) وسيأتي كذلك.

وهي معركةٌ طبعت بصماتها على الشخصية التي تنتمي لهذه الأسرة الشريفة، ومعركة الطفّ كذلك لا شك في أنها تخضع من قريب أو من بعيد لتناقض القيم والنفعيّات وهذا يعني أننا إذا أردنا أن نبحث في سيرة سيد الشهداء عليه السلام، هذا الإمام العظيم فإننا سوف لن نجد أن هناك أي جانب أو منطلق نفعي يدفعهُ لولوج هذه المعركة.

كما أن من المستحيل والمتعذّر على كلّ باحثٍ موضوعي أن يقول: بأن هناك دوافعَ مثل هذه وراء قيام معركة الطفّ، فالباحث الموضوعي الأكاديمي الذي ينشدُ الحقيقة لابدّ له أن يقف موقفاً واضحاً إزاء هذه النهضة، وأن يبتعد عن المؤثّرات الخارجية كالمؤثرات الاجتماعية أو السياسية أو غيرها من المؤثرات الشخصية التي ربما تدفع بشخصية الباحث إلى الانجراف وراء الأهواء والآراء، فيبتعد عن الحقيقة والحقّ، ولا يصيب منهما شيئاً. وإذا كان كذلك فإنه حتماً سوف يصف هذه الحركة بأنها ذات دوافع نفعية مادية دنيوية.

إذن فالباحث الموضوعي لا يمكن أن يتوصل إلّا إلى أن هذه الحركة ليس من ورائها أي دوافع دنيوية أو شخصية أو نفعية، وما خلا ذلك فإن هذا الباحث يعد منحرفاً. إن جميع الدوافع التي برهنت عليها الوقائع التي لابست هذه النهضة المباركة تقرر أنه ليس هنالك من دوافع سوى إرادة وجه الله جل وعلا وثوابه والتقرب إليه، ثم بعد ذلك خدمة هذا المجتمع وإنقاذه من السلطة التي أرادت أن ترجع به إلى عهد ما قبل الإسلام. وهذه الدوافع الشريفة النبيلة والأهداف السامية الجليلة التي قامت من أجلها هذه النهضة المباركة هي في واقع أمرها بصمات طبيعية خلفتها هذه الأُسرة المباركة عند أبنائها.

سرّ اختيار الإمام الحسين عليه السلام لمسلم عليه السلام

إننا سنرى من خلال البحث التالي الدوافع التي جعلت من الإمام الحسين عليه السلام يتخذ مسلماً عليه السلام رسولاً له دون غيره، إنّ شأني في ذلك شأن غيري لا أستطيع أن أدعي أنّ كل من ينتمي إلى بني هاشم من نمط واحد وعلى تربية عالية كما أرادها الله جل وعلا ورسوله الكريم؛ ذلك أن هناك الكثير من أبناء الأئمة قد خرجوا عن طريق آبائهم عليهم السلام، ونحن لا نجلّهم؛ لأنهم لا يحملون بصمات هذه الأُسرة الشريفة العالية الطاهرة. وبهذا فإننا نستطيع أن نقول بأننا يمكن أن نطلق على هذا البعض تسمية (شاذين)، في حين أن البعض الآخر تظهر عليه بصمات الأُسرة العلوية واضحة بينة.

حقيقة البنوّة

إن الواقع الذي ينبغي الإشارة إليه هو أنّ الابن ليس الذي ينحدر من الأب عن طريق الدم واللحم؛ لأنهما ليس لهما قيمة، والذي له ثمن وقيمة هو أمر أسمى من مسألة اللحم والدم.. أمر يتّسم بسمة المشاعر، فالإنسان ما لم يحمّل ابنه قيمهُ وأخلاقهُ، لا يمكن يعكس صورة حقيقية عنهُ على المستوى الأخلاقي والديني والاجتماعي والتربوي، وبالتالي فإنه لا يمكنه أن يعده شيئاً ذا قيمة وأهمية؛ لأن هذا الابن ليس إلّا امتداداً لهذين الدم واللحم الفانيين، أما الصفات الخالدة فهي بعيدة كل البعد عن هذا الابن.

وبهذا فإنه يمكن للبعيد دماً ولحماً أن يصبح كالابن، وأن يصبح الدم واللحم عينه شيئاً غريباً عن الشخص الذي يفترض به أن يكون قريباً له.

المبحث الثاني: الطبيعة الديموغرافية لسكّان الكوفة

ومن هذا التقريب فإننا يمكننا أن ندرك حقيقة اختيار الإمام الحسين‰ لمسلم بن عقيل وإرساله نيابة عنه إلى أهل الكوفة. إن الواقع يقول: إن هذا الاختيار ينمُّ عن أهميةٍ اكتسبها من خلال تعبير الإمام الحسين‰ الذي ورد بكتابه إلى أهل الكوفة بعد أن حمله مسلم بن عقيل‰، حيث يقول فيه: «وأنا باعث إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل»[1].

والمخاطبون بهذا الكتاب هم أهل الكوفة، وهنا لابدّ من إعطاء بعض ملامح الكوفة وأهلها في ذلك الوقت، إن لأهل الكوفة خطراً عظيماً في ذلك الزمان لما لهم ولها من ثقلٍ في الحياة الإسلامية، ولما لها من أثر كبير في سير الأحداث[2].

ويؤكّد هذه الأهمية الوصية التي أوصى بها معاوية بن أبي سفيان ابنه يزيد حيث قال له فيها: «وانظر أهل العراق؛ فإن سألوك أن تعزل عنهم كلّ يوم عاملاً فافعل؛ فإن عزل عامل أيسر من أن يشهر عليك مئة ألف سيف»[3].

وهذا يعني أن أهل الكوفة مجموعة غير متجانسة، وأن تركيبتهم لا تتّصف بأنها تركيبة واحدة، بمعنى أن وحدة التجانس والتركيب غير متوفّرة في هذا المجتمع. إننا حينما نرصد السكان في الكثير من البلدان فإننا نرى أن هؤلاء يكونون عادة من قومية واحدة أو ديانة واحدة؛ كأن

---

(١) روضة الواعظين: ١٧٣، الكامل في التاريخ ٤: ٢١.

(٢) ولعلّها المنفذ الذي تمرّ منه الجيوش الإسلامية الفاتحة وهي تنطلق عبر البلاد ممّا وراء النهر.

(٣) الكامل في التاريخ ٤: ٦، كتاب الفتوح ٤: ٣٥١.

يكونوا كلهم عرباً أو روماً أو أتراكاً أو ما إلى ذلك، وهذا يعني أنهم تربطهم مع بعض وحدة تجانس، وأن هناك وحدات سلوكية موجودة بينهم تسيطر على سلوكهم وعلى تصرفاتهم مما يؤدي بالنتيجة إلى سهولة ضبطهم والسيطرة عليهم.

إن مثل هذه التركيبة عادة تكون السيطرة عليها أسهل بكثير من البلاد ذات الأطياف المختلفة والعناصر غير المتجانسة كما هو الحال مع الكوفة؛ ولذا فإننا وجدنا معاوية بن أبي سفيان يحذر ابنه يزيد من هذا البلد، ويأمره أو يرشده إلى ضرورة استعمال اللين معهم وتلبية مطالبهم حتى لا يثوروا عليه، وبالنتيجة فإنه يصعب إسكات مئة ألف سيف.

وهنا أود أن ألفت النظر إلى أن علماء الاجتماع عندما يحاولون البحث في التركيبة السكانية لمدن الموانئ أو المناطق الساحلية التي تكون فيها موانئ، فإنهم يعاملون هذه المدن معاملة تختلف عن المدن الأخرى التي تقع داخل البلد؛ الميناء عادة يسكنه أشكال وأجناس كثيرة من الناس من ذوي الطبائع المختلفة، فبعضهم حاد الطبع وبعضهم بارد وبعضهم يحتمل بعض القوانين وبعضهم لا يحتملها وبعضهم تصلح له أخلاق من نوع ما وآخر لا تصلح له بل تصلح له أخلاق غيرها.

وهكذا فإننا نجد التنوع في التقاليد والعادات والممارسات والأخلاقيات والموروثات بحكم الاختلاف السكاني الموجود في مدن الموانئ، وهذا ينتج عنه نسيج غير متجانس وتنوع في التقاليد والتعاملات فيما بينهم، بل ربما ينتج عنه أيضاً حالة من عدم الاستقرار في التعامل داخل المجتمع؛ لأن العادات غير متشابهة والطبائع مختلفة والاعتقادات والمبادئ تتباين من مجموعة إلى مجموعة ومن نوع إلى

نوع.

وعلماء السلوك أو الاجتماع حينما يدرسون هذه المدن، فإنهم يأخذون بنظر الاعتبار أن هذا الاختلاف في التركيبة السكانية يعني أن هناك مجموعات تكثر فيها جرائم من نوع معين، وهنالك تركيبات أخرى تكون عندها هذه الدوافع إلى هذه الجريمة بشكل أقل وربما تكون عندها دوافع أكبر إلى نوع آخر من أنواع الجريمة؛ وبهذا فإنهم يركزون أكثر على هذه الجنبة وهم يدرسون هذه المناطق أو هذه المدن لما فيها من مجتمعات غير متجانسة. وفوق هذا فإنهم يركزون على هذه المدن بشكل أكبر لأنها تمثل وشيجاً غير متجانس ولا تتوفر فيه الوحدة السلوكية، وبالتالي فإنها تمثل مختبراً لإقامة التجارب، ولكنها تجارب سلوكية فيستطيعون أن يخرجوا منها بنتائج حول المجتمعات الأكبر التي ينتمون إليها. وبه يبينون أو يشرعون أو يقنّنون كيف يجب أن يكون التعامل مع هؤلاء، بحيث إنه يتم ضبطها والسيطرة عليها، وما هي وسائل الأمن التي تصلح لها.

وبالرجوع إلى محور حديثنا وهو بلد الكوفة وهو بلد في واقع الأمر يمثل ـ كما ذكرنا ـ وحدة غير متجانسة، فهو أشبه ما يكون بالبلد الساحلي أو البلد الذي يكون فيه ميناء، وقد قصده الكثير من الناس من مختلف الأطياف والأديان والقوميات وما إلى ذلك؛ لأنه (بلد الكوفة) في الأساس كان معسكراً وليس مدينة سكن، فالمدينة يسكنها أهلها من أبناء الجنس الواحد والديانة الواحدة والنوع الواحد، وعادة تكون فيها حياة وتكون فيها زراعة وصناعة وما إلى ذلك من الفعاليات الحياتية المختلفة. كما أنها تمارس فيها أنواع الكسب كافة فلا أقل من أن تقع على طريق

للقوافل التجارية أو القوافل السياحية التي عادة يكون الهدف والغرض منها اقتصادياً.

وهذا الأمر يختلف مع الكوفة لأنها كانت تمثل معسكراً وليست مدينة، فهي في بادئ أمرها كانت محطاً للعساكر والجيوش التي تتوجه إلى فتح البلاد؛ ذلك أنها رملة مرتفعة.

وقد كتب الخليفة الثاني عمر بن الخطاب كتاباً إلى سعد بن أبي وقاص قال فيه: اتّخذ للمسلمين دار هجرة تصلح لهم ولنياقهم، ولا تجعل بينها وبينهم بحراً. فأتى الأنبار وأراد أن يتّخذها منزلاً، فكثر على الناس الذباب، فتحوّل إلى موضع آخر فلم يصلح، فتحوّل إلى الكوفة فاختطّها وأقطع الناس المنازل، وأنزل القبائل منازلهم، وبنى مسجدها، وذلك سنة (١٧)هـ[1].

أي أنه يأمره بأن يتخذ مكاناً ليس فيه حشرات مؤذية كالبعوض، ولا حيوانات مثلها فتؤذي الجيش أو تقتل بعض أفراده. كما أنه إذا كان نجداً فهذا يعني أن هواءه أنقى وأصلح وأقلّ تلوثاً؛ ولهذا فإنه اختار الكوفة التي كانت منطقةً صحراويةً مرتفعةً، وهي امتداد طبيعي للنجف، يقول أحد الشعراء المعاصرين مخاطباً تربتها:

صدق الذي سمّاك في وادي طوى	يا دار بل وادي طوى وغراءِ
جلست على الأنهار بلدان الورى	فعلام أنت جلست بالصحراء

وهذا المعسكر جميع أفراده من أغلب البلاد الإسلامية؛ فكان فيه البصري والكوفي والواسطي والشامي، إضافة إلى ما فيه من أسرى ممّن

---

(١) انظر: فتوح البلدان ٢: ٣٢٨ / ٦٩٨، معجم البلدان ٤: ٤٩١ ـ الكوفة.

كانوا يجلبون أثناء بعض الحروب التي يخوضونها كأسرى الروم وأسرى الفرس والنبط وغيرهم من الجنسيات المختلفة المتنوعة. وبهذا فإن المنطقة أصبحت منطقةً غير متجانسة، وكان النسيج السكاني فيها عبارة عن أطياف وقوميات وأفراد مختلفة في التفكير والرأي والحضارة والسلوك ومستوى التفكير ونمطه، وما إلى ذلك من الفوارق الثقافية والفكرية والحضارية التي تميز كل أبناء بلدة وجِلدة عن غيرهم من القوميات الأخرى.

فالتنوع الأخلاقي الذي كان يخيّم عليهم من الصعب على السلطات الحاكمة آنذاك أن تسيطر عليه، وبعد أن استقرَّ الحال أصبحت الكوفة بلداً واضح المعالم متكاملاً وليست مجرد معسكر؛ فبنيت بها الدور وبني بها مسجد للعبادة، واتخذت فيها بعض الأعمال وما إلى ذلك. ثم نما السكان فيها نمواً هائلاً وسريعاً، فكثر أهلها ممن جاؤوا للسكن فيها؛ سواءً جاؤوا مهاجرين إليها، أو من ذوي المعسكر والجنود، أو الأسرى الذين بقوا فيها. وبعبارة مختصرة: إنها كانت وحدة سكانية غير طبيعية، وفيها أنماط غريبة متنوعة من الناس.

ولعل هذا هو ما يفسّر السبب الذي من أجله أن الإمام أمير المؤمنينعليه السلام كان في آخر أيامه يتعايش معهم تعايش الجسد ـ أي تعايش جوار ـ ولم يكن يتفاعل معهم أو يستأنس بهم؛ لأنهم كانوا أحزاباً متفرقةً متناثرة، لا يقفون موقفاً واحداً، ولا يلتفون حول قائدٍ واحد. ويؤيد هذا قولهعليه السلام مخاطباً إياهم في وصيّته: «وإنما كنت جاراً، جاوركم بدني أياماً»[1].

---

(١) من كلام لهعليه السلام قبل موته: ولما فيه من مضامين عالية أحببنا أن نورد بعضاً منه، يقولعليه السلام: «أيها الناس، كلّ امرئ لاقٍ ما يفرّ منه في فراره، والأجل مساق النفس، والهرب منه

وهو تعبير دقيق جداً، فلم يعبر صلى الله عليه وآله بعبارة «جاورتكم روحي»، بل إنه صلى الله عليه وآله استخدم الجوار للجسد، وجعله من خواصه في هذه المسألة، وهذا يعني أنها مجاورة مكانية فقط، ولا تتعداها إلى المجاورة الفكرية. ومؤدّى هذا لم يكن صلى الله عليه وآله ليندمج معهم ولم يكن قريباً منهم؛ لأنهم في الواقع لم يحاولوا أن يستفيدوا منه أو أن يريحوه مما كان يعتريه من همّ يحسه بسبب ما كان يستشري في الجسد الإسلامي من أمراض وغيرها حاول الأُمويّون أن يدسوها فيه؛ كي يُرجِعوا الناس إلى جاهليتهم. وكما قلنا فإن هذا يعود إلى كونهم مجموعة غير متجانسة فلا يمكن السيطرة عليها إدارياً أو سياسياً.

ثم إن الكوفة لم تكن بالبلد الصغير، بل إنها في ذلك الوقت كانت تمتد من ذي قار إلى طريق الحجاز في الكوفة، فكل هذه المنطقة الشاسعة كان يطلق عليها لفظ الكوفة. إذن فمنطقة بهذه المساحة الشاسعة وبهذا الاختلاف والتنوع الديموغرافي للسكان فإن من الواضح ومن الطبيعي أن

موافاته. كم اطّردت الأيام أبحثها عن مكنون هذا الأمر، فأبى الله إلّا إخفاءه. هيهات، علم مخزون.

أمّا وصيّتي، فالله لا تشركوا به شيئاً، ومحمد صلى الله عليه وآله فلا تضيّعوا سنّته. أقيموا هذين العمودين، وأوقدوا هذين المصباحين، وخلاكم ذمّ ما لم تشردوا. حمل كلّ امرئ منكم مجهوده، وخفف عن الجهلة. ربّ رحيم، ودين قويم، وإمام عليم. أنا بالأمس صاحبكم، وأنا اليوم عبرة لكم، وغداً مفارقكم، غفر الله لي ولكم. إن تثبت الوطأة في هذه المزلّة فذاك، وإن تدحض القدم فإنما كنا في أفياء أغصان ومهبّ رياح، وتحت ظلّ غمام اضمحلّ في الجوّ متلفّقها، وعفا في الأرض مخطّها. وإنما كنت جاراً جاوركم بدني أياماً، وستعقبون مني جثّة خلاء، ساكنة بعد حراك، وصامتة بعد نطق؛ ليعظكم هدوي وخفوت إطراقي وسكون أطرافي: فإنه أوعظ للمعتبرين من المنطق البليغ والقول المسموع. ودّعتكم وداع امرئ مرصد للتلاقي. غداً ترون أيامي، ويكشف لكم عن سرائري، وتعرفونني بعد خلو مكاني وقيام غيري مقامي...». نهج البلاغة / الكلام: ١٤٩، الكافي ١: ٢٩٩ / ٦.

يصبح أمر ضبطها ليس باليسير بل هو متعذر تطبيقه.

لماذا اختار الحسين عليه السلام مسلم بن عقيل عليه السلام؟

وبعد هذا التوضيح الذي ذكرنا نفهم الغاية والعلة التي من أجلها اختار الإمام الحسين عليه السلام مسلم بن عقيل رسولاً له إلى أهل الكوفة، ذلك أنه كلفه بمهمة دراسة استعدادهم ومدى قبولهم لاتباع أهل البيت عليهم السلام ولنصرتهم. وهذه الرسالة بطبيعة الحال تتطلب شخصاً كفوءاً، وتحتاج إلى عنصر واعٍ يتحلى بكفاءات عدة على المستويات كافة، ويتصف بالأهلية الكاملة ليقوم بهذه المهمة الخطرة والخطيرة في آن، وليس شخصاً عادياً لا يمكن أن يقوم بذلك.

لقد كان مسلم بن عقيل عليه السلام يحمل كل أسباب الكفاءة. وسوف أذكر الآن بعض الملامح العامة التي تميز شخصية هذا الرجل الرسالي العظيم، لقد كان هذا الرجل ـ كما ذكرنا ـ يحمل كل صفات الأهلية التي يجب أن تتوفر في الشخصية المنتدبة للقيام بما كلف القيام به من أمور مصيرية بما تمتلكه من هدف حيوي ونبيل.

ومن أبرز المؤهلات التي اتّصف بها الشجاعة والإقدام والعزم على المضي في ما كلف فيه، وما أرسل من أجله. يذكر المؤرخون أنه سار معه دليلان فقط ليرشداه إلى الطريق، لكن الذي حصل أنهما ماتا أثناء تلك الرحلة، وقبل أن يسلما الروح أشارا له إلى اتجاه الطريق الصحيح كي يستدل إليه بعدهما، وفعلاً بعد أن توفيا جاء إلى الطريق الذي أشارا إليه حتى وصل إلى مكان استطاع منه أن يكتب كتاباً إلى الإمام الحسين عليه السلام ويرسله مع أحد الناس، تقول الرواية: سارت قافلة مسلم تجدّ في السير

لا تلوي على شيء، يتقدّمها الدليلان وهما يتنكّبان الطريق؛ خوفاً من الطلب، فضلاً عن الطريق، ولم يهتديا له وقد أعياهما السير واشتدّ بهما العطش، فأشارا إلى مسلم بسنن الطريق بعد أن بانَ لهما، وتوفيا في ذلك المكان.

فلمّا توفّيا سار مسلم مع رفقائه حتى أفضوا إلى الطريق، ووجدوا ماءً فأقاموا فيه ليستريحوا ممّا ألمّ بهم من عظيم الجهد والعناء. وهنا بعث مسلم كتاباً للإمام الحسين عليه السلام جاء فيه: «أما بعد: فإني أقبلت من المدينة مع دليلين، فجازا عن الطريق فضلاً، واشتدّ عليهما العطش فلم يلبثا أن ماتا، وأقبلنا حتى انتهينا إلى الماء فلم ننجُ إلّا بحشاشة أنفسنا، وذلك الماء بمكان يدعى المضيق من بطن الخبث. وقد تطيّرت من توجهي هذا، فإن رأيت أعفيتني منه، وبعثت غيري والسلام».

وهذا الكتاب وإن كان البعض من المؤرخين يثق فيه إلّا إنني أستبعد صدوره من مثل مسلم بن عقيل.

وعلى أية حال، فإن التطير المذكور في الكتاب لا يشكل جانب نقص أو مثلبة عند مسلم؛ لأن عندنا ـ نحن الشيعة ـ أن الأئمة هم الذين لا يتطيّرون فقط، وما عداهم فيكره له التطير. وهنا كتب له الإمام الحسين عليه السلام جواباً لكتابه جاء فيه: «أما بعد، فقد خشيت ألّا يكون حملك على الكتاب إليّ في الاستعفاء من الوجه الذي وجّهتك له إلّا الجبن، فامضِ لوجهك الذي وجّهتك فيه والسلام».

فقال مسلم لمن قرأ الكتاب: «هذا ما لست أتخوّفه على نفسي»[1].

---

(١) الإرشاد ٢: ٣٩ـ ٤٠، تاريخ الطبري ٤: ٢٦٣ – ٢٦٤.

وفعلاً مضى مسلمﷺ في طريقه، وأقبل حتى دخل الكوفة وحده، وهو تصرفٌ ينمّ عن لون عالٍ من ألوان الإقدام خصوصاً أن صاحبه قد أقدم على بلد لا يعرفه ولا يعرف أهله وليست له خبرةٌ بأحوالهم وعاداتهم وثقافاتهم وما إلى ذلك. وبعد أن دخل الكوفة قصد دار المختار ثم تركها بعد ذلك وانتقل إلى دار هاني بن عروة، ومنها أدار الحركة ومنها جعل مقراً لقيادة الثورة.

عوامل فشل حركة مسلم بن عقيلﷺ

لقد اجتمعت عوامل عدّة حالت دون نجاح حركة مسلم بن عقيلﷺ، وكانت هذه العوامل خارج نطاق إرادته وسيطرته، وهي عوامل بعيدة جداً عن عامل نقص الكفاءة أو عدم المقدرة في القيادة الإدارية أو العسكريةِ أو السياسية. ومن باب المقدمة لهذا المبحث نذكر أنهﷺ حينما دخل على عبيد الله بن زياد في مجلسه يروي المؤرخون أن هناك محاورة قاسية دارت بينه وبين عبيد الله هذا، ذلك أنه لمّا جيء بهﷺ وأُدخل على عبيد الله بن زياد اتّهمه ابن زياد بأنه يهدّد أمن المجتمع، فقال له: إيه ابن عقيل، أتيت الناس وهم جمع فشتّتت أمرهم، وفرّقت كلمتهم، وحملت بعضهم على بعض.

وهنا وقف مسلم موقف المدافع عن الحقّ، فقال: كلّا، لست لذلك أتيت، ولكن أهل المصر زعموا أن أباك قتل خيارهم واستبقى شرارهم، وسفك دماءهم، وعمل فيهم أعمال كسرى وقيصر، وجعل مال الله دولة بين أغنيائهم وجبابرتهم، فأتيناهم لنأمر بالعدل وندعو إلى الكتاب. فقال له ابن زياد: وما أنت وذاك يا فاسق؟ لِمَ لمْ تعمل فيهم بذلك إذ أنت

بالمدينة تشرب الخمر؟

وهنا فإننا نجد أن مسلماً لم يكن لينزل إلى هذا المستوى من البذاء، لكنه أراد أن يبين الحق، فقال: أنا أشرب الخمر؟ أما والله، إن الله ليعلم أنك غير صادق، وأنك قد قلت بغير علم، وأني لست كما ذكرت، وأنك أحقّ بشرب الخمر منّي، وأولى بها من يلغ في دماء المسلمين ولغاً، فيقتل النفس التي حرّم الله قتلها، ويسفك الدم الذي حرّم الله على الغصب والعداوة وسوء الظنّ، وهو يلهو ويلعب، كأن لم يصنع شيئاً. فقال له ابن زياد: يا فاسق يا عاقّ يا شاقّ، إن نفسك منّتك ما حال الله دونه، ولم يرَك الله له أهلاً. فقال مسلم: فمن أهله إذا لم نكن نحن أهله؟ فقال ابن زياد: أمير المؤمنين يزيد. فقال مسلم: الحمد لله على كلّ حال، رضينا بالله حكماً بيننا وبينكم، فاقضِ ما أنت قاض.

فقال له ابن زياد: قتلني الله إن لم أقتلك قتلة لم يُقتلها أحد في الإسلام من الناس. فقال له مسلم: أما إنك أحقّ من أحدث في الإسلام ما لم يكن، وإنك لا تدع سوء القِتلة وقبح المُثلة وخبث السيرة ولؤم الغلبة، لأحد أولى بها منك.

فأقبل ابن زياد يشتمه ويشتم الحسين وعلياً عليه السلام وعقيلاً، وأخذ مسلم لا يكلمه، ثم أمر ابن زياد بأن يُصعد به فوق القصر ويضرب عنقه، فقال مسلم عليه السلام: والله لو كان بيني وبينك قرابة ما قتلتني [1].

ثم التفت في المجلس باحثاً عن شخص يوصيه وبعد أن طلب منه من ينفذ وصيّته بعد استشهاده قال له عمر بن سعد: أنا أجيبك إلى ذلك،

---

(١) الإرشاد ٢: ١٩٧ - ١٩٩، اللهوف في قتلى الطفوف: ٤٧ ـ ٥٠، مثير الأحزان: ٢٥، بحار الأنوار ٤٤: ٣٥٦، تاريخ الطبري ٤: ٢٨٢.

فطلب منه أن يقوم ببيع ما يملك وهو عبارة عن سيفه ودرعه ويقضي عنه دينه، وأن يستوهب جثته بعد القتل ويدفنها، وأن يبعث إلى الإمام الحسين عليه السلام من يخبره الخبر، وأن يطلب منه أن يرجع عن هذا المقصد ويعود إلى مدينة جده صلى الله عليه وآله، أي أنه يبين له أنّ هؤلاء الذين طالبوه بالقدوم إلى الكوفة لم يكونوا على مستوى الرجولة أو الأخلاق أو الصفات التي يجب أن يتصف بها المسلم.

وعلى ضوء هذه الوصايا الثلاث التي أوصى بها لعمر بن سعد سوف تتمحور دراستنا لشخصية هذا الرسالي العظيم، فحينما دخل مسلم بن عقيل الكوفة كان الوالي عليها النعمان بن بشير، والمعروف عن هذا الرجل أنه كان مترهّباً ناسكاً، ويعزو بعض المؤرخين برودة موقف النعمان بن بشير من مسلم ومن عبيد الله بن زياد بعد ذلك حينما ظنه الإمام الحسين عليه السلام، وذلك حينما دخل الكوفة إلى أن هنالك خلافات بينه وبين بني أُمية، وهذه الخلافات قائمة على ما يروى من أن هناك مشكلة أو قضية خلقية لا أودّ أن أخوض فيها من على هذا المنبر، لأني أُريد أن أُنزّهه عن مثل هذه الأُمور.

هذا ما يذكره المؤرخون مع أن الحقيقة ليست كذلك، فالمعروف عن هذا الرجل أنه كان ناسكاً كما قلنا، ويتوفّر على شيء من الورع والرهبانية؛ ولذا فإنه حينما ولي أمر الكوفة صعد المنبر خاطباً فقال: أمّا بعد، فاتّقوا الله عباد الله ولا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة؛ فإن فيهما يهلك الرجال وتسفك الدماء وتغصب الأموال. وكان يحب العافية، فقال: إني لا أُقاتل من لا يقاتلني، ولا أثب على من لا يثب عليّ، ولا أُشاتمكم، ولا أتحرّش بكم، ولا آخذ بالقرف ولا الظنّة ولا التهمة. ولكنكم إن أبديتم

صفحتكم لي، ونكثتم بيعتكم، وخالفتم إمامكم، فوالله الذي لا إله غيره لأضربنّكم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي ولو لم يكن لي منكم ناصر. أما إني أرجو أن يكون من يعرف الحقّ منكم أكثر ممّن يرديه الباطل [1].

وهنا سنناقش ملامح الشخصية الرسالية عند مسلم على ضوء هذه الوصية، وذلك كالآتي:

الوصيّة الأولى: بيع سيفه ودرعه وسداد دينه

إن مسلم بن عقيل حينما دخل الكوفة لم يكن مع النعمان بن البشير في القصر سوى بضعة نفر من الحرس وكان بإمكان مسلم أن يخرجه من قصر الإمارة ويستولي عليه، وعلى بيت مال المسلمين، وينفق منه ما يشاء. لكنه لم يفعل، ولم يغره بريق الذهب والفضة. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن مسلم بن عقيل كان قد طلب في مرحلة الإعداد للثورة والحركة جمع الأموال والتبرع بها لهذه الثورة، فجمعت له الآلاف لكنه مع ذلك لم يمدّ يده إليها ولم يتصرف بها، بل إنه اقترض من أحد الشخصيات مبلغ سبعمئة درهم ليدير بها شؤونه ويقضي بها حاجاته خلال وجوده بالكوفة.

إذن فقد اقترض هذه السبعمئة درهم ليقضي بها حاجاته ولوازم معيشته وهو في الكوفة، مع أنه كان بإمكانه أن يمد يده إلى ما تبرع به الكوفيون للثورة، أو كان بإمكانه أن يخرج النعمان بن البشير ويستولي على بيت المال. ونحن حينما نرجع إلى ولاة الأمويّين والعباسيين فإننا

(١) مقتل الحسين عليه السلام (أبو مخنف): ٢١ ـ ٢٢، تاريخ الطبري ٤: ٢٦٤، البداية والنهاية ٨: ١٦٣، الكامل في التاريخ ٤: ٢٢.

نجد أنهم كانوا يملكون الأموال الطائلة التي لا عدَّ لها، ومن ذلك ما ينقل عن بلال بن أبي بردة الذي كان أحد عمال يزيد بن معاوية، حيث يقول عنه المؤرخون: إنه قد حُمل له من الأموال أكداس وقناطير مقنطرة.

وكان عبد الرحمن بن زياد قد بعث له يزيد بهدية مقدارها عشرون ألف ألف درهم، فكان أن انتهى الأمر بهذه العشرين المليون درهم أن أنفقت في غير محلّها وفي غير وجهها الشرعي، حتى إن حالة عبد الرحمن بن زياد كما يروي المؤرخون عنه أنها وصلت به تحت وطأة الفقر والحاجة إلى أن يعمد إلى نسخة من القرآن الكريم كانت عنده، وكانت محلّاة بشيء من الذهب، فنزع الذهب عنها وباعه ليأكل من ثمنه [١].

وأمام هذه السنخية سنخية أُخرى تضادها تماماً، يقول هارون بن عنترة: دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام علي بن أبي طالب عليه السلام بالخورنق والسدير فوجدت عليه سمل قطيفة وهو يرتعد من البرد.

وبطبيعة الحال فإن هذا الرجل واهم؛ لأن الامام عليه السلام ما كان ليتأثر بالحر والبرد؛ فقد دعا له النبي صلى الله عليه وآله بقوله: «اللهم قِهِ الحرّ والبرد» [٢]. لكنه عليه السلام كان إذا أراد الوضوء أو الصلاة ارتعش وارتعدت فرائصه ومفاصله خوفاً وخشية من الله جل وعلا. يقول: فقلت له: إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك في بيت المال حقاً. قال: «إني أكره أن أرزأكم من أموالكم شيئاً، إن الله يعلم أنها القطيفة التي خرجت بها من أهلي في المدينة، وإن خرجت منكم بغيرها فأنا خائن» [٣].

---

(١) وكذلك عامل المأمون الذي اعترض المعتصم عليه.

(٢) الإرشاد ١: ١٢٦، مناقب آل أبي طالب ٢: ٦٦، ١٣٠، كشف الغمّة ١: ٢١٣.

(٣) ومن ذلك حديث أبي الدرداء حينما جاء فاطمة الزهراء عليها السلام صارخاً ينعاه إليها بعد أن رآه

أما طعامه عليه السلام فلم يكن أكثر مما يرويه سويد بن غفلة حينما قال: دخلت عليه وهو في طريقه إلىٰ الحجاز، فوجدت جراباً معلقاً ومختوماً، فلما حان وقت الظهر أنزل ذلك الجراب ومد يده فيه ثم أخرج شيئاً من السّويق، فقلت: يا سيدي، أراك قد أغلقته! قال عليه السلام: «أوَتظن ذلك لبخل؟ لا والله ولكن هذا طعامٌ من أرض أنا أزرعها منذ كنت بالحجاز، والآن يزرعها أهلي ثم يبعثون لي منها، وأنا آكل منه ولا أُحب أن يدخل بطني إلّا الطعام الطيب».

وهو عليه السلام كان يمدّ يده إلىٰ رغيف الخبز ويأكله، ثم يمسح بيده علىٰ بطنه ويقول: «من أدخله بطنه النار، فأبعده الله»[1].

وكان يجلب إلى بيته قوصرّة تمر وهو يرتجز:

«أفلح من كانت له قوصرّه يأكل منها كلّ يوم مرّه»[2]

فهو عليه السلام يؤكد أنّ الأمر لا يتوقّف عند حدّ أنه لا يريد أن يدخل جوفه طعام محرم بل وحتى الطعام الذي فيه شبهة بل وحتى بيت المال وإن كان له عليه السلام حق فيه فهو يفضل أن يأكل من عرقه وكدّه على أن يأكل من بيت مال

يتعبّد الله تعالى عند مغيلات النخل خارج المدينة، وقد أجابته الزهراء عليها السلام بقولها: «هي والله – يا أبا الدرداء – الغشية التي تأخذه من خشية الله تعالى».

الأمالي (الصدوق): ١٣٧ ـ ١٣٩ / ١٣٦، روضة الواعظين: ١١١ ـ ١١٢، مناقب آل أبي طالب ١: ٣٨٩، ٢: ٣٢. وسيأتي مفصّلاً في محاضرة (حقيقة الزهد) من هذا المجلّد.

(١) الدعوات: ١٣٨ / ٣٤٠، مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (محمد بن سليمان) ٢: ٨٢ / ٥٦٧، بحار الأنوار ٤٠: ٣٤٠ / ٢٦، كنز العمال ٣: ٧٨٢ / ٨٧٤١، تاريخ مدينة دمشق ٤٨: ٢٣٠.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٧٧، الفائق في غريب الحديث ٣: ٨٦ ـ قرر، البداية والنهاية ٨: ٣، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٤٨٠. والقوصرّة: الوعاء الذي يكتنز فيه التمر من البواري. الصحاح ٢: ٧٩٣ ـ قصر.

المسلمين مع أنه ﷺ كان عنده ألف مبرر وألف وسيلة وطريق ليمد يده ويأخذ من بيت مال المسلمين. إن الأساس الذي دفع الإمام ﷺ إلى هذا الموقف هو أنه لا يريد طريقاً توصله إلى معدته فيه شبهة أو فقدان كرامة أو اعتداء على أكثر من الحق؛ ولذا فهو ﷺ يفضل أن يأكل من عرقه كي يبيت وهو مطمئن بأنه قد أكل من طريق مشروع وشرب من طريق مشروع عن طريق عرقه وكده. ولذا فإنه ﷺ كان ينزل إلى الأرض الزراعية وبيده مسحاته وهو يقول:

لنقل الصخر من قلل الجبالِ ... أحبّ إليّ من منن الرجالِ
يقول الناس لي في الكسب عار ... فقلت العار في ذلّ السؤالِ[1]

فهذا الرجل العظيم طعامه مما تجود به يده وعرق جبينه ولباسه تلك القطيفة السملة أو المدرعة التي يصورها بأحسن تصوير في قوله ﷺ: «ولقد رقعت مدرعتي حتىٰ استحييت من راقعها، وحتىٰ قال لي قائل: ألا تنبذها عنك؟ فقلت اعزب عني، فعند الصباح يحمد القوم السرىٰ»[2].

وكان ﷺ يقول: «ما لعلي ولنعيم يفنىٰ ولذة لا تبقىٰ؟»[3]، وحقّ للشاعر حينما يقول:

أأبا الحُسينِ وتلكَ أروعُ كنيةٍ ... وكلاكُما بالرّائعات قَمِينُ
لكَ في خيالِ الدّهرِ أيُّ ملامحٍ ... تَروي السَّنا ويُترجِمُ النِّسرينُ
في الصبحِ أنت المُستَجِمُّ منَ الظَّما ... واللّيلُ في المحرابِ أنتَ أنينُ

(١) المبسوط (السرخسي) ٣٠: ٢٧٢.
(٢) نهج البلاغة / الخطبة: ١٦٠، عيون المواعظ والحكم: ٤٠٥.
(٣) نهج البلاغة / الكلام: ٢٢٤.

تكســـو وأنتَ قـــطيفةٌ مُـــرقوعةٌ وتَـــموتُ مِـــن جـوعٍ وأنت بَـطينُ
ألاوَك البــــيضاءُ طــوّقتِ الدُنــا فـــلها عــلى ذِمــمِ الأنــامِ دُيــونُ[1]

إننا حينما نتأمل هذه السنخية الفريدة والهمة العالية نجدها عند أغلب أهل هذا البيت المطهر.. البيت الشريف، ومن هؤلاء مسلم بن عقيل الذي أبى أن يمد يده إلى بيت المال مع قدرته على الوصول إليه أو إلى التبرعات المخصصة للثورة وهي تحت سلطته وتحت سيطرته. لقد أبى إلّا أن يدخل جوفَه طعام حلال ليس به شبه وإلا أن ينام على فراش حلال ليس فيه شبه، فأي عطر أزكى من هذا العطر! وأي نُبل أكبر من هذا النبل! فأن تسموَ بالإنسان نفسه وتحت متناول يده الذهب والفضة، ثم يتنازل ولا يمدّ يده إليهما، ويترفع حتى عن حقه المشروع الذي وهبه الله له لهو قمة النبل والكرامة والورع والتقوى والإنسانية. إن هذا اللون من التصرف الواعي المدروس الذي يرتبط مباشرةً بالله جل وعلا لا يمكن أن نجده إلّا عند ذوي النفوس الكبيرة التي تترفع عن الرغبات المؤقتة واللذائذ غير الدائمة.

الوصية الثانية: استيهاب جثته عليه السلام

وجاء في وصيته الثانية أنه طلب من ابن سعد أن يستوهب جثّته بعد القتل، ويدفنها. ولنا أن نتساءل عن الدوافع التي اضطرّت مسلم بن عقيل عليه السلام إلى أن يطلب أو أن يوصي بهذه الوصية، إن الجميع يعلم كما قالت أسماء لابنها عبد الله بن الزبير: إن الشاة لا يضيرها السلخ بعد الموت[2]:

(١) ديوان المحاضر: ١٩.
(٢) شجرة طوبى ١: ١٢٤، بلاغات النساء: ١٣٧.

وما هذه الأجساد من بعد نزعها سوى قفص خالٍ وقد أفلت الشادي[1]

والحقيقة أنه‏ﷺ يريد من وراء هذه الوصية أن يجنب الناس منظراً من المناظر غير النبيلة.. المناظر التي لا ترتضيها الرجولة ولا تقرها الشهامة، أعني مناظر المثلة. والمعلوم والثابت تاريخياً أن الأمويّين كانوا أبطالاً في هذا الميدان. وهذا هو السبب الذي من أجله أوصى أمير المؤمنين‏ﷺ بأن يُخفى قبره عن الناس، وأن يدفن سرّاً[2]؛ لأن هؤلاء الجاهليين (الأمويّين) لم يكن عندهم وازع ديني أو إنساني ولا مانع أخلاقي من أن ينبشوا القبر بعد ذلك وأن يمثّلوا بالجثّة التي يعتبر التمثيل بها تمثيلاً بالإسلام.

وسوف أروي هنا شاهداً واحداً يدل ويؤكد صحة ما ذكرته، وهو نبشهم قبر طفل عمره ستة أشهر في واقعة الطف، ذلك أن عمر بن سعد سأل جنوده عندما جلبوا له الرؤوس فقال: هناك رأس مفقود، فأين هو؟ قالوا: رأس من هو؟ قال: إن الحسين قتل له طفل اسمه عبد الله الرضيع، فأين رأسه؟ قالوا: بلغنا أن أباه احتفر له بجفن السيف، وواراه في أرض المعركة. وكان الإمام‏ﷺ قد واراه تجنيباً للنساء عن هذا المنظر المؤلم. فقال: انبشوا الأرض برماحكم، وأخرجوه واحتزّوا رأسه وجيئوني به.

وقد حدثنا التاريخ عن تمثيلهم بجثة عمرو بن الحمق الخزاعي‏ﷺ في الموصل حيث إنه طورد ولوحق حتى الكهف الذي التجأ إليه، ثم مجيئهم برأسه على طرف رمح إلى الكوفة تاركين جسده هناك[3].

---

(١) البيت للشيخ علي الشرقي. مدينة النجف (محمد علي التميمي): ٧٦ - ٧٧.
(٢) الغارات: ٨٤٧، الإرشاد ١: ٢٣، إعلام الورى ١: ٣٩٣، فرحة الغري: ٦٦.
(٣) الاستيعاب ٣: ١١٧٤ / ١٩٠٩، البداية والنهاية ٨: ٥٢.

وكذلك فعلهم مع زيد؛ حيث صلبوه بعد قتله منكوساً على أمّ رأسه. والأنكى من كلّ هذا أنهم تركوه مصلوباً أربع سنين، حتى عشّشت الفاختة في جوفه، وكان عليه السلام قد استرسل جلده على عورته فسترها. فكتب هشام كتاباً جاء فيه: «أما بعد، فإذا أتاك كتابي هذا، فانظر عجل أهل العراق فأحرقه، وانسفه في اليمّ نسفاً. والسلام»[1].

وكم من جسد من بعد مصرعه قد عمدوا إليه وفعلوا به الشيء نفسه؛ فقد حدث هذا في أكثر من وقعة وأكثر من مكان وواقعة. ولو رجعنا إلى الوراء قليلاً.. إلى حروب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله لوجدنا أن هذه الشيمة الرذيلة موجودة عند أبيهم أبي سفيان فقد فعل الفعل نفسه مع عاصم بن أبي الأقلح، فقد كان عاصم هذا بطلاً من أبطال المسلمين وقد أنكى نكاية كبيرة في جيوش المشركين، وبعد أن قتل طلب منهم أبو سفيان أن يدلّوه عليه، فقالوا له: ما تريد منه؟ قال: أريد أن أقطع رأسه وأسلخ جلده وأستخرج قحفه؛ لأضع فيه الخمر وأشربه[2].

وهذه كتب التاريخ أمامنا تذكر هذا حتى إن عاصماً هذا سمّي حمي الدبر، لأن الله جل وعلا قد أرسل إليه الدبر[3] التي أصبحت تحوم حول جسمه، فحمته من محاولات أبي سفيان الشائنة. وهو طبع لئيم يدل على خسة صاحبه، وينبئ عن دنوّ همته، وعن لؤم طبعه ومنبته، وخساسة معدنه:

إن الأسود أسود الغاب همّتها ... يوم الكريهة في المسلوبِ لا السلبِ[4]

---

(١) مقاتل الطالبيّين: ٩٨، عمدة الطالب: ٢٥٨.

(٢) الحادثة في تاريخ مدينة دمشق ٣٢: ٢٠٢، لكنه نسبها لسلافة بنت سعيد من بني عوف.

(٣) الدبر: جماعة النمل، جمع دبور.

(٤) البيت لأبي تمّام. مناقب آل أبي طالب ١: ٣٨٤، شرح نهج البلاغة ٧: ١٠٤، ١٤: ٢٣٨،

فالإنسان إنما يقتل عدوه ليدفعه عن نفسه فإذا فعل ذلك وقتله فليس من النبل في شيء أن يعمد إلى الجسد الميت فيقطعه؛ لأن هذا منظر غير كريم، والرجولة والشرف والإنسانية لا ترتضي هذا الفعل، فهمُّ الرجل أن يقتل عدوه لا أن يسلب رداءه أو أن يقطع أوصاله وأعضاءه.

وبالعودِ إلى وصية مسلم فإننا نجد أن الدافع الذي دفع مسلماًﷺ إلى هذه الوصية هو ما كان يعلمه من أمر الأُمويّين واستهانتهم بالإنسان والإنسانية، فهوﷺ لم يكن بالذي يغفل عن هذه الأمور ولم يكن بالذي لا يعرف تاريخهم ونواياهم وما يمثلونه من جاهلية عمياء ومن ظلامية، فهوﷺ كان يعرف كل هذا؛ ولذا فإنه اضطر إلى أن يوصي بهذه الوصية.

ولكن مع ذلك قد مثّل بجسده فقد ربطوا الحبل برجله وبرجل هاني بن عروة الصحابي الجليل الذي كان من خيرة صحابة رسول اللهﷺ. ومسلم لم يكن أقل شأناً منه؛ فهو من بيت الرسالة، ثم جروهما بالحبال في أسواق الكوفة ونودي عليهما: هذا جزاء من عصى الأمير[1].

ولذا فإن أحد الشعراء يقف فيخاطبهم قائلاً:

فإن كنت لا تدرين ما الموت فانظري	إلى هانئٍ بالسوق وابن عقيلِ
إلى بطل قد هشّم السيف وجهه	وآخر يهوي من طمار قتيلِ
ترى جسداً قد غيّر الموت لونه	ونضح دم قد سال كل مسيلِ

درر السمط في خبر السبط: ٨٧، تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات (شرح شواهد الكشّاف): ٤٩٨، تفسير البحر المحيط ٥: ١٩، وفيات الأعيان ٢: ٢٢.

وكان أمير المؤمنينﷺ يقول لقنبر: «يا قنبر لا تعرّ فرائسي». أي لا تسلب قتلاي من البغاة. مناقب آل أبي طالب ١: ٣٨٤.

(١) انظر: الإرشاد ٢: ١٩٧ - ١٩٩، الملهوف في قتلى الطفوف: ٤٧ - ٥٠، بحار الأنوار ٤٤: ٣٥٦.

أصابهما أمر الأمير فأصبحا … أحاديث من يسعى بكلّ سبيلِ
أيركب أسماء الهماليج آمناً … وقد طلبته مذحج بذحولِ
تُطيف حواليه مراد وكلّهم … على رقبة من سائل ومسولِ
فإن أنتُمُ لم تثأروا بأخيكُمُ … فكونوا بغايا أُرضيت بقليلِ[1]

إذن فهذا هو الدافع الأساس الذي جعل من مسلم عليه السلام يوصي بهذه الوصية؛ لأنه لم يكن يريد أن يرى أحد هذا المنظر الرهيب الذي هو في حقيقته منظر بعيد عن كل قيم الإنسانية والإسلام معاً. فلم يكن يريد أن يحدث هذا المنظر البشع البعيد عن النبل والشهامة والكرامة في مدينة إسلامية، أما ما عدا ذلك فلم يكن ليخطر على باله عليه السلام؛ لأنه لم يكن ليضرّه ما فعلوه به بعد أن انتقلت روحه إلى جوار رفيقها الأعلى. فما فعلوه به بعد ذلك لم يكن ليضره أو يضيره بل إنه يضرّ عدوه ولا يلحق مسلماً منها إلّا الشرف؛ لأنه استشهد في ميدان الشرف، فخرجت روحه إلى بارئها راضية مرضية، وما عدا ذلك من فعل شنيع فإنما يدل على شناعة صاحبه وانحطاطه، وبعده عن النبل وكرم الأخلاق وحميد الخصال.

لقد كان مسلم عليه السلام من النمط الذين لا يرضون الضرر حتى لعدوهم، وقد يستغرب البعض هذا فيقول: إن هذه مثالية مفرطة والحقيقة أنها ليست مثالية البتة، وإنما هي سجية جبل عليها أهل هذا البيت، وإلّا فما معنى أن يمر الإمام علي عليه السلام بعد واقعة البصرة ويجلس بين القتلى وينظر إليهم ثم يقول: «والهفتاه! لقد فقدت قومي، لقد جذذت يدي»؟

---

(١) انظر: الإرشاد ٢: ٦٤ ـ ٦٥، مقاتل الطالبيّين: ٧٢، شرح نهج البلاغة ١٥: ٢٣٧، الطبقات الكبرى ٤: ٤٢، الأخبار الطوال: ٢٤٢، تهذيب الكمال ٦: ٤٢٧، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٠٨.

فهذا نبل لا يقف عند حد، وكذلك ما معنى أن يقف الحسين ﷺ يوم الطفّ ويبكي لأجل هؤلاء؛ لأنهم سيدخلون النار بسببه؟ فنحن لو تأملنا هذه المسألة لوجدنا أنها ليست خاصّة بمسلم بن عقيل أو بأحد من أفراد هذا البيت المشرف، بل إنها سجية عامة لكل من انتسب إلى هذا البيت أو إلى هذه الأُسرة التي تكلمنا عن بصماتها في صدر هذه المحاضرة، وهي بصمات خلقية منها هذا النبل الذي كان عندهم بأسمى معانيه وأرقى أنماطه وألوانه.

الوصية الثالثة: إرسالهم إلى الحسين ﷺ من يرده عن وجهته

وفي الوصية الثالثة أنه ﷺ طلب من عمر بن سعد أن يكتب كتاباً إلى الحسين ليرجعهُ عن الكوفة، وليذكر له بأنه حينما دخل مسلم الكوفة بايعه ثمانية عشر ألفاً من أهلها، وأنه بعد ذلك تلفت يميناً وشمالاً فلم يجد منهم ناصراً أو معيناً، وأن هذه الكتب التي وصلت إلى الإمام الحسين ﷺ لا تعبّر عن رجولة ولا عن سجية التزام بعهد. وبهذا فإن عليه أن يرجع لئلّا يتعرّض إلى ما لا يرتضيه وما لا يرضيه.

وهذا تصرف أيضاً في غاية النبل، وقبل الولوج في تفاصيل هذه الوصية لاستنطاق ملامح هذه الشخصية أروي رواية تدور حول موقف لخالد بن عبد الله القسري، فقد جاءه جماعة طالبين منه الاشتراك في تدبير خطّة لاغتيال عبد الملك بن مروان في موسم الحج القادم، فرفض وقال: لا يمكنني فعل ذلك. فقيل له: ألست تشكو من ظلمه واعتدائه؟ فقال: نعم، لكن هذا شيء، والاشتراك في مخطّط لقتله شيء آخر. فقالوا: إذن نطلب منك شيئاً واحداً. قال: ماهو؟ قالوا: أن تكتم علينا. فقال: أمّا هذه فلكم.

وفعلاً فإن خالداً لم يشترك معهم، لكنه بعث إلى عبد الملك ناصحاً إيّاه ألّا يخرج للحجّ عامه هذا دون أن يشي بأسماء هؤلاء، أو بشيء من المؤامرة، فلم يخرج، لكنه أرسل خلف خالد مستعلماً منه عن سبب تحذيره إيّاه من الخروج للحجّ، فلم يشأ أن يخبره؛ لما قطع من عهد على نفسه لأولئك القوم، فأخذه عبد الملك بن مروان إلى الصحراء وعذّبه وأمر فأُخرج إلى الصحراء ووضع على ظهره صخرة مضرمة حتى مات.

فهذا نبل من خالد كونه لم يفشِ السر وإن أوصله إلى الموت، أما عمر بن سعد فلم يكتم السر بل إنه بمجرد أن عاد إلى عبيد الله بن زياد أخبره بما أوصاه به مسلم عليه السلام، مع أن عبيد الله قال له: اكتم على ابن عمك. فأجابه ابن سعد قائلاً: لا؛ فقد قال لي كذا وكذا. وهنا قال له ابن زياد: أما أمواله فليس لنا بها حاجة، وأما جثته فلا نبالي إن قتلناه ما نصنع بها بعد الموت، وأما حسينٌ فإن كان لم يردنا لم نرده.

وهنا ينبغي الالتفات إلى هذا التعبير ذلك أن بعض المؤرخين يقولون: إن الإمام الحسين عليه السلام أبدى استعداده لأن يرجع إلى المكان الذي جاء منه. والحقيقة أن هذا غير صحيح بل هو شهادة عبيد الله بن زياد حيث يقول: إذا لم يردنا لم نرده. ومن يذكر أنّ الحسين عليه السلام خيّرهم بين أن يضع يده بيد يزيد أو أن يرجع إلى المدينة أو أن يذهب إلى أرض الله العريضة فهذا كلام ليس بصحيح؛ ويدل على هذا أن أحد أصحاب الحسين عليه السلام يقول: والله لم أفارق الحسين أبداً منذ أن خرج من المدينة إلى أن قتل في الطفّ، ولم تمرّ هذه الكلمة على لسانه. إذن فهذه العبارة هي من افتراءات التأريخ الذي أراد أن يلوث مواقف الشهامة والرجولة ومواطن العز والكرامة والنبل. وهذه المحاولة ليست غريبة على التاريخ.

على أية حال، فالوصية الثالثة جاء فيها طلبه من عمر أن يكتب إلى الإمام الحسينؑ طالباً منه الرجوع عن مقصده. وهذا الموقف أو هذه الوصية يتجلى عنها عفةٌ وزهدٌ وبطولةٌ ورجولةٌ وأمانٍ، فكلها تستجلي ملامحها على تصرفات مسلم بن عقيلؑ، وكل هذه الصفات قد كشف عنها في هذه الوصية. كما أنه وقف موقف الصلابة والرجولة والشجاعة عندما قارع ابن زياد وسط المجلس حينما أُدخل عليه حيث قال له الحرسي: سلّم على الأمير. فقال له مسلمؑ: ويحك ما هو لي بأمير:

أميري حسين ونعم الأميز سرور فؤاد البشير النذيز

فأقبل ابن زياد يشتمه ويشتم الحسين وعلياًؑ وعقيلاً، وأخذ مسلم لا يكلمه، ثم قال ابن زياد: أين الذي ضرب مسلم عاتقه بالسيف؟ فجاء بكر بن حمران الذي أصابته ضربة من مسلم أثناء القتال معه، فأجافته - أي بلغت جوفه - فأمره بأن يصعد به فوق القصر ويضرب عنقه، فقال مسلمؑ: والله لو كان بيني وبينك قرابة ما قتلتني.

فصُعد به، وهو يكبّر ويستغفر الله ويصلّي على رسول اللهﷺ ويقول: اللهم احكم بيننا وبين قوم غرّونا وكذّبونا وخذلونا. ثم طلب منه أن يمهله حتى يصلّي ركعتين، فأمهله، فصلاهما، فلمّا فرغ منهما التفت ناحية زرود[١]، وكان الإمام الحسينؑ آنذاك فيها، فصاح: عليك مني السلام أبا عبد الله، إن ابن عمّك بين يدي القوم لا يدري متى يقتل. فقام الحسينؑ مختنقاً بعبرته وقال: «وعليك السلام ياغريب كوفان».

---

(١) زرود: جبل رمل قرب جبل طيّئ يبعد عنه بمسيرة ليالٍ.معجم ما استعجم ٣: ٩١٤ - عالج.

ثم دخل إلى خيمة النساء، وصاح: «زينب». قالت: لبّيك. قال: «عليّ بطفلة مسلم». فأخرجت إليه طفلته، فوضعها في حجره، وأخذ يمسح بيده على رأسها، فرفعت رأسها إليه وقالت: ياعمّ، أراك تصنع بي ما يُصنع باليتامى، لعلّه قد استشهد والدي؟ قال عليه السلام: «بنيّة عظم الله لك الأجر بأبيك أنا أبوك، وبناتي أخواتك». قالت: ياعم أنت خير من أظلّت الخضراء وأقلّت الغبراء[1].

ثم اخترط بكر بن حمران سيفه، وضربه ضربةً فلم تعمل به شيئاً، ومسلم عليه السلام يقول: اللهم إلى رضوانك ورحمتك، باسم الله وبالله. ثم التفت إليه وقال: أو ما في خدشةٍ مني وفاءٌ لدمك؟ ثم ثنى عليه بالضربة فقتله ثم حمل جسده بعد أن أبان العنق وألقاه من أعلى القصر إلى الأرض. ولما سقط الجسد أقبلوا إليه ووضعوا في رجليه الحبال وجعلوا يسحبونه في الأزقّة والشوارع[2]:

رموه الكوم من كصر الإماره	المكـدّر كضه وشاعت اخباره

---

(١) انظر بحار الأنوار ٤٤: ٣٥٤.

(٢) الإرشاد ٢: ١٩٧ - ١٩٩، الملهوف في قتلى الطفوف: ٤٧ ـ ٥٠، بحار الأنوار ٤٤: ٣٥٦.

﴿ ٦١ ﴾

أسباب فشل حركة مسلم بن عقيل ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: المنهج التربوي في الإسلام

من مناهج الإسلام التربويّة تعبئة المجتمع لمواجهة الانحراف الذي يهدّد المجتمع، فكلّ مجتمع فيه انحرافات وجرائم، ولا يمكن أن يُسمح لها بأن تنتشر إلى أن تودّيَ بالمجتمع إلى الهلاك. فكما أن الوباء إذا انتشر فإنّ الجهات المعنيّة تتهيأ لمكافحته، فكذلك المشرّع الإسلامي ينظر إلى الوباء الخُلقي نظرة أخطر من الوباء الجسدي؛ حيث إن الوباء الخلقي سيعمّ كل أطراف المجتمع. ولذلك فإنه يجب عليك أن تهيّئ نفسك للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما لون من ألوان التغيير يستشعره

(١) لقمان: ١٧.

الإنسان؛ فيهبّ في وجه الانحراف: «كلّكم راعٍ وكلّكم مسؤول عن رعيّته»، وهذا هو الشعار الذي طرحه الإسلام.

وهناك حالات وضوابط للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث إنه يخضع لشروط في بعض الحالات مع أنه في حالات أُخرى لا يخضع لها.

المبحث الثاني: المراد من المعروف والمنكرفي الآية

كما أن هناك نزاعاً بين المذاهب الإسلاميّة حول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالمذاهب الإسلاميّة الأربعة تقول: إن المنكر ما أنكره الشارع والمعروف ما ارتضاه الشارع. أمّا الشيعة والمعتزلة فيقولون: إن المعروف ماهو معروف عند المجتمع والمنكر هو المنكر عند المجتمع. نضرب مثلاً لو أن الشارع لم يقل لي: إن خيانة الوطن قبيحة، فأنا أعرف ذلك ولا أحتاج إلى تنبيه حوله، وكذلك أعرف أن الصدق جيّد وحسن من غير أن يخبرني ويقول لي، وإنما الشارع يؤيّد هذا المعنىٰ أي يؤيّد حكم العقل، فهو قد صار معروفاً من قبل أن يأمر به وصار منكراً من قبل أن ينهىٰ عنه.

حالتا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وشروطهما

وهناك حالتان للأُمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

الحالة الأُولى: أن يكونا في قضية جانبيّة ـ أي قضيّة لاتمسّ المجتمع ـ ككلّ، كما لو أن شخصاً يتهاون في صلاته أو يشرب الخمر ـ أي أنه يقوم بعمل فردي ـ ففي مثل هذه الحالة فإنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يخضع لشروط:

الأول: أن الذي يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر يجب أن يعرف أن ما

يأمر به معروف وما ينهىٰ عنه منكر. فيجب أن يعرف ذلك قبل الإقدام عليه بالرجوع لأهل المعرفة، فلا يتسرع ليجرح عاطفة الإنسان. وكذلك لا تأمرْ بشيء قد تستحسنه فتتصوّر أنه شيء جيد وإنما الواجب أن ترجع إلى القواعد التي رسمها الفقهاء والعلماء حتىٰ تعرف أنه معروف أو منكر.

الثاني: أن تحرز تأثير أمرك وإنكارك، فعندما تنهىٰ أحداً عن شرب الخمر فعليك أن تعرف أن كلمتك لها تأثير عليه، فإذا عرفت أنه يتقبّل منك وأحرزت تأثير إنكارك عليه فانكر المنكر، واؤمر بالمعروف.

الثالث: ألّا يصل إليك أو إلى أحد من المسلمين ضرر.

الحالة الثانية: أن يكونا في قضيّة تمسّ المجتمع ككلّ، أو قضايا تمسّ صميم المجتمع، مثلاً توجد جريمة تمحق الدين، أو خيانة للوطن فإنّ هذه الشروط تلغىٰ حينئذ، وتتعيّن حالة الدفاع عن الدين والمجتمع، ويجب على من يسقط بهم الواجب أن يتهيؤوا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لو أدّىٰ بهم الأمر إلى الموت. فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مثل هذه الحالات التي تمسّ صميم المجتمع والأُمّة كلّها يقتضيان أن تعبأ الأمة ككلّ.

وفي الحالة الأُولىٰ - الفرديّة - إذا قام به فرد فإنه يسقط عن الآخرين، أما هنا فإنّ المجتمع كلّه يعبّأ - أو على أقلّ التقادير من يسقط بهم الواجب - لأن القضيّة ذات علاقة بالمجتمع بأكمله، وستصيبه كلّه إن تركت دون أن تعالج، والقائم بهذا الأمر من أبناء المجتمع إنما يتحرّك لحماية نفسه بحمايته مجتمعَه. فالجسم الاجتماعي مثل الجسم البشري، إذا دخل إليه شيء يهدّده فإن أجهزته تعبّأ كلها ضدّ ذلك الغريب الداخل؛ حيث إن

أجهزة المناعة في الجسد تتهيّأ جميعها للدفاع عن الجسد، وكذلك الجسد الاجتماعي يجب أن يعبّأ كلّه للدفاع عن نفسه.

المبحث الثالث: أسرار نهضة الحسين عليه السلام

وبعد هذه الإلمامة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نطرح أسرار نهضة الحسين عليه السلام للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعندنا محاورة بين مسلم بن عقيل عليه السلام وعبيد الله بن زياد لمّا جيء بمسلم وادُخل عليه، حيث اتّهم ابن زياد مسلم بن عقيل عليه السلام بأنه يهدّد أمن المجتمع فقال له: إيه ابن عقيل، أتيت الناس وهم جمع فشتتّت بينهم، وفرّقت كلمتهم، وحملت بعضهم على بعض. قال: كلّا، لست لذلك أتيت، ولكن أهل المصر زعموا أن أباك قتل خيارهم، وسفك دماءهم، وعمل فيهم أعمال كسرى وقيصر، فأتيناهم لنأمر بالعدل وندعو إلى الكتاب.. فقال له ابن زياد: وما أنت وذاك يا فاسق؟ لِمَ لمْ تعمل فيهم بذلك إذ أنت بالمدينة تشرب الخمر؟ قال مسلم: أنا أشرب الخمر؟ أما والله، إن الله ليعلم أنك غير صادق، وأنك قد قلت بغير علم، وأني لست كما ذكرت، وأنك أحقّ بشرب الخمر منّي، وأولى بها من يلغ في دماء المسلمين ولغاً، فيقتل النفس التي حرّم الله قتلها، ويسفك الدم الذي حرّم الله على الغصب والعداوة وسوء الظنّ، وهو يلهو ويلعب، كأن لم يصنع شيئاً. فقال له ابن زياد: يا فاسق، إن نفسك منّتك ما حال الله دونه، ولم يرَك الله له أهلاً. فقال مسلم: فمن أهله إذا لم نكن نحن أهله؟ فقال ابن زياد: أمير المؤمنين يزيد. فقال مسلم: الحمد لله على كلّ حال، رضينا بالله حكماً بيننا وبينكم.

ثم قال له ابن زياد: قتلني الله إن لم أقتلك قتلة لم يُقتلها أحد في الإسلام من الناس. فقال له مسلم: أما إنك أحقّ من أحدث في الإسلام ما لم

يكن، وإنك لا تدع سوء القِتلة وقبح المُثلة وخبث السيرة ولؤم الغلبة، لا أحد أولى بها منك.

فأقبل ابن زياد يشتمه ويشتم الحسين وعليّاًعليهما السلام وعقيلاً، وأخذ مسلم لا يكلمه، ثم أمر ابن زياد بأن يُصعد به فوق القصر ويضرب عنقه، فقال مسلمعليه السلام: والله لو كان بيني وبينك قرابة ما قتلتني.

فصُعد به، وهو يكبّر ويستغفر الله ويصلّي على رسول اللهصلى الله عليه وآله ويقول: اللهم احكم بيننا وبين قوم غرّونا وكذّبونا وخذلونا.فضرب عنقه وأتبع رأسه جثته[١].

وهكذا نرى أن هذا الطاغية يقول لمسلمعليه السلام: إن مجتمع الكوفة مجتمع متحابّ متراصّ، وأنت قادم لبثّ التفرقة. وهذا هو الأُسلوب الذي يثيره الظلمة حيث إنهم لا يهمّهم المجتمع وإنما هم يأكلون رؤوس المجتمع، ولكنه يريد تبرير عمله ويطرح خصمه ويعطي عمله بعداً اجتماعيّاً، وهو بهذا يريد أن يعبّئ الناس لمقاتلة مسلم. والآن لنلقِ الضوء على المفاهيم التي ألقاها مسلم على عبيد الله بن زياد، حيث بيّن له أنه يفتعل الغيرة على المجتمع، وأن أهل المصر قد كتبوا إلى الحسينعليه السلام بأن أباه «قد قتل خيارهم» حيث إن زياداً أرسله الأُمويون إلى الكوفة لتصفية أي جهة من الجهات لها علاقة بآل محمدصلى الله عليه وآله، واختاروه لأنه كان والياً عند الإمام عليعليه السلام حيث كان إدارياً قديراً، وإنما أبقاه الإمامعليه السلام؛ لأن تصرفاته في ذلك الوقت لم تكن لتضرّ المجتمع.

ويشار إلى أن زياداً هو وإخوته قد ولدوا على فراش غير شرعي:

---

(١) الارشاد ٢: ١٩٧ – ١٩٩، الملهوف في قتلى الطفوف: ٤٧ ـ ٥٠، بحار الأنوار ٤٤: ٣٥٦.

وأشـــهد أن أمّك لم تــباشر أبا سفيان واضعة القـناع[١]

والأبيات معروفة، وتاريخ المسلمين يشهد بذلك[٢].

وذات يوم كتب زياد رسالة إلىٰ عائشة، فتحيّرت ما الذي تكتب له؛ هل تكتب زياد بن أبي سفيان وهذا كذب، أم زياد بن أبيه (كما هو المعروف) وهذا يترك أثراً في نفسه وخاطره ويغضبه، وأخيراً كتبت: من أم المؤمنين إلىٰ ولدها زياد. فلما وصلت الرسالة إليه تبسّم، فسأله أحد جلسائه قائلاً: ضحكت؟ قال: لقد لقيت أمّ المؤمنين من هذا العنوان نصباً[٣].

---

(١) البيت ليزيد بن مفرغ الحميري، وهو من جملة ثلاثة أبيات هي:

إذا أودىٰ مـعاوية بـن حـرب فـبشّر شعب قـعبك بـانصداع

شـهدت بـأن أمّك لم تـباشرْ أبـا سـفيان واضـعة القـناعِ

ولكـنْ كـان أمـراً فـيه لبس عـلى وجـل شـديد وارتـياعِ

شرح نهج البلاغة ١٦: ١٩١، تاريخ مدينة دمشق ٥٦: ١٧٩.

(٢) مرَّ زياد يوماً من الأيّام في موكبه علىٰ أبي الأديان العدويّ، وكان شيخاً مكفوفاً، فقال: ما هذه الجلبة؟ قالوا: الأمير زياد بن أبي سفيان. فقال: والله، ما ترك أبو سفيان إلّا يزيد ومعاوية وعتبة وعنبسة وحنظلة ومحمّداً، فمن أين جاء زياد؟

فبلغ الكلام زياداً، فأرسل إليه بمئتي دينار، ثم مرَّبه من الغد في موكبه فسلّم عليه، فردَّ عليه السلام، وبكىٰ، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: عرفت صوت أبي سفيان في صوت زياد. وبلغ ذلك معاوية، فكتب إلىٰ أبي الأديان العدويّ:

ما ألبثتك الدنانير التـي بُـعثت أن لوَّنــتك أبـا الأديـان ألوانـا

أمسىٰ إليك زيـاد فـي أرومـته نكراً فأصبح ما أنكرت عـرفانا

لله درّ زيـــاد لو تـــعجّلها كانت له دون ما يخشاه قـربانا

فأجابه أبو الأديان بقوله:

أحدث لنا صلة تحيا النفوسُ بها قد كدت يابن أبي سفيان تنسانا

أمّا زياد فـقد صـحّت مـناسبه عندي فلا أبتغي في الحقّ بهتانا

من يسدِ خيراً يصبه حين يفعله أو يـدِ شرّاً يصبه حـيثما كـانا

شرح نهج البلاغة ١٦: ١٨٨.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٦: ٢٠٤، تاريخ مدينة دمشق ١٩: ١٧٧.

وهذا ينبّهنا إلى الموقف الذي ينبغي أن نتّخذه بحقّ ولد الزنا، فهو لا ذنب له وإنما أبواه جنيا عليه، والقرآن يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[1]. وقد يقول قائل: إن له أثراً وضعياً حيث إنه غير متكوّن من ماء طاهر. لكن هذا شيء آخر، والحقّ أننا لا نحمّله تبعة غيره.

على أية حال اختاروا زياداً؛ لأنه يعرف المنطقة ويعرف من يتّصل بالإمام علي عليه السلام فيها، فأرسلوه للتصفية، فبدأ يقتل كلّ من والى أهل البيت عليهم السلام، ويقتل على الظِّنّة والتُّهمة، كما كان قبله المغيرة بن شعبة وغيره من الولاة. فأيّ بؤرة لها علاقة بأهل البيت عليهم السلام يقضون عليها، ففعلوا ما فعلوا بكثير من الشيعة، كما حصل لحجر ابن عدي الكندي رضي الله عنه وتسعة من أصحابه أحدهم ابنه، فقد أخرجوهم مكبّلين وذلك أنهم لم يصبروا على شتم الإمام علي عليه السلام، حيث قال حجر بن عدي لزياد: إن من تشتم أحقّ بالمدح ومن تمدح أحقّ بالشتم. فقال له: لقد شققت عصا المسلمين. وجاء بجماعة شهدوا عليهم بأنهم قد شقّوا عصا المسلمين، وشتموا الوالي، إلى غير ذلك من التهم، فساقوا العشرة وأخرجوهم قبيل الغروب من الكوفة وانتهوا بهم إلى مرج عذراء ـ وهو مكان يبعد عن دمشق أميالاً قليلة، وآثاره موجودة، وقبر حجر بن عدي موجود فيه، ويزار إلى الآن ـ وأخبروا معاوية بأمرهم، فقال: اعرضوا عليهم البراءة من أبي تراب؛ فإنْ تبرّؤوا فأطلقوا سراحهم، وإن لم يتبرّؤوا فاضربوا أعناقهم. وفعلاً عرضوا عليهم البراءة، فقال حجر: إن السيف أحبّ إلينا ممّا تدعوننا إليه.

أي نحن لا نشتم إنساناً نعتقد أنه لولاه لما أُرسيت الكثير من قواعد

---

(١) الأنعام: ١٦٤.

الإسلام، فلا سبيل إلى البراءة من هذا الرجل.

فقالوا له: لا بد من قتلك. قال: أمهلوني حتى أصلّي ركعتين. فصلى ركعتين، فقالوا له: نراك قد أطلت صلاتك، أفعلت ذاك جزعاً من الموت؟ قال: إن الله يعلم أنها أخفّ صلاة صلّيتها، ولكن لم لا أجزع وأنا أرى كفناً منشوراً وسيفاً مشهوراً؟ ثم قال: قدموا ابني لضرب عنقه. وهذا نموذج بلغ الغاية في التضحية والفداء، وفعلاً ضربوا عنق ابنه، وقتلوا عديّاً والثمانية الباقين، وحملوا رؤوسهم إلى معاوية، ودفنت الأجساد هناك وأعادوا الرؤوس إليها بعد ذلك. يقول فيه أحد الشعراء:

عذراء هذي اللحود الهاجعات على	مشارف الشام تثوي تحتها الرممُ
صحائف تكتب التاريخ في جسد	من لحمه البيض والمرّان تلتهمُ
قد أورثت جسمه مجداً وأورثها	عاراً ويعرف سرّ الفرق من فهموا
تصارعا فالتقى السيف الجبان مع الـ	ـنحر الشجاع وما غير النُّهى حكمُ
وكان ما اصطرعا فيه وما اعتركا	أن يُعبد الله أو أن يُعبد الصنمُ

ولما وصل الخبر إلى عائشة قالت: ياويل معاوية من حجر وأصحاب حجر[1]، هؤلاء قوّام الليل، فكيف يلاقي ربّه وهو يقتل هذه الأرواح

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٢٠٨، شرح نهج البلاغة ٢: ٢٦٢، ١٦: ١٩٣، دفع شبه التشبيه (ابن الجوزي): ١٠٣، وفي الجميع أن الداعي عليه بالويل هو الحسن البصري. وقد ورد أن عائشة عنفت معاوية ولامته على قتله حجراً، مستشهدة بحديث عن الرسول صلى الله عليه وآله في ذلك، رواه المناوي في (فيض القدير)، وفيه: «سيقتل بعذراء أناس يغضب الله لهم وأهل السماء». قال المناوي: «هم حجر بن عدي الأدبر وأصحابه، وفد على المصطفى صلى الله عليه وآله وشهد صفين مع علي أميراً، وقتل بعذراء من قرى دمشق وقبره بها. قال ابن عساكر في تاريخه عن أبي معشر وغيره: «كان حجر عابداً، ولم يحدث قطّ إلاّ توضّأ، ولا توضّأ إلاّ صلّى»...». انظر: تاريخ الطبري ٤: ١٩١، البداية والنهاية ٨: ٥٩، كنز العمّال ١٣: ٥٨٨، تاريخ مدينة دمشق ١٢:

الطاهرة؟

وهذا غير العشرات منهم، وهذا هو الذي يريده مسلم بقوله: «وقتل خيارهم، واستبقى شرارهم». الشرار مثل عمرو بن حريث الذي جهّز لابن زياد فتوىً مؤدّاها أن الباغي إذا خرج على إمام زمانه يقتل. وكما يقول علماء المنطق: الكبرىٰ صحيحة، لكن نأتي للصغرىٰ لنعرف من هو الباغي ومن هو الإمام، فالحسين؛ سيّد شباب أهل الجنة[1]، وسبط الرسولﷺ، والإمام إن قام وإن قعد، ومن أخرجه الرسولﷺ ليباهل به نصارى نجران، هذا الذي أعطاه الله كلّ هذه الصفات في نظر هؤلاء هو الباغي، وإمامه هو الذي يصعد على منبر المسلمين وهو يرنّح أعطافه ويقول:

أقول لصحب ضمّت الكأس شملهم ... وداعي صبابات الهوى يترنّمُ
خذوا بنصيب من نعيم ولذّة ... فكلٌّ وإن طال المدى يتصرّمُ[2]

فيزيد هذا إمام، والحسين باغٍ، فهل هذا إلّا التفاهة بعينها؟

فأفتاه عمرو بن حريث بذلك حتى يبقيَه ويجزل له العطاء، ويقرّبه منزلة لديه.

«واستبقى شرارهم» الذين ليس لديهم موقف ولا رجولة. وهنا نقطة يذكرها المؤرّخون وهي أن أهل الكوفة لا يحبّون الحسين؛ وأن الذين

٢٢٧، ٢٧٠، أُسد الغابة ١: ٣٨٦، تهذيب الكمال ١٧: ٤٢، سير أعلام النبلاء ٣: ٤٨٤.

وهو القائل: ما قتلت أحداً إلّا وأعرف فيم قتلته ما خلا حجراً فإني لا أعرف فيم قتلته. فيض القدير ٤: ١٦٦ / ٤٧٦٥.

(١) مسند أحمد ٣: ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٤، وغيرها كثير.

(٢) جواهر المطالب (ابن الدمشقي) ٢: ٣٠١.

قتلوه هم شيعته، ونقول: كلا ليس الأمر كذلك، بل كلّ ما في الأمر أنه أمر طبيعي أن توجد نماذج من الأشرار فيها، لكن النموذج المميّز كان موجوداً أيضاً، وهو الذي وقف إلى جانب الحسين عليه السلام، فهذا حكم ليس فيه تحقيق ولا تثبّت.

«وجعل مال الله دولة بين جبابرتهم وأغنيائهم». وهو ما فعله هو وابنه عبيد الله من بعده، فإنه قد دفع خراج خراسان ـ وقدره عشرون مليون درهماً ـ إلى أخيه عبد الرحمن بن زياد، فلمّا رأىٰ هذا المبلغ قال: لا أدري كيف أنام وأنا عندي هذه الأموال؟ وقد كان للدرهم قوّة شرائيّة عالية. وقال: أنا حسبت لمئة سنة في كل يوم يدخل لي ألف درهم دون أن أحتاج إلى كراع أو سلاح أو عَرَض (سلعة) من العروض، والآن عندي وارد صافٍ ألف درهم إلى مئة سنة، فكيف أنام؟

وما مرّت أيام قلائل حتّى أضاع ماله ووصل الحال به بعد ذلك إلى أن باع الفضة التي كانت تحلّي القرآن. وكان ذات يوم راكباً حماراً ورجلاه تخطّان الأرض، فمرَّ به مالك بن دينار المعروف بالزهد وقال له: أين الأموال التي كنت تقول عنها: كيف أنام وأنا عندي هذه الأموال؟ قال: كلّ شيء هالك إلّا وجهه.

ومن باب «الشيء بالشيء يذكر» يروىٰ أن رجلاً سرق بضاعة، فجاء إلى السوق ليبيعها، فلمّا دخله سرقت منه، فقيل له: بكم بعتها؟ قال: برأس المال[1].

فمسلم يقول: «جعل مال الله دولة»، فهذا المال انتُزع من عرق

(١) أي أنه نهبها فنهبت منه، ولم يَدفع فيها شيئاً فلم يُدفع له فيها شيء.

المسلمين ووُضع تحت تصرّف هؤلاء، فهو يقول مخاطباً إيّاه: إننا جئنا لإصلاح الأمور؛ لأن هذه المبالغ أرغفة الفقراء وقد سرقتموها، فتفاقم الحال حتى وصل إلى حد أن السيف وصل إلى نحور الأبرياء فتركوا البلدة بعد أن أصبحت مسرحاً للجريمة والمجرمين، وهذا ما دفعنا لأن نتصدّى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

«وكنا أهل ذلك». فإنه من أهل الرسالة الذين انبثق منهم الهدى، وانطلق منهم الشعاع لينير الظلام. فما كان جواب ابن زياد؟ لقد قال: وما أنت وذلك؟ وأين كنت إذ أنت بالمدينة تشرب الخمر؟

أليس هذا من العجب العُجاب؟ بل هو من أعجب العجب؛ فإنّ مسلماً من فقهاء أهل البيتﷺ، وغاية في الطهارة والدين والخلُق، لكن هذه هي لغة هؤلاء.

فقال له: «أنا أشرب الخمر؟ أما والله، إن الله ليعلم أنك غير صادق، وأنك قد قلت بغير علم، وأني لست كما ذكرت، وأنك أحقّ بشرب الخمر منّي، وأولى بها من يلغ في دماء المسلمين ولغاً، فيقتل النفس التي حرّم الله قتلها، ويسفك الدم الذي حرّم الله على الغصب والعداوة وسوء الظن، وهو يلهو ويلعب، كأن لم يصنع شيئاً».

نعود للموضوع ونسأل: إذا كان مسلم قد خرج لتعبئة الجمهور، والجمهور في الكوفة يرى الفضائح التي يمارسها الأمويّون، فما السبب الذي جعل حركته تنتهي بهذا الشكل وتمنى بالفشل؟

المبحث الرابع: آراء مرتجلة حول فشل حركة مسلمﷺ

هنا تأتي الآراء المرتجلة، فتلعب دورها في تشويه الحقائق، وهناك عدة نظريات طرحت في هذا المضمار، نذكر منها نظريّتين هما:

النظريّة الأولى: أن هذا ناتج من غدر أهل الكوفة. وهذا غير صحيح؛ لأن الكوفة كسائر البلدان فيها الطيّب وفيها الخبيث، وفيها أحبّاء لأهل البيت عليهم السلام أكثر من غيرها، وبها رجال صلبون أكثر من غيرها؛ ولذلك كافحهم الأمويون حيث أرسلوا إليهم ولاة قساة من نمط المغيرة بن شعبة وزياد وعبيد الله ابنه؛ لعلمهم بصلابتهم وأن في هذا البلد أناساً موالين لأهل البيت عليهم السلام. وكان فيه أصحاب الحسين عليه السلام، ففي الطفّ كان أغلب أصحابه عليه السلام من الكوفة إلّا اثنين أو ثلاثة كانوا من البصرة وأفراداً من الحجاز. وعندما جاء زياد إلى الكوفة هجّر خمسين ألفاً من أهلها وألحقهم بخراسان، بسبب ولائهم لأهل البيت عليهم السلام.

وهذا يدل على أن هذه المنطقة تمثّل عند الأمويين مركز ثقل للتشيّع؛ ثم بعد ذلك فرضوا عليها أنواعاً من الضرائب وأجاعوها، ووصلت الحال إلى أنهم فرضوا الضريبة على الرهبان فيها وأخذوها منهم على الرغم من أن الإسلام لا يأخذ منهم شيئاً، وأرجعوا الضرائب الساسانيّة التي كانت على أيّام الساسانيّين، حيث كانت الضرائب تؤخذ ممّن يملك وممّن لا يملك؛ حتى أجاعوهم.

إن الإمام الحسن عليه السلام قد اشترط في عقد الصلح مع معاوية أن يؤخذ من خراج دار أبجر مليونا درهم لذراري المقاتلين مع الإمام علي عليه السلام حيث إن آباءهم قد قُتلوا في صفّين، فالمسؤول عنهم بيت المال إلى أن يكبروا. وعندما جاء الأمويون منعوا عنهم ذلك، ولم يكن لهم طعام يأكلونه ولا لباس يرتدونه.

فالمنطقة لم تكن كما يتصوّرها البعض من أن الغدر متأصّل فيها. فلو كانت غادرة لما استعمل الأمويون الأساليب الإجراميّة ضدّها. ولذلك فإن

النظريّة التي تقول: إن حركة مسلم قد فشلت نتيجة غدر المنطقة نظريّة غير سليمة.

النظريّة الثانية: أن دهاء عبيد الله بن زياد هو الذي أفشل حركة مسلم بن عقيل. إن عبيد الله بن زياد لم يكن داهية، وقد قام بغلطة كبيرة هي دخوله للكوفة لوحده، ولم يكن معه أحد، وكان يمشي ليلاً ونهاراً ولا يترك وقتاً للراحة لا له ولا لمن معه حتى سقط بعض من جماعته في طريقهم إلى البصرة من التعب والإعياء إلى ان دخل الكوفة من ناحية النجف، وهو يضع على وجهه خرقة سوداء، وقد اعتمّ بعمامة سوداء، وأمسك بيده خيزرانة، فكان إذا مرّ بجماعة سلّم عليهم بالعصا.

وتصوّر الناس أنه الحسين‰، فقالوا: قدمت خير مقدم. فساءه مارأى من كثرة الترحيب الذي لاقاه والذي كان في حقيقة الأمر موجّهاً إلى الحسين‰. وهكذا دخل الكوفة وحده، وسار منفرداً حتى وصل إلى القصر. بل إن النعمان بن بشير نفسه ـ والي الكوفة حينها ـ قد انخدع به وتصوّر أنه الحسين‰، فقال: يابن رسول الله، أنا لا أُقاتلك، وأنت في حلّ، فانصرف. فقال عبيد الله بن زياد: افتح لافتحت، فعرف أنه ليس الحسين‰، وأنه عبيد الله بن زياد.

فهذه غلطة شنيعة؛ لأن من الممكن أن يأتيه أحد ويضرب عنقه، ولكنهم لم يتعرّضوا له لأنهم قد تصوّروا أنه الحسين‰. فهذه غلطة وهي لا تنمّ عن دهاء أبداً، وإنما تنمّ عن اللامبالاة والإقدام في الأُمور بشكل غير مدروس، وقد تنمّ عن الجرأة أيضاً.

المبحث الخامس: الأسباب الحقيقيّة لفشل حركة مسلم‰

إذن ماهي الأسباب التي أدّت إلى انتهاء حركة مسلم بن عقيل‰؟ في

الحقيقة هناك عدّة أسباب منها:

أوّلاً: أن حركة مسلم قد تقدّمت على توقيتها، لأن مسلماً عندما عبّأ الكوفة كان قد عبّأها على موعد معيّن حيث إنه حدد اليوم الذي ستنطلق فيه الشرارة الأُولى للنهضة، لكن الذي اضطرّه لتقديم الموعد هو مقتل هاني بن عروة حيث إنه رضي الله عنه فوجئ بذلك. ونلاحظ أن محاورة هاني مع عبيد الله يلوح منها أنه كان واثقاً من النصر، فعندما أُدخل على ابن زياد قال له: أتيت بابن عقيل، فجمعت له الرجال، واشتريت له السلاح، فادفع لنا ابن عقيل. فقال: والله لو كانت رجلي على طفل من أطفال آل محمد صلى الله عليه وآله، لما رفعتها حتى تقطع.

ثم قال له: إن أباك زياداً كان صديقاً لي ومراعاة لأبيك فإني لا أُقابلك بمثل ما قابلتني به، بوسعك أن تخرج في أمان من الكوفة.

وهذا كلام شخص واثق من نفسه، فقال: أدنوه مني. فأدنوه إليه، فاستعرض وجهه بقضيب كان بيده، فشجّه فأدماه، ثم أدخله إلى غرفة من غرف القصر، ثم أرسل عمرو بن حريث للناس فقال: إنه في سلام. ونثرت عليهم دراهم ودنانير فانفضّوا.

فمسلم فوجئ بمقتل هاني؛ ولذلك عجّل الحركة، وإلّا فإنها لو بقيت على ميقاتها لكان أمرٌ آخرُ غير ذلك قد حدث. وبعد ذلك جاءت الرايات؛ ابن أبي عبيد له راية، وعبد الله بن الحارث له راية، فسمع حملة الرايات بمقتل هاني ثم بمقتل مسلم، فرجعوا. فالنهضة كانت في غير وقتها.

ثانياً: مثاليّة مسلم رضي الله عنه، فلو كان مسلم من الذين لا يتقيّدون بالأخلاق، لقتل عبيد الله قبل ذلك؛ فقد كان بوسعه أن يتناوله بذبالة سيفه لأن مسلماً

كان في بيت هاني، وكان هاني يحثّه ويصيح:

ما الانتظار بسلمى أن تحيّيها كأس المنيّة بالتعجيل تسقيها
هل شربة عذبة أُسقى على ظمأ وإن تلفت وكانت ميتتي فيها
فإن أحسّت سليمى منك داهية فليس تأمن يوماً من دواهيها

وكان مسلم قابضاً على سيفه ويستطيع قتله، لكنه امتنع، فقال مهران غلام عبيد الله بن زياد: إنهم يتربّصون بك فاخرج. فلمّا خرج قال هانئ لمسلم: ما الذي منعك أن تقتله؟ قال: «الإيمان قيد الفتك». فهذه ليست من الرجولة، ونحن شعارنا:

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

فقال: والله لو قتلته لقتلت كافراً فاجراً. فأجابه بأن هذا صحيح لكنه لا يناسبني.

وهذا في الحقيقة هو خلق عمّه علي بن أبي طالب عليه السلام، فإنه لمّا دخل البصرة بعد واقعة الجمل وقفت له امرأة بباب الدار وقالت له: يا قاتل الأحبّة، أيتمت ولدنا أيتم الله ولدك. فقال عليه السلام: «لو كنت قاتل الأحبّة لقتلت من في هذه الحجرة»[١]. وكان فيها مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير والوليد بن عقبة بن أبي معيط. فهذا اللون من المثاليّة هو الذي دأب عليه أهل البيت عليهم السلام. ولا ننسَ أن عمرو بن العاص استقبل الإمام عليّاً بعورته فأدار وجهه وعاد عنه[٢].

(١) دعائم الإسلام ١: ٣٩٤، مناقب آل أبي طالب ٢: ٩٨، الجمل (ضامر بن شدقم): ١٤٧، تاريخ الطبري ٣: ٥٤٣، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٠٥.
(٢) وكذلك فعل بسر بن أرطاة فتركه عليه السلام، وفيه وفي عمرو بن العاص قال النجاشي:

فهذه الأُسرة مثاليّة، ومسلم لم يقتله؛ لأنه يرى أن «الإيمان قيد الفتك»[1].

ثالثاً: تخلّف الأنصار عنه، فانتهى الأمر إلى فشل الحركة. فهو عليه السلام دخل المسجد ووراءه جمع غفير من المصلّين فصلّى بهم، فلمّا فرغ من الصلاة وأراد الخروج من المسجد لم يجد وراءه إلّا نفراً قليلاً قد توزّعوا، فخرج من أحد الأزقّة، فإذا ليس معه أحد يدلّه على الطريق. فأخذ يمشي في الأحياء إلى أن وقف على باب دار امرأة وقد التهب قلبه عطشاً، فقالت له: من أنت ياهذا؟ قال: عطشان وأُريد ماءً. فدخلت إلى الدار وأقبلت إليه بكأس من الماء، تناوله مسلم وجرع منه جرعة وأرجعه، فخرجت وقالت: ألم تشرب الماء؟ قال: بلىٰ. قالت: ما وقوفك على باب داري يرحمك الله؟ قال: أمَة الله ليس لي في هذا المصر أهل ولا عشيرة. قالت: ما الخبر؟ قال: أنا مسلم بن عقيل تخلّى عنّي هؤلاء القوم. قالت: أنت مسلم؟ قال: نعم. قالت: على الرحب والسعة.

ثم أدخلته الدار. أقبلت إليه بماء، أسبغ وضوءه، ولم يزل قائماً وقاعداً وراكعاً وساجداً حتى أوشك عمود الفجر أن ينبلج، دخلت إليه وقالت سيدي: ما رأيتك رقدت منذ البارحة؟ قال: بلىٰ هوّمت عيناي فنمت ورأيت عمّي أمير المؤمنين عليه السلام في المنام وهو يقول: إنك صائر إلينا عن قريب. وإني لأظن أن هذا آخر أيّامي من الدنيا.

أفي كلِّ يومٍ فارسٌ تندبونَه ... له عورة وسطَ العجاجةِ باديهْ

يكفُّ بها عنه عليّ سلاحَهُ ... ويضحكُ منها بالخَلاء مُعاويهْ

بدت أمسِ من عمرٍو فقنّع رأسه ... وعورة بسر مثلها حذو حاذيهْ

فقولا لعمرٍو وابن أرطاةَ أبصرا ... سبيليكما لا تلقيا الليث ثانيهْ

انظر: الفصول المهمّة (ابن الصبّاغ المالكي): ٩٠، النصائح الكافية: ٩٣.

(١) تهذيب الأحكام ١٠: ٢١٤ / ٨٤٥، مسند أحمد ١: ١٦٦، مقاتل الطالبيّين: ٦٥.

ثمّ قام واستأنف صلاته، وما هي إلّا لحظات حتّى سُمعت أصوات الخيل حول الدار، قالت: سيّدي أتاك القوم. قال: لا عليك، ناوليني سلاحي. فأخذ سيفه وخرج وهو يرتجز:

آليت لا أقتل إلّا حرّاً	وإن رأيت الموت شيئاً نُكرا
أخاف أن أُكذب أو أُغرّا	أو يخلط البارد سخناً مرّا
ردّ شعاع الشمس فاستقرا	كل امرئ يوماً ملاق شرّا[1]

فداروا حوله أربع فرق: فرقة بالرماح، وأُخرىٰ بالسيوف، وأُخرى بالحجارة، وفرقة توقد النار بأطناب العقب وتلقيها على رأسه، وطوعة وراءه تقول: جاءك القوم من حيث تحذر. وهو يقاتل والمرأة تلاحق خطواته إلى أن أثخن بالجراح وأُخذ إلى القصر، وبقيت طوعة تنتظر خروج ضيفها، وبينما هي كذلك إذا بفلول الناس قد رجعت، فسألتهم: أين ضيفي؟ فقيل لها: لقد ضرب عنقه.

وكان الحسين عليه السلام آنذاك في زرود، فلما أُصعد مسلم إلى القصر حوّل وجهه إلى جهة الحسين عليه السلام وصاح: عليك مني السلام أبا عبد الله. قام الحسين عليه السلام مختنقاً بعبرته وقال: «وعليك السلام ياغريب كوفان». ورجع إلى داخل الخيمة، وأخرج صبيّة لمسلم وأجلسها في حجره وجعل يمسح على رأسها، قالت: عمّ، أراك تصنع بي ما يصنع باليتامىٰ، لعله قد استشهد والدي؟

---

(١) انظر: روضة الواعظين: ١٧٦، ١٨٨، الإرشاد ٢: ٥٨، مثير الأحزان ٢٤، بحار الأنوار ٤٤: ٣٥٢، تاريخ الطبري ٤: ٢٨٠، مقاتل الطالبيّين: ٦٩.



﴿٦٢﴾

ولاية المؤمنين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْـمُؤْمِنُونَ وَالْـمُؤْمِنَاتُ بَـعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَـنْهَوْنَ عَنْ الْـمُنكَرِ وَيُـقِيمُونَ الصَّـلَاةَ وَيُـؤْتُونَ الزَّكَـاةَ وَيُـطِيعُونَ الله وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ الله إِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: التغليب في كلام العرب

تقول الآية الكريمة: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾، وهنا ربما يسأل سائل فيقول: إن كلمة ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ صفةٌ حالها حال كلمة (المسلمين)، فتشمل في الخطاب الذكور والإناث، كما درجت عليه خطابات القرآن الكريم خاصّة والخطابات العربيّة عامّة؛ وذلك للتغليب، فيشار إلى الرجل والأنثى بلفظ التذكير. وبناء على هذا، فما هي الحاجة أو الضرورة التي تجعل القرآن الكريم يعقّب كلمة ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ بكلمة ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾، ولا

---

(١) التوبة: ٧١.

يكتفي بذكر الكلمة الأُولى؟

والجواب أن يقال: إن السامع عادة ـ حينما لا يكون هناك مخصّص أو قرينة على إرادة الذكور فقط من أمثال هذه المفردة فإنه يفهم منها بالتبادر أن المراد: الذكر والأُنثى، وعليه فلا حاجة إذن لمثل هذا التأكيد إلّا أن يراد به هدف آخر. ومثل هذا الهدف لا يمكن أن يتنبّه له من لا يستأنس بأهداف القرآن الكريم، وكذلك من ليس عنده اطّلاع على خلفيّة الخطابات القرآنية التي تحتوي عادة على أسرار كثيرة تغلّف تعبيراته أو أساليبه. فالقرآن الكريم كما عبر عنه الحديث الشريف بقوله: «ظاهره أنيق وباطنه عميق، لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه»[1].

نظرة الإسلام إلى المرأة

إذن فهناك من وراء هذا التعبير قصد، والقصد كما يتراءى للمدقّق فيه هو أن يضع كلّ شيء وقبيله، فيضع صنفاً ما في جهة ويضع الصنف المناظر له في الجهة المقابلة. ولتوضيح هذا الأمر نذكر أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب مع أنه رسالة إلى الدنيا بأجمعها، ولابدّ من أن نعترف بأن العرب ـ شأنهم في ذلك شأن غيرهم ـ كانوا يضعون المرأة عن مستوى، ويعتبرونه من مرتبة أعلى.

وليس العرب وحدهم من يتبنّى هذه المسألة أو يعتقد بهذا الأمر، بل إن هناك الكثير من الحضارات القديمة كاليونانيّة وغيرها كانت تنظر إلى المرأة على أنها دون مستوى الرجل. ولعلّ هذا هو الذي يفسّر لنا أن

---

(١) نهج البلاغة / الكلام: ١٨، الخطبة: ١٥٢، ورواه في الكافي ٢: ٥٩٨ - ٥٩٩ / ٢ عن رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله بلفظ: «لا تحصى عجائبه، ولا تبلى غرائبه».

المعاملات الاجتماعية والنفسيّة البيتيّة كانت يفرّق فيها بين المرأة والرجل، أي أن هناك فرقاً واضحاً في التعامل مع الرجل والمرأة. إذن فهناك حضارات كثيرة شاركت العرب وشاطرتهم هذه العقيدة في المرأة، فهناك اليونان والرومان والهند ممّن كانوا ينتهجون هذا المنهج، وينحون هذا المنحى، وكذلك الحال مع مجموعة كبيرة من شعوب الشرق الأقصى آنذاك، وهي شعوب كانت معاملتها للرجل تتّسم بسمة التمايز والتمييز له عن المرأة؛ بدعوى أن مستواها وتركيبتها الجسديّة والنفسيّة دون مستواه وتركيبته، فهي تضعها أبداً في مستوى دون مستواه.

وكان هذا المعنى في محيط العرب معمّقاً أكثر من غيره، وكانت هذه النظرة إلى المرأة عندهم واضحة المعالم لدرجة أنهم كانوا يئدونها، بل يحتقرون من لم تؤد.

ومن هذه الزاوية نجد أن القرآن الكريم أراد أن يبيّن للناس كافّة خطأ هذه النظرة، وأراد أن يعالج هذا المعنى عندهم. ومن الطبيعي في مثل هذه الأمور والمعالجات التي تمسّ الموروث الاجتماعي والعقائد ألّا يكون العلاج دفعة واحدة؛ لأن معنى أن يكون العلاج كذلك ـ أي على شكل دفعة واحدة ـ في مثل هذه الحالات أنه ربما يعطي مردوداً سلبيّاً وعكسيّاً؛ لأنه يحدث ردّة فعل عند هؤلاء الذين يتوجّه إليهم الخطاب، وردّة الفعل هذه ستكون أعنف من العلاج، وبالنتيجة فإن العلاج سوف لن يكون ناجعاً ومفيداً، ولن يكون ذا أثر فعّال. ولهذا فإن القرآن الكريم اتّبع أُسلوباً تدريجيّاً في هذه المعالجة.

إذن فالقرآن الكريم اتّبع هذا الأُسلوب التدريجي الذي يستلزم بطبيعة الحال مدّة طويلة كي يتمكّن من أن يستلّ من النفوس هذا الشعور وهذه

العقيدة الفاسدة التي لا تقوم على أساس صحيح، ولا تستند إلى نظريّة علميّة أو دينية.

والغريب في الأمر أننا إلى الآن لا زلنا نرى مثل هذه النظرة عند الكثير من الشعوب ومنها بعض الشعوب الإسلاميّة، فعندما ندرس علم الأجناس أو علم الشعوب نجد أن هذه الظاهرة موجودة ومتركّزة بشكل كبير عند هذه الشعوب مع ما فيها من سلبيات.

ولبيان هذا الأمر نضرب مثلاً وهو أننا لا زلنا نرى الكثير من الناس ممّن يستعملون في حياتهم اليوميّة الكثير من وسائل التطوّر الحضاري والتكنولوجيا الحديثة باختلافها واختلاف مصادرها وتنوّعها يعيشون حالة من التناقض؛ فهم يعيشون الجانب الحضاري الجاهلي المتخلّف في نفوسهم، أي أنهم يعيشون الجانب المدني باستخدامهم وسائل التقنية الحديثة لكنهم لا يعيشون الجانب الحضاري؛ لأن عقليتهم وأفكارهم لا زالت أسيرة لكثير من القواعد الجاهليّة، والعديد من الموروثات الاجتماعية القديمة أو العقائد الفاسدة التي كان الناس يعتقدونها آنذاك.

وكلّ فرد من هؤلاء حينما ندخل إلى بيته نجده يعامل زوجته كما يعامل الإنسان القديم المرأة؛ فينظر إليها على أنها أدنى منه مستوى، وأقل منه مرتبة، فهو يعتقد بأن المرأة لا تعدو أن تكون جزءاً من كيان البيت، بمعنى أنها عبارة عن قطعة من أثاثه، وبالتالي فهو يجب أن يتعامل معها على هذا الضوء.

ومثل هذا التعامل وهذا الاعتقاد، ومثل هذا الشخص يمكن أن يعدّا نكسة في جبهة الإنسانيّة، ووصمة عار في تاريخها المتحضّر؛ فالإنسان

الواقعي المحقّ يجب عليه أن يحرص في سلوكه مع المرأة كما يحرص في سلوكه وتعامله مع الرجل. هذا إذا تنزّلنا وقلنا: إن خطر المرأة مساوٍ لخطر الرجل أمّا والحال أن خطر المرأة أكبر وأقوى وتأثيرها أشد، فلابدّ أن يكون ذلك التساوي والحرص عليه موجودين أثناء التعامل مع المرأة.

وظيفة المرأة دور خطر ومسؤوليّة عظمى

وربما يقول قائل: كيف يمكن أن يكون خطر المرأة أكبر من خطر الرجل؟

والجواب أن المرأة هي المصنع الذي يخرّج الأطفال والأجيال إلى الوجود، وهذا المعمل إذا كان معملاً قائماً على أساس الأخلاق والاستقرار النفسي والتعامل الطبيعي فإن هؤلاء الأطفال سوف يولدون وينشؤون ويترعرعون وهم في كامل صحّتهم واستقرارهم النفسيّين، وبالتالي فإن الأجيال ستكون أجيالاً مستقرّة معطاءة، أما إذا كانت المرأة خلاف ذلك، فيمكن للمجتمع أجمع أن يسقط في قرار الجريمة والانحطاط. فالمرأة إذا كانت صالحة صلح النشء وصلح المجتمع، وإن كانت فاسدة فسد النشء وفسد المجتمع.

تشريع نكاح المتعة والضرورة إليه

إنني أُسأل كلّ يوم عن كثير من القضايا التي تمسّ العلاقات الزوجيّة والحياة داخل البيت والأُسرة، وأنا لا أودّ أن أذكرها من على هذا المنبر؛ لأن في بعضها جانباً جنسيّاً مفضوحاً، والمنبر يجب أن يكون عفّاً مهذّباً ومنزّهاً عن مثل هذه الأُمور؛ لأننا نريد أن نربي جيلاً عفيفاً مهذّباً صالحاً ومستقيماً، لكن هنا نقطة مهمّة أُحبّ أن أُنبّه إليها، وهي التي أتعرض دائماً للسؤال عنها من قبل البعض من النساء، وهذه النقطة هي أن الكثير

من الرجال هذه الأيّام لا يملّون من اللهاث والركض وراء المتعة خارج البيت وإن كان بشكل مشروع عموماً، فنجد هؤلاء لا ينفكّون يردّدون في كلّ يوم من حياتهم أنهم يريدون أن يلجوا عالم زواج المتعة ويجرّبوا حظّهم فيه.

وهذه التصرّفات في الحقيقة غير صحيحة وغير موجهة، وإلّا فهل إن جميع مشاكل الدنيا قد حلّت ولم تبقَ إلّا هذه المشكلة، فهي بانتظار الحلّ؟ إن هذا اللون من الأسئلة تُوجه إلي كما ذكرت، دون أن يعرف اللّاهثون وراءها (المتعة) أنها حالة من حالات الإباحة التي وضعها الشارع المقدّس في حال الضرورة، بمعنى أنه إذا كانت هنالك ظروف معيّنة تحكم الرجل ـ ولا نريد أن نخوض فيها ـ فإنه يمكن أن يلجأ إلى هذا اللون من النكاح، وذلك في حال السفر وغيره من الضرورات، أمّا وهذا اللّاهث يمتلك زوجة لا ينقصها شيء فيجب عليه أن يكون بمستوى المسؤوليّة التي وضع نفسه فيها، وأن يعفّ نفسه ويصونها عن الوقوع في الخطأ، وأن يضع نفسه في مستوى الدين ومستوى الجيل الذي يريد أن يربيه.

إننا لا نريد من الرجل ـ أو بالأحرى لا نطالبه ـ أن يكلّف نفسه ما لا يستطيع، فنطالبه بأن يضعها في مستوى الأولياء أو الأنبياء، لكن عليه أن يسعى بدرجة تقريبيّة لأن يضعها في مكان يناسب ما اختارته الشريعة للمرأة من مكانة؛ لأن هذه المرأة هي التي سوف تتصدّر عرش الأُمومة.

إنني لا أُريد أن أقول بأنه ليس من حقّ الرجل ذلك، لكن ليس كلّ ما يعرف يقال، وإلّا فإن قضية المتعة هي تشريع إلهي صحيح وضعه الشارع بحدوده وضمن ظروف معينة يضطر فيها الرجل إلى هذا الزواج.

ويجب أن نتنبه إلى أن هناك تيّارات وراءها أكثر من ألف علامة استفهام، بل وألف استعمار تحاول كلها مجتمعة الإساءة إلى المذهب عبر استخدام هذا التشريع، فهناك أصابع للغرب تمتدّ داخل بعض المجتمعات لبذر بذور الفتنة بين المسلمين، وهذه المجتمعات تتلقّى هذه البذور وكأنها أفضل أرض صالحة لإنباتها؛ حيث إننا نجدها تنبت وتورق وتثمر وتصبح مكاناً ملائماً لنشر هذه الفتنة وهذه التفرقة بين المسلمين.

مشروعيّة نكاح المتعة

إن مسألة المتعة موجودة حتى عند الفقهاء السنة كالحنابلة[١] والأحناف[٢]؛ لأن لهؤلاء آراء صريحة في الزواج المؤقّت وإن لم يسموه كذلك، فهم ينصّون على أن من يعقد على امرأة ناوياً أن يطلقها ولو بعد يوم أو يومين، وهي تعلم بذلك، وأبوها أو الولي والعاقد يعلمان بذلك، لكنه لم يصرّح به بلسانه، فإن هذا يعتبر عندهم عقداً صحيحاً لا شائبة فيه.

ونحن نقول: إن هذا الأمر هو المتعة بعينه، فما هو الفرق بين أن يكون

---

(١) قال عبد الله بن قدامة: «وإن تزوّجها بغير شرط إلّا إن في نيّته طلاقها بعد شهر، أو إذا انقضت حاجته في هذا البلد ـ الذي سافر إليه ـ فالنكاح صحيح في قول عامّة أهل العلم إلّا الأوزاعي قال: هو نكاح متعة. والصحيح أنه لا بأس به، ولا تضرّ نيّته، وليس على الرجل أن ينوي حبس امرأته، وحسبه إن وافقته وإلّا طلقها».
المغني ٧: ٥٧٣، وبمعناه في الاستذكار ٥: ٥٠٨.

(٢) قال الحصكفي: «وبطل نكاحُ متعةٍ ومؤقتٍ وإن جهلت المدّة أو طالت في الأصحّ، وليس منه ما لو نكحها على أن يطلّقها بعد شهر، أو نوى مكثه معها مدّة معيّنة».
الدر المختار ٣: ٥٦ ـ ٥٧.

العقد بذكر الأجل فيه أو لا يكون كذلك؟ إن مثل هذا الزواج لا يفرق عن المتعة إلّا بذكر الأجل فيها، وعدمه فيه، وبإيقاع الطلاق فيه، وإلّا فإن العاقد والمعقود عليها وولي أمرها يعلمون بأن هذا الرجل سوف يطلّق.

إننا لا نريد أن نطيل الحديث في هذا الموضوع، فهذا النزاع موكول أمره لساحة الفقهاء. ثم إن عندنا ما يكفينا من المشاكل التي تعيق مسيرتنا الإسلاميّة؛ في مجتمعاتنا، أو في حياتنا، بل إن من هذه المشاكل ما يتهدّد وجودنا كمسلمين، فعلينا أن نولّي مثل هذه المشاكل كامل أهمّيتنا، وأن نوجد لها الحلول والعلاجات الناجعة قبل أن نأتي إلى الغرائز المنحطّة ونشبعها. إن على كلّ مسلم أن يعي واقعه الذي يعيشه، فيحاول أن يسمو بالجيل ولا يرجع به إلى مستوى بهيمي، فهذه الغرائز يجب تهذيبها وردعها بالصوم والصبر بدلاً من أن تحرّك عوامل تهييجها وإثارتها، وبالنتيجة فإنها يمكن أن تتحوّل إلى حالة من جحيم لا يطاق تأثيره، فيحرق صاحبها وما حوله.

فالواجب على كلّ مسلم أن يترفّع عن هذه الغرائز إلى مستوى المجتمع وإيجاد حلول لمشاكله، أما هذه القضايا الجانبيّة التي تعيش في بطون الكتب والنزاعات بين الفقهاء، فيجب أن نتركها لأصحابها، وألّا نقع تحت طائلة مريديها ومثيريها؛ لأنها تؤدّي إلى التفرقة بين المسلمين، وتحقّق هدف الاستعمار الذي من أجله أثيرت، وهو قانون «فرّق تسُدْ». فهؤلاء المستعمرون يريدون أن يصلوا إلى استعمارنا، فيلقوا بخبثهم المعهود بذور الفتنة بين المسلمين لتفريقهم، ولجعلهم يتناحرون فيما بينهم؛ حتى يتمكّنوا من أن يسودوهم ويسيطروا عليهم وعلى ثرواتهم ومقدّراتهم.

طبيعة المعالجات القرآنيّة

وعلى أيّة حال فالآية الكريمة المارّة تتناول هذا الجانب من المعالجات، وتأخذ بنظر الاعتبار الكثير من الأشياء التي تمسّ حياة المرأة ووجودها وكيانها، والمرأة لها وعليها مسؤولية كبيرة إلى جانب الرجل، فهي تساهم بالقسط الأكبر والأوفى في صنع الحياة؛ لأنها القاعدة التي ينطلق منها الجيل الكبير. ولهذا نجد أن القرآن الكريم يضعها في مصافّ الرجل، ويريد أن يؤكّد على هذه الظاهرة، وأن يحارب تلك الظاهرة المضادّة التي كانت سائدة عن المرأة في محيطهم، والتي كانت تحتقر المرأة وتنزل بها عن مستوى الرجل، وتضعها عنه.

إذن فالقرآن الكريم يريد أن يقول لهم بأنهم على خطأ في اعتقادهم هذا، وأنهم في رؤيتهم هذه لا يمكن أن يصلوا إلى المستوى الذي أهّلهم الله تعالى له وأراد لهم أن يصلوه؛ لأن الله تعالى كرّم ابن آدم عامّة ـ أي ذكوراً وإناثاً ـ ومعنى تكريمه تعالى له: أنه لا يصحّ معه أن يوضع هنالك فرق بين الجنسين؛ لأن ذلك يؤدّي إلى حدوث شرخ في التركيبة البشريّة، ويؤدي إلى إهانة شقّ كبير من أبناء هذا الجنس الذي هو المرأة.

ولهذا فإننا نجد أن القرآن الكريم يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[1].

تفصيل لا تفضيل

وقد يقول قائل: إن هناك فروقاً متنوّعة كثيرة بين الجنسين، كالفروق الفسيولوجية والفروق النفسية والجسديّة وغير ذلك، فالحواسّ الخمس

(١) الإسراء: ٧٠.

مثلاً سيّما حاسّة الشمّ تمتاز بأنها عند المرأة أقلّ منها عند الرجل ، وهذا شيء ثابت عن طريق العلم ، فالأطبّاء المختصّون قد توصّلوا عبر التجارب المخبرية إلى هذه النتيجة ، ولذا فإن المشرّع الإيطالي «أميروزو» صاحب النظرية العقابية في الفقه الجنائي يتعامل مع المرأة حال الجريمة على هذا الأساس. فالمرأة حينما تكون أقلّ حاسّة من الرجل في الشمّ فإن هذا يعني أنها أقل تعرّضاً للأمراض ، وأقل تعرّضاً للتأثر. ولذلك فهو يربط هذا بنظريّته العقابيّة فيقول: إن الإجرام أو السلوك الإجرامي يتأثران بالخواصّ الوراثية والفطرية والجسديّة ، بمعنى أن المجرم له سُحنة خاصّة ، وله حواسّ كذلك تميّزه عن غيره.

وكمثال على ذلك أيضا القلب ؛ فهو عند الرجل أثقل منه عند المرأة بما معدّله ستّون غراماً تقريباً. وبعمليّة حسابيّة بسيطة نعرف أن الرجل حينما يحرق في الساعة الواحدة (١١) غراماً من الكربون مثلاً ، فإن المرأة تحرق من (٤ - ٦) غرامات منه. ومثال آخر على ذلك أيضاً أن المرأة عادة تكون أكثر عاطفة من الرجل وأخصب خيالاً.

والجواب أن يقال: صحيح أن هناك فروقاً بيولوجية بين الرجل والمرأة ، لكن هذه الفروق لا تعني بالضرورة جانب التفضيل ، مطلقاً ؛ فكلّ من الرجل والمرأة مكيّف للبيئة التي يعيش فيها ، وللدور الذي أُنيط به والذي سوف يؤدّيه ويقوم به. ونحن حينما نقول: إن سعة الجمجمة عند الرجل أكبر بما يعادل مئتي سنتيمتر مكعب منها عند المرأة ، وبالنتيجة فإن الأخاديد والغشاء السنجابي تكون أكثر سعة عنده ؛ مما يعطي معدّل ذكاء أعلى وأكثر.

لكن هل كلّ هذا لا يعني التفضيل مطلقاً ؛ فنحن نعرف مثلاً أن بعض

الكائنات الحيّة تكيّفت لأن تعيش على اليابسة، وهناك كائنات أُخرى غيرها تكيّفت لأن تعيش في الماء كالأسماك وما شابه، وهذا لا يعني بحال أن السمك أفضل من تلك الكائنات البريّة؛ لأنها لا تستطيع أن تعيش في الماء، أو أن تلك الكائنات البريّة أفضل من السمك؛ لأنه لا يستطيع أن يعيش على اليابسة. فالكائنات البريّة تكيّفت للعيش مع الظروف الصحراوية، شأنها شأن السمك الذي تكيف للعيش مع ظروف البيئة المائيّة.

وهذا الحال بعينه ينطبق تماماً على الرجل والمرأة، فكلّ منهما مكيّف ومهيّأ لأن يقوم بالدور الذي كلّفه الله به، فالمرأة مكيّفة بالدرجة الأُولى لبناء الأُسرة. وقولنا بأنها مكيّفة ومهيّأة لبناء الأُسرة لا يعني أنها لا تستطيع أن تعمل خارج المنزل، بل إنها بما أعطاها الله تعالى من عقل وذكاء وطاقات أُخرى يكون لها القابليّة على أن تشغل أيّ وظيفة تريدها حالها في ذلك حال الرجل، لكن الشكل الطبيعي والوظيفة الطبيعيّة لها هي أنها مرتبطة بالأُسرة.

ودليل هذا أننا معاشر الرجال لا نستطيع أن نجلس مع طفل عمره أيّام أو أشهر، ونرعاه أو نقوم على شؤونه وما شاكل، بل إن ذلك يعدّ من أصعب الأُمور بالنسبة لنا، أما مع المرأة فهو خلاف ذلك، كما أننا لا نستطيع أن نناغي الطفل كما تناغيه أُمّه، ولا أن نتفاعل أو نتعامل معه كما تتفاعل أو تتعامل هي معه؛ لأنها تملك دفئاً عاطفياً يستحيل أن يملكه الرجل.

إن هرمون الأُمومة الذي أودعه الله فيها يجعلها تفيض عاطفة، وتتدفّق حناناً وعطفاً ورأفة بهذا الطفل. فالأم تمتلك كلّ تلك الأُمور. وهذا هو

السبب الذي يجعلها لا تأنف ولا تستقذر أن تقوم بتنظيف ابنها والقيام على شؤونه في أي حال كان، وفي أي وقت من الليل والنهار، بل إنها ربما تترك طعامها أو لذيذ منامها كي تقوم إلى طفلها وتراعيه.

إن الأم حينما تقوم بهذا مع طفلها لا تقوم به لأنها تشفق عليه فقط، بل إنها يتعدّى الأمر عندها ذلك إلى التلذّذ بهذه العمليّة التي تمارسها مع طفلها من تنظيفه وإزالة القذارات عنه، وتأنس بهذا الفعل أيّما إيناس، فلا تشعر بالاشمئزاز، ولا يخالجها شعور بأنها ربما تكون خالية من الانفعالات النفسيّة التي أودعها الله تعالى عند الإنسان من استقذار القذارات واستطياب الطيبات وما شاكل. إن الواقع يقول: إن المشاعر هي عينها موجودة عند الأمّ وعند غيرها غير أن غزارة العاطفة عندها مكيّفة ـ كما شاء الله ذلك ـ للطفل ولرعايته والاعتناء به.

إذن فالأنوثة تضفي على البيت لوناً من العطف الدافئ الذي يحوّله إلى لوحة متناسقة الألوان ومتناغمة الزوايا لا يملك منها الرجل شيئاً. وهذا اللون من التكيّف العاطفي والنفسي والذهني ليس فيه نوع تفضيل أبداً، وإنما هو تصنيف كما قلنا وأشرنا إليه في الكثير من محاضراتنا. فالمسألة إذن هي مسألة تصنيف وتفصيل وليست مسألة تفضيل؛ لأن هذا التكيّف وراءه تربية أطفال وتغذيتهم وتنشئتهم، والرجل ليس مكيّفاً أبداً لهذا الدور؛ فهو لا يملك ثدياً لإرضاع طفله، ولا يملك سعة صدر لتحمّله وتحمل بكائه وآلامه ونوبات مرضه، ولا يملك طاقة كافية للقيام على شؤونه من تنظيفه وتربيته وما إلى ذلك.

كما أن المرأة – وقد أشرنا إلى هذا أيضا في محاضرات أخرى – لا تعطي الطفل غذاءه من اللبن فقط حينما ترضعه، بل إنها ترضعه العاطفة

والاستقرار النفسيّين والسكون والهدوء، فهي بمقدار ما تطعمه وتملأ معدته من اللبن تسكب في روحه الدعة والراحة والأمن والاستقرار، بل ربما تعطيه من هذه الأمور النفسية قدراً أكبر.

وبهذا فإننا نخلص إلى نتيجة هي أن المرأة بما كُيِّفت له ليست أفضل من الرجل، وأن الرجل بما كُيِّف له ليس أفضل من المرأة؛ لأن المسألة لا تعدو أن تكون مسألة تصنيف وليست مسألة تفضيل، أو كما يقال: مسألة تفصيل لا تفضيل. ولهذا فإننا نجد أن النظريّة القرآنيّة تريد أن تربّي المجتمع على فكرة أن الرجل يجب أن يقتنع بأن المرأة إلى جانبه وفي المستوى عينه، وليس الأمر قائماً على أن المجتمع الذكوري أفضل من المجتمع النسوي. وهذا الأمر شامل لجميع الميادين، كي يتعاونا معاً على صنع الحياة.

الإسلام وحقوق المرأة

وربما يقول قائل: إذا كان الأمر كذلك، فلماذا يمنع الإسلام المرأة من مزاولة بعض الأشياء ويسلبها حرّيّتها فيها؟ مثلاً فهو لا يعطيها الحقّ في الولاية العامّة شأنها في ذلك شأن الرجل. نعم الإسلام ربما يعطيها ولاية خاصّة، لكن الولاية العامّة لا يعطيها إيّاها.

والجواب على هذا هو أن نقول: إن السبب الذي من أجله لم يعطِ الإسلام للمرأة ولاية عامة هو أن المرأة يكون عندها بعض الأمور التي تخصّها ـ أي أنها أمور غير موجودة عند الرجل ـ وهذه الأمور قد تشغلها، بل هي فعلاً كذلك؛ حيث إنها تشغلها عن ممارسة سلطة هذه الولاية التي نتحدّث عنها، وعن أداء حقوقها المترتّبة لها، وواجباتها المترتّبة عليها في هذه الفترات التي تمرّ هي بها. ومن ذلك فترات الحيض أو العادة

الشهرية، وفترات النفاس، والحمل، وما يرافق الحمل من وحام وما شاكل ذلك.

وهذه الأدوار كلّها تأخذ حيّزاً كبيراً من حياة المرأة الجسديّة والنفسية، ومن تفكيرها وصحّتها، فالغدة الدرقيّة عندها تتأثّر تأثّراً بالغاً في هذه الأيام التي تمر بها؛ فيحصل لها سلوك نفسي خاصّ يمتاز بالعصبيّة وعدم الاستقرار. وهذا الأمر أخذه الإسلام بنظر الاعتبار في عدم إعطائها حقّ الولاية العامّة.

إذن فحينما تناط بالمرأة مسؤولية عامّة كبيرة، فإن هذه المسؤوليّة تحتاج إلى جهد وضغط عصبيّين ونفسيّين وجسديّين كبيرين، والممارسات الوظيفية لهذه الولاية تضيف عليها تعباً وضغطاً نفسيّين وعصبيّين جديدين، ثم يأتي دور هذه المراحل التي ذكرناها والتي تتغيّر فيها الحالة النفسيّة للمرأة وتتأزم كثيراً. فكلّ هذه العوامل تجتمع لتشكّل عامل ضغط شديد على المرأة؛ ولهذا فإن الإسلام جنّبها مثل هذه المواقف.

وكما نوّهنا فإن هذا ليس فيه تفضيل للرجل على المرأة مطلقاً، بدليل أن فقهاءنا يقولون: إن المرأة لها الحقّ في الحصول على كامل حقوقها المدنيّة الأُخرى، كأن تَنتخب وتُنتخب.

إنني آنس كثيراً عندما أرى أن البعض الغالب من فقهائنا المعاصرين يعطون المرأة حقّ الانتخاب، شريطة ألّا تكون هناك مفسدة في البين. وهذا طبيعي؛ فالعصر قد تغيّر، وأصبحت له قيمه وعاداته المختلفة[1]،

---

(١) وممّا ينسب لأمير المؤمنين عليه السلام قوله: «لا تقسروا أولادكم على تربيتكم فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم». شرح نهج البلاغة ٢٠: ٢٦٧ / الحكم المنسوبة إلى أمير المؤمنين عليه السلام.

والانتخاب أصبح ضرورة من ضرورات العصر الحديث. وحتى من الناحية الشرعيّة فإن الانتخاب لا يعدو كونه وكالة، فحينما ينتخب أحد أحداً غيره، فهو في الحقيقة إنما يوكله في ممارسة دور تحصيل حقوقه عامّة نيابة عنه، والمرأة لها حقّ الوكالة، وتصحّ منها الوكالة كما تصحّ من الرجل؛ لأن الأهليّة القانونيّة عند المرأة متوفّرة، وهي حالها في ذلك حال الأهليّة القانونيّة للرجل.

ولو أننا رجعنا إلى موضوع الوكالة لوجدنا أن من شروطها الأهلية الكاملة. وهي قضية قابلة للتجزؤ، فالمشرّع الإسلامي يجزّئ الأهلية فيعطي البعض أهلية غير كاملة كالصبي ذي العشر سنين فإنه لا يوكل في بعض الأعمال، لكن المرأة من الناحيتين القانونية والشرعية تعدّ كاملة الأهليّة. وهذا هو السبب الذي من أجله يعطيها بعض الفقهاء الحقّ بأن تَنتخب وتُنتخب. وهذا كما قلنا بشرط ألّا يكون هناك مفسدة في البين؛ لأن المشرّع الإسلامي المقدس يهتمّ كثيراً بجانب الطهارة والعفّة عند المرأة، فهو يؤكّد أكثر ما يؤكّد على كونها نظيفة عفيفة طاهرة محصنة؛ لأنها وسيلة بناء الأسرة والمجتمع، ولأنها مستودع تربية الأطفال والقناة إلى ذلك، ولأنها المثل الأعلى للأبناء داخل الأسرة؛ فإذا صلحت صلحوا، وإذا فسدت فسدوا كما مرّ ذكره.

وبالنتيجة فإن نظافة المرأة تعني نظافة المجتمع واستقامته، وفي المقابل كذلك فإن تلوّثها بالخطيئة والانحراف يعني تلوث المجتمع، وبالتالي انحطاطه كلّه وانتكاسه.

وعليه فالتعبير القرآني حينما يضع المرأة إلى جانب الرجل في مسألة الخطابات التي يعتمدها هذا الكتاب الكريم؛ سواء كانت خطابات

مولويّة، أو إرشادية فهو إنما يهدف إلى أن يبيّن للرجل أن المرأة ليست أدنى منه مرتبة ومستوى، فهو يقول له: إني أضع المرأة إلى جانبك؛ كي تتخلّص من الموروث الاجتماعي الجاهلي الذي يعيش في رأسك، والذي يجب عليك أن تتخلّى عنه، وتعود إلى الاختيار الإلهي في هذه المسألة.

المبحث الثاني: في معنى الولاية

ثم انتقلت الآية فقالت: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، وقد اختلف المفسّرون في معنى الولاية الواردة فيها، فهم تارة يقولون بأنها التناصر والتراحم، وتارة يقولون بأنها القيام ببعض الأعمال. وسوف أروي هنا حادثة تلقي الضوء على المعنى المقصود والمراد من هذا المقطع الكريم، وهي حادثة وقعت لصفوان الجمّال، وصفوان هذا قد وردت فيه رواية كان للإمام الكاظم عليه السلام موقف حدّي واضح معه فيها، حيث إنه عليه السلام قال له: «كلّ شيء منك حسن جميل ما خلا شيئاً واحداً». فقال له: جعلت فداك، أي شيء؟ قال عليه السلام: «إكراؤك جمالك من هذا الرجل». يعني هارون الرشيد، فقال له: والله تعالى، ما أكريته أشراً ولا بطراً، ولا للصيد ولا للّهو، ولكني أكريته لهذا الطريق - يعني طريق مكّة - ولا أتولّاه بنفسي، ولكن أبعث معه غلماني. فقال عليه السلام له: «يا صفوان أيقع كراؤك عليهم؟». قال: نعم. قال عليه السلام: «أتحبّ بقاءهم حتى يخرج كراك؟». قلت: نعم. قال عليه السلام: «فمن أحبّ بقاءهم فهو منهم، ومن كان منهم كان ورد النار». قال صفوان: فذهبت فبعت جمالي عن آخرها[1].

---

(١) وسائل الشيعة ١٦: ٢٥٩ / ٨-٢١٥٠، ١٧: ١٨٢ - ١٨٣ / ٢٢٣٠٥، وانظر جواهر الكلام

أي أنه ﷺ يبيّن له أنهم بهذا يركنون إليهم، والقرآن الكريم يقول: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[1]؛ لأنهم إنما يرفعونهم على أكتافهم ويوصلونهم إلى مرادهم، وهذا لون من ألوان الركون إلى الظالم.

ورواية المقام التي أشرنا إليها هي أن صفوان قال: قلت لأبي عبد الله ﷺ: قد عرفتني بعملي، تأتيني المرأة أعرفها بإسلامها وحبّها إيّاكم، وولايتها لكم، ليس لها محرّم. فقال ﷺ: «إذا جاءت المرأة المسلمة فاحملها، فإن المؤمن محرّم المؤمنة»، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[2].

ذلك أن الأصل أن يكون المؤمن نظيفاً طاهراً، فهذه هي الحال الطبيعية للمؤمن، فإذا كان كذلك استحقّ أن يكون وليّ المؤمنة. وبالنتيجة فإنه يحافظ على سمعتها وكرامتها وعرضها. فمازال المؤمن يمتلك هذه

٢٢: ٥٣. ومثله حديث ابن أبي يعفور عن أبي عبد الله ﷺ حينما دخل عليه رجل من أصحابه فقال له: أصلحك الله تعالى، إنه ربما أصاب الرجل منا الضيق أو الشدّة فيدعى إلى البناء يبنيه، أو النهر يكريه، أو المسنّاة يصلحها، فما تقول في ذلك؟ فقال ﷺ «ما أحب أني عقدت لهم عقدة، أو وكيت لهم وكاء وأن لي ما بين لابتيها، لا ولا مدّة بقلم. إن أعوان الظلمة يوم القيامة في سرادق من نار حتى يحكم الله بين العباد». الكافي ٥: ١٠٧ / ٧.

وحديث يحيى بن إبراهيم بن مهاجر قال: قلت لأبي عبد الله ﷺ: فلان يقرئك السلام، وفلان وفلان. فقال ﷺ: «وعليهم السلام». قلت: يسألونك الدعاء. فقال ﷺ: «وما لهم؟». قلت: حبسهم أبو جعفر. فقال: «وما لهم وما له؟». قلت: استعملهم فحبسهم. فقال: «وما لهم وما له؟ ألم أنههم؟ ألم أنههم؟ ألم أنههم؟ هم النار، هم النار، هم النار». قال: ثم قال ﷺ: «اللهم اخدع عنهم سلطانهم». قال: فانصرفت من مكّة، فسألت عنهم فإذا هم قد أخرجوا بعد هذا الكلام بثلاثة أيّام. الكافي ٥: ١٠٧ / ٨.

(١) هود: ١١٣.

(٢) وسائل الشيعة ١١: ١٥٣ - ١٥٥ / ١٤٥٠٢.

المقوّمات، وهو مؤمن بمعنى أنه يمتلك أساساً صفة الإيمان فإنه يجب عليه أن يتحلّى بصفة النظافة والطهارة؛ كي يكون أهلاً لأن يصبح وليّاً للمؤمنة. إن هناك قاعدة عند الأصوليّين تنصّ على أنه إذا ترتّب الحكم على الوصف، فإنّ هذا يشعر بأن الصفة علّة له، بمعنى أن القرآن الكريم حينما يقول: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، فهو إنما يصفهم بالإيمان، وهذا الإيمان أصبح علّة لكون بعضهم أولى ببعض.

ولتوضيح المعنى أكثر نقول: إن المؤمن معنى خارجي يتركّب من جزأين: الجزء الأول هو الإنسان، والجزء الثاني هو الإيمان.

إذن فالمؤمن يعني: الرجل أو المرأة المتّصفين بصفة الإيمان.

وعليه فعندما يقول: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ فإن هذا هو موضوع الحكم، وإذا كان هذا هو الموضوع فأين الحكم؟ الحكم هو كونهم أولياء بعض، وهذا الحكم إنما ترتّب على الإيمان، أي أنه ترتّب على الوصف؛ ولذا فإنه أشعر بأن الوصف علّة لهذا الحكم. وبناءً عليه فإنه ليس كلّ رجل بمقدوره أن يصطحب معه امرأة ليس معها أحد من أرحامها إلى الحجّ ـ أي يصطحبها بمفردها ـ بل إن الرجل المؤمن ـ وهو الذي يمتلك صفة الإيمان ـ هو الذي بمقدوره أن يصطحب تلك المرأة وإن لم يكن معها أحد من محارمها؛ لأنه حينئذ يعتبر وليّاً لها، وهو لم يستحقّ هذه الصفة إلّا لأنه قد توفّرت فيه صفة العفّة والطهارة، وغضّ البصر، وصيانة ما حرّم الله تعالى؛ لأن هذه الأمور من لوازم الإيمان.

إذن الوصف يشعر بأنه علّة للحكم، ومن هذا نفهم أن القرآن الكريم يريد أن يقول: يجب على المجتمع أن يتراحم ويتعاطف ويتعاون فيما بينه على صعيد الجنسين ـ الذكر والأنثى ـ فيتعاونا على البناء، أي بناء

مجتمع وتكوين أمّة صالحة مستقيمة يسوسها الإيمان والعفة والطهارة؛ حتى لا يتحوّل ذلك المجتمع إلى كيان منخور. فالرجل المؤمن يفترض فيه - بما له من صفة الإيمان الذي من لوازمه العفّة والطهارة والنزاهة، وصيانة ما حرّم الله - أن يحفظ المرأة وألّا يعتدي عليها، كما أن المؤمن يفترض به أن يرشد أخاه المؤمن ويوجّهه وينصحه إذا أخطأ أو اقتضت الضرورة ذلك[1].

وسوف أروي هنا حادثة استدلّ بعض الفقهاء فيها بهذه الآية، كان حاكم مصر أحمد بن طولون متحلّياً بالعدل مع تجبّره وسفكه للدماء، وكان يجلس للمظالم وينصف المظلوم. وقد حكي أن ولده العباس استدعى مغنيّة وهو يصطبح يوماً، فلقيها بعض صالحي مصر ومعها غلام يحمل عودها، فقال لها: من أنت؟ قالت: أنا جارية سيّدي العبّاس بن أحمد بن طولون. فقال لها: ما هذا الذي معك؟ قالت: العود؛ لأُغنّيه به. فأخذه منها فكسره.

فجاءت سيّدها وأخبرته بما حصل لها مع ذلك الرجل الصالح، فدخل العبّاس إلى أبيه وأخبره بذلك، فأمر بإحضاره، فلما أُحضر إليه قال له: أنت الذي كسرت العود؟ قال: نعم. قال: أفعلمت لمن هو؟ قال: نعم، هو

---

(١) ورد في الحديث الشريف عن رسولنا الأكرم ﷺ أنه قال: «المؤمن مرآة أخيه المؤمن: يرى فيه حسنه وقبحه». المجازات النبويّة: ٧٩ / ٤٧.
وكذلك عنه ﷺ: «المؤمن مرآة أخيه يميط عنه الأذى». مشكاة الأنوار: ١٨٩ ـ ١٩٠، وسائل الشيعة ١٢: ٢١٠ / ١٦١٠٨.
وفي غيره عن أمير المؤمنين ﷺ أنه قال: «المسلم مرآة أخيه: فإذا رأيتم من أخيكم هفوة فلا تكونوا عليه إلباً، وأرشدوه وانصحوا له وترفّقوا به. وإياكم والخلاف فإنه مروق». عيون الحكم والمواعظ: ٧٠، الخصال: ٦١٨ / ١٠، تحف العقول: ١٠٨.

لابنك العبّاس. قال: أفما أكرمته لي؟ قال: أكرمه لك بمعصية الله عزّ وجلّ، والله تعالى يقول: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ورسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[1]؟ فأطرق أحمد بن طولون عند ذلك، ثم قال: كلّ منكر رأيته فغيّره، وأنا من ورائك[2].

فهذا الرجل الصالح كان قد رام وجه الله تعالى؛ ولذا فإن ابن طولون يقرّر له أنه بفعلته هذه يكون قد فعل فعلاً كريماً يستهدف من ورائه تنظيف المجتمع من الانحلال.

إذن فهذه الآية الكريمة تريد أن تقرّر للمؤمنين أنهم أولياء بعض، وهذه الولاية لها شروطها، ولها واجباتها وحقوقها، ولها من يتولّاها.

المبحث الثالث: مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ﴾، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة لها مراتب متعدّدة؛ فهي تارة تكون بالإنكار القلبي، وأخرى تكون بالإنكار اللفظي، وثالثة تكون بالإنكار العملي بحيث إنه يصل إلى مستوى التضحية بالنفس. وهذا تاريخ الإسلام والمسلمين بين أيدينا ينبئنا عن أن هناك الكثير ممّن وصلوا إلى هذه المرتبة من التضحية والإنكار للمنكر، فهذه حمنة بنت جحش أخت زينب التي تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وآله بعد أن طلّقها زيد، جاءت

---

(١) مسند أحمد ١: ١٣١، ١٤٩، وغيرها.

(٢) المستطرف من كلّ فن مستظرف ١: ٢٢٨ - ٢٢٩.

مهرولة مولولة بعد معركة أُحد، وكان الناس ينظرون إليها وهي ذاهلة فيظنّونها مسكينة تبحث عمّن فقد لها، فقالوا: هذه مسكينة مذهولة لفقد أخيها وخالها وزوجها.

لكن الواقع كان خلاف هذا؛ حيث إن هذه المرأة التي لم يبقَ لها شيء، كان كلّ همّها أن تنظر إلى وجه رسول الله ﷺ، وكأنها تريد أن تقول: إن بذهابنا جميعاً لا تترتّب أي مضرّة للإسلام بخلاف الرسول ﷺ حامل الرسالة السماوية المتجسّدة بشخصه ووجوده وأخلاقه؛ فإن بفقده فقدَ الإسلام، وبذهابه ذهابَ هذا الدين الجديد.

فأي إيمان أكبر من هذا الإيمان؟ وأي عزم أكبر من هذا العزم؟ وما أعظم هذه البطولة من هذه المرأة التي راحت تعزّي نفسها عن فقد زوجها وخالها وأخيها بسلامة رسول الله ﷺ؟ وهكذا راحت تصيح: أين رسول الله؟ وراحت تبحث عنه ﷺ حتى لقيته، فنعى ﷺ لها أخاها عبد الله بن جحش ﷺ فاسترجعت واستغفرت، ثم نعى لها خالها الحمزة بن عبد المطّلب ﷺ فاسترجعت واستغفرت، ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير ﷺ فولولت، لكنها عادت بعد ذلك وقالت: وإنك لحيٌّ يا رسول الله؟ كلّ مصيبة بعدك جَلَل[1].

ومثل حمنة هذه نسيبة بنت كعب المازنية المعروفة بأُمّ عمارة، هذه المرأة المجاهدة التي نزلت يوم أُحد إلى المعركة لتطبّب الجرحى بما تيسّر عندها من علاجات بدائيّة، لكنها لما رأت أن الحرب قد اشتدّ

---

(١) تاريخ الطبري ٢: ٢١٠، لكنه لم ينسب قول: «كلّ مصيبة بعدك جَلَل» لها، بل نسبه في المورد نفسه لامرأة من بني النجّار، شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٦٢، مواهب الجليل ٥: ٢٩٢.

أوارها والناس قد انهزموا عن رسول الله ﷺ أخذت سيفاً وراحت تدافع عن النبي ﷺ حتى ضُربت ضربة أجافتها، أي بلغ السيف جوفها. فلما عولج كتفها وشدّ، أمسكت السيف باليد الثانية وأخذت تقاتل حتى قتلت بعضاً منهم. فأي إيمان أعظم من هذا الإيمان؟ هذا في حين أن هناك مجموعة كبيرة من الرجال قد انهزموا عن رسول الله ﷺ، وكان العباس بن عبد المطلب يعدو خلفهم ليردّهم إلى القتال وهو ينادي: يا أهل بيعة الشجرة، هذا رسول الله، ويحكم ثوبوا إليه[1].

آية المقام والكفاءة بين الزوجين

إذن فالقرآن الكريم يضع الرجال والنساء في صفّ واحد متكافئ، وقد استفاد الفقهاء من هذا الأمر في هذا المقام عدم اشتراط الكفاءة في غير الإسلام والإيمان بين المرأة والرجل مما هو من عرض الدنيا. وعليه فالمسلم كفء المسلم مادام مؤمناً، والأشياء الدنيويّة ليس لها مدخليّة بالكفاءة هنا أبداً.

وهذا هو رأي الإمامية والمالكيّة في المسألة، بل إن المذاهب الإسلاميّة الأُخرى التي تشترط الكفاءة إنما تشترطها بالأمور الكسبية لا بالأُمور الذاتية. فالمال لا يمكن أن يشكّل شيئاً ذا قيمة في موضوع الكفاءة حتى يصبح شيئاً مميزاً، فليس فيه ما يمكن أن يجعله ذا ميزة من مزايا التميز أو التمييز، فهو لا يمنح المجنون عقلاً ولا يصير الجاهل عالماً. كما أن هذا هو المفروض الذي يجب أن يكون لأنه بهذا لا يمنح صاحبه كرامة واحتراماً؛ فالشخص المحترم محترم وإن كان فقيراً، وهذا

---

(١) المزار (المشهدي): ٢٧٤، تفسير السمعاني ٢: ٢٩٩.

هو شأن أنبياء الله ورسله عليهم السلام، وأوليائه وخاصّته.

إذن فالمسلم كفء المسلم من أي جنس كان، أمّا ما تعتمده بعض المذاهب الإسلامية من أن هناك فرقاً بين الناس بلحاظ أن أمّهات بعضهم عربيّات وأمّهات البعض الآخر جوارٍ، وأنهم بهذا يتفاضلون، فهذا غير منطقي وليس بصحيح البتّة.

رواية «أبيتم يا آل أبي سفيان إلّا كرماً»

وهؤلاء يخترعون رواية يستشهدون بها، ويحتجّون على صحّة مذهبهم هذا، وهي ما يرويه المدائني من أن عقيل بن أبي طالب ذهب إلى معاوية يوماً، وهذا بطبيعة الحال على فرض التسليم بوقوعه فهو بعد استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام؛ فنحن نعلم أن عقيلاً كتب إلى أمير المؤمنين عليه السلام حين بلغه خذلان أهل الكوفة وعصيانهم إياه كتاباً يقول فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله علي أمير المؤمنين عليه السلام من عقيل بن أبي طالب. سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلّا هو.

أما بعد: فإن الله حارسك من كلّ سوء، وعاصمك من كلّ مكروه. وعلى كلّ حال، إني خرجت إلى مكّة معتمراً فلقيت عبد الله بن سعد بن أبي سرح في نحو من أربعين شاباً من أبناء الطلقاء، فعرفت المنكر في وجوههم، فقلت لهم: إلى أين يا أبناء الشانئين؟ أبمعاوية تلحقون؟ عداوة والله منكم قديمة غير مستنكرة، تريدون بها إطفاء نور الله وتبديل أمره. فأسمعني القوم وأسمعتهم.

فلما قدمت مكّة سمعت أهلها يتحدّثون أن الضحّاك بن قيس أغار على الحيرة فاحتمل من أموالهم ما شاء، ثم انكفأ راجعاً سالماً؛ فأُفٍّ لحياة في دهر جرّأ عليك الضحّاك، وما الضحاك؟ فقع بقرقر. وقد توهّمت حيث

بلغني ذلك أن شيعتك وأنصارك خذلوك، فاكتب إليّ يابن أُمّي برأيك، فإن كنت الموت تريد تحمّلت إليك ببني أخيك وولد أبيك فعشنا معك ما عشت ومتنا معك إذا متّ. فوالله ما أُحب أن أبقى في الدنيا بعدك فواقاً. وأُقسم بالأعزّ الأجلّ إن عيشاً نعيشه بعدك في الحياة لغير هنيء ولامريء ولا نجيع، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

فأجابه عليه السلام بكتاب جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى عقيل بن أبي طالب، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلّا هو. أما بعد: كلأنا الله وإيّاك كلاءة من يخشاه بالغيب إنه حميد مجيد. فقد وصل إليّ كتابك».

إلى أن قال: «وأمّا ما عرضت به علي من مسيرك إليّ ببنيك وبني أبيك، فلا حاجة لي في ذلك؛ فأقم راشداً محموداً، فوالله ما أُحبّ أن تهلكوا معي إن هلكت. ولا تحسبن ابن أمّك ولو أسلمه الناس متخشّعاً ولا متضرّعاً ولا مقرّاً للضيم واهناً، ولا سلس الزمام للقائد، ولا وطئ الظهر للراكب المقتعد، إني لكما قال أخو بني سليم:

فإن تسأليني كيف أنت فإنني ... صبور على ريب الزمان صليبُ

يعزّ عليّ أن تُرى بي كآبة ... فيشمت عادٍ أو يساء حبيبُ»[1]

على أية حال بعد أن دخل على معاوية قال له: هل من حاجة فأقضيها لك؟ قال: نعم، جارية عرضت علي وأبى أصحابها أن يبيعوها إلّا بأربعين ألفاً، فأحبّ معاوية أن يمازحه فقال له: وما تصنع بجارية قيمتها أربعون

(١) الغارات ٢: ٤٢٨ - ٤٣٦.

ألفاً وأنت أعمى؟ تستطيع أن تجتزئ بجارية قيمتها خمسون درهماً. قال: أرجو أن أطأها فتلد لي غلاماً إذا أغضبته يضرب عنقك. فضحك معاوية وقال له: مازحناك يا أبا يزيد. ثم أمر فابتيعت له تلك الجارية التي أولد منها مسلماً ﷺ.

فلما أتت على مسلم ﷺ ثماني عشرة سنة وقد مات عقيل أبوه قال لمعاوية: يا أمير المؤمنين؛ إن لي أرضاً بمكان كذا من المدينة، وإني أعطيت بها مئة ألف، وقد أحببت أن أبيعك إياها، فادفع إليّ ثمنها.

فأمر معاوية بقبض الأرض ودفع الثمن إليه، فبلغ ذلك الحسين ﷺ، فكتب إلى معاوية: «أمّا بعد: فإنك اغتررت غلاماً من بني هاشم، فابتعت منه أرضاً لا يملكها، فاقبض من الغلام ما دفعته إليه واردد علينا أرضنا». فبعث معاوية إلى مسلم فأخبره ذلك وأقرأه كتاب الحسين ﷺ وقال: اردد علينا مالنا، وخذ أرضك؛ فإنك بعت ما لا تملك. فقال مسلم ﷺ: أما دون أن أضرب رأسك بالسيف فلا. فاستلقى معاوية ضاحكاً يضرب برجليه وقال: يا بني هذا والله كلام قاله لي أبوك حين ابتعت له أمّك. ثم كتب إلى الحسين ﷺ: إني قد رددت عليكم الأرض وسوّغت مسلماً ما أخذه. فقال الحسين ﷺ: «أبيتم يا آل أبي سفيان إلّا كرماً»[1].

نقد الرواية ومناقشتها

والغرض من هذه الرواية هو هذه العبارة الأخيرة، وهي قولة الإمام الحسين ﷺ له: «أبيتم يا آل أبي سفيان إلّا كرماً». وسوف أبيّن هنا موارد النقد على هذه الرواية وهو ما سأحصره بالآتي:

---

(١) بحار الأنوار ٤٢: ١١٦ – ١١٧، شرح نهج البلاغة ١: ٢٥١ – ٢٥٢.

الأمر الأول: المغالطة في نسب أم مسلم عليه السلام

إن أمّ مسلم عليه السلام اسمها عليّة، وأبوها من ملوك النبط من آل سرجان، ويظهر من الأقوال أن عقيلاً اجتمع في مكّة مع أبيها فخطبها منه وتزوّجها. ونحن لا يعنينا أن تكون ابنة ملك أو لا، بل الذي يعنينا هنا هو أن هذه المرأة هي غير تلك المذكورة في الرواية. وليس هذا فقط، بل لأننا نعتقد أن الأموال لا تزيد من مكانة الشخص ولا تنقصها.

الأمر الثاني: المفارقة التاريخيّة للرواية

فبناء على هذه الرواية يكون عمر مسلم بن عقيل عليه السلام يوم الطفّ دون العشرين سنة؛ لأن التحاق عقيل بن أبي طالب بمعاوية كان في سنة (٤١) للهجرة، وعلى فرض أن حادثة الزواج هذه قد حدثت فإنها ربما تكون وقعت في نهاية سنة (٤١) أو في سنة (٤٢) للهجرة، وبهذا فإن مسلماً عليه السلام يكون قد ولد سنة (٤٢) أو (٤٣) للهجرة، وهذا يعني أن عمره يوم الطف كان (١٧) أو (١٨) عاماً، في حين أن المسلّم به هو أن عمر مسلم بن عقيل عليه السلام يوم الطف كان (٣٥) سنة.

الأمر الثالث: أن فعل مسلم يخالف فقه أهل البيت عليهم السلام

إن من المعلوم المسلّم به والمقطوع به أن مسلم بن عقيل عليه السلام من فقهاء أهل البيت عليهم السلام ومن خاصّة أهل بيت الحسين عليه السلام، ودليل هذا ما كتبه سيد الشهداء عليه السلام لأهل الكوفة: «وأنا باعث إليكم أخي وابن عمّي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل»[1].

فإذا كان مسلم بن عقيل عليه السلام المفضّل عند الحسين عليه السلام من أهل بيته،

(١) روضة الواعظين: ١٧٣، الكامل في التاريخ ٤: ٢١.

فكيف يمكن أن ينهب الأرض ويبيعها؟ إن الإمام الحسين‏ﷺ لا يفضل إلّا من فضّله الله تعالى، ولا يقرب إلّا المخلص المؤمن المتهجّد. إن هذا الفعل الذي تنسبه الرواية لمسلم بن عقيل‏ﷺ لا يمكن أن يقوم به أبسط الناس إيماناً وأقلّهم ورعاً وتقوى، فكيف الحال بمسلم بن عقيل‏ﷺ وهو ما هو عليه من صفات أبرزها الإمام الحسين بحقّه في كتابه الذي ذكرنا؟

الأمر الرابع: عدم امتلاك مسلم حجّة الأرض

ثم إنه إذا كانت الأرض له، فكيف لا يملك حجّتها أو وثيقتها الشرعيّة التي تثبت تلك الملكيّة له؟ وكيف يشتري معاوية منه أرضاً ولا يطالبه بإحضار وثيقة تملك تلك الأرض؟ إن هذا لا يمكن أن يكون، لأن المتعارف بين الناس أن أحداً إذا أراد أن يشتري أرضاً أو داراً أو غيرهما من شخص فإنه يطالبه بوثيقة التملّك، وهذا ما لا يمكن أن يكون قد حدث في هذه الصفقة؛ لأن الرواية تقول: إن الأرض لم تكن لمسلم، أي أنه لم يكن يملك وثيقة التملّك. وكذلك لو كان هذا الأمر واقعاً لردّ معاوية على الإمام الحسين‏ﷺ بأن الأرض لمسلم، وقد أبرز حجّتها عند المبايعة، حينما ذكر‏ﷺ له أن هذه الأرض ليست لمسلم.

الأمر الخامس: أن فيها استخفافاً بمسلم‏ﷺ

فعلى فرض أن الرواية مثبتة في شأن أن الأرض كانت لمسلم، فإذا كان الأمر كذلك، فكيف يكتب الإمام الحسين‏ﷺ لمعاوية يطلب منه أن يرجع الأرض ويسترجع أمواله، مع أن مسلم بن عقيل‏ﷺ رجل بالغ، وتصرّف البالغ صحيح ويجيزه الشرع؟ فحينما يملك رجل أو امرأة قطعة أرض ثم يبيعها فإنه يكون قد باع ما يملك، وإذا كان قد باع ما يملك فإن تصرّفه

صحيح وليس من حقّ أحد آخر أن يعترض عليه.

ولو قال قائل: إن الإمام الحسين عليه السلام إنما اعترض بدافع الولاية العامّة التي له على الناس؛ باعتبار أنه إمام معصوم مفترض الطاعة.

لقيل: إن هذا لا يعني إعطاء حقّ سلب الملكية، أي أنه يعترض على البيع دون أن يسلب مسلماً ملكيته لهذه الأرض.

وربما يرى البعض أن من المصلحة ألّا تباع على معاوية، لكن في مثل هذه الحال يجب أن يتوجّه الخطاب على هذا الأساس لا على أساس أن معاوية قد اشترى أرضاً من شخص لا يملكها؛ لأن هذا كذب، والإمام المعصوم عليه السلام منزّه عن الكذب، فلا يقول: لقد اشتريت أرضاً من شخص لا يملكها، وهو في واقع الحال يملكها. فهذا كذب واضح وافتراء فاضح منزّه عنه الإمام المعصوم عليه السلام.

خلاصة المبحث

إذن من بعد هذه النقاط التي سقناها وجعلناها إيرادات على هذه الرواية لابدّ أن نكون قد تنبّهنا إلى الغرض الصحيح الذي يهدف من ورائه أُولئك الذين اخترعوها من أجل خدمة أغراضهم وأهدافهم والاستدلال بها على ما يريدون أن يفتوا به. وكذلك يمنح الأُمويين منزلة ليسوا أهلاً لها، فيصوّرون معاوية على أنه كريم وذو فضل على الهاشميّين، وأن الإمام الحسين عليه السلام قال له: «أبيتم يا آل أبي سفيان إلّا كرماً». والحال أنه لم يكن هكذا أبداً، والدليل على هذا أن المحدّثين والمؤرّخين يروون هذه الرواية فيقولون: إن هنداً زوجة أبي سفيان جاءت رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل بخيل، فهل عليّ أن أُطعم عيالنا من ماله؟

قال ﷺ: «لا، إلّا بالمعروف». أي بقدر حاجتكم[1].

فهؤلاء لم يكن معروفاً عنهم الكرم والجود، فكيف يمدحهم الإمام الحسين عليه السلام بهذا المدح، وهو العارف بأحوال العرب؟ فالكلمات على أية حال كلّها مخترعة، ولا تصمد أمام النقد، وإلّا فإن مسلماً عليه السلام كما ذكرنا موضع ثقة الإمام الحسين عليه السلام بشهادة الإمام عليه السلام نفسه. ولو لم يكن موضع ثقته ومعتمده لما أرسله إلى هذا البلد المشتعل بالحركات المتماوجة والمتناقضة، والمفعم بالمشاكل والرزايا.

إذن فاعتماد الإمام الحسين عليه السلام عليه كان دليلاً على أن مسلماً عليه السلام هو أهل لهذه الثقة؛ لورعه وإيمانه وتقواه وشدّة التصاقه برسول الله ﷺ وبأهل بيته عليهم السلام، وبالدين الحنيف.

المبحث الرابع: دور مسلم بن عقيل في الكوفة

ولقد حقّق مسلم عليه السلام ظنّ الإمام الحسين عليه السلام به حينما أرسله، فقد وقف موقفاً جسّد فيه الوفاء بأسمى معانيه. ونحن نعرف البداية التي دخل بها الكوفة والنهاية التي انتهى به المطاف إليها فيها، فبعد أن أُدخل إلى قصر الإمارة بعد قتال عنيف خاضه ضد جيش كامل جاءه مدجّجاً بالسلاح، وبعد أن قتل منهم خلقاً كثيراً، وبعد أن أثخنته الجراح وأخذه الطعن من

---

(١) فتح الباري ٩: ٤٤٧، عمدة القاري ١٦: ٢٨٤، ٢١: ١٩، الإصابة ٨: ٣٤٧، تاريخ مدينة دمشق ٧٠: ١٧٧ - ١٧٨، ومنها مارواه كل من أحمد بن حنبل، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وغيرهم من أن فاطمة بنت قيس جاءت رسول الله ﷺ فذكرت له أن معاوية بن أبي سفيان وأبا جهم خطباها، فقال رسول الله ﷺ: «أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك لامال له».

انظر: مسند أحمد ٦: ٤١٢، صحيح مسلم ٤: ١٩٥، سنن أبي داود ١: ٥١٠ / ٢٢٨٤، سنن النسائي ٦: ٧٧ - ٧٥.

كلّ جانب ومكان جاؤوا به والدم ينزف منه، فأوقفوه على باب قصر الإمارة، فنظر إلى قُلّة ماء وكان عطشاناً، فقال: اسقوني شيئاً من الماء.

فالتفت إليه مسلم بن عمر الباهلي وقال له: أتراها؟ ما أبردها! لا والله لا تذوق منها قطرة أبداً حتى تذوق الحميم في نار جهنم. فقال له مسلم عليه السلام: ويلك من أنت؟ فقال: أنا الذي عرف الحقّ إذ أنكرته، ونصح لإمامه إذ غششته، وأطاعه إذ خالفته، أنا مسلم بن عمرو الباهلي. فقال له مسلم بن عقيل عليه السلام: لأمّك الثكل، ما أقساك وأفظّك وأقسى قلبك! أنت يابن باهلة أولى بالحميم والخلود في نار جهنم منّي، أما أنا فسأفد على رسول الله صلى الله عليه وآله لأشرب من حوضه[1].

ثم التفت عمرو بن حريث إلى غلامه، وأشار إليه أن أعطِه الماء. فأتاه الغلام بالقُلّة؛ فلما أدناها مسلم عليه السلام ليشرب منها امتلأ الكأس دماً، فأفرغها وأُوتي بغيرها فلما أراد أن يشرب امتلأ الكأس بالدم ثانية، وكذلك في المرّة الثالثة، وفيها سقطت ثنيتاه داخلها؛ لأن إحدى الضربات كانت على فمه، فوقعت على مقدّم أسنانه، فلما رأى مسلم ذلك قال: الحمد لله، لو كان لي من الرزق المقسوم شربته.

ثم أُدخل على عبيد الله بن زياد فلم يسلّم عليه، فقال ابن زياد: يا مسلم، سواء عليك سلّمت أو لم تسلّم إنك مقتول لا محالة. ثم قال له: قتلني الله إن لم أقتلك قتلة لم يُقتلها أحد في الإسلام من الناس. فقال له مسلم عليه السلام: أما إنك أحقّ من أحدث في الإسلام ما لم يكن، وإنك لا تدع سوء القِتلة وقبح المُثلة وخبث السيرة ولؤم الغلبة، لأحد أولى بها منك.

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام (أبو مخنف): ٥٢، لواعج الأشجان: ٦٢، تاريخ الطبري ٤: ٢٨١ - ٢٨٢، الكامل في التاريخ ٤: ٣٤.

فأقبل ابن زياد يشتمه ويشتم الحسين وعلياً عليهم السلام وعقيلاً، وأخذ مسلم عليه السلام لا يكلّمه، ثم أمر ابن زياد بأن يُصعد به فوق القصر ويضرب عنقه، فقال مسلم عليه السلام: والله لو كان بيني وبينك قرابة ما قتلتني.

ولم يكن عليه السلام يريد بهذا الكلام أن يستجدي عطفهم أو يستدرّ شفقتهم، أو أن يسترحمهم؛ لأنه يعلم من هم، وما هم عليه.

ثم قال مسلم عليه السلام: أريد رجلاً قرشيّاً أوصيه. فقام عمر بن سعد إليه وقال له: ما وصيّتك؟ فقال له: أول وصيتي أنا أشهد أن لا إله إلّا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن عليّاً ولي الله ووصيّ رسوله وخليفته في أمّته. والثانية أن تبيع درعي وتقضي عني سبعمئة درهم استقرضتها. والثالثة أن تكتب إلى سيدي الحسين عليه السلام أن يرجع ولا يأتي إلى بلدكم. فقال له ابن سعد: أما ما ذكرت من الشهادة فكلّنا نشهد بها، وأما بيع الدرع وقضاء الدين فإن شئنا قضيناه وإلّا لم نقضِه، وأما أمر الحسين فلابدّ من أن يقدم إلينا ونذيقه الموت[1].

ثم صاح عبيد الله: أين الذي ضرب مسلم رأسه بالسيف؟ فجيء إليه ببكر بن حمران، فقال له: خذ مسلماً وتولّ أمره واقتله بنفسك. فصعد به إلى أعلى قصر الإمارة وهو يسبّح الله تعالى ويقدّسه، ثم صلى ركعتين، وأدار وجهه إلى جهة الإمام الحسين عليه السلام وصاح: السلام عليك أبا عبد الله، إن ابن عمك أسير بين أيدي القوم، ولا يدري أيبيت أم لا. فضربه بكر بن حمران فقطع رأسه، ورمى بجسده الشريف من أعلى القصر:

المكـــدّر كـــضه وشـــاعت اخـــباره   رمـــوه الكـــوم مـــن كـــصر الإمـــاره

---

(١) ينابيع المودّة ٣: ٥٨.

وكان الإمام الحسين عليه السلام في زرود، فقام من مكانه وهو يقول: «وعليك السلام يا غريب كوفان». ثم قام من فوره إلى خيمة النساء، وأحضر حميدة ابنة مسلم، وأجلسها في حجره، وجعل يمسح على رأسها، فقالت: ياعمّ، أراك تصنع بي ما يُصنع باليتامى؟ قال: «بنيّة عظم الله لك الأجر بأبيك»[1].

تكله يعمي ابوي وينه

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٥٤.

﴿٦٣﴾

الجوار في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالجَارِ ذِي القُرْبَى وَالجَارِ الجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

يعتبر المفسّرون هذه الآية من أُمّهات الكتاب؛ لما فيها من مضامين أخلاقيّة ضخمة، وكلّ ما في القرآن الكريم عطاء بلا شكّ، لكن هذه الآية تعتبر من أركان الإسلام؛ لما تضمّنته من مكارم أخلاق وأُمور هامّة تدور حول قضايا اجتماعيّة وواقعيّة تمسّ المجتمع عبر تعرّضها لقضيّة خاصّة شخصيّة، وهذا ما سنطّلع عليه خلال البحث إن شاء الله.

المبحث الأول: معنى القربى وأقسامها

ولنبدأ بالآية جزءاً جزءاً، فنقول: ﴿وَالجَارِ ذِي القُرْبَى﴾، اللفظة في القرآن

---

(١) النساء: ٣٦.

الكريم تارة تحتمل أكثر من معنى وتارة لا، أي يكون لها معنى واحد، وهذه الفقرة من الآية تحتمل أكثر من معنى، فيجب أن نلتمس القرائن والأدلّة لنتمكّن من تعيين المراد، فـ﴿القُرْبَى﴾ لفظ يقع على معنيين: القربى المادّية، والقربى المعنويّة:

القرابة المعنويّة

وهي تتمثّل في العقيدة أو الإسلام، فالمسلم قريب المسلم وأخوه، كمن له جار مسلم يشاركه في العقيدة فقط دون القرابة. فالجار المسلم له ثلاثة حقوق عليك: حق الجوار وحق الإسلام، وإذا كان قريبك فله حق القرابة أيضاً. فالله تبارك وتعالى يأمرنا بالإحسان إلى الجار الذي تربطنا به عقيدة، وهذا الإحسان ليس له وصفة محدّدة عند المشرّع الإسلامي وإنما هو يترك ذلك للمجتمع؛ فعندما نقول لأحدنا: أحسن إلى جارك، فإنه يفهم من أننا نطلب منه ألا يؤذي جاره ولا يُسيء إليه وأن يحفظ عرضه ويصون بيته وماله وأن يتفقّده في غيبته وجوعه. ونحن عندنا حضارة في هذا المجال عريقة إلى حدّ أن عدي بن حاتم كان إذا رأى قرية من النمل رجع وفتّ لها الخبز ولا يترك النمل جياعاً ويقول: هؤلاء جيراني[1].

وأيمتنا عليهم السلام أكّدوا كثيراً على هذا المعنى باعتبارهم الروافد الحقيقيّة في الإسلام، فالإمام زين العابدين عليه السلام في رسالة الحقوق يخصّص فصلاً لحقوق الجار[2]. وبطبيعة الحال فإن الإمام زين العابدين عليه السلام يمثّل رافداً

(١) بحار الأنوار ٦١: ٢٤٢، تاريخ مدينة دمشق ٤٠: ٨٨، ٨٩.

(٢) رسالة الحقوق ضمن بحار الأنوار ٧١: ٧.

من روافد الإسلام، وكان إذا جنّه الليل يشرف على القدور ويقول: «اغرفوا لآل فلان، اغرفوا لآل فلان»[١].

وهذا معنىً سامٍ، فالجار ـ حتىٰ إذا كان شبعاناً ـ لكن حينما تهدي له ويهدي إليك فإن هذه الحالة تعتبر وسيلة من وسائل التقرّب والمودّة، وتعبيراً إنسانياً يمثّل صورة حضاريّة مشرقة. ولكن ببالغ الأسف أقول: إن العقائد يجب أن تقرّب ما بين الناس لا أن تفرقهم، سيما إن كانوا متجاورين، فالعقيدة ينبغي أن تجمع بين الناس وتذوّب الخلافات وتخلق جوّاً ناعماً بينهم، والذي يحدث الآن أن بعض الجيران يمتنع عن أكل طعام تقدّمه إليه بحجّة أنه من ذبيحة ذبحت لأجل الحسين عليه السلام وأُهدي ثوابها إليه؛ فهو لغير الله. ونحن نقول لهم: بأي دليل ومدرك تمتنعون عن أكل هذا الطعام، مع أن جمهور المسلمين علىٰ وصول الثواب إلى الميّت من قراءة قرآن أو طعام يهدىٰ ثوابه إليه[٢]؟ فهل من الخلُق الامتناع عن طعام يهدىٰ لسيّد شباب أهل الجنة؟ ولكن: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[٣].

القرابة الماديّة

وهو القريب منك. وعلىٰ هذا الرأي ما هو مجال المسؤوليّة هنا؟ بعض الروايات ترىٰ أنه ما بينك وبين أربعين بيتاً[٤]، وبعض الفقهاء يرىٰ أنه ما

---

(١) المحاسن ٢: ٣٩٦ / ٦٧، بحار الأنوار ٩٣: ٢١٧ / ٦.

(٢) انظر: روضة الطالبين ٥: ١٨٥، حواشي الشيرواني والعبادي على تحفة المحتاج ٧: ٧٣، حاشية ردّ المحتار ٢: ١٦٦.

(٣) القصص: ٥٦.

(٤) الكافي ٢: ٦٦٩ / باب حدّ الجوار، وسائل الشيعة ١٢: ١٣٢ / ١٥٨٥٥ ـ ١٥٨٥٨، فتح الباري ١٠: ٣٧٤.

بينك وبين أربعين ذراعاً[١].

والواقع أن هذا لا يمكن تحديدهُ؛ ولذا فقد أوكل الشرع تحديده إلى العرف، فالشارع ليس له اصطلاح به، وما يفهمه العرف والرأي العام من كلمة (جار) هو المعوّل عليه، فحينما يقول: ابن محلّتي التي أسكنها هو جاري، فعندها تكون هي الحدّ؛ لأنه المعنى الذي تفاهم عليه العرف. وهذا هو الذي أمرنا الله عزّ وجلّ بالإحسان إليه بأن نستر عورته وأن نشبع جوعته وأن نتعامل معه على أساس من الأخلاق؛ ولذلك كان الأئمة عليهم السلام يستعيذون بالله من أن يكونوا بقرب جار يؤلمهم[٢].

المبحث الثاني: معنى ﴿الْجَارِ الْجُنُبِ﴾

وهو إمّا البعيد عنك في العقيدة ككونه مسيحيّاً وأنت مسلم، وهذا لا يمنع من أن تلاقيه وتلقيَ عليه التحيّة ويلقيَها عليك، غاية الأمر أنك لا تحيّيه بتحيّة الإسلام وإنما تقول له: نهارك سعيد، أو مرحباً بك، أو طاب يومك، وما بمعنا هذا، وليس به بأس. وهذا جانب من الأخلاق التي أراد لها الشارع أن تنتشر بين الناس كوسيلة وطريقة لأداء حقّ الجيرة فالإحسان إلى الجار بهذا الشكل مطلوب ولو كان كافراً؛ لأننا نريد أن نبرهن لهم أننا على شريعة سمحاء، ويعرفوا بأننا لا نعاديهم لدينهم. وإذا

(١) انظر الخلاف (الطوسي) ٤: ١٥٢، وفيه: إذا أوصىٰ بثلث ماله لجيرانه فرّق بين من يكون بينه وبين داره أربعون ذراعاً. ومثله في المبسوط ٤: ٤١، المهذب (ابن البراج) ٢: ٩١.

(٢) في دعاء للسجاد عليه السلام: «اللهمّ إنّي أعوذ بك... ومن جار سوء تراني عيناه وترعاني أذناه؛ إن رأىٰ شرّاً طار به، وإن رأىٰ خيراً كتمه». انظر: شرح نهج البلاغة ١٧: ٨، ونسبه إلى الرسول صلى الله عليه وآله في مجمع الزوائد ١٠: ١٨٣، المعجم الأوسط ٦: ١٩٩، وفيهما: وبالاً، بدل: كلّاً، وقد مرّ.

كان البعض يرموننا بالعنصريّة متذرّعين بمواقفنا تجاه اليهود؛ فنحن نقول لهم بأنا لم نحارب اليهود لأنهم يهود، بل إنهم عاشوا ما بين أظهرنا ولم نحاربهم، لكن لمّا حاربونا وأخرجونا من ديارنا وقتلونا وسفكوا دماءنا حاربناهم، فنحن لم نحاربهم من أجل عقيدتهم، بل إنا نقرّ بالعقائد القادمة من السماء ونحترمها ونكرمها، غاية الأمر أنها ختمت بالدين الإسلامي، وهذا ما يتوجّب علينا أن نبلّغه للعالم، وعلىٰ أساسه نتعامل مع الآخرين بروح المواطنة.

آراء المفسّرين في معنى ﴿الصَّاحِبِ بِالجَنْبِ﴾

وفي ﴿وَالصَّاحِبِ بِالجَنْبِ﴾ للمفسّرين عدّة آراء:

الرأي الأوّل: أنه رفيقك في الدراسة

وهذه من باب تطبيق المفهوم علىٰ مصاديقه، فالطالب يجلس مع طالب علىٰ كرسي واحد فيكون صاحبه بجنبه. فالمشرّع الإسلامي يأمر بأن تسود بينهما شريعة الأخلاق، فيجب أن أُساعده وأنفعه بكلمة، وإذا بدرت منه حركة غير موزونة أُرشده وأُوجّهه؛ لأن علاقة ما قد وقعت بيني وبينه ربطتني به، ويترتّب علىٰ هذه العلاقة التزامات منها أن أُحسن إليه. وعليه، فالمقصود به: شريكك في الدرس. وعلىٰ هذا المعنىٰ فتحنا أعيننا، ففي الحواضر الإسلاميّة التي تدرّس العلوم الإسلاميّة كالنجف مثلاً أو الأزهر الشريف أو قم أو العتبات المقدّسة الأُخرىٰ التي فيها جاليات مختلفة تجد أن روّاد هذه المدارس يشتركون في الدروس والأكل والحديث، وتسودهم روح الانسجام والمحبة وطلب العلم والخلق.

الرأي الثاني: أنه شريكك في العمل

كأن تكونا في معمل أو متجر أو ورشة، تشتركان في عمل واحد يربطكما بنوع من الارتباط. واللازم هنا ألّا يكون تعاملكما جافّاً خشناً، بل يجب أن يتّسم بالمرونة والعطاء الإنساني، فهذا جارك بالعمل، وهو صاحبك بالجنب.

الرأي الثالث: أنه رفيقك في السفر

وهو يتحقّق حتّىٰ ولو كان سفركما لفترة قصيرة؛ إذ خلال هذه الفترة قد يحصل بينكما حديث وتعارف، فلابدّ حينئذٍ من أن تعامله كما رسم الإسلام لك بحيث إنك تترك أثرك فيه فيحمل عنك انطباعاً حسناً إلى الحدّ الذي لو تركته معه فإنه سيشعر أنه قد افتقدك. وما كان خلاف هذا فليس من خلق الإسلام في شيء، بل إن خلق الإسلام أن تعطي رفيقك في السفر كما تأخذ منه.

وكان السجادعليه السلام إذا خرج في سفر مع قافلة انفرد عنها، ولما قيل له في ذلك أجاب بأن الناس يعرفون أنه ابن رسول الله وسوف يكرمونه لأجل النبيصلى الله عليه وآله بما لا يستطيع مكافأتهم بمثله؛ فلهذا ينفرد عنهم ولو تمكّن من مكافأتهم بمثل ما أكرموه به لما انفرد عنهم.

وهذا هو الذي نريد أن نكون عليه في سفرنا: أن نعطي كما نأخذ لا أن نأخذ فقط. ومن غير اللائق أنك تجلس إلىٰ جانب رفيق لك في سفر ثم لا تكلمه، بل لابدّ من مجاذبته أطراف الحديث وتجالسه علىٰ خوان واحد وتؤاكله، وهذا كلّه من الأعمال المحبّبة إلى الله[1].

---

(١) قال رسول الله: «ثلاثة من الجفاء: أن يصحب الرجلُ الرجلَ فلا يسأله عن اسمه وكنيته،

الرأي الرابع: أنه الزوجة

وربّما يعترض معترض بأن الزوجة لا تحتاج إلىٰ توصية للعناية بها؛ فهذا أمر فطري، فكلّ إنسان منسجم مع زوجته يعتني بها ويهتم بأمرها؛ فكلاهما يكمّل الآخر، فما وجه توصية المشرّع إذن؟ فنقول له: إنه ليس كلّ الأزواج منسجمين، فضلاً عن أن البعض ربّما يكون قد انخدع بزوجه، زيادة علىٰ أن هناك من الرجال من يميل بطبعه إلى التطليق، فهو إما من ملل يصيبه أو أنه مذواق، كما ورد أن النبي ﷺ سأل شخصاً عن زوجته فقال: يارسول الله طلّقتها وتزوّجت غيرها، ثم سأله بعد فترة فأجابه بالجواب عينه، فقال له ﷺ: «إنك مذواق مطلاق»[١].

وهذا كثيراً ما يحصل، فالرجل بعد فترة من زواجه يبدأ الملل بالتسلّل إليه فيهجر زوجته أو يلجأ إلىٰ إيذائها، والقرآن الكريم يقول: ﴿وَلا تَنسَوُا الفَضلَ بَيْنَكُمْ﴾[٢]، لماذا؟ لأن المرأة خلال هذه الفترة قد أعطت كلّ ما عندها وأنت كذلك، فأيام الفضل والمودّة بينكما موجودة فلا تنسياها، ولا تدعاها تذهب هباءً، هي أعطتك ما لم يظفر به أبوها منها وأنت كذلك، فلا وجه حينئذٍ لنسيان هذا: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أنفُسِكُمْ أزْوَاجاً﴾[٣].

والزوجة لابدّ أن تتّصف بمواصفات معيّنة كي تستحقّ تلك التوصية والرعاية، جاء رجل لرسول الله ﷺ فقال له: يارسول الله، أخطب المرأة

وأن يدعى الرجل إلى طعام فلا يجيب أو يجيب فلا يأكل، ومواقعة الرجل أهله قبل المداعبة».

قرب الأسناد: ١٦٠، وسائل الشيعة ١٢: ١٤٥ / ١٥٨٩٤، المعجم الصغير ٢: ١١٥، كنز العمّال ٩: ٣٦ ـ ٣٧ / ٢٤٨١٣ ـ ٢٤٨١٤.

(١) وردت عدّة أحاديث بلعن المذواق المطلاق. انظر البحر الرائق ٢: ٤١٢.

(٢) البقرة: ٢٣٧. (٣) الروم: ٢١.

الجميلة أو ذات الدين أو ذات المال؟ فقال صلى الله عليه وآله: «اظفر بذات الدين تربت يداك»[١]؛ لأن ذات الدين يحملها دينها على رعاية زوجها وحفظ بيته في غيابه والتضحية من أجله، والزوج ينبغي أن يواجهها بمثل ذلك؛ لأنهما كليهما جزء النواة التي ستكوّن المجتمع الذي يصلح بصلاحهما ويفسد بفسادهما.

ودور الوصيّة هنا التذكير بما يجب لو طرأ على العلاقة نوع فتور أو تنافر؛ فإنه يجب مع ذلك ألّا يضيع أحدهما حقّ الآخر. وربّما كانت المشكلة هي أننا لم نلجأ إلى الحلّ من البداية، بل كان لجوؤنا إليه بعد وقوع المشكلة، ولو رجعنا إلى الآداب الإسلاميّة في اختيار الزوج والزوجة والتي يذكرها فقهاء المسلمين لاستغربنا من تطوّر الفكر الإسلامي في هذا المجال، ولوجدنا أن مكاتب الزواج التي أُنشئت حديثاً في أُوروبا ليست حديثة عهد في الإسلام، بل هي معروفة ومقرّرة عنده منذ بدء نزول التشريع. ومن المواصفات التي وضعها الإسلام قوله صلى الله عليه وآله: «تخيّروا لنطفكم»[٢].

والبعض حينما يملك الثروة نراه يتزوّج من بلد أوروبي مع أن حضارتهم غير حضارتنا؛ ومن هنا قد لا يحصل الانسجام. وأمام زوال الفورة الجامحة التي دعتك إلى الزواج منها ترى أنك شيء وأنها شيء آخر مختلف تماماً، وعندها يحصل الطلاق، والمتضرّر الوحيد هنا هم الأطفال، فلم هذا وأنت مسلم تعيش في بلد إسلامي، والله مكّنك من التزوّج ممّن تحفظك وبيتك في غيابك، هذه المرأة التي تشترك معك في

---

(١) الكافي ٥: ٣٣٢ / ١، مسند أحمد ٢: ٤٢٨.

(٢) دعائم الإسلام ٢: ١٩٩، سنن ابن ماجة ١: ٦٣٣ / ١٩٦٨.

دينك وعقيدتك وعاداتك وتقاليدك وأخلاقك؟

فالمقصود هنا: أن الإنسان يجب أن يختار من تلائمه في حياته كيلا يقع المحذور، فالعلاقة الزوجيّة ليست علاقة عابرة كي تتمّ بهذه الصورة، بل سيكون هناك رباط وأطفال بحاجة إلىٰ تربية ورعاية وعناية وتوفير جوّ معتدل لهم يعيشون فيه مراحل حياتهم ودراستهم كي نعدّهم للحياة. فإن لم يجد الطفل هذا فإنه سيلجأ الى الشارع، وما الذي سيجده في الشارع؟ سيجد مجاميع المجرمين والقتلة وباعة المخدّرات، هؤلاء قتلة الخفاء وأصحاب معاول هدم الأُسر. وهو داء عضال ينبغي عدم الإعانة عليه، وإلّا فهل يرضىٰ أحدنا بأن يرىٰ أخاه يتلوّىٰ أمامه من هذا السّمّ؟ فمسؤوليّة المجتمع ككلّ التعاضد من أجل محاربة هذا الداء الوبيل ومجابهته بكلّ الوسائل، وأولىٰ وسائل مجابهته حفظ البيت من قبل الأب والأُم وعدم التفريط بهذه العلاقة؛ كي ينال الأطفال التربية الحقّة: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[1].

المبحث الثالث: أنواع المشي والاختيال فيه

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾[2]، المختال: هو الذي تحسّه يمشي علىٰ قلبك لا على الأرض، فهو بمشيه هذا كأنه يمزّق قلب من يراه؛ لأنه يخالف الأمر الإلهي، وهو بعكس ﴿عِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً﴾[3] وهو تعبير شفّاف يصف عباد الرحمن دون عباد الهوىٰ والغرائز والأنانيّة. فالمتكبّر لا يعرف النبضة الإنسانيّة؛ والله بهذا يبغضه. فالاختيال

(١) المائدة: ٢. (٢) النساء: ٣٦.
(٣) الفرقان: ٦٣.

إذن يتعلّق بحركة الجسم من مشي وتمطٍّ[1].

أنواع المشي ودلالاته

وقد بحث العلماء في هذا المجال الذي أطلقوا عليه اسم (علم الحركة الجسميّة) أو (كنسج) كما يسميه بيير ووسل في كتابه الذي يحمل الاسم نفسه أي علم حركة الأجسام، والذي صدر عام (١٩٥٢م). والمشي له دلالات بحسبه:

١ - مشية الشيخ، قال الشاعر:

زعمتني شيخاً ولست بشيخٍ إنما الشيخ من يدبّ دبيبا[2]

وقال آخر:

حنتني حانيات الدهر حتى كأني خاتل أدنو لصيد

قريبَ الخطو يحسب من يراني - ولست مقيّداً - أني بقيد[3]

أي لتقارب خطاه تحسبه مقيّداً، فهذه مشية الشيخ.

المأمون يعرف آثار الخمرة على الإنسان

٢ - مشية السكران، وصاحبها يترنّح فيعرف بها أنه كذلك. دخل أحدهم على المأمون وأنشده:

---

(١) قال تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾.

(٢) العين ١: ٣٦٦ - زعم.

(٣) البيتان لحنظلة بن الشرقي، أبي الطمحان القيني، وكان نديماً للزبير بن عبد المطلب في الجاهليّة، عُمِّر مئتي سنة، الآمالي (الطوسي) ١: ٣٥، الإصابة في تمييز الصحابة ٢: ١٥٦/٢١٠٦، كتاب العمر والشيب: ٧١، وفيه الطيخان، بدل: الطمحان، لسان العرب ١١: ١٩٩ - ختل، والترجمة من الإصابة.

إذا ما احتساها شارب ذو صبابة   تمشّت به مشي المقيّد بالوحلِ[١]

فالتفت إليه المأمون وقال: يريبني وصفك لها. فقال له: ويريبني معرفتك بها. أي يبدو أنك تعرفها.

٣ - مشية الرمل، يروىٰ أن النبيﷺ لما أراد العمرة مع أصحابه قال لهم: «إذا أردتم المرور بين الصفا المروة فأرملوا»[٢]، أي اركضوا.

والسبب في ذلك أن قريشاً قالت: إن محمداً وأصحابه عندما ذهبوا إلى المدينة مرضوا ـ حيث إن في المدينة حمّى ـ واصفرّت وجوههم، فنستطيع القضاء عليهم.

فأراد لهمﷺ أن يظهروا قوّتهم للمشركين، وأن يبين لهم أنهم علىٰ خير ما يرام. وقد ذكر الفقهاء أن الشخص يستحبّ له أن يرمل عند السعي[٣].

٤- مشية الخبب، وهي كمشية الخيل إذا أسرعت في السير.

٥- مشية الخيزلىٰ، وهي مشية فيها تكسّر كمشية النساء.

٦- مشية الهيذبىٰ، وهي التي يهذب فيها[٤]. قال أبو الطيّب في

---

(١) ولمشي المقيد اسماء كثيرة ذكرها صاحب لسان العرب؛ فمنها الكردمة ٦: ١٩٦ ـ الكروس، الكرفسة ٦: ١٩٦ ـ كرفس، والحصحصة ٧: ١٦ ـ حصص، والرسيف ٩: ١١٨ ـ رسف، والطابقة ١٠: ٢١٣ ـ طبق، والحجل ١١: ١٤٤ ـ حجل، والتأملة ١١: ٦٨٠ ـ تأمل، وذكر صاحب القاموس المحيط: ٢٤٥ ـ كرسي أن منها الكربسة.

(٢) منتخب مسند عبيد بن حميد: ٢١٩ / ٦٥٥.

(٣) النهاية (الطوسي): ٢٤٥، السرائر ١: ٥٧٨، المجموع ٨: ٤٢ ـ ٤٣، روضة الطالبين: ٣٦٧ـ ٣٦٨.

(٤) وهو ضرب من مشي الخيل، اسم من (هذب يهذب) إذا أسرع في السير، ويأتي بالدال بدل الذال. تاج العروس ١: ٥١٣ ـ هذب.

مقصورته:

ألا كــلّ مــاشية الخـيزلى فــداء لمــاشية الهـيذبى

فمشية الخيزلى مشية تتكسّر كمشية النساء، وهو ما يحاول أن يتظاهر به بعض الشباب الذين حينما تنظر إليهم تبكي الرجولة الضائعة عنده، وكأنه قد نسي أنه يجب عليه أن يجعل نفسه فيما أعطاه الله من صفات لا فيما أعطى المرأة منها؛ وقد قال رسول الله ﷺ: «لعن الله المتشبّهات من النساء بالرجال ولعن الله المتشبّهين من الرجال بالنساء»(١).

فكما نجد ذلك عن الرجال نجده عند النساء اللواتي يرتدين البناطيل ويركضن أمام الرجال في المنتديات والشوارع، فأين العفّة أيتها المرأة المسلمة؟ أنسيتِ أن جمالك في عفافك لا في مظهرك؟

وهاتان الكلمتان الواردتان في مقصورة المتنبّي إنما وردتا في أروع قصيدة، وصاحبها لا تنكر شاعريّته، لكن ببالغ الأسف أقول: إننا لا نكرّم أُدباءنا ولا نضعهم في مواضعهم التي تليق بهم؛ مما يضطرّهم ويلجئهم إلى التكسّب بالمدح، فبمدحهم الجبابرة يحصلون على لقمة عيشهم، أما لو ترفّع عن المدح فإنه لا يحصل على لقمة الخبز أبداً، ورحم الله القائل:

وما عكفت بقرباني على صنم أكرمت شعري لأهل البيت قربانا

فالعلم والأدب حريّان بأن يكرما.

فكلّ نوع من أنواع المشي يدلّ على شيء كما يقول بيير ووسل، كدلالته على الشيخوخة أو الرجولة أو الأنوثة أو على قضايا فسلجيّة أو

---

(١) الكافي ٥: ٥٥٢ / ٤، مسند أحمد ١: ٣٣٩.

نفسيّة.

ابن القيّم يقسم المشي إلى عشرة أقسام

وهذا ليس بجديد على تاريخنا؛ فقد تعرّض له علماؤنا في مؤلّفاتهم، فابن قيّم الجوزيّة في كتابه (زاد المعاد)[1] يقسم المشي إلى عشرة أقسام، وكلّ قسم له دلالته الخاصّة، ومنها الاختيال، وهو منهي عنه إلّا في الحرب، رأى الرسول ﷺ أبا دجانة الأنصاري في إحدى المعارك يختال بمشيته، فقال: «إنها لمشية يبغضها الله ورسوله إلّا عند القتال في سبيل الله»[2]. والسبب في محبوبيّتها هنا أنك توحي بها لأعداء الإسلام عدم اكتراثك بهم، وهذا دليل القوّة. قال المعرّي:

سر إن اسطعت في الهواء رويداً	لا اختيالاً على رفات العبادِ
خفف الوطء ما أظنّ أديم الـ	أرض إلّا من هذه الأجسادِ[3]

فأنت بمشيتك الخيلائيّة وتصعير خدّك إنما تدوس على خدود من سبقك إلى رمسه، خدود كريمة دفنت تحت التراب، وكلنا سيذهب إلى التراب. هذه هي الحقيقة المرّة المؤلمة، فالمتكبّر المتعجرف يقال له: لا تمشِ على رؤوس الناس بهذا النوع من الاختيال، بل امشِ رويداً رويداً: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً﴾[4]، وآية أخرى تقول: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾[5].

---

(١) زاد المعاد ١: ١٦٨ ـ ١٦٩.
(٢) الكافي ٥: ٨ / ١٣، شرح نهج البلاغة ١٧: ١١٤.
(٣) سقط الزند: ٩٧٤ ـ ١٩٧٥، شرح نهج البلاغة ١١: ١٤٨ ـ ١٤٩.
(٤) الفرقان: ٦٣. (٥) لقمان: ١٩.

إذن الاختيال هو عبارة عن المشي الذي يعبّر عن تيه وصلف وتكبّر، والمفسّرون يربطون بين عقب الآية وصدرها، ويقولون: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾[١] يعني أنه تعالىٰ أمر بمعاملة الجار باللطف والإنسانيّة ونهىٰ عن أن يكون المرء مختالاً فخوراً متكبّراً علىٰ الناس ومنهم جاره.

المبحث الرابع: الجوار جواران: عفوي ومتعمّل

وبعد الإلمام بمكارم الأخلاق في الآية نرجع إلى الجوار: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ ما معناه؟ الجوار جواران: جوار عفوي، وجوار فيه تعمّل.

فالجوار العفوي أن يأتي أحد ويشتري بيتاً بجانبي فيصير بذلك جاري، أو يشتري قطعة أرض بجانب أحد فيصير جاره، فتترتّب له وعليه حقوق الجوار.

أما الجوار الذي فيه تعمل فهو أن يستجير بك أحد فيقول لك: أنا مطلوب أو معرّض لخطر وبيتك فيه أمان لي. وهذا المعنىٰ يضمنه الإسلام حتىٰ للمشركين: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾[٢] فحتّىٰ لو كان هناك مشرك يستجير بالمسلمين فإنه يتعيّن على المسلمين أن يجيروه ويوفّروا له الأمان ويدعوه إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة[٣]؛ فإن قبل فبها وإن لم يقبل فلا يُساء إليه وإنما يُخرج للمكان الذي يأمن فيه[٤]. فالمشرك إذا طلب أن يجار فإنه يُجار، فما بالك

---

(١) النساء: ٣٦. (٢) التوبة: ٦.

(٣) قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾. النحل: ١٢٥.

(٤) ومن مفارقات التاريخ وعجائبه أن الخوارج كانوا يجيرون المشركين ولا يجيرون المسلمين. ففي (الكامل) للمبرّد أنّ أبا حذيفة واصل بن عطاء، رأس المعتزلة أقبل في رفقة

بمسلم يطلب أن يجار؟ فهذا يجب أن يجار بطريق الأولويّة. وهذا المعنىٰ عريق في حضارتنا وليس بجديد، فتأريخنا مليء بالمفاخر، والذين يستجار بهم يموتون دون المستجير هم وأطفالهم وعيالهم، ويضحّون بأموالهم، وهذه كانت سيرتهم، وهو خلق في صميم تاريخ العرب ونفوسهم[١]. فحماية الجار من الأُمور الاجتماعيّة المتعارفة عند

من أصحابه، فأحسّوا في الطريق بجماعة من الخوارج، وكانوا يعترضون من يمرُّ بهم، فإن كان غير مسلم تركوه واستوصوا به خيراً، وإن كان مسلماً سألوه عن رأيه في أشياء منها عليّ ابن أبي طالب عليه السلام، فإن أحسن فيه القول قتلوه، كما قتلوا عبدالله بن خبّاب بن الأرتّ رضي الله عنه.
فقال واصل: دعوني وإيّاهم. فقالوا: شأنك. فخرجوا إليه يسألونه: ما أنتم؟ يستفهمون عن دينهم، فقال: مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام الله. فقالوا: قد أجرناكم. قال: فعلّمونا.
فجعلوا يعلّمونه أحكامهم، وجعل يقول: قد قبلت أنا ومن معي. قالوا: فامضوا مصاحبين ـ أي بسلام منّا وأمان ـ فإنّكم إخواننا. قال: ليس ذلك لكم؛ إنّ الله تعالىٰ يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾، فأبلغونا مأمننا. فقالوا: ذلك لكم. ثمّ ساروا معهم حتّىٰ بلغوا بهم مأمنهم. الكامل في اللغة والأدب ٢: ١٤٢.
انظر رائق الضمير ١: ٤١٤، ٢: ٢٠٦.

(١) ومن ذلك ما ورد في حديث ذي قار، وهو أن كسرى لما غضب على النعمان بن المنذر بسبب عدي بن زيد وزيد ابنه وضع النعمان وضائع له عند أحياء العرب، واستودع ودائع عندهم، فوضع أهله وسلاحه عند هانئ بن قبيصة بن هانئ بن مسعود الشيباني، وتجمّعت العرب مثل بني عبس وشيبان وغيرهم وأرادوا الخروج على كسرى، فأتى رسول كسرى بالأمان للنعمان، فخرج النعمان معه حتى أتى المدائن، فأمر به كسرى فحبس بساباط حتّى مات بالطاعون، وقيل: طرحه بين أرجل الفيلة فداسته حتى مات. ثم قيل لكسرى: إنه وضع ماله وبيته عند هانئ بن قبيصة الشيباني، فبعث إليه كسرى: إن أموال النعمان عندك، فابعث بها إليّ. فبعث إليه أن ليس عندي مال له. فعاوده كسرى فقال: هي أمانة عندي ولست مسلّمها إليك أبداً. فبعث كسرى إليه بجيش كبير، فاجتمعت العرب عند هانئ بن قبيصة، وأشاروا عليه أن يفرّق دروع النعمان على قومه وعلى العرب، فقال: هي أمانة. فقيل له: إن ظفر بك العجم أخذوها هي وغيرها، وإن ظفرت أنت بهم رددتها على عادتها. ففرّقها على قومه وغيرهم، وكانت سبعة آلاف درع.
وعبّأ بنو شيبان تعبئة الفرس، ونزلوا أرض ذي قار، ووقعت بينهم الحرب، وانهزمت الفرس

العرب، بل إنه حتّى الذي يعيش بين أظهرهم يتخلّق بأخلاقهم، يقول السموأل:

تعيّرنا أنّا قليل عديدنا ... فقلت لها إن الكرام قليلُ

وما ضرّنا أنا قليل وجارنا ... عزيز وجار الأكثرين ذليلُ

إذا المرء لم يُدنس من اللؤم عرضه ... فكلّ رداء يرتديه جميلُ

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها ... فليس إلىٰ حسن الثناء سبيلُ

إذن، الجوار معنىً عريق في حضارتنا، وعندما جاء الإسلام أكّد هذا

وكانت وقعة ذي قار المشهور في التاريخ أنها يوم ولادة رسول الله صلى الله عليه وآله.
قال أبو تمّام يمدح أبا دلف العجلي:

إذا افتخرت يوماً تميم بقوسها ... وزادت على ما وطّدت من مناقبِ

فأنتم بذي قار أمالت سيوفكم ... عروش الذين استرهنوا قوس حاجبِ

معجم البلدان ٤: ٢٩٣ ـ ٢٩٤. والقوس المشار إليه في البيت الأول هو قوس حاجب، وقصته أن القحط توالىٰ علىٰ مرابع مضر سبع سنين، حتّىٰ كادوا يهلكون، فلمّا رأىٰ حاجب بن زرارة سيِّد تميم ذلك رحل إلىٰ كسرىٰ، وطلب منه أن يأذن لهم بأن ينزلوا في الريف من حدود بلاده، حتّىٰ يعيشوا وتحيا مواشيهم، فقال له: إنكم ـ معشر العرب ـ غُدُر، حرصاء على الفساد، فإن أذنت لكم أفسدتم البلاد وأغرتم على الرعيّة وآذيتموهم. فقال له: إني ضامن للملك ألّا يفعلوا ذلك. قال: ومن لي بأن تفي بما قلت؟ قال: أرهنك قوسي بالوفاء. فقبل منه. فلمّا جاء حاجب بقوسه، ورآه الأعاجم ضحكوا، وقالوا: بهذه العصا تفي للملك؟ فقال لهم كسرىٰ: ما كان ليسلمها لشيء أبداً. وأمرهم، فقبضوها منه، وأذن للعرب في أن يدخلوا الريف، ومكثوا في الريف مدّة. ثمّ مات حاجب، وبعدها زال القحط، وخرج أصحاب حاجب إلىٰ باديتهم، فجاء عطارد بن حاجب إلىٰ كسرىٰ، ليطلب قوس أبيه، فلمّا كلّمه في القوس، قال له: ما أنت بالّذي رهنتها عندي. قال: أجل أيُّها الملك. إنه قد هلك وأنا ولده، وقد وفىٰ لك بما ضمن عن قومه. فأمر كسرىٰ بردّها عليه.

العقد الفريد ٢: ١٩٣ ـ ١٩٤، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٣١، قصص العرب ١: ٨ ـ ٩ / ١. وفي هذه القصّة يقول بعضهم:

وأقسَمَ كُسرىٰ لا يسامحُ واحداً ... من الناسِ حتّىٰ يرهَنَ القوسَ حاجبُ

شرح نهج البلاغة ١٥: ١٢٨، ١٣٠، وانظر رائق الضمير ٢: ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

المعنىٰ وركّزه في النفوس، وأعطىٰ للجار حقوقاً كثيرة. وانطلاقاً من هذا المعنىٰ نلاحظ أن مسلم بن عقيل لما دخل إلى الكوفة ذهب إلىٰ بيت المختار بن أبي عبيد ونزل عنده، وعندما اشتدّت الأزمة وبدأ الوضع يصل إلىٰ مرحلة الجدّ، رأىٰ أن المكان غير مناسب فذهب إلىٰ دار هاني بن عروة، فكان أن أحسن جيرته وضيافته. وهانئ صحابيّ وقد عُمّر (٨٩) سنة، وكان من أصحاب أمير المؤمنين ﷺ في غزواته وحروبه، وهو يزار اليوم كما يزار باقي الشهداء، وله زيارة خاصّة ضمن أعمال مسجد الكوفة؛ ممّا يدلّ علىٰ أن له موضع رضا واعتزاز عند أهل البيت ﷺ، والحسين ﷺ ترحّم عليه ثلاثاً عندما بلغه مصرعه. وكان رئيس مراد، وهي قبيلة من القبائل الضخمة في الكوفة، وهم لم يتخلّوا عنه، لكن المصيبة أن شريحاً القاضي قد خدعهم، فهم عندما سمعوا بخبره حاصروا القصر، وجاء عمرو ابن الحجاج ـ وعنده ابنته رويحة زوجة هاني ـ وقال له: هذه شيوخ ورؤوساء مذحج، ونحن لم نترك جماعة ولم نخلع يداً عن طاعة، وقد بلغنا أن صاحبنا قتل. فالتفت عبيد الله بن زياد إلىٰ شريح وقال له: اذهب إليه...[1] القصّة.

الإيمان قيد الفتك

ومنذ دخل عبيد الله بن زياد إلى الكوفة أخذ في مراقبة هاني، وعرف أنه لا يختلف إلىٰ المجلس، فقال: مالي لا أرىٰ هانئاً؟ حيث كان هاني منشغلاً هو وبعض من أصحابه في مبايعة مسلم وشراء الأسلحة والتهيؤ لقتال الأمويّين، وكان عنده شريك بن الأعور الهمداني وقد جاء من البصرة

---

(١) انظر مثير الأحزان: ٢٣.

مع عبيد الله بن زياد، فمرض فنزل في دار هاني بن عروة أيّاماً، ثم قال لمسلم: إن عبيد الله يعودني وإني مطاوله الحديث فاخرج إليه بسيفك فاقتله وعلامتك أن أقول: اسقوني ماء. ونهاه هاني عن ذلك.

فقالوا له: إنه مريض وبه وعكة، فقال: أنا أذهب إليه. فقالوا له: إن شريكاً مريض. فقال أعود شريكاً وهانئاً. فذهب ليعودهما، فلما دخل عبيد الله على شريك وسأله عن وجعه وطال سؤاله، رأى أن أحداً لا يخرج، فخشي أن يفوته، فأخذ يقول:

ما الانتظار لسلمى ان يحيبيها كأس المنية بالتعجيل اسقوها[1]

فكان شريك يتصوّر أن هذه فرصة يضرب بها مسلم عنق ابن زياد، لكن هذا الأُسلوب يرفضه أهل البيت عليهم السلام فليس أُسلوب الرجال الغدر والطعن في الظهر بل هو أُسلوب الجبناء الذي يأبونه عليهم السلام. قيل للإمام علي عليه السلام: إنك تشتري درعاً للصدر فقط، وليس درعاً كاملاً، أفلا تخاف أحداً أن يطعنك من الوراء؟ قال: «إذا مكّنت عدوّي من ظهري فلا أبقى الله عليه إن أبقى عليّ»[2].

فأنا أُواجهه وجهاً لوجه ولا أهرب من أحد، ولا أتبع هارباً؛ ولذا احتجّ مسلم بقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «الإيمان قيّد الفتك»[3]، حينما طلب منه قتل عبيد الله غدراً. وكان أن خرج مسلم قبل الموعد المحدّد للنهضة بسبب الظروف التي مرّ بها؛ لأنه التفت وراءه بعد الصلاة فوجد خلفه ثلاثمئة

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٤٢، مثير الأحزان: ٢٠.

(٢) المستطرف في كلّ فن مستظرف ١: ٤٧٣.

(٣) تهذيب الأحكام ١٠: ٢١٤ / ٨٤٥، مسند أحمد ١: ١٦٦، مقاتل الطالبيّين: ٦٥.

شخص لا تربطه بهم رابطة عقد بيعة. ونحن لا نلقي باللوم على عواتق قوم لم يفعلوا شيئاً.

مصرع مسلم بن عقيل

على أيّة حال قبض على مسلم في نهاية المطاف في دار طوعة وجيء به إلى عبيد الله بن زياد، فدخل ساكتاً، فقال له الحرس: سلّم على الأمير. فقال له: اسكت ويحك، ما هو لي بأمير. فالتفت إليه عبيد الله وقال له: سلّمت أم لم تسلم فأنت مقتول. فقال له مسلم: وإني لأرجو أن يرزقني الله الشهادة على يدي شرّ خلقه؛ فإنك لا تدع سوء القتلة وقبح المثلة ولؤم وخبث الطويّة لأحد أولى بها منك. فقال له: ياعاقّ ياشاقّ، أتيت فخرجت على طاعة إمامك وألقحت الفتنة. فقال له: الفتنة ألقحها أبوك عبد بني علاج، والذي شقّ عصا المسلمين معاوية وابنه يزيد. فقال له: منّتك نفسك أمراً حال الله بينك وبينه وجعله لأهله. قال: ومن أهله؟ قال: أهله أمير المؤمنين يزيد. قال: رضينا بالله حكماً بيننا وبينكم. قال: أوتظن أن لك في الأمر شيئاً؟ قال: ما هو بظنّ، ولكنه اليقين.

فأخذ يشتم مسلم بن عقيل ويبهته، فقال له مسلم: ياعدوّ الله اقض ما أنت قاض. فأمر عبيد الله (لع) بكر بن حمدان أن يصعد به أعلى القصر ويرميه من فوقه. وكان مسلم موثق اليدين، فطلب منه أن يمهله حتّى يصلّي ركعتين، فصلّاهما ثم توجّه إلى زرود ـ وكان فيها الحسين وآل عقيل ـ وصاح: السلام عليك يا أبا عبد الله، إن ابن عمّك بين أيدي القوم. يقول المؤرّخون إن الحسين قام وقال: «وعليك السلام ياغريب كوفان». ثم ضُرب بالسيف فلم تعمل الضربة فيه، ثم ضرب ثانية فسقط رأسه عن بدنه وأُلقي ببدنه من أعلى القصر:

المكدر كضه وضاعت اخباره رموه الكوم من كصر الأماره

هاني انچتل بعده وبكت داره مظلمه ولا بعد واحد يصلها

وكان آخر عهد الحسين عليه السلام به أن جاء أعرابي إلى خباء علي الأكبر، وهم في الطريق، فسأله: ماذا تريد؟ قال: أُريد خباء الحسين. ثم أقبل به إلى الحسين عليه السلام، وكان جالساً بين آل عقيل، قال: أبا عبد الله، إن عندي لخبراً، إن أحببت أن أُحدّثك به سرّاً، وإلّا جهراً. فقال الحسين عليه السلام: «ما دون هؤلاء سرّ». قال: أبا عبد الله، عظّم الله لك الأجر بمسلم، لقد خلّفته يجرّ في الأسواق، وينادىٰ عليه: هذا جزاء من عصى الأمير. فقام الإمام مختنقاً بعبرته، فتلقّته يتيمة لمسلم وتعلّقت بثيابه:

يا بويه عن الأهل وينك حال البعد بيني وبينك

من غبت لسّه ناطرينك ما غفت عيني وحگ عينك

* * *

لم يُبكِها عدم الوثوق بعمّها كلّا ولا الوجد المبرّح فيها

الفصل السادس عشر

أعلام ﷺ



أعلام الأنبياء عليهم السلام

﴿ ٦٤ ﴾

النبي إبراهيم الخليل عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: العوامل التي ساعدت على جعل إبراهيم عليه السلام إماماً

النبي إبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء، ويحتل مكانةً مهمة عند الشعوب كافّة، والقرآن الكريم دعا العرب إلى أن يسيروا على منهج النبي إبراهيم الخليل عليه السلام. وهنك عدّة عوامل مساعدة على تحقيق هذه الدعوة التي دعاهم إليها القرآن الكريم منها:

١ ـ أن إبراهيم عليه السلام هو جدّ العرب من جهة انتمائهم الى اسماعيل عليه السلام، وهو ابن إبراهيم عليه السلام؛ فهو أبوهم من هذه الناحية.

٢ ـ أن إبراهيم عليه السلام هو الذي بنى الكعبة، وهي مجد العرب الأوّل. وكانت العرب عامّة وقريش خاصّة تأخذ مكانة متميّزة بفضل سدانة الكعبة، فالقوافل التجارية التي كانت تعبر الطرق سواء للجنوب أو للشمال مثلاً

---

(١) النحل: ١٢٠.

كانت تتعرّض للنهب والسلب والاعتداء عدا قوافل العرب، فقد كانوا يعتبرونهم سكان بيت الله، ويحترمونهم من أجل الكعبة، فهم يكرمونهم لأنهم سدنة الكعبة.

فالقرآن الكريم أراد أن يوظّف هذين العاملين في خدمة الدعوة، فذكّرهم بأنهم ينتمون إلى إبراهيم عليه السلام، وإبراهيم هو باني البيت، فينبغي لهم أن يكونوا على منهجه، خصوصاً أن العرب كان عندهم هذا الاتّجاه، فكانوا عندما يُدعون إلى دين جديد فإنهم يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾[1].

وهذا اللون من التقليد كان موجوداً عندهم؛ ولهذا السبب ذكّرتهم الآية الكريمة بأبيهم الأوّل.

المبحث الثاني: معنى الأمّة

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾، فما معنى ﴿كَانَ أُمَّةً﴾؟ الأُمّة هي الجماعة من الناس قلّوا أو كثروا[2] وتأويل الأُمّة بخلاف ذلك جهل؛ ولذلك حاولت بعض الأقلام ذات الأهداف غير السليمة أن تتّهم الشيعة بأنهم يشتمون العرب، لأنهم يخاطبون الحسين عليه السلام في زيارتهم له بقولهم: «لعن الله أُمّة قتلتك»[3]. وهذا مردود من جهتين:

الأولى: أن الأُمّة هي الجماعة قلت أو كثرت[4].

الثانية: أن الإمام الحسين عليه السلام هو من العرب، وعندما يشتمون العرب

(١) الزخرف: ٢٢.

(٢) الصحاح ٥: ١٨٦٤ ـ أمم، لسان العرب ١٢: ٢٨ ـ أمم.

(٣) مصباح المتهجّد: ٤٠٢، ٧٢١، وفيها: «فلعن»، ٧٢٢.

(٤) الصحاح ٥: ١٨٦٤ ـ أمم.

فذلك يعني أنهم يشتمون الإمام الحسين عليه السلام نفسه.

فالواقع أن الأمّة هي الجماعة، يقال: جاءت أُمّة من الناس، أي جماعة من الناس، وقد تطلق ويراد بها الشعب. إذن ما معنىٰ أن إبراهيم عليه السلام كان أُمّة؟ مع أن إبراهيم شخص واحد؟ وما هو المعنىٰ الذي يريده القرآن الكريم من ذلك حينما يقول: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾؟ هذا المقطع من الآية فيه ثلاثة آراء:

الرأي الأوّل: أنه كان يدعو إلى البر والخير

فالذي يدعو إلى البر والخير يسمى أُمّة[1]، قال عبد الله بن مسعود: رحم الله معاذاً، إنه كان أُمّة. فقالوا له: لماذا؟ قال: إنه كان يدعو إلى الخير والبر، والذي يتصف بهذه الصفة يقال عنه: إنه أُمّة[2].

وقد يقول قائل: إن الأنبياء كلّهم يدعون إلى الخير، ويدعون إلى البر، فلماذا تميز إبراهيم عليه السلام بهذا المعنىٰ، والحال أنه لا يوجد نبي لم يدعُ إلى الخير أو إلى البر؟ إن هذا يقتضي أن يسمىٰ كلّ نبي أُمّة، فلماذا اقتصرت هذه التسمية علىٰ إبراهيم عليه السلام؟

في الواقع أن إبراهيم عليه السلام تفرّد بأُمور كثيرة؛ فهو أوّل من أسّس الضيافة، وأوّل من أسّس رعاية من يفد إلى بيت الله الحرام، إلى غير ذلك من أشياء تميز بها أكثر من غيره لدعوته إلى البر والخير؛ فلذلك عبر عنه بأنه أُمّة.

وهنا يرد سؤال: ما العلاقة بين البر والخير وبين تسمية فاعلهما أُمّة؟

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٢: ٣٣٤ ـ سبط، لسان العرب ٧: ٣٠١ ـ سبط.

(٢) المستدرك علىٰ الصحيحين ٢: ٣٥٨، ٣: ٢١٧، وقال ابن الأثير ـ بعد أن نقل قوله ﷺ: «الحسين سبط من الأسباط» ـ ما نصّه: «أي أُمّة من الأمم في الخير». انظر الهامش السابق.

العلاقة هي أنه ﷺ كان يحمل هموم أمّة، يحمل همّ الجائع، وهمّ صاحب الحاجة وهمّ المنقطع.. كان ﷺ يحمل هموم الأمّة وتطلّعاتها؛ ولذلك عُبّر عنه بأنه أمّة؛ لوجود هذه العلاقة. فآلام الأمة وآمالها هو من كان يجسدها، بما حملت من هموم، وتطلعات. وهناك في التاريخ أشخاص من هذا النوع مع أن أغلب الناس يعيشون لأنفسهم لا لغيرهم كما هو حال الأنبياء عليهم السلام، يقول أحد الشعراء:

إذا مت ظمآناً فلا نزل القطر[1]

أي أن المهم أن أعيش أنا، ولا يهمني غيري. فهذا نمط يعيش لنفسه، وهناك نمط آخر يعيش لغيره، ولهذا يقول المفسرون عن النبي ﷺ عندما يأتون إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾[2]، يقولون: كلّ نفس تجادل عن نفسها ماعدا رسول الله ﷺ، فكلّ واحد ينادي: نفسي، إلّا النبي ﷺ، فإنه ينادي: «أمّتي»[3]، فيحمل هموم أمّة، وآلام أمّة، وتطلّعات أمّة. فهؤلاء في واقع الأمر لولا هذا العبء الذي يحملونه في أنفسهم لعاشوا عيشة في غاية الراحة والدعة، فمثلاً: رأيت أحد المؤرخين يقول: ما الذي أخرج الإمام الحسين عليه السلام؟ ولماذا عرض نفسه للإبادة؟ وهذا المتسائل من النوع الذي يعيش لنفسه، أمّا الإمام الحسين عليه السلام فهو من النوع الذي يعيش لأمّة، ويعيش لمجتمع،

---

(١) عجز بيت لأبي فراس، وصدره:

معللتي بالوصل والموت دونه

ديوان أبي فراس: ١٥٧.

(٢) النحل: ١١١.

(٣) تفسير القمي ٢: ٤٢١، بحار الأنوار ٨: ٦٥ / ٢.

يحمل هموم مجتمع، وتطلّعات مجتمع، فلا تستطيع أن تساويه مع الشخص الذي يعيش لنفسه. فالتعبير عنه بأنه أمّة لأنه يمثل آلام الأمّة وآمالها وتطلّعاتها.

الرأي الثاني: أن شرعيته تستمدّ من الأمّة

أي أن روح الأُمّة تجسدت به، وعليه فيكون الخروج على طاعته خروجاً على الأمّة. وهذه النظرية تختلف عن النظرية الأُولىٰ، وهي موجودة حتىٰ عند الشعوب الأوروبية، فمثلاً «هيگل» أُستاذ «كارل ماركس» عندما يمر بتأريخ ملك بروسيا يقول: هذا يمثل الأُمّة فرداً فرداً، فإذا خرج أحد الأفراد على طاعته فكأنما خرج على الأمّة بكاملها. وقد ألّف كتاباً أسماه (الروح الشعبية) يقول فيه: «الروح الشعبية تجسّدت في هذا الرجل، فأصبح الشخص الواحد إذا غلط وخرج عليه فكأنما خرج على الأمّة».

وهذا المعنىٰ ـ أن الأُمّة كلّها متمثلة في إبراهيم ﷺ، والخروج عليه خروج على الأمّة ـ غير سليم؛ فنحن لا نستمدّ للأنبياء منزلتهم من إرادة الأُمّة.. هذه الإرادة التي يتغنّون بها دائماً، فيقول لك أحدهم: إن هذا الواقع يمثّل إرادة الأمّة، أو: هذا يمثّل خلاصة مطلب الشعب، وحينما تأتي إلى الشعب تجده لا يعرف هذا الكلام كله، فهو مسكين يباع ويشترىٰ، ولا يشعر بنفسه إطلاقاً. فالواقع أن هذا اللون من الكلام ـ شرعية الأنبياء ﷺ تُستمدّ من الأمّة ـ هو مغالطة، فنحن لا نلتمس مصدر الشرعية للنبي من الناس بل نلتمسه من السماء؛ لأن الناس في واقع الأمر أغلبهم لا يعرف منفعته من ضرره.

نظريتان في مصدر شرعية الخلافة

نعم، نشترط في الإمام العصمة والعدالة وأن يراعي مصالح الطبقات بأجمعها، نشترط هذا، لكن ليس معناه أن يستمدّ شرعيّته من الأُمّة، وهذا يجرّنا إلى الكلام حول الخلافة فنقول: هناك نظريتان فيها:

النظرية الأولى: الجعل والتعيين

وهي تنصّ على أن الخليفة يستمدّ شرعية وجوده من اللّه: ﴿إنّي جَاعِلٌ فِي الأرْضِ خَلِيفَةً﴾[١]، ﴿إنّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إمَاماً﴾[٢]. وهذه النظرية هي التي عليها الإمامية[٣] وعليها مجموعة من المسلمين القائلين: إن تعيينه من قبل السماء.

النظرية الثانية: الشورى

أي أن السماء لم تتدخل في مسألة الخلافة بل تركتها للمسلمين: ﴿وَأمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾[٤]، فهم يختارون الذي يصلح لهم.

نقد نظرية الشورى

وأول شيء يرد على هذه النظرية تساؤل مفاده: ما مبلغ علم هذا الفرد الجاهل بما يصلح له وما لا يصلح؟ وما مقدار معرفته؟ وما مقدار قدراته الذهنية والعقلية حتى يقدّر أن هذا صح وهذا خطأ؟ ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ﴾[٥]، فالآية صريحة؛ لأنها راعت أدنى مستوى، وهو من لا يملك من العلم شيئاً يعتدّ به.

---

(١) البقرة: ٣٠. (٢) البقرة: ١٢٤.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢١٠، بحار الأنوار ٤٩: ٢٠٣.

(٤) الشورى: ٣٨. (٥) القصص ٦٨.

ثمّ إننا نقول لصاحب هذا الرأي: إنك تستند إلى الشورى، أو الأمّة، لكن ما هو أدنى عدد لهذه الأُمّة التي تمثّل المجتمع، أو التي تصلح لانتخاب الخليفة؟ وما هي قابلياتهم؟ في أوروبا التي يسمونها أم الحريات أو في غير أوروبا إذا حصل انتخاب، فإن قسماً من المرشحين يعمل الولائم، فيأتي الناخب ليملأ بطنه، وقسماً يفرّق شيئاً من الدولارات فيأخذها الناخب، ثم ينتخب وينتهي الأمر. ونحن نسأل هذا السؤال: ما هو أدنى عدد لهذه الأُمّة التي تنتخب؟ فيأتي الجواب: أهل الحل والعقد. ثم نسأل: كم عدد هؤلاء؟ فيقال: يكفي واحد. أي أنك إذا جاءك أحد وأنت تمشي في الطريق وقال لك: بايعتك إماماً، فقد وجبت طاعتك على الناس كافّة! هل هذا كلام يقرّه العقل؟ الإنسان له عقل، وعليه أن يحترم عقله.

وعليه فإن هؤلاء الذين يقولون: إن إبراهيم ﷺ كان أُمّة، بمعنى أنه تجسّدت فيه روح الأمة، وأن الخروج على طاعته خروج على الأُمّة فإنما يجعلون شرعيّته مستمدة من الأُمّة، ونقول لهم: لا، ليس كذلك بل إن شرعيته مستمدّة من الله عز وجل، وهو الذي خلق الخلق ويعرف عباده، ويعرف من يصلح للنبوّة ومن لا يصلح.

إذن هذا الرأي لا سبيل إلى قبوله والأخذ به.

الرأي الثالث: أنه يشتمل على ماتشتمل عليه أمّة من المعارف وغيرها

وهو رأي مهم، ذلك أننا يمكن أن نقول: إن هناك رجلاً يعدّ برجل واحد، أي أنه بحجم رجل واحد، ليس فيه نقص ولا زيادة، فهو يمثل نفسه، وهناك رجلاً يساوي أُمّة، بمعنى قول الشاعر:

ليس على الله بمستنكرٍ   أن يجمع العالم في واحدِ[١]

فتراه في البطولة بطلاً، وفي الكرم معطاءً، وفي العلم نافذاً، وفي الأخلاق على جانب عالٍ. وهذه الصفات المجموعة فيه صفات متفرّقة في أُمّة، فيصبح واحداً يعادل أُمّة. يقول أحد الشعراء:

كل عضوٍ بالروع منه جموع

فهذا يمثل أُمّة؛ كون حجمه أكبر من حجم رجل واحد. أليس يقال في تاريخنا قديماً: إن فلاناً يعدّ بألف فارس؟ فهذا من قبيل هذا المعنىٰ. فكلمة أُمّة هنا تعني أن هذه الصفات لو وزّعت على أُمّة فإنها تكفيها.

وهناك رجل بالاسم فقط؛ إذ ليس له ميزة من المزايا، وهؤلاء أينما وجدوا وجد الطغاة، وحيث يوجد هؤلاء يوجد البغي والظلم، وإلّا فالرجال الرجال لا يسمحون للطغيان أن ينمو أبداً.

إذن عرفنا ما معنى الآية القرآنية: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾، وأنه يعني أن ما كان يحمله من الخِلال والقيم والمزايا لو وزع علىٰ أُمّة لكفاها.

شروط الإمامة

وفعلاً كان عليه السلام كذلك فيما يحمل من قيم وأخلاق وبطولات. وهذا المعنىٰ هو الذي يذهب إليه الكثير من المحقّقين، وهو سليم ووجيه. ولذلك يشترطون في الإمام شروطاً هي أن يكون أعلم الناس وأعدلهم وأورعهم، مع أن بعض الناس يقولون: من أين لكم هذا؟ إنّ هذا إلّا كلام خيالي.

---

(١) البيت لأبي نؤاس. تاريخ بغداد ٤: ٣٦٧، شرح نهج البلاغة ٧: ٢٠٣، مختصر المعاني: ٣٠٦.

والجواب: أننا لا نعطي الإمام شيئاً فوق مستوىٰ الطبيعة البشريّة، وهذا الغلط يوجد عند بعض الكتاب، فيتهموننا بأننا نغالي، والحال أننا لا نغالي أبداً، لكن لا نُنقص الإنسانية حقّاً من حقوقها. فالإنسانية فيها قابلية للسمو الذي لا حدود له، انظر إلى هذا الإنسان العادي، تجد أن من الممكن أن يصير بمستوىٰ أكبر من مستوىٰ الملائكة، ومن الممكن أن يكون بمستوىٰ أحطّ من مستوىٰ الشيطان؛ فهو يمتلك قابلية للهبوط وللارتفاع. ونحن إنما نقول في الإمام ما هو في حدود الطبيعة البشرية، أما إذا خرج ما يقال فيه عن الطبيعة البشرية فهنا يصبح غلوّاً، ونحن نرفض الغلوّ والغلاة، فالمغالي لا نزوّجه، ولا نغسله ولا ندفنه إذا مات[1]، بل نحن نخرج الغلاة من حضيرة الإسلام[2]. فنحن لا نغالي في الأيمّة، ولا نعطيهم إلّا ما تتّسع له طبيعتهم البشرية في أرقىٰ صورها؛ إذ أن الإمام في الذروة، وهو بشر في الذروة، فإن أعطاه أحد صفات غلوّ فإننا نأباها ونرفضها أشدّ الرفض، وقد مرّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في شهر رمضان، فرأىٰ جماعة جالسين يأكلون، فقال لهم: «أنتم علىٰ سفر فتستعملون هذه الرخصة؟». قالوا: لا. قال لهم: «مرضىٰ؟». قالوا: لا. قال: «لماذا تأكلون في شهر رمضان؟». فقالوا له: أنت.. أنت. فقال: «من أنا؟». قالوا: أنت إله (والعياذ بالله). فنزل الإمام من علىٰ راحلته، ومرّغ خدّه علىٰ التراب، وقال لهم: «أنا عبد من عبيد الله، والله إن لم ترتدعوا لأضرمن

---

(١) البيان: ٢٤، ٢٨، ذخيرة المعاد ٢: ٣٢٧ (حجري).

(٢) المعتبر شرح المختصر ١: ١٩٨، منتهىٰ المطلب ١: ١٥٢، بل إن بعض فقهائنا يحكمون بنجاستهم، انظر: شرائع الإسلام ١: ١١ ـ ١٢، إيضاح الفوائد ١: ٢٦، وبعدم جواز أكل ما يذكّون، انظر: قواعد الأحكام ٣: ٣١٨، إيضاح الفوائد ٤: ١٢٧، وبعدم توريثهم، انظر تحرير الأحكام ٢: ١٧١ (حجري).

عليكم ناراً»[١].

وكان الإمام الصادق عليه السلام يجلس في مجلسه ويلعن أبا الخطاب ويتبرّأ منه[٢]؛ لأن هذا قد اتّخذ الغلو وسيلة لمنافعه.

وهناك الكثير غيره من الغلاة في تاريخ الأيمّة عليهم السلام، وكانوا عليهم السلام يلعنونهم في مجالسهم ويتبرؤون منهم، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «والله ما نحن إلّا عبيد الذي خلقنا»[٣]. أي نحن ناس عبيد، لكن نزهونا عن النواقص، ولا تصعدوا بنا إلى أكثر من مستوىٰ البشر.

إذن معنى أن إبراهيم عليه السلام كان أُمّةً، أنه كان ذروة بجميع ما تتسع له الطبيعة البشريّة، والله عز وجل يعطي الطبيعة البشرية بما تتسع إليه من مزايا، فهو تعالىٰ يسلّح الإمام أو النبي صلى الله عليه وآله بجميع الإمكانات التي تتّسع لها طبيعته البشرية.

المبحث الثالث: معنى القانت

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿قَانِتاً لِلَّهِ﴾، القانت هو المطيع، فالقنوت: الطاعة، وهو من باب تسمية الشيء باسم لازمه؛ لأن القنوت هو الدوام علىٰ الخشوع، فإذا داوم أحد علىٰ الخشوع فقد اتّسم بسمة من

---

(١) اختيار معرفة الرجال ١: ٢٨٨ / ١٢٨، فتح الباري ٦: ١٠٦، ١٢: ٢٣٨، شرح نهج البلاغة ٥: ٥، ٨: ١٩٩، ولم يذكروا طرف القصة.

(٢) قال الصادق عليه السلام: «ملعون ملعون من أخّر المغرب طلباً لفضلها». فقيل له: إن أهل العراق يؤخّرون المغرب حتى تشتبك النجوم. فقال عليه السلام: «هذا من عمل عدوّ الله أبي الخطّاب». من لايحضره الفقيه ١: ٢٢٠ / ٦٦١.

وقال عليه السلام: «أبرأ إلى الله ممّا قال فيّ الأجدع البراد عبد بني أسد أبو الخطّاب لعنه الله». بحار الأنوار ٢٥: ٢٩٠.

(٣) اختيار معرفة الرجال ٢: ٤١٩ / ٤٠٣، بحار الأنوار ٢٥: ٢٨٩.

سمات الطاعة. ولوجود هذه العلاقة سماه اللّه تعالى قانتاً، يعني: مطيعا للّه عز وجل.

وقد يقول قائل: إن هذا تحصيل حاصل، كما نقول: الشمس مضيئة؛ فنحن عندما نقول: إن إبراهيم مطيع للّه فهذا ليس شيئاً جديداً، فكل واحد مطيع للّه، فما معنى ﴿قَانِتاً لِلَّهِ﴾ إذن؟

والجواب أن يقال هنا: إن اللّه تعالى يريد أن يبين أن طبيعة الأنبياء تتميز بما منحها اللّه عز وجل من لطف عن طبائع سائر الناس بشيء مهم، هو أن طاعة الأنبياء عليهم السلام وعبادتهم لا يخالطها عامل آخر غير عامل العبادة. أما كيف ذلك، فنقول: نحن غالبا ما تتداخل عندنا العوامل في سلوكيّاتنا، فإذا أراد أحدنا أن يسلك سلوكاً معيناً فإنك ترىٰ دوافعه تتداخل، فحينما يدافع عن مظلوم، فلك أن تتساءل عن الهدف، فلو كان لمجرّد الدفاع عن المظلوم فهو فضيلة، لكن ما الشيء الذي يختلط بذلك عنده؟ يختلط عنده عامل النفوذ والقوة به، فهو لا يخلص العمل للّه، ولم يجعل نيّته فيه خالصة له تعالى وحده، وإنما أدخل معها عاملاً ثانياً من غير سنخها.

ثم أليست الرواية تقول بأنه يؤتىٰ يوم القيامة بأحد العلماء البارعين، وهو يقول: يا رب، أنا كتبت وألّفت في سبيل دينك. فيقول له اللّه عز وجل: لا ولا كرامة لك، إنك إنما صنعت ذلك ليكثر خلفك خفق النعال، خذوه إلى النار. ويأتي آخر فيقول: يارب أنا بذلت في سبيلك، وأعطيت وأكرمت ووصلت، وكلّ ما عندي من أموال أعطيتها. فيقول له اللّه تعالى: لا ولا كرامة لك، إنما صنعت ذلك لكي يقال: إنك جواد، خذوه إلى النار. ويأتي ثالث فيقول: يا رب، أنا قد أخذت سيفي وقاتلت

وجرحت، وقتلت في سبيلك. فيقول له الله تعالى: لا ولا كرامة لك؛ لأنك أردت أن يقال لك: إنك شجاع.

أما الأنبياء عليهم السلام فلا يتداخل في سلوكهم عامل إضافي إلى جانب العبادة في أي نمط من أنماط سلوكهم، فكلّ السلوك الذي عندهم سلوك عبادي المقصود به وجه الله:

وما ثمّ إلا اللهُ في كلّ حالةٍ فلا تعتمدْ يوماً على غير لطفِهِ[1]

إذن معنى ﴿قانِتاً﴾: مطيعا لله، وهذه سمة الأنبياء عليهم السلام، وإبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء، فطاعته لا يشوبها عامل من العوامل الأخرى التي يمكن أن تدخل كعامل إضافي في عبادة غيره من الناس لله تبارك وتعالى. ولعل مظهراً من مظاهر الطاعة هو الدعاء، والعلاقة التي بين الدعاء وبين هذه العملية التي نحن نؤديها في الصلاة ـ وهي أن يرفع الإنسان يديه ويدعو في القنوت ـ هي بهذا المعنى.

حكم القنوت والهدف منه

وهذا يجرّنا إلى السؤال التالي: ما حكم القنوت في الصلاة؟

الجواب: عند بعض المذاهب الإسلامية وهم الأحناف[2] والحنابلة[3]

---

(١) لأمير المؤمنين عليه السلام بيتان قريبان من هذا:

لَعَمْرُكَ مَا الإِنْسَانُ إِلَّا بِدِينِهِ فَلاَ تَتْرُكِ التَّقْوَى اتِّكالاً عَلَى النَّسَبْ
فَقَدْ رَفَعَ الإِسْلاَمُ سَلْمَانَ فَارِسٍ وَقَدْ وَضَعَ الشِّرْكُ الشَّرِيفَ أَبَا لَهَبْ

ديوان الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: ٢٨.

وروي صدر البيت الأول هكذا:

عليكَ بتقوى اللهِ في كلِّ حالةٍ

تاريخ مدينة دمشق ٦٧: ١٧٣.

(٢) المبسوط ١: ١٦٥، تحفة الفقهاء ١: ٢٠٣.

(٣) المغني ١: ٧٨٨.

أنه لا يصحّ إلّا بالوتر، فلا يصحّ القنوت إلّا في هذه الركعة، فالقنوت في الوتر فقط. أما عند المالكية[1] والشافعية[2] فليس كذلك، وإنما يُقنت في صلاة الصبح من بعد ما يرفع المصلّي رأسه من ركوع الركعة الثانية. أما عند الإمامية فهو مستحب في الصلوات[3].

وهناك سؤال آخر هو: ما الهدف من القنوت؟

والجواب: هو أننا الآن في طاعة الله، ونحن واقفون في الصلاة بين يدي الله عز وجل وفي طاعته، لكن الله عزّ وجل يريد أن يعطي، وعندما يعطي فإنه يريد من عبده أن يسأل، فيجب ألّا نسأل إلّا الله؛ لأنه يقول عن عبده: «إن دنا مني شبراً دنوت منه ذراعاً، وإن دنا مني ذراعاً دنوت منه باعاً»[4]، ويقول: «مَن استطعمني فلم أُطعمه؟».

أي أنه تعالى يقول: إذا طلب أعطيته. والكرم نوعان: نوع تطلبه أنت، ونوع هو يطلبه من عندك أي أنه يطلب منك أن تسأله كي يعطيك؛ لأنه معطاء يريد أن يعطي؛ فلذا هو يريد من يسأل. يقول أحد شعرائنا:

إني دعوت ندى الكرام فلم يُجبْ ... فلأشكرنّ ندىً أجابَ وما دُعي

ومن العجائبِ والعجائبُ جمةٌ ... شكرُ بطيءٍ عن ندىً متسرّعِ[5]

وفي الواقع إن القنوت هو دعوة إلى الله تعالى.

---

(1) مواهب الجليل 2: 243.

(2) فتح العزيز 3: 440، المجموع شرح المهذب 3: 494، 504، 4: 24، روضة الطالبين 1: 432.

(3) الرسائل العشر (ابن فهد): 159، مدارك الأحكام 3: 19.

(4) أمالي المرتضى 2: 6، الدعاء (الطبراني): 523.

(5) شرح نهج البلاغة 18: 184.

وقد يتساءل البعض فيقول: لماذا نُدير الخاتم، ونوجه فصّه للسماء، وبعد ذلك نرفع أيدينا إليها ثمّ نرفع رؤوسنا، والحال أن اللّه عز وجل في كلّ مكان، لا يخلو منه مكان: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾[1]؟

الجواب: لأن السماء باب الدعاء، والآية الكريمة تقول: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾[2] وليس لأن اللّه عز وجل بجهة حاشا، فالكون كله بقبضته، وهو تبارك وتعالى لا يخلو منه مكان، ولا يحويه مكان: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[3].

إذن هذا القنوت هو لون من ألوان الدعاء، فالإنسان إنما يعبد حينما يدعو؛ لأن الدعاء بحدّ ذاته عبادة، كما أن واقع الداعي هو الشعور بالنقص، وطلبٌ لإكمال النقص من الكامل، فأنا عندما أقول: ربي عافني، فلأني أمرض، وأعرف أنني عندما أمرض لا يعطيني العافية إلّا اللّه عز وجل؛ فلذلك أنا أطلب إكمال هذا النقص من الكامل، وإلّا لو كان يمرض مثلي فما الفائدة؟ إن طلبي يصبح حينها عبثاً. مرّ الإسكندر يوماً ومعه جيوشه الهائلة على رجل يدعو، وكان منغمراً ذائباً بالدعاء، ولم يتحرك أبداً أمام جيش الإسكندر، فدنا الإسكندر منه وقال: لمَ لمْ تتحرك؟ ألم تخف من هذا الجيش وهذه العدة وصكصكة اللجم وصليل السلاح؟ أما أرعبك هذا؟ قال: لا. قال: لماذا؟ قال: كنت مع من هو أكبر منك، كنت مع اللّه.

فهزت هذه الكلمة الإسكندر، وقال له: واللّه مثلك فليدّخر، إني أُحبّ أن أصطحبك معي. قال: لا، أنا لا أستطيع أن أذهب معك. قال: لماذا؟

---

(١) المجادلة: ٧. (٢) فاطر: ١٠.

(٣) البقرة: ١١٥.

قال: هل تستطيع أن تعطيني حياة ليس معها موت، وتعطيني عافية ليس معها مرض، وتعطيني غنى ليس معه فقر؟ قال: كلا، هذا شيء لا أستطيع أن أؤمّنه حتىٰ لنفسي. فقال: أنا مع من يؤمّنه لي، فالله عز وجل يستطيع أن يعطيني هذه الأشياء.. يعطيني عافية بلا مرض، ويعطيني حياة بلا موت، ويعطيني غنى بلا فقر، فلماذا أترك الله وآتي معك؟

إذن الدعاء هو عبارة عن شعور بالنقص وطلب إكمال النقص من الكامل، فالقرآن يقول: إن إبراهيم ﷺ كان قانتاً مطيعاً لله تعالىٰ، مداوماً علىٰ الطاعة والانقطاع إليه.

المبحث الرابع: ديانة الأنبياء ﷺ قبل أن يبعثوا

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿حَنِيفاً وَلَمْ يَكُنْ مِنَ المُشْرِكِينَ﴾ فقد كان العرب يقولون: نحن علىٰ ملّة إبراهيم الخليل ﷺ، ومع ذلك فهم حينما يطوفون بالبيت الحرام يقولون:

لبيك لا شريك لك إلّا شريكاً هو لك
تملكه وما ملك

فكيف يقولون:

لبيك لا شريك لك تملكه وما ملك

فإذا كان شريكاً لله، فقد صار نِدّاً له، لأنهم يقولون: إن الأصنام أبناء الله، وهي عوامل مساعدة للسماء. فهؤلاء مع أنهم كانوا يعلنون بأنهم علىٰ ملة إبراهيم الخليل ﷺ، لكنهم في حقيقة الأمر مشركون، وكلّ واحد منهم كان يحمل هذا الشعار، مع أن كل واحد منهم يعبد صنماً أو هوى أو نصباً، فقال لهم القرآن: إن إبراهيم ما كان مشركاً حتىٰ تدّعوا أنكم علىٰ

ملته.

ولهذا فالعلماء دائماً يبحثون أمراً هو أن نبيّنا محمّداً ﷺ خلال هذه الفترة قبل أن يبعث هل كان مشركاً؟ وهل كان الأنبياء مشركين قبل أن يبعثوا أم لا؟

والجواب: أن النبي ﷺ لا يكون مشركاً أبداً، ولا يمكن أن يكون كافراً غير معترف بالله. لماذا؟ لأن المفروض أن النبي يجب ألّا يعتوره نقص يؤدي إلى توهين منزلته، فإذا كان أحد بالأمس مشركاً ثم يأتي بعد ذلك يدعو الناس إلى وحدانية الله فإنهم سيقولون له: متىٰ صرت موحّداً وبالأمس كنت تعبد الأصنام؟ فلا تكون له حينئذٍ منزلة في النفوس، لكن عندما يكون طاهراً مطهراً بعيداً عن درن الأصنام، فإن منزلته قطعاً ستكون متمكنة في النفس أكثر. فالأنبياء كانوا يعبدون اللّه علىٰ الرسالات العامة قبل أن يبعثوا، ونبيّنا ﷺ كان يعبد اللّه علىٰ ملة إبراهيم الخليل قبل بعثته.

وقد يعترض البعض فيقول: لا، لأنه ﷺ إذا عبدَ اللّه علىٰ ملة إبراهيم عليه السلام صار تابعاً، والمتبوع أفضل من التابع، وهذا يؤدي إلى نقصان منزلة النبي ﷺ.

والجواب أنه ﷺ ليس تابعاً لإبراهيم عليه السلام، وإنما هو تابع للّه عز وجل، وإبراهيم عليه السلام إنما هو قناة يمرّ عبرها الوحي ليس إلّا. والأنبياء عليهم السلام ليس عندهم شريعة يخترعونها من ذاتهم، وإنما هم حملة إرادة السماء، وحملة إرادة اللّه. فإذا قيل: إن أحداً تابع لهذا النبي، فيعني أنه تابع للّه عبر هذا النبي. ولذلك فإننا لا نعطي النبي ﷺ حق الاجتهاد أبداً، مع أن البعض ببالغ الأسف يعطي للإنسان حق التشريع فيقول: إن هذا يستحسن

أن يعمل الشيء الفلاني، فيصبح ذلك حكماً شرعياً، أو يُقرّ ما يسمى «نظرية التصويب» حيث يقول أصحابها: إنه ليس لله عز وجل حكم واقعي، بل إن الحكم الواقعي هو عبارة عن الفتوىٰ التي تصدر من العالم، فإنه إذا أفتىٰ بشيء فهو حكم الله الواقعي.

ونحن نقول: لا ؛ لأن وظيفة العالم هي أن يبحث عن الحكم الواقعي؛ فإن أصابه حصل على أجرين، وإن أخطأه حصل على أجر[1]؛ لأن الله عز وجل هو الذي يشرّع الأحكام، وليس من حق أحد أن يأمر وينهىٰ، والناس عبيد لله، وعليهم امتثال ما أمر به الله عز وجل .

المبحث الخامس: خصائص الإمام وصفاته

﴿وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، فالمفروض بالنبي ﷺ أن يحمل رسالة السماء، والإمام امتداد للنبي، أي أنه يجسّد رسالة السماء، وإذا كان كذلك فكيف نستطيع أن نعبر عن أحد بأنه أمير المؤمنين، مع أنه يصعد علىٰ المنبر ويقول:

ليت أشياخي ببدر شهدوا	جزع الخزرج من وقع الأسلْ
لأهلّوا واستهلوا فرحاً	ثم قالوا يا يزيد لا تشلْ
قد قتلنا القرم من ساداتهم	وعدلنا ميل بدرٍ فاعتدلْ
وأخذنا الثأر من آل علي	وقتلنا الفارس الليث البطلْ
لعبت هاشم بالملك فلا	خبر جاء ولا وحي نزلْ[2]

---

(١) انظر: الأم ٦: ٢١٦، ٧: ٩٩، ٢٩٢، ٣٠٠، ٣١٥، ٣١٧، مسند أحمد ٤: ١٩٨، ٢٠٤، وغيرها.

(٢) سبق أن نوّهنا في ج ٢ ص ٨٠هـ ٤ من المحاضرات إلى أن هذه الأبيات لعبد الله بن الزبعرى، وأن يزيد تمثّل بها وأضاف عليها في مناسبتين:

ثم يأتيك من أصحاب الكلمة غير المسؤولة من يرمي القول على عواهنه، فيقول: هذا الشعر اخترعه الشيعة[١]، ودونك عشرات المصادر التي ترويه[٢]، وهي بين يديك. فالذي يقول:

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل

هل يمكن أن نسميه أمير المؤمنين؟ وهل يستحقّ هذا اللقب وهو الذي عندما جيء إليه بالسبايا قام إليه أحد من كانوا في مجلسه وقال: هؤلاء خوارج؟ قال: بلى. قال: إن بيتي خالٍ، وهؤلاء بغاة على الإمام ويصح أن نستخدمهم، ولا توجد عندي خادمة، وأنا أريد هذه الجارية خادمة في بيتي. وأشار إلى فاطمة بنت الإمام الحسين عليه السلام، تقول فاطمة: فتعلقت بثياب عمتي زينب، وقلت: عمة مع الأسر أُستخدم وأنا ابنة الحسين؟ فقالت له: «مه، ما جعل الله ذلك لك ولا لأميرك». فقال لها يزيد: بلى لو شئت أفعل ذلك لفعلت. قالت: «كلا إلّا أن تخرج عن ديننا وتدين بغير ملتنا». فقال: إياي تستقبلين؟ إنما خرج عن الدين أبوك وأخوك. فعند ذلك اختنقت بعبرتها، وغالبتها دموعها، ثمّ قالت: «يزيد أنت أمير تشتم ظالماً وأنا امرأة»:

الأولى: عند قتله سيّد شباب أهل الجنة عليه السلام. انظر: بلاغات النساء: ٢١، ٢٢، البداية والنهاية ٨: ٢٠٩، ٢٢٢، ٢٤٦، وفيها قال ابن كثير: فهذا إن قاله يزيد بن معاوية فلعنة الله عليه ولعنة اللاعنين، وإن لم يكن قاله فلعنة الله على من وضعه عليه.

الثانية: عند واقعة الحرّة. انظر: الأخبار الطوال: ٢٦٧، تاريخ الطبري ٨: ١٨٧، ضمن الكتاب الذي أخرجه المعتضد في لعن معاوية وأبيه وابنه. النصائح الكافية: ٢٣٦.

(١) البداية والنهاية ٨: ٢٤٦. (٢) انظر الهامش قبل السابق.

لا والدٌ لي ولا عـــمٌ ألوذ بـــه ولا أخ لي بقي أرجوه ذو رحمِ[1]

* * *

أنـه امـنين أبـو فـاضل أجـيبه أراويـــه حـــال اخـــته الغـريبه

فالتفتت يميناً وشمالاً، فلم تجد أحداً حولها، فكتمت لوعتها إلى أن أُدخلت إلى الخربة، ودلفت إلى رأس أبي عبد اللّٰه:

العـــن بـعد يـحسين مـنواي ظلني انگطع وانگطع رجـواي

* * *

أأخـي مـن يـحمي بـنات مـحمدٍ إن صرن يسترحمن من لا يرحمُ

---

(1) شجرة طوبى 1: 129، وله بيت ثانٍ هو:

أخي ذبيـح ورحلي قد أُبـيح وبـي ضاق الفسيح وأطفالي بغير حـميْ



أعلام الأنبياء عليهم السلام

﴿٦٥﴾

النبي يحيى بن زكريا عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: بيان نزول الآية الكريمة

هذه الآية الكريمة تتضمن مضامين عدة سوف نتناولها في مباحث مستقلة إن شاء الله. وهي تتعلّق بحادثةٍ تدور حول الحياة الشخصية للنبي زكريا عليه السلام، فقد كانت زوجته عاقراً لا تلد، وكان عليه السلام يشرف على رعاية السيدة مريم العذراء عليها السلام. وحينما كان يشرف أو يقوم بدور الرعاية هذا كان ينظر إلى بعض المعاجز التي تظهر على يديها عليها السلام أو تأييداً لها، ومن ذلك أنه كان يرى أن الله تعالى يُنزل عليها مائدةً من السماء فيها فواكه الصيف في الشتاء وفواكه الشتاء في الصيف، وكان أن سألها: ﴿يَا مَرْيَمُ أَنَّى

---

(١) آل عمران: ٣٩.

لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

فهذا المعنى وهو حصول مريم عليها السلام على فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء جعل زكريا عليه السلام يأمل أن تلد زوجته؛ ذلك أنه نظر إلى أن الوقت عبارةٌ عن رحمٍ من أرحام المنتجات النباتية مثل التراب فكما أن التراب يُعد رحماً لإنتاج الكثير من الكائنات النباتية وغيرها فكذلك الزمان هو رحمٌ أيضاً، فالزمان منه رحمٌ ولودٌ ومنه رحمٌ عقيم، ففصل الشتاء يعتبر رحمٌ ولودٌ للنباتات الشتائية ورحمٌ عقيمٌ للنباتات الصيفية وكذلك الحال مع فصل الصيف.

وإذا حصلت المعجزة وكان أن أنتج رحمُ الشتاء نباتاتٍ وفواكه صيفية فإن بالإمكان أن تلدَ زوجته، وهنا رفع رأسه إلى السماء وقال: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[2]، فجاءت هذه الآيةُ الكريمةُ تردُّ على طلبه وتستجيب له دعاءه.

المبحث الثاني: لماذا إقام الصلاة؟

تقول الآية الكريمة: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي﴾، ومن هذه الآية الكريمة نستشف أن الصلاة غير مقصورةً على الدين الإسلامي أو على المسلمين، ونعني بها الصلاة بالمعنى الشرعي لا الصلاة بالمعنى اللغوي التي هي الدعاء، ففي اللغة حينما نقول: فلان يصلي، فهذا يعني أنه يدعو الله جلَّ وعلا لكن بالمعنى الشرعي فإن الصلاة هي عبارة عن وحدة متكاملة من الأفعال والأقوال والأجزاء والشرائط والمقدمات، والتي تمتاز بأن لها طقوساً معينة وحركات مختصّة بها.

---

(١) آل عمران: ٣٧. (٢) آل عمران: ٣٨.

إذن فالذي يبدو أن الصلاة كانت موجودة في الشرائع [١] ذلك أن الأديان السابقة تلتقي مع الدين الإسلامي في الأسس والضوابط الرئيسة، ففي كل دين هنالك ضوابط أساسية وهنالك قواعد رئيسة محفوظة تعتبر صبغةً ثابتةً لكل دين ومن هذه القواعد الأساسية والرئيسة الصلاة التي فُرضت على كل الأمم. فالقرآن الكريم إذن هنا يقرر أن الصلاة كانت فريضةً عند الأديان السابقة. ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾[٢]، ولهذا فإننا نجد أن القرآن الكريم يُعنى بالصلاة أشد عناية: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، و﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾[٣].

ونحن هنا إذ نجد تأكيداً كبيراً على الصلاة فلما لها من أهمية قصوى في تربية الفرد وتربية المجتمع وحياة الفرد كذلك. وعند تتبع السنة النبوية فإننا نجد ذلك التأكيدَ عينهُ الموجود في القرآن الكريم فهي ـ السنة النبوية ـ لم تكن تتوانى عن التأكيد على الصلاة والاهتمام بها وبأجزائها وشرائطها ومقدماتها، ومن ذلك ما ورد في الحديث الشريف: «الصلاة معراج المؤمن»[٤] والمعراج يعني أن روح المؤمن تلتقي بخالقها،

---

(١) ويدل على هذا قول نبي الله موسى عليه السلام. ذلك أنه لمّا عرج برسول الله صلى الله عليه وآله إلى السماء وأمره ربّه عز وجل بخمسين صلاة لم يسأله التخفيف عن أُمّته فلما رجع ومرّ بالنبي موسى بن عمران عليه السلام طلب منه أن يرجع إلى ربه ليسأله التخفيف، وكرّر عدّة مرّات، حتى كانت المرّة الأخيرة، فقال له: «كم فرض عليك؟». فقال صلى الله عليه وآله: «خمس صلوات». فقال: «فرض على بني إسرائيل صلاتان فما قاموا بهما... ارجع إلى ربّك فاسأله التخفيف؛ فإن أُمّتك لا تطيق ذلك». فقال صلى الله عليه وآله: «إنها من الله». ولم يرجع. انظر: التوحيد: ١٧٦ ـ ١٧٨ / ٨، الدر المنثور ٤: ١٣٨.

(٢) النساء: ١٠٣. (٣) البقرة: ٣.

(٤) لم نعثر عليه في كتب الحديث الشيعيّة والسنيّة، ولا في كتب الفقه الشيعيّة والسنيّة

وهو لقاءٌ غير مادي بل إنه لقاء روحي. وإذا كانت الصلاة بهذه المنزلة وإنها معراج المؤمن إذن فلا بد أن تكون فيها الكثير من المزايا والصفات التي تجعلها بتلك المنزلة، حيث إن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهّرة يحثّان ويؤكّدان عليها، وبحيث إننا نجدها في كل الشرايع والأديان السماوية السابقة.

إن الصلاة هي في حقيقتها محرابٌ؛ لأنها موضع لمحاربة النفس والشيطان مع أن المشرع الإسلامي يعتبر العالم كله محراباً وليس المسجد فقط، فكل نقطة من نقاط الدنيا إذا راعى الإنسان فيها وجه الله تعالى كانت محراباً بالنسبة إليه على ضوء تلك المراعاة ويعتبر في موضع عبادةٍ لله جلّ وعلا؛ سواءً كان طالباً أو عاملاً أو ما إلى ذلك من ممارسة فعاليات الحياة التي تقتضيها تلك الحياة ويقتضيها استمرارها وهذه الدنيا كما أنها يمكن أن تكون بؤرةً للشيطان فإنها يمكن أن تكون محراباً لمحاربة ومقارعة الشيطان، فالكادُّ على عيالهِ إذا خرج إلى السوق ليعمل من أجل كسب لقمة عيشه وعيش أسرته فهو إنما يأكل من حلال، ويشبع أُسرته من حلال، ثم إذا عمد إلى تلك الأموال التي اكتسبها من عمله وأنفقها في طريق مشروع فهو في عبادة حتماً بل في أفضل العبادات. وكذلك الحال مع العامل إذا عمل في مصنعه وهو يراعي وجه الله فلا يسرق من العمل ولا من صاحب العمل فهو هنا يكون في حالة من العبادة.

المتقدّمة، أمّا المتأخّرون فلم يذكره منهم إلّا متأخّرو الشيعة، حيث ذكره الشيخ البهائي والمجلسي (رحمهما الله) ومن جاء بعدهما. والظاهر أنه من كلمات علمائنا المتأخّرين. انظر: الاثنا عشريّة: ٣٩، بحار الأنوار ٧٩: ٣٠٣، ٨١: ٢٥٥، وغيرهما من كتب المتأخّرين.

إذن فالكون كله محرابٌ للعبادة إذا التقى الإنسان مع الله جل وعلا وإذا راعى الخطوط العريضة للأديان السماوية وللتعاليم الإلهية، ومع كل هذا فإننا نجد أن هناك تأكيداً على محراب الصلاة بالذات وذلك يعود إلى أسباب عدة منها إيجاد حالة من التربية العالية للنفس، والتربية تكون على نحوين: تربيةٌ مقصودة وأُخرى غير مقصودة. فالمقصودة هي أن ينصح شخصٌ شخصاً ويقول له: إن هذا الفعل حرام فيجب عليك أن تجتنبه، وإن هذا الفعل واجب فيجب عليك أن تفعله؛ لأن في الأول آثاراً سلبيةً سيئة، وفي الثاني آثاراً إيجابيةً طيبة. فالخمرة حرام لأنها تأخذ أغلى ما عند الإنسان وهو عقله؛ ولذا فإنها قد حُرّمت في الشرائع السماوية.

إذن فالتربية المقصودة هي أن ينصح إنسانٌ إنساناً ويعطيه سلسلةً طويلةً عريضةً من المفاهيم والقيم، وينبهه إلى ضرورة التزامها والعمل بها، ويؤكد له على ذلك، أما التربية غير المقصودة فهي التي لا تكون عبر إلقاء العظات والمحاضرات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإنما تكونُ تربيةً ميدانيةً ذات ممارسة فعلية كأن يأخذ الإنسان شارب الخمرة وهو صاحٍ منها إلى الخمارة بدلاً من أن يفيض عليه بالنصح والوعظ والزجر عن شربها؛ ليريه هنالك ما الذي يمكن أن تفعله هذه الخمرة بأصحابها أو بشاربيها.

وهو هنا حينما يجد من يشربون الخمرة على تلك الحال المزرية فإنه سوف يتّعظ ويعتبر ويستشعر ذلك حياءً من نفسه وربما على ضوء ذلك يمتنع من شربها لأنه من المحتمل أن يتفاعل مع هذا الجو برؤية تأثير الخمرة على من يتعاطونها ومن يشربونها إذ أنه سوف يرى أنها قد حولتهم إلى حيوانات لا تعي ما حولها، يقول أحد الأدباء:

محمّد حرّم شرب الطّلا	صلّوا عليه وعلى آلهِ
اذهب إلى الحانةِ تؤمن به	إن كنت لم تؤمن بأقوالهِ
فكم ترى بالحانِ من شارب	يحرّم الخمر بأفعالهِ

فبالخمر يفقد الإنسان المتّزن اتّزانه وعقله وكرامته، ويتحول إلى كيان مخزٍ، وباطلاع هذا الإنسان على ما تفعله الخمر بشاربيها فإنه من الممكن أن يتّعظ ويمتنع. فالتربية أحياناً يمكن أن تكون عن طريق اللوازم، وليست بالمباشرة والتوجيه.

الصلاة والتربية

ومن هنا فإننا نلاحظ كيف أن الصلاة تربي الإنسان تربيةً غير مقصودة على الفضائل، وتمنعه عن الولوغ في الرذائل. ثم إن في الصلاة نوعين من أنواع التربية:

النوع الأول: التربية اللفظية

فعندما يقرأ الإنسان القرآن في الصلاة فإنه سوف يستشعر وجود الله تعالى معه ويشعر بأنه في المحراب، وهو بهذا سوف يخاف منه ويمتنع عن فعل المعصية.

النوع الثاني: التربية الفعلية

وهي تربيةٌ تتأتى من حيث إن الصلاة لا تجوز إلّا إذا كانت في مكان مباحٍ غير مغصوب، وفي لباسٍ مباحٍ غير مغصوب وكانت مقدماتها أيضاً مباحةً غير مغصوبة، فحينما يتفهم المصلي بأن صلاته في المكان المغصوب غير مقبولة فإنه سوف يستشعر هذا الخطأ، وبالتالي فإنه يتراجع عن غصبية المكان، وكذلك الحال مع اللباس والماء الذي يتوضّأ

به وما إلى ذلك. وهذا هدف هامّ جداً من الأهداف التي ترمي الصلاة إلى خلقها في نفس الإنسان بصورةٍ غير مباشرة، وهي بهذا تعطي للمصلي درساً غير مباشرٍ في ألّا يلبس الثوب المغصوب وألّا يستعمل الشيء المغصوب وألّا يسكن البيت المغصوب وما إلى ذلك. بمعنى أنها تربيه على احترام حقوق الآخرين وعدم الإساءة إليهم بأخذ ما يملكون دون رضاهم، وهذا يعني أن الصلاة تضع للإنسان طرقاً غير مباشرةٍ للابتعاد عن الأشياء المحرمة وللابتعاد عن التسبب في إحداث الأذى للناس وسلب أموالهم وغصبها.

إذن فهذا لون من ألوان التربية وهناك لون آخر من ألوان التربية، وهو ما نشاهده عند البعض من الناس الذين ما إن يستشعروا أنفسهم أنهم قد حصلوا على شيء من العلم أو المعرفة أو حاز مقداراً من المال أو جلس في منصبٍ يمكنه من أن يأمر وينهى كما يشاء، فإنه ينظر إلى الآخرين نظرة تكبر وتعالٍ، فلا نجده يجلس مع غيره من الناس ولا يؤاكلهم ولا يحترم وجودهم. وهذا المعنى كان موجوداً عند القرشيين من مشركي مكة فهؤلاء كانوا يأتون إلى النبي ﷺ ويقولون له: نحن نرغب في سماعك، لكن يمنعنا نتن أجسام هؤلاء الذي معك، فاجعل لنا يوماً ولهم يوماً.

فهذا اللون هو صورةٌ من صور التكبر والخيلاء والتعالي على الناس، وهو موجود عند الكثير من بني آدم، لكن الصلاة جاءت لتقضي على هذا الشعور عند هؤلاء، فتجعل الرئيس مع المرؤوس في صفٍّ واحدٍ في الصلاة، وتجعل الغني مع الفقير، والشريف مع الوضيع، والمولى مع العبد، وما إلى ذلك من اختلاف الطبقات. فهؤلاء كلهم يقفون صفاً واحداً

بل ربما تقدم العبدُ سيده، وربما تقدم الفقيرُ الغني في صفوف الصلاة. وهذا لونٌ من ألوان التربية العالية التي تهدف الصلاة إلى أن تخلق منها مجتمعاً قائماً على أساس الخُلق القويم والتعاليم السماوية. فهي بهذا تُشعر الجميع بأنهم سواءٌ وطينةٌ واحدةٌ في أصل المنشأ والخلقة، وما هذا التفاوت الدنيوي الذي بينهم إلا تفاوت لا قيمة له ولا اعتبار في الشرع الإسلامي؛ لأنه لا يقدح في أصل الإنسانية ولا يقدح في عدالة الإنسان وإيمانه وتقواه إن كان عادلاً مؤمناً تقيّاً.

إذن فالصلاة تهدف من ضمن ما تهدف إلى تحقيق عامل المساواة بين الناس؛ ولهذا فإننا نجد الضرورة الملحة لصلاة الجماعة؛ لأنها تربّي المسلم، ونؤكد كثيراً على تأصيل هذا الجانب وهذا المفهوم الإنساني في أذهان الكثير من المسلمين الذين لا زالوا يعيشون العقائد والموروثات الاجتماعية الجاهلية. إذن ففي الصلاة دروسٌ كثيرة لا توجهها بصورة مباشرة إلى الناس في محاولة تربيتهم وإنما هي توجهها إليهم بصورة غير مباشرة.

ومن هذا نخرج بنتيجة هي أن الصلاة فيها الكثير من الدروس الحياتية الهامة والضرورية في حياة الفرد المسلم، كالنظافة والرياضة الروحية والأخلاق وما إلى ذلك من جوانب ضرورية تفتقر إليها شخصية الإنسان المسلم فلا يكون مسلماً حقيقياً إلا إذا توفرت في شخصيته تلك الصفات وتلك الأخلاقيات. وهذا هو الذي يفسر أنه ما من شريعةٍ من الشرائع السماوية إلّا وللصلاة فيها مكانة عظمى، بل إلّا والصلاة فيها هي أولى العبادات وأهم العبادات وهذا ما نجده في آية المقام حيث تقول: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي﴾.

إذن فالصلاة التي يصليها الإنسان لها أجزاء وممارسات وشروط ومقدمات معيّنة لابد من مراعاتها وهي بهذا الهيكليّة تشكّل الصورة الصحيحة للصلاة التي أُمرنا بها.

المبحث الثالث: في معنى المحراب

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿فِي الْمِحْرَابِ﴾ إن معظم المفسرين يرون أن مكان الصلاة إنما سُميَ محراباً؛ لأن فيه نوعاً من المحاربة بين الإنسان والشيطان.. بين الإنسان وغرائزه وشهواته ورغباته؛ لأن الإنسان حينما يأتي ليصلي ركعةً لله عزَّ وجلّ فإنه إنما يتوجه إليه جلَّ وعلا بعيداً عن كل خصائص الدنيا وعن كل مشاكلها، لكن الذي يحصل عند الكثير هو أنه لا يستذكر مشاكل الدنيا ومصائبها إلا إذا قام إلى صلاته، فما إن يقُم إلى صلاته حتى تشخص جميع هذه المشاكل أمامه فيشرد ذهنه وينشتت يميناً وشمالاً وحينئذٍ لا يبقى من الصلاة إلا صورتها وهيكلها دون مضمونها ومحتواها.

وهذه مشكلةٌ حقيقية؛ لأن هذا الإنسان ليس له إقبالٌ حقيقيٌ على الصلاة بل إن إقباله كان على الدنيا ومشاكلها ومصاعبها ومصائبها، وما يواجه فيها، وهو بهذا يقتل الصلاة ولا يعطيها لوناً من الحيوية، فتصبح بذلك صلاةً بغير روح. وهي مصيبة عظمى؛ لأنه «ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها»[1]، فالمفروض أن الإنسان يقف بين يدي الله جلَّ وعلا فلا بد إذن من أن تخرج الكلمةُ في الصلاة مكهربةً بالروح؛ لأنها تخاطب الله جلَّ وعلا.

(١) إعانة الطالبين ١: ٢١٢، التفسير الكبير ٢٣: ٧٧، ٧٩، فتح القدير ٣: ٤٧٣.

ولو رجعنا إلى سيرةِ أيمتناعليهم السلام لوجدنا أنهم كانوا يقفون بلا حراك، بل لا يتحرّك منهم شيء إلا ما تحرّكه الريح؛ لأنهم يكونون في كامل الخضوع ومنتهى الخنوع إلى الله جلَّ وعلا. وليس معنى هذا أنهم فوق مستوى البشر، لكنهم مهذّبون بتهذيب الله ومؤدّبون بتأديبه بما عهد إليهم به رسول الله صلى الله عليه وآله من علم وأدبٍ وكمال. ولذا فإنهم أصبحوا في القمة من هرم البشرية، يسأل أحدهم الإمام السجّادعليه السلام: ما بالك يابن رسول اللّه؟ فيجيبه: «ويلك، أتدري بين يدي من أقف أنا»[1]؛ لأن من يقف بين يدي الله فلابدّ له ولا ينبغي عليه إلّا أن يكون بهذا المستوى.

إذن فالمحراب حربٌ بين المصلّي والشيطان.. بين المصلّي وغرائزه ورغباته ودنياه؛ ولذلك فإن من المستحسن أن يستعيذ المصلي بالله من الشيطان الرجيم قبل قراءته في الصلاة، ثم يبدأ بالبسملة التي ينصّ الفقهاء على أنها جزء من السورة لا تتمّ الصلاة إلّا بها.

المبحث الرابع: في بشارة الملائكة لزكرياعليه السلام

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ﴾، إن البشارة لا تكون إلّا بشيء محبوب إلى الإنسان، وهذا هو الشكل الطبيعي والمألوف. ووجه البشارة هنا هو أن النبي زكرياعليه السلام ما لم يرزقه الله بهذا الولد فإنه سوف يخرج من الدنيا من غير ذرية، والإنسان حينما يشعر بأنه سوف يخرج من الدنيا ولم يُخلّف أحداً وراءه يحيي ذكره أو يستغفر له فإنه سوف يشعر بالحسرة والندم. ولذا فإن زكرياعليه السلام عبّر عنه بأنه ﴿يَرِثُنِي﴾[2]، فالنبي

---

(١) عوالي اللآلي ١: ٣٢٤ / ٦٣، الطبقات الكبرىٰ ٥: ٢١٦، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٧٨، تهذيب الكمال ٢٠: ٣٩٠، سير أعلام النبلاء ٤: ٣٩٢، البداية والنهاية ٩: ١٢٣.

(٢) مريم: ٦.

زكريا ﷺ كان يريد أن يرزقه الله بولدٍ ليرثه من بعده... يرث علمه ويرث النبوّة، ويرث كل ما يُخلِّف وراءه خشية أن يأخذه بنو إسرائيل. ولهذا فإنه شعر بالألم حينما وجد نفسه قد شاخ وكبر ولما يرزق بولد بعدُ.

إذن فالنبي زكريا ﷺ كان يعرف بأن الولد نعمة، وكونه نعمة فإنه يعني أن على الإنسان أن يفرح به، وهذا هو وجه البشارة فيما إذا حملت زوجته ورزق منها بولد.

وهناك نماذج من البشرية لا يصحّ أن يقال: إن الأب قد بُشر بهذا المولود، لو كان يعلم ما سوف يقوم به، ومن أولئك الحجاج الذي يعدّ قاذورةً من قاذورات التاريخ، فهذا لم يكن ولداً وإنما كان كارثةً على أهل الأرض في زمانه، ولهذا فإن على الإنسان أن يترك تقدير هذه الأمور إلى السماء: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[1]. فالله جلَّ وعلا له تخطيطه المبتني على الحكمة وعلى العدل. وهذه الآية الكريمة تتناغم مع الطبيعة البشرية، وتكشف عن مشاعر الإنسان حينما يُبَشَّرُ بالولد، وأنه يريد أن يرزقه الله بذرية ترثه وتخلفه من بعده.

المبحث الخامس: في معنى ﴿بِيَحْيَى﴾

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿بِيَحْيَى﴾، وإنما سُمي يحيى؛ لأن الله تعالى أحيا به عقم أُمّه التي قضت جُلَّ عمرها عاقراً لا تحمل، فحينما حملت بيحيى وهي كبيرةٌ وعقيمٌ فكأن الله جلَّ وعلا يريد أن يقول لها بأنه قد أحياها بعد عقم، وأنه جلَّ وعلا لا يمكن أن يقف شيءٌ بوجه إرادته:

---

(١) الشورى: ٤٩ ـ ٥٠.

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[(١)].

إذن فالله تعالى أحيا به عقم أمّه زوجة النبي زكريا عليه السلام بعد عقم طويلٍ وبعد كبر سن[(٢)].

والعقم مسألة خاضعةٌ للأمر وعدم الأمر، فهناك آباء وأمّهات غير عقيمين وعندهما كلّ الشروط اللازمة لحصول الحمل أو الجنين، لكنهما مع ذلك لا ينجبان الأطفال؛ ذلك أن المسألة كلّها بيد الله جلّ وعلا؛ فهو يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء.

المبحث السادس: في معنى الكلمة

ثم انتقلت الآية فقالت: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾، والمراد بالكلمة هنا كما يذهب إليه المفسرون أحد أمرين:

الأول: أنها كتاب الله

ذلك أن الكتاب فيه الكلمة المنزّلة من الله تعالى، فالقرآن كلام الله؛ لأن فيه كلماتٍ، والكلمات ذات معانٍ، وكلّها منزلة من الله جلّ وعلا. وهذا الكتاب المنزل من الله جلّ وعلا مبرّرٌ لنبوة يحيى عليه السلام؛ ذلك أن الأنبياء عليهم السلام عندما يُبعثون فإنهم ملزمون أمام الناس بأن يأتوهم بشيء معجز يثبت نبوّتهم ويبرهن على صدقهم، وعلى أنهم مبعوثون فعلاً من السماء. وهذا كما هو معروف ما يسمى بالمعجزة. والمعجزة تكون على نحوين: فهي تارة تكون معجزةً فعلية، وأخرى تكون معجزةً قولية. فيحيى عليه السلام حمل

---

(١) يس: ٨٢.

(٢) قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ هود: ٧٢.

كلمة الله جل وعلا ؛ وبشر بكلمة السماء للأرض. وبتعبير آخر فإنه قال لأهل الأرض: إن الله قد أنزل لكم نظاماً فيه صلاحكم.

إذن فالمراد من الكلمة هنا: هي الكتاب المنزل من الله جلَّ وعلا ، وهو الحاوي للشريعة المقدسة.

الثاني: أنها عيسى عليه السلام

وهذا الرأي هو الذي عليه الأغلب من المفسّرين، فهؤلاء يذهبون إلى أن الكلمة التي صدَّق بها يحيى عليه السلام هو نبي الله وروحه عيسى بن مريم عليه السلام ؛ لأن عيسى عليه السلام يُسمى كلمة الله.

السبب في كون عيسى عليه السلام كلمة الله

وهنالك رأيان في تفسير كون النبي عيسى عليه السلام يطلق عليه كلمة الله:

الأول: أنه خُلق من غير أب بكلمة

وهذه الكلمة هي قوله تعالى: ﴿كُن﴾[1] فكان. فالله جل وعلا لم يخلق عيسى عليه السلام بالصورة الطبيعية أو بالشكل الطبيعي لخلق الإنسان، وإنما خلقه بقوله: ﴿كُن﴾. ومن هنا فإنه خُلق بكلمة؛ فسمي كلمة الله.

نقد هذا الرأي

وهذا الرأي لا يصمد أمام النقد؛ لأنه وإن كان لم يخُلق لأسباب طبيعية قد عوَّدَنا الله تعالى عليها إلّا إننا نجد أن هناك البعض من الكائنات مما لم يخلق من أبوين، بل إن آدم عليه السلام لم يُخلق من ذكر ولا أُنثى، بل بكلمة من الله جلَّ وعلا ، ومع ذلك فهو لم يسمّ كلمة الله ، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ

---

(١) البقرة: ١١٧.

الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[١].

إن الله جلَّ وعلا قد أجرى العادة على السبب الطبيعي، لكن إذا تجاوزنا العادة فإن الله جلَّ وعلا لا يمكن أن تتقيّد إرادته بعادةٍ معيّنة، أو أن تخضع لها، ذلك أن قدرته مطلقة.

إذن فالتعبير بأنه إنما سُمي كلمة الله؛ لأنه خُلق بكلمة منه هو تعبير غير صحيح، بل فيه لون من الهروب من الحقيقة أو الواقع.

الرأي الثاني: أنه عليه السلام كلمة مجسّدة

ويذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن الله تعالى له نوعان من الكلمة، هما: الكلمة الملفوظة، والكلمة المجسّدة. فالكلمة الملفوظة هي الكلمة المكتوبة أو التي سوف تُقرأ، وهذا ما يُعبر عنه بالكتاب التدويني، أما الكلمة المجسّدة فهي الكتاب التكويني.

فالكتاب التدويني هو الكتب السماوية المنزلة من الله جلَّ وعلا على أنبيائه، ومنها القرآن الكريم، وهو أفضلها وأشرفها.

والكتاب التكويني هو العترة المطهّرة، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «إني مخلّف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً. ولقد نبّأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض».

والمجانسة بين العترة والكتاب الذي هو القرآن أن كليهما كتاب من الله جلَّ وعلا، وكليهما يحمل شرع الله جلَّ وعلا، غاية ما في الأمر أن القرآن كتاب تدويني وأن العترة كتاب تكويني:

---

(١) آل عمران: ٥٩.

ســــاووا كــــتاب الله إلّا إنـــه   هو صامت وهُمُ الكتاب الناطقُ[1]

ومع أن الكثير من مصادر التاريخ والحديث عند المسلمين من أبناء المذاهب الأربعة كـ (صحيح مسلم)[2] و (سنن الترمذي)[3] و (الصواعق المحرقة) وغيرها[4] يروون هذا الحديث بأنه «كتاب الله وعترتي أهل بيتي» نجد أن البعض منهم يرويه بصيغة «كتاب الله وسنتي»[5]. وهذا التوجّه الحاقد لا يضرّ آل محمد ﷺ بشيء، بل إنه يضر صاحبه، فآل محمد ﷺ عطاء للمسلمين كافّة، وليس لفرقة معيّنة.

وكل إنسان يعتزّ بالشخصية المسلمة التي تحمل الإسلام حيّاً وتعمل به وتنشره سواءً كان من فرقةٍ من الفرق الأُخرى أو من الشيعة، فهو موضع اعتزازنا؛ لأنه ما دام الكل في خطّ «لا إله إلّا الله»، فإن الواجب هو الاعتزاز بهؤلاء. لكننا مع الأسف نجد هذا اللون من الإصرار على التغاضي عن بعض الحقائق التي تختصّ بأهل بيت رسول الله ﷺ، وهذا طبعاً ينافي طبيعة الإسلام.

---

(١) البيت لمحمد رفيع الدين الجيلاني. أعيان الشيعة ٩: ٤٤١.

(٢) صحيح مسلم ٧: ١٢٣، وفيه: «ألا واني تارك فيكم ثقلين: أحدهما كتاب الله عزّ وجلّ: هو حبل الله من اتّبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على ضلالة، وأهل بيتي، أُذكركم الله في أهل بيتي، أُذكركم الله في أهل بيتي، أُذكركم الله في أهل بيتي». فقيل لزيد راوي الحديث: من أهل بيته؟ نساؤه؟ قال: لا وأيم الله؛ إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر، ثم يطلّقها فترجع إلى أبيها وقومها. أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده.

(٣) الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢٩ / ٣٨٧٦.

(٤) انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٤١٨وغيرها.

(٥) كنز العمّال ١: ١٨٧ / ٩٤٨.

وعليه فالمقصود هنا بكلمة الله هو النبي روح الله عيسى عليه السلام وهو كتاب تكويني كما هو حال العترة المطهّرة، كما كان (الإنجيل) كتاباً تدوينيّاً؛ لأن فيه شرائع الله جلَّ وعلا التي تحتاجها الأُمم في ذلك الزمان.

المبحث السابع: في صفات النبي يحيى عليه السلام

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، ونرى في هذا المقطع الشريف من الآية الكريمة مجموعةً من الصفات الحميدة التي منحتها السماء لهذا الوليد:

الصفة الأولى: السيد

والسيد هو الرئيس المتبوع، فحينما يقال: فلان سيد قومه، بمعنى أنه رئيسهم المتبوع المطاع. والإنسان إنما يُتبع إما لسلطة دنيوية كأن يكون زعيم قبيلة أو رئيس دولة أو ذا منصب اجتماعي، وإما أن يكون ذا سلطة دينية وهم الأنبياء والأوصياء والعلماء؛ لأنهم يتمتعون بتلك السلطة الروحية التي جعلها الله لهم في قلوب الناس. فهؤلاء يقودون الناس علميّاً وروحياً في حين أن الرئيس الدنيوي يقودهم بعامل الغلبة.

والواقع أن السيادة العلمية لا تبلغها سيادة قط؛ ولهذا فإننا نجد أن في العالم أباطرة وقياصرة وأكاسرة حكموا الفترة ما، لكنهم عندما خرجوا من الدنيا انتهى ذكرهم، ولم يعد يذكرهم ذاكر، أما حملة الفكر والعلم فإنهم لا زالوا يعيشون بيننا حتى بعد آلاف السنين من موتهم، فهؤلاء يعيشون في عقول الناس ومشاعرهم، وفي تفكيرهم، وفي كل حيثيات حياتهم وجزئياتها؛ لأن سيادتهم لا يمكن أن تموت. فكان الناس يخضعون لسلطة هؤلاء أكثر ممّا يخضعون للسلطات الأُخرى من السلطات

الدنيوية؛ لأن سيادة العلم لا تضاهيها سيادة أخرى.

ويحيى ﷺ كان له نوعان من السيادة:

السيادة الدينية باعتباره نبيّاً من الأنبياء.

والسيادة الاجتماعية؛ لأنه كان معزّزاً مكرماً عند بني إسرائيل. تذكر الروايات أن النبي يحيى ﷺ ولد لستة أشهر وعاش، ونحن نُرتب على هذا أثراً. وهذا الأمر موجود في تاريخنا، فعبد الملك بن مروان ولد لستة أشهر وهذا يمكن أن يُرتبَ عليه أثر وهو أن المرأة إذا ولدت بعد ستة أشهر من زواجها فإن الولد يعتبر ابن زوجها، ولا يحقّ له أن ينفيه عنه، أو يقول بأن أمه قد حملت به قبل أن يتزوّج منها؛ لأن ابن الستة أشهر يعتبر ابناً شرعيّاً. وهذا ما يؤكّده القرآن الكريم بمقابلة آيتين كريمتين من آياته هما: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾[1]. و﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾[2]، فبطرح الحولين الذين مجموعهما أربعة وعشرون شهراً من ثلاثين شهراً، فإن المتبقي يكون الزمن الصحيح والطبيعي للولادة، وهو ستة أشهر. وهذه الإمكانية مهيأة لأي إنسان، وليست هي ميزة خاصةً بيحيى ﷺ، أو بعبد الملك بن مروان أو بغيرهما، فإن الولد يمكن أن يولد لستّة أشهر ويعيش، كما أنه يولد لتسعة أشهر ويعيش.

ولهذا فإننا نستغرب الإصرار من قبل البعض على أن يحيى ﷺ ولد لستة أشهر ومع ذلك فإنه قد عاش، فإن هذا ليس موضع استغراب مادام يحصل عند الآخرين، ومادام القرآن الكريم قد أقرّه كما ذكرنا بمقابلة

---

(١) الأحقاف: ١٥. (٢) البقرة: ٢٣٣.

هاتين الآيتين الشريفتين المارتين. وإن كانت هنالك معجزة في ولادة يحيى عليه السلام فإنها تكون بولادته بعد يأس أُمّه وكبرها في السن وبعد مانع العقم. فهي لم تكن عاقراً فقط وإنما دخلت سنّ اليأس وسنّ الشيخوخة الذي لا يمكن أن تنجب فيه المرأة ولداً، ومع ذلك فإن الله جلَّ وعلا أحيا به عقمها فولدته.

الصفة الثانية: الحصور

وهذه الصفة تشكل مركز ثقلٍ في الآية الكريمة؛ لأن الحصور هو الذي لا يقرب النساء. وهنا فإن المفسرين انقسموا إلى قسمين حول تفسير هذا المقطع:

الأول: أنه عليه السلام لا قدرة له على الفراش

فهؤلاء يرون أنه عليه السلام كان عنده مانع خلقي من الزواج، أي أنه عليه السلام ليس له القدرة على مقاربة النساء.

نقض هذا الرأي

وهذا لا يمكن أن يكون بحالٍ من الأحوال؛ لأنه نقصٌ، والله جلَّ وعلا لم يبعث نبيّاً فيه نقصٌ. ونحن بدورنا يجب أن ننزّه الأنبياء من النقائص؛ سواء كانت في القدرة، أو في الجسد، أو ما إلى ذلك.

فالنبي يأخذ كلّ أبعاد الكمال الجسدي والروحي والعقلي؛ لأنه ممثّل السماء، وإذا كان عنده نقصٌ معينٌ في مجالٍ ما فإنه ممّا ينافي نبوّته، فهو بهذا لا يمكن أن يكون نبياً؛ لأنه سوف يكون مبعث سخريةٍ من الناس وانتقادٍ منهم، وما إلى ذلك من تجريح وغيره.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن الآية الكريمة في معرض المدح

للنبي يحيى ﷺ، فإذا كان الأمر كذلك فإن الله جل وعلا لا يمكن أن يمدحه بما هو نقص، فالمدح لابدّ أن يكون بصفة الكمال لا بصفة النقص.

ثم إن هناك رواية تتجاوز هذا الحد وتقول بأنه ﷺ ليس لديه القدرة على إرضاء المرأة من ناحية عضوٍ معيّن، وهذا في حقيقته أكثر من كونه نقصاً؛ لأنه موجب للفسخ أحياناً؛ ذلك أنه إذا التقى مع العنن عدم إرضاء الزوجة فإن الملاك يصبح واحداً، وهو وجوب الفسخ.

إذن فالشخص الذي يُدلّس عليه ويجد أن عند شريكه نقصاً أو عجزاً في حالته الجنسية، فإن من حقّه أن يفسخ العقد؛ لأن الغاية من الزواج هي أن تكون هنالك ذريّة، وهذا لا يؤدي هذا الغرض. وهذا الزوج لا يستطيع أن يؤدي هذا الدور، وبالتالي فإنه لن يحصل هذا الغرض.

وبهذا فإننا لا نعتبر أنبياء الله عز وجلّ ممن يعتريهم النقص في هذا المجال ولا في غيره، والآية كما قلنا في مقام مدح النبي يحيى ﷺ، والمدح لا يكون بوجه النقص، وإنما بوجه الكمال.

الثاني: أن ذلك باختياره ﷺ

وهذا هو الرأي الصحيح، أي أن كلمة (حصور) تعني أنه ما كان يقرب النساء باجتهاد منه وصبر عنهن، لا أنه لا يقوى على مقاربتهن كما يذهب هؤلاء. فكأنه ﷺ كان لا يقربهن بحالة من الرهبانية والتبتّل التي كان يعيشها. فهو ﷺ كأنما يقول: لا أُريد أية علاقةٍ تشغلني عن ربّي، والقرب من المرأة ربما يؤدي إلى هذا؛ لأنه يؤدّي إلى حصول الولد، وبالتالي تعلّق قلبه به، وبالنتيجة فإنه سوف يأخذ من وقتي واستعدادي وانصرافي إلى الله جلَّ وعلا فيشغلني عن ذكر ربي.

وهذا فيه وجه من المعقولية؛ لأن مشاكل الأولاد تأخذ جمّ تفكير

الإنسان، والقسط الأكبر من راحته، وإذا أراد الإنسان أن يتفرّغ إلى العبادة، فإنهم قد يشغلونه عن هذا[1].

إذن فمن يرد أن يتفرغ لعبادة الله جلَّ وعلا فإنه إذا لم يكن ذا ولد فسوف يتفرغ تفرغاً كاملاً له، أما إذا كان ذا ولدٍ فإنه سوف لن يتفرّغ تفرغاً كاملاً له. وهذا المنهج موجود ليس على مستوى الأديان بل حتى على مستوى المجتمعات، فهناك الكثير من الناس ممن ابتعد عن الناس لهذا السبب.

لكن هذا المنهج هل يقره المشرّع الإسلامي؟ طبعا لا يقرّه؛ لأن الله جلَّ وعلا لم يودع الغرائز عند الإنسان عبثاً، فهو تعالى حينما وضع عنده هذه الغريزة إنما وضعها لحكمة، وهي أنها وسيلة توصل إلى هدفٍ معيَّن، فغريزة الأنانية وحب الذات تحفظ كرامة الإنسان بشرط ألّا تتجاوز حدودها؛ فتصبح حالة سلبية، أي أنها يجب أن تكون بين الإفراط والتفريط[2]. وغريزة الجمع توصل إلى هدفٍ هو تحريك الاقتصاد في المجتمع، وكذلك غيرها من الغرائز. فكل غريزة من هذه الغرائز لها هدف ومنها غريزة الجنس، وهدفها إمداد النوع البشري بالأجيال، فإذا لم يحصل التزاوج بين الرجل والمرأة فإن النوع سوف لن يُمدّ بالأجيال، وبالتالي سوف يؤدّي إلى انقراضه.

ولذا فإن المشرع الإسلامي ينصّ على أنه: «لا رهبانيّة في الإسلام؛ تزوّجوا فإني مكاثر بكم الأمم»[3].

وقد نهى صلى الله عليه وآله النساء أن يتبتّلن ويقطعن أنفسهن من الأزواج[4].

---

(١) وقد مرَّ أن الأبناء وسيلة لإعاقة الآباء عن الجهاد.

(٢) وهو ما يعبر عنه أرسطو بـ«الوسط الذهبي».

(٣) دعائم الإسلام ٢: ١٩٣ / ٧٠١، مسند أحمد ٣: ٨٢.

(٤) المصدر نفسه.

ومن هذا المنطلق دعا الإسلام إلى الزواج وإلى عدم إقرار الرهبانية ، دخلت امرأة على الإمام الصادق ﷺ وقالت له : إني أريد أن أتبتّل . فقال ﷺ لها : «لو كان فيه فضل لسبقتك إليه فاطمة».

فهذا تفكيرٌ أعوج وأهوج ؛ لأنه مخالفةٌ للفطرة ومخالفةٌ لسنة الله جلَّ وعلا .

ومن هذا نعرف أن (الحصور) صفةٌ كانت باختيار النبي يحيى ﷺ ، وهي من خصوصياته التي أجازه الله بها وعليها . والدليل على هذا أنه تعالى امتدحه بها.

الصفة الثالثة: النبوة والصلاح

إن النبوّة معروفة ، لكن ربما يشكُل هنا قوله تعالى : ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، فما الذي يقصد بها؟ أي بمعنى هل إن هنالك أنبياء غير صالحين؟ من وجهة نظر المفسّرين من المذاهب الإسلامية الأُخرى أن الجواب بالإيجاب ؛ لأنه «ما من نبي إلّا وقد عصى أو همّ بمعصية غير يحيى ؛ فإنه لم يعصِ ولم يهمّ»[1] ؛ ولذا فإن القرآن الكريم عبَّر عنه بأنه ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

وهذا تفكير عجيب؛ ذلك أن الأنبياء ﷺ إنما يبعثون للقضاء على المعاصي ، ولطرد المعاصي من نفوس الناس ، فكيف يقومون بممارستها؟ إن هذا غير ممكن، بل إنه أمر يثير العجب والسخرية . وعليه فإن الآيات الشريفة التي تتناول هذا الجانب فإنها لابدّ أن تُنزل منزلة أُخرى غير منزلة المعصية أو الهم بها والإقدام عليها ؛ كي تتفق مع هذا الاعتقاد ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾[2] ، فإن معناه

---

(١) التفسير الكبير ٨: ٤٠. (٢) طه : ١٢١ .

على التحقيق أن آدم عليه السلام ترك الأولى وإن سُميَ هذا عصياناً؛ لكنه لم يعمل شيئاً يستوجب عليه العقوبة سوى أنه ترك الأولى.

وعليه فلا يمكن لنبي أن يهمّ بالمعصية مع الأخذ بنظر الاعتبار أن المفروض أن الله جل وعلا قد أرسله لمحاربة المعاصي وللقضاء عليها، ولترويض النفس على عدم الولوج فيها، ولتقويم الناس على الطاعة وترك المعصية.

إذن فهذه الرواية لا يمكن أن يُنظر إليها؛ لأنها تتنافى مع أُصول المعتقدات في هذا المجال، وإذا كان الأمر كذلك فإننا لا بد أن نجد معنىً مناسباً لقوله تعالى: ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، وهذا مقرونٌ بتقريب أنه ليس هناك من نبي غير صالح بل لا نبي إلا وهو صالح، فإذا كان غير صالح فإن الله جل وعلا لا يمكن أن يبعثه. وهنا نعرف أن كلمة ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ تعني بأنه موجود في قائمة الأنبياء؛ لأنه ما من نبي إلا وهو صالح.

المبحث الثامن: البشارة بالنبي يحيى عليه السلام

وبالرجوع إلى جوّ الآية الكريمة نجد أن هناك بشارةً بيحيى عليه السلام، وهذه البشارة تنفتح على معنيين:

الأول: البشارة بالولد.

الثاني: المعجزة بخروجه من رحم عاقرٍ وكبيرة في السن.

وبهذا يستدلّون على أن الولد نعمة كبيرة يجب عليها الشكر، وبالمقابل فإن فقده يعتبر مصيبة لا تعدلها مصيبة؛ لأن الولد ريحانة الفؤاد وثمرته، ومصرعه لا يمكن أن يتصوّر كم من الممكن أن يأخذ من أبيه من مآخذ. فمأخذه لا يمكن أن يأخذه أحدٌ غيره؛ لأن المصيبة به تكون عظيمة، إن فقد الأولاد يكون في حال صبر الإنسان عليه كرامة وتكريماً

من الله جل وعلا وإن كان مصيبة؛ ولذا فإن الله جل وعلا أراد تكريم أبا الشهداء ﷺ بهذه الكرامة حيث إنه قدَّم أولاده الخمسة في سبيله، وهم:

الأول: الذي ألقته أمه سقطاً في طريق السبي.

الثاني: الذي ولدته أمّه في اليوم العاشر من المحرّم الحرام، وأعطته للحسين ﷺ، وهو ابن أمّ إسحاق حيث جاءت به إلى الإمام الحسين ﷺ وهي تحمله، وقالت له: هاكم رضيعكم ياآل محمد، لقد جفّ صدري. فأخذه الحسين ﷺ وهو يطيل النظر في وجهه ثم قال: «بني، تعساً لقوم قتلوك». ثم كبّر في أذنه اليمنى، وقبّله، فأقبل إليه سهم ذبحه من الوريد إلى الوريد، فقال ﷺ: «اللهم بعينك».

الثالث: عبد الله الرضيع الذي كان له من العمر ستة أشهر.

الرابع: ابن شهربانويه أخت شاهزنان، وقد تزوّجها الحسين ﷺ بعد موت الحسن ﷺ، فلما سقط الإمام الحسين ﷺ على وجه الأرض صنع له وسادة من التراب فخرج إليه ابنه هذا وقُتل عنده. وكان عمره سبع سنوات.

الخامس: هو علي الأكبر الذي أخذ مصرعه من الحسين ما لم يأخذه مصرع آخر غيره، فلم يحدّثنا التأريخ أن مصرعاً أخذ من الإمام الحسين ﷺ مأخذاً كالذي أخذه مصرع الأكبر، فحينما سمع ﷺ صوته منادياً: عليك مني السلام أبا عبد اللّه. انقضّ ﷺ، وذاد عنه الخيل يميناً وشمالاً إلى أن وصل إليه، فوجده وقد غطّاه الدم، فرمى بنفسه عليه من على ظهر فرسه وصاح: «بني علي، على الدنيا بعدك العفا، أمّا أنت فقد استرحت من هم الدنيا وغمّها، وألقيت أباك لهمّها وغمها، وما أسرع اللحاق بك». ثم احتضنه وجلس عنده:

يبني علي يا فتشة العين كلّي صواب الضاهدك وين

أنا منين اجتني كربلا منين

ثمّ التفت إلىٰ الفتية وقال: «احملوا أخاكم؛ فإني لا طاقة لي علىٰ حمله». فحملوه ورجلاه تخطّان الأرض، وأقبلوا به إلىٰ الخيمة، فهرولت إليه عمّاته وخالاته وجلسن عند رأسه:

يـــمغسّل الشبان بـهداي ابهيده من تصب عليهم الماي

* * *

ومحا الردىٰ يا قاتل اللّه الردىٰ منه هلالَ دجىً وغرّةَ فرقدِ

يا نجعةَ الحيّينِ هاشم والعلا وحمىٰ الذمارين العلا والسؤددِ

﴿٦٦﴾

خلائق علي الأكبر

لم تــــرَ عـــين نــظرت مــثله | مــن مــحتفٍ يــمشي ومــن نــاعلِ
يـــغلي نــئيّ اللـحم حــتى إذا | أنــضج لم يــغلُ عــلى الآكــلِ
كــــان إذا شــبّت له نــاره | أوقـــدها بـــالشرف القــابلِ
كــيما يــراهـا بــائس مــرمل | أو فــــرد حــــي ليس بـالآهلِ
أعني ابن ليــلى ذا الســدى النـدى | أعني ابـن بـنت الحسب الفـاضلِ
لا يـــؤثر الدنــيا عــلى ديــنه | ولا يـــبيع الحــق بــالباطلِ[1]

المباحث العامة للموضوع

المبحث الأوّل: في صفاته

إن قول الشاعر:

لم تــــرَ عـــين نــظرت مــثله | مــن مــحتفٍ يــمشي ومــن نــاعلِ

يضع بين أيدينا بعضاً من ملامح وصفات هذا الرجـل العـظيم. وقـد يقول قائل: ما هذا اللون من المبالغة الذي لا يمكن أن يُقبل؟ ومـن أي

(١) الأبيات للنجاشي الشاعر. مقاتل الطالبيّين: ٥٣، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (أبو مخنف): ١٦١، تاريخ مدينة دمشق ١٣: ٢٩٨.

منطلق انطلق الشاعر بهذه المبالغة؟ ولنفرض أننا نسمح للأدباء أن يكون عندهم لون من المبالغة في الأدب بناءً على القول المأثور «أكذبهُ أعذبهُ» لكن ليس إلى الدرجة التي يقول فيها شاعر: إنّه لم ترَ عين مثله.

لكن لو تمعنا في الأمر قليلاً لوجدنا أنّ هذا الشاعر لم يُبالغ؛ لأنّه إنّما يمدح صفات النبيّ وخلائقه، ويُصور سماته صلى الله عليه وآله؛ لأنّ علياً الأكبر كان يشبهُ رسول الله صلى الله عليه وآله في خلقه وخُلقه ومنطقه. وهذه الجنبة من وجه المشابهة هي مأخذ الشاعر ومدركه الداعيان له لأن يصف الأكبر بما وصف. فخصائص الوراثة تجلّت كلّها فيه بإجماع من كتب عنه من المؤرّخين، فهؤلاء حينما يتناولون شخصية علي الأكبر يمنحونه هذه الصفات ويقولون عنه: إنّه كان أنموذجاً يُمثل رسول الله صلى الله عليه وآله ويجسّده خلقاً وخُلقاً ومنطقاً.

أثر قانون الوراثة في بناء شخصية الأكبر

إننا نعرف أن قانون مندل للوارثة يقسم الوراثة إلى قسمين: الوراثة القريبة، والوراثة البعيدة. وما يهمنا هنا هو الوراثة القريبة، وهي الوراثة التي تكون من الأب المباشر أو الجدّ المباشر. وعلي الأكبر قد أخذ الوراثة هذه عن أبيه الحسين عن جدّته فاطمة عليها السلام عن جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله، فليس بينهُ وبين جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله سوى حلقتين فقط، أي أنّها ليست وراثة بعيدة وإنّما هي وراثة قريبة؛ فكان في مشيته يحكي مشية رسول الله صلى الله عليه وآله الذي كان يتكفأ فيها، وكذلك كان علي الأكبر، وكانت ملامح وجهه وقسماتُهُ وأخلاقهُ وتربيتهُ هي عينها تلك التي كانت عند النبيّ صلى الله عليه وآله.

وإضافة إلى ذلك نجد أنه قد اكتسب هذه الصفات عن رسول الله ﷺ بحكم الاحتكاك بهذه الأسرة التي تأثّرت بأخلاق الرسول وتشبّعت بها. وكانت هذه الأسرة النموذج الممثّل لأخلاق الرسول ﷺ، وبهذا فإننا لا نستطيع أن نعتبر أنّ هذا الشاعر يبالغ في قوله هذا بعد أن عرفنا أنّ في علي الأكبر سمات كثيرة من جدّه رسول الله ﷺ. ومضافاً إلى ما مرّ نجد أنّ فيه سمات كثيرة من جدّه أمير المؤمنين ﷺ. ولعلّ الإمام الحسين ﷺ لأجل هذا سماهُ عليّاً، وكان هذا الاسم من أحبّ الأسماء إلى أهل البيت ﷺ.

مكافحة الأمويين اسم علي ومن تسمّى به

ولهذا السبب كان هذا الاسم يكافح بشكل فظيع أيام الأمويين، فكان من يتسمّى بهذا الاسم يُعتبر قد ارتكب إثماً كبيراً من وجهة نظر السلطة الحاكمة، وكان المتسمّي به يتعرض إلى المضايقات، وتمارس ضدّهُ بعض ألوان الإرهاب. ولست أدري ما السبب في ذلك، فكأنّه ﷺ لم يأتِ من الحجاز بل إنّه جاء من بلاد الكفر. والمفروض ألّا يكون هناك نوع من الحساسية اتجاه هذا الاسم. ومن شواهد هذه الحسّاسية التي يخلّفها اسم علي ما يروى من أن علي بن عبد الله بن عباس كان يكنّى بـ(الحسن)، وقد دخل يوماً على عبد الملك بن مروان، فاستقبله عبد الملك بقوله: أنت علي أبو الحسن؟ قال: نعم. فقال عبد الملك: والله لا أجمعهما لك، عليّ وأبو الحسن؟ إما أن تغيّر اسمك أو أن تغيّر كنيتك. فاضطر إلى أن يغيّر كنيته[1].

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ٤٣: ٤٥. وفيه أنه أغراه بمئة ألف كي يغيّر كنيته أوّلاً.

وموضع الشاهد هنا أنّ السلطة كانت تتحسّس من اسم علي عليه السلام.

على أية حال فإنّ الشاعر هنا لم يكن مبالغاً قط في وصفه عليّاً الأكبر بهذا الوصف؛ لأنّه قد أخذ كل الجوانب الحميدة عن طريق الوراثة القريبة وعن طريق المؤثّرات البيتية في الجانب التربوي.

المؤثرات التي عاشها في أُسرته وتفاعل معها، فكان في غاية الصلابة والاستقامة، والصفات التي جعلت الإمام الحسين عليه السلام يرىٰ فيه سمات البيت بكامله.

وعلي الأكبر هو أكبر أولاد الإمام الحسين عليه السلام، وقد ولد قبل الإمام زين العابدين عليه السلام.

المبحث الثاني: في نسبة البعض إلى أمّهاتهم

إنّ أوّل ما يطرأ على البال عندما نقرأ قول الشاعر:

أعني ابن ليلى ذا السدى الندى ... أعني ابن بنت الحسب الفاضلِ

هو تساؤل حول سبب نسبة بعضٍ إلى أُمّهاتهم عند العرب، وعن الداعي الذي يدفعهم إلىٰ ذلك حتىٰ قال الشاعر هنا: «ابن ليلىٰ».

إننا نعرف أن عند العرب أغراضاً وأساليب بلاغية يستخدمونها في كلامهم، وعندما ينسبون شخصاً إلىٰ أُمّهِ فإن لهم حتماً أهدافهم الخاصة، ومن هذه الأهداف:

أوّلاً: التحقير

فعندما يريدون أن يحقروا أحداً ينسبونه إلىٰ أُمّه، ووجه التحقير كأن توجد فيه عاهة اجتماعية، فيقولون: يابن الزرقاء، ويابن النابغة، ويابن فلانة. وهذا ما كانوا يفعلونه مع زياد؛ حيث إنّهم كانوا ينادونه بابن سمية،

وكذلك كانوا ينادونه بابن أبيه؛ ولذلك فإن السيّدة عائشة أرادت يوماً أن تكتب كتاباً لزياد جواباً على كتاب كان قد كتبه إليها، فتحيّرت ما الذي تكتبه له؛ هل تكتب زياد بن أبي سفيان وهذا كذب، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»[1]، فمن لم يولد على فراش شرعي لا يعتبر ولداً شرعيّاً، أم زياد بن أبيه (كما هو المعروف) وهذا يترك أثراً في نفسه وخاطره ويغضبه، وأخيراً كتبت: من أم المؤمنين إلى ولدها زياد. فلما وصلت الرسالة إليه تبسّم، فسأله أحد جلسائه قائلاً: ضحكت؟ قال: لقد لقيت أمّ المؤمنين من هذا العنوان نصباً[2].

ثانياً: التعظيم

وفي المقابل فإنّ العرب يسمون الإنسان باسم أُمّه للتمجيد والتعظيم، وذلك فيما إذا طغت شهرة الأم على شهرة الأب. فهنالك الكثير ممن ينسب إلى أمّه؛ لأنّ لأمّه شهرة وتأثيراً كبيراً ومكانة في الحياة أكبر من تلك التي لبعلها. وحينئذٍ فإن هذا ينسب لأمّه لهذا السبب.

ثالثاً: لاشتهار الأب شهرة فائقة

وهذا من الأسباب أو الأهداف التي كان العرب يضعونها في اعتبارهم عندما يريدون نسبة أحدٍ؛ فإنهم حينئذٍ ينسبونه إلى أمّه. فحينما يمتلك الأب شهرة طاغية جداً فإنّهم يلجؤون إلى نسبة ولده إلى أمّه كي يوجدوا معادلة بين شهرة الأمّ وشهرة الأب. فالولد حينما يكون أبوه بهذه

---

(١) الكافي ٥: ٤٩١ / ، ٤٩٢ / ، ٧: ١٦٣ / ، كتاب المسند (الشافعي): ١٨٨، مسند أحمد ١: ٢٥، وغيرها.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٦: ٢٠٤، تاريخ مدينة دمشق ١٩: ١٧٧.

الصفات ويمتلك تلك المكانة الكبرىٰ وذلك المركز الاجتماعي الراقي، وتكون أُمّه غير معروفة فإنهم حينئذٍ ينسبونه إليها حتى يقال: إنّه ليس ابن أبٍ عظيم فقط، وإنّما هو ابن أُمٍّ عظيمة. وهذا ما فعله الفرزدق مع الإمام زين العابدين عليه السلام؛ حيث دخل هشام بن عبد الملك ـ وهو لا يزال وليّ العهد ـ إلى الكعبة فلم يجد طريقاً إلىٰ الحجر الأسعد، فاضطرّ إلىٰ الجلوس والانتظار. وفي هذا الوقت يدخل علي بن الحسين عليه السلام، فانفرج له الناس سماطين حتى وصل الحجر ولمسه، ويُسأل هشام: من هذا؟ فيقول: لا أعرفه. وكان يعرفه، لكنه خشي أن يميل الناس إليه، لكن الفرزدق ينبري له ليقول:

هذا ابنُ فاطمةٍ إن كنتَ جاهلَهُ ... بجدِّهِ أنبياءُ الله قد خُتِموا

وليس قولُك من هذا بضائرِهِ ... العُربُ تعرِفُ من أنكرتَ والعَجَمُ[(١)]

والفرزدق من محبي أهل البيت عليهم السلام يدل عليه أنه حينما وفد أبوه غالب بن صعصعة على أمير المؤمنين عليه السلام وهو معه قال له عليه السلام: من أنت؟ فقال: غالب بن صعصعة المجاشعي. قال عليه السلام: «ذو الإبل الكثيرة؟». قال: نعم. قال: «ما فعلت إبلك؟». قال: أذهبتها النوائب، وذعذعتها الحقوق. قال عليه السلام: «ذاك خير سبلها. ومن هذا الغلام معك؟». قال: ابني، وهو شاعر. قال: «علّمه القرآن؛ فهو خير له من الشعر»[(٢)].

---

(١) ديوان الفرزدق: ١٧٨، مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٦، تهذيب الكمال ٢٠: ٤٠٠ ـ ٤٠١، سير أعلام النبلاء ٤: ٣٩٨.

(٢) تقول الرواية: فكان ذلك في نفس الفرزدق، حتى قيّد نفسه، وآلى ألّا يحلّ قيده حتى يحفظ القرآن الكريم، فما حلّه حتى حفظه. وفي ذلك يقول:

وما صبّ رجلي في حديد مجاشع ... مع القدّ إلّا حاجة لي أُريدها

وإنما قال له الإمام ﷺ ذلك لأنه خشي أن يغلب عليه قول الشعر وإنشاده ويصبح في وضع يمدح به هذا ويذمُّ ذاك دون أن يستحق المدح ممدوحُه أو القدح مقدوحُه.. خشي عليه أن يمدحَ التوافه وأن يقع في هذا النمط من قول الشعر لكسب الأموال.

إذن كان بوسع الفرزدق أن يقول له: هذا ابن علي أو هذا ابن رسول الله ﷺ لكنّه لم يفعل لأنه يريد أن يقول له: إنّ عليّ ابن أبي طالب أو رسول الله ﷺ معروفان وهما من الشهرة والمكانة بدرجة لا يحتاجان معها إلىٰ زيادة إيضاح، ويقول كذلك: أُريد أن أزيد فقط أن هذا ينتمي من جهة إلىٰ علي ﷺ ومن جهة أُخرىٰ إلىٰ رسول الله عن طريق فاطمة ﷺ.

ومثل هذا قول الشاعر مخاطباً رسول الله ﷺ:

يا ابن الفواطم والعوا ... تك والقرائك والأرائك[1]

شرح نهج البلاغة ١٠: ٢١ – ٢٢، كنز العمال ٢: ٢٨٨ / ٤٠٢٦، الإصابة ٥: ٣٠١ / ٧٠٥٠.

(١) البيت لبديع الزمان الهمداني. تذكرة الخواصّ: ٣٤، أعيان الشيعة ١٠: ٧٨.

والفواطم اللاتي ولدن رسول الله خمس: قرشية وقيسيّتان ويمانيّتان. فالقرشية هي فاطمة بنت عمرو، أُم أبيه عبد الله. والقيسيتان هما فاطمة بنت عبد الله بن رزاح، وأُمّها فاطمة بنت الحارث. واليمانيّتان هما أُم قصي بن كلاب فاطمة بنت سعد، وفاطمة بنت نصر بن عوف، أُم حبي بنت حليل.

وأما العواتك فاثنتا عشرة: قرشيّتان، وهما عاتكة بنت هلال جدّة أُمّه آمنة بنت وهب، وعاتكة بنت غالب بن فهر. وواحدة من بني يخلد بن النضر وهي عاتكة بنت يخلد بن النضر بن كنانة. وثلاث سلميات هن عاتكة بنت مرة أُم هاشم بن عبد مناف، وعاتكة بنت هلال أُم عبد مناف، وعاتكة بنت الأوقص بن مرة أم جدّه لأمه وهب بن هلال. وعدويتان ـ من جهة أبيه عبد الله ـ وهما عاتكة بنت عامر. وعاتكة المعروفة بالحصان بنت عدوان. وأزدية هي عاتكة بنت الأزد بن الغوث. وقد ولدته هذه الأزدية مرّة أُخرى من قبل غالب بن فهر: فإن أُمه ليلى بنت سلمى بنت طابخة، وهي ابنة عاتكة بنت الأزد هذه. وهذلية هي عاتكة بنت

وهذا لبيد يفخر بأُمّ البنين في مجلس النعمان :

نحن بنو أمّ البنينِ الأربعة ونحنُ خيرُ عامر بن صعصعة

المطعمونَ الجفنةَ المدعدَعَة والضاربونَ الهامَ تحتَ الخيضعة[(١)]

فلبيد يفخر بأُمّ البنين والمفروض أن لها بعلاً ، لكن كان يريد أن يفخر بها حتىٰ يُوجد معادلة في هذا.

إذن كان أمراً ضرورياً عند العرب أن يتساوىٰ أبو الرجل وأُمّه وإلاّ عُدّ هجيناً ، بل ربما يخلق له هذا الأمر مشكلة ، ولأضرب لك مثلاً هذه الحادثة حيث دخل ثلاثة إخوة إلى سوار بن عبد الله بن قدامة القاضي ، فقال أحدهم : إننا إخوة وقد مات أبونا . فقال : رحمه اللّه. قال : ونحن الاثنان أشقّاء ، أمّا الثالث فأُمّه أمة ، ونريدك أن تقسم الميراث بيننا . فقال : ليس في البين مشكلة ؛ فلكلّ واحد منكم الثلث . فقالا معاً : لا نراك فهمت . قال : بل فهمت ؛ فإنه أخوكما ، وكونه هجيناً لا يبخسه حقّه من ميراث أبيه . قالا : تعطي ابن الأمة كما تعطي ابن الحرّة؟ فقال : بلى . فقالا : إنك لقليل الخالات بالدهناء[(٢)].

أي بتعبير آخر إنك لست ابن البادية ، وليست عروبتك عروبةً خالصة ، وإلّا لو كنت كذلك (لك خالات بالدهناء ، أي من قلب العرب) ، لما قلت

سعد . وقضاعية هي عاتكة بنت رشدان . وأسدية هي عاتكة بنت دودان بن أسد .

تاريخ اليعقوبي ٢ : ١٨١ - ١٢٤ ، النهاية في غريب الحديث والأثر ٣ : ١٨٠ ، الكامل في التاريخ ٢ : ٣٣ - ٤١ .

(١) ديوان لبيد (ضمن ديوان الفروسيّة) : ١٦٨ ، الأمالي (المرتضى) ١ : ١٣٦ ، الإرشاد ٢ : ١٨ ، شرح نهج البلاغة ١٦ : ٥٠ ، مقاتل الطالبيّين : ١٤٩ ، تاريخ مدينة دمشق (ترجمة الإمام الحسن عليه السلام) : ١٥٧ ، قصص العرب ٣ : ١١١ ـ ١١٤ / ٤٨ .

(٢) الكامل في الأدب ٢ : ٤٨ .

هذا.

وهذا اللون من العصبية الذي يُعدّ ابن غير العربية هجيناً توجّه يخلق نوعاً من المشاكل بين الإخوة، وهو توجّه يرفضه الإسلام.

على أية حال فإن الفرزدق لا يجهل أن الزهراء لا ترقى إلىٰ مستوى علي بن أبي طالبﷺ.

القرطبي ونسبة الحسنينﷺ إلى فاطمةﷺ

وأنا أستغرب من شيء يستغرب منه القرطبي، هذا المفسّر الضخم والذي يُعدُّ تفسيره طعمةً؛ إذ يجد فيه القارئ الفكرة الرأي الفقهي والأُصولي والجانب التاريخي، لكنّه مع ذلك حينما يأتي إلىٰ هذه الآية الكريمة: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾[1] فإنّه يقول: إن جميع الناس يوم القيامة يدعون بأسماء اُمّهاتهم؛ وذلك لثلاثة أسباب:

الأوّل: إكراماً لعيسى بن مريمﷺ، لأنه لا أب له.

الثاني: تشريفاً للحسنينﷺ بنسبتهما إلى اُمّهما.

وهذه فكرة غير مقبولة؛ لأنّ اللّه تعالىٰ لو أراد أن يناديهما باسم أبيهما أمير المؤمنينﷺ الذي يقول فيه رسول اللّهﷺ مخاطباً فاطمة: «زوّجتك خير الناس من بعدي»[2]، لما كان يضيرهما ممّا يدّعيه شيء.

---

(١) الأحزاب: ٥.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٢٢، وفيه: «خير من أعلم»، الطبقات الكبرى ٨: ٢٤، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ١٢٦، كنز العمّال ١١: ٦٠٥ / ٣٢٩٢٦، ١٣: ١٣٥ / ٣٦٤٢٣، وفيها: «خير أهلي».

وفي الأمالي (الصدوق): ٤٣٤ / ٥٧٤: عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: إن رسول اللهﷺ كان ذات يوم في منزل أُم إبراهيم، وعنده نفر من أصحابه، إذ أقبل علي بن أبي طالبﷺ، فلمّا بصر به النبيﷺ قال: «يا معشر الناس، أقبل إليكم خير الناس بعدي،

والزهراء عليها السلام وغيرها لا يرقون إلىٰ مستوىٰ علي بن أبي طالب عليه السلام الذي هو إمام المتّقين، ويعسوب الدين، ومفخرة الإسلام.

أيّهما تشرف بهذه الزيجة؟ علي أم فاطمة عليهما السلام

وهذه المسألة يُثيرها المؤرّخون فيقولون: أيّهما تشرّف بالزواج من صاحبه؟ هل هو علي بن أبي طالب عليه السلام، أم فاطمة عليها السلام؟ وكأن هؤلاء قد تناسوا أن الإمام عليّاً عليه السلام هو حامي الإسلام ورافع لوائه في أربع وثمانين غزوة كان فيها المدافع عن حمىٰ المسلمين والمدرسة السيارة الذي لا زالت آراؤه إلىٰ الآن يضيق عنها الزمان. ومن يطلع على فكر علي بن أبي طالب عليه السلام يجد فيه العَجب العُجاب، وليس كلُّ ما يعرف يُقال.

إذن فهذا الرأي الذي يطرحهُ القرطبي لا يُقبل بأي حالٍ من الأحوال، وليس من المعقول أن اللّه جل وعلا يدعو الناس بأسماء أُمّهاتهم ولو ضمناً على حساب الحسنين عليهما السلام، فيشرفهم بنسبتهم إلىٰ أُمّهم.

الثالث: أن في ذلك ستراً على الناس؛ إذ أن البعض منهم أولاد زنا، فإن نودوا بأسماء آبائهم الحقيقيّين افتضحوا وأُمّهاتهم.

وهنا أودّ أن أُلفت النظر إلىٰ أنّ الوالد الحقيقي الذي يُسمىٰ والداً هو الأُم وليس الأب، والأب إنّما يُسمىٰ والداً من باب المقابلة. وهذا من قبيل إطلاق اسم القمرين على الشمس والقمر فهو إطلاق تغليب ومقابلة كما

وهو مولاكم: طاعته مفروضة كطاعتي، ومعصيته محرمة كمعصيتي».

وفي بشارة المصطفى (الطبري): ٤٢٠ – ٤٢١ / ٢٨: «يا علي أنت خير الناس بعدي، وأنت أوّل الناس تصدّراً، من أطاعك فقد أطاعني، ومن أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاك فقد عصاني، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أحبّك فقد أحبّني، ومن أحبّني فقد أحبّ الله، ومن أبغضك فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله. يا علي لا يحبّك إلا مؤمن ولا يبغضك إلّا منافق أو كافر».

هو مذكور في علم البلاغة. فالأب والد لأنه يقابل الأم، لأن الأب لا يلدّ والأم هي التي تلد والتي يقع عليها عبء الولادة وآلامها.

وهذا الأمر من جملة الأمور التي يستند إليها الفقهاء في باب التزاحم في الحكم بتقديم قول الأم على قول الأب فيما لو تساويا فلو قال الأبُ: لا تفعل، وقالت الأم: افعل أو بالعكس، وجب تقديم قول الأم ما لم يكن فيه معصية لله أو ضرر للولد؛ لأن تعب الأم على ولدها أكثر من تعب الأب عليه. فالأب يضع ابنه وهو في ألذّ حالاته أما الأم فتضعه في أشدّ حالاتها، وربما وضعته وهي في حالة نزع واحتضار فإن نجت وسلمت فإنها تكون قد نجت بأعجوبة. هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فإن الأب لا يستطيع أنّ يتحمّل هذا الطفل وصراخه ليلاً، في حين أن الأم تلتذّ بتربيته مع ما يسبّبه لها من أذىٰ. وهذا يدلّ على عمق علاقة الأمومة التي تسري في كيانها وعروقها.

ثم إنّ من أشدّ الأمور إيلاماً للمرأة وجرحاً لعاطفتها هو قول القائل لها: إنك امرأة عقيم، فهو قول فظيع من وجهة نظرها؛ لأنّه يطعن أمومتها ويضربها في الصميم؛ فأعظم وظائف الأم هي الأمومة وتربية الولد.

إذن فالأب والد مجازي للمقابلة، وهما والدان للتغليب، والأم والدة حقيقة، وهذا ما يشير إليه التعبير القرآني الدقيق في قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[1] فتأمّل قوله عزّ وجلّ: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾، فهو لا يسميه والداً ولا يطلق عليه هذا اللفظ هنا أبداً. وحتى تعبير ﴿الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ لم يكن ليستحقّه لولا أنه من مائه. فمن يلد فعلاً هي

---

(١) البقرة: ٢٣٣.

الأم ؛ ولذلك جعل اللّه الجنّة تحت أقدامها على لسان رسوله الأكرم صلى الله عليه وآله في قوله : «الجنة تحت أقدام الأمّهات»[1] . فلا يدخل في خلد أحد أنّ لأحد حقّاً على الآخر كالحقّ الذي افترضه اللّه تعالى للأم على ولدها ؛ لأنّها الكائن الوحيد الذي يتحمّل كل أذى الوليد منذ وضعه وحتىٰ نضجه ، فهي التي كرّست له كل حياتها وجهدها وطاقتها بمواصلة رعايته وتربيته ، وبذلت كل حياتها ونذرتها لأجله .

فالأم يخالجها شعور بأنّ الدنيا قد ابتسمت لها حينما يبتسم لها وليدها ، وتظن أنّ الدنيا قد أغلقت أبوابها بوجهها حينما ترىٰ وليدها قد مسّه مرض أو ألم . وهذا هو السبب الذي من أجله جعل اللّه حقوق الأم أعظم من حقوق الأب ، فهي صانعة الحياة وبانية الأجيال ومشيّدة المجتمع ، والتي تملأ كل ذلك حناناً وعطفاً . لقد أعجبني قول أحد الأدباء وهو يصفها : «تغريد الملائكة بفم الأم لطفلها» . وهذا هو الذي يتوجّب علينا توفيره للطفل ؛ لأنّه كائن ضعيف يحتاج إلى العطف والحنان والرعاية ، ولا أحد يستطيع أن يملأ نفسه بهذا سوى الأم ببسمتها له ومناغاتها إيّاه وضحكتها في وجهه .

رجع

إذن فكلام القرطبي في هذا المورد مرفوض ؛ لأنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يتشرّف بالزهراء وإن كان قد تشرّف برسول اللّه صلى الله عليه وآله ، بل الزهراء هي التي تشرفت به . وهو كلام عجيب يثير الاستغراب ، وأنا لا أتّهم القرطبي ، بل

(١) مستدرك وسائل الشيعة ١٥ : ١٨٠ / ١٧٩٣٣ ، مسند الشهاب ١ : ١٠٢ / ١١٨ ، كنز العمّال ١٦ : ٤٦١ / ٤٥٤٣٩ .

أظن أنّ في الأمر غفلة وقع فيها، فهذا الرجل عقلية ضخمة، وكونه صادراً من هذا الرجل يحملني على حسن الظن به وعدم تهمته، بل أحمله على الغفلة، أمّا أن يصدر من غيره فأنا أتّهمه. ولهذا الكلام نظير، وهو أن معاوية بن أبي سفيان سأل جلساءه يوماً، فقال لهم: من أحقّ بالخلافة؟ قالوا: أنت. وهؤلاء بطبيعة الحال لا يمكن أن يعدوا هذا الجواب، أو أن يجيبوا بغيره وإن لم يكن عن قناعة منهم؛ لأنهم صنائعه، فقال لهم: لا، أنا لست الأحقّ بها. فعجبوا من قوله، وقالوا: فمن هو الأحقّ بها إذن؟ قال: علي الأكبر بن ليلى.

وهنا موضع الشاهد؛ حيث إنه نسبه إلى أُمّه بقوله: ابن ليلى، فقالوا له: ولم؟ فقال: لأن فيه زهوَ ثقيف. ذلك أن أمّه هي ليلى ابنة أبي مرّة بن عروة بن مسعود الثقفي؛ فهو يلتقي مع المختار بن أبي عبيدة عند جدّهما الرابع من ناحية الأُمّ. وقوله: فيه زهو ثقيف، لأن ثقيفاً كانت عندها خصلة الزهو والخيلاء، والاعتزاز بالنفس، والعنفوان.

ثم قال معاوية: وسخاءَ أُميّة. ذلك أن جدّته لأُمّه ليلى هي ميمونة بنت أبي سفيان. ومعنى هذا أنه يريد أن يقول: إننا ورّثناه سخاءنا.

ثم قال: وشجاعةَ هاشم.

ونحن نقول لمعاوية: هذا السخاء الذي نسبه للأمويين من أين ادّعاه؟ هل هو قبل أن يتولّى الخلافة أم بعدها؟ فإن كان قبل الخلافة فليُرجع إلى كتب التفسير في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[1]، فالمفسّرون بصورة عامّة يقولون: إن هند زوجة أبي

(١) الفتح: ١٠.

سفيان جاءت لتبايع، فلمّا فرغت قالت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل بخيل، فهل عليّ أن أُطعم عيالنا من ماله؟ قال صلى الله عليه وآله: «لا، إلا بالمعروف». أي بقدر الحاجة[1]. فمن يبخل على أهله كيف يورّث غيره السخاء؟ وإن كان بعد أن وصلت إليه الإمارة والسلطة فهو من باب «وهب الأمير ما لا يملك»:

ومن دخل البلاد بغير حرب يهون عليه تسليم البلاد[2]

وهذا البيت ينطبق عليه تماماً، وأبسط مثال على ذلك أنّ الأمر وصل به أن أعطى مصر طعمة لعمرو بن العاص بعد أن طلب هذا الأخير منه ذلك، ووقف له قائلاً: ما لي إن شايعتك على أمرك حتى تنال ما تريد؟ قال: حكمك. قال عمرو: اجعل لي مصر طعمة ما دامت لك ولاية. فقال له معاوية: لك مصر طعمة[3].

وهذا الذي يذكره المؤرّخون كافّة. فهل يعدّ كرماً أن يمنح بلداً بأكمله إلى شريك له بالإثم والمعصية؟ من أين أتته هذه الصلاحيّة؟ ومن

(١) فتح الباري ٩: ٤٤٧، عمدة القاري ١٦: ٢٨٤، ٢١: ١٩، الإصابة ٨: ٣٤٧، تاريخ مدينة دمشق ٧٠: ١٧٧ - ١٧٨، وكذلك كتب الحديث، ومنها مارواه كل من أحمد بن حنبل، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وغيرهم من أن فاطمة بنت قيس جاءت رسول الله صلى الله عليه وآله فذكرت له أن معاوية بن أبي سفيان وأبا جهم خطباها، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك لامال له».
انظر: مسند أحمد ٦: ٤١٢، صحيح مسلم ٤: ١٩٥، سنن أبي داود ١: ٥١٠ / ٢٢٨٤، سنن النسائي ٦: ٧٧ - ٧٥.

(٢) مجمع الحكم والأمثال ج ١ / موضوع الوطن.

(٣) تاريخ الطبري ٤: ٧٣ - ٧٤، الأخبار الطوال: ١٥٨، تاريخ اليعقوبي ٢: ١٨٦، الغارات ١: ٢٧١ - ٢٧٢، ٢: ٧٤٨، سير أعلام النبلاء ٣: ٧٢ - ٧٣.

أعطاه خاصية التصرّف هذه؟ فهل ورثه من أبيه؟

والنتيجة أنهم غير معروفين بالسخاء، لكن حينما تسلّموا السلطة وأصبحت أموال المسلمين بأيديهم بدأ التصرّف غير المشروع بها.

وهذا ما لا يمكن أن يُسمى سخاءً بل إنّه سوء تصرّف وعبث بأموال المسلمين؛ لأنّ السخاء أن يعطي الإنسان من كسب يده وعرق جبينه وتعبه، كما فعل أمير المؤمنين عليه السلام حيث أوقف عينين له احتفر أحدهما بيده، يقول أبو نيزر: كان للإمام علي عليه السلام قطعة أرض يملكها، فجاءني يوماً وأنا أقوم بالضيعتين: عين أبي نيزر والبغيبغة فقال: «هل عندك من طعام؟». فقلت: عندنا طعام لا أرضاه لك، قرع من قرع الضيعة صنعته. فقال عليه السلام: «عليّ به». فقام إلى الجدول فغسل يده، ثم أصاب من ذلك الطعام شيئاً: ثم رجع إلى الجدول، فغسل يده بالرمل حتى أنقاها، ثم ضم يديه كلّ واحدة إلى أختها، ثم شرب بهما وقال: «يا أبا نيزر، إن الأكف أنظف الآنية».

ثم مسح من ذلك الماء على بطنه وقال: «من أدخله بطنه النار فأبعده الله». ثم أخذ المعول وانحدر إلى العين فأقبل يضرب فيها وأبطأ عليه الماء فخرج وقد تفضّخت جبهته عرقا، فاستشفّ العرق من جبينه ثم أخذ المعول وعاد إلى العين فأقبل يضرب فيها وجعل يهمهم، حتى انثالت كأنها عنق جزور، فخرج مسرعاً فقال: «الله أكبر، سيخيب الوارث، أُشهد الله أنها صدقة. عليّ بدواة وصحيفة». فعجّلت بها إليه، فكتب عليه السلام: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تصدّق به عبد الله علي أمير المؤمنين، تصدّق بالضيعتين المعروفتين بعين أبي نيزر والبغيبغة على فقراء أهل المدينة وابن السبيل؛ ليقيَ الله وجهي حرّ النار يوم القيامة، ولا تباعا ولا توهبا حتى يرثهما الله وهو خير

الوارثين، إلّا أن يحتاج الحسن أو الحسين فهما طلق لهما ليس لأحد غيرهما»[١].

وهكذا فعل عليه السلام بعيني أبي نيزر والبغيبغة اللتين كانتا يملكهما فقد استنبعهما وأصلح بهما الأرض، ثم أوقف ذلك كلّه على فقراء المسلمين ومساكينهم. وهذا هو السخاء الحقيقي الذي يكون عن عرق الإنسان وكدّه، والذي أوصل أمير المؤمنين عليه السلام إلى أنّه كان يرجع إلى البيت خالي اليد دون أن يحمل معه حاجة لأهله، فقد كان يفرّق جميع ما يحمله معه على بيوت الفقراء ويوزّعه عليهم.

وهاتان العينان دفع فيهما معاوية نفسه مليوني دينار للإمام الحسين عليه السلام حينما ركبه دين، فأبى عليه السلام أن يبيع صدقات أبيه، وقال: «إنما تصدّق بها أبي ليقي الله بها وجهه حرّ النار»[٢].

فعطاء أمير المؤمنين عليه السلام هو العطاء؛ لأنه في شيء سكب عليه عرقه وحازه بكدّه وتعبه، أمّا أن يستولي شخص على أموال الآخرين ويكرم بها غيره فهذا لا يسمىٰ جواداً أو كريماً، بل هو مغتصب وفعله ليس جوداً أو سخاءً.

ثم إنّ محاولة معاوية تلك ـ قوله: إنّ الأكبر أحقّ بالخلافة ـ هي محاولة لئيمة وفكرة حقّ يراد بها باطل.. فكرة قد دُسّ السمّ بين ثناياها، فهو يريد أن يصرف الناس عن الإمام الحسين عليه السلام ويلقي حوله ظلالاً من الشك، وإلّا فإن الحق أن يقول: إن الحسين عليه السلام أحق بها؛ لأنّه يعرف منزلة الحسين

---

(١) مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ٢: ٨١ - ٨٣ / ٣٦٥، جامع أحاديث الشيعة ١٩: ١١٠ - ١١١، معجم ما استعجم ٢: ٦٥٧ ـ ٦٦٠.

(٢) المصدر نفسه، وفيها: مئتا ألف دينار.

ومكانته وأحقيته بالخلافة[١].

إنّ هؤلاء قد عمدوا إلى نفي الحسين عليه السلام عن رسول الله ﷺ؛ لأنهم يعلمون أنهم لا يمكن أن يصلوا إلى الخلافة في وجود الحسين عليه السلام، فقد ادّعوا أن الحسين عليه السلام إنّما هو ابن علي بن أبي طالب عليه السلام وليس ابن رسول الله ﷺ بل هو ابن ابنته الزهراء، وابن البنت ليس ابناً[٢]. وهذه العملية هي محاولة مفضوحة لتشويه الحقيقة في أعين الناس، وإظهارها أمامهم بمظهر مغاير؛ لأنها محاولة يهدف من ورائها إبعاد نظر الناس عن الإمام الحسين عليه السلام كما قلنا.

المبحث الثالث: في كرم الأكبر وشجاعته

ثم قال الشاعر:

يغلي نَنيَّ اللحم حتى إذا	أنضج لم يغلُ على الآكلِ
كان إذا شبّت له ناره	أوقدها بالشرف القابلِ

أقسام النار عند العرب

أودّ أن ألفت النظر إلى أنّ للعرب أربعة عشر اسماً للنار، كل اسم منها يدلّ على نار معيّنة ترتبط بحدث معيّن، وهذا ما كان عليه العرب كما يحدّثنا عنه تاريخهم. وسأذكر هنا ما يتعلّق منها بحاجتنا كي نخلص منها إلى معنى النار التي يريدها الشاعر وهو يصف بها علياً الأكبر. فمن

---

(١) إن هذا القول يذكّر بمحاولة المأمون إبعاد أمير المؤمنين عليه السلام عن الخلافة وإعطاء الحقّ فيها للحسنين عليهما السلام بعد أن أثبت أفضليته عليه السلام على سائر الخلفاء. العقد الفريد ٤: ٣٦١٦ ـ ٣٦٣٧.

(٢) حول موضوع كون ابن الابنة ولداً صلبياً انظر محاضرة (البناء الأسري في الإسلام) في ج ٤ من المحاضرات.

هذه النيران:

الأولى: نار الحرب

وهي النار التي توقد حينما يريدون الخروج للحرب؛ فقد كانت وسيلتهم في إعلام القبائل الأخرى أن يعمدوا إلى مرتفع من الأرض فيشعلوا ناراً عليها، فتراها تلك القبائل فتبادر إلى الاجتماع عندها. وهذه النار هي التي يعبّر عنها القرآن الكريم بقوله: ﴿**كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾[1].

وأظن أن هذه الظاهرة لم يختصّ بها العرب وحدهم، بل إن الشعوب البدائية كلها تلجأ إلى هذه الطريقة، كما عند شعوب أفريقيا؛ حيث إنّهم كانوا يستمدّون منها العزيمة.

الثانية: نار العبادة

وهي النار التي يتوجّهون إليها عند العبادة أو يتحلّقون حولها. وفكرة عبادة النار ناشئة من كون النار من دنيا القوى، ودنيا القوى أشرف.

وهذا هو الذي يدفع مُقدّسي ابليس إلى القول بتفضيله، ولذا يقول بشّار بن برد:

إبليسُ خيرٌ من أبيكمْ آدمٍ	فتنبّهوا يا معشرَ الفجّارِ
إبليسُ من نارٍ وآدمُ طينةٌ	والأرضُ لا تسمو سموّ النارِ[2]

(١) المائدة: ٦٤.

(٢) ديوان بشّار: ٥٣٩. بل وهو ما دعا إبليس نفسه الى التفاخر بها على آدم في قوله تعالى: ﴿قالَ ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ الأعراف: ١٢.

الثالثة: نار الحلف

وهي النار التي يوقدونها حينما يريدون أن يقسموا على أمر، فيحلفوا بها، يقول شاعرهم:

إذا استقبلته الشمس صدّ بوجهه   كما صدّ عن نار المهولة حالفُ[1]

الرابعة: نار الأحلاف

وهي نار توقد عندما يريدون أن يعقدوا معاهدة أو حلفاً بينهم، فإذا تحالفت قبيلتان أو أكثر على أمر أوقدوا لذلك ناراً.

الخامسة: نار القِرىٰ

وهي النار التي أشار إليها الشاعر في بيته الآنف. ونار القرىٰ هي النار التي يوقدونها ليلاً سيّما في الليالي المظلمة والباردة؛ ليستدلّ بها الطارق أو ابن السبيل على مضاربهم وربوعهم فيُقروه، أي يضيّفوه؛ ولهذا فإنّ هؤلاء يعمدون إلى إشعالها على ربوة أو تلّة كي يسهل على الطارق رؤيتها.

ومعلوم أن وسائل المواصلات عند الناس سابقاً كانت بدائية، فإذا أراد أحدهم سفراً بعيداً فإنّه لن يصل إلى هدفه بزمن قياسي كما هو الحال اليوم؛ ولذا فإنّ المسافر كان يحتاج إلى أن يستغرق في سفره أيّاماً وليالي كثيرة مع ما يصاحب ذلك من تعرّضه للبرد شتاءً، ولم تكن هناك ـ سيما

---

(١) الفائق في غريب الحديث ٣: ٢٥٦ - ٢٥٧. تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات (شرح شواهد الكشاف): ٤٦٧. لسان العرب ١١: ٧١٣ ـ هول. ذلك أن أهل الجاهلية كانوا يطرحون الملح في النار مع الكبريت ويتحالفون عليه. ويسمون تلك النار الهولة، وموقدها المهول.

في الصحراء ـ فنادق أو دور استراحة؛ ولذا كانت محطّات التوقّف للمسافر آنذاك بيوت العرب الذين اشتهروا بالكرم والجود وإقراء الضيف. ومعروف أنهم كانوا يتسابقون إلى اجتذاب الأضياف عبر إيقاد هذه النار على المرتفعات القريبة منهم. قال حاتم الطائي مخاطباً غلامه يساراً:

أوقد فإنّ الليل ليل قرٌّ ... والريح يا موقد ريح صِرُّ
علّ يرى نارك من يمرُّ ... إن جلبت ضيفاً فأنت حرُّ[1]

من مظاهر جود الأكبر

وهذه هي الصفة الحميدة التي يشير إليها الشاعر وهو يمدح علياً الأكبر في قوله:

كان إذا شبّت له ناره ... أوقدها بالشرف القابلِ

يروي المؤرخون أنه كان ينحر الإبل ثم يوقد نار القرى وينضج الطعام، ثم يبدأ بإطعام الناس والأضياف. وهذه الخصلة لم تأته عن كلالة، بل إنّها سمة آبائه الذين كانوا يحملون الطعام في الليالي الباردة على ظهورهم، ثم يدورون بها على بيوت المدينة يطرقون أبوابها ليوصلوا الطعام إلى أهلها والمحتاجين منهم. يقول الزهري:

كنت في إحدى الليالي أمشي في المدينة وقد انتصف الليل، فنظرت إلى زين العابدين ماشياً وهو يحمل على ظهره دقيقاً وحطباً، فقلت: سيدي ما هذا؟ فقال: «أُريد سفراً أُعدّ له زاداً أحمله إلى موضع حريز». فقلت:

---

(١) تفسير السمعاني ١: ٣٥٠، الوافي بالوفيات ١٠: ٥١، أضواء البيان ٧: ١٦.

فهذا غلامي يحمله عنك، فأبى، فقلت: فأحمله عنك؛ فإني أرفعك عن حمله. فقال: «لكني لا أرفع نفسي عمّا ينجيني في سفري، ويحسن ورودي على ما أرد عليه. سألتك بالله لمّا مضيت في حاجتك وتركتني».

فانصرفت عنه، وبعد أيّام رأيته فقلت له: يابن رسول الله، لست أرى لذلك السفر الذي ذكرته أثراً؟ قال: «يا زهري ليس ما ظننت، ولكنه الموت، وله كنت استعدّ». فقلت: ما هذا الذي كنت تحمله؟ قال: «هذا شيء من الطعام كنت أحمله للبيوت الجائعة»[1]. وهكذا كان دأبهم ﷺ.

إذن فعلي الأكبر كان يمتلك هذه المزايا، وهذا البيت الذي ذكرناه يتعرض لها ويذكرها، فهو قد أخذ محامد البيتين؛ فجده من ناحية الأم عروة بن مسعود الثقفي الذي يُعبر عنه النبيّ ﷺ بقوله: «مثل عروة مثل صاحب يس دعا قومه إلى الله تعالى فقتلوه»[2].

والذي عبر عنه القرآن بأنّه أحد العظيمين في قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[3].

وفعلاً كان أحد العظماء، وكان جليل القدر. هذا هو الجد الأول له، والجد الآخر هو علي بن أبي طالب﴿ع﴾ الذي استغنى بفضائله عن أن يُمدح. ومن بين هذين الشرفين كان علي الأكبر، حيث إنّه اكتسب التربية العالية من بيت الرسالة الذي يُعد منطلق الشعاع إلى دنيا المسلمين. وهكذا فإنّ علياً الأكبر كان خلاصة هذه التربية وخلاصة هذه الوراثة،

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٣.

(٢) تحف العقول: ٤٦٥، تفسير السمعاني ٤: ٣٧٤، المستدرك على الصحيحين ٣: ٦١٦، مجمع الزوائد ٩: ٣٨٦، المصنف (ابن أبي شيبة) ٨: ٥٢٠، مسند أبي يعلى ٣: ١٧٤، المعجم الكبير ١٧: ١٤٨، الاستيعاب ٣: ١٠٦٧، الدرر (ابن عبد البرّ): ٢٤٧.

(٣) الزخرف: ٣١.

ولذا فإن الحسين عليه السلام كان ينزله منزلة كبيرة عنده لا حدود لها، يقول المؤرخون: لمّا كان الركب الحسيني في طريقه من المدينة إلىٰ كربلاء هوّمت عينا الحسين عليه السلام ثم انتبه وهو يقول: «لا حول ولا قوة إلّا بالله، إنّا لله وإنا إليه راجعون». فجاءه الأكبر وهو يقول: فداك نفسي يابن رسول الله، لماذا استرجعت؟

يروى أنه لم يكن يقول لأبيه: يا أبي، ولكنه قالها مرة واحدة وذلك حينما سقط صريعاً كما سيمرّ بنا إن شاء الله تعالىٰ، وإلّا فإن خطاباته لأبيه عليه السلام لم تكن سوى قول: يابن رسول الله، أو يابن أمير المؤمنين، أو يا سيّد شباب أهل الجنة، أو ياسيدي. على أية حال سأل علي الأكبر أباه الحسين عليه السلام قائلاً: فداك نفسي يابن رسول الله، لماذا استرجعت؟ فأجابه الإمام الحسين عليه السلام قائلاً: «يابني، رأيت في منامي قائلاً يقول: القوم يسيرون والمنايا تسير بهم، فعلمت أنها أنفسنا نعيت إلينا». فقال الأكبر عليه السلام: ألسنا على الحق؟ قال: «بلىٰ والذي إليه مرجع العباد». قال: إذن لا نبالي أن نموت محقّين. فاحتضنه الحسين عليه السلام وقال: «جزاك الله من ولد خيراً». ثم أخذ يقبّله ويلثمه[1].

فهو يقول لأبيه: ليكن ذلك؛ فنحن لا نبالي ما دمنا قد أعددنا أنفسنا للموت وله خلقنا، فمرحباً بالموت في أية لحظة وأي مكان ما دمنا على الحقّ. فالموت بعزّ هو غايتنا لا الحياة الممزوجة بماء الذل، وهي أيضاً ستنتهي بالإنسان إلى الموت مع أن الذليل ميت وهو في حال الحياة. والموت الذي يكون فيه عزّ الإنسان ليس موتاً حقيقياً بل هو حياة له، ففي

(١) الإرشاد ٢: ٨٢، روضة الواعظين: ١٨٠.

الواقع إن شريحة عريضة من الناس يمشون على الأرض وهم أموات، فهذا الماشي ليس إنساناً، بل هو قبر يمشي بصاحبه على وجه الأرض:

نحن موتى وشرّ ما ابتدع الطغـ ـيان موتى على الدروب تسيرُ

فالعزيز حيّ وإن فارقت روحه بدنه.

وقد اعتنقه ﷺ ثانية لحظة نزوله إلى المعركة، يقول المؤرّخون: جاء الأكبر لأبيه الحسين ﷺ وقال له: سيّدي، لقد نفد صبري؛ فلا طاقة لي على الانتظار، فائذن لي بالقتال. فقال الإمام ﷺ: «بني، عزمت على القتال؟». قال نعم يابن رسول الله؛ فإنه لا يسعني غير هذا. فقال ﷺ له: «بني ادنُ إليّ حتى أُودّعك». فجمع يديه فوق عنقه، واستدناه إليه، وراح يقبّله ويشمّه إلى أن سقطا معاً إلى الأرض، وقد غشي عليهما، ثم لمّا أفاقا من غشيتهما قال له الإمام الحسين ﷺ: «ابرز بني».

فنزل علي الأكبر إلى ساحة الحرب، وكان مشهداً مؤثراً يصفه أحد الأُدباء بقوله: نزل بعنفوان يشبه عنفوان جدّه علي بن أبي طالب ﷺ، فذاد الخيل يميناً وشمالاً:

اسم اللّه عليه فرّع بالذوايب بدر لاچن ابليل الشعر غايب
خاض الخيل وادعاها جنايب وبخيل الكلايع ضيّك البر
اشچم شجاع من غدّارته نس مهو ابن احسين ضرب السيف له وبس
برمحه اشچم عجيد اصياح لبّس خلّاها ابجماجمها اتعثّر
عكب ما وزع الهامات والطاس اجتّه ضربة العبدي على الراس

ثم وقف الإمام الحسين ﷺ عند رأسه، وراح يطيل النظر إلى شخص كان يذكّره برسول الله ﷺ:

يـا عـلي يـبني الـنوب ذلـيت للـــموت يـوليدي تـمنيت

عـمود الوسـط يـا شـايل البيت بويه آنه بيش اجيت وبـيش رديت

وهنا رفع عليه السلام رأسه إلى السماء وقال: «اللهمّ اشهد على هؤلاء القوم، فقد برز إليهم غلام أشبه الناس خلقاً وخلقاً ومنطقاً برسولك، وكنّا إذا اشتقنا إلىٰ نبيّك نظرنا إلىٰ وجهه. اللهم امنعهم بركات الأرض، وفرّقهم تفريقاً ومزّقهم تمزيقاً، واجعلهم طرائق قدداً، ولا ترضِ الولاة عنهم أبداً؛ فإنهم دعونا لينصرونا ثم عدَوا علينا يقتلوننا»[1].

ثم رجع إلى أبيه يشكو إليه حرّ الظمأ، فعلّله عليه السلام بقرب الملتقى مع جده رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنه سيسقيه من كأسه الأوفى، ثم التفت الإمام الحسين فرأىٰ على باب الخيمة زينب وليلىٰ وباقي النساء الهاشميات، وهن ينتظرن عليّاً الأكبر لتوديعه، إذ كان يمنعهن من دخول الخيمة وجود الحسين عليه السلام فيها؛ إكراماً له واحتراماً، فخرج عليه السلام من الخيمة؛ ليفسح المجال لهن ليودّعنه، فراحت هذه تشمّه وتلك تضمّه، وأُخرىٰ تخضّب شعرها بدمه، أمّا والدته فقد احتضنته وجلست عنده:

بـنيّ اقـتطعتك مـن مُـهجتي علامَ اقتطعتَ جميلَ الوصالِ

ثم عاد إلى المعركة، وراح الإمام الحسين عليه السلام يلاحقه بعينيه وهو في طريقه إلىٰ ساحة القتال، ويطيل النظر إليه، ويبدو على وجهه الشريف أنه كان نظر آيس منه؛ فقد أرخىٰ عينيه بالدموع، وما هي إلّا هنيهة حتى نظر إليه وقد سقط علىٰ وجه الأرض، فأقبل إليه، وذاد الخيل عنه يميناً وشمالاً، حتىٰ إذا وصل عنده ألقىٰ بنفسه عليه واحتضنه، ووضع خدّه

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٤٢.

الشريف على خدّه؛ ليرى إن كان فيه صُبابة روح، فلمّا رأى أنه قد أسلم الروح صاح بأعلى صوته: «بني علي، على الدنيا بعدك العفا، أما أنت فقد استرحت من همّ الدنيا وغمها، وأبقيت أباك لهمها وغمها. وما أسرع اللحاق بك»[1].

فجثا وأقنع للسماء بشيبة ... مغمورة بمدامع ودماءِ
يا عدلُ قد قتلوا شبيه محمد ... أنزلْ بساحتهم عظيمَ بلاءِ

وقام يكفكف عينيه بمنديل كان في يده، ثم قال للهاشميين: «احملوا أخاكم، والله لا طاقة لي على حمله». فحملوه إلى المخيم ورجلاه تخطّان الأرض، وطرحوه إلى جانب النساء، فوقعت عليه أُمه تحتضنه:

انسه الوالده وتعبت برباك ... اسهرت طول الليل وياك
احنه المثل هاليوم ردناك
يبني علي يا فتشة العين ... يبني صواب الضاهدك وين

* * *

يا كوكباً ما كان أقصر عمره ... وكذا تكون كواكب الأسحار

---

(١) الدمعة الساكبة ٤: ٣٣١.



﴿٦٧﴾

الأكبر والحسين عليهما السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: الشريعة الإسلاميّة ونظام التكافل

تكفّلت الشريعة الإسلامية بإيجاد كل أنماط التكافل وأقسامه في محيط الأُسرة لتوفير ما يمكن أن تفتقر إليه، فالأُسرة هي اللبنة الأُولى والأساس في بناء المجتمع؛ لأنه ـ كما هو معروف ـ عبارة عن مجموعة من الأُسر. ونظام الأُسرة هو النظام الطبيعي الفطري.

وقد حدثت محاولات عدّة للقضاء على نظام الأُسرة، فقد دعا أفلاطون في جمهوريته إلى الزواج المُشاع، وأن يصبح المجتمع إباحياً، وكذلك دعا لينين في تشريعه إلى إشاعة الأُسرة. لكن الدعوتين ـ وغيرهما ممّا سبقهما أو جاء بعدهما من الدعوات ـ لم تنجحا في ذلك؛ لأن نظام

(١) الأحقاف: ١٥.

الأسرة نظام فطري كما قلنا.

وقد استعرضتُ قبل حوالي سنتين أو ثلاث سنوات، أقسام الزواج السائدة في العالم، وذكرت رأي المشرّع الإسلامي في نظام الأُسرة، وأنه يعتبر أمثل النظُم عند دراسته دراسة موضوعية بغض النظر عن كوننا مسلمين. وأنا الآن أغتنم فرصة العلاقة بين علي الأكبر وأبيه الحسين عليهما السلام لأدرس بعض ملامح الأُسرة الإسلامية، فنَطّلع على الأجواء القرآنية التي عاش فيها أيمّة أهل البيت عليهم السلام، وكيف أن هذه الأجواء القرآنية ترسم لنا نظام الأُسرة المستقرّة القائمة على أُسس التعامل الصحيح بين أبنائها.

فالأُسرة إذن كيان فطري طبيعي لا يستغني عنه المجتمع، ولا يمكن أن نعوّض عنها بأية مؤسسة من المؤسسات.

وقد يتصوّر البعض أن دور الحضانة يمكن أن تحلّ المشكلة، فلن نعود محتاجين إلى إشغال المرأة بتربية الطفل في البيت، فكلّ خمسين طفلاً في دار الحضانة مثلاً تُشرف على تربيتهم امرأة واحدة.

وهذا كلام بعيد عن الواقع، بل فيه الكثير من التَّجَنِّي على الحقيقة؛ لأن دور الحضانة لا يمكن أن توفّر العناية اللازمة للطفل كما توفرها الأُم؛ ذلك أن الأُم الوالدة نفسها قد لا تستطيع أن توفر ما يلزم لابنها الوحيد، فكيف بامرأة أجنبية تشرف على تربية مجموعة من الأطفال؟ وهل تحنو هذه المرأة على الطفل كما يحنو عليه قلب الأم؟ هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى فإن المرأة في دور الحضانة لو فرضنا أنها استطاعت أن توفّر للطفل حاجاته الجسديّة، فهل يمكن أن توفر له الحاجة النفسيّة؟ كلا، لا يستطيع ذلك أحد غير الأُم، والصحّة النفسيّة للطفل تتوقّف على رائحة الأُم.

وقد ثبت علميّاً أن مداعبة الأم للطفل، وتقبيلها إيّاه، وما شابه ذلك هو الذي يوفّر له الصحّة النفسيّة، وبدون ذلك ينشأ الطفل ناقصاً من هذه الناحية.

المبحث الثاني: مفهوم التكافل وأقسامه

إذن فالتشريع الإسلامي يحاول أن يحفظ التكافل في محيط الأُسرة. فما هي أقسام التكافل التي حرص الإسلام على توفيرها في هذا المحيط؟ هناك ثلاثة أقسام روعيت في هذا الباب، هي:

١ـ التكافل الماديّ.

٢ـ التكافل الأخلاقي.

٣ـ التكافل الاجتماعي.

وهذه الأقسام الثلاثة يحرص المشرّع الإسلامي على توفيرها في جوّ الأُسرة، والآية الكريمة تنظر إلىٰ ذلك حينما تقول: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ﴾؛ إذ يرد هنا سؤال هو: ما نوع الألف واللام في كلمة ﴿الإِنسَانَ﴾؟ هل هي للعهد أو للجنس أو للطبيعة؟ ذلك أن الألف واللام لها في اللغة العربية هذه المعاني الثلاثة، فأيها الذي يتناسب مع جوّ الآية؟ والداعي لهذا السؤال هو أن البعض قال: إنها للعهد، والإنسان المعني في الآية إما أن يكون الحسين عليه السلام أو الخليفة الأول. ولكن جو الآية جوّ عام، والألف واللام لاستغراق الجنس، أي جنس الإنسان. ونفهم من هذا أن العلاقات الأُسرية ليس من الضروري أن ترتبط بعقيدة وإن كان الإسلام قد عالجها عن طريق الشريعة. فهي علاقة إنسانيّة قبل أن تكون علاقة يُحتّمها الشرع، فلو كان لأحد الناس أُم مشركة، أو أب مشرك، فيجب عليه

برّهما والإحسان إليهما[١].

يقول الأصوليّون: كلّ حكم يتعلّق على وصف يصبح الوصف علة له، أي لذلك الحكم. فمثلاً عندما أقول: أكرم العلماء، فالحكم مرتبط بقيد العلم الذي وصفتُهم به، فيصبح العلم علّة للإكرام. وهنا في الآية تكون الوالديّة علّة للمعاملة بالإحسان، بغضّ النظر عن كون الأبوين مسلمين أو مشركين أو ملحدين أو يهوديين، أو غير ذلك. والمناط في ذلك أنها مسألةٌ إنسانيةٌ لها علاقة ببناء وربط أُسرة، والأسرة ليست لبنة إسلامية فقط وإنما هي لبنة إنسانية.

والمشرّع الإسلامي ما جاء ليحتكر الحياة والمجتمعات لنفسه، وإنما جاء باباً لتنظيمهما، وأحبَّ أن يدخل الناس إلى المجتمع عن طريق هذا الباب، وإلاّ فالإسلام ليس عنده تأزّم أو نظرة ضيّقة. ولذلك نلاحظ أن الإسلام لا يقف في تشريعاته من العقائد الأُخرى موقفاً سلبيّاً إلّا من المشركين؛ لأن المشرك لا يلتزم بقيم أو مبادئ أبداً.

إذن بدأت الآية بقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا﴾، وهذه اللفظة تفيد الحكم الوجوبي الذي لا اختيار فيه، أي أمرنا الإنسان بالإحسان إلى الوالدين.

حقوق الولد في الإسلام

ويفترض المشرّع الإسلامي حقوقاً للولد قبل هذا الواجب، فيقول:

---

(١) قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾ لقمان: ١٤ ـ ١٥.

وقال الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ ـ الرحمن: ٦٠ ـ: إنها «جرت في الكافر والمؤمن والبرّ والفاجر». تفسير نور الثقلين ٥: ١٩٩ / ٥٨. فهي مع الأبوين من باب أولى.

«يلزم الوالدين من العقوق لولدهما ما يلزم الولد لهما من عقوقهما»[١]، فكيف نتصوّر أن الولد يُعَقّ؟ إن هذا الأمر يتعلق بمعرفة الحقوق المترتبة للولد، والتي منها:

١ـ **اختيار الرحم الطاهر**. فأول ما يُعَقّ به الولد اختيار الأمّ غير الطيّبة، فينبغي أن نختار له الحجر النظيف الطاهر؛ لكي ينشأ نظيفاً طاهراً.

٢ـ **اختيار الاسم الحسن**. فللولد أن تحسن تسميته[٢].

٣ـ **أن تُحسَن تربيته**. وتبدو الصعوبة هنا أكثر، فمسألة التربية هامّة، فالأب اليوم يخرج من الصباح ولا يعود حتى المساء، فلا يتّسع وقته لتربية الولد. ولكن علينا على الأقلّ أن نأتي من هذا الأمر ما نستطيعه؛ عملاً بقوله صلى الله عليه وآله: «إذا أمرتكم بشيء، فائتوا منه ما استطعتم»[٣].

مراحل تربية الولد

وهناك مراحل حدّدها الإسلام لتربية الولد، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «احمل صبيّك حتىٰ يأتي عليه ستّ سنين، ثمّ أدّبه في الكتاب ستّ سنين، ثمّ ضمّه إليك سبع سنين فأدبّه بأدبك، فإن قبل وصلح، وإلّا فخلِّ عنه»[٤].

وهذه النظرية هي الأقرب لأحدث النظريات العلمية.

---

(١) الكافي ٦: ٤٨/٥، الفقيه ٣: ٤٨٣/٤٧٠٥، ٤: ٣٧٢/٥٧٦٢، تهذيب الأحكام ٨: ١١٢/٣٨٦، كنز العمّال ١٦: ٤٤٤/ ٤٥٢٤٤.

(٢) قال صلى الله عليه وآله: «سمّوا أولادكم أسماء الأنبياء، وأحسن الأسماء عبد الله وعبد الرحمن».
وقال صلى الله عليه وآله: «من حقّ الولد علىٰ والده ثلاثة: يحسن اسمه، ويعلّمه الكتابة، ويزوّجه إذا بلغ». انظر مكارم الأخلاق: ٢٢٠.

(٣) رسائل الشريف المرتضىٰ ٢: ٢٤٤، بحار الأنوار ٢٢: ٣١، مسند أحمد ٢: ٢٤٧، ٢٨٥، ٤٢٨، ٥٠٨، صحيح البخاري ٨: ١٤٢.

(٤) مكارم الأخلاق: ٢٢٢، بحار الأنوار ١٠١: ٩٥/ ٤١.

إن وجوه المحيط اليوم هي التي تربّي الولد، وأول هذه الوجوه الأبوان، ثمّ المدرسة، فهي تنشئ أخلاقه وتبني صفاته ومعارفه ومعلوماته، ثم المجتمع الذي يعيش به الولد، ثم وسائل الإعلام التي يعيش معها كالتلفزيون والراديو والكتاب. وكلّها تغذّيه، وتغلغل عنده ألواناً من المعارف والمهارات والأفكار، فيصبح موقف الأب موقفاً بسيطاً جدّاً، خصوصاً الأب والأم المشغولين دائماً. فالمسؤولية هذه الأيام تتّجه بالدرجة الأولى للدولة، ولا قيمة لكلامنا ولو ملأنا الدنيا به، فالناس يلفّها العمل آباءَ وأمّهاتٍ، وليس للولد من يقوم على تربيته.

والمشكلة الكبرى أن المعارف الإسلاميّة قد أصبحت اليوم في كثير من البلدان الإسلاميّة نمطاً غير مرغوب فيه، أو معاقباً عليه، وكأن القرآن الكريم لم ينزل بين أظهرنا. هذا من الناحية النظرية، أما من الناحية العملية فالمصيبة أعظم، فالأحكام الإسلاميّة غريبة في بلدان المسلمين؛ فالاقتصاد الإسلامي يسير وفق النمط الأوروبي، والعلاقات الاجتماعية تسير على أنماط مستوردة. فأصبح الإسلام غريباً كما عبر عنه النبي صلى الله عليه وآله بهذه الجملة الموجزة: «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً»[1].

أقسام التكافل في الإسلام

نعود الآن إلى أقسام التكافل التي ضمنها الإسلام: وهي:

الأول: التكافل المادّي

فإن كان الأب والأمّ لا يملكان شيئاً والابن يملك فإن نفقتهما تتعيّن

---

(١) المجازات النبوية: ٣٢ / ١٣، مسند أحمد ٤: ١٧٣، صحيح مسلم ١: ٩٠.

عليه. وانظر إلى تعبير القرآن الكريم حيث استخدم لفظة الإحسان الذي يتعدّى الكفاية في النفقة، فالابن الذي يلبس اللباس الفاخر عليه أن يراعي ما يلبس أبواه.

كانت أم الإمام السجّاد عليه السلام قد توفيت في نفاسها به، فربّته جارية للحسين عليه السلام، فكان يجلس معها على مائدة الطعام فلا يمدّ يده إلى الطعام وهي تأكل، وكان يسأل: أليس من البر أن تؤاكلها؟ فيقول: «إني أكره أن **تسبق يدي إلى ما سبقت عينها إليه، فأكون قد عققتها**»[1].

فالإحسان إذن هو النفقة الحسنة.

وإن كان الابن لا يملك والأبوان يملكان، فهما مسؤولان أيضاً عن النفقة عليه. فالإسلام رسم للتكافل المادي في نطاق الأسرة حدوده، وضع له قوانينه ونظمه وضوابطه.

الثاني: التكافل الأخلاقي

ونظُمه في محيط الأُسرة يبيّنها قوله تعالى: **﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾**[2].

حبس الرشيد الفضل بن يحيى البرمكي وأباه خالد بن يحيى في وقت الشتاء البارد، ووضعهما في مطبق[3] مظلم بارد، وكان خالد كبيراً في السن، ويحتاج إلى الماء الساخن للوضوء، ولم يكن عنده في السجن سوى قمقم من نحاس فيه ماء للشرب، فكان ابنه الفضل يضع هذا القمقم على ضوء الشمعة من أول الليل حتى الصباح ليتوضأ به أبوه. وهذا الفعل

---

(١) الخصال: ٥١٨ / ٤، مكارم الأخلاق: ٢٢١، مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٠.

(٢) الإسراء: ٢٤.

(٣) سجن مظلم، أو زنزانة.

يعدّ من الصور المشرّفة في الإحسان والبر.

أما الأمّ فمهما حاول الإنسان أن يقابلها خلقيّاً فلن يتمكن من أن يقابل لحظة من اللحظات التي بعثت فيها في نفسه الشعور بالرقّة والعطف، وملأتها محبّة ومودّة، يقول أحدهم:

أمّي تجعّد وجهي وانقضى العُمُرُ	ولم يزلْ مِلءَ أنفي جيبُك العَطِرُ
عليه من لبنِ الثديين باقيةٌ	ومن شفاهي ومن أقذائها أثرُ
أمّاهُ إن كانت الجنّاتُ مصدرها	من تحت رجليك فيما يذكر الخبرُ
فما بصدرك من خيرٍ ومن كرمٍ	يظلّ أكبر مما تحدس الفِكَرُ[1]

إذن مهما يعمل الإنسان مع الأم لتجسيد التكافل الخلقي فلن يستطيع أن يؤدّي ذلك اللون من العطف والحنان. فلا تتصوّر أن القرآن الكريم يكلّفنا بما لا يطاق عندما يقول لنا: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ﴾[2]، فحينما يكلّفنا بأن نُبدي نوعاً من الآداب ونحن نجلس بين يديهما؛ فلأن هذا المعنى يغذّي عند الإنسان نوعاً من الكرامة، وسوف يغذّيها هو لأولاده أيضاً.

ومن التكافل الخُلقي ألّا يحدَّ النظر إليهما[3]، وأن يكون رقيقاً في عباراته معهما بأن يستخدم العبارات التي تتّسم بالذوق والأدب والخلق. والإسلام يحرص على التكافل الخلقي من الطرفين، يقول النبي صلى الله عليه وآله: «أحبّوا الصبيان وارحموهم، وإذا وعدتموهم شيئاً ففوا لهم؛ فإنهم لا يدرون إلّا

---

(١) ديوان المحاضر ٢: ٦٦. (٢) الإسراء: ٢٤.

(٣) قال الصادق عليه السلام: «ومن العقوق أن ينظر الرجل إلىٰ والديه يحدّ النظر إليهما». مشكاة الأنوار: ٢٨٤.

أنكم ترزقونهم»[١].

ورأى ﷺ شخصاً يقبّل أحد أولاده فيما ترك الآخر وهو ينظر إليه، فقال له ﷺ: «فهلا ساويت بينهما»[٢].

وجاء أحد الأشخاص إلى النبي ﷺ يحمل وصيّته وقد أوصى لأولاده ولم يساوِ بينهم، فنبذ له النبي ﷺ وصيته وقال: «خذها، ولا تُشهدني على جور»[٣].

فالتكافل الخلقي ينبغي أن يكون سائداً في الأُسرة، وإلّا فإن الأُسرة إذا لم يكن فيها تبادل في العامل الخلقي فإنها ستتحوّل إلى جحيم، خصوصاً إذا استخدمت فيها العبارات النابية من الأب أو الأُم أو الأبناء. ولذلك يحرص القرآن الكريم على تأكيد جانب البرّ والرعاية للوالدين. والروايات في هذا المورد لا حدود لها، حتى إن بعضها يقول حكاية عن الحديث القدسي: «مَن بَرَّ والديه وعقّني كتبته بارّاً»[٤].

فالجانب الخلقي إذن فوق الحدود الدنيا للتعامل، وهو أن تُشعر الأب بأُبوّته، وأن يخرج من الدنيا وهو يشعر أنه قرير العين، وأنه لم يمت؛ إذ بقي في الدنيا امتداده الطبيعي، وهو الولد البارّ.

---

(١) الكافي ٦: ٤٩ / ٤، الفقيه ٣: ٤٨٣ / ٤٧٠٢، تهذيب الأحكام ٨: ١١٣ / ٣٨٩.

(٢) مكارم الأخلاق: ٢٢٠، وقال ﷺ: «قبلوا أولادكم؛ فإنه لكم بكل قبلة درجة في الجنة، ما بين كل درجتين خمسمئة عام». وقبل ﷺ الحسين عليه السلام، فقال الأقرع بن حابس: إن لي عشرة من الأولاد ما قبلت واحداً منهم. فقال له ﷺ: «ما عليّ إن نزع الله الرحمة منك!». انظر مكارم الأخلاق: ٢٢٠.

(٣) مرّ أنه بشير أبو النعمان بن بشير. انظر: ج١ ص١٥٩ ـ ١٦٠، ج٢ ص٣٠٠.

(٤) لم نعثر عليه، لكن وردت أحاديث كثيرة في الحث على برّ الوالدين، منها قوله ﷺ: «من بر والديه زاد الله في عمره». روضة الواعظين: ٣٦٨، مستدرك وسائل الشيعة ١٥: ٦٩ / ١٧٩٢٥، الأدب المفرد: ١٦، المستدرك على الصحيحين ٤: ١٥٤.

الثالث: التكافل الاجتماعي

ثم يأتي بعد ذلك التكافل الاجتماعي، وهو النصرة والرعاية، والصلة والعيادة عند المرض، وأنماط السلوك الاجتماعي كافّة التي يفترض الإسلام أن تتوفر داخل الأسرة. وهي كثيرة إلى حدّ أنها تستطيع أن تخلق مجتمعاً متوازناً قائماً على أساس التوادّ والتعاطف والتراحم[١].

المبحث الثالث: في أحوال وآلام الحمل والوضع ومدّتهما

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً﴾، وقد يسأل سائل فيقول: كيف حملته أمّه كرهاً، ونحن نعرف أن الولد يتكوّن والأبوان في أحسن ساعاتهما؟ يقول المفسرون: إن هذا من باب تسمية الشيء باسم صيرورته، أي ما يؤول إليه. فمن أقسام الحركةِ الحركةُ من القوّة للفعل، فمن يملك بيضة ملقّحة يستطع أن يقول: إنني أملك فرخ دجاج؛ لأن هذه البيضة ستؤول إلى ذلك وتصير إليه.

وهذا أشبه بقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾[٢]، ونحن نعلم أن الصور لم ينفخ فيه بعد لكنه تعالى أنزل المضارع بمنزلة الماضي لأنه متحقّق الوقوع، أي أن الصيرورة ستنتهي إلى أن الصور في ذلك اليوم سوف ينفخ فيه دون إخلاف.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً﴾ فإن الأمر سينتهي إلى أن

---

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «مثل المؤمنين فيما بينهم كمثل البنيان يمسك بعضه بعضاً ويشدّ بعضه بعضاً». عوالي اللآلي ١: ٣٧٧ / ١٠٧.

وقال صلى الله عليه وآله: «مثل المؤمنين في توادّهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه شيء تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى». مسند أحمد ٤: ٢٧٠.

(٢) الكهف: ٩٩، يس: ٥١، الزمر: ٦٨، ق: ٢٠.

تحمله أُمّه كرهاً، وأنه سوف يحرمها في يوم من الأيام من الاستقرار والنوم والراحة والهدوء، وسوف تعتريها ألوان من مشاكل الحمل وآلامه. دخل أحدهم يوماً على النبي صلى الله عليه وآله فقال له: يا رسول الله إن أُمّي كانت سيئة الخلق. فتأذّى النبي صلى الله عليه وآله منه وغضب، وقال: «أكانت سيئة الخلق حين حملتك؟ أكانت سيئة الخلق حين أرضعتك حولين؟» إلىٰ أن قال الرجل: أرأيت لو حملتها علىٰ عاتقي وحججت بها، أكنت قاضياً حقّها؟ فقال صلى الله عليه وآله: «لا، ولا طلقة»[1].

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً﴾، أي ولدته. وليس يخفى عليك ما لساعة الولادة من ألم، حتى إن بعض الفقهاء يذكر أن لها أجر الشهيدة إن ماتت ساعة الوضع[2]، أي ثوابه وليس حكمه؛ لأن الشهيد يقاتل في ساحة الحرب دفاعاً عن المجتمع وهذه تجاهد في ساحة أُخرى دفاعاً عن المجتمع، فهي تُدخل للمجتمع امتدادَ النوع، وتزوّده بمن سيحمل السلاح ويدافع عنه وربما يستشهد دونه. ولذلك أراد الإسلام من الولد أن تشكّل هذه اللحظات العصيبة مساحة من حساباته، ويحاول أن يذكّره بما مرّ على الأمّ من ساعات الحمل والوضع.

المبحث الرابع: نظريّة تأثّر الولد بأُمّه

ثم قال تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً﴾، وهذه هي سنوات الرضاعة التي يبقى فيها الطفل ملتصقاً بصدر أُمّه تغذوه وترضعه وتغدق عليه من عطفها وحنانها. وعندما جاء الإسلام يحمل هذه النظرية فإنه قد

---

(١) المبسوط (السرخسي) ١٠: ١٥٠ ـ ١٥١.

(٢) انظر صراط النجاة ٢: ٦٠ ـ ٦١ / السؤال: ١٧٢.

صدم بها موروثات العرب؛ فقد كانوا يتصوّرون أن المرأة ليس لها أثر في عملية تكوّن الجنين، وإنما هي كالصندوق، تحمل الطفل وتضعه فقط، والولد ابن أبيه[١]. فجاء القرآن الكريم وصحّح هذه النظريات المخطوءة. دخل الحجّاج يوماً إلى بيته فسمع هنداً إحدى نسائه تقول:

وما هندُ إلّا مُهرةٌ عربيّةٌ سليلةُ أفراسٍ تَحلّلها بَغلُ
فإن وَلَدتْ مُهراً فللهِ دَرُّها وإن جاءَ إقرافاً فما أنجبَ الفحلُ[٢]

ويقول المأمون:

لا تَزدرِينَ فتىً من أن تكونَ لهُ أُمٌّ من الرومِ أو سوداءُ عجماءُ
فإنّما أمّهاتُ الناسِ أوعيةٌ مُستودَعاتٌ وللأنسابِ آباءُ[٣]

وهذا التصوّر عن المرأة غير صحيح تماماً؛ لأنه يلغي دورها في عملية تكوين الجنين، فهي عندهم وعاء مستودع لا أكثر، والحال أن الأمر بالعكس، فالولد يأخذ من أُمّه أكثر ممّا يأخذ من أبيه، والآية تشير إلى هذا الجانب، فقالت أولاً: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ على الإجمال، ثم فصّلت قائلة: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ﴾، فأشارت بهذا إلى أهمّية الأم.

وهذه المسألة يبحثها الفقهاء في باب تزاحم المهم والأهم، فلو فرضنا

---

(١) وقد تنبّهت أعرابية لهذا المعنى، فكانت ترقّص ولدها وتقول:

ما لأبي حمزةَ لا يأتينا يظلّ بالبيتِ الذي يلينا
غضبانَ ألّا نلدَ البنينا وإنما نأخذُ ما أُعطينا
ونحن كالأرضِ لزارعينا نُعطيهمُ ما بذروه فينا

الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٧٠.

(٢) انظر: كمال الدين: ٢٤٩، الجامع لأحكام القرآن ١٢: ١٠٩.

(٣) السيَر الكبير (الشيباني) ١: ٣٢٧ / ٤٦٦.

أن الأب أمر بشيء والأم نهت عنه، وكان ذلك في حدود المشروع ـ وإلّا فإنه إن كان حراماً أو واجباً لم يجرِ هذا التزاحم هنا؛ لأن الحرمة والوجوب خارجان عن سلطة الأبوين، وعلى الابن أن يتبع التكليف الشرعي ـ وفي المباحات، فإن أكثر الفقهاء يقول: إن حقّ الأمّ أهمّ من حق الأب. ومن جملة أدلّتهم هذه الآية.

فالقرآن الكريم أعطاها هذه المنزلة، والروايات أعطتها هذه المنزلة: «لأمّك ثلاثة أرباع الحق فيك»؛ لأنها تتحمّل في تربية الولد من الآلام ما لا يتحمّله الأب، والغُنْمُ بالغُرم.

أهل البيت ﷺ وتجسيد أجواء القرآن الكريم

وأول من يجسّد هذا الجوّ الذي يرسمه القرآن الكريم للأُسرة هم حملة الشريعة، فممّا يذكر هنا أن الشريف الرضي ﷺ الذي كان نقيب الطالبيين في أيّامه كان إذا جيء إليه بأحد العلويّين قد ارتكب ذنباً فإنه يُضاعف له العقوبة؛ فإن كان يستحق عشرين سوطاً ضربه أربعين، ولمّا سُئل عن ذلك قال: إن هذا العلوي ابن من حمل الشريعة، وهو أولى الناس بصيانتها وحمايتها، والتأدّب بآدابها.

فأول من يطبق الشريعة إذن بيوت آل محمد ﷺ، تلك البيوت التي نزل فيها الإسلام، والتي قال عنها الإمام الحسن ﷺ لما لقيه أحد الشاميّين فشتم أمير المؤمنين ﷺ: «على رسلك يا هذا، لو أخذت بيدك إلىٰ بيتنا لأريتك زغب جناح جبرئيل»[1]. يقول أحد الشعراء:

---

(١) ورد أن للحسن والحسين ﷺ تعويذين حشوهما من زغب جناح جبرئيل. انظر مناقب آل أبي طالب ٣: ١٦٢، بحار الأنوار ٤٣: ٢٦٣ / ٩، ترجمة الإمام الحسن ﷺ (ابن عساكر): ١١٣، ١١٤، ترجمة الإمام الحسين ﷺ (ابن عساكر): ١٩٢.

وعفّرتُ خدّي في ثرىً مسّ عفرهُ لجبريلَ من جنحيه ريشٌ مزغّبُ
وفيه محاريبٌ لآل محمدٍ بهنّ ضراعاتٌ إلى الله تُنصبُ
وآثارُ أقدامٍ صغارٍ ومهجعٌ إلى الحسنينِ الزاكيينِ وملعبُ
وصوتُ رَحى الزهراءِ تطحنُ قُوتَها إلى جلدِ كبشٍ حيث تجلسُ زينبُ
رؤىً سوف يبقى الدهرُ يروي جلالَها وتبقى على رَغم البساطةِ تأشبُ[1]

فهذا البيت هو مهبط جبرئيل عليه السلام وموضع تعاليم السماء المقدّسة، وليس كثيراً عليه أن نرى فيه إنساناً مثل علي الأكبر عليه السلام الذي يقول عنه المؤرخون: إنه لم يقل للحسين عليه السلام: «يا أبه» منذ ولادته حتى استشهد إلّا مرّة واحدة، وهي عندما هوى من على ظهر جواده صريعاً، فقد كان يقول له: يابن رسول الله، أو يابن أمير المؤمنين أو يابن فاطمة. ومن ذلك أن الحسين عليه السلام في طريقه إلى كربلاء لمّا هوّمت عيناه ونام، جلس وهو يقول: «لا حول ولا قوة إلّا بالله، إنّا لله وإنا إليه راجعون». فجاءه الأكبر وهو يقول: فداك نفسي يابن رسول الله، لماذا استرجعت؟ قال: «يابني رأيت في منامي قائلاً يقول: القوم يسيرون والمنايا تسير بهم، فعلمت أنها أنفسنا نعيت إلينا». فقال الأكبر عليه السلام: ألسنا على الحق؟ قال: «بلى والذي إليه مرجع العباد». قال: إذن لا نبالي أن نموت محقّين.

فاحتضنه الحسين عليه السلام وقال: «جزاك الله من ولد خيراً». ثم أخذ يقبّله ويلثمه[2].

وقد كانت له عليه السلام بهذا الشاب علاقة لا حدود لها، ونستطيع أن نفهم طبيعة هذه العلاقة أكثر من تصرّف الحسين عليه السلام معه عندما أراد علي الأكبر أن ينزل إلى ساحة القتال، يقول المؤرّخون: إنه عندما أراد أن يبرز إلى

---

(١) ديوان المحاضر ١: ١٥. وتأشب: تجتمع. لسان العرب ١: ٢١٤ ـ أشب.
(٢) الإرشاد ٢: ٨٢، روضة الواعظين: ١٨٠.

القتال احتضنه الإمام الحسين عليه السلام وشخص ببصره إلى السماء.. الحسين عليه السلام ذلك الإنسان الصلب الذي لا تهزّه المواقف مهما بلغت أخذ منه التأثر لبروز الأكبر للقتال أكبر مأخذ، وهو الذي يصفه عبد الله بن عمار بقوله: والله لقد رأيت الحسين عليه السلام فما رأيت مكثوراً قطّ أربط جأشاً منه، وقد كانت الخيل والرجال يشدّون عليه فيشدّ عليهم، فينهزمون بين يديه انهزام المعزى إذا شدّ فيها الذئب، ويرجع إلى مركزه فيتكئ على قائم سيفه ويكثر من قول: «لا حول ولا قوة إلّا بالله»[1].

وكان عليه السلام قد قال يوم برز الأكبر للقتال: «اللهمّ اشهد على هؤلاء القوم، فقد برز إليهم غلام أشبه الناس خلقاً وخلقاً ومنطقاً برسولك، وكنّا إذا اشتقنا إلى نبيّك نظرنا إلى وجهه. اللهم امنعهم بركات الأرض، وفرّقهم تفريقاً ومزّقهم تمزيقاً، واجعلهم طرائق قدداً، ولا ترضِ الولاة عنهم أبداً؛ فإنهم دعونا لينصرونا ثم عدَوا علينا يقتلوننا»[2].

فصوته وخلقه صوت النبي صلى الله عليه وآله وخلقه، وكذا في كلّ صفاته صلى الله عليه وآله؛ وهذا هو الذي زاد من مأساة الإمام الحسين عليه السلام وآلمه أشدّ الألم وأخذ منه مأخذاً عظيماً، وذلك حينما برز للقتال.

ثم قال له: «بني ادنُ إليّ حتى أُودّعك». فجمع يديه فوق عنقه، واستدناه إليه يقبّله ويشمّه إلى أن سقطا إلى الأرض معاً، ثم قال له: «ابرز بني».

فبرز علي الأكبر عليه السلام وعينا الإمام (صلوات الله وسلامه عليه) تلاحقانه ولا يكاد يرفع بصره عنه، وفجأة مرّت كتيبة واعصوصبت عليه، ثمّ برز إليه بكر ابن غانم، فتغيّر وجه الحسين عليه السلام، فهرولت إليه ليلى قائلة: أبا عبد الله أرى وجهك قد تغيّر، فهل أُصيب ولدي بشيء؟ وهذا على رواية أنها

---

(١) مثير الأحزان: ٥٤، البداية والنهاية ٨: ٢٠٤.

(٢) بحار الأنوار ٤٥: ٤٢.

كانت موجودة في الطفّ، فقال عليه السلام: «لا، ولكن برز إليه من يُخاف منه عليه، ادعي لولدك»:

ردّت الخيمتها الغريبه تبچي وعلى ابنيها بريبه
اتوسلت لله بحبيبه بالحسين وشما بيه مصيبه
ياراد يوسف من مغيبه ليعگوب ومسچن نحيبه
أريدك علي سالم تجيبه

ويرجع علي الأكبر يحمل رأس بكر، فيقول له الحسين عليه السلام: «بني بادر إلى أمّك قبل أن تموت». فأقبل إليها فأخذ رأسها، ونضحها بدموع عينيه، ففتحت عينيها واحتضنته وصاحت: بني علي! وآبت معه إلى الخيمة. ولكنه لما سقط في المرة الثانية ما استطاعت أن تصل إليه، فقد منعها الحسين عليه السلام هي وعمته زينب عليها السلام، وراح بنفسه إلى علي الأكبر وأقبل به إلى الخباء، فطرحه ما بين النساء، وجلسن عند رأسه:

شالفايده وياك يبني أنا الوالده وهين تذبني
ردتك عليه البيت تبني
يبني علي يا فتشة العين يبني صواب الضاهدك وين
يا ثمر گلبي ويا ضيا العين
عمود الوسط يالشايل البيت آنه بيش اجيت وبيش ردّيت
يا واحدي عندي شخلّيت

* * *

ومحا الردى يا قاتل الله الردىٰ منه هلال دجىً وغرة فرقدِ
يا نجعة الحيّين هاشم والندىٰ وحمى الذمارين العُلا والسؤددِ

﴿٦٨﴾

زواج القاسم بن الحسن عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: طبيعة الأسرة وكيفية بنائها

كل أُسرة تعتبر لبنة أساسية من لبنات المجتمع، ولا نستطيع أن نبني مجتمعاً سليماً دون العناية بالأُسرة. والآية الكريمة تذكّر بنعم اللّه تعالىٰ علىٰ عباده بقولها: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾؛ بتقرير أن المرء لا يعيش بدون الزوجة، والزوجة لا تعيش بدون الزوج. فالرجل يكمّل نفسه بالمرأة وبالعكس.

تفاصيل علاقة الرجل بالمرأة

إن تفاصيل هذه العلاقة الحيوية بين الرجل والمرأة كانت مادّة دسمة للفلاسفة، ومادّة لعلماء الاجتماع والتاريخ والأُخلاق؛ لأن هذه العلاقة

---

(١) النحل: ٧٢.

هي الركيزة الأساس التي يقوم عليها المجتمع، فتناولوها من عدّة جوانب؛ من حيث نمط العلاقة ومن حيث العدد الذي يحق للإنسان أن يتزوّج منه، وكذلك هل يمكن أن يجمع بين اثنتين وثلاث وأربع، وما هو نمط الزواج؛ هل هو زوج لزوجات أو زوج لأزواج أو أزواج لزوجات علىٰ نحو الإشاعة. وكل ذلك تناوله علماء الاجتماع، فانتهوا إلىٰ نتيجة هي أن أسلم طريقة للزواج لكي تحفظ كرامة الإنسان (الرجل والمرأة) علىٰ حدّ سواء، هو الصيغة الاعتبارية: زوج لزوجة.

خلق حوّاء

والآن لنرَ خطوات الشارع المقدس في هذا الميدان من أجل إسعاد المجتمع، تقول الآية: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾، وبخصوص هذا المقطع نجد أن هناك إصراراً عند أكثر المفسرين على أن فيه إشارة إلىٰ أن اللّه جل وعلا خلق لآدم عليه السلام زوجة بعد أن استلب ضلعاً من أضلاعه؛ فلذلك سميت حوّاء لأنها خلقت من ضلع حي؛ فحينما نام آدم عليه السلام أخذ اللّه ضلعاً من أضلاعه فخلقها منه. لكنهم لا يعلّلون ذلك، ولست أدري لماذا؟ فهل إن اللّه تعالى لا يستطيع أن يخلق إلّا باستلاب ضلع من آدم عليه السلام؟ حاشاه ذلك، فإن اللّه تعالى ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[1]؛ حيث إنه جلّ وعلا يأخذ التراب ويصدر إليه أمره بأن يكون، فيكون.

هذا بناء على عقيدتنا القائمة على أساس أن اللّه خالق ومبدع، وأن القدرة لا تتعلّق بممتنع، وإنما هي متعلّقة بالممكن الذي إذا توجّهت له

---

(١) يس: ٨٢.

القدرة أبدعته. وعليه فلا حاجة حينئذٍ لأخذ ضلع من آدم﴿ع﴾ كي تخلق حوّاء منه.

إن سلب آدم﴿ع﴾ أحد أضلاعه تترتّب عليه في الواقع لوازم فاسدة كثيرة، وهذه النظرية من الإسرائيليات، والهدف منها هو تذويب معنى الحرمة في نفوس الناس، فمحارم الإنسان يتميّزون بأن لهم حرمة وقداسة في نفسه؛ فلا يقرب منهم محرّماً ولا يأتيه. ومن يقع على محارمه فحكمه القتل؛ سواء كانوا نسبيّين[١] أو سببيّين[٢]. وهذه القدسية موجودة بين الرجل ومحارمه؛ ولذا فإنهم يرومون تذويب هذا المعنى عندهم؛ فنسمع أحدهم يخاطب ابنته:

فلا تمنعي نفسك المعرسين	من الأقربين إلى الأجنبي
لماذا حللت لذاك الغريب	وصرت محرمة للأب
أليس الغراس لمن ربّه	ونمّاه في الزمن المجدب[٣]

فتأمّل هذا اللون من الانحدار والخسّة، وهذه لها مدرسة، وغالباً تمتدّ جذورها إلى النظريات اليهودية. ونلفت النظر إلى أن نظرية فرويد تهدف إلى نفس الهدف، حيث يصبغ كل أنواع السلوك بالصيغة الجنسية. وهذا يعتبر إهانة للإنسان واعتداءً على كرامته وعقله وتطلّعاته نحو الأسمى، حيث يريد تصوير الإنسان كحيوان جنسي مع أن الإنسان فيه الروح والعقل والتطلّع إلى الأعلى، وفيه القابلية لأن يصير أسمى من الملَك، ويستطيع أن يصل إلى درجة من الخسّة بحيث تعتبر الحيوانات أنبل منه.

---

(١) ما كانوا عن طريق الدم. (٢) ما كانوا عن طريق المصاهرة.

(٣) من أشعار أحد زعماء القرامطة.

فالإنسان الذي له هذه القابلية ثم يأتي البعض ويحاول أن يصهره في بوتقة الجنس، لهو أمر يعتبر في غاية الإساءة للإنسان، والحال أن اللّه تعالى كرم الإنسان[1]، وجعل عنده القابليّة، وأودع عنده الاستعداد للسمو؛ حيث الخلق والكرم والنبل. في حين أن هذا الذي ذكرناه يريد أن يحصره في نطاق الغريزة الجنسية، ويصهره في بوتقتها.

نعود للموضوع فنقول: إننا إذا راجعنا هذه النظريات فسنجد أن جذورها يهودية، والمشكلة أن المفسرين أخذوا هذه النظريات من كعب الأحبار ووهب بن منبه مقاتل بن سليمان، ونحن لا نقبل بنظرياتهم ولو كانت في أي كتاب؛ حيث إننا لا نستطيع أن نصدق أي شخص يهودي يأتي فيقول: إن عزرائيل نزل ليقبض روح نبي اللّه موسىٰ عليه السلام فقال له: «جئتني زائراً أم قابضاً؟». قال: «جئتك قابضاً». قال: «أتقبض روحي؟». ثم ضربه علىٰ وجهه، فلطم عينَه، فرجع عزرائيل إلىٰ ربّه بعين واحدة[2].

فهل نقبل بهذا، ونقوم بتلويث عقليّة أجيال الإسلام بأمثال هذه الروايات؟ إننا نضرب بهذه الرواية وأمثالها عرض الحائط، وكيف نستطيع أن نؤمن ونصدق بأن نبيّاً من الأنبياء ومن أُولي العزم يفعل فعل الأشقياء؟ وعليه فإننا لا نقبلها بأي حال من الأحوال.

فالشيء الذي ينبغي أن يكون هو أننا عندما نقرأ رواية من هذا النوع فيجب أن نسأل أنفسنا: ما الذي يُلجئنا لأن نأخذ بها؟

فاللّه تعالىٰ هو الخالق المبدع المصور القادر الذي يقول للشيء: كن فيكون، فلماذا يُنيم آدم عليه السلام، ثمّ يأخذ ضلعاً من أضلاعه فيخلق منه

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ﴾. الاسراء: ٧٠.

(٢) صحيح مسلم ٧: ١٠٠.

حواء، مع أنه كان قد خلق آدم من التراب، ويستطيع ويتمكن من أن يخلق من التراب امرأة لآدم عليه السلام وتنتهي المشكلة؟

المبحث الثاني: نوع الجعل في الآية

إذن ما معنى ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾؟ وما المراد بالجعل هنا؟ هناك رأيان في المسألة:

الرأي الأوّل: أنه طرد وهم إمكانية الزواج من الجنّ

فالآية الكريمة تطرد وهماً من الأوهام التي كانت سائدة عند العرب وغيرهم، وهو أن بعض الناس كان يعتقد بأنه يستطيع أن يتزوّج من الجنّ، وأن الجنية يمكن أن تلد منه. وكانت العرب تعتقد وتروي مثلاً أن فلاناً قد تزوج من الجن، وأن زوجته الجنيّة قد أنجبت له أولاداً منهم، كعمر بن يربوع، حيث يروون أنه تزوج جنيّة، وكان يسترها عن البرق؛ لأنها كانت تخاف منه وتهرب. وقد وُلد له منها أولاد يسميهم العرب: أولاد السعلاة، يقول شاعرهم:

يا قبح اللّه بني السعلاة عمرو بن يربوع شرار النات[(١)]

ويشير إلى هذا المعنى أبو العلاء المعري في إحدى قصائده حيث يقول:

كأني بعمرو والسعالي مطية

إلى آخر أبياته التي يصوّر فيها هذا الوهم السائد بين الناس.

---

(١) الكنز اللغوي: ٤٢ ـ باب السين والتاء، لسان العرب ٢: ١٠١ ـ نوت. والنات: لغة في (الناس) لبعض العرب.

فبعض المفسرين يقولون[1]: إن الآية جاءت لتطرد هذا الوهم. والحقيقة أن هذا الوهم يعيش حتىٰ عند بعض الفقهاء الذين ينتمون لبعض المذاهب الإسلامية حيث إنهم يقولون: إن من الممكن الزواج من الجنّ، ويذكر أن جماعة تزوجوا وأنجبوا. وأدبنا العلمي يمنعنا من أن نحمل عليهم؛ حيث إننا نحملهم علىٰ البساطة، وإلّا فالحقيقة أن هذا الكلام لا يمكن قبوله؛ لأن اللّه جعل الجنّ صنفاً يتزاوجون فيما بينهم، وجعل الإنس صنفاً يتزاوجون فيما بينهم، فالجنّ للجنّ والإنس للإنس.

ثم إن الزواج من الجنّ ـ حسبما قالوا ـ تترتب عليه أُمور فاسدة، حيث إنه سوف تكون ثمرته أولاد إنسية وأولاد جنيّة؛ فتُخلق بهذا طبقات مختلفة الأصل والمنشأ والخلقة بين الناس. هذا فضلاً عن أن رسول اللّه صلى الله عليه وآله يقول: «كلّكم لآدم وآدم من تراب»[2].

ثمّ إن هناك جماعة يقسمون الناس إلىٰ جماعة سام، وجماعة حام الذين أصبحوا ذوي لون أسود، والسبب كما يوردونه أن النبي نوحاً عليه السلام حينما ركب السفينة هوّمت عيناه، فكشف الهواء عن عورته، فلما رآها حام ضحك، فبادر إخوته فستروها، فاستيقظ نوح عليه السلام من نومه ورآه يضحك، فسألهم عن سبب ضحكه، فقالوا: إنه رأىٰ عورتك فضحك. فقال عليه السلام: «اللهم اجعل ولد هذا عبيداً لولد هؤلاء»[3]، وهكذا أصبح أولاده عبيداً لأولاد إخوته.

وهذا الكلام لا يعدو أن يكون خرافات، وإلّا فما ذنب هؤلاء الذين

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٠: ١٤٢.

(٢) تحف العقول: ٢٤، كنز العمّال ١٦: ٤٥٩ / ٤٥٤٢٧.

(٣) انظر: علل الشرائع ١: ٣٢/١، تاريخ الطبري ١: ١٣٩، أخبار الزمان: ١٠٧.

خلقوا سوداً حتى يكونوا عبيداً لغيرهم بسبب ذنب أذنبه أبوهم، فدعا عليه أبوه؟ ثم إن القرآن الكريم يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[1]، فإن الذي يخطئ يأخذ جزاء خطئه. ولذا فإن هذه المسألة لا علاقة لهذا بذلك، بل هي مسألة تتحدّد علاقتها بالمناخ؛ فليس كل أسود عبداً.

إذن اختلاف اللون لا دخل له بالعبودية، فالعبد يمكن أن يكون رومياً أو من جنسيات أُخرىٰ، وكل ما في الأمر أنه إذا أُخذ أسير حرب أو في غارة فإنه يستعبد.

هذا وينبغي ألّا ننسى أن اللّه جل وعلا خلق الناس كلهم أحراراً.

والباحث حول هذه النظريات يجد من خلفها أصابع مشبوهة تحاول أن تضع الكثير من العقبات في طريق الإسلام. وما أكثر ما زرعه المستشرقون وغيرهم من هذا القبيل في طريق نموّ الإسلام وانتشاره.

الرأي الثاني: أنه جعل تكويني

وهو ما يقابل الجعل التشريعي. فمعلوم أن الجعل قسمان: تكويني وتشريعي. والجعل التكويني فهو الخلق والإيجاد.

الرأي الثالث: أنه جعل تشريعي

والجعل التشريعي فهو مادّة قانونية. وهذا الرأي هو الأقرب إلى الصواب؛ حيث إن الرجل تملك منه زوجته ما لا يملك منه أحد غيرها، وكذلك الرجل فإنه يملك من زوجته ما لا يملكه منها أحد غيره. فالزوجة بالنسبة للرجل أو الزوج ستر، وهو كذلك لها. وهو ما عبّر عنه القران الكريم بقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾[2].

---

(١) الإسراء: ١٥. (٢) البقرة: ١٨٧.

فالزوجة يمكن أن تحول جوّ البيت إلىٰ جنّة وسعادة، ويمكن أن تحوّله إلىٰ نار، وهي ترىٰ من الرجل ما لا يراه غيرها، وهو كذلك. فهناك امتنان. فالقرآن يمتنّ علينا ويقول: إن من نعم الله عليكم أنه أكمل نصفكم بكلمة بهذا الجعل التشريعي. ومعلوم إن الفرق بين الحلال والحرام هو كلمة في العقد الشرعي، أي «زوجتك»، أو «أنحكتك»، أو «متّعتك». وهذه الكلمات هي المتداولة في العقد الشرعي الذي يذلّل أي عقبة أمام الإنسان. وهكذا تكون الآية في معرض الامتنان علينا؛ فإنها توطّئ الطريق وتذلّل، الصعوبات، وتجعل المرأة ملكاً للرجل والرجل ملكاً للمرأة.

هذا مع الأخذ بالاعتبار أن الملكية هنا ملكية اعتبارية، فالرجل والمرأة ينفصلان عن أحضان أهلهما فيستقرّان ويلجأان إلىٰ بعضهما. وهذا إنما يتمّ بهذه الكلمة المجعولة شرعاً، وهي الكلمة التي ربطت الأُسر مع بعضها البعض، واستحلّت وأحلّت الفروج لذويها؛ لأنها كلمة تترتّب عليها آثار التزاميّة؛ فهي كلمة الله.

الجعل مركّب وبسيط

ثم إن هذه اللفظة معربة عن الإرادة، والإرادة هي بناء الأُسرة؛ إذ معنىٰ ﴿مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أن الجعل هنا جعل تصييري، ومعلوم أن الجعل منه مركّب أو تصييري، ومنه بسيط: فالجعل البسيط أن تقول: جعلت التراب، أي خلقته. والمركب أن تقول: جعلت التراب إبريقاً، أي صيّرته كذلك. أما موضوع المقام فهو جعل تصييري أي بعد أن يتمّ العقد بين الزوجين، فإن الزوجة تتحوّل إلىٰ جزء من نفس الزوج وهو يتحوّل إلىٰ جزء من نفسها. فكأن القرآن يريد أن يجعل جوّ الأُسرة مملوءاً بالودّ والحنان والشفقة

والرقّة والرحمة؛ لأن الأُسرة هي العشّ الذي تدور حوله مجموعة الأخلاق، فإذا لم يكن فيها انسجام وأخلاق فإن المجتمع ستصيبه كارثة.

المبحث الثالث: عقبات في طريق الزواج

الأولى: عقبة التكافؤ

نرجع إلى نقطة هامّة هي أنه إذا كان الإسلام يركّز على جانب الأُسرة، فلماذا نحول الأُسرة إلى تجارة حيث إننا نجد العقبات الكثيرة التي يخلقها الآباء ويضعونها في طريق الزواج، مع أن ضابطة الزواج الشرعية هي التكافؤ بين الزوجين؟

تحديد مفهوم التكافؤ في الزواج

إن الإسلام يعتبر الكفاءة قائمة على أساس الدين: «إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه»[1]، فالدين هو الذي يحدّد الكفاءة وهذه المسألة قد حُوّلت إلى عقدة عند البعض حيث يقول: لا أرضى بهذا الشخص؛ لأنه من المذهب الفلاني، مع أن الرواية تقول: «ترضون دينه»، ونحن جعلناها: «مذهبه».

فالإسلام جاء ليذلّل هذه العقبة، وكلّ ما علينا هو مراعاة المقوّمات الأُخرى؛ فالبنت ابنتك، فلا تجعل أمام سعادتها وفي طريقها عقبة موهومة. إن القرآن الكريم يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[2]، فأزال كلّ العقبات الموجودة في الطريق والتي يمكن أن تعترض الزوجين.

---

(١) الكافي ٥: ٣٤٧ / ٢ ـ ٣، الفقيه ٣: ٢٩٣ / ٤٣٨١، كنز العمّال ٦: ٤٥٩ / ٤٥٤٢٧.
(٢) الحجرات: ١٣.

ويُلاحظ أن هناك في مسألة التكافؤ أموراً عجيبة منها عدم تزويج المتمذهب بمذهب من متمذهبة بمذهب آخر، وعدم جواز زواج هذا الجنس كالرومي مثلاً من ذلك الجنس بحجّة وذريعة أن هذا الجنس لا يكافئه ذلك الجنس. وهذه عقبات ما أنزل الله بها من سلطان، بل إن بعضهم لا يقبل شهادة أحد الصناع حيث يقول: إنه يعمل في العمل الفلاني فلا تُقبل شهادته، وهذا غريب من المسلمين الذي يجب عليهم أن يتعبّدوا بالنص الشرعي ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

الثانية: عقبة المادة

حيث إن أهل الفتاة ينظرون قبل كل شيء إلىٰ رصيد الفتىٰ، وما الذي يستطيع أن يدفعه ثمناً ـ من وجة نظرهم ـ لابنتهم، فينظرون فيما إذا كان يملك مالاً ويملك سيارة أم لا. مع أن عليهم أن ينظروا قبل ذلك إلىٰ رصيده الأخلاقي، فما قيمة المال الذي يملكه إن كان منحلاً خلقياً؟ وما الذي يفيده المال هنا حينما يرجع مترنّحاً من السكر أو المخدرات؟ فهذا إذا كان يملك ـ وليكن مال قارون ـ فما الذي تنتفع به الزوجة منه؟ وأيُّ سعادة تدخل هذا البيت الذي تخيّم عليه أشباح الفساد والانحلال؟ نعم لك الحق في ألّا تُزوج ابنتك لشارب الخمر، فالحديث يقول: «ابنتك كريمتك فانظر لمن تُرقّها». حيث إنه قد يُطلّقها أثناء شربه الخمر أو قد يسمعها كلمة نابية. فمن عقوق الأبناء تزويجهم من مثل هذا الإنسان، لكن الناس للأسف لا يهمّهم ذلك. وهذا الذي يذهبون إليه بعيد عن جوّ الإسلام، وجوّ الأُسرة الصحيحة الذي تتوفّر فيه الكرامة للطرفين.

وهناك نقطة هامة وهي أنه بعد الهجرة للدول الأجنبيّة فقد بعض الشباب أصالتهم متصوّرين أن المدنيّة تقتضي أن تكون زوجته سافرة.

ونحن نقول له: إنك مسلم، وإن هذا العمل يعدُّ عيباً وعاراً، فهلا أخذت من الغرب النظام وروح الانسجام والنبوغ العلمي قبل أن تأخذ الانحلال والفساد الخلقي! فلماذا تعيش عائلاً علىٰ أفكار الآخرين؟ ولماذا تأخذ القضايا المنحطّة منهم؟ إن عليك أن تتمسّك بآدابك وقيمك وأخلاقك، فإن قيم الإسلام لا ترتبط ببيئة معيّنة بل هي تشمل كلّ البيئات، فإن الستر واجب في أي مكان تعيش فيه، فيجب عليك أن تكون أخلاقك الكريمة معك في كلّ بلد تحلّ فيه.

المغيرة والانغماس في رذيلة الزنا

ثمّ إن الزواج أنواع، فإذا كان الرجل غير ملتزم أو المرأة غير ملتزمة فهنا يحقّ لنا ألّا نزوّج هذا من تلك، أو هذه من ذاك، أما إذا كانت المرأة فقيرة أو كان الرجل فقيراً ليس لهما رصيد مالي، فليس هذا عيباً فيهما. وللشاهد التاريخي نذكر أنه يروى أن المغيرة بن شعبة كان والياً علىٰ الكوفة، وكان منحلاً متساهلاً في أُمور الدين، ومن باب الشيء بالشيء يذكر أن أحدهم وقف علىٰ قبره بعد دفنه فقال:

أمن رسم دار للمغيرة تعرف ... عليها زواني الجنّ والإنس تعزفُ
فإن كنت قد لاقيت هامان بعدنا ... وفرعون فاعلم أن ذا العرش منصفُ[(١)]

النساء أربع

وكان المغيرة قد خرج في يوم من الأيام يتمشىٰ بين الكوفة والنجف، فرأىٰ أعرابياً فطلب من غلامه إحضاره، فلما أحضره سأله المغيرة: من أين أقبلت. قال: من السماوة ـ والمقصود بها بلدة بين العراق والشام في

---

(١) مروج الذهب ٣: ٣٥، وفيه: دويّ. بدل: زواني. شرح نهج البلاغة ٤: ٧١.

الهضبة، وليست هذه المدينة المعروفة حالياً ـ فقال له: كيف خلّفت الأرض خلفك؟ قال: عريضة أريضة. قال: كيف خلفت المطر؟ قال: ملأ الحفر وعفّى الأثر. قال: عندي سؤال، أُريدك أن تخبرني عن أصناف النساء. فقال: النساء أربع: جميع مُجمع، وربيع مُربع، وغلّ لا يُنزع، وشيطان سمعمع. فقال له: فسّر لي، فأنا لا أفهم ذلك. فقال الأعرابي: أما الجميع المُجمع، فهي المرأة التي تتزوّجها من أجل حسبها ونسبها. وهذا زواج مصلحة، فأنت تنظر إليها لأنها ابنة فلان، فتجمع نسبك إلى نسبها.

وأما الربيع المُربع، فهي المرأة التي إن دخلت البيت ضحكت في وجهك، وإن خرجت حمدتك في عقبك، وكلّ أُمورك موفّرة عندها، وكلّ حاجاتك مقضيّة منها. تقوم لك مقام الربيع، فالأرض تهتزّ بالنبات في الربيع.

وأما الغلّ الذي لا يُنزع، فهي ابنة عمك، وأنت لا تشتهيها وهي كذلك لا تشتهيك، لكن التقاليد تحكم بذلك. وطبعاً إن هذا الإجبار خطأ لأن العقد لا ينعقد هنا؛ إذ أن من شروط صحّته الرضا، فإذا تخلّف هذا الشرط تخلّف المشروط؛ لقاعدة أن المشروط عدم عند عدم شرطه[1]، فعليه يكون أولادهما أولاد زنا.

وأما الشيطان السمعمع، فهي المرأة التي إن دخلت كلحت بوجهك، وإن خرجت ولولت بدبرك، وحوائجك غير موفّرة عندها وأُمورك غير مقضية منها. تأكل زادك وتنمك لجيرانك.

(١) انظر: مبادئ الوصول: ٩٨، المجموع شرح المهذّب ٤: ٧٣.

قال المغيرة: نِعم ما تقول، لكن عندي سؤال آخر. قال: نعم. قال: أتعرف عامل المدرة؟ والمدرة منطقة. قال: لا أعرفه، لكنّي سمعت عنه. قال: ما سمعت عنه؟ قال: أعور زانٍ. فقال له غلام المغيرة: ما صنعت؟ إنه العامل. فقال الأعرابي: قُل الحقّ ولو علىٰ نفسك. وركب جواده وذهب(١).

فموضع الشاهد أن النساء أربع، فهناك زواج من هذا اللون وهو أن هذه ابنة فلان وهذا الزوج لا يناسبها، مع عدم ملاحظة واقع الانسجام والتقارب والأخلاق والقيم التي يجب أن تخيّم علىٰ الأُسرة بعيداً عن الأنساب وبعيداً عن الألقاب. فعامل الأخلاق هو الذي يجب أن يكون عقبة لا عامل المادة والمال؛ لأن القرآن يقول: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾(٢). فمن الذي دخل الدنيا وهو مكلّل بالذهب؟ ومن الذي خرج منها وهو مكلّل به؟قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾(٣)، فمن دخل الدنيا دخلها عُرياناً وهو كذلك سيخرج عُرياناً وينام علىٰ التراب:

فكم كومةٍ للتربِ من بعدِ كومةٍ ... معلمةٍ هذا الزعيمُ وذا الهادي

فذو الزهو خلّى الزهوَ عنه وقد مضىٰ ... وظلت علىٰ الغبرا سيادةُ أسياد

أعقباكِ يا دنيا قميصٌ وطمرةٌ ... بصفرةِ أرضٍ من خراباتِ زهّادِ

فالعقبة الأساس هي عدم الخلق وعدم الدين، أما عقبة المال فليست عقبة حقيقية، وكذلك عقبة النسب فهي ليست عقبة حقيقية أيضاً: «كلّكم

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٢: ٢٤، وليس فيه: عامل المدرة، بل إن هذه العبارة وردت في قصة ملاقاة المغيرة مع هند بنت النعمان بن المنذر بعد أن ترهّبت. انظر مروج الذهب ٣: ٣٥.

(٢) النور: ٣٢. (٣) الأنعام: ٩٤.

لآدم وآدم من تراب»[1].

إن الإسلام لا يعتبر المهر ركناً في العقد حيث يستطيع الإنسان أن يعقد على المرأة بدون ذكر المهر، ثمّ ينصرف المهر إلى مهر المثل، ويصبح المهر ما كان متعارفاً ولو كان كفاً من بُرّ. فالآية الكريمة تقول: ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾.

المبحث الرابع: الحفدة

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾، وهنا يطرح سؤال نفسه، وهو: لماذا قال القرآن: ﴿مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾، مع أن المعلوم أن الولد يتكوّن من التقاء الزوجين كليهما؟

والجواب أن هذا فيه إشارة إلى أهمية الأم ودورها، هذا من ناحية ومن ناحية أُخرى أن الأب ألقاها نطفة لا قيمة لها، ولذا فإن الرجل إذا عزل نطفته عن المرأة فإن ديته عشرة دنانير؛ فليس لها قيمة فهي كالنواة ترمى في الأرض فتتحوّل إلى شجرة، وهي تتبع صاحب الأرض، وكذلك النطفة تنفصل من الرجل لا قيمة لها، وإنما تكون ذات قيمة عند تحوّلها إلى رحم المرأة وتتغذّى فيه وتنمو وتكبّر حتى تصبح طفلاً كاملاً. والمرأة إضافة إلى ذلك تتحمّل مشاكل الحمل ثمّ آلام الولادة.

وقوله تعالى: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ موضع امتنان الباري جلّ وعلا؛ لأن البنين من نعم الله على العبد، فالشكل الطبيعي للحياة أن يكون لكل إنسان امتداد طبيعي. وهكذا يكون الولد نعمة سواء كان ذكراً أو أُنثى، فالذين يتصوّرون أن الولد فقط هو الذي يكون نعمة، أما الفتاة فهي نقمة، فهم

---

(١) تحف العقول: ٢٤. كنز العمّال ١٦: ٤٥٩ / ٤٥٤٢٧.

مخطئون في تصوّراتهم؛ لأن هناك الكثير من النساء اللائي يعدلن الكثير الكثير من الذكور، قال أحد الأدباء:

فلو كان النساءُ كمثلِ هذي	لفضّلت النساءُ على الرجالِ
فما التأنيثُ لاسمِ الشمسِ عيبٌ	ولا التذكيرُ فخرٌ للهلالِ[(١)]

فالولد الصالح سواء كان ذكراً أو أُنثىٰ هو من نعم اللّه تعالىٰ علىٰ العبد، فالباري جلّ وعلا يذكّرنا بهذه النعمة.

أقسام الحفدة

الحفدة هنا لفظ مختلف فيه، فللمفسرين واللغويين فيه ثلاثة آراء:

الرأي الأوّل: أنهم الأحفاد

أي أولاد الأولاد، والشارع يمتنّ عليك بهم. وقد كان العرب يتمدحون من كان عنده أولاد كُثر، يقول الشاعر:

لعلك يوماً أن تراني كأنما	بَنيّ حوالىّ الأسودُ اللوابدُ
فإن تميماً قبل أن تلدَ الحصى	أقام زماناً وهو في الناسِ واحدٌ»[(٢)]

الرأي الثاني: أنهم أبناء الأصهار والأختان

أي أنه إذا زوج ابنته فإن أولاد ابنته يكونون درعاً له يحمونه، فهم كأولاده وإن كان آباؤهم أجانب. وعليه فإن قول الشاعر:

بنونا بنو أبنائنا وبناتُنا	بنوهن أبناءُ الرجالِ الأباعدِ[(٣)]

---

(١) شجرة طوبى ١: ٢٤٩. (٢) ديوان الفرزدق: ١٤٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٧٩، شرح نهج البلاغة ١١: ٢٨.

قال القرطبي بعد أن نقل استدلال النافين لكون ولد البنت ولداً على الحقيقة ما نصّه: هذا

هو عرف سائد دعّمه الأُمويون ليُبعدوا الحسنين عليهما السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإلّا فإن ابن الابنة ابن؛ فابنة الابنة لا يصحّ أن يتزوّجها جدّها لأمّها، كما لا يصحّ أن يتزوّج ابنة ابنه؛ فابنة الابنة بنت صلبيّة. وعليه فالحفدة هم أبناء الأصهار الذين يحفدونك ويرعونك، ويكونون لك ردءاً ودرعاً وعوناً.

الرأي الثالث: أنهم الخدم

ويستدل فقهاء المالكية منها على أن على المرأة أن تقوم بخدمات

الاستدلال غير صحيح، بل هو ولد على الحقيقة في اللغة؛ لوجود معنى الولادة فيه، ولأن أهل العلم قد أجمعوا على تحريم بنت البنت من قول الله تعالى: ﴿حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم﴾ النساء: ٢٣، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۞ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ الأنعام: ٨٤ ـ ٨٥، فجعل عيسى من ذريته وهو ابن بنته. فإن قيل: فقد قال الشاعر:

بنونا بنو أبنائنا وبناتُنا بنوهن أبناءُ الرجالِ الأباعدِ

قيل لهم: هذا لا دليل فيه، لأن معنى قوله أن ولد بنيه الذكران هم الذين لهم حكم بنيه في الموارثة والنسب، وأن ولد بناته ليس لهم حكم بناته في ذلك؛ إذ ينتسبون إلى غيره، فأخبر بافتراقهم بالحكم مع اجتماعهم في التسمية، ولم ينفِ عن ولد البنات اسم الولد؛ لأنه ابن. وقد يقول الرجل في ولده: ليس هو بابني؛ إذ لا يطيعني ولا يرى لي حقاً، ولا يريد بذلك نفي اسم الولد عنه وإنما يريد أن ينفي عنه حكمه. ومن استدلّ بهذا البيت على أن ولد البنت لا يسمى ولداً فقد أفسد معناه وأبطل فائدته، وتأوّل على قائله ما لا يصحّ، إذ لا يمكن أن يسمى ولد الابن في اللسان العربي ابناً، ولا يسمى ولد الابنة ابناً، من أجل أن معنى الولادة التي اشتقّ منها اسم الولد فيه أبين وأقوى؛ لأن ولد الابنة هو ولدها بحقيقة الولادة، وولد الابن إنما هو ولده بماله مما كان سبباً للولادة.

وقال ابن أبي الحديد: وقال حكيم العرب أكثم بن صيفي في البنات يذمّهن: إنهن يلدن الأعداء، ويورثن البعداء. قلت: ليس في قول أكثم ما يدلّ على نفي بنوّتهن، وإنما ذكر أنهن يلدن الأعداء، وقد يكون ولد الرجل لصلبه عدوّاً. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، ولا ينفي كونه عدواً كونه ابناً.

بيتيّة. ففي الشريعة الإسلامية أن المرأة لا يملك منها الرجل إلّا العلاقة الجنسية؛ وإلّا فإن غسل الملابس وطبخ الطعام أمران خارجان عن العقد، وليس للزوج مطالبة زوجته بهما، لكنها عادات اعتاد عليها الناس وسار عليها العرف. وفقهاء المالكية وحتىٰ فقهاء غير المالكية يقولون: إنها تتبع عادة أمثالها أي حسب طبقتها، فمثلاً لو أنها من طبقة عادة المرأة فيها أن تغسل الثياب وتطبخ الطعام وتنظّف البيت والزوج عليه واجبات إزاء الزوجة فيجب عليها هنا - إن كانت من هذه الطبقة - أن تقوم بهذه الواجبات إذا تزوجت، أما إذا كانت بنات طبقتها لا يؤدين هذه الأعمال، فليس للزوج أن يجبرها أو يطالبها بذلك.

المبحث الخامس: شبهة زواج القاسم

وننتقل إلىٰ القاسم في هذه الليلة حيث تنقل شبهة مبتنية على رواية مفادها أن القاسم قد تزوج فيها، فالحسين ﷺ زوّج القاسم مقتدياً بعمل آبائه؛ فأبو طالب ﷺ زوج الرسول ﷺ، ورسول اللّه ﷺ زوّج الإمام علياً ﷺ، والإمام علي زوّج الكثير من أبناء الأسرة، والحسن كذلك. فالإمام الحسين ﷺ قد عزّ عليه أن يكون في بيته ابن أخيه، وهو وديعة عنده، مضافاً إلى ذلك رغبة كانت عند الإمام الحسن ﷺ بأن يتزوّج القاسم من ابنته، فلذا رأى ﷺ أن عليه أن يلبي هذه الرغبة وأن يزوج القاسم من إحدى بناته.

لكن حقيقة هذا الزواج غير ثابتة، فهناك روايات مرسلة غير معتمدة تشير إليه، فتقول: إنه عقد على إحدىٰ بنات الإمام الحسين ﷺ. أما أن تذكر رواية أن القاسم تزوّج فعلاً من سكينة ﷺ فهي رواية غير صحيحة حتماً؛ لأنها كانت متزوّجة يوم الطف، وعندها طفل علىٰ بعض

الروايات.

هذا من ناحية ومن ناحية ثانية أن القاسم لم يكن مؤهّلاً للزواج؛ لأن عمره كان آنذاك ستّ سنين، فليس هناك زواج ولا عرس، لكن هذه الرغبة كانت موجودة عند الحسين عليه السلام الذي يعتبر القاسم كأولاده، وأنه آخر نبلة في كنانة الحسن عليه السلام حيث خلفه أبوه، ولذلك فإن الإمام الحسن عليه السلام عند احتضاره دفع القاسم عليه السلام إلى الإمام الحسين عليه السلام الذي وضعه في حجره ثمّ قال له: «هذه وديعتي عندك». وهكذا رُبي القاسم في حجر عمه الحسين عليه السلام.

فكانت لدى الحسين عليه السلام هذه الرغبة فعقد له على إحدى بناته، وهذا بناء على ما في هذه الروايات المرسلة.

وكان القاسم شجاعاً بحيث إنه كان يندفع اندفاعاً غير محدود للقتال، فنزل إلى المعركة، لكن الحسين عليه السلام جذبه من يده، وبيّن له بأنه وديعة عنده من أخيه الحسن عليه السلام، وإنه لا يريد أن يفرط بهذه الوديعة، ثم قال: «إن القوم يطلبونني ولو ظفروا بي لذهلوا عن طلب سواي»[1]. فهو عليه السلام يقول له: تستطيع أن تأخذ بيد أخيك وتذهبا وأنتما في حلّ من بيعتي. فقام أولاد الحسن عليه السلام وأولاد إخوته وبنو عمّه وقالوا: قبّح الله العيش بعدك يا أبا عبد الله.

وهكذا ألحّ هذا الصبي على عمّه لينزل إلى الساحة حيث قال: لقد ضاق صدري وسئمت الحياة؛ فائذن لي حتى أطلب بثأري من هؤلاء

---

(١) روضة الواعظين: ١٨٣، الإرشاد ٢: ٩٢، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، الدمعة الساكبة ٤: ٢٧٢، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٢٦٢ ـ ٢٦٥، تاريخ الطبري ٤: ٣١٨، البداية والنهاية ٨: ١٩١.

القوم. وهو آخر مقاتل يقتل من أصحاب الإمام (سلام الله عليه)؛ حيث إنه (سلام الله عليه) نظر إلى الخيام ولم يرَ أحداً بل رأى اخوته وأبناء أُخته وأنصاره صرعى، فأذن له بعد أن قال له: «أمهلني قليلاً». ثمّ دخل إلى الخيمة فأخرج عمامة الإمام الحسن ﷺ فلفها على رأسه، وأخرج له رداء ألبسه إياه، ثمّ أخرج سيف أبيه الحسن ﷺ وقلّده إياه ثمّ أمسكه من يده ورمق السماء بطرفه وقال: «اللهم اشدد وطأتك على هؤلاء القوم؛ إنهم دعونا لينصرونا، فوثبوا علينا فقاتلونا»[1]. فنزل القاسم ﷺ وهو يرتجز:

إن تنكروني فأنا نجلُ الحسن سبط النبيّ المصطفىٰ والمؤتمن
هذا حسين كالأسير المرتهن بين أُناس لا سقوا صوب المزن[2]

وأخذ يفري الرجال بسيفه فرياً إلى أن توسط الساحة فانقطع شراك نعله، فانحنى ليربطه وإذا بالسيف على رأسه، وسقط على الأرض منادياً: أدركني يا عماه. فأقبل إليه الحسين ﷺ كالصقر الذي ينقض على فريسته، وذاد عنه الخيل يميناً وشمالاً وجلس عند مصرعه وأخذ رأسه وراح يمسح الدم والتراب عن وجهه، وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[3] ثمّ قال: «قتل الله قوماً قتلوك»[4]، ثمّ

---

(١) انظر: الإرشاد ٢: ١١١، بحار الأنوار ٤٥: ٤٢، وفيهما أنه ﷺ قالها حين نزل علي الأكبر ﷺ إلى المعركة، تاريخ الطبري ٤: ٢٩٣، ٣٤٥، تهذيب التهذيب ٢: ٣٠٤، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٠٩، وفيها وفي غيرها أنه ﷺ قالها حين قتل صبي له، باختلاف في اللفظ في الجميع.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٥، مقتل الإمام الحسين ﷺ (الخورزمي) ٢: ٢٩.

(٣) الأحزاب: ٢٣.

(٤) لم نعثر عليه في القاسم، وإنما هو في علي الأكبر. انظر: الإرشاد ٢: ١٠٦، مقاتل الطالبيّين: ٧٦.

أخذ رأسه ووضعه في حجره ثمّ أقبل يحمله إلىٰ المخيم واضعاً صدره علىٰ صدره ورجلاه تخطّان الأرض، وبعد أن وضعه مع القتلىٰ خرج من الخيمة ليفسح المجال لأُمّه وعمّته وباقي النساء، فدخلت أُمّه رملة ووضعت رأسه في حجرها:

فجعني الدهر بوليدي وخيب ضنوة سنيني

﴿٦٩﴾

مواقف مشرّفة في حياة العباس عليه السلام

بـــطلٌ تــورّث مــن أبــيه شــجاعةً ... فــيها أنــوفُ بــني الضــلالةِ تُــرغَمُ

عبست وجوه القوم خوف الموت والـ ... ــعباس فــيهم ضــاحك مــتبسّمُ

ورد عن الإمام السجاد في عمه العباس عليه السلام قوله: «رحم الله العباس، لقد آثر وفدى وواسى أخاه بنفسه، فأعطاه الله جناحين عوض يديه، كما صنع لجعفر بن أبي طالب»[1].

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأوّل: بعض الجوانب البطولية عند العباس عليه السلام

قبل الدخول في صلب الموضوع لا بدّ من مقدمة وجيزة، فمؤرّخو الطف يؤكدون في تواريخهم على بعض الجوانب البطولية في ترجمة العباس أو في ترجمة الإمام الحسين عليه السلام. وبعض الناس قد يتصوّر أن هذا نوع من الفكر الأُسطوري، وهذا تصور خاطئ؛ لأن عند الأُمم كافّة غراماً بالبطولة، فأنت مثلاً تجد الملاحم البطولية في تأريخ اليونان[2]،

(١) الخصال: ٦٨ / ١٠١، بحار الأنوار ٢٢: ٢٧٤ / ٢١.

(٢) كملحمتي الإلياذة والاوديسة وملحمة طروادة وملحمة الانيادة.

والرومان[١]، والفرس[٢]، والعرب[٣]، وغيرهم[٤] من الأُمم.

فما هو الهدف من الثناء على بطل من الأبطال كعنترة مثلاً عاش يوماً من الأيام ثم مات؟ إن المقصود ليس الثناء على البطل الذي عاش ومات، بل المقصود من ذلك هو خلق المثل الأعلى للأُمّة، وإيجاد الأُنموذج البطولي الذي تقتدي به. وهذا عامل تربوي هام يُستهدف منه حمل النفوس على سلوك طريق الأبطال لتكون كبيرة.

فليس المقصود من ذكر شجاعة أهل البيت عليهم السلام أننا نُرضي نزعة دينية في نفوسنا، أو نستعمل لوناً من الفكر الأُسطوري، بل المقصود من ذلك هو أن يُخلق المثل والنموذج الصالح ليكون قدوة.

نعود الآن إلى مضامين حديث الإمام السجاد في عمه العباس عليه السلام العالية والتي تشكل جزءاً من مباحث موضوعنا، فلو دقّقنا النظر في هذا الحديث لوجدنا أنه يشتمل على مجموعة من المعاني السامية:

المبحث الثاني: قوله عليه السلام: «رحم الله»

فما معنى «رحم» هنا؟ وهل إن المقصود بها الدعاء، أو الإخبار؟ فإذا قلنا: إنها للدعاء، فإنه يرد هذا السؤال: هل هي لطلب المزيد من الرحمة، أو لتحقيق أصل الرحمة؟

نحن مثلاً نقول كل يوم: «اللهم صلّ على محمد وآل محمد»، والصلاة هنا هي الدعاء برفع المنزلة، وإلّا فلا يمكن أن يقال: إن الصلاة هنا هي الدعاء

---

(١) كملحمة جلاديتيور. (٢) كملحمة آناتغرافيا.

(٣) كسيرة عنترة والزير سالم وأبي زيد الهلالي وغيرهم.

(٤) كملاحم الهند مثل المهابهاراتا وكاماسوترا ورامايانا، وملحمة جلجامش البابلية، وملحمة حياة الملك جيسار المعروفة بـ(الإلياذة الشرقية).

بإعطاء المنزلة للنبيﷺ؛ لأنها موجودة أصلاً.

إذن معنى الدعاء بالرحمة للشهداء هو أن يزيد الله في عطائهم، وإلّا فإن أصل الرحمة موجود. يقول الحديث النبوي الشريف: «فوق كلّ برٍّ برٌّ حتى يقتل الرجل في سبيل الله»[1].

فالمجاهد لا نطلب له الرحمة؛ لأنها موجودة. فتكون الصيغة في كلام الإمام السجادﷺ صيغة إخبار لا صيغة دعاء. فما هي الرحمة التي رحم الله بها العباسﷺ؟

أقسام الرحمة

لدينا أنواع من الرحمة، منها:

١ ـ **الرحمة الابتدائية**، وهي أننا قبل أن نُخلق كنّا في عالم التراب، فأفاض الله تعالى علينا رحمته وأخرجنا إلى عالم الوجود. فهذه الرحمة ابتدائية، إذ ليس لنا عمل سابق نستحقّها به.

٢ ـ **الرحمة بعوض**، وهي أن يعمل أحدٌ عملاً فيستحقّ عليه الرحمة، يقول الحديث القدسي: «إن أردتم رحمتي فارحموا خلقي»[2]. فمثل هذه الرحمة تكون معاوضة في مقابل عمل.

٣ ـ **الرحمة التي تدرك بعطف**، وهذه الرحمة هي التي تكون في مثل ما لو وقع أحدٌ في محنة، فإن الله تعالى يفيض عليه رحمته وإن أساء إلى الله، وكلّ منّا يسيء إلى الله تعالى، إما بعدم شكر النعمة، أو بالاعتراض على أحكامه تعالى، أو أن نسيء أحياناً إساءة بالغة فنقول: إن هذه الرسالة

---

(١) دعائم الإسلام ١: ٣٤٣، وقريب منه في الجامع لأحكام القرآن ٨: ٢٦٧.

(٢) عوالي اللآلي ١: ٣٧٧ / ١٠٨، كنز العمال ٣: ١٦٧ / ٥٩٩١.

السماوية أصبحت غير صالحة للمجتمع، ولابدّ أن نستبدل بها قانوناً أحدث. ومع كلّ ذلك فإن الله تعالى لا يقطع عنا رحمته. يقول علماء الكلام: إن الله تعالى وعد العباد بالخير، وتوعّدهم بالشرّ، فهل أوجب على نفسه الوفاء بهما؟ وهنا يجيبون بأنه تعالى أوجب على نفسه الوفاء بالوعد دون الوعيد؛ لأن رحمته تسبق غضبه، وما أوسع رحمة الله[1]!

جاء أحد الصحابة يوماً إلى النبي صلى الله عليه وآله فوجد في الطريق يمامة عندها فرخان، فمدّ يده إلى فرخيها فأخذهما ـ وكان ينوي جلبهما للحسن والحسين عليهما السلام ـ فأخذت اليمامة تحوم حوله وتتبع فراخها، فلما وصل إلى النبي صلى الله عليه وآله أخبره أنه جلب للحسن والحسين عليهما السلام طيرين يلعبان بهما، فقال النبي صلى الله عليه وآله: «ما أحسنت صنعاً؛ لأنك آلمت هذه الأم». ثم التفت إلى أصحابه وقال لهم: «هل رأيتم هذه اليمامة؟». قالوا نعم. قال صلى الله عليه وآله: «هل رأيتم حدبها وشفقتها؟». قالوا: نعم. قال صلى الله عليه وآله: «إن الله أرحم بكم من هذه اليمامة بفرخيها»[2].

إن الوجود بأسره وثبة من وثبات الرحمة، ولهذا اعتقد البعض أن العذاب مُستبعَد؛ لأنه يرى أن كلّ شيء خلقه الله خِلقة رحمة[3]. ولكن

---

(١) انظر الميزان في تفسير القرآن ٦: ٣٦١، ١١: ٣٥، وعبّر عن ذلك في الثاني بأنها قاعدة عقلية مسلمة، ثمّ قال: لأن الذي تعلّق به الوعد حق للموعود له وعدم الوفاء به إضاعة لحق الغير، وهو من الظلم. وأمّا الوعيد فهو جعل حق للموعِد على التخلف الذي يوعد به له، وليس من الواجب لصاحب الحق أن يستوفي حقه، بل له أن يستوفي وله أن يترك.

(٢) هناك قصة شبيهة لهذه رواها القرطبي في تفسيره قال: قال ابن عباس: رأى رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أوطاس امرأة تعدو وتصيح ولا تستقر، فسأل عنها فقيل: فقدت بنيّاً لها. ثم رآها وقد وجدت ابنها وهي تقبّله وتدنيه، فدعاها وقال لأصحابه: «أطارحة هذه ولدها في النار؟». قالوا: لا. قال صلى الله عليه وآله: «لم؟». قالوا: لشفقتها. قال: «الله أرحم بكم منها». الجامع لأحكام القرآن ٨: ١٠٣.

(٣) كما مرّ من شعر الخيّام، حيث يقول:

هذه مغالطة أيضاً؛ لأن من الرحمة أحياناً أن يؤدَّب الإنسان.

فالعبارة التي يذكرها الإمام السجاد ﷺ في حق العباس ﷺ هي إخبار كما قلنا، فما هي رحمة الله للعباس ﷺ؟ لقد رحمه في الدنيا بالثناء الجميل، فقد أولاه أهل البيت عناية كبيرة، وهو الآن في عداد الأبطال، أما الرحمة عند الله فهي ما أعد للشهداء من الرحمة والعطاء، وهذه الرحمة من النوع المقابل للعطاء، لأن العباس ﷺ صنع ما يستحق به ذلك.

المبحث الثالث: قوله ﷺ: «عمي العباس»

ثم يقول الإمام ﷺ: «عمي العباس»، فهذا الاسم (علم) هل هو من الأسماء الجامدة أو المشتقة؟ فالأسماء كما نعرف منها جامد ومنها مشتق، والعباس من الأسماء المشتقّة. وبما أننا مررنا بهذا الجانب فيحسن أن نذكّرهنا بأننا يجب أن نُحسن أسماء أبنائنا؛ لأن من الأساليب التربوية التي وضعها الإسلام أن نحسن تسمية الولد وأن نحسن تربيته، قال ﷺ: **«من حق الولد على الوالد أن يحسن تربيته، وأن يحسن تسميته»**[1].

ثم إن الاسم يجب أن يأخذ خواصّ البيئة، فالأسماء التي فيها الطابع

قيل أن قد وعدت بالنار يوماً	فتعجّبتُ أين هذا يقالُ
بمكان ما أنت فيه ولا يو	جد أم حيثُ أنت وهو محالُ

انظر ج ١ ص١٠٦ من المحاضرات.

والقائل:

ربي أوعدتني بأن جزائي	لذنوبي العقابُ والنيرانُ
فتعجّبت من وعيدك هذا	وأنا باكتناهه حيرانُ
أعذابي بموطن منك يخلو	دلّني أين أين هذا المكانُ
أم مكان تحلّه ومحال	حيثما أنت رحمة وحنانُ

انظر الجزء ١: ٣٠٦.

(١) شرح نهج البلاغة ١٩: ٣٦٥ / الأصل: ٤٠٧.

الديني كأسماء الأنبياء والأيمّة مندوب إليها، يقول ﷺ: «أحب الأسماء إلىٰ الله ما حُمِّد أو عُبِّد»[١]. والبيوت التي فيها هذه الأسماء تكون من مظانّ الرحمة الإلهية.

هذه ناحية، ومن ناحية أُخرى فإننا عندما نسمي أبناءنا بهذه الأسماء فإن ذلك ينمّ عن اعتزازنا بالذي لأجله أسمينا بهذا الاسم، فلو أسمينا محمداً فهذا يدل على اعتزازنا بشخص الرسول ﷺ وتمسّكنا به، كما ينمّ عن أصالتنا نحن. وليس معنى ذلك أن الأسماء الأُخرى محرمة، ولكن الذي أُريد قوله: إن هناك أسماء تدل على الانتماء والأصالة، فالاسم يدل على هويّة معيّنة، فهناك أسماء تدلّ على بطولة، أو على دين، أو هوية أُخرى.

وقد يسمي البعض أسماء ليقال عنه: إنه ممن يواكب العصر والزمان (مودرن). خصوصاً أن المودرن هذه لا تكلّف الشخص عندنا سوى ربطة عنق معيّنة، أو لباس معيّن، أو اسم معيّن، وإلّا لو رجعنا إلىٰ تفكيره لوجدنا أنه رجعي لمئة ألف سنة. وهذا هو المسمى عند علماء الاجتماع بنظرية التخلّف الاجتماعي، وهي أن المجتمع يعيش التطوّر في الجانب المادي، فترى الفرد يملك أحدث الأجهزة، ويستخدم أحدث الوسائل، ولكنه في الجانب الفكري يعيش أفكاراً بالية. وهكذا فقد تجد الآن في بلداننا من يقتني السيارة الفاخرة، ويستخدم الوسائل المتطورة، ولكنه إذا قلع سنّه رماه إلىٰ الشمس لتأخذه.

فالمسألة مسألة مسميات لا مسألة أسماء، فمن الأُمور التربوية

---

(١) العهود المحمدية: ٣٤٢، ورواه مرفوعاً عن أحمد وأبي داود والترمذي وابن ماجة.

الإسلامية إذن أن نحسن الأسماء.

نعم، لقد سمّى أمير المؤمنين عليه السلام ولده العباس عليه السلام بهذا الاسم تفوّلاً به؛ لأن من سير البطولة وتقاليدها أن البطل إذا نزل إلىٰ ساحة القتال يعبس، ولذلك لمّا أراد الإمام أن يتزوّج فاطمة بنت حزام استعان بأخيه عقيل. وكان عقيل من أصحاب الطنافس الأربعة، وهم متخصّصون في معرفة الأنساب وخواصّ القبائل، فكان عقيل يجلس في مسجد النبي صلى الله عليه وآله للاستشارة في الأنساب، وكان مَن يريد الزواج يأتي إلىٰ هؤلاء ليُعينوه على معرفة نسب القبيلة التي يريد أن يتزوّج منها، والخواصّ المميّزة لها؛ من شجاعة أو جبن، أو كرم أو بخل، أو غيرها. وهذا النوع من الاستشارات موجود الآن في أوروبا، فهناك مكاتب مختصّة يأتي إليها الراغبون في الزواج من الشباب والفتيات فيعطون معلومات مفصّلة عن أعمارهم وثقافاتهم وشؤونهم الأُخرى، ثم يدرس المختصّون حالاتهم هذه لمساعدتهم على الوصول إلى الزواج بأفضل السبل.

نعم، قال الإمام عليه السلام لعقيل: «انظر لي امرأة قد ولدتها الفحولة من العرب لأتزوّجها فتلد لي غلاماً فارساً، يكون ناصراً وعضداً لولدي الحسين بطف كربلاء»[1].

إذن كان هناك قصد مسبق لأمير المؤمنين عليه السلام في أن يُعدّ هؤلاء الأولاد ليوم منتظر، وهذا المعنى ليس غريباً عن حضارتنا، فالأُمّ التي تطلب الثأر تُعد ابنها لأخذ الثأر، فتغلغل عنده نزعة الأخذ بالثأر منذ الطفولة.

وقد يرد إشكال أن الإمام لماذا يسأل عقيلاً ويستعين به في حين أنه

---

(١) عمدة الطالب: ٣٥٧، بطل العلقمي ١: ٩٧.

إمام، وإذا أراد أن يعلم فإنه يعلم؟ وبالمناسبة فإن بعض الشباب قد يستغرب من مسألة أن الإمام يعلم، والحال أن منجزات العلم الحديث تثبت أن بعض الناس عنده ما يسمى بالحاسّة السادسة، وهذه الحاسّة تتعدّى زمنها وإطارها أحياناً، وتتنبّأ بحوادث تقع في المستقبل.

أما على النطاق الديني فهذا الأمر مفروغ منه، وإن بعض الناس يُعتبرون من المحدَّثين. يروي أبو داود أن عمران بن حصين كانت تحدثه الملائكة[1]، ويروي ابن حجر في (تهذيب التهذيب) أن عمر بن عبد العزيز كان يحدّثه الخضر، وكان يراه ولا يراه الناس[2]. ومع ذلك فإننا لم نسمع من يقول لهؤلاء: إنكم مغالون، أما إذا ذُكر شيء من ذلك لأهل البيت عليهم السلام فيأتي من يقول: إن هذا غلو. وهذا من الكلام الفارغ ؛لأن حكم الأمثال فيما يجوز وما لا يجوز واحد، فإما أن يكون العلم ببعض الغيبيّات خرافة فهو في الحالين كذلك، وإما أن يكون حقيقة فهو في الحالين كذلك أيضاً.

إذن العلم بالغيب موجود على المستوى الديني، وفي آراء المسلمين موجود، وفي القرآن على قراءة ابن عباس موجود. وفي البخاري[3] وغيره[4] من الكتب التي تروي أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «قد كان في الأمم السابقة قبلكم محدّثون، فإن يكن في أمتي أحد منهم فهو عمر بن الخطاب». فإن كان عمر محدَّثاً فنحن لا نعطي الإمام المعصوم أكثر من هذا.

إذن لماذا يستعين الإمام عليه السلام، وهو المحدَّث بأخيه عقيل في خطبة

---

(١) سنن أبي داود ٢: ٢٢١ / ٣٨٦٥. (٢) تهذيب التهذيب ٧: ٤١٩ / ٧٩١.
(٣) صحيح البخاري ٤: ١٤٩.
(٤) صحيح مسلم ٧: ١١٥، مسند الحميدي ١: ١٢٣، صحيح ابن حبان ١٥: ٣١٧.

امرأة؟ وما مقدار علم عقيل إزاء علم علي عليه السلام؟ الجواب: هو أن الإمام لم يرد الاستفادة من علم أخيه عقيل، وإنما أراد أن يجري الأُمور على قواعدها من حسن الاستشارة، وأن يعطينا درساً في الاستعانة بأهل الخبرة. وهذا من الدروس المهمّة لنا، فنحن ملزمون باللجوء لذوي الخبرة والاختصاص في كلّ مجالات الحياة، وألّا نكون متخبّطين ندخل فيما ليس من شأننا واختصاصنا.

لقد تأمل عقيل طويلاً ثم قال: عليك بفاطمة بنت حزام، فليس في العرب أشجع من قومها. ثم أخذ يبين مواطن الشجاعة في قومها، فقال: إن من قومها مُلاعب الأسنّة، ومهلهلاً، وعامراً الذي يقال عنه: لو سقط نجم من السماء لالتقطه برمحه. ثم ذكر له جمعاً من فرسانهم، ثم قال: وفي قومها افتخر لبيد الشاعر في مجلس النعمان بن المنذر عندما قال:

نحن بنو أم البنين الأربعة ... ونحن خير عامر بن صعصعة
الضاربون الهام وسط الخيضعة ... والمطعمون الجفنة المدعدعة[1]

فلم يرد عليه أحد إذعاناً بصحّة ما يقول، فهؤلاء يتوارثون الشجاعة والبطولة جيلاً بعد جيل، وكانت هذه المرأة حقاً مثالاً للخلق الطيب.

المبحث الرابع: إيثار العباس عليه السلام

ثم يقول الإمام السجاد عليه السلام «لقد آثر»، فما هو نوع الإيثار؟ ينبغي علينا أن نلتفت إلى تعبيرات الأئمة عليهم السلام؛ فهي دقيقة جداً. القرآن الكريم يقول:

---

(١) انظر: عمدة الطالب: ٣٥٧، بطل العلقمي ١: ٩٧، غير أنهما لم يذكرا كلام عقيل بن أبي طالب هذا، ولم يذكرا أبيات لبيد، وهي مذكورة في ديوانه المطبوع ضمن ديوان الفروسيّة: ١٦٨.

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1]، فالإمام لم يذكر نوع الإيثار هنا، وهل هو بالنفس أو على النفس؛ لأن الإيثار قد يكون على النفس بأن يقدم أحدنا غيره على نفسه بالطعام أو الشراب أو المال أو المنزل أو غير ذلك. ونحن نقرأ في تأريخنا أن أبا جهم بن حذيفة قال: سقط ابن عمّي في واقعة اليرموك، فأدركته عند النزع، وأردت أن أسقيه ماء، فلمّا دنوت منه، أشار إلى جريح آخر كان إلى جنبه وقال لي: هذا أحوج مني. فذهبت إلى هذا فقال لي: إن هذا الجريح الثالث أحوج مني. فذهبت إلى الثالث فوجدته قد مات، فرجعت إلى الذي قبله فوجدته قد مات أيضاً، فرجعت إلى ابن عمي فوجدته مات أيضاً[2]. فهؤلاء آثروا على أنفسهم في آخر لحظة من حياتهم. فهذا نوع من الإيثار وهو الإيثار على النفس، وقد يموت هذا المؤثِر أو يبقى.

وهناك نوع من الإيثار هو الإيثار بالنفس وليس على النفس، بمعنى أن يعطي المؤثِر نفسه فداء لغيره، وهذا المعنى لم يأخذه العباس عليه السلام عن كلالة، فأبوه أمير المؤمنين عليه السلام لما نزل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾[3] وأمره الله تعالى بالهجرة من مكّة إلى المدينة أراد النبي صلى الله عليه وآله أن يهاجر ويوهم قريشاً أنه لم يهاجر، فطلب من الإمام علي عليه السلام أن ينام في فراشه، فقال علي عليه السلام: «أو تسلم إذا نمت في فراشك يا رسول الله؟». قال صلى الله عليه وآله: «نعم». قال عليه السلام: «روحي لروحك الفدا، ونفسي لنفسك الوقا يا رسول الله». ثم أخذ بُرد النبي صلى الله عليه وآله وتلفّع به، واضطجع في مكان النبي، يقول الكعبي:

---

(١) الحشر: ٩.

(٢) نصب الراية ٢: ٣٧٢، تاريخ مدينة دمشق ٣٨: ١٨٠.

(٣) الأنفال: ٣٠.

ومـواقـفٌ لك دون أحـمد جـاوزت ... بـمقامك التـعديد والتـحديدا

فعلى الفراش مـبيتٌ ليلك والعدا ... تُـهدي إليك بـوارقاً ورعـودا

فـرقدت مـثلوجَ الفـؤاد كأنـما ... يـهدي القـراعُ لسـمعك التـغريدا

ووقـيت ليـلته وبتّ مـعارضاً ... بـالنفس لا فشِـلاً ولا رعـديدا

رصدوا الصباح لينفقوا كنز الهدى ... أومـا دروا كـنز الهدى مـرصودا

بات علي عليه السلام في فراش النبي صلى الله عليه وآله حتى الصباح، وقريش محيطة بالبيت، فأقبلوا نحو البيت وإذا علي عليه السلام ينهض في وجوههم، فقالوا: أنت علي؟! أين محمد؟ قال: «أوتركتموني حارساً عليه». فتقدم إليه عبد لعكرمة بن أبي جهل، فضربه علي عليه السلام بسيفه فقتله[1].

فهذا الموقف الذي وقفه علي عليه السلام بالإيثار دون النبي صلى الله عليه وآله هو عين الموقف الذي وقفه العباس عليه السلام دون الإمام الحسين عليه السلام يوم كربلاء.

المبحث الخامس: العباس يُعوَّض بجناحين في الجنة

ثم قال الإمام السجاد عليه السلام «فأبدله الله بجناحين»، وهذه النقطة تستحقّ التوقّف قليلاً؛ إذ ما معنى أن يعطي الله تعالى العبد جناحين في الجنة؟ ألا يمكنه أن يتمشّى في الجنة؟ أم أن هذا الخبر من الأساطير التي نضع أمامها علامة استفهام، أم أن هناك هدفاً آخر؟ في الواقع إن في هذا الأمر هدفاً سوف أبينه، فالإنسان فيه القابلية على أن يصل بمستواه إلى مستوى حشرة، أو أن يكون بمستوى الملَك، والملائكة هم حملة الأجنحة، قال تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾[2] فالجناح هنا

---

(١) مسند أحمد ١: ٣٤٨، فتح الباري ٧: ١٨٤، ولم يذكر عكرمة. والأبيات للكعبي في ديوانه: ٣٩، وقد مرّت في ج١ ص٧٨، ج٢ ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦ من المحاضرات.

(٢) فاطر: ١.

يعني السمّو، يقول الشاعر:

أخـــاك أخـــاك إن مـــن لا أخـــا له كســاعٍ إلى الهـيجا بــغير سـلاحِ
وإن ابن عـمّ المـرء فـاعلم جـناحه وهل ينهض البازي بغير جـناحِ[1]

فالجناح في هذا البيت يعني المناصِر، وكذلك في هذه الآية عبر عن الطيران والسمو بلازمه وهو الجناح[2]. وكذلك أعطى الله تعالى جعفراً الذي ذهبت يداه يوم مؤتة[3] جناحين ليجعله في مصافّ الملائكة فـي هذا اللون من السموّ، وكذلك أعطى العباس درجة من السمو كما أعطى جعفراً؛ فألحقه بالملائكة في هذه الدرجة. وإلّا فإن فكرة الجناحين إذا لم تُحمل على هذا المعنى فهي فكرة بلهاء.

دعونا الآن ننظر إلى ما قدّم هذا الرجل الذي لم يكن قتاله يوم الطف عن عصبية، ومن الأدلّة على أن قتاله لم يكن عن عصبية أنه جاء بأُخوته الثلاثة يوم الطف ـ وكان أكبرَهم بل أكبرَ الهاشميين يوم الطف، وعمره ثلاثون عاماً، وكان متزوّجاً بأم الفضل بنت علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، وله منها ولدان: عبيد الله والفضل، وكانت ذريته فيما بعد من عبيد الله ـ وقال لهم: تقدّموا حتى أُرزأ بكم، أي أُريد أن أحتسبكم عند الله فأموت وأنا مطمئنّ أنكم وقفتم كموقفي. ولكن الخسّة وصلت بأحد المؤرخين أن يقول: قال العباس عليه السلام لإخوته: تقدموا حتى أرثكم[4]! فهل يبقى العباس عليه السلام بعدهم حتى يرثهم؟

---

(١) البيتان لمسكين الدارمي. شرح نهج البلاغة ١٨: ١١٣.

(٢) وهو ما يسمىٰ بالاستعارة المكنية. (٣) المستدرك علىٰ الصحيحين ٣: ٤٠.

(٤) انظر تاريخ الطبري ٤: ٣٤٢، الكامل في التاريخ ٤: ٧٦، والحقيقة أنه قال لهم: تقدموا حتىٰ أراكم قتلىٰ فأحتسبكم. مقاتل الطالبيّين: ٨٢، مقتل الحسين عليه السلام (أبو مخنف): ١٨٤.

نعم، قدم إخوته الثلاثة، ثم جاءت ساعته فنزل إلىٰ المعركة، يقول الشيخ المفيد: «أقبل العباس ﷺ إلىٰ أخيه الإمام الحسين ﷺ وقال له: أبا عبد الله، هل سمعت أصوات النساء والأطفال؟ اسمح لي أن أجلب لهم قليلاً من الماء»[١]. يقول السيد جعفر الحلي:

أوتشتكي العطشَ الفواطمُ عنده	وبصدر صعدته الفراتُ المفعمُ[٢]
فلو استقى نهر المجرّة لارتقى	وطويل ذابله إليها سلّمُ
بطلٌ تورّث من أبيه شجاعة	فيها أنوف بني الضلالة تُرغمُ

فقال له الإمام الحسين ﷺ: «يا أخي أنت صاحب لوائي، فإذا ذهبت تفرّق عسكري». فقال له: لا طاقة لي أن أسمع هؤلاء الأطفال ينادون: العطش العطش. فقال الإمام الحسين ﷺ: «إذن اطلب لهم قليلاً من الماء». فأخذ حسامه ونزل إلىٰ المعركة، فذاد الخيل يميناً وشمالاً وهو يرتجز:

لا أرهب الموت إذا الموت رقىٰ	حتى أوارىٰ بالمصاليت لقا
نفسي لنفس الطاهر الطهر وقا	إنّي أنا العباس أغدو بالسقا

ولا أهاب الشرّ عند الملتقى»

يقول الإمام الصادق ﷺ: «كان قلب عمّي العباس ﷺ كصالية الجمر من الظمأ»[٣].

يقول المؤرّخون: فلما وصل إلىٰ الماء وملأ قربته، أخذ شيئاً من الماء وأدناه إلىٰ فمه، ثم قال: لا والله، لا شربت بارد الماء وأبو عبد الله عطشان. حمل الماء، وكان جلّ همّه أن يوصله إلىٰ الخيمة، فصاح ابن سعد:

---

(١) لم نعثر عليه، وقريب منه ما في بحار الأنوار ٤٥: ٤١.

(٢) الصعدة: الرمح أو القناة تنبت مستوية فلا تحتاج إلىٰ تثقيف. المعجم الوجيز: ٥١٤ ـ صعد.

(٣) شرح الأخبار ٣: ١٩٢، بحار الأنوار ٤٥: ٤٠.

اعصوصبوا عليه. فاشتبكت عليه الرماح، وكمن له رجل من وراء نخلة، فضربه على يمناه فبراها، فقال:

والله إن قطعتمُ يميني إنّي أحامي أبداً عن ديني

وعن إمامٍ صادق اليقين

ثم اعصوصبوا عليه فقطعوا شماله فقال:

يا نفس لا تخشي من الكفارِ وأبشري برحمة الجبارِ

مع النبي المصطفى المختارِ قد قطعوا ببغيهم يساري

فأصلهم يا ربُّ حرّ النارِ

ثمّ انحنى على السقاء، وكان كلّ همّه أن يوصله إلى القلوب العطشى، ولكن ضُرب بعمود من حديد على رأسه، فسقط إلى الأرض منادياً: أدركني أبا عبد الله، فأقبل له الإمام الحسين عليه السلام فأخذ رأسه ووضعه في حجره»[1]:

خويه العلم كلي وين اودّيه بنور العين دربي بيش أجد بيه

أراد الإمام الحسين عليه السلام حمله إلى الخيمة، فقال له العباس عليه السلام: أخي ماذا تريد أن تصنع؟ فقال: «أحملك إلى الخيمة». فقال: يا أخي لا تحملني. قال: «لماذا؟». فأجابه بأن الموت نزل به فلن يصل معه إلى الخيمة، كما أنه قد وعد سكينة بالماء وهو مستحٍ منها:

يگله أيّست سكنه من الماي تجي يمّي ذليله وتوجب احذاي

(١) المصدر نفسه. ينابيع المودة ٣: ٦٨.

﴿٧٠﴾

السيدة مريم ابنة عمران عليها السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: التغليب في كلام العرب

تتناول هذه الآية الكريمة جملةً من الأحداث التي وقعت قبل الإسلام كما هو واضح، تقول الآية الكريمة: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾، وبالرجوع إلى كتب الآثار والتاريخ التي تُعنى بالأحداث قبل الإسلام نجد فيها أن هناك رجلاً من بني إسرائيل اسمه قافور، وكان عنده ابنتان.. إحداهما اسمها حنة، والأخرى اسمها إيشاع، فتزوجت حنة من عمران الذي أولدها مريم عليها السلام، وتزوجت إيشاع من زكريا عليه السلام الذي أولدها يحيى عليه السلام.

---

(١) آل عمران: ٣٧.

ومن هذا نعرف أن مريم ويحيى عليهما السلام هما ابنا خالة. وحينما كانت مريم عليها السلام حملاً في بطن أمها نذرت الأم أنها إن وضعت حملها فستجعلهُ خادماً للمعبد، ومعلوم أن الذي يتولى خدمة المعبد هو رجلٌ وليس امرأة، وعندهم أن المرأة لا تصلحُ لخدمة المعابد لسببين حسب الظاهر:

الأول: المكانة الاجتماعية للمرأة

ففي تلك الحقبة من التاريخ كان يُنظر إلى المرأة اجتماعياً على أن مكانتها أدنى من مكانة الرجل، فهي في مركزٍ متدنٍّ جداً بالنسبة إلى مركز الرجل. وكانت هذه النظرة عند مختلف الشعوب وليست عند شعب دون آخر، فالدنيا كلها كانت قائمةً على هذا الأساس، وهو أن المرأة في موضع أدنى من موضع الرجل، فهم ينزلون بها عن مستواه، ويعزون ذلك إلى جملة من الفروق النفسية أو الجسدية التي يتصورونها هي التي تحدد المكانة. فهؤلاء يرون أن الرجل بما له من خواص جسدية وعقلية تختلف عن تلك الخواص الجسدية والعقلية عند المرأة لابد أن يكون مركزه أعلى من مركزها.

والسبب في هذا أنهم حينما يرجعون إلى هذه الفوارق لايعتبرون هذا تصنيفاً وإنما يعتبرونه تفضيلاً. ولتوضيح الفكرة نقول: إن السفينة مثلاً تتكون من محرك ودفة وشراع وما إلى ذلك، وكل جزءٍ من هذه الأجزاء له وظيفته التي تساهم في عملية سير السفينة، فلا يمكن أن يحل أحد هذه الأجزاء محلّ الجزء الآخر، لكن هل إن هذا الاختلاف في الوظائف مثلاً يعتبر سبباً لتفضيل أحد هذه الأجزاء على غيره؟ طبعاً هذا لا يمكن أن يكون؛ لأن لكل جزء منها وظيفته التي تسيّر السفينة، لكن حينما نقسّم هذه الأجزاء فإنما نقسمها لأجل التفصيل والتصنيف لا لأجل التفضيل؛

فلا يقال مثلاً: إن محرك السفينة أفضل من الشراع أو أن الدفة أفضل من المحرك وهكذا.

وكذلك الأمر بين الذكر والأنثى فكل له وظيفته التي يؤديها في الحياة؛ فإن الله عز وجل أراد إدامة النسل وإمداد الحياة بهذا الكائن، وهذا لا يتحقق في المجتمع إلا إذا كان هناك وظائف معينة يؤديها الرجل ووظائف معينة تؤديها المرأة. فالنسل لا يمكن أن يأتي إلّا من ذكرٍ وأنثى، فإذا كانت المرأة قد أعطيت خواص معينة تكون عبرها هي التي تحمل فهذا لا يعني أن الرجل أفضل منها؛ لأن المسألة قائمة على أساس توزيع الوظائف وليست قائمةً على أساس التفضيل؛ لما تقتضيه الوظيفة ولما تقتضيه حالة إمداد الحياة بالنوع واستمرار النسل.

فهذه الفروق التي توجد بينهما لا يمكن أن تكون سبباً لتفضيل أحدهما على الآخر، بل إن قضية إمداد النسل اقتضت وجودهما كي يؤدي كل منهما وظيفته التي أنيطت به في الحياة.

إذن فالفروق التي يضعها العلماء في مختلف الأبعاد؛ سواء كانت جسدية أو نفسية أو عقلية أو اجتماعية أو ما إلى ذلك تتضافر بمجموعها فيما بينها لتهيئة المرأة كي تؤدي دورها، ولتهيئة الرجل كي يؤدي دوره ووظيفته. إذن فالمسألة ليست فيها تفضيل أبداً، فحينما تكون المرأة غزيرة العاطفة فهذا يعني أن عندها لمسات من الحنان والعطف والرقة أكثر من الرجل الذي يمتاز بأنه أكثر صلابة، فهل يعني هذا أننا ننتزع من صفة الصلابة صفة تفضيلٍ ونقول: إن المرأة رخوة لا تصلح للحياة، وإن الرجل هو الذي يصلح لها؛ لأن عنده صلابة يواجه بها مشاكل الحياة بحزم وحسم؟ وهل يصح هذا اللون من التقييم ؟

طبعاً لا، لأن المرأة المفروض بها أن تحمل وتلد وتربي أبناءها وهذه الوظيفة تحتاج إلى تناغم مع الطفل وتواصلٍ معه، وهما لا يحصلان إلّا إذا كان هنالك غزارة في العاطفة والحنان والرقة والعطف.. الأمور التي ستسكبها على أبنائها في عملية الإعداد والتربية. فالطفل في مرحلة من المراحل هو في أمسّ الحاجة إلى الحنان وإلى العطف؛ ولهذا فإن الأُم تكون أكثر عاطفةً وأغزر رأفةً وحناناً من الرجل. وهذا أيضاً لا يمكن أن يعتبر مورد تفضيل للمرأة على الرجل لأنها تمتلك هذه الجوانب الهامة والضرورية في مسألة التعامل مع الطفل دون أن يمتلكها الرجل.

وعليه فهذا التقييم غير صحيح؛ لأنه لا ينظر إلى الجانب التنظيمي للحياة، فالأب يُترك له من الطفل الجانب التنظيمي فيها والجانب العقلي فيضع يده على مشاكل الحياة ومشاكل الأسرة ومفارقاتها، والأُم يترك لها الجانب التربوي والجانب الإعدادي له، حيث إنها تعدّه بما أوتيت من عاطفة وحنان بأن يكون مستقيماً ومستوياً غير مختلٍ نفسياً مما يؤدي به إلى ألّا يكون إنساناً طبيعياً أو إنساناً سوياً من الناحية النفسية.

إذن لا يمكن أن يعتبر هذا الجانب من موارد التفضيل بين الرجل والمرأة فلكل خواصه ولكل وظائفه التي يقوم بها، فلا العاطفة الغزيرة عند الأم تحطُ من منزلتها أمام الرجل، ولا قلتها عند الرجل تحط من منزلته أمامها. فالمسألة مسألة تنظيم وتقسيم وتفصيل؛ لأن الحياة صممت لأن تبنى على هذا التفاوت.

لكن الملاحظ أن بعض المجتمعات الجاهلة عمدت لأن تعتبر هذا التفاوت منقصةً، وبالنتيجة فإنها تحط من مكانة المرأة أمام الرجل. بل إن بعض الحضارات كانت ترى أن المرأة لا تملك روح إنسان حتى إنه في

فرنسا مثلاً قد اعترفوا بأن للمرأة روح إنسان منذ عهد قريب؛ لأنهم سابقاً كانوا يرون أنها قد خُلِقت لخدمة الرجل، وهذا الإحساس أو هذا الشعور وهذه النظرة كانت عند الأوربيين إلى قبل ثلاثمئة سنة تقريباً. فإذا كانت الحضارات الضخمة كالحضارة الأوروبية تقف هذا الموقف السلبي من المرأة فما بالك ببعض الشعوب المتخلّفة؟ ومن ذلك أن العرب مثلاً كانوا يُخرجون المرأة إذا جاءها الحيض خارج الخباء، ولا يتناولون طعامها، لكن حينما جاء الإسلام كرّمها وأعطاها مكانتها اللائقة. ومع كل هذا نجد أن أعداء الإسلام يحاولون خلق هوة بين المرأة وبين الإسلام مصورين للمرأة أن الإسلام قد ظلمها وبخسها حقها، ولم يعطها مجالاً لأن تأخذ حريتها كاملةً في لباسها وحركاتها وما إلى ذلك، ولم يعطها حق الطلاق بيدها.

وفي خصوص مسألة الطلاق نحن ذكرنا قبل قليل أن المرأة لديها غزارة في العاطفة وهذه الغزارة العاطفية تجعلها تتأثر بسرعة، فإذا كان حق الطلاق بيدها فإن ذلك يعرض الأسرة إلى الانهيار لأنها بفعل عاطفتها ستكون سريعة التأثر وسريعة الانفعال؛ مما يؤدي بها إلى أن توقع هذا الحق دون تروٍّ ودون نظر. ومعنى كثرة حالات الطلاق في المجتمع أننا نحصل على جيل بعيد عن الاستقرار النفسي تماما؛ لأنه سوف يعيش متأرجحاً بين الأبوين اللذين افترقا وبالتالي فإن حالته النفسية سوف تنهار وربما يتعرض إلى الأمراض العصابية، أما إذا نشأ الجيل بين أبوين مستقرّين متفاهمين فإنه سوف ينشأ سويّاً سليماً؛ لأن الصراع والتناحر بين الأبوين سوف ينعكس سلبيّاً على الطفل فينشأ كافراً بالإنسانية تماماً. وهذه المسألة على أية حال طويلة ولا أريد أن أخوض فيها وأستطرد

حتى تطغى على صلب الموضوع.

إذن هؤلاء لم يكونوا يعطون للمرأة هذه المكانة التي يعطونها للرجل، وبالتالي فهي لا تصلح لأن تكون خادمةً في المعبد؛ لأنها من ناحية اجتماعيةٍ أدنى من الرجل.

الثاني: الطبيعة البايلوجية للمرأة

فهؤلاء يقولون: إن المرأة تمر بها أيام يأتيها الحيض وهو ما يعرف بالعادة الشهرية، وإذا جاءتها هذه العادة فهي سوف تكون غير طاهرة وبالتالي فإنها لا تصلح لخدمة المعبد. ثم إن المرأة إذا تزوجت سيأتيها دورٌ آخر هو دور النفاس، كما أنها تمر بأدوار الاستحاضة وما إلى ذلك وكل هذه الأمور تجعلها غير طاهرة، وبالتالي فإنها تدنس المعبد إذا دخلته. وهذا يعني أنها لا تصلح بالمرة لخدمة المعبد لهذا السبب.

ولهذه الأسباب كان الناس لا يرون أن للمرأة الحق في خدمة المعبد، ولهذا فإن حنة حينما وضعت مولودها وكان أنثى أصيبت بخيبة أمل؛ لأنها كانت تأمل أن يكون مولوداً ذكراً تجعله في خدمة هذا المعبد. وهذه الآية الكريمة تبين لنا أن الله جل وعلا تقبلها منها بقبول حسن وإن كانت امرأة، وهذا يعني أن الله جل وعلا قد سمح لها بأن تتولى خدمة المعبد مع كونها امرأة؛ لأنها ستكون طاهرة. وحول هذا المفهوم (أنها عليها السلام طاهرة) يختلف العلماء فينقسمون إلى قسمين:

القسم الأول يرون أنها لم تكن ترى دماً؛ ولذا فإنها قد عُبّرَ عنها بالبتول. فالبتول: التي لاترى الدم أو هي الطاهرة، وهذا يعني أنها لم تكن تمر بها العادة الشهرية التي تمر بها النساء الأخريات. ولهذا السبب فإن الله جل وعلا قد تقبلها ورضي لها أن تكون خادمةً في المعبد.

القسم الثاني يقولون: إنها سميت بتولاً لأنها كانت في غاية النظافة والطهارة، وإن الدم الذي كانت تراه قليل بحيث إنه لا يقدح في استمرارها بخدمة المعبد. بمعنى أنها كانت ترى الدم لكنها كانت فترات قليلة لا تقدح في قيامها بخدمة المعبد.

على أية حال فإن المهم أن نذكر أن الله جل وعلا قد قبلها ورضي لها أن تتولى خدمة المعبد على الرغم من كونها أنثى. وهذا الاختيار السماوي والرضا الإلهي فيه درسٌ كبيرٌ لهؤلاء؛ لأن فيه بياناً لأهل الأرض بأن الأُنوثة والذكورة لا يقفان حائلاً دون أن يبلغ الإنسان الهدف الذي يريده أو دون أن يتحلّى بمزايا تؤهله لأن يتقدم على غيره، فالأُنوثة لا يمكن أن تكون عائقاً لأن ترتقي المرأة في مدارج الكمال. ونحن نعرف ونقرأ في تاريخنا عن نماذج من النساء كن على مستوى أعلى من مستوى الكثير من الرجال، وهذا ما يزخر به تاريخنا. يقول أحد الأدباء:

فلو كان النساءُ كمثلِ هذي لفضّلت النساءُ على الرجالِ

فما التأنيثُ لاسمِ الشمسِ عيبٌ ولا التذكيرُ فخرٌ للهلالِ[1]

فالواقع أن الشمس تبقى شمساً وإن كانت مؤنثة والهلال يظل هلالاً وإن كان مذكراً، وكم من امرأة لو أردنا أن نضعها في ميدان المقايسة والمقابلة إزاء بعض الرجال فنجد أنه لا نسبة لهم إزاءها. فالمرأة إذن مؤهلة للقيام بجانب من جوانب الحياة وكذلك الرجل مؤهل للقيام بهذا الجانب، وهذه الآية الكريمة تشير إلى هذا المعنى وتؤكد لهم أن هذا المشهور بينهم لا أصل له ولا وجه أبداً، وهو في هذا المجال حاله حال الكثير من النظريات

(١) شجرة طوبى ١: ٢٤٩.

المخطوءة التي يعتقد بها البعض من قبيل «العقل السليم في الجسم السليم»، والحال أن الكثير من ذوي الأجسام السقيمة العليلة هم أشهر العلماء والكثير من ذوي الأجسام الطويلة العريضة والقوى الشديدة هم مجانين أو جُهّال.

إذن ليس كل مشهورٍ صحيحاً، وليس كل مشهورٍ ينبغي علينا أن نتعبّد به. على أية حال فالواجب الذي ينبغي على كل إنسان أن يراه بعين العقل والإنصاف وأن يعتقد به هو أن للمرأة ميدانها الذي تعمل فيه وللرجل ميدانه الذي يعمل فيه. وقد وضع الله جل وعلا لكل منهما ضوابط معينة تحدد مجال تحركهما هذا وتحدد وظائفهما التي ينبغي عليهما أن يقوما بها. فما يأباه طبع هؤلاء لم يكن موضع رضا وقبول من الله جل وعلا؛ ولذا فإن الله سبحانه وتعالى تقبّل مريم عليها السلام بقبولٍ حسن.

المبحث الثاني: في معنى النبات الحسن

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً﴾، وللمفسّرين في النبات الحسن عدّة آراءٍ منها:

الأول: أنه زيادة النمو

ويذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن الله جل وعلا قد جعلها تنمو في الشهر ما تنموه غيرها من النساء في السنة، بمعنى أنها تنمو بسرعةٍ أكبر وبشكل أفضل من بنات جنسها. وهذا الرأي في حقيقة الأمر لا يشكل أي فضيلةٍ لها لأنه ليس فيه ميزة تميزها عن غيرها بشكل مطلق؛ ذلك أن ما تصل إليه بسنة يمكن أن تصل إليه بثلاثين سنة.

الثاني: أنه الطهر

ويذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن مريم عليها السلام قد بنيت وربيت على

الطهر والعفاف والصون والحفاظ. ويرى أصحاب هذا الرأي أنها ما بلغت التاسعة من عمرها حتى راحت تصوم نهارها وتقوم ليلها حتى بلغت حداً غلبت معه الأحبار والعباد بالعبادة.

الثالث: أنه طريق الله جلّ وعلا

فأصحاب هذا الرأي يذهبون إلى أن الله جل وعلا بتقبّله إياها قد وضعها على طريقهِ، بمعنى أنه أعطاها سيادة نساء عالمها، فهي عليها السلام سيدة نساء ذلك الزمان. فهي بهذه المؤهلات استحقت أن تكون سيدة. ولولا هذه المرجحات لكان إعطاؤها السيادة ترجيحاً بلا مرجح، والترجيح بغير مرجح غير مقبولٍ أبداً. وهذا هو السبب الذي من أجله يتساءل الناس في كل زمانٍ ومكان حول كل شخصٍ يملك حق السيادة عليه بأي شكل من أشكال الملكية وبأي صورةٍ من صور الوصول إلى الحكم، فإن هؤلاء حتما سيتساءلون فيما بينهم عن المزايا والمرجحات التي جعلت من هذا الشخص متميزاً عنهم وسيداً عليهم. وهذه المرجحات تارةً تكون علماً وتارةً تكون شرعيةً اجتماعية كالانتخابات وما شاكلها وتارةً تكون حِلماً[1].

فمن يملك حلماً يملك سعة صدرٍ تمكنّه من احتواء ردود أفعال الناس وغضبهم وانفعالاتهم، ويمكنه من قيادتهم. وليُعلم أن أهم صفات الرئيس هي سعة الصدر، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «آلة الرئاسة سعة الصدر»[2].

(١) يقول الشاعر:

بحلمٍ وبذلٍ ساد في قومه الفتى … وكونك إياه عليك عسيرُ

(٢) عيون الحكم والمواعظ: ١٨، ٧٠، خصائص الأئمة عليهم السلام: ١١٠.

إذن حينما تصبح السيدة العذراء سيدة نساء عالمها فإنها حتماً تكون قد امتلكت مؤهلات جعلتها صاحبة حق في هذه السيادة، وحينما نقول: سيدة نساء عالمها لأننا نعتقد أنها ليست سيدة نساء العالمين، فسيدة نساء العالمين هي السيدة فاطمة الزهراء (سلام الله عليها). يروي المحب الطبري في (ذخائر العقبى)[(١)] وغيره[(٢)] عن عمران بن حصين أنه قال: عاد رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة الزهراء عليها السلام في وجع لها، فقال لها: «يا بنيّة، كيف تجدينك؟». فقالت عليها السلام: «إني لوجعة، وإنه ليزيدني وجعاً أن ليس لي طعام آكله». فقال صلى الله عليه وآله: «أما ترضين إنك سيّدة نساء العالمين؟». فقالت عليها السلام: «يا أبة، فأين مريم بنت عمران؟». فقال صلى الله عليه وآله: «تلك سيّدة نساء عالمها، وأنت سيّدة نساء عالمك. أما وقد زوّجتك سيّداً في الدنيا وسيّداً في الآخرة».

وهذا المعنى يرويه مسلم أيضاً في صحيحه في باب (منزلة بنت النبي صلى الله عليه وآله)، ويتناوله البخاري أيضاً والطبري وعشرات المصادر من غيرهم. فالزهراء (سلام الله عليها) يعبر عنها أبوها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بأنها سيدة نساء العالمين مطلقاً، لكنه يعبر عن مريم عليها السلام بأنها سيدة نساء عالمها.

مؤهلات السيادة

إذن هناك جملة من المؤهلات والمرجحات التي اقتضت السيادة لمريم عليها السلام على نساء عالمها، ومن هذه الميزات العقل والحكمة واللياقة

---

(١) ذخائر العقبى: ٤٣.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٠٥، الاستيعاب ٤: ١٨٩٥، سير أعلام النبلاء ٢: ١٢٦، تاريخ الإسلام ٣: ٤٥ ـ ٤٦، الإصابة ٨: ١٠٢، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٥٦، فتح الباري ٧: ١٠١، نظم درر السمطين: ١٧٩ ـ ١٨٠.

والعبادة والتقرب إلى الله جل وعلا. ولهذا السبب فإننا نجد أن القرآن الكريم في هذه الآية المباركة يعبر عنها بقوله: ﴿وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾، بمعنى أنه لو لا هذه المؤهلات لم ينبتها الله جل وعلا ذلك النبات الحسن ولم يتقبلها، لكنها لما امتلكت جملة المؤهلات هذه بما عندها من إصرار ورغبة في العبادة وحفظ النفس والعفاف جعل الله عز وجل ذلك لها مكافأة.

المبحث الثالث: في كفالة زكريا عليه السلام

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾، و﴿وَكَفَّلَهَا﴾ يعني جعل زكريا عليه السلام كفيلاً لها. وهذا يعني أنها عليها السلام حينما ترعرعت أفرد لها النبي زكريا عليه السلام بيتاً للعبادة لا يرقى إليه أحدٌ غيرها وغيره. ولعل هذا يرجع إلى قطع الإشاعات التي يمكن أن يروجها الناس ضد مريم عليها السلام، ولكنها (سلام الله عليها) لم تسلم من هذه الإشاعات ولا من الدعايات التي روجوها ضدها، فلما ولدت النبي عيسى عليه السلام اتهموها بالانحراف والخطيئة وارتكاب الفاحشة. ومسألة اتهامها: وهذه هي سنة الحياة التي يجب الانتباه إليها، وهي سنة تمثل خلقاً منحطاً يتصف به البعض، مع أن المفروض أن الإنسان يجب أن يكون عنده لسان عفيف وضمير عفيف، وتفكير عفيف فلا يعتدي على الناس ولا يتهمهم زوراً وبهتاناً، بل إن الأنبياء عليهم السلام أنفسهم لم يسلموا من هذا، يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[1].

---

(١) نهج البلاغة /الخطبة: ١٦٧، المحاسن ١: ٢٨٥ / ٤٢٦، الكافي ٢: ٢٣٤ / ١٢، مسند أحمد بن حنبل ٢: ١٦٣، وغيرها كثير، صحيح البخاري ١: ٨ وغيرها كثير، صحيح مسلم ١: ٤٨ وغيرها كثير.

فالمسلم يجب أن يكون عفّ اليد وعفّ اللسان وعفّ الضمير وعفّ الخلق حتى يسلم الجميع منه. والواقع أن الكثير من الناس لم يسلم حتى الله تعالى منهم، فهؤلاء يرون أن الله جل وعلا حينما أفقرهم قد ظلمهم، وأنه تعالى حينما أمرضهم قد ظلمهم. فالذي نريد أن نخلص إليه هو أن اتهام الآخرين وظلمهم لم يسلم منه أحد على امتداد تاريخ البشرية.

إذن فالسيدة العذراء مريم ﷺ لم تسلم من هذه التهم أو من هذه السنة الحياتية أبداً؛ ولذا فإنها ﷺ عندما حملت بروح الله عيسى ﷺ وولدته من غير أبٍ كثرت الأقاويل بين الناس ضدها، وتفشت الإشاعات وانتشرت الدعايات التي راح النبي زكريا ﷺ جهد إمكانه يحاول إبعاد مريم عنها ودفعها عن هذا الجو بما كان يعلمه مما سيحدث لها؛ ولذا فإنه قد بنى لها بيتاً تعتزلُ فيه الناس جميعاً لا يصل إليها أحدٌ سواه؛ لأن الأجواء التي تتصف بهذه الصفات الذميمة هي أجواء موبوءة. وفي مثل هذه الأجواء ينبغي على الإنسان أن يبعد نفسه عن مواضع الظن والتهمة، يقول الحديث الشريف: «رحم الله امرأ جبّ الغيبة عن نفسه»[1]، كان الرسول الأكرم ﷺ في بعض الليالي يمشي ومعه عمّته صفيّة بنت عبد المطلب، فمرّ بعض الصحابة من ورائه وهو يحدّثها، فقال ﷺ لهم: «قفوا، إن هذه عمتي صفية».

إذن فكل منّا قد مرت به تجارب مرة.. تجارب ربما تضني البعض، لكن الذي ينبغي على كل من تمر به مثل هذه التجارب أن ينتزع منها العبر والعظات؛ لأن هذه هي الطبيعة الإنسانية المبتنية على سوء الظن

---

(١) كشف الخفاء ١: ٤٢٦ / ٧.

بالآخرين والتشكيك بهم وبتصرفاتهم والإساءة إليهم وإن كان بعض الأدباء يذهب الى النقيض من هذا، فيرى أن الكرامة أحياناً تأتي إلى الإنسان من خلال كلام الناس وإساءتهم إليه فيقول:

عـــداي لهـــم فـضلٌ عـليّ ومـنّةٌ ... فـلا أبـعدَ الرحـمٰنُ عـني الأعـاديا

هُـمُ بـحثوا عـن زلّتي فـاجتنبتها ... وهم نافسوني فارتقيت المـعاليا[١]

ويقول أبو تمام:

وإذا أرادَ الله نَشْـــرَ فـضيلةٍ ... طُـويت أتـاحَ لهـا لسانَ حسـودِ

لولا اشـتعالُ النـار فيما جاورتْ ... ما كان يُعرَفُ طيبُ عَرفِ العودِ[٢]

وهذا لا يخلو من الصحة والصواب، بل ربما هو كذلك، فالمعدن الطيب يصمد أمام النقد ولا يمكن أن يخشى عليه بخلاف المعدن الخسيس الذي تحرقه النار.

إذن فقوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ يعني أن النبي زكريا ﷺ قد أصبح كفيلاً لها. وفي الفعل كفّلها دلالة على اختيار إلهي في المسألة؛ لأن بني إسرائيل كلهم أرادوا أن يكفلوها لأنها كانت يتيمة كما أنها ابنة أحدٍ من رؤسائهم وكبارهم؛ ولذا فإن زكريا ﷺ أمرهم بأن يقترعوا لتحديد هوية الذي سوف يكفلها. وفعلاً اقترعوا فوقعت القرعة عليه فأخذها وربّاها. فـ(كفّلها) يعني وضعها عند زكريا وفي كفالته؛ لما يملكه من مؤهلات تجعله أفضل من غيره للقيام بهذا الواجب ولتعاهد هذه الطاهرة والعناية بها. وكان زكريا ﷺ إذا صعد إليها ليوصل إليها الطعام فإنه يجد عندها منه

---

(١) البيتان لأبي حيان الأندلسي. الكنى والألقاب ١: ٦١.

(٢) شرح نهج البلاغة ١: ٣١٦.

كفايتها، بل إنه يجد عندها فاكهة الشتاء في فصل الصيف مضافاً إلى فاكهة الصيف، وفاكهة الصيف في فصل الشتاء مضافاً إلى فاكهة الشتاء، مضافاً إلى ذلك ألوان أُخرى من الطعام فيستغرب ويقول لها: ﴿أَنَّى لَكِ هَذَا﴾، فتقول له: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ الله إِنَّ الله يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

كرامة مريم عليها السلام

وهذه النقطة يثار حولها صراع ونزاع، وهذا الصراع يبتني على أنه هل يجوز أن تحصل مثل هذه الكرامة أو مثل هذه المعجزة لغير الأنبياء عليهم السلام؟ إن الأنبياء بما عندهم من صلة بالسماء يمكن أن يحدث لهم هذا بل الكثير من المعجزات، أما مريم عليها السلام فليست بنبي ولا مبعوث، إذن فكيف يأتيها مثل هذا؟ وهذا في واقع الأمر تصور مخطوء ونزاع ليس في محلّه؛ لأن هؤلاء يستكثرون على مثل مريم عليها السلام أن يبعث لها طعاماً من عند الله جل وعلا مع أن مجيء الطعام إليها ليس أكثر إعجازاً من حملها من غير زوج. ولهذا فإننا نجد أن بعض المفسرين يميلون إلى أن هذا الطعام كان يأتيها من هدايا بعض المحسنين وليس نازلاً إليها من السماء[1].

على أية حال فإن هذه الكرامة وهذه المعجزة ليست بحجم معجزة أن تلد من غير زوج، وعليه فإنه لا يستبعد أن يكون طعاماً نازلاً من السماء. ومسألة خلق الإنسان من أحد الأبوين لازال البعض يعترض عليها؛ لأنه يعتبر أن الطريقة الطبيعية للنسل والولادة هي وجود زوجين. وهذا أيضاً تصورٌ مخطوءٌ حول المسألة لأسبابٍ عدةٍ منها أن الله جلّ وعلا قادرٌ

(١) مع أن هؤلاء المحسنين لايمكن أن يحصلوا على فاكهة الصيف في الشتاء وعلى فاكهة الشتاء في الصيف إن صحّت الرواية.

مختار وليس موجباً، فهو يخلق ما يشاء كيف يشاء ومتى يشاء. وإذا كان كذلك فإنه كما جعل الشكل الطبيعي للنسل والولادة عن طريق زوجين فإنه يمكن أن يجعل الولادة من أحد الأبوين دون الآخر أو أن يجعلها من غير أبوين أصلاً كما حصل مع آدم عليه السلام. وهذا بالفعل موجودٌ ويؤكد عليه العلماء، فهنالك بعض النباتات والحيوانات التي تتكاثر من دون أبوين معاً بل من أبٍ واحدٍ فقط. وهذا يعني أن دعوى انحصار طرق الخلق بهذا الشكل السائد هي دعوى غير صحيحة لأنها قد اخترمت بما حدثنا عنه القرآن الكريم وبما أثبته العلماء حول بعض أنواع النباتات والحيوانات التي تولد من أبٍ واحدٍ سواءً كان هذا الأبُ الذكر أو الأُنثى.

ثم إن قضية خلق عيسى عليه السلام ليس أعجب من قضية خلق آدم عليه السلام، يقول تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

إذن فطبيعة الخلق غير منحصرة بطريقة واحدة، وبهذا ينتفي وجه الاستغراب عند هؤلاء حول الكيفية أو الطريقة والوسيلة التي يأتي بها طعام السيدة العذراء عليها السلام من السماء، فالله جلَّ وعلا قد أكرمها بهذه الكرامة وفضّلها بهذا التفضيل.

المبحث الرابع: كيفية الرزق

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، وفي هذا المقطع الشريف من هذه الآية الكريمة ثلاثة أوجه:

الأول: أنه الرزق غير المحتَسب

بمعنى أن هذا المقطع الشريف يريد أن يبين للناس بأن ما اعتادوا عليه

(١) آل عمران: ٥٩.

من أن الرزق منحصرٌ بالطرق الطبيعية كأن يعمل الإنسان أو يكتسب بأي صورةٍ من صور الكسب هو اعتقاد غير صحيح؛ لأن السماء يمكن أن تبعث برزقٍ غير محتسب من غير عمل. إذن فهذا المقطع الشريف يبين بأن الرزق لا يكون دائماً عن طريق العمل. ولعل هذا ما يؤكده أن هناك دعاء يستحب أن يدعو به الإنسان دائماً إذا حصل على نعمة وهو أن يقول: «اللهم هذا منك، ومن محمد رسولك، اللهم فلك الحمد»[1].

وهو دعاءٌ معروف، يروى أن أحدهم دُعي إلى وليمة فلما أكل رفع يديه إلى السماء ودعا بهذا الدعاء فقال له صاحب الطعام: ما هذا الذي تقوله؟ أنا الذي جاء باللحم من فلان وبالخبز من فلان وبالسمن من فلان، فما دخل الله ونبيه في المسألة إذن؟ وهذا الرجل في واقع الحال هو مسكين لا يعرف أنه مجرد واسطة بين الرازق الحقيقي وهو الله جل وعلا؛ وبين المرزوق وهو الإنسان الذي أكل هذا الطعام؛ ذلك أن من هيأ له هذه المواد هو الله جلَّ وعلا لأنه تعالى هو الذي هيأ له القدرة على العمل ومنحه القابلية على الحركة، وهو الذي أعطاه القابلية العقلية على التفكير والعمل.

والإنسان المنصف عندما يرجع إلى أسباب الرزق البعيدة والقريبة يجدها كلها من الله تعالى، وهذا هو معنى الدعاء المار، لكن هؤلاء المساكين تنصرف أنظارهم إلى الأسباب القريبة دون أن ينظروا إلى الأسباب البعيدة.

إذن فالله جل وعلا قد يلغي كل هذه الشكليات المعروفة في عملية

(١) الكافي ٦: ٢٩٦ / ٢٢، كنز الفوائد: ١٩٦.

الرزق، ويمنح إنساناً رزقاً من غير سعي وعمل، أي يرزقه مباشرةً دون تدخل، دون أن تكون هنالك أسباب الرزق.

الثاني: أنه الرزق المجرّد عن القابليات المعنوية

بمعنى أن هذا المقطع الشريف يريد أن يبين للناس بأن الله جل وعلا يعطي الرزق ليس بالشكل الطبيعي المألوف المعروف لدى الناس من خلال حساباتهم وطرقهم المادية، بل إنه تعالى يمكن أن يجعل الرزق بعيداً عن تلك الحسابات التي يعتبرها هؤلاء حسابات لصيقة بالرزق ومشروطاً بها. فلا يمكن أن يظن أحدٌ أن فلاناً حصل على رزقه لأنه كان عبقرياً أو لأنه يملك عقليةً كبيرة، أو أنه ذو مركز اجتماعي، فكل هذه الأمور ليس لها دور بارزٌ في عملية الرزق. والواقع أننا نجد أن إنساناً مغفلاً لا يعقل من حياته ووجوده ودنياه شيئاً لكنه يُرزق، بل والأنكى من هذا أننا نجدُ شخصاً ذكياً لكنه لا يجد رغيفاً من الخبز يأكله ولا يجدُ دثاراً من الصوف يلتحف به، مع أنه ربما كان يملك شهادةٍ علميةٍ رفيعة المستوى.

إذن فمسألة الحسابات التي يربطها الناس بالرزق هي مسألة غير مطردة وغير صحيحة في كل حال، وهي ليست بفاعلةٍ في حسابات الله عز وجل الذي يرزق من يشاء بغير حسابٍ سواءٌ كان عن طريق أسبابٍ قريبةٍ أو أسبابٍ بعيدة.

الثالث: أنه الرزق الذي لا منَّ فيه

إن الإنسان حينما يرزق إنساناً غيره فهو يرجو من ورائه أجراً؛ سواءً

كان دنيوياً أو أخروياً، أي إنه يهدف من ورائه إلى ما هو أبعد من هذا الرزق، أما الله جلَّ وعلا فإنه حينما يرزق فإنما يرزق من غير أن ينتظر جزاء أو مكافأةً عليه من أحد. فهو تعالى يرزق من يشاء بغير حساب؛ لأنه لا يريد ولا ينتظر أجراً على هذا الرزق، أو هو كما يقول الدعاء الشريف: «يا من أعطىٰ من سأله، ويا من أعطىٰ من لم يسأله ولم يعرفه تحنّناً منه ورحمة»[1].

الرأي الرابع: أنه رزقٌ لا حدّ له

يذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن هذا الرزق الذي هو بغير حساب هو رزقٌ من غير حد، فإذا أعطى الله جل وعلا فإنه لا يعطي بقدر معين، وهذا كنايةٌ عن كثرة العطاء وجزالته.

المبحث الخامس: أوجه الشبه بين العذراء والزهراء عليهما السلام

من خلال تتبعنا لسيرة السيدة الزهراء عليها السلام فإننا نجد أن هناك نقاط شبه بينها وبين السيدة العذراء عليها السلام ومن تلك النقاط نذكر التالي:

الأولى: نزول الرزق عليهما من السماء

يروي المؤرّخون والمفسّرون ـ ومنهم إسماعيل حقّي في تفسيره (روح البيان)، وهو من أبناء المذاهب الإسلاميّة الأُخرى ـ فيقولون: مرّ على المسلمين عامٌ جدب، فأرسلت فاطمة الزهراء عليها السلام إلى أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله لحماً مشويّاً ورغيفي خبز، فعجب رسول الله صلى الله عليه وآله من هذا الطعام؛ لأنه يعلم أن بيوته خالية منه، حتى إن إحدى زوجاته صلى الله عليه وآله كانت تقول: يمر علينا أحياناً أربعون يوماً لا نأكل فيها إلّا الأسودين (أي التمر والماء)، تقول الرواية: وكان رسول الله صلى الله عليه وآله قد أقام أياماً لم يطعم طعاماً،

(١) مصباح المتهجّد: ٣٥٢، الصحيفة السجاديّة: ٥٧٥، الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٢١١.

حتى شقّ ذلك عليه، فطاف في منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئاً، فأتى فاطمة فقال لها: «يا بنية، هل عندك شيء آكله؛ فإني جائع؟». فقالت لا والله. فلما خرج من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم، فأخذته منها ووضعته في جفنة لها وقالت: «والله، لأوثرن بهذا رسول الله صلى الله عليه وآله على نفسي ومن عندي». وكانوا جميعاً محتاجين إلى شبعة طعام، فقد كان علي عليه السلام أصبح ساغباً، فسأل فاطمة عليها السلام طعاماً فقالت: «ما كانت إلّا ما أطعمتك منذ يومين، آثرتك به على نفسي وعلى الحسن والحسين». فقال عليه السلام: «ألّا أعلمتني فآتيكم بشيء؟». فقالت عليها السلام: «يا أبا الحسن، إني لأستحي من إلهي أن أكلّفك ما لا تقدر عليه».

فلمّا أرسلت فاطمة عليها السلام ما أرسلت، عجب ثم جاء صلى الله عليه وآله حتى دخل على فاطمة عليها السلام وهي في مصلاها، فوجد خلفها جفنة تفور دخاناً، فأخرجت فاطمة الجفنة فوضعتها بين يديه، فسألها صلى الله عليه وآله قائلاً: «أنى لك هذا؟». فقالت: «هو من فضل الله ورزقه إن الله يرزق من يشاء بغير حساب». فاستعبر النبي صلى الله عليه وآله باكياً وقال: «الحمد لله الذي لم يمتني حتى رأيت في ابنتي ما رأى زكريّا لمريم، كان إذا دخل عليها وجد عندها رزقاً فيقول لها: يا مريم أنى لك هذا؟ فتقول: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب»[1].

الثانية: أنها عليها السلام رُزقت جفنةً من السماء ببركة دُعائها

يروي المحب الطبري في (ذخائر العقبى) ويذكرها السيد محسن الأمين بأسانيد متعددة في الجزء الخامس من (أعيان الشيعة) وهو الجزء

(١) الأمالي (الطوسي): ٦١٤ – ٦١٥ / ١٢٧١، ٦١٧ – ٦١٨ / ١٢٧٤، مناقب آل أبي طالب ١: ٣٥٠، ٣: ١١٧، ١٣٥، تخريج الأحاديث والآثار (الزيلعي) ١: ١٨٤، قال: ورواه أبو يعلى، تفسير البيضاوي ٢: ٢٥ – ٣٥، تفسير أبي السعود ٢: ٣٠ – ٣١، الدرّ المنثور ٢: ٢٠.

المختصّ بالزهراء عليها السلام يقول: دخل أمير المؤمنين عليه السلام ذات يوم على فاطمة الزهراء عليها السلام فقال: «يا فاطمة، هل عندك من شيء تـغذّينيه؟». قـالت عليها السلام: «لا والذي أكرم أبي بالنبوّة ما أصبح عندي شيء أُغذّيكه، ولا أكلنا بعدك شيئاً، ولا كان لنا شيء بعدك منذ يومين إلّا شيء أُوثرك به على بطني وعلى ابنيّ هذين». فقال عليه السلام: «يا فاطمة، ألّا أعلمتيني حتى أبغيكم شيئاً؟». قالت: «إني أستحي من الله أن أُكلّفك ما لا تقدر عليه».

فخرج من عندها واثقاً بالله، فاستقرض ديناراً فبينا كان يريد أن يبتاع لأهله ما يصلح لهم، إذ عرض له المقداد ـ وكان يوماً شديد الحر ـ وقد لوحته الشمس من فوقه وآذته من تحته، فلما رآه عليه السلام أنكره، فقال: «يا مقداد ما أزعجك من رحلك هذه الساعة؟». قال: يا أبا حسن، خلّ سبيلي، ولا تسألني عما ورائي. فقال عليه السلام: «لا يحل لك أن تكتمني حالك». قال: أما إذا أبيت، فوالذي أكرم محمداً بالنبوّة ما أزعجني من رحلي إلّا الجهد، ولقد تركت أهلي يبكون جوعاً، فلما سمعت بكاء العيال لم تحملني الأرض، فخرجت مغموماً راكباً رأسي فهذه حالي.

وفعلاً فإننا نجد عندنا في الفقه الاجتماعي تحميلاً للجماعة مسؤولية الفـرد إذا جـاع، أي أن الفـقه الاجـتماعي الإسـلامي يـحمل الجـماعة مسؤولية كل فردٍ من أفراد المجتمع إذا أصابه العوز. صـحيح أنـه يـضع النفقات على ذوي القرابة فيقسمها إلى نفقات واجبة ونفقات مستحبة، لكن هذا لا يعني أنه أعفى المجتمع من الشعور بالمسؤولية بل إنه اعتبر المجتمع مسؤولاً عن أفراده؛ لأن هؤلاء الأفراد هم أجزاء داخل النسيج الاجتماعي[1]، وهو ما يسمى بالتكافل الاجتماعي.

---

(١) يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «كلّكم راعٍ، وكلّكم مسؤول عن رعـيّته فـالإمام راعٍ وهـو

وبهذا اللحاظ فإن المشرع الإسلامي يمنح الإنسان الجائع الحق في أن يأكل ما يكفيه ويسد رمقه من طعامٍ من يملك الطعام دون أن يكون لصاحب الطعام الحق في أن يمنعه عن ذلك إذا ما توقفت حياته عليه، بل وأكثر من هذا أنه إذا مانعه وتقاتلا ثم جرح الجائع صاحبَ المال فإن الإسلام لا يحمله مسؤولية الجرح، وإذا قتلهُ فإنه لا يحمله مسؤولية القتل.

وفعلاً فقد تأثّر الإمام عليه السلام بمعاناته، وهملت عيناه بالبكاء حتى بلت دموعه لحيته ثم قال: «أحلف بالذي حلفت به ما أزعجني غير الذي أزعجك، ولقد اقترضت ديناراً فهاكه أُوثرك به على نفسي».

فدفع له الدينار ورجع حتى دخل على النبي صلى الله عليه وآله فصلى الظهر والعصر والمغرب، فلما قضى النبي صلى الله عليه وآله صلاة المغرب، مرّ بعلي عليه السلام في الصفّ الأول فناداه، فلبّاه وسار خلفه حتى لحقه عند باب المسجد، فقال صلى الله عليه وآله: «يا أبا الحسن، هل عندك شيء تعشّينا به؟».

فأطرق عليه السلام لا يحير جواباً حياء من النبي صلى الله عليه وآله؛ لأنه يعرف الحال التي خرج عليها، فقال له النبي صلى الله عليه وآله: «إما أن تقول: لا، فننصرف عنك، أو نعم فنجيء معك». فقال عليه السلام له: «حبّاً وتكريماً، اذهب بنا».

وكأن الله سبحانه وتعالى قد أوحى إلى نبيّه صلى الله عليه وآله أن تعشّ عندهم، فأخذ صلى الله عليه وآله بيده، فانطلقا حتى دخلا على فاطمة عليها السلام في مصلّاها، وكانت

مسؤول عن رعيّته، والرجل في أهله راعٍ وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيّتها، والخادم في مال سيّده راعٍ وهو مسؤول عن رعيّته، والرجل في مال أبيه راعٍ وهو مسؤول عن رعيته؛ وكلّكم راعٍ وكلّكم مسؤول عن رعيته». عوالي اللآلي ١: ١٢٩ / ٢، مسند أحمد ٢: ٥، ٥٤، ١١١، ١٢١.

خلفها جفنة تفور دخاناً، فلما سمعت كلام النبي صلى الله عليه وآله خرجت من المصلّى فسلّمت عليه، وكانت أعزّ الناس عليه، فردّ عليها السلام، ومسح بيده على رأسها، وقال: «كيف أمسيت عشّينا غفر الله لك، وقد فعل». فأخذت الجفنة فوضعتها بين يديه، فلما نظر أمير المؤمنين عليه السلام ذلك، وشمّ ريحه رمى فاطمة ببصره رمياً شحيحاً، فقالت: «ما أشحّ نظرك وأشدّه، سبحان الله! هل أذنبت فيما بيني وبينك ما أستوجب به السخطة». قال عليه السلام: «وأي ذنب أعظم من ذنب أصبتيه اليوم، أليس عهدي بك اليوم وأنت تحلفين بالله مجتهدة ما طعمت طعاماً يومين؟».

فنظرت إلى السماء فقالت: «إلهي يعلم ما في سمائه، ويعلم ما في أرضه أني لم أقل إلّا حقاً». قال عليه السلام: «فأنى لك هذا الذي لم أرَ مثله، ولم أشمّ مثل رائحته، ولم آكل أطيب منه؟». فوضع النبي صلى الله عليه وآله كفّه المباركة بين كتفي أمير المؤمنين عليه السلام ثم هزّها وقال: «يا علي هذا ثواب الدينار، وهذا جزاء الدينار. هذا من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب».

ثم استعبر النبي صلى الله عليه وآله باكياً وقال: «الحمد لله الذي لم يخرجكما من الدنيا حتى يجريك في المجرى الذي أجرى فيه زكريا، ويجريك يا فاطمة في المجرى الذي أجرى فيه مريم: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾...»[1].

والحقيقة أن الباحث من خلال تتبعه لمواقف الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله مع ابنته فاطمة عليها السلام يرى أنه صلى الله عليه وآله كان يتولى تربيتها بمنهج غاية في الدقة والسمو والرفعة، ومن هذا أنه صلى الله عليه وآله حينما تمر بالناس أزمة فإنه كان في

---

(١) ذخائر العقبى: ٤٥ ـ ٤٧.

بعض الحالات يعطيها وفي بعض الحالات يأمرها بأن تتحلى بالصبر. فهو ﷺ لم يكن ليتأخر عنها في حالٍ من الأحوال، لكنه إنما يتأخر في بعض الحالات؛ لأنه يريد أن يسلحها بالأخلاق الكريمة، ويريد منها أن تتحلى بالصبر، ومن ذلك ما يرويه المؤرخون من أنها عليها السلام اشتدّ بها الجوع يوماً، فلم تجد بالبيت طعاماً، فقال لها أمير المؤمنين عليه السلام: «اذهبي إلى رسول الله ﷺ وسليه شيئاً من الطعام لأنني بلغني أنه جيء له بسهمه من الغنيمة، وأنت عزيزته ولا يمنعك». فذهبت الزهراء عليها السلام إلى أبيها ﷺ، فلما نظر إليها وإلى ما بوجهها من أثر الجوع قال ﷺ: «ما وراءك يا فاطمة؟». قالت: «يا أبة قد ألح عليّ الجوع». فقال ﷺ لها: «إن شئت أعطيتك أعنُزاً أو أُعلمك خمس كلمات علمنيها جبرئيل آنفاً، أيهما أحبّ إليك؟». قالت: «لا والله يا أبه، أحبّ إليّ أن تعلمني هذه الكلمات». قال ﷺ: «قولي: اللهم يا أوّل الأوّلين، ويا آخر الآخرين، ويا ذا القوّة المتين، ويا راحم المساكين، ويا أرحم الراحمين، أسألك رحمتك». فخرجت ووجهها يتهلّل بشراً[1].

فبلغت بما أولاها ﷺ من عنايةٍ ورعايةٍ حداً لا يوصل إليه من مكارم الأخلاق والدليل على هذا أنه ﷺ دخل عليها يوماً ليودّعها؛ فقد كان ﷺ إذا أراد السفر سلّم على من أراد التسليم عليه من أهله، ثم يكون آخر من يسلم عليه فاطمة عليها السلام، فيكون توجّهه إلى سفره من بيتها، وإذا رجع بدأ بها، وكان أمير المؤمنين عليه السلام قد أصاب شيئاً من الغنيمة، فدفعه إلى فاطمة، ثم خرج، فاشترت سوارين من فضّة وعلّقت على بابها ستراً، فلما قدم رسول الله ﷺ دخل المسجد، فتوجه نحو بيت فاطمة عليها السلام كما

(١) انظر كتاب الدعاء (الطبراني) ٣١٩، وقريب منه في الدعوات (الراوندي): ٤٨، بحار الأنوار ٤٣: ١٥٣ / ١٠، ٩٠: ٢٧٢ / ٣.

كان يصنع ، فقامت إليه فرحة ، فنظر صلى الله عليه وآله فإذا في يدها سواران من فضة وإذا على بابها ستر ، فقعد صلى الله عليه وآله حيث ينظر إليها ، فبكت وحزنت وقالت : «ما صنع هذا أبي قبلها» . فدعت الحسنين عليهما السلام ونزعت الستر من بابها ، وخلعت السوارين من يدها ، ثم دفعت السوارين إلى أحدهما والستر إلى الآخر ، ثم قالت لهما : «انطلقا إلى أبي فأقرئاه السلام ، وقولا له : ما أحدثنا بعدك غير هذا ، فما شأنك به ؟» .

فجاءاه وأبلغاه ذلك ، فقبّلهما صلى الله عليه وآله ، والتزمهما وأقعد كل واحد منهما على فخذه ، ثم أمر بذينك السوارين فكسرا ، فجعلهما قطعاً قطعاً ، ثم دعا أهل الصفّة ولم يكن لهم منازل ولا أموال ، فقسمه بينهم قطعاً ، ثم جعل يدعو الرجل منهم العاري الذي لا يستتر بشيء ، وكان ذلك الستر طويلاً وليس له عرض ، فجعل يؤزر الرجل ، فإذا التقى عليه قطعه حتى قسمه بينهم أزراً ، ثم قال صلى الله عليه وآله : «رحم الله فاطمة ؛ ليكسونّها الله بهذا الستر من كسوة الجنة ، وليحلّينها بهذين السوارين من حلية الجنة»[1] .

وروي أنه صلى الله عليه وآله قال : «فعلت لله أبوها ، فعلت لله أبوها ، فعلت لله أبوها» .

وهذا وأمثاله مظاهر جلية لما كان يوليه إياها من عنايةٍ فائقة ورعايةٍ خاصة وتربيةٍ ساميةٍ عالية ، وبما كان يغدقه عليها من حنانه وعطفه وأخلاقهِ وصفاته . لقد كان صلى الله عليه وآله يتعاهدها بكل ما يمكن له أن يتعاهدها به فكان لا يمر على المحراب صباحاً وهو ذاهب إلى صلاة الفجر حتى يمرّ ببيتها عليها السلام ، فيقول : «الصلاة يا أهل البيت ، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ

(١) مكارم الأخلاق : ٩٤ ـ ٩٥ ، بحار الأنوار ٨٥ : ٩٣ ـ ٩٤ / ٦٢ ، مسند أحمد ٢ : ٢١ ، صحيح البخاري ٣ : ١٤١ ، سنن أبي داود ٢ : ٢٧٨ ، صحيح ابن حبّان ٢ : ٤٧٠ ، ٤ : ٢٦٦ .

﴿الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[١]»[٢].

فتخرج إليه فاطمة عليها السلام.

فكان صلى الله عليه وآله يملأ هذه الدار غبطة وحناناً ورأفةً ورحمة، وكان كثيراً ما يضع رأسه على جبينها، ويشبعها لثماً وتقبيلاً، ويقول: «إني أشم فيها ريح الجنة»[٣]. وكان صلى الله عليه وآله يقف على هذا الباب ويقول: «باب فاطمة بابي، وحجابها حجابي»[٤].

فكانت هذه الدار ملتقى فاطمة عليها السلام وأبيها صلى الله عليه وآله ليسكب على روحها من حنانه ودفئه وخلقه ونبله، ونحن من هذا المنبر نقول له: يا رسول الله، لقد مرت بهذه الدار ساعات من الألم والحزن، بل ساعات كلها ألم وحزن حينما رجع أمير المؤمنين عليه السلام من دفن فاطمة ووجد مكانها خالياً، فراح يجول في وسط الدار وإلى جانبه ولداه السبطان الحسنان عليهما السلام:

ما لي وقفت على القبور مسلماً	قبر الحبيبِ فلم يردَّ جوابي
أحبيبُ مالك لا تردّ جوابنا	أنسيت بعدي خلّة الأحبابِ
قال الحبيب وكيف لي بجوابكم	وأنا رهين جنادل وترابِ[٥]

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) مسند أحمد ٣: ٢٥٩، ٢٨٥، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣١، شواهد التنزيل ٢: ١٩، سير أعلام النبلاء ٢: ١٣٣، ١٣٤، تهذيب الكمال ٣٥: ٢٥٠.

(٣) علل الشرائع ١: ١٨٣ / ١، بحار الأنوار ٤٣: ٥ / ٤.

(٤) بحار الأنوار ٢٢: ٤٧٧.

(٥) ديوان الإمام علي عليه السلام: ٤٠، بحار الأنوار ٤٣: ٢١٧.



﴿٧١﴾

السيدة زينب ﷺ المرأة النموذج

فتشاطرت هي والحسين بنهضة	حتم القضاء عليهما أن يُندبا
هذا لمشتبك النصول وهذه	في حيث تعترض المكاره في السبا

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأول: القيمة الحقيقية للمرأة

إن ممّا يمكن أن يقال بأنه من الأُمور الهامّة في حياة الفرد والمجتمع، وأن الحاجة ملحّة إليه هو تبيّن الملامح الحقيقية لموقف الإسلام من المرأة عبر تبيّن موقف الحضارات السابقة له عليها. إننا نعلم أن بصمات المرأة في الحياة العامة السلمية والحربية، سيّما في واقعة الطفّ حاضرة وواضحة أشدّ الوضوح؛ فقد كانت حاضرة في كل مراحلها، ولعبت دوراً واضحاً وكبيراً في تلك الواقعة، وفي النهضة الحسينية الشريفة نفسها أثناءها وفيما بعدها. وهذا ما سنتعرّض له إن شاء الله خلال هذه المحاضرة المباركة.

ومن هنا فإننا نجد أن من الضروري جداً أن نتعرف على هذه المسيرة الميمونة التي اختطتها المرأة إبان هذه الحركة الإسلامية، التي هي حركة تغييرية إصلاحية، وبعدها. وهي مسيرة في واقع الأمر تمثّل حضور

المرأة الفاعل والضروري في المجتمع وعلى أصعدته كافّة . كما أن من الضروري أن نشير إلى أن هذا الحضور التفاعلي في الحياة لم يكن وليد لحظته، أو أنه مختصّ بعصر خاصّ من عصور الإسلام، بل ولا في عصر الإسلام نفسه فقط، بل إنه يمتدّ طولياً ليغوص في تخوم التاريخ الإنساني وعمق مسيرة الإنسان في هذه الحياة. فحضور المرأة مشهود له في الحضارات السابقة للإسلام والحضارات غير السماوية؛ سواء تلك التي عاصرت الإسلام ، أو تلك التي جاءت بعده.

وحينما نعود أدراجنا إلى تلك الحقب السحيقة وما تلاها فسنجد فيها من خلال استعراض ما وصلنا من تاريخ وسير قصص، ومن خلال استنطاق تلك المدوّنات أن المرأة تربُ الرجل، بمعنى أنه كما أن للرجل دوره الهامّ في هذه الحياة فللمرأة دورها الهامّ فيها كذلك، بل إننا نجد أنه كما أن للرجل دوراً رئيساً ودوراً ثانوياً فللمرأة كذلك دور رئيس ودور ثانوي تؤديه في حياة البشرية.

الجهود الفردية في معالجات الواقع

لكننا مع كل هذه نصطدم بواقع مرير ربما يفقد الإنسان القابلية الكاملة على تخطّي الحواجز التي يضعها البعض في سبيل البحث العلمي، وبالتالي الحيلولة دون الوصول إلى حقيقة الأُمور. وتتمثّل هذه الحواجز بالمعالجات التي تناولت هذا الموضوع ، فهي غالباً معالجات فردية لا تنتحي جانب المعالجات الجماعية ، فكل ذي رأي يدلي برأيه في المقام بعيداً عن تصوّرات الآخرين ومعالجاتهم، بل وانقطاعاً عنها؛ ولهذا فإننا لا نكاد نجد رأياً موحداً حول هذه المسألة أو غيرها من المسائل . غير أن الباحث المتمكّن والمقتدر يستطيع أن يخرج بنتيجة تمثّل محصّلة تلك

الآراء جميعها، وهذه المحصّلة يمكن أن نصوغها بعبارة قصيرة هي أن المرأة اضطلعت بأدوار كثيرة خلال رحلتها، وهي أدوار لا تقلّ قيمة وأهمية عن الأدوار التي يمكن أن يتصدّىٰ لها الرجل في حياته، ويقوم بمما رستها في مجتمعه.

كل مخلوق ميّسر لما خلق له

والمختصّون بمجال معالجة أُمور المجتمعات وأدوار الأفراد فيها كالفلاسفة وعلماء الاجتماع وفقهاء القانون، بل حتى السياسيين يذهبون إلى أن لكل من المرأة والرجل دوراً أساسياً هامّاً يتصدّى له ويقوم به، ودوراً ثانويّاً يضطلع به، كما ذكرنا ذلك أيضاً. وعليه فإنه يمكن تصوير المسألة على النحو التالي:

الدور الأساسي للمرأة

إن الدور الأساسي للمرأة والذي يشير إليه من نوّهنا بذكرهم قبل قليل ممّن يهتمّون بمعالجة قضايا المجتمع هو أن المرأة صانعة الرجال؛ فهي التي تربي الأطفال، وهي التي تقوم بتنشئتهم وتثقيفهم وإخراجهم إلى المجتمع في حال سليمة من الأمراض والعقد النفسية. فهي حقاً صانعة الرجال، بل صانعة الأجيال؛ لأنها الرافد الوحيد الذي يسبغ على الوجود من يمثّل الوجود، فحجرها هو المصنع الذي يضفي على الطفل شخصيته؛ فإما أن يصنعه إنساناً كاملاً قوياً متكاملاً متيناً، أو رخواً هزيلاً مشوهاً.

لكن يرد هنا سؤال هو أنه إذا كانت وظيفة المرأة الرئيسة هي هذا الأمر الذي أشرنا إليه، فهل يعني هذا أنها لا تصلح لأدوار أُخرى غيره؟ وهل

إنها لا يمكن لها أن تمارس وظائف حياتية حسّاسة في المجتمع؟

والجواب بطبيعة الحال هو النفي، ولتوضيح هذه الفكرة سوف نستعين بالقرآن الكريم الذي يعطينا فكرة عامّة عن أمثال هذه الأمور. إننا نعرف مثلاً أن الوظيفة الأساسيّة للعصا هي التوكّؤ عليها؛ فالإنسان حينما يعجز عن المشي معتمداً على قوته واستعداده يلجأ إلى عصا يتوكّأ عليها، فيرمي عليها ثقله وعبء دهره الذي يثقل كاهله، لكن القرآن الكريم يحدثنا عن وظائف أُخرى للعصا غير هذه التي ذكرنا، وهي ماورد في حوار الله سبحانه مع نبيه موسى عليه السلام حيث قال له: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾[1].

فالنبي موسى عليه السلام ذكر إضافة إلى خاصية التوكّؤ وظائف أُخرى ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾، ومنها:

١ ـ أنه عليه السلام يهشّ بها على غنمه.

٢ ـ أنه عليه السلام يحمل عليها زاده إن سار.

٣ ـ أنه عليه السلام يضع عليها ثوبه ليستظل به من الشمس.

٤ ـ أنه عليه السلام يذود بها عن نفسه ويدافع بها عنها.

فهذه كلها أدوار ووظائف للعصا وإن كان المتبادر منها أو لاً هو التوكّؤ؛ باعتباره وظيفتها الرئيسة، لكن هذا لا يعني إنها ليس لها من أدوار أُخرى يمكن أن يستغلّها الإنسان ويوظّفها من أجلها؛ فهي تنفع حاملها في أماكن أُخرى، واستعمالات غير التوكّؤ.

وكذلك الحال مع المرأة، فكون المرأة لها وظيفة رئيسة هي صنع

---

(١) طه: ١٧ ـ ١٨.

الأجيال لا يعني أنها تقتصر على هذه الوظيفة فقط دون أن تقوم بوظائف أُخرى غيرها، أو دون أن تتمكّن من الإتيان بتلك الوظائف. وهذه الحال عينها تنطبق على الرجل الذي لا يمكن أن يقتصر دوره في الحياة على دور رئيس واحد، بل إن له أدواراً ووظائف ثانوية يمكنه أن يقوم بها، بل عليه ذلك؛ كي تتكامل مسيرة الحياة، ولتستمرّ بشكل طبيعي بعيد عن التشويه.

وعليه فإذا كان الدور الأساسي للرجل هو محيط خارج البيت كالعمل والكسب والجهاد والقتال، ومصارعة الحياة ومواجهة تعقيداتها، فهذا لا يعني أنه يتوقّف دوره ووظيفته عند هذا الحدّ. فلو أن زوجته مثلاً توفيت، فهل هذا يعني أنه سوف يموت من الجوع لأنه ليس هناك من أحد يقدم له طعامه؟ وهل إنه لا يستطيع أن يقوم بذلك الدور؟ وهل معنى ذلك أنه سيعايش المرض لأنه لا يتمكّن من أن ينظف مسكنه؟ بديهي أن الجواب هو النفي؛ فالرجل يصلح لكل الأعمال، وإن كان دوره الأساسي هو مصارعة الحياة ومقارعة صعابها.

وهكذا نكون قد قرّبنا فكرة تعاقب الأدوار بين الرجل والمرأة، فكما أن للرجل أدواراً ثانوية ـ هي أساساً وظائف للمرأة ـ يقوم بها، فالمرأة كذلك لها أدواراً ثانوية ـ هي أساساً وظائف للرجل ـ تقوم بها، وهذا يعتمد على طبيعة الأدوار التي يمكن أن تجد نفسها في خضمّها، وهي تعالج حياتها؛ فتوازن بين وظيفتها الأساسية، ووظائفها الثانوية الأُخرى.

شبهة الحجر على المرأة في الإسلام

وهكذا فنحن نجد أنفسنا موضع التهمة حول تعاطينا مع موضوع

المرأة، وهو موضوع حساس ومرهف، فبعض الأقلام المغرضة تتّخذ من الإسلام هدفاً لطعونها مستغلةً في سبيل ذلك قضية المرأة، مدّعية أن الإسلام يخنقها، ولا يعطيها حرية الحركة والبناء في المجتمع، أو يترك لها اختيار أداء دورها فيه بما أنها تشكّل نصفه، فشلّها عن الحركة يعني شلّ المجتمع؛ لأنه لا ينظر إليها إلّا على أنها وحدة إنجاب الأولاد والقيام بعد ذلك بتربيتهم من خلف الجدُر التي تحول بينها وبين أن تطلّع إلى عالم المعرفة والحرية.

وظائف المرأة الثانوية في نظر الإسلام

وهذه تهمة جائرة؛ لأن الأسلام حينما وضع المرأة في هذه البوتقة وضعها وهو لا يريد أن يحجّر عليها ويفرض عليها وظيفة واحدة فقط، وغاية ما في الأمر أن الإسلام فرز لها وظيفتها الرئيسة، ثم فتح لها الباب أمام ممارسة الوظائف الثانوية إذا لزم الأمر؛ ذلك لأن المجتمع أحياناً يحتاج إلى المرأة في أن تقوم بأدوار أخرى غير دورها الأساسي الذي أُنيط بها، أو الذي خُلقت له. لكن هذا مشروط بألاّ تبتعد المرأة معه عن أداء دورها الأساسي، أو تفرّط فيه أو تهمله؛ لأن معنى ذلك أن المجتمع سوف تخيّم عليه كارثة تشمل أصعدته كافّة. فأن تترك المرأة وظيفتها الأساسية في المجتمع نتيجته أمر حتمي واحد هو أن المجتمع سوف يلج مطبّ عدم الاستقرار، والتواصل مع الحياة بشكل طبيعي الأمر الذي يقوده إلى الشلل التامّ.

وتتمثل هذه الكارثة بأن الإنسان لو استطاع أن يحشّد كل طاقاته وإمكاناته العلمية ومختبراته وكشوفاته من أجل أن يوجد ملجأ آمناً للطفل كحجر الأمّ، فإنه سوف لن يتمكّن من ذلك البتة؛ لأنه ممّا لا يمكن

للإنسان الوصول إليه حتى وإن عمد إلى أن يكيّفه بكل وسائل الراحة؛ لأنه لا يمكن أن يرقى إلى ما هيأه الله سبحانه وتعالى للرضيع فضلاً عن علمه جلّ شأنه ومعرفته بما يحتاجه ويفتقر إليه ذلك الطفل دون الإنسان؛ إذ إنه لا يمكن له أن يعي كل متطلّبات الطفل الرضيع، وأن يدركها بتمامها.

وهكذا فلو أننا أخذنا الطفل من حجر أُمّه ووضعناه في حجر صناعي، ثم حشدنا له كل ما أمكن أن تتوصّل إليه النظريات العلمية؛ الاجتماعية، والنفسية، وغيرها مما تصبّ في مجال متابعة الطفل وتغذيته روحياً ونفسياً، ثم عالجنا كل ذلك في دور حضانة متطوّرة تستند إلى معطيات علمي النفس والاجتماع، وإلى والتطوّر الحاصل في علم الطبّ وغيره، فإنها سوف لن تتمكّن من توفير ذلك الجو الذي يوفره له حضن أُمّه، بل ولا حتى جزء يسير من ذلك الجو الأُمومي الذي يخلق منه إنساناً متّزناً مستقرّاً يعيش حياته بشكل طبيعي بعيداً عن العقد ومركّبات النقص التي تنغّص عليه عيشه بعد ذلك.

وهكذا فإن لحضن الأم بما يتوفّر عليه من حنان وعطف وغذاء روحي تأثيراً إيجابياً كبيراً على الولد لا يمكن أن يعادله أو يضاهيه أو يحاكيه تأثير آخر أبداً.

وعليه فإذا كانت المرأة هي التي تفعل كل هذا الفعل الإيجابي بالإنسان منذ صغره وحتى نهاية شوطه في هذه الحياة، وانقطاع حبله منها، فهل يعني هذا أنها لا وظيفة أُخرى عندها غير الولادة وتربية الأطفال وإدارة شؤون الأسرة والمنزل، فضلاً عن خطورة دورها هذا وأهميته؟ طبعاً لا؛ ذلك أن هذا لا يعني أنها تقصر عن القيام بأدوار هامّة ووظائف حيوية بنّاءة

أُخرى لها أثرها الكبير في تصحيح المسيرة الإنسانية، وتوجيه الرحلة البشرية إلى عالم الاستقرار والنظام وحفظ التوازن في المجتمع.

المبحث الثاني: حضور المرأة الفاعل في المجتمعات

وفي هذا الخضم المتلاطم من المعالجات التي ينحو بعضها منحى يبتعد بنا عن تحصيل ما نحن بصدد الحصول عليه كما ذكرنا قبل قليل؛ بحكم كون تلك المعالجات فردية فإننا لا يسعنا أن نستعرض كل الأدوار التي قامت بها المرأة في مسيرتها الإنسانية الحافلة بالعطاء؛ لأن المرأة مع الحياة في كل شيء، فمذ وجدت الحياة كانت المرأة إلى جانب الرجل؛ تعينه، وتشاركه، وتحدّد مصير الحياة والمجتمعات معه، وتقوم بأدوار كثيرة وهامّة لها مدخلية كبيرة في تفعيل رحلة الإنسان نحو الكمال في هذه الحياة.

لكننا من خلال تنشيط الذاكرة البشرية، واستنطاق المسيرة التاريخية نستطيع أن نشير إلى جملة من الأدوار التي قامت بها المرأة على سبيل المثال لا الحصر، وسوف نعالج هذه المسألة من خلال مستويين:

المستوى الأول: حضورها في المجتمع الجاهلي

ومن خلال استعراض الحضور الفاعل للمرأة في محيطنا العربي، ونعني به محيط شبه الجزيرة العربية ،فإننا سنجد أنها قد صنعت الحياة في مختلف فعالياتها ومجالاتها، بل حتى فيما يعتبره البعض أنه أبعد ما يكون عن طبيعته المرأة، كالدفاع عن القبيلة، وعن النفس، والاشتراك الفعلي في القتال. فنجد أنها حاضرة في هذه الميادين الخطرة وهي تدافع وتقاتل دون أن تنظر إلى نفسها على أنها كائن دون الرجل؛ ممّا يعني أنها غير مؤهلة لهذا الميدان الحسّاس.

إذن فكونها تمارس كل ذلك النشاط العسكري أو الحربي بوقوفها إلى جانب الجيش حتى يؤدي رسالته من الحرب التي يخوضها يعني بوضوح قابليتها على أداء ذلك الفعل، وعلى قابليتها على ولوج ذلك الميدان وتحقيق حضورها فيه حتى وإن حاول بعض الكتّاب أن يغمطها حقّها فيصوّرها على أنها ليست مؤهلة لذلك الأمر.

حضورها ودورها يوم تحلاق اللمم

ونحن إذ نقول: نعم إنها لم تخلق لذلك الأمر، فإننا لا نعني أنها غير مؤهلة له، أو أنها لا تتوفّر على القابليات التي تمنحها صلاحية ولوجه. وهنا سوف نشير إلى واحد من تلك الأدوار وذلك الحضور وهو دورها في تلك المعارك الشديدة الضراوة التي وقعت بين قبيلتي بكر وتغلب، والتي راح ضحيتها الكثير الكثير من أبناء القبيلتين. وكانت معركة معروفة مشهورة سارت بأخبارها الركبان بين قبائل العرب ومضاربهم، وكان من أبطال بني بكر وأدبائهم الذين اشتهروا بين الناس؛ كونه سيّد بكر وشاعرها، وقائدها وفارسها الفِند الزماني[1] الذي كان شاعراً مبدعاً، وقد أبدع لوحة شعرية رائعة في الحلم ينقلها لنا الكتّاب والمؤرخون؛ مبيناً فيها الوقت الذي ينبغي على الإنسان فيه أن يتصف بالحلم، والوقت الذي ينبغي عليه فيه ألاّ يكون كذلك، بل عليه أن يتّصف بالشدة، يقول فيها:

---

(١) بكسر الفاء، وهو شهل بن شيبان بن ربيعة بن زمان الحنفي، من بني بكر بن وائل، شاعر جاهلي عاش في حدود القرن السادس الميلادي وتوفي نحو (٧٠) قبل الهجرة المشرّفة، أو (٥٥٥) م. وكان سيد بكر في زمانه، وفارسها وقائدها. وهو من أهل اليمامة. شهد حرب بكر وتغلب، وقد ناهز عمره المئة. الأعلام ٣: ١٧٩.

فلمّا صرّح الشرّ فأمسى وهو عريانُ
ولم يبقَ سوى العدوا ن دِنّاهم كما دانوا
مشينا مشية الليث غدا والليث غضبانُ
بضرب فيه توهين وتخضيع وإقرانُ
وطعن كفم الزقّ غدا والزقّ ملآنُ

إلى أن يقول:

وبعض الحلم عند الجهـ ـل للذلّة إذعانُ

وهو هنا يقارب الآية الكريمة: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[1]. ثم يقول:

وفي الشرّ نجاة حيـ ـن لا ينجيك إحسانُ[2]

وعلى أية حال فإن الحرب لما استعرت واشتدّ أُوارها بين الفريقين، اشتدّ الضغط على قبيلة بكر بعد أن أحاطها تغلب وأحلافها، فأوقعوا فيهم الضرب والقتل، حتى أو شك البكريون أن ينهزموا، وهنا برزت فتاتان هما ابنتا الفند الزماني كما يقول المؤرخون، وأقبلتا وسط ساحة المعركة، وهما تناديان:

وغى وغى وغى وغى حرّ الحرار والتظى
وملئت منه الرُّبا يا حبّذا المحلقون بالضحى

يقول المؤرّخون: وما كادتا تخرجان تناديان بذلك النداء بين المقاتلين

(١) البقرة: ١٩٤.
(٢) خزانة الأدب ٣: ٣٩٩، شرح نهج البلاغة ١٩: ٢٢١.

وهما تقودان الجيش حتى خرجت امرأة أُخرى من مؤخرهم، وهي امرأة معروفة عندهم يقال لها كرمة بنت ضلع أمّ مالك بن زيد، وكانت بارزة بين نساء العرب، وهي تنادي:

نحن بنات طارقْ نمشي على النمارقْ
مشي القطاة البارقْ إن تقبلوا نعانقْ
أو تدبروا نفارقْ عرس المولّي طالقْ
والعار فيه لاحقْ

والعرس: المرأة، أي أن من يولّي من المعركة، فإنه سوف يجبر على تطليق زوجته، أو أنها سوف تطلقه؛ لانهزامه من القتال، وبالتالي فهو ليس أهلاً ليكون بعلها، بل هو عار عليها وعلى أهله.

وهكذا ما إن ظهرت هؤلاء النسوة الثلاث، ونادين بذلك النداء حتى انتصر البكريون، ونالوا القدح المعلّى بعد أن دارت الدائرة على التغلبيين بعد أن كانت قد دارت عليهم. ثم سمي ذلك اليوم بـ« يوم تحلاق اللمم »؛ نسبة إلى قول ابنتي الفند: « المحلقون بالضحى ».

واللمم: جمع لمّة، وهو مقدّم شعر الرأس، وسمي ذلك اليوم كذلك؛ لأن السيوف أخذت تحصد رؤوس تغلب، وتقطع لممها، فكأنها تحلقها.

وبهذا فإن هذا الموقف البطولي من هؤلاء النسوة الثلاث أصبح مضرب مثل، ومورد استشهاد الكتّاب على ما يمكن أن تلعبه المرأة من دور ريادي حتى في المعارك، خارجة بذلك عن محاولة قولبتها في قالب معين. وجميعنا يعلم أن الرجل حينما تقف المرأة خلفه تشجّعه وتدفعه بالقول الذي يلهب المشاعر ويستفزّ مكامن النخوة عنده فإنه سوف تتضاعف قوته، ويصبح شديد المراس، بل إنه حينئذٍ سوف يفتك فتك

الأسود. ومعلقات العرب شاهدة على هذا المعنى، كما في معلقة عمر بن كلثوم حيث يقول:

عـلى آثـارنا بـيض حِسَـانٌ	نُحاذِرُ أنْ تُفارِقَ أو تَهُونَا
ظعائنُ مِنْ بَني جُشَمِ بنِ بكرٍ	خَلَطْنَ بِميسَمٍ حَسَباً وديـنَا
أخَذْنَ على فَوارِسِهِنّ عَهداً	إذا لاقَوا فَوارِسَ مُعلِمِينَا
لَيَسْتَلِبُنّ أبداناً وَبِيضاً	وَأسْرَى في الحَديدِ مُقَرَّنينَا
إذا مـا رُحْـنَ يَمْشِينَ الهُوَيْنَى	كَما اضطَرَبَتْ مُتُونُ الشّارِبينَا
يَقُتْنَ جِيادَنا وَيَقُلْنَ لَسْتُمْ	بُعُولَتَنا إذا لَمْ تَمْنَعُونَا
إذا لَمْ نَحْمِهِنَّ فَلا بَقِينَا	لِشَيءٍ بَعْدَهُنّ وَلا حَيِينَا
ومـا مَنَعَ الظّعائنَ مِثلُ ضَربٍ	تَرَى مِنهُ السّواعِدَ كالقُلينَا[1]

مشيراً إلى أن المرأة حينما تقف لتشجّع الرجل فإنها تعطيه طاقة ضخمة فوق طاقته الاعتيادية.

وكذلك فإننا جميعاً نعلم بأن المرأة على مرّ التاريخ كان لها دور كبير وبارز في إشعال نار الحرب، وفي حسم المعارك عبر وقوفها إلى جانب الرجل حتى تأخذ بيده إلى النصر.

المستوى الثاني: حضورها في المجتمع الإسلامي

وحينما أشرقت الأرض بنور الإسلام، وأصبح هذا الدين السماوي الشريف الخاتم للأديان منبعَ التشريع ومصدر القوانين، فإنه لم يسنّ قانوناً يعتبر موقف المرأة هذا نشازاً، فيمنعها في النتيجة من مزاولة هذه الوظيفة، أو يحجم دورها فيسلبها خاصية إمكانية أداء أدوارها الثانوية إن

---

(١) جمهرة أشعار العرب ١: ٤٤.

لزم الأمر، بل إنه تعامل معها على عدة أنحاء كانت كلها اعتبارات إيجابية؛ سواء في موقف المرأة نفسه ووظيفتها عينها، أو في الرؤية الإسلامية لتلك الوظيفة ولذلك الدور.

نظرة الإسلام إلى المرأة

ومن هذه الاعتبارات نذكر:

١ـ أن الإسلام اعتبر المرأة نصف المجتمع، بل النصف الفاعل والمؤثّر فيه؛ لخطورة الدور الذي تقوم به في تأسيس المجتمعات وتزويدها بلبنات بنائها.

٢ـ أنه اعتبرها ذات حضور كبير وأثر فاعل في الحروب إلى جانب الرجل؛ لأنه أعطاها وظائف عدّة تمارسها أثناء الحرب كتمريض الجرحى، وتشجيع المقاتلين، وإعداد الطعام لهم، وتحمل الماء للمقاتلين. حتى إذا دارت رحى الحرب، واشتدّ الوطيس، وحمَّ وأصبحت الحاجة لها ملحّة أعطاها السلاح لتقوم بوظيفة القتال وأداء دور الدفاع عن الإسلام. أي أن الإسلام حتى مع تشريعه جواز خروج المرأة مع الرجل إلى القتال لم يكتفِ بإعطائها أدواراً ثانوية تقوم بها مما ذكرنا من تمريض الجرحى وإسعافهم وغير ذلك، بل إنه سمح لها بالقتال إن لزم الأمر كما ذكرنا، وإن اقتضت الضرورة أو دعت الحاجة إلى ذلك، فيعطيها دوراً أوّلياً ورئيساً في المعارك. ومعارك المسلمين تشهد لذلك كما سيأتي بيانه في محور الحرب إن شاء الله تعالى.

وهذا ما سوف نلاحظه من خلال استعراض بعض المواقف التي وقفت فيها المرأة لتشغل الوظيفة الرئيسة، والدور الأساسي في المعركة، وهو ما سوف نركّز عليه من خلال محورين رئيسين هما:

الأول: محور السلم

إن الدور الذي لعبته المرأة في المجتمع الإسلامي لا يمكن إنكاره أبداً، وحضورها في الحياة الإسلامية السلمية حضور كبير واضح لا يمكن لأحد أن يتجاوزه أو أن يمرّ عليه مرور الكرام دون أن يعيره أي اهتمام أو يوليه أي عناية. وهذا الدور يتمثل بجملة أُمور منها:

أولاً: دورها في بيعة الرسول صلى الله عليه وآله

لقد كان للمرأة دور واضح في بيعة الرسول صلى الله عليه وآله ومساهمة نابهة في هذه العملية الجديدة على المجتمع العربي، والتي أراد رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله من خلالها تركيز مفهوم البيعة في نفوس من يريدون الدخول في الإسلام، وتوثيق هذه الرؤية الجديدة عندهم. فكان أن شاركت الرجال في بيعة النبي صلى الله عليه وآله قائمة بدور هام وبارز فيها. ولعلّ أخطر بيعة هي بيعة العقبة التي كان فيها اثنتان من النساء المسلمات من الأنصار هما:

الأولى: أمّ عمارة

وهي نسيبة بنت كعب المازنية، وهي مفخرة من مفاخر المسلمين بحقّ، بل لكل مسلم أن يفتخر بمثل هذه النماذج المشرفة لما كان لها من مواقف كريمة وبنّاءة في الحرب، وهي مواقف كثيرة أهمّها وقوفها مع الرسول مع من وقف معه إذ انهزم عنه الآخرون، كما سنرى ذلك إن شاء الله تبارك وتعالى تحت عنوان (محور الحرب).

الثانية: أسماء السلمية الأنصارية

وهي أُمّ معاذ بن جبل، فقد كانت كذلك من ضمن المبايعين لرسول الله صلى الله عليه وآله في تلك البيعة الشريفة المباركة.

ثانياً: صمودها في الثبات على المبدأ والعقيدة

إننا نعلم بأن الرواد الأوائل من المسلمين قد لاقوا شتى صنوف التعذيب والمضايقات الدينية من عتاة قريش بسبب ثباتهم على دينهم وعقيدتهم. وكان للمرأة حصة كبيرة من هذا الأذى، حيث مورست ضدّها شتّى فنون الموت، وأبشع صنوف التعذيب، وربما يستغرب البعض حينما يطّلع على الأرقام الحقيقية حول موقف المرأة هنا.

وعليه فإن هؤلاء الروّاد الأوائل (رض) قد عرّضتهم قريش لأبشع صور التعذيب والموت، وكانت قريش كلما سمعت بأحد أسلم لله بعد بعثة نبيه الكريم وحبيبه المصطفى صلى الله عليه وآله سعت إلى محاولة صدّه عن دينه ولو بالقوة والإكراه والتعذيب الذي لا حدود له، بحيث إن بعضهم لم يصبر على ذلك العذاب الذي توقعه عليهم قريش، فكان أن اضطرّ إلى أن يذكر صنماً من أصنامهم، أو وثناً من أوثانهم بخير حتى يخلّص نفسه من ذلك العذاب بعد أن يطلبوا منه قول ذلك، وإلاّ فإنه سوف يبقى تحت صنوف العذاب تلك. وقد نزل قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾[1]؛ في مضمار العفو عن أولئك الذين اضطرّوا إلى مدح الأصنام في سبيل تخليص أنفسهم من العذاب المنكر الذي لا يطاق، ثم رخّص لهم النبي صلى الله عليه وآله في ذلك بقوله في عمار رضي الله عنه: «لا، لا تقولوا هذا، إن عماراً مُلِئ إيماناً من قرنه إلى قدمه». بعد أن قالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله: قد كفر عمار. ثم قال له عمّار رضي الله عنه باكياً: يا رسول الله، ما تُركت حتى نلت منك، وذكرت آلهتهم بخير. فجعل صلى الله عليه وآله يمسح عينيه ويقول له: «ما لك؟ إن عادوا فعُد». وعلى

---

(١) النحل: ١٠٦.

إثرها نزلت الآية الكريمة المارّة[1].

ومن مواقف النساء هنا نذكر:

الأول: موقف سمية أمّ عمار (رضي الله عنها)

هذا الموقف كان من الرجال، أمّا النساء المعذّبات فما عُرف عن امرأة منهن أنها خلّصت نفسها من وطأة التعذيب بذكر صنم أو وثن بخير، فسمية (رضي الله عنها) مثلاً ماتت ولم تفتدِ نفسها بكلمة تذكر فيها آلهة قريش بخير أو مدح، فكم حاول عتاة المشركين أن ينتزعوا منها كلمة من هذا النوع في حقّ آلهتهم، لكنهم لم يفلحوا معها؛ فقد امتنعت امتناعاً شديداً إلى أن أخذتها الحراب فقطّعتها وأسلمت الروح إلى بارئها؛ فكانت بذلك أول شهيدة في الإسلام، بل أول من يُستشهد فيه. وكان النبي قد مرّ بها وبزوجها وهما يعذّبان فقال: «صبرا آل ياسر، موعدكم الجنة». فكان أن ضربت هذه المرأة رقماً قياسياً في الثبات على المبدأ والعقيدة.

الثاني: موقف عنيزة (رضي الله عنها)

وعُنيزة هذه كانت جارية لأحد الخلفاء، وكان هو نفسه من يشرف على تعذيبها لترتدّ عن دينها. ومن جملة صنوف التعذيب التي مورست ضدها وضدّ غيرها من المعذّبين أن المشركين كانوا يسقونهن العسل بعد أن يجبروهن على شربه، ثم يوقفوهن تحت حرارة الشمس في ظهيرة أيام الصيف القائظ ولا يسقوهن الماء، ثم يضربوهن بالسياط حتى يستشهدن.

---

(١) مجمع البيان ٦: ٢٠٣، عوالي اللآلي ٢: ١٠٤، تخريج الأحاديث والآثار ٢: ٢٤٦، تفسير القرآن (الصنعاني) ٢: ٣٦٠، ولم يذكر الحديث.

وقد صمدت عنيزة هذه (رضي الله عنها) أمام ذلك العذاب الذي كان يمارسه ضدها مالكها دون أن تذكر آلهته بخير.

وهذه المواقف واقعاً تبعث على الفخر والاعتزاز، وتأخذ برقاب البعض ليقرّ للمرأة بأنها لعبت دوراً هامّاً وحيوياً في ميادين العقيدة وفي سبيل دينها ومعتقداتها ومبادئها، لترسّخ ذلك الإيمان عندها إلى أبعد صوره.

الثالث: موقف الخنساء (رضي الله عنها)

وليس ببعيد عنا موقف هذه المرأة العملاقة التي فقدت أربعة من أبنائها في معركة واحدة، فاحتسبتهم عند الله تعالى، وكانت من قبل قد فقدت أخويها صخراً ومعاوية أيام الجاهلية فاشتغلت برثائهما وندبتهما حتى سارت القوافل والركبان بأشعارها، وملأ صفحات من الأدب العربي، وكانت إذا ذكرت صخراً تذوب حتى تتحوّل إلى دمع. ومن رثائها فيه قولها:

يذكرني طلوع الشمس صخراً ... وأبكيه لكل غروب شمس

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن ... اعزّي النفس عنه بالتأسّي[1]

ومن شعرها فيه كذلك:

ألا يا صخر إن أبكيت عيني ... فقد أضحكتني دهراً طويلا

ذكرتك في نساء معولات ... وكنت أحقّ مَنْ أبدى العويلا

---

(١) الإصابة ٨: ١١٢، تفسير الآلوسي ٢٥: ٨٤.

دفعت بك الجليل وأنت حيّ ومن ذا يدفع الخطب الجليلا
إذا قبح البكاء على قتيل رأيت بكاءك الحسن الجميلا[(١)]

وهو رثاء يشعرنا بأنها كانت على جانب كبير من الأدب المرهف والحسّ العالي، وذات إمكانية عالية من ناحية الأدب، فضلاً عن كونها ذات عطاء فكري رائع. وهي كما كانت عملاقة في الأدب، فهي عملاقة في البطولة والشجاعة، فمع أن رثاءها في صخر بلغ منها ما بلغ كما رأينا، لكننا نجدها بعد أن دخل الإسلام قلبها تحتسب أولادها الأربعة الذين قتلوا في معركة واحدة عند الله؛ حيث إنها حينما جاءها الناعي بمصرعهم قالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقرّ رحمته[(٢)].

وهذا أيضاً أنموذج رائع يكشف لنا عن أن المرأة لا تعيا أن تلعب ذلك الدور الهامّ في حياة المجتمعات البشرية، وأن تساهم في رسم خريطة المجتمع وتحديد مسيرة الإنسان فيه.

الثاني: محور الحرب

هذا في محور السلم، أما في محور الحرب، فكان للمرأة الحظّ الوافر، والحضور البارز والمتميّز، وكان لها تأثير كبير في مجريات الأحداث فيه؛ سواء في ساحات الحرب حيث المشاركة الفعلية في القتال، أو في ساحات تمريض جرحى المقاتلين ومعالجتهم وتطبيبهم. وسوف نذكر هنا جملة من النماذج التي مثّلتها المرأة وشرفت بها:

---

(١) الإصابة ٨: ١١٢.
(٢) الاستيعاب ٤: ١٨٢٩، أسد الغابة ٥: ٤٤٢، الإصابة ٨: ١١٢.

أولاً: دور نسيبة المازنية (رضي الله عنها)

لقد كان لنسيبة هذه دور مشرف وبارز في الدفاع الفعلي عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وعن الإسلام في ساحات الحرب فضلاً عن دورها في حالة السلم، ذلك أنه لما كان يوم أحد وانهزم الصحابة عنه صلى الله عليه وآله مخلّفين نبيّهم الأكرم وسط المعركة عرضة لغرض السيوف والرماح والنبال، لم يبقَ معه إلاّ عشرة من الصحابة منهم نسيبة هذه (رضي الله عنها)، وكانت يدها على قائم السيف وهي تدفع عن النبي صلى الله عليه وآله حتى قال صلى الله عليه وآله في حقّها: «ما التفتّ يميناً ولا شمالاً يوم أحد إلاّ ورأيتها تقاتل دوني»[1]. وقد جرحت (رضي الله تعالى عنها) ثلاثة عشر جرحاً، ما بين طعنة رمح، أو ضربة بسيف[2].

وكان ابنها قد رام أن ينهزم ويتراجع، فحملت عليه وقالت: يا بني، إلى أين تفرّ عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وآله؟ فردّته، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «بارك الله عليك يا نسيبة». ثم رأت أحد المشركين قد ضرب ابنها، فدفّت إليه، وضربته على رجليه حتى عقرته فقتلته، فالتفت إليها النبي صلى الله عليه وآله مبتسماً، وقال لها: «لقد استقدت»[3]. أي أخذت القود والثأر من ضارب ابنك.

ثم كلّل صلى الله عليه وآله موقفها هذا بقوله الشريف: «لمقام نسيبة بنت كعب اليوم أفضل من مقام فلان وفلان»[4]. فكان أن توّجها صلى الله عليه وآله بذلك الإكليل الذي

---

(١) السيرة الحلبية ٢: ٥٠٩، فتح الباري ٦: ٥٩.

(٢) السيرة الحلبية ٢: ٥٠٩.

(٣) تفسير القمي ١: ١١٥، موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٢٨٥.

(٤) تفسير القمي ١: ١١٦، الصحيح من سيرة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله ٦: ٢٠٥، الطبقات الكبرى ٨: ٤١٣، سير أعلام النبلاء ٢: ٢٧٨، إمتاع الأسماع ١: ١٦٢، شرح السير الكبير (السرخسي) ١: ٢٠٠ / ٢٣٨، وعقّبه بقوله: فسمى ـ يعني رسول الله صلى الله عليه وآله ـ جماعة من

لبسته عزّاً وفخراً في حياتها وبعد مماتها.

ثانياً: دور أسماء أمّ معاذ (رضي الله عنها)

وكانت (رضي الله عنها) قد حضرت مع المسلمين خيبر، فكان لها موقف كبير ومشهود في تلك الواقعة.

ثالثاً: دور خولة بنت الأزور (رضي الله عنها)

ونذكر لها هنا موقفين:

الأول: فك أسر أخيها ضرار

يروي المؤرّخون أنه بينما كان المسلمون ـ وعلى رأسهم خالد بن الوليد ـ يخوضون ما عُرف بعد ذلك بمعركة أجنادين، وقع ضرار بن الأوزر في أسر الروم، حيث إنه ومعه مئتان من المسلمين قد ساروا في طريق الجبل، فأحاطت بهم الروم، فأسروه وأسروا جماعة من أصحابه، فأتوا بهم محدقين بضرار وهو متألّم من وثاقه وينشد:

ألا بلّغا قومي وخولة أنني ... أسير رهين موثق اليد بالقيد

إلى أن قال:

فلو أن أقوامي وخولة عندنا ... والزم ما كنا عليه من العهد

ثم وضعوه في خباء وأقيمت عليه الحراسة المشددة[1].

فلما وصل الخبر إلى خالد أن ضراراً قد أسره الروم، عظم ذلك عليه وقال: كم العدو؟ قالوا اثنا عشر ألف فارس. فقال: والله ما ظننت إلّا أنهم

الذين فروا. وهذا يعني أن من نقل الحديث تعمّد إغفال أسماء هؤلاء الفارّين؛ لاعتبارات شخصية.

(١) فتوح الشام ٢: ٢٣١ ـ ٢٣٢.

في عدد يسير، ولقد غرّرت بقومي. ثم أرسل الى أبي عبيدة يستشيره، فبعث إليه أبو عبيدة يقول له: سر إليهم، فإنك منتصر بإذن الله تبارك وتعالى. فعطف خالد بالناس وقال: أطلقوا الأعنّة، وقوّموا الأسنّة، فإذا أشرفتم على العدو فاحملوا حملة واحدة؛ ليخلص فيها ضرار إن شاء الله تعالى إن كانوا أبقوا عليه.

وبينما خالد كذلك إذ نظر إلى فارس على فرس طويل وبيده رمح طويل وهو لا يبين منه إلّا الحدق، والفروسية تلوح عليه، وقد سبق أمام الناس كأنه نار، فلما نظره خالد قال: ليت شعري من هذا الفارس؟ وأيم الله انه لفارس شجاع. ثم أتبعه خالد والناس، وكان هذا الفارس أسبق الناس المشاركين، وقد حمل على عساكر الروم كأنه النار المحرقة، فزعزع كتائبهم، وحطم مواكبهم، ثم غاب في وسطهم، فما كانت إلّا جولة الجائل حتى خرج وسنانه ملطخ بالدماء من الروم، وقد قتل رجالهم وأبطالهم، ثم اخترق القوم غير مكترث بهم ولا خائف، وعطف على كراديس الروم في الناس، وكثر قلقهم عليه، فقال خالد: معاشر المسلمين، احملوا بأجمعكم.

ثم نظروا إلى الفارس وقد خرج من القلب كأنه شعلة نار، والخيل في أثره، وكلما لحقت به الروم لوى عليهم وقتل منهم، ووصل الفارس المذكور الى جيش المسلمين، فتأملوه فرأوه قد تخضّب بالدماء، فصاح خالد والمسلمون: لله درك من فارس، اكشف لنا عن لثامك. فمال عنهم ولم يخاطبهم، فلما بعد تبعه خالد وقال له: ويحك لقد شغلت قلوب الناس وقلبي بفعلك، من أنت؟ فلما لجّ عليه خالد خاطبه الفارس قائلاً: أنا خولة بنت الأزور، والمأسور بيد المشركين أخي، وهو ضرار.

فلما أظهر الله المسلمين على الروم أقبلت خولة بنت الأزور على المسلمين، وجعلت تسألهم رجلاً رجلاً عن أخيها، فلم ترَ من المسلمين من يخبرها أنه رآه أسيراً أو قتيلاً. فلما يئست منه بكت وجعلت تقول: يابن أمي، ليت شعري في أي البيداء طرحوك؟ أم بأي سنان طعنوك؟ أم بالحسام قتلوك؟ يا أخي، أختك لك الفداء، لو أني أراك لأنقذتك من أيدي الأعداء. ليت شعري أترى أني أراك بعدها أبداً؟ لقد تركت يابن أمي في قلب أختك جمرة لا يخمد لهيبها ولا يطفأ. ليت شعري لحقت بأبيك المقتول بين يدي النبي صلى الله عليه وآله، فعليك مني السلام إلى يوم اللقاء.

فبكى الناس من قولها، ثم طلب بعض الروم الأمان، فقبل المسلمون أمانهم، ثم سألوهم عن ضرار، فقالوا: بُعث به إلى حمص، ووكل به مئة فارس؛ ليرسل من هناك إلى الملك. فلبست خولة سلاحها، وركبت جوادها، وأتت إليهم، فلم يكن غير ساعة حتى خلص الله ضرارا على يديها، وقُتل من معه من جنود الروم[1].

وهكذا كان موقف خولة إذ قلبت اليمين على الشمال، وانغمست في لهوات الحرب حتى حرّرت أخاها بعد أن عجز المسلمون من قبل من فعل ذلك، وباءت محاولات الوصول إلى الخباء الذي يحتجز فيه ضرار بالفشل.

الثاني: فكّ أسر المسلمات عند الروم

وكانت خولة قد أُسرت مع جملة من المسلمات، فاقتُدن إلى خباء، ووضعن فيه، وكان في النساء عجائز من حِميرْ وتبع من نسل العمالقة والتبابعة، وكن قد اعتدن ركوب الخيل، فقالت لهن خولة بنت الأزور: يا

---

(١) فتوح الشام ١: ٤٤ ـ ٤٨.

بنات حمير وبقية تبّع، أترضين لأنفسكن الروم، ويكون أو لادكن عبيداً لأهل الشرك؟ فأين شجاعتكن وبراعتكن التي نتحدّث بها عنكن في أحياء العرب ومحاضر الحضر؟ ولا أراكن إلّا بمعزل عن ذلك، وأني أرى القتل عليكن أهون من هذه المصائب وما سينزل بكن من خدمة الروم. فقالت عفرة بنت غفار الحميرية: صدقت والله يا بنت الأزور. فقالت خولة: يا بنات التبابعة والعمالقة، لنأخذ أعمدة الخيام وأوتاد الأطناب، ولنحمل بها على هؤلاء اللئام؛ فلعل الله ينصرنا عليهم، أو نستريح من معرّة العرب.

فتناولت كل واحدة عموداً من أعمدة الخيام، وألقت خولة على عاتقها عمود الخيمة، وسعت من ورائها النسوة، فقالت لهن خولة: لا ينفكّ بعضكن عن بعض، وكنّ كالحلقة الدائرة، ولا تتفرقن فتهلكن، فيقع بكنّ التشتيت، وحطّمن رماح القوم، واكسرن سيوفهم.

ثم هجمت أمامهن، فالتفت الروم ينظرون ما الخبر، فإذا هم بالنسوة وقد أقبلن والعمد بأيديهن، فتفرّقوا عليهن وحدقوا بهن من كل جانب، وراموا الوصول إليهن فلم يستطيعوا، ولم تزل النساء لا يدنو إليهن أحد من الروم إلّا ضربن قوائم فرسه، فإذا تنكّس عن جواده بادرت النساء بالأعمدة فيقتلنه ويأخذن سلاحه وهن يقلن: متن كريمات ولا تمتن لئيمات. وكانت خولة تجول بينهن وتقول:

نحن بنات تبع وحميز	وضربنا في القوم ليس ينكز
لأننا في الحرب نار تسعز	اليوم تسقون العذاب الأكبز

حتى خلصن أنفسهن من الأسر[1] وهذا يدلّ على أن المرأة تربُ الرجل في ميادين الحياة كافّة، ومنها ميادين القتال، فكانت تقف معه

(١) فتوح الشام ١: ٥٢ ـ ٥٤.

لتصنع النصر، ولتساهم في بناء العقيدة، ولتضرب المثل الأعلى والسامي في التشبّث والتمسّك بعقيدتها.

إذن فهذه المواقف لم ينكرها الإسلام على المرأة، ولم يتّخذها ذريعة للتشنيع عليها، بل إننا نجده على العكس من ذلك قد شجّع عليها. وعليه فلا يقرّن في خلد أحد أن الإسلام قد تأثّر بالبيئة السابقة له، أو بعادات المجتمعات التي عاصرته أو سبقته، بل إن أحكامه هنا أحكام جديدة تأسيسية وليست إمضائية، فهو حينما جاء أسّس أحكاماً بهذا الخصوص، جعل بمقتضاها المرأة تربَ الرجل وصنوَه، وأن لها وظيفة ثانوية بل وظائف كثراً عليها أن تقوم بها إن لزم الأمر كما رأينا دون أن يكون ذلك عن تأثر بالبيئات أو المجتمعات السابقة له.

وأبرز شاهد على هذا الموقف نسيبة المازنية (رضي الله عنها)؛ ففي بادئ الأمر كانت واقفة قرب الرسول لتدافع عنه، لكن لما انهزم المسلمون عن رسول الله صلى الله عليه وآله أخذت السيف وراحت تقاتل به مشتركة بذلك اشتراكاً فعلياً في المعركة على مرأى من الرسول صلى الله عليه وآله ومسمع دون استنكار منه صلى الله عليه وآله عليها.

أثر المرأة على الرجل

وفوق هذا فإن المرأة كانت إذا ما أخذت السيف بيدها، بعثت في الرجل روح القتال، وبثّت فيه دواعي الشجاعة؛ لأنه يأنف أن تدافع المرأة عن نفسها دون أن يدافع هو عنها؛ ففي ذلك عار كبير عليه. يروي المؤرخون أن أمير المؤمنين عليه السلام حينما انتهت معركة أُحد جيء به وفي جسده أربع وستون طعنة، وهو يقول لفاطمة عليها السلام:

«أفاطم هاكِ السيف غيرَ ذميمِ فلستُ برعديدٍ ولا بمليمِ

لعمري لقد جاهدت في نصر أحمدٍ   وطاعةِ ربّ بالعبادِ رحيم»[(١)]

ثم سقط على الأرض كتلةً من الجراح والدماء، ومن هنا فإن أحد الأُدباء يستوحي من هذه الحادثة صورة أدبية يصوغها شعراً يخاطب به فارس السماء، وسيف الله وسيف رسوله(ص)، وبطل الإسلام:

عشِقَتكَ الجِراح حيّاً ومَيْتاً	فرأيناك مُثخَناً بالجِراحِ
بَينَ جرحِ الأقلامِ تُصميكَ زُوراً	وجِراحِ السُّيوفِ وسطَ السَّاحِ
خَرِصَ الحِقدُ أن يُسمي قبيحاً	مَن بمعناك من مزايا مِلاحِ
فإذا ما رَقَقتَ أو بَشَّ وَجهٌ	قيل تلعابة كَثيرُ المزاحِ
وَاستزادوا فَقيل لا رَأيَ فِي الحَر	بِ لَهُ رُغمَ أنّه ابنُ كِفاحِ
وَغريب أن يعوِز الرأيُ قرماً	عاش بينَ القَنا وبيضِ الصفاحِ
عَرَكَته الزحوف وَهو ابنُ عشرٍ	وتَفَرّى أديمُه بالسلاحِ
وَخَنانا أبَا الحسينِ عَلى الحِقـ	ـدِ فَأهلُ الأحقادِ في أتراحِ
أَعَليّ يؤذيه رَأي رَقيع	لابنِ علصٍ أو كذبةٍ من سَجاحِ
وَالوجوهُ المشوّهاتُ بدِيهُ	لَصقُها العيبَ بالوجوهِ الصباحِ
فَليزِدْ مَا لَديكَ من كلّ مَجدٍ	وليزِدْ كذبُهُم مِنَ الإلحاحِ[(٢)]

وفعلاً فإن الحقيقة كذلك؛ لأنه(ع) كان على مرّ التأريخ الجائر عرضة لجراح الأقلام التي حاولت أن تهدّ صرحه الذي شادته السماء، ودرجت

---

(١) الإرشاد ١: ٩٠، الأمالي (الطوسي): ١٤٣، شرح نهج البلاغة ١٥: ٣٥، المستدرك على الصحيحين ٣: ٢٤، مكارم الأخلاق (ابن أبي الدنيا): ٦٧، وغيرها كثير.

(٢) الأبيات للمحاضر. ولم نعثر عليها في ديوانه المطبوع. وهو ديوان غير حاوٍ لجميع شعره(ع).

على أن تحوّل كل حسنة له في الكتاب الكريم، وفي السنة الشريفة، وفي سيرتة العطرة الطاهرة إلى شيء قبيح لتنفّر الناس عنه، لكنها انهزمت أمامه وظل صرحه شامخاً، وبناؤه عالياً يطال الثريا.

ثم انحنت عليه الزهراء عليها السلام تطبّب جراحه وتشدّها؛ لتوقف نزيف دمه حتى استعاد عليه السلام نشاطه وقوّته.

وفي هذا دليل واضح على أن الإسلام لم يقف بوجه المرأة أن تؤدّي دورها الهامّ في الحياة حينما يستلزم الأمر ذلك.

رابعاً: دور السيدة زينب عليها السلام الريادي في النهضة الحسينية

وإذ نتسلسل في الزمن ونحن نتقدم فيه حيث نصل إلى فترة حكم يزيد بن معاوية، فإننا سوف نجد المبرّرات التي دعت الإمام ودفعته إلى إعلان ثورته ضدّ يزيد وحكمه، وهي مبرّرات شرعية استمدّها الإمام الحسين عليه السلام من مدارك شرعية قامت عليها ثورته الشريفة المباركة.

وأوّل أمر يلفت النظر إلى هذه الحركة هو إخراج الإمام عليه السلام عائلته في مسيرته إلى الكوفة، واصطحابهم معه بمن فيهم من النساء والأطفال. وهذا يعني أن الإمام الحسين عليه السلام قد حشد معه عائلته ونساءه، وأراد أن يزجّهن معه في هذه الحركة الإلهية الإصلاحية حتى مع محاولة البعض ثنيه عن عزمه أخذَ عائلته معه، ومنهم عبد الله بن عباس رضي الله عنه الذي دخل عليه وقال له: لماذا تُخرج عائلتك معك؟ فكان عليه السلام يجيبهم بالقول: «قد شاء الله أن يراهن سبايا»[1].

وهذا الجواب من الإمام عليه السلام لم يكن يمثّل الواقع كلّه الذي كان في

---

(١) مختصر بصائر الدرجات: ١٣٢، المحتضر: ٤١، اللهوف في قتلى الطفوف: ٤٠، بحار الأنوار ٤٤: ٣٦٤، ينابيع المودة ٣: ٦٠.

منظور الإمام؛ لأنه كان له تخطيط مسبق وواضح، وتصوّرات بعيدة حول ما يمكن أن تقوم به المرأة من أدوار إيجابية كبيرة بعد نهضته الشريفة؛ حيث خطّط لها لتمثّل الامتداد الإعلامي لها في حال فشلها عسكرياً. لكنه لم يطلع أحداً على هذا الأمر، ولم يظهره لغيره، بل انطوى عليه في قرارة نفسه، وتركه في دخيلته؛ لحكمة كان يرتئيها، وأسباب وجيهة أحاط بها علمه الإلهامي الإلهي. فمن وجهة نظره الشريفة، ولأسباب هو أعلم بها من غيره كونه مطّلعاً عليها دونهم قرّر إخراج عياله معه.

وهكذا فإنه أبى إلاّ أن يصطحب معه نساءه على الرغم من كثرة المعترضين عليه في ذلك كعمته أمّ هانئ، وأمّ المؤمنين أمّ سلمة (رضي الله عنهما)، إضافة إلى ما ذكرنا. فالإمام أخفى ما كان يخطّط له من دور للمرأة في نهضته المباركة عن الآخرين، بل إن نفسه الشريفة قد انطوت على السرّ الذي أراد من خلاله أن تحتلّ المرأة دوراً هامّاً في مسيرة نهضته وبعدها.

مع أن المعترضين على حمل الإمام نسوته معه ممّن ذكرنا ربما كان لهم وجه حقّ في ذلك الاعتراض؛ لأنهم يعرفون بأن المرأة في حال فشل الحركة سوف لن تسلم من سيوف الأمويين، ولا من حقدهم، ولا أقلّ من أنها لن تسلم من ممارساتهم الوحشية التي تنطوي عليها نفوسهم الملأى بالحقد والكره والحسد لأهل البيت النبوي الكريم. فتاريخهم وسوابقهم تشهد عليهم في هذا الشأن، كما أن الواقع يحدثنا بأنهم على مرّ تاريخهم كانوا يتعاملون مع نساء خصومهم بفظاظة وتجريح إن لم يكن بالقتل واستعمال السيف.

ومن هنا فإن هؤلاء المعترضين على الإمام الحسين عليه السلام كانوا يتساءلون عن سرّ اصطحابه إياهم معه مع ما يعرفونه من سياسة الأمويين إزاء خصومهم والمنشقين عنهم.

إذن فالواقع ليس فقط لأن الله تعالى شاء أن يراهن سبايا، بل إن لهذا الواقع وجهاً آخر أعمق وأبعد غوراً هو أن هناك دوراً هامّاً سوف تلعبه المرأة، وهو دور موكل إليها إلى جنب الدور الموكل إلى الرجل.

النهضة الحسينية تختزل الحكم الأموي

ولنا هنا أن نتساءل عن طبيعة كل من هذين الدورين الموكلين إلى كلّ من الرجل والمرأة. إننا نعرف أن كلّ معركة تحتاج إلى أن تمرّ بمرحلتين أو دورين كلاهما هامّ جداً في مسيرتها، وهذان الدوران هما:

الأول: دور القتال الفعلي واحتياج المعركة إلى وقود بشري؛ وذلك كي يستديم إوارها ويستمرّ.

الثاني: دور ما بعد القتال الفعلي، وهو دور الإعلام لتلك المعركة الذي ينبغي أن يُفعّل ويحرّك؛ كي تستمر الثورة في ضمائر الناس وفي قلوبهم فضلاً عن عقولهم. فبهذا سوف لن تموت الثورة، بل أنها سوف تبقى حيّة ماثلة في أذهان الناس وقلوبهم يتفاعلون معها كلاً حسب ما يملك من عطاء وقابليات. وأدوات التفاعل هذه تختلف من شخص لآخر كما لاحظنا ذلك بعد انتهاء الثورة الحسينية المباركة، وما تعرّضت له الدولة الأموية من هزّات وزلازل تمثّلت بثورات كثيرة متعاقبة انتهت بها إلى السقوط والانهيار بعد ذلك الصعود المفاجئ الذي بنته على جماجم الصحابة الخلّص الأتقياء. فوقف أصحاب تلك الثورات بوجه حكام الدولة التي رجعوا بها إلى عصر الجاهلية المظلمة.

أدوات التفاعل مع ثورة الإمام الحسين عليه السلام

إذن امتدّ التعاطي بأدوات التفاعل مع ثورة الإمام الحسين، وتنوعت أساليب استعمالها باختلاف الأزمنة والأجيال، فكان أن اتّخذ ألواناً وطيوفاً مختلفة لكنها كلها تنسجم مع روح الثورة المحمدية التي قام بها الإمام الحسين عليه السلام، وتصبّ في ذات البوتقة الحسينية؛ الأمر الذي جعل من ذلك التفاعل آلة فاعلة في نخر جسد الدولة الأموية، وزعزعة نظام الحكم الكسروي، وتقويض أساسات بنائهم القائم على الجور؛ مما أدى في النتيجة إلى إسقاط هذه الدولة، وهو ما سوف نراه من خلال استعراضنا لهذا الموضوع بعد قليل إن شاء الله تعالى.

إن الإمام الحسين عليه السلام كان يعرف بأن ثورته سوف لن تكسب المعركة وقتياً، بمعنى أنه من غير الممكن والمعقول أن يظن أحد عادي فضلاً عن الإمام عليه السلام وهو العارف بكل شيء أن جيشاً محدود العدة والعدد حيث قوامه سبعون مقاتلاً يمكن أن يغلب جيشاً عرمرماً يعدّ بعشرات الألوف، ومن ورائه مدد لا ينقطع؛ إذ إن بإمكان الأمويين أن يجيّشوا كلّ جيوشهم ضدّ الإمام السبط عليه السلام لو أنهم رأوا أن الأمر يستلزم ذلك.

وهكذا فالسبط المخلّد عليه السلام كان يعرف بأنه سوف لن يكسب المعركة وقتياً، أو من ناحية السلاح، وهو ما يعبّر عنه بالكسب والنصر العسكري، بل إنه عليه السلام كان يخطّط لمعركة واقعية حاسمة، وهي معركة من نوع آخر تمثّل امتداداً لمعركته العسكرية. ومن هنا فإننا نقول بأنه عليه السلام قد سعى منذ بداية إعلانه ثورته المباركة إلى أن يمتلك قنبلة هائلة الانفجار، عظيمة التدمير، خطّط لأن يطلقها على العرش الأموي، فتبقى تعمل عملها الذي يريده عليه السلام، والذي رسمه، حتى تنفجر لتطيح بالصرح الأموي

الواهي والمنخور، ولتطوّح به بعيداً في مزبلة التاريخ والإنسانيّة حيث يجب أن يكون.

الثورة الحسينية ووسائل ديمومتها وخلودها

وبما أن الإمام الحسين عليه السلام كان لا يريد لحركته أن تكون آنيّة تندثر مع مرور الزمن كما بيّنّا، فتضيع أهدافها مع تقادم العهد، وبما أنه عليه السلام أيضاً يعلم بأنه لا يملك العدّة والعدد الكافيين والكفيلين بإنجاح حركته وإبقائها وخلودها، كان لابدّ من وسيلة أُخرى يربح بها المعركة، وكانت خطّته عليه السلام الشريفة لعلاج ذلك الأمر تتمحور حول أمرين:

الأمر الأوّل: محور الدم

إن الإمام الحسين عليه السلام كان يعلم بأن إراقته دمَه الطاهر، ودماء أصحابه وأهل بيته عليهم السلام في حركته هذه إنما هو إسناد لها بشريان الحياة، وإمداد لها بجوهر الديمومة؛ لتستديم حياتها، وليستديم أثرها وتأثيرها، كما كانت دماء الأنبياء عليهم السلام الذين قتلوا في سبيل دعوتهم إلى الله تبارك وتعالى، فأخذت طريقها في الحياة، ونجحت في استمرار الدين السماوي. فدماء الإمام الحسين عليه السلام إذن شقّت طريقها، وأخذت مسارها في تخليد حركته؛ ولذا فإنه لم تكد واقعة الطفّ الشريفة تنتهي حتى اشتعلت الدنيا بالثورات ضدّ الأُمويين دون فاصل زمنيّ طويل، وكان أن اشتدّت هذه الثورات المباركة انتصاراً لواقعة الطفّ، وراحت تعمل عملها في جسد الدولة المنهار حتى أوصلتها إلى شفا الانهيار، ثم الانهيار الفعلي مع أنه كان من الممكن لهم - الأُمويين - أن يعيشوا دولة مستقرّة طويلة، كما هو الحال مع العباسيين الذي امتدّت دولتهم إلى ما يقارب (٥٥٦).

لكن لما أعلن الإمام الحسين عليه السلام حركته الثورية التعبوية والإصلاحية ضدّ الدولة الأُموية، فإنه إنما يكون قد دكّ صرح هذه الدولة، ودقّ في نعشها مسمار الانهيار، فاختزل بذلك عمر تلك الدولة الأُموية؛ السفيانية، والمروانية إلى ثمانين عاماً فقط.

الدم الحسيني سلاح لا يقهر

فالإمام عليه السلام قد طرح الدماء التي أخذت دورها في استمرار معركته حتى بعد انتهائها عسكرياً بعد أن وصل أمر الأُمويين عنده عليه السلام إلى حدّ لا يمكن السكوت معه على الظلم والابتعاد عن الدين. فبعد أن تفاقمت الأمور، وازدادت مشايعات الشيطان؛ فتخلّى الناس عن دينهم، وانساقوا وراء دنياهم، وكان السكوت على ذلك الأمر غير محتمل، بل مستبعداً تماماً، بل لا سبيل إليه البتّة؛ لأن السكوت يعني موت أُمّة بكاملها، وانجرارها إلى الجاهلية التي يدعوها إليها الأمويون بما أُوتوه من طاقة وسلطة وأموال. وبعض هذا ما لا يمكن السكوت عليه فضلاً عن أن يكون كله، فهذا مستحيل أبداً.

والإمام الحسين عليه السلام بما كان يمثّله من صوت الأُمّة المدوّي، وضميرها النابه، وخلاصة مشاعرها الجياشة في النهضة رأى أنه لا يمكن السكوت على ذلك الابتعاد عن الدين؛ لأنه يعني القضاء على الأهداف التي سعى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم إلى تحقيقها داخل الأُمّة من خلال دعوته التي امتدّت على مساحة (٢٣) سنة بما اكتنفها من آلام ومصاعب، ومعوقات وحروب حاول أسلاف الأمويين زرعها في طريق الدعوة المحمدية الجديدة (على صاحبها وآله أفضل الصلاة والسلام، وأتمّ التحية والإكرام)، وبما اعترضها من دواعي تحييدها وتحجيمها والوقوف

بوجهها أن تنتشر لتشرق على الأرض شمسها.

وهكذا فإن الدماء الطاهرة الشريفة والمقدّسة التي أراقها الإمام عليه السلام أخذت دورها في تحطيم الصرح المرواني، وفعلت فعلها المؤثّر في إسقاط دولتهم واختزال عمرها.

الأمر الثاني: محور المرأة

أما المرأة فكانت المرتكز الثاني والهام في حياة الثورة الحسينية، وفي استمرارها وديمومتها، وكان الدور الموكل إليها في استمرار هذه المعركة يدور حول محورين؛ أحدهما يتزامن مع المعركة الحربية، والثاني يبدأ دوره بعد انتهاء المعركة هذه. وهذان المحوران هما:

المحور الأوّل: دور بثّ الحميّة في المقاتلين

وهذا المحور تتمركز حوله وظيفة إسناد الرجل، وحثّه على ولوج المعركة في سبيل الدفاع عن الدين والعقيدة السماوية، ودفعه إلى الوقوف بوجه محاولات السلطات القائمة والهادفة إلى الرجوع بالأُمّة القهقرى عن دينهم، وصدّهم عن اتّباعه، وجرّهم إلى عالم الجاهلية.

ولعلّ أبرز مصداق لذلك المحاورة التي دارت بين السيدة زينب عليها السلام وبين أخيها أبي الفضل العباس عليه السلام بعد أن جاء عبد الله بن أبي المحلّ الذي كان ابن عمة العباس عليه السلام، وكان صديق عبيد الله بن زياد؛ ولذا فإنه أخذ للعباس عليه السلام ولإخوته من أُمّه أماناً من عبيد الله، بل وأمراً بتوليته أي عمل يريده للأمويين. فلمّا جاء بالأمان إلى العباس تبسّم عليه السلام وقال: «لا حاجة لنا في أمانكم، أمان الله خير من أمان ابن سمية». ثم أرسل إخوته لخالهم: «لعنك

الله وقبّح أمانك لئن كنت خالنا، أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له؟»[١].

وهنا قالت السيدة العقيلة(ع) لأخيها العباس بعد منصرفه من تلك المقابلة مع عبد الله بن أبي المحلّ، وكان(ع) قد رجع يتهدرس كالأسد الغضبان كما تقول الرواية: «أخي، أريد أن أحدثك بحديث». فقال لها: «حدثي يا زينب». فقالت: «اعلم يابن والدي، أنه لما ماتت أمّنا فاطمة(ع) قال أبي لأخيه عقيل: «أريد منك أن تختار لي امرأة من ذوي البيوت والشجاعة؛ حتى أصيب منها ولداً ينصر ولدي الحسين بطفّ كربلا». وقد ادّخرك أبوك لمثل هذا اليوم، فلا تقصّر يا أبا الفضل». فلما سمع العباس(ع) كلامها تمطى في ركاب سرجه حتى قطعه، وقال لها: «أفي مثل هذا اليوم تشجعينني، وأنا ابن أمير المؤمنين(ع)؟». فلما سمعت كلامه سُرّت سروراً عظيماً[٢].

وبهذا فإن السيدة العقيلة زينب(ع)، بل وكذلك غيرها من النساء قد قامت بهذا الدور، وأدّت هذه الوظيفة على أتم وجه.

المحور الثاني: الدور الإعلامي

وهذا هو الدور الأهم؛ فالإمام الحسين(ع) لم يكن يريد من المرأة أن تقتصر على الدور الأول فقط وإن كان دوراً كبيراً، بل إنه(ع) كان قد أعدّها إلى دور أكبر وأهم، هو ممارسة الدور الإعلامي في مرحلة ما بعد المعركة. فالإمام الحسين(ع) أراد أن يقدم الدماء والتضحيات على مذبح العقيدة والعزّة والكرامة ليتوّج بها شهادة من استشهدوا ومضوا ممّن سبقه

---

(١) انظر: تاريخ الطبري ٤: ٣١٤، مقتل الحسين (أبو مخنف): ١٠٣.

(٢) ليلة عاشوراء في الحديث والأدب: ١٩، عن ثمرات الأعواد ١: ١٦٧ ـ ١٦٨، وفيه أن تلك المقابلة مع الشمر.

من الأنبياء وأوصيائهم عليهم السلام. وإذا كان الأمر بهذه الأهمية، وبهذا المستوى من المسؤولية العالية فإنه لابدّ من تهيئة ما يضمن للثورة وللدم بقاءهما وديمومتهما واستقرارهما وإن لم تنجح الثورة عسكرياً. وهذا الأمر يتمثّل بالجانب الإعلامي للنهضة الإصلاحية.. الجانب الذي لعبت فيه المرأة دوراً هامّاً وكبيراً، وهو ما نستجليه من خطب الفواطم (رضي الله تعالى عنهن)، ومحاوراتهن مع أجلاف الكوفة والشام من أزلام النظام، سيّما ما قامت به السيدة زينب عليها السلام إبان رحلتي الكوفة والشام في قيود الأسر وأغلال السبي.

محطات المرحلة الإعلامية للسيدة العقيلة عليها السلام

ومن ذلك المحاروات التي وقعت بين السيدة العقيلة زينب عليها السلام وبين جلّاديها الذين لم تدع لهم مجالاً لأن تفصح لهم حجّة، أو يقوى لهم دليل أمام احتجاجاتها الداحضة، وردودها الدامغة، وعنفوان كلمتها التي تتلظّى لهيب ثورة يشتعل في نفوس أهل الحقّ إوارها، وسيل لسانها الهادر وهو ينحدر بمفردات مفعمة بالعزّ والمجد والشموخ.. شموخ الحقّ، وعنفوان مجد آل محمد صلى الله عليه وآله الذين ركزوا الدين لواءً في نفوس الناس بصلاحهم وأخلاقهم وإيمانهم وتقواهم وورعهم وقربهم من الله سبحانه وتعالى. وهكذا كانت ردوداً وقعها أشدّ من السهام في صدور يزيد وأتباعه ومماليه، وأكبر تأثيراً من المهنّدة البتر؛ لأنها إنما كانت صرخة مدوّية شقّت طريقها وسط ظلام الجهل الأموي، وشهاباً نيّراً يمخر عباب ليل الجاهلية الذي أرادوا له أن يخيّم على قلوب الناس. لقد كانت خطبها ومحاوراتها واحتجاجاتها عليها السلام صرخات تعترض وجود الظالمين فتحيله رماداً، وتستقبل صروحهم الأموية لتجعل منها عهناً

يتطاير أشلاء تتساقط تحت أقدامها الملائكية لتنقضها على أصحابها ممضية أمر الله فيهم كما كان جبرئيل(ع) يمضي أمره جلّ شأنه في قوم سدوم وعمورية.

وهذه المرحلة قد أولتها السيدة العقيلة زينب(ع) اهتماماً خاصّاً بوصية من أخيها الحسين(ع)؛ لما هي عليه من قيمة وأثر كبيرين في نظر الإمام(ع) كما أشرنا، ولكونها في الواقع مرحلة تجذير حركة الإمام الحسين(ع) الإصلاحية في المجتمع المسلم، وزرعها في نفوس المسلمين؛ لتغوص جذورها عميقاً في قلوبهم وعقولهم وأفكارهم.

ومما هو معروف أن رحلة السبا قد ابتدأت من كربلاء، وانتهت بالشام مروراً بالكوفة ثم بعد ذلك إياباً إلى الكوفة فالمدينة المنورة (على صاحبها وآله أفضل الصلاة وأتم السلام والتحية)، ولذا فإن كل منطقة من هذه المناطق كانت تمثّل مرحلة هامّة ومحطّة ذات عمق ثقافي راسخ وعريض في خط حركة الإعلام الحسيني المتمثّل بوصيه الإمام السجاد(ع) وأخته العقيلة زينب(ع) حيث يغوص في تخوم الأنفس والقلوب ليحتوي الخطاب الحسيني الهادف الذي أراد(ع) له أن يعيش من بعده وهو يتماهى مع مشاعر الناس.

وبما أن محاضرتنا هذه مختصّة بالمرأة ووظائفها وأدوارها داخل المجتمع متمثّلة بالسيدة الحوراء زينب(ع)، فإننا سوف نقتصر على دورها الإعلامي دون غيرها من روّاد حركة الإعلام الحسيني هذا[1]،

---

(١) كخطبة الإمام السجاد(ع) واحتجاجه على يزيد، انظر للإحتجاج ٢: ٣٨، وكخطبة فاطمة الصغرى واحتجاجها على أهل الكوفة. انظر للإحتجاج ٢: ٢٧ وخطبة أسماء بنت عقيل. انظر مناقب ٣: ٢٦٢، وخطبة ام كلثوم(ع). انظر مثير الأحزان: ٦٨.

فنقول: حاولت السيدة زينب عليها السلام أن تستغل كل موقف تمّر به أو تقفه مع سلاطين الجور، وتجيّره لصالح نـهضة الإمـام الحسـين عليه السلام الإصـلاحية.
وسوف نذكر هنا بعض هذه المواقف التي مرّت بالعقيلة عليها السلام، والتي يمثّل كل واحد منها محطّة هامّة في المرحـلة الإعـلامية للسـيدة زيـنب عليها السلام، وهي:

المحطة الأولى: كربلاء

حيث إنها عليها السلام حينما رأت خيول جيش ابن سعد تـطأ الجسـد الطـاهر والشريف لأخيها الإمام السبط المقدّس عليه السلام، خاطبت عمر بن سعد قائلة: «أما لهذا المسجّى من عشيرة؟ أما فيكم من مسلم يواري هذا الغريب؟ أما فيكم من أحد يواري هذا السليب؟».

المحطة الثانية: الكوفة

ويمكن أن نعالج المواقف الإعلامية للسيدة العقيلة زينب عليها السلام في هذه المحطّة على مرحلتين:

الأولى: مرحلة ما قبل دخولها على ابن زياد

يقول بشربن خزيم الأسدي: كنت واقفاً في انتظار مجيء السبايا، وقد خرجت الكوفة لهذا الغرض عن بكرة أبيها، وكـانت الحـال التـي عـليها السيدة زينب عليها السلام لا تسمح لها أن تتكلّم أو تخطب؛ لأنها ومن مـعها قـد مرّت بهم أيام لم يذوقوا فيها طعاماً ولا شراباً، فضلاً عن أنها كانت تعطي رغيفها الذي هو قسمُها من الطعام إلى الأطفال حيث تقسمه بينهم؛ لعدم كفاية الطعام، ولجوع الأطفال، لكـنها مـع ذلك ارتـقت مـرتفعاً هـناك، ووجهت كلامها لأهل الكوفة، فوالله لم أرَ خفرة قطّ أنـطق مـنها، كـأنما

تفرغ عن لسان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وقد أومأت إلى الناس أن اسكتوا. فارتدّت الأنفاس، وسكنت الأجراس، ثم قالت: الحمد لله، والصلاة على أبي محمد وآله الطيبين الأخيار.

أما بعد:

يا أهل الكوفة يا أهل الختل والغدر، أتبكون وتنتحبون؟ فلا رقأت الدمعة[1]، ولا هدأت الرّنّة، إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوّة أنكاثاً، تتّخذون أيمانكم دخلاً بينكم، ألا وهل فيكم إلّا الصلف والنطف، وملق الإماء وغمز الأعداء، أو كمرعى على دمنة، أو كفضة على ملحودة؟ ألا ساء ما قدمت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون. أتبكون وتنتحبون؟ إي والله فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً، فلقد ذهبتم بعارها وشنآنها، ولن ترحضوها بغسل بعدها أبداً وأنى ترحضون قتل سليل خاتم الأنبياء، وسيد شباب أهل الجنة، وملاذ خيرتكم، ومفزع نازلتكم، ومنار حجّتكم، ومدرة سنتكم؟ ألا ساء ما تزرون.

فتعساً ونكساً وبعداً لكم وسحقاً، فلقد خاب السعي، وتبّت الأيدي، وخسرت الصفقة، وبؤتم بغضبٍ من الله ورسوله، وضربت عليكم الذلّة والمسكنة.

ويلكم يا أهل الكوفة، أتدرون أي كبد لرسول الله صلى الله عليه وآله فريتم، وأي كريمة له أبرزتم، وأي دم له سفكتم، وأي حرمة له انتهكتم؟ لقد جئتم بهم صلعاء عنقاء سوداء فقماء خرقاء شوهاء، كطلاع الأرض وملاء

---

(١) رقأت الدمعة: جفّت وانقطعت. لسان العرب ١: ٨٨ـ رقأ.

السماء، أفعجبتم أن قطرت السماء دماً، ولعذاب الآخرة أخزى وأنتم لا تنصرون؟ فلا يستخفنكم المهل؛ فإنه لا تحفزه البدار، ولا يخاف فوت الثأر، وإن ربكم لبالمرصاد. لقد جئتم شيئاً إدّاً، تكاد السماوات يتفطّرن منه، وتنشقُّ الأرض، وتخرُّ الجبال هدّاً.

قال بشير: فوالله، لقد رأيت الناس يومئذٍ حيارى يبكون، وقد وضعوا أيديهم في أفواههم، ورأيت شيخاً واقفاً إلى جنبي يبكي حتى اخضلّت لحيته، وهو يقول: بأبي أنتم وأمي؛ كهولكم خير الكهول، وشبابكم خير الشباب، ونساؤكم خير النساء، ونسلكم خير نسل، لا يخزى ولا يبزى[1].

وهكذا فإنها عليها السلام قد أدّت دورها في هذه المرحلة في تذكير الناس بحقيقة مصرع آل النبي صلى الله عليه وآله، ونجحت في جعل المصيبة تعانق قلوبهم، بل وأفكارهم عبر زرع قيم ثورة السبط المخلّد فيهم، وتنبيههم إلى أسباب قيامها وأسباب فشلها عسكرياً. وقد أدت هذا الدور على أتم وجه وأدق وظيفة، بحيث إنها عليها السلام قد استقطبت أفكار الناس واهتمامهم، واسترعت أسماعهم بخطبتها حتى أضحوا حيارى يبكون كما مرّ بنا.

الثانية: مرحلة حوارها مع ابن زياد

ثم لما أُدخلت والسبايا إلى مجلس الطاغية اللعين ابن زياد بادرها اللعين بشماتته بها وبأهل بيتها، وبما آل إليه حالها وحالهم، وأراد أن يضلّل الناس عبر تصويره المسألة على أن الله تعالى هو من قتل الإمام

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٦١، الاحتجاج ٢: ٢٩، اللهوف في قتلى الطفوف: ٨٧. وأبزى: قُهر وغُلب. النهاية في غريب الحديث والأثر ١: ١٢٥ ـ بزا.

وأهل بيته وصحبه، وأنهم لو كانوا على حقّ لما انتصر عليهم جيشه، حيث قال لها: الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم، وأكذب أُحدوثتكم. فقالت زينب ﷺ: «الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد وطهرنا تطهيراً، إنما يفضح الله الفاسق ويكذب الفاجر». فقال: كيف رأيت صنع الله بأخيك والعتاة المردة من أهل بيته؟ فما كان من ابنة الفصاحة والبلاغة إلّا أن هبّت في وجهه مدافعة إياه، وقالت له: «أُولئك قوم كتب عليهم القتل، فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم، فتتحاكمون عنده، وتحاجّون إليه وتخاصمون عنده، فانظر لمن الفلج، هبلتك أُمّك يابن مرجانة».

فاستشاط ابن زياد غضباً، وأخذ سوطاً من محزم بعض الجالسين، وشقّ الصفوف ليضربها، فقال له عمرو بن حريث: أصلح الله الأمير، إنما هي امرأة، وهل تؤاخذ المرأة بشيء من منطقها؟ إنها لا تؤاخذ بقول، ولا تلام على خطل.

وهذا يعني أنه لا زال في المجتمع بقايا رجولة، فالمجتمع لم يمت كلّه بعدُ.

فقال لها ابن زياد: قد أشفى الله نفسي من طاغيتك والعصاة المردة من أهل بيتك. فقالت: «لعمري لقد قتلت كهلي، وأبرت أهلي، وقطعت فرعي، واجتثثت أصلي، فإن يشفِك هذا فقد اشتفيت»[1].

إذن فهو يصوّر المسألة لمن حضر مجلسه على أنها من تخطيط

---

(١) انظر: مثير الأحزان: ٧١، الأمالي - الشيخ الصدوق - ص ٢٣٠ - ٢٢٩
روضة الواعظين - الفتال النيسابوري - ص ١٩٠
الإرشاد - الشيخ المفيد - ج ٢ - ص ١١٥
تاريخ الطبري - الطبري - ج ٤ - ص ٣٤٩
تاريخ الطبري - الطبري - ج ٤ - ص ٣٥٠ - ٣٤٩.

السماء، وتحت رضاها ومباركتها؛ كي يُلبِس الأمر عليهم، ويوهمهم بمشروعية قتل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، وأن إخوتها قد تمرّدوا على الشرعية المتمثّلة من وجهة نظره بيزيد الفهود والخمر والقمار. فيزيد إذن هو منصّب السماء وحامل لوائها والحاكم باسم الإله، والإمام الحسين عليه السلام الذي هو ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، والذي لحمه لحمه ودمه دمه، وابن عليّ والزهراء عليهما السلام متمرّد مغتصب خارج على الشرعية. فكان أن جازاهم الله تعالى على فعلهم هذا بأن قتلهم على الصورة التي يحدثنا عنها التاريخ، والتي ينأى عن فعلها حتى الحيوان أن يفعلها بغيره فضلاً عن الإنسان؛ حيث قتلوا عليهم السلام، ومُثل بهم بوحشية وهمجية لا همجية بعدها، فيا للعجب؟ ويا لسخرية الدهر؟

المحطّة الثالثة: الشام

ومن هنا استمرّ كفاحها عليها السلام، فلا تكاد تمرّ ببلد إلاّ وصدحت فيه بخطبها البليغة التي تعانق مضامينها السماء رفعة وسمواً، ولا تكاد تهدأ أو تسكن حتى يكون لها خطبة مدوية، أو كلمة تهزّ عروش الطغاة، أو موقف يزعزع صروحهم ويدخل الوجل إلى قلوبهم، أو إشارة إلى مظلومية الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، مؤدية بذلك دورها كما رسمه لها الإمام الحسين عليه السلام.

وهكذا استمرت على هذا الأمر حتى استقرّ بها الحال في مجلس يزيد، وكانت خطبتها في مجلسه ذات أهمية سياسية عالية من خلال ما كانت تحاول عليها السلام أن تبرز ما خفي عن الناس الذين ختم يزيد على عقولهم، وكمّم أفواههم، وران على قلوبهم. فأرادت أن توصل الصوت إليهم حرّاً واضحاً مباشراً بعيداً عن اللف والتشويه، وعن تدليس السلاطين

وغاظهم حيث قالت له: «أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء؛ فأصبحنا نساق بين يديك كما تُساق الأُسارى أن بنا على الله هواناً وبك عليه كرامة، وأن ذلك لعظم خطرك عنده وجليل قدرك لديه، فشمخت بأنفك ونظرت بعطفك جذلانَ مسروراً حتى رأيت الدنيا لك مستوسقة، والأُمور لك متسقة؟ فمهلاً مهلاً، لا تطِش جهلاً، أنسيت قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[1]؟ أمن العدل يابن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك، وسوقك بنات رسول الله ﷺ سبايا قد هُتكت ستورهن، وأُبديت وجوههن؟»[2].

المحطّة الرابعة: المدينة المنوّرة

ثم لمّا عادت ﷺ إلى المدينة المنوّرة راحت تمارس دورها نفسه وبالحيوية نفسها، فرجوعها إلى مدينة جدّها ﷺ لا يعني بحال من الأحوال انتهاء ذلك الدور أبداً، فالدور والوظيفة لم يتوقّفا أبداً. وهكذا استمرت ﷺ على منوالها نفسه، فكانت لا تمرّ بها لحظة إلاّ وهي تستحضر فيها تلك المصارع، فتوقد أتون مشاعر الناس بخطبها التي تذكّرهم عبرها بمظلومية أبي عبد الله الحسين ﷺ، وبجور السلطة الأُموية الحاكمة، والناس يستمعون إليها مأخوذين بفصاحتها، ومبهورين بقابليتها على توظيف المفردة لتكون مدفعاً يقاتل الظالمين، أو كلمة حقّ تهزّ عروشهم وتزلزل صروحهم[3].

---

(١) آل عمران: ١٧٨.

(٢) الاحتجاج ٢: ٣٥، اللهوف في قتلى الطفوف: ١٠٦، بحار الأنوار ٤٥: ١٣٤، ١٥٨.

(٣) والدليل على تأثير خطبها الشريفة في الناس أن يزيد بعد أن أمر بإرجاعهن إلى المدينة،

يزيد يهجّر العقيلة عليها السلام من المدينة

وهذه الخطب التي كانت الحوراء زينب عليها السلام تلقيها في المدينة مؤجّجة فيها نفوس الناس؛ كي تتمّم دورها الذي بدأته هي السبب وراء إبعاد يزيد لها من المدينة المنوّرة، وتهجيرها منها، فقد جاء في كتاب (الزينبات) روايات مفادها أن زينب الكبرى عليها السلام لما جاءت إلى المدينة كانت تحرّض الناس على الأخذ بثار الحسين عليه السلام، فأبلغ خبرها والي المدينة إلى يزيد، فأمر يزيد بإخراجها من المدينة مع من تشاء من نساء بني هاشم إلى مصر، وكان واليه على المدينة قد كتب له: إن كانت لك بالمدينة حاجة فأخرج زينب منها.

ففعل ما طلب منه، وجهزها إلى مصر، فلما وردتها أقامت فيها أحد عشر شهراً وخمسة عشر يوماً، وتوفيت (سلام الله عليها) بها في (١٥ / ٧ / ٦٢)هـ[1].

وفي بعض الروايات أنها عليها السلام أخرجت إلى الشام، فحصل لها ما روى المؤرخون أنه حصل لها في مصر، وماتت هناك (سلام الله عليها).

أرسل معهن رجلاً من الشام ليصحبهن، فكان أن أحسن صحبتهن بعد أن عرف حقيقة الحال، فكان يسايرهم ويكون أمامهم، فإذا نزلوا تنحّى عنهم وتفرق هو وأصحابه كهيئة الحرس، وكان ينزل بهم حيث أراد أحدهم الوضوء، ويعرض عليهم حوائجهم، ويلطف بهم حتى دخلوا المدينة، فقالت فاطمة بنت علي عليه السلام لأختها زينب عليها السلام: قد وجب علينا حق هذا: لحسن صحبته لنا، فهل لك أن نصله؟ فقالت: «والله، ما لنا ما نصله به إلّا أن نعطيه حليّنا». فأخذت سواري ودملجي وسوار أختي ودملجها فبعثنا بها إليه، واعتذرنا من قلّتها، وقلنا: هذا بعض جزائك لحسن صحبتك إيانا. فقال: لو كان الذي صنعته للدنيا كان في دون هذا رضاي، ولكن والله ما فعلته إلّا لله ولقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وآله. مقتل الحسين عليه السلام: ٢١٦، بحار الأنوار ٤٥: ١٤٥ ـ ١٤٦، البداية والنهاية ٨: ٢١٢.

(١) عنه في مستدركات علم رجال الحديث ٨: ٥٧٨.

الخلاف حول موضع قبر زينب ﷺ

إذن فقد اختُلف في موضع قبرها ﷺ ، فهناك مجموعة من الروايات الوثيقة التي تقول بأنها قد دفنت في مصر، وهناك مجموعة من الروايات الأُخرى مثلها تقول بأنها مدفونة في الشام، لكن القدر المتيقن أن كلا القبرين الشريفين لبنات عليّ؛ فواحد لأُخت الحسين ﷺ والثاني لابنته، لكن أي قبر هو للعقيلة، وأي قبر هو لبنت الإمام الحسين ﷺ؟ هذا ما ليس مقطوعاً به؛ لأن الروايات في هذا الخصوص تكاد تكون متكافئة، فهناك مجموعة منها تذهب إلى جانب في مقابل مجموعة أُخرى تكافئها وتذهب إلى خلافها.

وعلى أي حال فأنا لا أرى أن هذا الموضوع يستحقّ كبير اهتمام؛ فالقبر الشريف أينما كان فهو يمثّل منارة من منارات الإسلام التي رُفعت في وجه الظلم واالطغيان، فضلاً عن أن من يقصدها ﷺ ليزورها يذهب وهو لا يريد أن يزور عظاماً أو تراباً، بل إنه يريد أن يقف على القيم والمبادئ والحسّ الثوري المتمثّل بصاحبة هذا القبر. فهو يقف على رمز يمثّل هذه البطلة العظيمة التي لعبت دوراً خطيراً وهاماً في واقعة الطف على أكمل حال وأتمّ وجه، وليس على رمس من تراب، أو عظام كما أسلفنا.

إذن فزينب ﷺ تبقى هي زينب ابنة البطولة القيم والمبادئ والتضحية، وستظل هي زينب التي تعيش في المشاعر والقلوب والأفئدة، وستبقى رمز البطولة وصوتاً من أصوات أمير المؤمنين ﷺ الفاعلة في الساحة، وهو صوت سيعيش أبداً على رغم أُنوف أعداء الله وأعداء رسوله؛ سواء كان الضريح هنا أو هناك.

الحزن في حياة العقيلة عليها السلام

ثمّ لو أننا تتبّعنا حياة السيدة العقيلة عليها السلام ، لوجدنا أنها بعد واقعة الطف جعلت منها حياة ذات شطرين:

الأوّل: شطر الدعوة إلى الأخذ بثار الإمام الحسين عليه السلام، وهو الأمر الذي قامت به، و الذي مارسته عبر خطبها واحتجاجاتها عليها السلام كما رأينا، حيث سعت عليها السلام إلى تأكيد قيم الحركة الإصلاحية لأخيها عليه السلام ، وإلى ترسيخها في نفوس الناس.

الثاني: شطر الحزن على مصاب أخيها عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، بسبب تلك الطريقة الوحشية التي مورست بحقّهم؛ قبل استشهادهم، وبعده. ولذا فإنها عليها السلام إذا ما جنّ عليها الليل تروح تجول في دار أخيها الحسين عليه السلام ، وتمرّ بمحاريبها الخمسة التي هي لأبيها ولإخوتها، فتقف عند هذا المحراب ساعة، وعند ذلك المحراب ساعة، ثم تندب وتقول:

منازل كانت نيّرات بأهلها ... تولّى عليها غبرة وقتامُ

ألا لا تزان الدار إلّا بأهلها ... على الدار من بعد الحسين سلامُ

وعيناها لا تكادان تُبارحان مواضعها، بل تتفحّصان كل زاوية فيها؛ فهنا كان مجلس أبيها أمير المؤمنين عليه السلام ، وهاهنا كان مجلس الحسن عليه السلام ، وهناك مجلس الحسين عليه السلام، والعباس عليه السلام ، وهاهنا مصلّى الحسين عليه السلام ، وهاهنا موقفه ، فلا تهدأ لها جارحة، ولا يسكن لها نَفَس، ولا ترقأ لها دمعة حتى الصباح:

وين اليامر وينهى ... والمظلوم يتعنّاه

لقد كانت هناك علاقة خاصّة بين الإمام الحسين عليه السلام وبين أُخته الحوراء

زينب ﷺ، فمنذ أن ولدا و هما يلعبان معاً، وقد ترعرعا في هذه الدار، ودرجا على ترابها وأعتابها، وكبرا في حجر أمير المؤمنين ﷺ وحجر فاطمة الزهراء ﷺ، فما بارحته ولا بارحها طيلة حياته، وإذا بها تفقده فجأة، ولم تعد قادرة على أن تراه، فأخذ هذا الفراغ الذي أحدثه فراقه وفقده مأخذاً كبيراً من حياتها:

يا تالي هلي يحسين ما تنشد بعد عني
يانور الذي بالعين يضنيها السقط مني
ماغيّر اهدوم السود ولا يضحك بعد سني

وكانت في بعض الحالات تتجه إلى خارج الدار، حتى لاتهيج شجن العائلة وآلامها، فتقصد قبر النبي ﷺ، أو تقصد البقيع لتندب أخاها بعد منتصف الليل:

منهو انصدع يا بين صدعي لهدات تسعر تحت ضلعي
أخبي عن الشمّات دمعي واضمّ ونّتي حتى على سمعي

* * *

أحمى الضائعات بعدك ضعنا في يدِ النائبات حسرى بواد



الفهرس الإجمالي

الفهرس التفصيلي

الفصل السابع: أهل البيت عليهم السلام

الفصل الثامن: الإمام الصادق﵇

الفصل التاسع: الإمام الكاظم عليه السلام

الفصل العاشر: الإمام الرضا عليه السلام

الفصل الحادي عشر: الإمام الجواد عليه السلام

الفصل الثاني عشر: الامام الهادي عليه السلام

الفصل الثالث عشر: الإمام العسكري عليه السلام

الفصل الرابع عشر: الحجة عليه السلام

الفصل الخامس عشر: مسلم بن عقيل

الفصل السادس عشر: أعلام عليهم السلام



باسمه تعالى

قائمة منشورات شركة دار المصطفى(ص) لإحياء التراث

اسم الكتاب	المؤلف	الموضوع
إرشاد البشر في شرح الباب الحادي عشر	الشيخ سليمان آل عبد الجبار	عقائد
انتخاب الجيد من تنبيهات السيد	الشيخ حسن الدمستاني البحراني	رجال
ترتيب كتاب مسائل علي بن جعفر(ع)	الشيخ ناصر الجارودي القطيفي	حديث
خالق الكون	الشيخ ناصر مكارم الشيرازي	
الدرر النجفية ١/ ٤	الشيخ يوسف البحراني	
دروس في الكفاية ١/ ٧	الشيخ المحمدي البامياني	شرح الكفاية مع النص
الدعوة في كلمة التوحيد	الشيخ محمد صالح آل مبارك	مناقشات عقائدية
رسائل آل طوق القطيفي ١/ ٤	الشيخ أحمد بن صالح آل طوق	فقه وعقائد
رائق الضمير ١/ ٣	الشيخ عبد الحميد المرهون	مجالس حسينية
رسائل البدر	الشيخ حسن علي البدر	رسائل فقه وأصول ومنطق
رسائل الفاضل القطيفي	الشيخ إبراهيم الفاضل القطيفي	رسائل فقهية وكلامية
رسالتان في إعراب (صلّى الله عليه وآله)	الشيخ أحمد آل طوق	رسالتان نحويتان

اسم الكتاب	المؤلف	الموضوع
الروضة العلية في شرح التحفة الدمستانية	الشيخ محمد علي الجشي	علم كلام
روضة المتقين في شرح الفقيه ١/ ١٩	الشيخ محمد تقي المجلسي الأول	شرح من لا يحضره الفقيه
رياض العلماء الورعين ١/ ٢	الشيخ علي البلادي البحراني	شرح أربعين حديثاً ورسائل
سعادة الدارين في الإمام الحسين(ع)	الشيخ حسين البلادي البحراني	السيرة الحسينية
سيرة أهل البيت(ع) ١/ ٣	إعداد الشيخ مصطفى المرهون	محاضرات الشيخ الوائلي
شرح الحلقة الثالثة ١/ ٦	الشيخ حسن فياض العاملي	أصول
شرح الدرة اليتيمة	الشيخ عبد الحميد آل مرهون	نحو
شعراء القطيف	الشيخ علي المرهون	
الفرقة الناجية	الشيخ إبراهيم الفاضل القطيفي	عقائد
الفوائد	الشيخ علي آل عبد الجبار	كشكول
القضاء الإسلامي	الشيخ محمد صالح آل مبارك	فقه استدلالي
مجالس من التفسير	الشيخ عبد الحميد آل مرهون	
مجلة التراث المجلد الأول ١/ ٢	دار المصطفى ـ قم	مجلة فصلية تعنى بتراث وآثار علماء بلدان البحرين التاريخية
مجلة التراث المجلد الثالث	دار المصطفى ـ قم	
مجلة التراث المجلد الثاني	دار المصطفى ـ قم	
محاضرات الوائلي ١/ ١٥	إشراف الشيخ مصطفى المرهون	
محاضرات الوائلي ١/ ٣	إشراف الشيخ مصطفى المرهون	
محاضرات الوائلي ٤/ ٦	إشراف الشيخ مصطفى المرهون	

اسم الكتاب	المؤلف	الموضوع
محاضرات الوائلي ٧/ ٩	إشراف الشيخ مصطفى المرهون	
محاضرات الوائلي ١٠/ ١٢	إشراف الشيخ مصطفى المرهون	
محاضرات الوائلي ١٣/ ١٥	إشراف الشيخ مصطفى المرهون	
المرأة في الإسلام	إعداد الشيخ مصطفى المرهون	محاضرات الشيخ الوائلي
مناظرات في العقائد والأحكام ١/ ٤	الشيخ عبد الله الحسن	عقائد وأحكام
منهاج الوصول ١/ ٢	الشيخ رضا الأحمدي	شرح مباحث الألفاظ من الحلقة
نعمة المنان في إثبات صاحب الزمان	الشيخ أحمد بن صالح آل طوق	
الهادي إلى الرشاد في شرح الإرشاد	الشيخ إبراهيم الفاضل القطيفي	شرح مجمل لإرشاد العلامة
هداية العقول في فقه آل الرسول ١/ ٢	الشيخ محمد صالح آل مبارك	فقه استدلالي
هدي العقول ١/ ٩	الشيخ محمد آل عبد الجبار	شرح أصول الكافي
وارثة خديجة أم سلمة	الشيخ نزار آل سنبل	سيرة أم المؤمنين أم سلمة
الوفيات	الشيخ حسين القديحي	



باسمه تعالى

قائمة منشورات مؤسسة الهداية

اسم الكتاب	المؤلف	الموضوع
آداب الحرمين	الشيخ علي المرهون	
الأربعة التي في الينابيع	الشيخ عبد العظيم الشيخ	
أربعون الوالد وملاحق قديمة	الشيخ عبد العظيم الشيخ	
أصول العقائد للشباب	الشيخ ناصر مكارم الشيرازي	
أعمال شهر رمضان	الشيخ علي المرهون	
أنوار الكاظمين	الشيخ عبد العظيم الشيخ	
أنوار البدرين ١/ ٣	الشيخ علي البلادي	
التعددية وثقافة الاختلاف	الشيخ إبراهيم إسماعيل البحراني	
الجذوة في شعر أم الحمام	الشيخ عبد الحميد المرهون	
الجمع بين الصلاتين نصوص وبحوث	الشيخ عبد العظيم الشيخ	
الجمع بين الصلاتين والسرداب	الشيخ عبد العظيم الشيخ	
حول الإنسان	الشيخ عبد الحميد المرهون	
دليل الناسك لمعرفة المناسك	الشيخ إبراهيم إسماعيل البحراني	آراء ثمانية مراجع
ديوان الزائريات	الحاج حسين الزاير	شعر
ديوان الكوفي	الحاج أحمد بن سلمان الكوفي	شعر
ديوان زند الشبوخ	الحاج عبد الكريم العواء	

الموضوع	المؤلف	اسم الكتاب
مجموعة قصصية	حسن عبد الله غزوي	ذات الابتسامة الخجولة
	الأستاذ علي الشيخ حسين	ذكرى أبي ١ / ٢
تراجم شعراء	الشيخ عبد الحميد المرهون	سطور النور في ذكرى الشيخ منصور
	الشيخ حسين القديحي	سفينة المساكين في مختصر أعمال شهر رمضان
في مراثي أهل البيت	الحاج عيسى آل عبد رب النبي	سلوة الولهان في رثاء سادات الزمان
		شذرات من حياة وشعر العلامة ابن معتوق
	الشيخ إبراهيم إسماعيل البحراني	الشورى في الإسلام
	الحاج علي المقيلي	عبقات من ذكرى أبي
	محمد مهدي	العلاقات الزوجية
	آل الزاير	العلامة البيات شيخ المتهجدين
مجموعة قصصية	فاطمة أحمد الشيخ	عندما تشرق الشمس
	الشيخ أحمد آل طعان	قبسة العجلان في وفاة غريب خراسان
	الشيخ عبد العظيم الشيخ	قرة العين في الجمع بين الصلاتين
في مراثي أهل البيت	الشيخ راضي آل مرهون	كسب الثواب
	الحاج عبد الله بن حيان	كشكول ابن حيان
	الشيخ إبراهيم إسماعيل البحراني	كيف تسعد حياتك الجنسية
	محمد مهدي	لكي تسعد الحياة الزوجية
	الشيخ علي الحبشي	المجموعة الشعرية الكاملة للعلامة الحبشي
	الشيخ إبراهيم إسماعيل البحراني	معجم المصطلحات الفقهية (ملون)
مجموعة قصصية	حسن عبد الله غزوي	معشوقتي خرساء
شرح أصول المظفر	الشيخ إبراهيم إسماعيل البحراني	المفيد في شرح أصول الفقه ١ / ٢
	الشيخ حسين القديحي	مقتضى الزمان في مختصر أعمال شهر رمضان
	الشيخ عبد الحميد المرهون	من سيرة الحسين (ع)

اسم الكتاب	المؤلف	الموضوع
من فقه المرأة في أحكام الدماء الثلاثة	الشيخ إبراهيم الشهركاني البحراني	
من وحي القلم ج٢	السيد حسن العوامي	
الموجز في مقامات أهل البيت (ع)	الشيخ عبد العظيم المشيخص	
نيل الأماني	الحاج عبد الكريم عبيدان	
هبة السلام العلام	الشيخ عبد العظيم الشيخ	

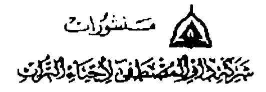


صدرت المجموعة الخامسة

الجزء ١٣ - الجزء ١٥

مـــن





صدر حديثاً دورة في ١٥ مجلداً

من كتاب



منشورات
شركة دار المصطفى لإحياء التراث

ترقبوا بإذن الله

صدور المجموعة السادسة

الجزء ١٦ - الجزء ١٨

مـــن



